الحرب الداخلية

التاريخ السري للبيت الأبيض
بين عامي ٢٠٠٦ - ٢٠٠٨

بوب ودوارد

نقله إلى العربية

معين الإمام





الحرب الداخلية

الحرب الداخلية

التاريخ السري للبيت الأبيض

بين عامي 2006 – 2008

بوب ودوارد

نقله إلى العربية

معين الإمام



كتب أخرى للمؤلف

- «حالة إنكار»
- «الرجل السري»
- «خطة الهجوم»
- «بوش محارباً»
- «مايسترو»
- «الظل»
- «الخيار»
- «الأجندة»
- «القادة»
- «الستار»
- «التوتر والإثارة»
- «الإخوان» (مع كارل بيرنستاين)
- «الأيام الأخيرة» (مع كارل بيرنستاين)
- «رجال الرئيس كلهم» (مع كارل بيرنستاين)

المحتويات

ملحوظة للمؤلف

قدم لي برادي دينيس وإيفلين دويغ -بمواهبهما الاستثنائية- مساعدة كبيرة في صياغة فكرة هذا الكتاب، وجمع مادته، وكتابته، وتحريره، وتنقيحه.

في أوائل عام 2007، وافق برادي، خريج جامعة نورث كارولينا (2000) والمراسل المتمرس لصحيفة بيترسبيرغ تايمز، على العمل معي بدوام كامل. برادي توليفة نادرة تجمع الكاتب الموهوب والصحفي الفذ الجريء الذي يتمتع بمهارات السرد الروائي والتحقيق الاستقصائي. كان برادي، المتشبث العنيد باستقلاليته، والمتميز بالحكمة وسعة الحيلة، قوة محركة للمنطق السليم والحكم السديد، مجداً لا يكل ودؤوباً لا يمل، ومصراً دوماً على النزاهة والموضوعية والدقة. برادي مراسل صلب عنيد، يتميز بروح مترعة بالأصالة والأخلاق. أما كرمه وسخاؤه، وطبيعته الهادئة الوادعة، وروح الدعابة التي يتحلى بها، فقد جعلت الأيام الطويلة تبدو قصيرة، والعقبات الكأداء سهلة يسيرة. حين عملنا معاً، اعتمدت عليه اعتماداً شديداً ووثقت به ثقة عمياء. كان إيجابياً على الدوام، وذكرني بمعلمي وناصحي في صحيفة واشنطن بوست، بن برادلي، فلا بد أنه كان مثله في سنوات شبابه. لا أجد الكلمات التي تعبر عن إعجابي بكل منهما. لقد كان برادي شريكاً موثوقاً، وما كان للكتاب أن يرى النور لولا جهوده. آمل أن يدرك هذه الحقيقة.

تستطيع إيفلين دويغ، خريجة جامعة جورج واشنطن -قسم اللغة الإنكليزية والكتابة الإبداعية (2007)، بما أوتيت من عبقرية فذة ومعرفة عميقة بوسائل الإعلام القديمة والجديدة، إجراءَ بحث استقصائي عن أي موضوع وأي شخص. ففي مدة سنة واحدة، اكتسبت فهماً شاملاً لحكومة الولايات المتحدة وحرب العراق. نسخت المقابلات المسجلة التي امتدت مئات الساعات مع الشخصيات التي التقيت بها كلها: بدءاً بالرئيس بوش

ومسؤولي الحكومة، والبيت الأبيض، وانتهاء بضباط المؤسسة العسكرية والاستخبارات. تميزت إيفلين بالجد والدأب والاهتمام والمعرفة، وأضافت قيمة كبيرة إلى كل صفحة من كل مسوّدة. وكل من يظن أن الجيل الشاب لا يقدّر قيمة الأدب والتاريخ وأهمية الأحداث الراهنة لا يعرف إيفلين. كتبت إيفلين ولما تبلغ الثالثة والعشرين مسرحيةً من فصل واحد بعنوان «صقور الليل» وأنتجتها للمسرح. اعتمدت القصة على لوحة إدوار هوبر الشهيرة التي تصور أربع أرواح وحيدة تتناول العشاء في الهزيع الأخير من الليل. وجمعت توليفة من الغموض المدهش والحداثة والواقعية الصارخة. أعلم تمام العلم أنها ستكون كاتبة مجلية في المستقبل. تتمتع إيفلين بقدرة مدهشة على التصحيح والتحرير والتنقيح، وهي مترعة بالعزيمة والجلد والفضول الفكري. أعدُّ إيفلين صديقتي مدى الحياة، ولن يحظى المرء إلا بحفنة قليلة من أمثالها.

الشخصيات الرئيسة

رئيس الولايات المتحدة

جورج دبليو. بوش

نائب رئيس الولايات المتحدة

ديك تشيني

وزير الخارجية

كوندوليزا رايس — 26 كانون الثاني 2005

كولن باول — 20 كانون الثاني 2001 - 26 كانون الثاني 2005

وزير الدفاع

روبرت غيتس — 18 كانون الأول 2006

دونالد رمسفيلد — 20 كانون الثاني 2001-18 كانون الأول 2006

مستشار الأمن القومي

ستيفن هادلي — 26 كانون الثاني 2005

كوندوليزا رايس — 22 كانون الثاني 2001 - 26 كانون الثاني 2005

المؤسسة العسكرية الأمريكية القائد العام – القوة المتعددة الجنسية - العراق

الجنرال ديفيد بترايوس	10 شباط 2007
الجنرال جورج كيسي	1 تموز 2004 – 10 شباط 2007

قائد القيادة المركزية الأمريكية

الأدميرال وليام فالون	16 آذار 2007 - 11 آذار 2008
الجنرال جون أبي زيد	[1] 7 تموز 2003 – 16 آذار 2007

قائد الوحدات التكتيكية المتعددة الجنسية-العراق

الجنرال ريموند أوديرنو	14 كانون الأول 2006 - 8 شباط 2008
الجنرال بيتر تشياريللي	19 كانون الثاني 2006 - 14 كانون الأول 2006

رئيس هيئة أركان الجيش

الجنرال جورج كيسي	10 نيسان 2007
الجنرال بيتر شوميكر	1 آب 2003 - 10 نيسان 2007

رئيس هيئة الأركان المشتركة

الأدميرال مايكل مولين	1 تشرين الأول 2007
الجنرال بيتر بيس	30 أيلول 2005 - 1 تشرين الأول 2007

وكالة استخبارات الدفاع

ديريك هارفي

نائب قائد أركان الجيش سابقاً

الجنرال المتقاعد جاك كين	25 حزيران 1999 - 2 تشرين الأول 2003

---

1 بقيت كلمة (أبي) في «جون أبي زيد» على حالها؛ لأنها علم على الاسم. وهذا في الكتاب كله.

وزارة الخارجية

مستشار وزارة الخارجية

فيليب زيليكو	1 شباط 2005 - 19 كانون الأول 2006

كبير مستشاري وزارة الخارجية /منسق شؤون العراق

ديفيد ساترفيلد	1 آب 2006

سفير الولايات المتحدة في العراق

ريان كروكر	29 مارس 2007
زلماي خليل زاد	22 حزيران 2005 - 29 آذار 2007
جون نيغروبونتي	28 حزيران 2004 - 21 نيسان 2005

مجلس الأمن القومي

نائب مستشار شؤون الأمن القومي

جي. دي. كراوتش	31 كانون الثاني 2005 - 4 أيار 2007

نائب مستشار شؤون الأمن القومي للعراق وأفغانستان

ميغان أوسوليفان	3 تشرين الثاني 2005 - 2 نيسان 2007

مجموعة دراسة الوضع في العراق (لجنة بيكر-هاملتون)

ديمقراطيون	جمهوريون
لي هاملتون (رئيس مشارك)	جيمس بيكر (رئيس مشارك)
فيرنون جوردان	لورنس إيغلبرغر
ليون بانيتا	روبرت غيتس
وليام بيري	إدوين ميز
تشارلز روب	ساندرا داي أوكونور
	ألان سيمبسون

العراقيون

رئيس وزراء العراق

نوري المالكي	20 أيار 2006
إبراهيم الجعفري	3 أيار 2005 - 20 أيار 2006
إياد علاوي	28 حزيران 2004 - 3 أيار 2005

الزعماء الشيعة

عادل عبد المهدي، نائب رئيس الجمهورية

موفق الربيعي، مستشار شؤون الأمن القومي

عبد العزيز الحكيم، رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (المجلس الأعلى الإسلامي العراقي)

الزعماء السنة

طارق الهاشمي، نائب رئيس الجمهورية

عدنان الدليمي، رئيس جبهة التوافق العراقية

الشيخ أحمد أبو ريشة، رئيس مجلس الصحوة العراقية

الزعماء الأكراد

جلال الطالباني، رئيس جمهورية العراق

مسعود البرزاني، رئيس إقليم كردستان

برهم صالح، نائب رئيس مجلس الوزراء

قائد جيش المهدي

مقتدى الصدر

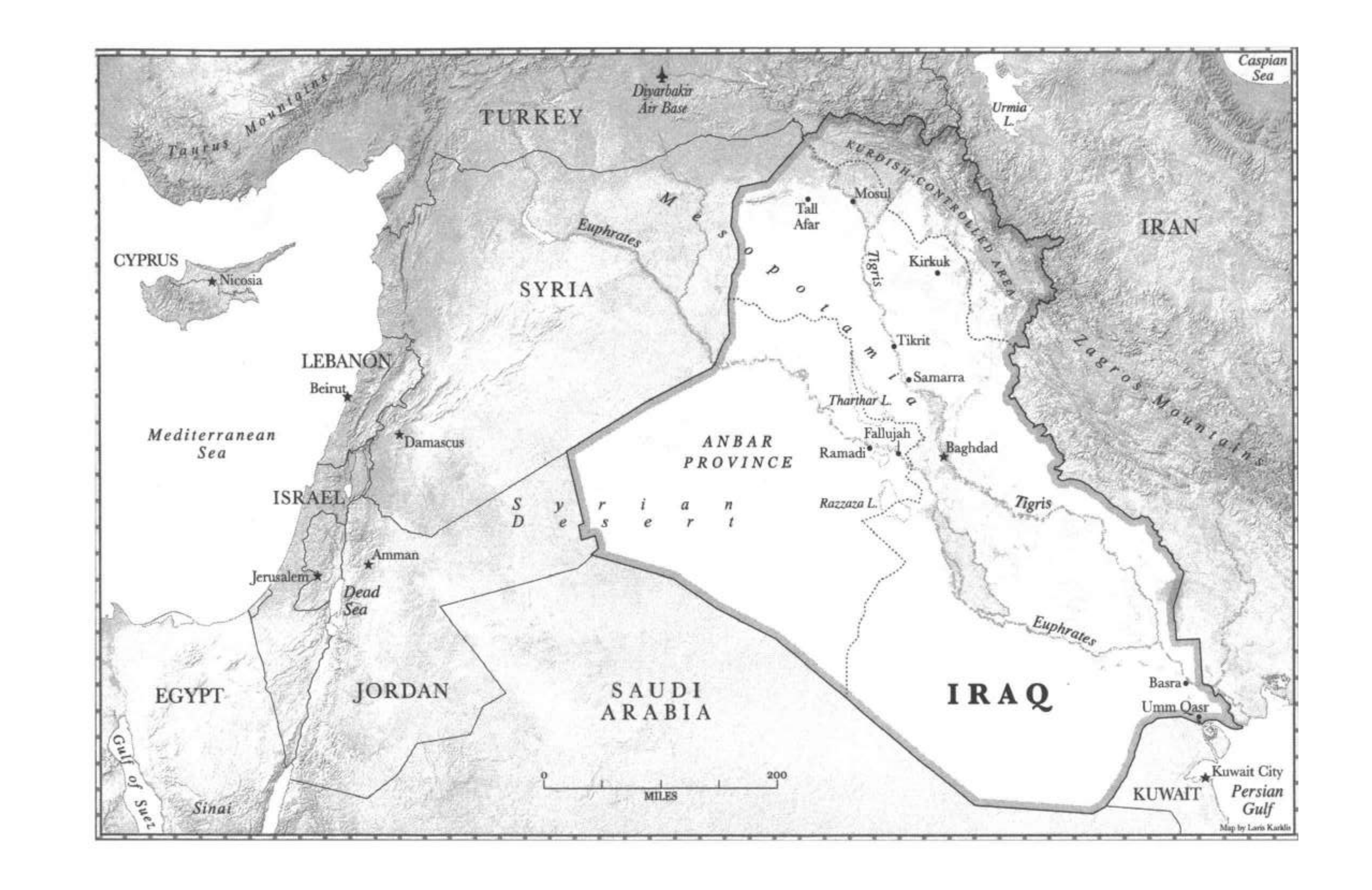
مؤسس القاعدة في العراق

أبو مصعب الزرقاوي	قتل في 7 حزيران 2006

رئيس العراق السابق والأمين العام لحزب البعث

صدام حسين	16 تموز 1979 - 9 نيسان 2003 أعدم في 30 كانون الأول 2006

الجزء الأول


Caspian Sea
Diyarbakir Air Base
Urmia L.
TURKEY
Taurus Mountains
KURDISH-CONTROLLED AREA
Mosul
Tall Afar
IRAN
Mesopotamia
Euphrates
Tigris
Kirkuk
CYPRUS
Nicosia
SYRIA
Tikrit
LEBANON
Samarra
Zagros Mountains
Beirut
Tharthar L.
Mediterranean Sea
Damascus
ANBAR PROVINCE
Fallujah
Ramadi
Baghdad
ISRAEL
Syrian Desert
Razzaza L.
Tigris
Amman
Jerusalem
Dead Sea
Euphrates
Basra
EGYPT
JORDAN
SAUDI ARABIA
IRAQ
Umm Qasr
Gulf of Suez
0
200
MILES
Kuwait City
KUWAIT
Persian Gulf
Sinai
Map by Laris Karklis

تمهيد

في الثالث عشر من حزيران 2006، وقف جورج دبليو بوش على شرفة السفارة الأمريكية في بغداد. مضت قرابة ست سنوات على رئاسته وثلاث سنوات ونيف على حرب العراق. قدم بالطائرة ليلاً في زيارة مفاجئة إلى رئيس الوزراء العراقي الجديد. ومع ذلك الرهان كله الذي وضعه على العراق، حيث أصبح النجاح أو الفشل جوهر ميراثه ولب تركته، بدا بوش متشوقاً إلى لقاء الرجل الذي انتظره – من جوانب عديدة – منذ الغزو.

خيم على العاصمة العنيفة القائظة ضباب ما بعد الغروب. وتنحى الرئيس جانباً لإجراء حديث خاص مع الجنرال جورج كيسي قائد القوات الأمريكية في العراق، التي يبلغ عديدها مئة وخمسين ألفاً. الجنرال كيسي (57 سنة) رجل معتدل القامة (173 سم) رقيق الصوت، اعتاد أن يحلق شعره الذي غزاه الشيب على طريقة مشاة البحرية (المارينز)، ويضع نظارة بإطار معدني رقيق. كان نظام المناوبة مطبقاً على الوحدات العسكرية الأمريكية، ونادراً ما خدمت أي وحدة أكثر من سنة متواصلة، لكن كيسي بقي سنتين يشرف على الوحدات كلها، ويحاول فهم – وإنهاء – هذه الحرب المجنونة في هذه الأرض التي تصيب بالجنون.

أتت بعض الأخبار الإيجابية من العراق حديثاً. فقبل أسبوع، قتلت القوات الأمريكية أبا مصعب الزرقاوي، الرجل الذي عينه أسامة بن لادن «أميراً على القاعدة في العراق»، وقائداً لعمليات المقاومة داخل البلاد. وفي الشهر الفائت، بعد ثلاثة انتخابات وشهور من التأخير، تسلم نوري المالكي منصب أول رئيس وزراء (دائم) في العراق.

والآن، في غسق بغداد اللافح، أشعل كل من الرئيس والجنرال سيجاراً.

قال بوش ملحاً ومكرراً شعاره الذي يتشبث به سراً وجهراً: «يجب أن نفوز». سمع كيسي عبارة الرئيس عشرات المرات.

أجاب: «أنا معك. أتفهم ذلك. لكن إذا أردنا الفوز فعلينا أن نخفض عدد قواتنا إلى مستويات قابلة للاستدامة والاستمرار ومناسبة لنا ولهم».

شعر كيسي أن العراقيين، وهم شعب فخور ومعتد بنفسه ومقاوم للاحتلال الغربي، يحتاج إلى تسلم زمام الأمور. فالقوة الأمريكية الضخمة والمرئية هي في نهاية المطاف علامة دالة على الازدراء والإذلال. والأسوأ أن إطالة أمد الاحتلال تجعل العراقيين اتكاليين. وفي كل مرة تصل فيها قوات أمريكية جديدة، سرعان ما تصبح ضرورية ولا غنى عنها. الشعب العراقي بحاجة إلى استعادة بلده واحترامه ذاته، وهذه من العوامل المركزية المهمة في الثقافة العربية. يحتاج العراقيون إلى خوض حربهم بأنفسهم وإدارة حكومتهم بأيديهم؛ وهم مغيبون عن المجالين كليهما.

أمعن كيسي النظر في وجه بوش، الذي غزته التجاعيد الآن وفضحت عمره البالغ تسعة وخمسين عاماً، وبدت عينه اليمنى أصغر حجماً من اليسرى تحت الحاجبين الأشيبين. كان الجنرال يطالب بتخفيض عدد القوات منذ سنتين. وفي حين وافق الرئيس دوماً على الإستراتيجية، إلا أنه لم يعد مقتنعاً بحجة كيسي.

قال الجنرال: «أعلم أن علي بذل جهد لإقناعك بوجهة نظري، لكنني على قناعة تامة بها».

لاحت أمارات الشك على وجه بوش.

أضاف كيسي: «أحتاج إلى شرح المسألة بأسلوب أفضل، وتفسير السبب الذي يجعل الفوز يعني الانسحاب».

رد بوش: «عليك فعل ذلك».

استنتج كيسي منذ مدة طويلة أن الرئيس نفسه يجسد واحدة من أكبر مشكلات الحرب العويصة. وأبلغ زميلاً له سراً فيما بعد أنه يشعر أن الرئيس يعبر عن «الجناح المتطرف في الحزب الجمهوري الذي يصرخ باستمرار 'اقتل أولاد الزنا! اقتل أولاد الزنا! وسوف تنجح'». ومنذ البداية، رأى الرئيس بوش الحرب من منظور تقليدي، وظل يسأل باستمرار عن عدد الأعداء الذين أُسروا أو قُتلوا.

اعتقد كيسي أن المعركة الحقيقية هي إعداد العراقيين لحماية أنفسهم وحكم أنفسهم بأنفسهم. وكثيراً ما أعاد صياغة كلمات العقيد البريطاني تي. إي. لورنس، العراب المعروف باسم لورنس العرب الذي ابتكر في بدايات القرن العشرين أسلوب الحرب غير النظامية: «من الأفضل أن يقوموا بالمهمة بطريقة ناقصة بأيديهم من أن نقوم بها بطريقة كاملة بأيدينا»؛ «لأنها حربهم وبلادهم، وزمن وجودنا هنا محدود»، كما كتب في «أعمدة الحكمة السبعة».

قبل سنة، طبع كيسي إحدى عشرة قاعدة على بطاقات وملصقات لتوزيعها على جنوده. أما أهمها فكانت: «ساعد العراقيين على الفوز — لا تفز نيابة عنهم».

أبلغ كيسي كل لواء أمريكي قدم إلى العراق أن هذه ليست حرباً تقليدية. وشدد على أن الوظيفة هي نقل مهمات مكافحة التمرد تدريجياً إلى القوات الأمنية العراقية إلى جانب الاستمرار في شن عمليات مكافحة التمرد. وعلى مقياس مكون من عشر درجات، أبلغ القوات أن درجة «صعوبة هذه المهمة هي 12».

قال كيسي: «هؤلاء عرب في معظمهم، ولن يبادلونا الحب أبداً. سوف نقوم بالمهمة، أو يقومون بها هم. ولا أعتقد أننا سننجح في العراق في أدائها نيابة عنهم».

حاول كيسي، في الاجتماعات الأسبوعية مع الرئيس عبر نظام الفيديو الآمن، إقناع المسؤولين بالحاجة إلى تخفيض عدد القوات. رئيس كيسي الأعلى في سلسلة القيادة، الجنرال جون أبي زيد، قائد القيادة المركزية الأمريكية، الذي حضر الاجتماعات، شاركه في الرأي. ومع أن الاجتماع عبر الفيديو لا يحظى بحميمية اللقاء المباشر وجهاً لوجه، إلا أن أبي زيد راقب بوش بعناية — الإيحاءات والتعابير وتململ الرئيس في مقعده وهو يستمع، مما يدل على نفاد صبره. اعتاد كيسي وأبي زيد، بعد الاجتماعات، وكلاهما يركز على لغة بوش الإشارية، مقارنة الملحوظات.

سأل كيسي أكثر من مرة: «ما رأيك! هل حققنا اختراقاً اليوم؟».

وكان أبي زيد يرد: «لا، لا أعتقد ذلك. فلغة الإشارات والجسد كانت معارضة وسيئة حول هذه المسألة».

خدم كيسي وأبي زيد (حين كانا جنرالين بنجمة واحدة) في البوسنة معاً عام 1996، وشهدا ما حدث: لم تتصالح الجماعات الإثنية المختلفة إلى أن خرج العنف عن نطاق السيطرة.

واستنتج أبي زيد أن وجود الذراع العسكري للولايات المتحدة في العراق على هذا النطاق الضخم طوال هذه السنوات أضر أكثر مما نفع. وكان يقول في مجالسه الخاصة صراحة: «يجب أن نخرج مهما كان الثمن».

أقلقت كيسي فكرةُ أن الرئيس لم يفهم، ولم يقدر الحرب ولا طبيعة الصراع الذي يحاصرهم. واعتقد أن القوة الغربية الضخمة والمدججة بالسلاح لن تبقى طويلاً. والأسوأ أن الرئيس لم يفهم قط كيف يجب إعادة بناء اقتصاد العراق وسياسته إذا أراد استدامة المكاسب العسكرية.

كثيراً ما علق الرئيس على أهمية هذه العوامل السياسية والاقتصادية، وكسب الناس إلى صفنا. لكنه سرعان ما يبدي اهتماماً أكبر حين يسأل عن الهجمات والعمليات الحربية، ويحقق مع كيسي بأسلوب مهدد مستفسراً عن أعداد القتلى والأسرى من الأعداء. قبل بضعة شهور، وفي أثناء أحد الاجتماعات بواسطة الفيديو الآمن، أبلغ كيسي أنه لا يفعل ما يكفي عسكرياً على ما يبدو: «جورج، نحن لا نلعب للتعادل. أريد تيقن أننا نفهم جميعاً هذه الحقيقة». أكد بوش مرة أخرى وفي وقت لاحق من الاجتماع: «أريد أن يعرف الجميع أننا لا نلعب من أجل التعادل. هل هذا مفهوم؟».

في بغداد، شحب وجه كيسي من شدة الضيق والحرج. فالإشارة كانت في حد ذاتها إهانة سوف لن ينساها، عبارة كادت أن تكون استفزازاً صارخاً وصريحاً.

رد بحدة: «سيادة الرئيس، نحن لا نلعب من أجل التعادل».

بعد أن أنهى الاجتماع، التفت ديفيد ساترفيلد، نائب رئيس البعثة في السفارة، الذي حضر الجلسة، إلى كيسي.

قال: «جورج، كيف استطعت التحكم بأعصابك؟».

فأجاب كيسي: «أنا رجل منضبط».

لم يكن منضبطاً كثيراً؛ لأن الجنرال أبي زيد، الذي حضر الاجتماع أيضاً، اتصل بكيسي ونصحه: «كان عليك ألا تصرخ في وجه الرئيس».

لكن دم كيسي كان يفور ويغلي. فقد كرر الرئيس التشكيك في قيادته وقدرته على ضرب الأشرار، كأنما ستنصلح الأمور كلها إذا ضربهم. وأوجز لأحد الزملاء مقاربة بوش: «إذا لم تكن هناك مع القوات الأمريكية تضرب وتلكم كل يوم، فأنت لا تقاتل بطريقة صحيحة».

ألمحت أسئلة الرئيس الملحة لكيسي إلى اعتقاد القائد العام بإستراتيجية استنزاف قائمة على استئصال الأشرار. لقد رسخت حرب فيتنام فشل هذا الأسلوب. فبغض النظر عن عدد المتمردين الذين تقتلهم أو تأسرهم، سوف ينضم إلى التمرد مزيد منهم. قتلت الولايات المتحدة عشرات الألوف من العراقيين. وأظهرت إيجازات العمليات السرية أن ألفاً من «القوات المعادية للعراق» (وهو تعبير يشمل مقاتلي القاعدة والمتمردين وغيرهم من المتطرفين الذين يتوسلون بالعنف) – يُقتلون كل شهر. كان ذلك مجرد حساب لأعداد الجثث؛ نسخة مطابقة لما جرى في فيتنام.

في عام 2005، بعد أن دمر إعصار كاترينا نيوأورليانز ومنطقة خليج المكسيك، امتدح بوش مدير إدارة الطوارئ الاتحادية مايكل براون. إذ قال له في واحدة من عباراته التي لا تنسى في مدة رئاسته: «براوني، أنت تقوم بعمل مشهود ومؤثر». وبعد أسبوع أعفي براون من وظيفته بسبب إهماله وخرقه في الاستجابة للكارثة.

أبلغ بوش، عند اختتام أحد الاجتماعات عبر الفيديو الآمن مع كيسي بعد كارثة كاترينا المذلة، فريقَ العاملين في العراق: «يا شباب، أنتم تقومون بعمل مشهود ومؤثر». توقف قليلاً ثم أضاف: «لكنني قلت العبارة نفسها لبراوني» [1].

في بغداد، ضجت القاعة حين انتهى الاجتماع بضحكات عصبية. بدا بوش جدياً. وكانت عبارته تذكرة لكيسي أن رأسه في خطر داهم.

ما زاد من الإحباط حقيقةُ أن الرئيس صدّق إستراتيجية كيسي ووافق عليها، وهي إستراتيجية ذكرت صراحة أن الهدف هو نقل المهمة الأمنية إلى العراقيين.

في اليوم السابق على حديث بوش مع كيسي على الشرفة في بغداد، اجتمع الرئيس مع فريق حكومته المسؤول عن إدارة الحرب في كامب ديفيد، ووافق الجميع بالإجماع على خطة الحملة المشتركة التي وضعها كيسي [2]. ذكرت الخطة التي عُدت سرية: «صيغت هذه الخطة اعتماداً على ركن أساسي: النجاح الإستراتيجي الدائم لن يحققه سوى العراقيين». وقسم المفهوم إلى ثلاث مراحل: «الاستقرار» حتى أوائل عام 2007، «استعادة السلطة المدنية» حتى منتصف 2008، «دعم الاعتماد الذاتي» حتى عام 2009 [3].

لكن كيسي لم يشعر قط أنه تمكن من إقناع بوش. قال فيما بعد: «لم أنجح في إقناعه».

ظلت المعركة السرية بين الرئيس والجنرال تحتدم مدة طويلة. وشعر كيسي بالتعارض المتصاعد بينهما، ولم يجد سبيلاً لتخفيف حدة الخلافات. فقد أصر بوش دوماً على أنه يثق بكيسي، لكن بمرور الوقت، فقد كل منهما ثقته بالآخر.

وبدا الآن أنه الرابطة الجامعة بينهما يتعذر وصلها من جديد. وأمل الرجلان كلاهما بألّا يصدق ذلك على الحرب.

من بين الحاضرين على الشرفة في تلك الأمسية في بغداد ستيفن هادلي مستشار شؤون الأمن القومي. كان هادلي (59 سنة) أكثر كبار مستشاري بوش احتراماً له، وربما أشدهم دأباً، وأقلهم ظهوراً في العلن بالتأكيد. كان يراقب من بعيد الرئيس وكيسي وهما يتبادلان الحديث الجانبي ويدخنان.

منذ الحرب العالمية الأولى، كان لكل رئيس أمريكي منسق مركزي في البيت الأبيض يقوم بدور عينيه وأذنيه –ويطبق تعليماته إذا دعت الحاجة– فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والحرب. نظّم الرئيسان دوايت أيزنهاور وجون كنيدي رسمياً الأدوار التي يقوم بها مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي. أما الرئيس ريتشارد نيكسون فقد رفع الدور إلى مستويات جديدة مع هنري كيسنجر. هيمن بعض مستشاري الأمن القومي،

مثل كيسنجر المسيطر والمتشبث بآرائه، على الشؤون الخارجية، في حين اكتفى غيرهم بلعب دور الحكم.

اعتقد هادلي أنه أقام علاقة وثيقة برئيسه كحال أي مستشار لشؤون الأمن القومي في تاريخ الولايات المتحدة. كان حاضراً على الدوام، إلى حد أن دعابة شاعت في البيت الأبيض تقول إن الوقت الوحيد الذي يغيب فيه هادلي عن أنظار الرئيس هو حين يدخل الحمام، حتى في هذه الحالة كان ينتظر خارجه حاملاً منشفة جديدة له! قال هادلي عن علاقتهما: «حين أشعر بشيء يشعر به. وحين يشعر بشيء أشعر به».

قرأت فيما بعد تصريحاً قدمه هادلي إلى الرئيس في أثناء مقابلة في المكتب البيضاوي.

وافق بوش قائلاً: «أجل».

أضاف هادلي وهو يجلس قريباً منه: «أنا أراقبه طوال الوقت».

قال بوش: «أنا أراقبه وهو يراقبني طوال الوقت» [4].

أهال الرئيس المديح على مستشاره للأمن القومي، وقال إن هادلي لا يحتاج إلى إذن للدخول إلى المكتب البيضاوي، إذ يستطيع الدخول أو الاتصال في أي وقت.

تقليدياً، يوفر مجلس الأمن القومي المكان المناسب لعرض وجهات نظر المستشارين على الرئيس. لكن هادلي اعتقد أن المجلس يجب ألا يتحول إلى معترك للجدل المستمر الذي يؤدي إلى الانقسام. وآمن بأن مهمته هي توكيد رغبات الرئيس، ثم تيقن امتثال وزير الخارجية، وإذعان وزير الدفاع، وخضوع رئيس الاستخبارات لها، وأن الإجماع ليس ممكناً في عالم سياسة الأمن القومي المضطربة فقط، بل ضروري أيضاً. قال ذات مرة: «هذه هي الحقيقة: مجموعة من الأشخاص الأذكياء يعاينون الحقائق ذاتها، ويتوصلون عموماً إلى النتائج نفسها بمرور الوقت». يرى النوابغ في الاكتشاف العلمي فجأة مالا يراه غيرهم، لكن «لا تستطيع منح براءة اختراع للأفكار في عالم السياسة هذا».

اعتمدت رؤية بوش للعراق اعتماداً شديداً على تطوير البلد إلى نظام سياسي قابل للاستمرار. ومنذ البداية تقريباً سأل: «من الذي سيدير هذا البلد؟». ضمن واحدة من

أوائل الخطط العراقية، كانت الرئاسة دورية كل شهر. ذهل بوش وهادلي كلاهما. ففي أثناء الانتخابات الثلاثة في الأشهر الثمانية عشر الماضية، اختار العراقيون في نهاية المطاف نوري المالكي، الناطق الرسمي السابق وغير المعروف لحزب الدعوة الشيعي الصغير، بوصفه أول رئيس وزراء (غير مؤقت). لم تكن الاستخبارات الأمريكية ومعظم العراقيين يعرفون شيئاً عن المالكي (55 سنة)، الذي جعلته لحيته الخفيفة يشبه الشخصيات القوية والمهمة في أفلام هوليود.

أبلغ بوش هادلي: «أريد مقابلة هذا الرجل، والنظر إلى عينيه، وتقويمه، مع إعلان التزامي أمامه أنني سأعمل معه وأدعمه. لم يشغل منصب رئيس (وزراء) بلد من قبل. عليه أن يتعلم. وسوف أنخرط معه شخصياً لمساعدته على التعلم. أستطيع مساعدته على معرفة كيف يكون رئيساً للوزراء؛ لأن أمام هذا الرجل الكثير ليتعلمه».

وهكذا خطط الاثنان لرحلة الرئيس السرية إلى بغداد في الثالث عشر من حزيران.

ظل هادلي طوال شهور يحاول فرض مراجعة لإستراتيجية العراق. في ملفه الخاص، ملف «ج ب» (جورج بوش)، الذي يحوي بنوداً للفت انتباه الرئيس إليها، هناك رسم بياني سري يُظهر أن العنف في العراق يتصاعد باستمرار ويزداد فتكاً ودموية [(5)].

وأمكن للرئيس نفسه، على الرغم من تصريحاته العلنية، رؤية الوضع يتفاقم ويتدهور. وقال لهادلي، ووزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، وغيرهما من المستشارين المقربين في ربيع عام 2006 وبدايات صيفه: «إذا لم ينجح هذا فعليكم إبلاغي؛ لأنني لا أستطيع إرسال مزيد من الناس بضمير مرتاح ونية صافية ليموتوا في العراق إلا إذا كانت خطتنا ناجحة» [(6)].

وقال فيما بعد: «التقيت بأسر القتلى، وكان علي أن أخبرهم أن المهمة جديرة بالتضحية وأننا نستطيع النجاح».

لكن الخطة لم تكن ناجحة كما بدا واضحاً. وكخطوة أولى لمعرفة السبب، أعد هادلي أجندة لاجتماع الرئيس بفريقه الحكومي المسؤول عن الحرب في اليوم السابق على رحلته إلى بغداد (12 حزيران) في كامب ديفيد. أراد من المجموعة تقويم الافتراضات

وطرح الأسئلة الصعبة – «ماذا، ومن، ومتى، وأين، ولماذا» على حد تعبيره، فيما يتعلق بما يفعلونه [7].

سيكون الاجتماع لقاء تمهيدياً لإجراء مراجعة للإستراتيجية. وتمثلت الخطة بإعطاء الرئيس دور إدارة النقاش بين كبار مساعديه –رايس، ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد، ومدير الاستخبارات الوطنية جون نيغروبونتي، ورئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال بيتر بيس، وهادلي. شملت الأجندة السرية أسئلة عن الصورة الكبيرة الشاملة، مثل «ما الذي يفاقم المستويات الحالية من العنف؟». وسوف تُكرس تسعون دقيقة في الصباح «لتفحص القضايا الجوهرية والافتراضات الإستراتيجية»، مثل «هل تعد إستراتيجيتنا السياسية ناجحة؟».

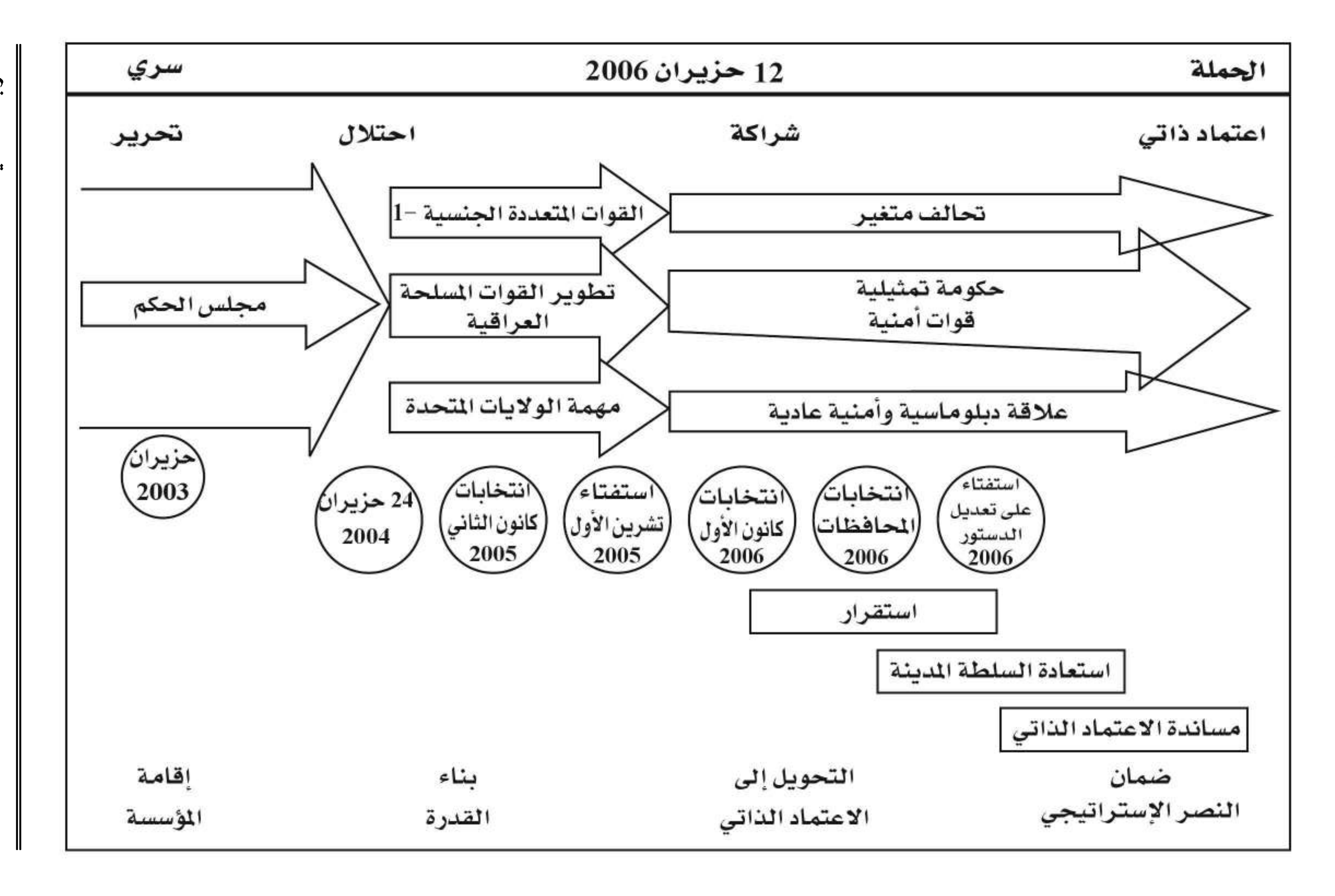
بدأ الاجتماع الصباحي بإيجاز لخطة الحملة بواسطة الجنرال كيسي من بغداد (باستخدام برنامج باور بوينت)، شمل هذا الرسمَ البياني السري خلطةً مجنونة من الدوائر والأسهم والصناديق والعبارات، مع نقطة نهاية غير محددة التاريخ دعيت بـ «ضمان النصر الإستراتيجي» (انظر الشكل اللاحق) [8].

وفضلاً على الإشارة إلى أن «هذه الإستراتيجية صيغت اعتماداً على ركن مركزي: النجاح الإستراتيجي الدائم في العراق لن يتحقق إلا بواسطة العراقيين»، أضاف كيسي ما يأتي: «استكمال العملية السياسية والعمليات الراهنة وضعنا على حافة عمل حاسم في السنة القادمة».

عدد هادلي تسع مخاطر، تراوح بين فقدان الإدارة والتصميم والانضباط الذاتي، وتصاعد العنف الطائفي، والفساد المستشري، والمفاجأة الإستراتيجية.

أكد إيجاز وزارة الخارجية في كامب ديفيد ذلك اليوم أن «الوضع في العراق لا يتحسن». وأوصى بأن تعمل الإدارة على «إعداد الرأي العام الأمريكي لمعركة طويلة»، وذكر أن تغيير ثقافة الحكم في العراق سوف «يتطلب جيلاً» [9].

لكن تبين أن من المستحيل إدارة اجتماع كامب ديفيد لأن الرئيس قرر الذهاب إلى العراق في اليوم اللاحق للقاء رئيس الوزراء الجديد. كان ذهن الرئيس، كما عرف هادلي، في بغداد تقريباً.


الحملة
12 حزيران 2006
سري
اعتماد ذاتي
شراكة
احتلال
تحرير
مجلس الحكم
القوات المتعددة الجنسية - 1
تطوير القوات المسلحة العراقية
مهمة الولايات المتحدة
تحالف متغير
حكومة تمثيلية
قوات أمنية
علاقة دبلوماسية وأمنية عادية
حزيران 2003
24 حزيران 2004
انتخابات كانون الثاني 2005
استفتاء تشرين الأول 2005
انتخابات كانون الأول 2006
انتخابات المحافظات 2006
استفتاء على تعديل الدستور 2006
استقرار
استعادة السلطة المدينة
مساندة الاعتماد الذاتي
ضمان النصر الإستراتيجي
التحويل إلى الاعتماد الذاتي
بناء القدرة
إقامة المؤسسة

ومثلما يحدث غالباً، طغت المهمات اليومية وبؤر تركيز الرئيس المباشرة على ما عداها كله، فأُجلت مراجعة الإستراتيجية مرة أخرى. ومع انزلاق العراق إلى مستويات من العنف يتعذر تخيلها، سقط مزيد من القتلى من الجنود الأمريكيين في ظل إستراتيجية عرف بوش وهادلي وكثيرون غيرهما أنها تترنح وتتعثر.

على الطائرة الرئاسية العائدة إلى الوطن من لقاء بغداد في الثالث عشر من حزيران، كان بوش مغتبطاً ومبتهجاً في البداية. فقد كان يوماً ناجحاً، لحظة عظيمة، نتيجة مطابقة لما عمل مع فريقه من أجلها طوال أكثر من ثلاث سنين؛ لكنه أعطى الحكومة الجديدة تقويمات مختلطة. يعرف بعض الوزراء العراقيين الجدد على ما يبدو ما يفعلونه، في حين لم يكن غيرهم كذلك. وبدت الحكومة المكونة من أغلبية شيعية وأقلية سنية معقولة. «كأنها حكومة وحدة» كما قال الرئيس، لكن أمامها الكثير لتعمله.

بقي هادلي مركزاً اهتمامه على الرسم البياني السري في ملفه (ج ب) الذي يظهر تصاعد العنف باستمرار: ألفُ هجوم في الأسبوع، أي ستة في الساعة. «سوف أصدق أننا على المسار الصحيح في العراق عندما يبدأ الخط البياني بالهبوط»، كما قال.

عقد الرئيس في واشنطن مؤتمراً صحفياً في حديقة الورود في صبيحة الرابع عشر من حزيران. لم يُظهر أي تردد أو قلق أو شك في الإستراتيجية التي بدأ هو وهادلي وكثيرون في الإدارة يتقاسمونه. أجل، كما قال، كانت حرباً قاسية ولن يتراجع مستوى العنف إلى الصفر أبداً. ومع ذلك «أستشعر شيئاً مختلفاً يحدث في العراق. سوف يكون التقدم ثابتاً ومطرداً نحو هدف حُدد بكل وضوح» [10].

اعترف الرئيس، في مقابلة معه بعد سنتين، بأنه أدرك، على الرغم من تفاؤله الظاهري، أن الإستراتيجية لم تكن تعمل بنجاح حتى آنذاك (حزيران 2006). «كَمُن تحت أملي

شعور بالقلق»، كما قال وهو جالس في المكتب البيضاوي يحمل رسماً بيانياً يظهر العنف المتصاعد في النصف الأول من تلك السنة. وأضاف وهو يضرب الرسم بكفه مرتين، إنه في ذلك الوقت «بدأ يرى» أن الوضع يتخذ انعطافة خطرة، وأن الإستراتيجية المتبعة «أمل الجميع في نجاحها لكنها لم تنجح. ولذلك فإن السؤال عندما تكون في مكاني هو: إذا لم تنجح فما الذي ستفعله؟» [11].

أصر بوش على أنه يفهم طبيعة الحرب، بغض النظر عن رأي كيسي. وقال: «أعني، أن من فهم ذلك من بين الجميع كان أنا» [12].

لكن كثيراً من ملحوظاته وتعليقاته المسجلة في المقابلة تعطي المصداقية لقلق كيسي من مبالغة الرئيس في التركيز على أعداد القتلى من العدو.

«ما خيب أملي وسبب لي الإحباط أن الوضع بدا من وجهة نظري وكأننا نصاب بالخسائر في الأرواح دون أن نرد؛ لأن قادتنا يكرهون الحديث عن الانتصارات في ساحة المعركة»، كما قال الرئيس [13].

من المؤكد أنه سأل بين الحين والآخر عن عدد المقاتلين الأعداء الذين جرى استئصالهم. «هذا واحد من بين أسئلة عديدة كنت أطرحها. طرحت هذا السؤال في بعض الأحيان لأعرف هل كنا نرد أم لا؛ لأن الإدراك العام يشير إلى أن شبابنا يقتلون في حين لا يقتل أحد من الأعداء. فنحن لا نحصي أعدادهم. ليست لدينا إحصائيات عن أعدادهم» [14]. كان بوش يعلم أن المسؤولين العسكريين يعارضون إحصاء أعداد القتلى العراقيين، مثلما حدث في حقبة حرب فيتنام حين كان نشر أعداد قتلى العدو يعد مقياساً للتقدم المتحقق.

«من ناحية أخرى، حين أجلس هنا أراقب أعداد الضحايا الأمريكيين، أريد على الأقل معرفة هل يقاتل جنودنا أم لا. هناك سيل دافق من الأخبار التي تقول: قتل ثلاثة جنود هنا، وخمسة هناك، وسبعة في مكان آخر... اثنا عشر... عشرون في الأسبوع». أراد الرئيس أن يعرف أن الطرف الآخر يعاني الخسائر أيضاً.

إذاً، ربما أصاب كيسي نقطة جوهرية وأثار سؤالاً مهماً وصحيحاً. هل يفهم القائد العام طبيعة الحرب التي شنها؟ بل هل يفهمها كيسي نفسه؟ أو رمسفيلد؟ أو رايس؟ أو هادلي؟ هل امتلك أي مسؤول في الإدارة رؤية تبين كيفية تحقيق النجاح؟

والأهم، هل استطاع أحد الإجابة عن سؤال الرئيس المهيمن والواضح والمتعذر اجتنابه:

«إذا لم تكن الإستراتيجية ناجحة، فماذا سنفعل؟».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع سبعة من المصادر المطلعة

1- انظر:

Spencer S. Hsu and Susan B. Glasser, «FEMA Director Singled Out by Response Critics,» The Washington Post, September 6, 2005, P. A1.

2- موجز جدول أعمال اجتماع كامب ديفيد السري (2006/6/12). نزع البيت الأبيض عنه السرية في عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف. دام عرض كيسي من الساعة 9:30 إلى الساعة 10:15 صباحاً.

3- مراجعة المؤلف وملحوظات مكتوبة عن مذكرة سرية بتاريخ (2006/6/12)، تتكوّن من تقويم أمني من صفحة واحدة، وإستراتيجية لمكافحة التمرد، وخطة مشتركة للحملة.

4- مقابلة للمؤلف مع الرئيس جورج بوش (2008/5/20).

5- مراجعة إحصائية سرية وصفها للمؤلف مصدر مطلع.

6- مقابلة مع الرئيس جورج بوش (2008/5/20).

7- موجز جدول أعمال اجتماع كامب ديفيد السري (2006/6/12). نزع البيت الأبيض عنه السرية في عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

8- مراجعة المؤلف وملحوظات مكتوبة عن مذكرة سرية بتاريخ (2006/6/12)، تتكوّن من تقويم أمني من صفحة واحدة، وإستراتيجية لمكافحة التمرد، وخطة مشتركة للحملة.

9- موجز جدول أعمال اجتماع كامب ديفيد السري (2006/6/12). نزع البيت الأبيض عنه السرية في عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف. دام إيجاز وزارة الخارجية من الساعة 3:15 إلى الساعة 3:45 عصراً.

10- Presidential Documents, June 14, 2006, p. 1133 (Vol. 42, No. 24), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no24.html

11- مقابلة مع الرئيس جورج بوش 2008/5/20.

12- مقابلة مع الرئيس جورج بوش 2008/5/21.

13- مقابلة مع الرئيس جورج بوش 2008/5/20.

14- مقابلة مع الرئيس جورج بوش 2008/5/21.

-1-

قبل سنتين

في أصيل يوم من أيام شهر أيار 2004، صعد الجنرال جورج كيسي درجات السلم إلى الطابق الثالث من مقره الذي قدمته الحكومة وجهزته وفرشته بالأثاث، وهو دارة قرميدية جميلة وقديمة على نهر بوتوماك في قاعدة فورت مكنير في واشنطن دي سي. كانت زوجته تحزم أغراض الأسرة استعداداً للانتقال إلى الضفة الأخرى من النهر، إلى قاعدة فورت ماير في فرجينيا، المقر المعين لنائب رئيس أركان الجيش.

قال كيسي: «أرجوك اجلسي».

طوال حياته الزوجية التي امتدت أربعة وثلاثين عاماً لم يتقدم كيسي بمثل هذا الطلب.

قال إن الرئيس بوش، ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد، ورئيس هيئة أركان الجيش طلبوا منه تسلم منصب القيادة في العراق.

انفجرت شيلا كيسي باكية. فقد خافت من الغياب الطويل، على شاكلة كثيرات من زوجات الضباط، وقلق الانفصال الذي لا ينتهي، وضغوط الحياة الزوجية حين يباعد بين الزوجين نصفُ العالم. لكنها أدركت أيضاً أنها فرصة لا تصدق سنحت لزوجها. رأى كيسي حرب العراق بوصفها نقطة محورية، نقطة مفصلية في التاريخ، صراعاً يحدد على الأرجح موقع أمريكا المستقبلي في العالم، وتركة بوش وميراثه، وسمعته بصفته جنرالاً.

قال كيسي: «ستكون المهمة صعبة»، لكنه شعر بأنه مؤهل مثل غيره.

كان ارتقاء كيسي إلى رتبة الأربع نجوم غير عادي. فبدلاً من التخرج في كلية ويست بوينت، درس العلاقات الدولية في جامعة جورج تاون. كان يدرس في أثناء حرب فيتنام، وأصبح عضواً في فيلق تدريب ضباط الاحتياط. وتذكر كيف بصق عليه بعض الطلاب وقذفوه بما وجدوه في متناول أيديهم حين عبر المعسكر بالزي الرسمي في عام 1970. بعد إنهاء تخرجه برتبة ملازم ثان، قُتل والده، الذي يحمل الاسم نفسه، جنرال الجيش (صاحب النجمتين) وقائد فرقة الخيالة الأولى الشهيرة، في فيتنام عندما تحطمت المروحية التي كانت تقله لزيارة الجنود الجرحى.

لم تكن لدى كيسي النية في احتراف الجيش. ومع ذلك وقع في غرام الإحساس بالمسؤولية الكاملة التي تلقي حتى على عاتق ملازم ثان شاب مسؤوليةَ رعاية رجاله. الآن، بعد أن قضى أربعة وثلاثين عاماً في الجيش، سيصبح قائداً ميدانياً، مثلما كان الجنرال وليام ويستمورلند في فيتنام بين عامي 1965 – 1968. لم يكن كيسي يريد أن ينتهي نهاية ويستمورلند، الذي حكم عليه التاريخ أنه الرمز الممثل لحقبة الإخفاق الذريع والمعضلات المربكة.

لم يشارك كيسي في معركة من قبل. أما تجربته قريبة الصلة بالقتال فكانت في البلقان – البوسنة وكوسوفو – حيث سادت الحرب غير النظامية. وشغل بعضاً من أكثر مناصب «المفكرين» ظهوراً في وزارة الدفاع (البنتاغون): رئيس الخطط الإستراتيجية لهيئة الأركان والإدارة السياسية، ثم الإدارة المرموقة لهيئة الأركان التي تخدم رؤساء الأركان. لكن بغض النظر عن مدة وجيزة قضاها في القاهرة مراقباً عسكرياً مع الأمم المتحدة عام 1981، لم يقض وقتاً طويلاً في الشرق الأوسط.

بعد الحصول على مباركة شيلا ودعواتها، التقى كيسي برمسفيلد. جلس الاثنان إلى مائدة صغيرة في مكتب الوزير. «الموقف» مهم، كما شرح رمسفيلد – يجب على كيسي غرس إطار ذهني بين الجنود يتيح للعراقيين النمو والتطور وأداء ما هو مطلوب منهم بأنفسهم. اعتمد الموقف العام في المؤسسة العسكرية الأمريكية على مبدأ: «نستطيع

القيام بذلك. ابتعدوا عن طريقنا. وسنؤدي المهمة». شرح رمسفيلد قائلاً إن ذلك لن يؤدي إلى النجاح في العراق. ومثلما قال مراراً فيما بعد، المهمة في العراق هي إعادة تحريك عجلات التدريب، ورفع الأمريكيين أيديهم عن مقعد الدراجة العراقية.

وافق كيسي على معظم آراء رمسفيلد.

«خذ قرابة ثلاثين يوماً ثم قدم لي تقويمك للوضع»، حسبما أمر رمسفيلد.

شجعت كيسي حقيقةُ أنه يتقاسم رؤية مشتركة مع رمسفيلد. لكنه فوجئ حين عرف أن وزير الدفاع خصص زهاء عشر دقائق فقط للقاء الرجل الذي يوشك على تسلم أهم مهمة ومنصب في المؤسسة العسكرية الأمريكية.

أقام الرئيس مأدبة عشاء صغيرة في البيت الأبيض لكيسي وجون نيغروبونتي، السفير الجديد المعين في العراق، وزوجتيهما وبضعة أصدقاء. كانت المناسبة اجتماعية، وطريقةً لقول «حظاً سعيداً».

ذهب كيسي لمقابلة وزير الخارجية كولن باول، الذي خدم في الجيش خمسة وثلاثين عاماً، وشغل منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة إبان حرب الخليج عام 1991. لم يخفِ باول شعوره بالمرارة. فرمسفيلد يفسد الأمور كلها، كما أبلغ كيسي. في حين عبّر مارك غروسمان أحد كبار مساعدي باول، وأحد أصدقاء كيسي القدامى، بأسلوب أكثر حدة: «الرجال في وزارة الدفاع حمقى وأغبياء. لقد نفد صبري معهم».

استنتج كيسي عدم وجود وجهة واضحة فيما يتعلق بالعراق، ولذلك دعا نيغروبونتي إلى مكتبه في البنتاغون.

تطوع نيغروبونتي، الذي كان آنذاك سفيراً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، للعمل سفيراً في العراق. كان في الرابعة والستين، ووراءه خبرة أربعين سنة في الخدمة الخارجية. اعتقد أن مهمة السفير هي تنفيذ السياسة المرسومة في واشنطن. واتفق هو وكيسي على أنهما لا يحصلان على ما يكفي من التوجيه والإرشاد من الأعلى.

سأل كيسي: «ما الذي سننجزه حين نصل إلى هناك؟». وبدأ الاثنان صياغة بيان مقتضب عن غرض المهمة وغايتها. الهدف هو جعل العراق بلداً يعيش في سلام مع جيرانه، وإقامة حكومة تمثيلية فيه، تحترم حقوق الإنسان للعراقيين كلهم، وألا يصبح ملاذاً آمناً للإرهابيين.

أدخلت المسودة السرور على قلبي الجنرال والسفير كليهما. فقد وضعا أهدافاً سياسية على الأغلب، على الرغم من حقيقة أن السند الرئيس والقوة الدافعة للولايات المتحدة تمثلا في قرابة مئة وخمسين ألفاً من الجنود على الأرض.

* * *

في العراق، حل كيسي محل الجنرال ريكاردو سانشيز، الذي كان يقود القوات الأمريكية في السنة الفائتة. طلب منه البقاء مدة بعد مراسم تغيير القيادة. وعلى مائدة العشاء، أفاض سانشيز في التعبير عن مرارته من قلة الدعم الذي تلقاه من الجيش ووزارة الدفاع وواشنطن. «هذا المكان أشد صعوبة من كوسوفو بعشر مرات»، كما قال.

فهم كيسي المقارنة. فقد عرف تماماً الكره العميق وغير العقلاني الذي حرك عمليات التطهير العرقي وأعمال العنف الأخرى في البلقان.

ثم التقى مع ضباط من مقر وكالة المخابرات المركزية في بغداد، فطرحوا عليه أسئلة تنذر بالسوء والشؤم: هل سينجح المشروع برمته؟ ما العلاقة بين الأهداف السياسية والعسكرية؟ اتفق كيسي ونيغروبونتي على الأهداف السياسية، لكن كيف يستطيع كيسي تحقيق الهدف العسكري المتمثل بمنع العراق من التحول إلى ملاذ آمن للإرهابيين؟ بعد أن أوجزوا له المعلومات والوضع وقرأ التقارير الاستخبارية، وجد أن للإرهابيين ملاذاً آمناً في أربع مدن عراقية على الأقل: الفلوجة والنجف وسامراء إضافة إلى مدينة الصدر في ضواحي بغداد.

حين عبر كيسي الكويت المجاورة في طريقه إلى بغداد، بعث إليه ضباط الجيش الثالث برسالة: «إذا أردت أن تفهم الوضع فعليك التحدث مع ديريك هارفي».

كان هاريـ﴿ (49 سنة) عقيداً متقاعداً من الجيش وخبيراً مختصاً بالشرق الأوسط، عمل لمصلحة وكالة مخابرات الدفاع، وعُدّ شخصية خلافية في عالم الاستخبارات الأمريكية. آمن هاري بالانهماك والاستغراق في العمل الاستخباري، وكان يمضي شهوراً طويلة في كل مهمة يجمع المعلومات ذات الصلة بدلاً من الاعتماد على التقارير والإحصائيات فقط.

في أواخر الثمانينيات، سافر هاري في مختلف أرجاء العراق بواسطة سيارة أجرة مسافة خمس مئة ميل، من قرية إلى قرية، وقابل الأهالي المحليين، ونام على الأرضيات الطينية، في غرف أبوابها من الستائر البلاستيكية. كان يشبه محقق المسلسل التلفازي كولمبو: يطرح أسئلة فضولية كثيرة، بأسلوب لطيف بعيد عن التهديد. وبعد حرب الخليج عام 1991، حين كانت وكالة المخابرات المركزية تتوقع السقوط الحتمي لديكتاتور العراق صدام حسين، أصر هاري (الرائد آنذاك) على أن صدام حسين سيبقى؛ لأن الطائفة السنية تعلم أن مصائرها مرتبطة به. كان مصيباً. كتب هاري، قبل شهور من الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من أيلول، تقريراً استخبارياً يعلن فيه أن القاعدة وقيادة الطالبان في أفغانستان تمثلان تهديداً إستراتيجياً داهماً للولايات المتحدة.

وبعد غزو العراق عام 2003، تولى مهمات عسكرية متقطعة في البلاد، حيث كان يسافر سراً، ويتحدث مع المتمردين، ويجلس في غرف التحقيق والاستجواب.

من مقارباته، تلك المعروفة باسم «استغلال الوثيقة». فقد أمضى ساعات من العمل على ملفات وجدها في البيوت، وعلى بيانات مالية اكتشفها في حقائب صدام حسين. وتوضح له في وقت مبكر وجود فراغ في السلطة في بغداد. أين كانت السلطة السياسية؟

قام هاري بمهمات استكشافية في المحافظات العراقية (في سيارة رباعية الدفع) واتصل بالعشائر، وعرف أن الزعماء البعثيين السابقين، وجنرالات الجيش، ومسؤولين سابقين آخرين يعيدون توحيد صفوفهم. ودرس الوثائق والرسائل في المباني التي اقتحمتها القوات الأمريكية. أشارت الوثائق والرسائل والمقابلات الشخصية التي أجراها كلها إلى حقيقة واحدة: عناصر النظام السابق وضعت خططاً لإيجاد بيئة معادية يسودها العنف.

احتدم جدل بين وكالات الاستخبارات الأمريكية حول مدى التنظيم الحقيقي القائم بين المتمردين. من المسيطر فعلاً؟ وجد هاري أن التمرد مؤسس على شبكات قديمة مبنية على الثقة بالعلاقات المهنية والعشائرية والأسرية تتصل بالمساجد. فالتوجيه والإرشاد، والتعليمات والأوامر، والحث والحض والوعظ – حتى التخطيط للعمليات – كلها مكتوبة غالباً باللغة الدينية الجهادية.

وجد هاري أن الوحدات الأمريكية ذكرت في تقاريرها كثيراً من الهجمات في بداية وجودها، لكن كلما طال بها المقام انخفض عدد الهجمات التي تتعرض لها. ولم يكن السبب متمثلاً بأنها استطاعت تهدئة المتمردين أو التغلب عليهم؛ بل لأن الجنود قرب نهاية مهمتهم يقللون من وتيرة خروجهم واختلاطهم بالسكان –وأحياناً يبتعدون عنهم كلية. واستنتج أيضاً أن نسبة راوحت بين 22-26% فقط من العنف الموجه إلى القوات الأمريكية ذكرت في التقارير.

لم يقتنع الجنرال سانشيز قط باستنتاجات هاري المتعلقة بالتمرد، حتى إن ظل المؤشر الرسمي للعنف في التقارير السرية يرتفع باطراد. ففي الشهور الأربعة في منتصف عام 2004، تضاعف عدد الهجمات من ألف إلى ألفين في الشهر.

* * *

دعا كيسي هاري إلى اجتماع في أوائل تموز 2004. وجد هاري الجنرال على الشرفة في مقره الجديد في كامب فايسروي، يحدق إلى بغداد. أمسك كيسي بسيجارين.

«هل تدخن؟».

أومأ هاري رأسه وأخذ واحداً.

«حسناً، تعال معي»

سأله عما يجري في العراق فعلاً.

يتفاقم التمرد السني ويزداد سوءاً؛ مثلما شرح هاري. وهو منظم، ومتسق، ومترابط، وأفراده يتبعون إستراتيجية محددة، ويزداد الدعم الشعبي لهم. ويعتقدون أنهم يبلون

بلاء حسناً – وهم يحققون نجاحات فعلية وفقاً للمقاييس كلها – عدد الهجمات، الدعم اللوجستي، التمويل، الدعم الخارجي، حرية الحركة، القدرة على التجنيد والحشد. كل خط بياني كان في تصاعد، في ارتفاع حاد.

التمرد ليس حرب عصابات لكسب سلطة سياسية، كما قال. «التمرد هو إنهاك للعدو، ودفعه إلى الرحيل، وتخريب النظام القائم، والتسلل إلى المؤسسات العراقية الناشئة والسيطرة عليها».

وأضاف إن الحكومة العراقية ضعيفة، ويجب أن تكون أشد قوة كثيراً، لكن الولايات المتحدة لن تغير المواقف أو الثقافة. «يجب أن نعمل حول العراقيين. وألا نجبرهم على اتخاذ قرارات لا يشعرون بالارتياح لها. ليست لدينا القوة المحركة. لا نملكها مطلقاً»، كما قال.

أضاف هاريي أن على الأمريكيين تعلم العمل بتواضع؛ لأن هناك الكثير مما لا يفهمونه فيما يتعلق بكيف ولماذا يتخذ العراقيون قراراتهم. نظن أننا نعرف، لكننا واهمون. نقتنص هذه الومضات الخاطفة، ثم نخمن مداليلها استقرائياً. لكن إن نقّبت فعلاً، لتعرف الأسس والركائز الفعلية، فلن تسمع سوى أصوات هامسة بالحقيقة: «نحن لا نفهم المعركة التي نخوضها» حسبما قال.

أكد هاريي أن فضائح تعذيب السجناء في أبو غريب التي انكشفت قبل بضعة شهور ألهبت غضب العراقيين. وصور الجنود الأمريكيين المبتسمين إلى جانب السجناء العراة الذين عصبت عيونهم وغطيت رؤوسهم وقيدت أعناقهم بالسلاسل وجروا كالكلاب اكتسحت الصحف وشاشات التلفاز ومواقع الإنترنت. وانتشرت بسرعة البرق في المجتمع العراقي وبعثت برسالة مدمرة: الاحتلال الأمريكي ليس سوى ديكتاتور قمعي جديد.

عندما انتهى الاثنان من التدخين واقترب الحديث من خاتمته، ثبت هاريي نظرته المحدقة على القائد العام الجديد، وقال: «نحن في ورطة».

ازدادت في واشنطن ضراوة المعركة الداخلية حول الحرب وانتقلت من سيّئ إلى أسوأ ضمن الإدارة منذ الغزو عام 2003.

كتب الصحفي الأسطوري ثيودور وايت يقول: «السيطرة هي ما تعنيه السياسة». الحرب تدور حول السيطرة أيضاً – في ساحة المعركة وفي واشنطن، حيث يُفترض أن توضع الإستراتيجية وترسم السياسة. لكن منذ البداية، لم يمتلك أحد في الإدارة السيطرة على سياسة العراق.

في الأيام المبكرة من الحرب، عملت مستشارة الرئيس للأمن القومي، كوندوليزا رايس، ونائبها آنذاك هادلي، دون توقف على العراق، ومع ذلك لم يتمكنا من السيطرة على عملية رسم السياسة. ولم يكونا ندين لرمسفيلد. وكان الرئيس قد وقّع أمراً رئاسياً قبل الغزو، يمنح سلطة الاحتلال إلى وزارة الدفاع.

أضعف اختيار بوش ورمسفيلد لبول بريمر، الدبلوماسي المحترف، حاكماً للعراق، دورَ رايس وهادلي، إضافة إلى باول في وزارة الخارجية. وتجاهل بريمر كلياً مجلس الأمن القومي.

اشتكى هادلي إلى زميل له قائلاً: «أمرنا كلنا بعدم التدخل. فهذه المسألة من اختصاص رمسفيلد».

بل إن بريمر، الذي كان -بوصفه مبعوثاً رئاسياً- يتصل مباشرة بالرئيس، تجاوز حتى رمسفيلد واتخذ قرارات مهمة على نحو أحادي ومفاجئ. وثبت أن بعض هذه القرارات كارثية، مثل حل الجيش العراقي وطرد الآلاف من أعضاء حزب البعث السابق من الوظائف الحكومية.

كان لرمسفيلد رأي خاص به فيما يتعلق بكيفية عمل الولايات المتحدة في العراق. سوف يرسل واحدة من وثائقه الموجزة المعروفة باسم «رقاقات الثلج» لطرح الأسئلة، والبحث عن التفاصيل، والمطالبة بالإجابات، حين لا يتضح له ما يحدث. هذه الوثائق غير موقعة، لكن الجميع يعرفون أنها تمثل أوامره أو أسئلته. لكن إذا تسربت، فإنها تنكر.

تتكوّن الوثيقة التي أرسلت في الثامن والعشرين من تشرين الأول 2003 من صفحتين طويلتين وصنفت بوصفها سرية: «الموضوع: المخاطرة والتقدم في العراق. عند مناقشة مسار التقدم في العراق، اتفق الجميع على ضرورة منح العراقيين مزيداً من السلطة بنحو أسرع» [1].

كان لباول رأي مختلف. فالسيطرة عملية تتعلق بالأمن. في السنة الأولى اللاحقة على الغزو، عبر بوش ورايس مراراً عن القلق من أن مستوى إنتاج النفط في العراق وتوافر الطاقة الكهربائية يتراجع – وهما من العلامات الدالة على أن الأوضاع في العراق أكثر سوءاً بعد الغزو مقارنة بحالها قبله.

قال باول: «النفط مهم. الكهرباء مهمة»، ثم أضاف: «لكنهما يا سيادة الرئيس ليسا بأهمية الأمن... الأمن حاسم الأهمية الآن».

هامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- مراجعة المؤلف وملحوظات مكتوبة عن وثيقة سرية («رقاقة ثلج») بتاريخ 2003/01/28.

-2-

حين انطلق كيسي في تموز 2004 لفك شيفرة ألغاز العراق المحيرة، كان هادلي يعمل على المشكلة في واشنطن. ففي اجتماع لأعضاء مجلس الأمن القومي عقد في السابع من أيلول 2004، أبلغ المجموعة أن عليها العثور على طريقة لقياس النجاح. «نحتاج إلى إطار للتفكير عبره أو استخدامه لتقرير كيف نعرف هل نربح أم نخسر»، كما قال.

بدا أن لكل مسؤول في الإدارة بؤرة تركيز مختلفة. أراد رمسفيلد تسليم زمام الأمور إلى العراقيين والخروج من العراق في أقرب وقت ممكن. اعتقد باول أن الولايات المتحدة تملك الآن العراق وعليها حماية مواطنيه. وعزم رايس وهادلي على تأليف حكومة قادرة على العمل والأداء.

اقترح بعضهم مقاييس متباينة شملت: عدد البلدان التي تسحب جنودها؛ عدد الشركات التي تغادر العراق، وما هي؛ معدلات التجنيد في القوات الأمنية العراقية؛ عدد الرحلات الجوية التي تتعرض لإطلاق النار؛ محاولات الاغتيال.

تمثل مقياس وزير الدفاع في عدد أفراد القوات الأمنية العراقية التي تتلقى التدريب وترسل إلى الميدان. ولم يحظ ضمان الجودة بتركيز كبير. فقد تلقى عشرات الألوف من العراقيين التدريب كما هو مفترض، لكن الأرقام التي تصدرها وزارة الدفاع والزيادات التي تستشهد بها جعلت باول يضحك. إذ يستحيل بناء جيش في ستة أشهر أو حتى سنة. لقد أتت هذه الأرقام من المجهول. كان باول يعرف آلية عمل وزارة الدفاع: مضاعفة الأرقام المستخلصة من القادة الميدانيين بالتخمين.

ومع ذلك، بدت بعض الأرقام دقيقة وصحيحة إلى حد يبعث على الكآبة. فقد أظهر تحليل سري أن قرابة 50% من محاولات الاغتيال في العراق كانت ناجحة في أيلول عام 2004. وبحلول كانون الأول، ارتفعت النسبة إلى 81% [1].

في حين تنازع القادة في واشنطن على السيطرة، وتجادلوا على الإستراتيجية، وحاولوا تقرير كيفية قياس التقدم، كان العراق يتفجر على ما يبدو. فقد اندلعت موجة وبائية كاسحة من العنف قرب نهاية عام 2004، في أثناء شهر رمضان (المبارك عند المسلمين). وتضاعفت الهجمات اليومية من قرابة سبعين في أوائل الشهر إلى مئة وأربعين عند نهايته [2]. وبدا أن توقعات ديريك هارفي وتنبؤاته المتعلقة بالتمرد صائبة وصحيحة الآن. دعا رمسفيلد محلل وكالة استخبارات الدفاع المتمرس والمتوحد ليوجز له ولكبار ضباط الاستخبارات في البنتاغون الوضع في العراق. جلسوا جميعاً حول طاولة المؤتمرات في مكتب الوزير.

التمرد يزداد قوة باطراد، مثلما قال هارفي مرة أخرى. ويتبع المتمردون إستراتيجية، ويعرفون ما يحتاجون إلى فعله لكسب المعركة، وهم على المسار الصحيح. وما يزال التمرد يندفع بقوة المستفيدين السابقين من نظام صدام حسين القديم، الذين يخشون خسارة سلطتهم، وتحفزه الرسائل القومية والوطنية والدينية. وألمحت أسئلة رمسفيلد الدقيقة إلى هارفي إلى أنه لا يوافقه الرأي. فقد عدّ المتمردين عصبة من قطاع الطرق.

أصر هارفي بإلحاح على أنهم ليسوا مجرد قطاع طرق (كان قد حاز لقب «القنبلة اليدوية» حين خدم في وزارة الخارجية). «هؤلاء ليسوا عصبة من العصاة المشتتين، والمحرومين من حقوقهم، الذين لا تجمعهم رابطة أو صلة، أو ولدتهم الظروف المحلية». وليسوا مجرد عراقيين منبوذين. بل يريدون السلطة، والنفوذ، والقوة، ويرفضون هذا التغيير الإجباري. لقد سارت الحرب على ما يرام فعلاً في بدايات عام 2004، لكن الكارثة المزدوجة الناجمة عن فضيحة «أبو غريب» وهجوم قوات التحالف الأخرق على الفلوجة، صبت مزيداً من الزيت على نار التمرد وعززت غرضه ودعمت غايته. إن مستوى التجنيد يتعاظم، مثلما أبلغ هارفي رمسفيلد.

رد رمسفيلد: «هذا كله مثير للاهتمام، لكنه مجرد رأي لا حقيقة».

قال هارڤي: «لدينا أدلة دامغة». واستشهد بوثائق، ورسائل، وتقارير عمليات التحقيق والاستجواب. وأضاف إن طرقنا خاطئة في كبح التمرد وإحباط مساعيه. ومن الحلول الناجعة إشراك العشائر.

سأله رمسفيلد: «ما سندك؟ ولماذا تقول هذا كله؟».

ذكّره هارڤي بأنه زار العشائر وتحدث إلى زعمائها على مدى سنوات. «نحن نقلل باستمرار من مستوى العنف». ولا فائدة ترتجى من جمع الأرقام في حين أن العنف أخطر وأوسع نطاقاً مما نذكر في تقاريرنا. وقدر أن نسبة الهجمات التي يعلن عنها لا تتجاوز 25% من العدد الحقيقي.

قال رمسفيلد: «حسناً، لا يمكنك أن تعد كل رصاصة تطلق».

لم يعارض هارڤي.

سأل رمسفيلد: «إذاً، أنت تعتقد بذلك كله؟».

«أجل».

قال: «نريد أن تنقل هذا كله إلى البيت الأبيض».

حمل هارڤي إيجازه إلى غرفة العمليات (التي تصل إليها آخر الأخبار والمعلومات) حيث جلست رايس وهادلي يستمعان إلى وصف للتمرد المنظم والقوي والمنسق والمتطور.

قالت رايس: «هذه أول مرة أسمع فيها هذا».

فوجئ هارڤي أيضاً. وفتح مجلداً بثلاث حلقات. ثم قال واصفاً الجهود الهائلة المبذولة للمساعدة على تحسين شبكات الماء والكهرباء ومعالجة مياه الصرف الصحي: «لدينا هذه البرامج كلها».

قال هارڤي إنه كان عضواً في فريق ألّفه الجنرال كيسي لمعاينة مثل هذه البرامج، ووجد أن المال أنفق في غير محله، وأحياناً لم ينفق قط، وذلك على الرغم من العقود

التي أبرمت كلها. ثمة حاجة إلى المال في المناطق التي ترتفع فيها نسبة البطالة، حيث يشعر الناس بالحرمان من حقوقهم. لكن الإجابة من القادة كانت كما قال: «هذه المناطق غير آمنة».

بعد ذلك أوجز هاري معلوماته إلى لويس ليبي كبير موظفي نائب الرئيس ديك تشيني.

كانت ردة فعل ليبي مختلفة عن ردة فعل رايس وهادلي. «كنت قلقاً من أن هذه هي الحالة التي نتعامل معها فعلاً»، كما أبلغ هاري.

في كانون الأول 2004، عاد هاري ليوجز الوضع للرئيس بوش. حضر اللقاء أيضاً رمسفيلد ورايس ومدير وكالة المخابرات المركزية الجديد بورتر غوس وخبير الوكالة المتمرس جون تشارلز.

كان بوش قد تلقى تحذيراً من أن هاري يتبنى رأياً غير تقليدي. طرح الرئيس ثلاثة أسئلة على الفور: من أنت؟ وما خبرتك في العراق؟ ولماذا أصدق ما تقول؟

أجاب هاري: «قضيت زهاء خمس وعشرين سنة أعمل في الشرق الأوسط» لمصلحة الجيش ووكالة استخبارات الدفاع. «وأحمل شهادات عليا. وأمضيت الشهور الثمانية عشر الأخيرة أعمل، وأسافر، وأتحدث مع المتمردين، وأجلس في غرف التحقيق والاستجواب». وصف رحلته إلى الفلوجة، بؤرة التمرد، في خضم الانتفاضة حين كانت المدينة مطوقة ومحاصرة من الجهات كلها. دخلها دون مرافقة مسلحة وقضى الليل يتحدث مع عبد الله الجنابي، أحد كبار رجال الدين في التمرد. قال هاري: «نحن نصنفه في فئة المتطرفين الدينيين. لكنه بعثي وغاضب، فقد أحد أفراد أسرته. ويشرب الويسكي».

قال بوش: «حسناً، لنتابع».

يواجهك عدو مترابط ومتماسك، كما قال هاري. ويتبع المتمردون إستراتيجية، ويبلون بلاء حسناً وفقاً للمقاييس كلها. وهم منظمون أحسن تنظيم، ويكسبون مزيداً من الدعم الشعبي والتأييد. المقاييس كلها: بيانات الهجمات، الإمداد اللوجستي، التمويل، الدعم الخارجي، حرية الحركة، القدرة على التجنيد والتعبئة – تتجه بخطوطها البيانية وجهة

واحدة: نحو الأعلى. هذا العدو مؤلف من السنّة من أصحاب النفوذ والسلطة السابقين، لا من عصبة من الشباب الغاضبين. وإجراء انتخابات الآن سيفرز نتائج عكسية؛ لأن السنة سيقاطعونها، ومن ثم يتسعر لهيب نار التمرد.

أبلغ هارية الرئيس أن سوريا تقدم الدعم للمتمردين في العراق، ومع أنها لا تمثل عاملاً حاسماً في التمرد، إلا أنها توفر العمق الإستراتيجي له. فكبار مسؤولي النظام السابق موجودون في العاصمة السورية دمشق، حيث يزودون بالتوجيه السياسي ويوفر لهم التنسيق والمال. واكتشفت الاستخبارات أن الأموال السورية التي تأتي إلى الرمادي تقدر بمبلغ 1.2 مليون دولار في الشهر على أقل تقدير.

رد تشارلز، خبير وكالة المخابرات المركزية، بالقول إن التمرد مشتت ومشاكس ومحلي، ويفتقد التنسيق واللحمة، ومؤلف من شباب عاطلين عن العمل وغاضبين ومحرومين. ولا يتمتع السوريون بمثل هذا القدر من التأثير.

بدأ هارية يذكر أسماء وتواريخ ومبالغ مالية، مؤكداً أن معلومات الاستخبارات أظهرت أن رجلاً ترك مبلغ 300 ألف دولار في الرمادي، ثم مبلغ 250 ألفاً في محافظة ديالى.

رد تشارلز: «أنت تبالغ في تخميناتك الاستقرائية».

عرض هارية بعض الشرائح (السلايدات) التي أظهرت على الشاشة أسماء زعماء التمرد في مختلف المحافظات. «هؤلاء هم زعماؤهم الرئيسون. هنا يقوّمون أداءهم الجيد. هنا، لا يعتقدون أن أداءهم كان جيداً»، كما قال. أظهرت الرسوم البيانية شبكات من العلاقات الدينية والعشائرية جمع هارية أجزاءها معاً.

قال غوس بورتر، مدير وكالة المخابرات المركزية، ناقضاً فجأة وجهة نظر الخبير العامل تحت إمرته: «نوافقك الرأي».

رفعت الجلسة. واكتفى الرئيس بالقول: «شكراً لكم».

في كانون الأول 2004، كتب روبرت غرينيير، مدير مهمة وكالة المخابرات المركزية في العراق منذ ما قبل الغزو، تقريراً سرياً إلى مدير الوكالة الجديد بورتر غوس قال فيه إن

العراق على وشك إجراء أول انتخابات في الشهر القادم، وإن الرئيس بوش يعد الحدث خطوة مهمة على طريق الديمقراطية.

وأضاف: «لم يتبق سوى شهر على الانتخابات، وحان الوقت لمواجهة الحقائق»[3]. فالتمرد السني لن ينتهي، والانتخابات لن تصلح الأمور؛ إذ قرر السنة مقاطعة الانتخابات. في حين إن حكومة جديدة بقيادة شيعية سوف تؤكد أن السنة خسروا السلطة، وهذا سيصب مزيداً من الزيت على نار التمرد دون شك. أما النتيجة فستكون زيادة احتمال نشوب حرب أهلية. فبين المذهبين الإسلاميين ما صنع الحداد وتاريخ طويل من العنف يعود إلى عهد الخلفاء الراشدين (بعد وفاة النبي). والانتخابات ستزيد أتباعهما اختلافاً وانقساماً.

زار تشارلز ألن، مساعد مدير وكالة المخابرات المركزية لجمع المعلومات الاستخبارية، العراقَ، وأصدر تقويماً قاسياً وصارخاً ذكر فيه أنه فوجئ بمدى تدهور الوضع، ودُهش بمستوى الفوضى والعنف. كان العراق يخرج عن السكة.

استدعت رايس كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي قرب نهاية السنة لمناقشة تقريري وكالة المخابرات المركزية كليهما.

لكن بوش لم يغير رأيه. فتأجيل الانتخابات العراقية، مثلما أوصت الوكالة، لن يحدث. وأصر بكل عناد: «سوف تجري الانتخابات في الثلاثين من كانون الثاني».

في يوم السبت الثامن من كانون الثاني 2005، كان هادلي في مكتب الجناح الغربي، يستعد لتسلم منصب مستشار بوش لشؤون الأمن القومي في ولايته الثانية. أما رئيسته السابقة رايس فسوف تصبح وزيرة للخارجية. تميز هادلي، صاحب القامة الطويلة والابتسامة الدافئة (والنظارات العريضة)، بالهدوء والدأب والمثابرة، ويبدو من مظهره كأنه أستاذ جامعي. اعتاد ارتداء سترته الدكناء حتى في مكتبه، وحين كان يُستدعى إلى المكتب البيضاوي على بعد 75 خطوة، كان يذهب بالبزة الكاملة مع ربطة العنق حتى في عطلة نهاية الأسبوع.

في بداية ولاية بوش الثانية، بدت غالبية الأهداف في متناول اليد. «كانت فرصة نشر الحرية في شتى أرجاء العالم، خصوصاً في الشرق الأوسط الكبير والعالم الإسلامي، الفكرة المهيمنة على ولاية الرئيس والمفهوم المحدد لها... لم يكن الأمر مجرد واجب أخلاقي، ولا لأنه منسجم مع مبادئنا فقط، بل متسق مع مصالحنا أيضاً، وعامل جوهري لأمننا القومي... فمن أجل ضمان الحرية في أرض الوطن، يجب أن تسير قدماً خارجه. هدف كبير. ليس كبيراً فقط بل هائلاً»، مثلما قال هارلي ذلك اليوم.

تلك كانت المهمة التي سيتولى هارلي القيام بها. أما فيما يتعلق بالرئيس، كما أضاف: «فالرجل صاحب رؤية... وهو يتحدى الحكمة التقليدية بجسارته وجرأته، ولا يقدم أي اعتذارات. يجلس هناك ويعيد توكيد المهمة، ومن الواضح أنه يجلها ويقدرها. لكن ذلك يصيب الآخرين بالصدمة، ويقولون: ما الذي يفعله راعي البقر هذا؟».

لكن الأمر مختلف في البيت الأبيض، كما قال هارلي. «نحن نؤمن به. نؤمن به، ونعتقد بعظمته. في داخله عظمة، ويستطيع أن يكون رئيساً عظيماً. لدينا واحد الآن».

سوف يكرر هادلي موضوعه الذي يثير الرهبة في النفوس بعد شهور، في صبيحة يوم سبت آخر في مكتبه. قال عن بوش: «إنه رجل غير عادي». وأضاف إن هناك أسلوباً أكاديمياً وتحليلياً ومطولاً ومملاً من الخطاب والجدل في جامعة كورنيل وكلية الحقوق في ييل، التي تخرج منها عام 1972. لكن «بوش رفض ذلك كله»، وتبنى أسلوب ميدلاند (بولاية تكساس)، ويعتقد كثيرون أنه «مبالغ في التبسيط، وقائم على بعدين اثنين، ويفتقد التعقيد والحذق».

لكن ما فات على كورنيل وييل ومعظم الولايات المتحدة اكتشفه هادلي كما يعتقد. «الرجل قوي فعلاً. وما لا يدركه الناس أن الجميع بحاجة إلى تلك القوة؛ وهو يفهم هذه الحقيقة... نحن جميعاً بحاجة إليها. نحن أقوياء لأنه قوي».

من المؤكد أن قبول هادلي بأساليب بوش وطرقه يثير بعض الأسئلة الأساسية.

حين قابلت الرئيس في العشرين من آب 2002 لجمع مادة كتابي «بوش محارباً»، أشار عشر مرات إلى «غرائزه الفطرية» أو ردود أفعاله «الغريزية» بوصفها دليلاً هادياً

لقراراته. «لست لاعباً يعتمد على الكتب التعليمية، بل على المواهب الفطرية». وكتبت: « تعد غرائزه الفطرية طبيعة ثانية له تقريباً» [4].

في العادة، يتطلب صنع القرار المتعلق بالأمن القومي عملية صارمة ودقيقة من تقصي بدائل مسار العمل. لكن الرئيس «الواثق البعيد عن الشك» يكتسح أي عملية، ولا يسمح بكثير من التفكير وإعادة النظر. لقد أصبح الرئيس وأعضاء فريقه من المسوقين لثقة بوش ويقينه. ولم يكتف هادلي بالإذعان لأحكام بوش وآرائه فقط، بل لمنهجه وأسلوبه أيضاً. فعمل على تهميش أسلوب كورنيل وييل، وتجربته الخاصة.

من المتعذر تقريباً معارضة رئيس على هذا القدر من اليقين والثقة، والاعتماد على الفعل، والبطولة التي يتعبدها مستشاره للأمن القومي. ولذلك افتقرت الإدارة إلى عملية لتفحص التبعات والعواقب، وسبر البدائل والاحتمالات، وتحليل الدوافع والبواعث. ولم يوجد نظام لإبطاء العملية بحيث تطرح الأسئلة الصائبة ويُجاب عنها، وتخضع بدائل مسار العمل للتفكير الجدي. يجب أن يكون مستشار الأمن القومي مفاوضاً ومحكّماً، ويحاول التفكير في كل جانب من جوانب المشكلة. لكن هادلي أصبح محامي سياسة الرئيس الخارجية، والمدافع العنيد عنه، والمهلل المطبل لعظمته.

طوال شهر كانون الثاني 2005، تشبثت وكالة المخابرات المركزية بتحذيراتها المنذرة بالسوء والشؤم. وقبل يوم من الانتخابات العراقية، أغلق بوش الملف الذي يوجز آخر المعلومات في اجتماع عقد في المكتب البيضاوي، حيث حُذّر مرة أخرى من أن العاقبة قد تكون وخيمة.

قال: «حسناً، سنرى من هو على صواب».

حين ذهب قرابة ثمانية ملايين عراقي إلى صناديق الاقتراع، ورفع كثيرون أصابعهم المطلية باللون القرمزي لإثبات مشاركتهم. امتدح بوش «صوت الحرية» الآتي من الشرق الأوسط. لكن وكالة المخابرات المركزية، خلافاً لذلك، رأت في الانتخابات بداية لتجذّر مزيد من الاضطراب والفوضى والعنف.

في أمسية يوم الانتخابات (30 كانون الثاني 2005)، كان كيسي على وشك الاجتماع بهيئة أركانه في بغداد حين اتصل به رمسفيلد. وخرج إلى الممر ليتسلم المكالمة.

قال الوزير: «أنظار العالم مركزة عليك، فقد أنجزت المهمة بنجاح».

أجاب كيسي: «شكراً لك، سوف أنقل التحية إلى الجميع».

كانت لحظة مثيرة، ذروة أكثر الأيام إثارة مذ أتى كيسي إلى العراق. شجعه وحرك مشاعره هذا العدد الكبير من العراقيين الذين تقدموا للمشاركة في رسم مستقبلهم. كان يقول في فرحة التحضير للانتخابات: «انظروا، ملايين العراقيين سوف يدلون بأصواتهم».

لكن كيسي شعر بأن الفرحة لم تكتمل، وأعطت نوعاً من الانطباع الخاطئ. فنسبة ثمانين في المئة من العراقيين هم من الشيعة والأكراد. وهؤلاء سيشاركون في الانتخابات طبعاً. لكن السنة، الذين أمسكوا بزمام السلطة في عهد صدام، ويمثلون الآن أغلبية المتمردين، قاطعوا الانتخابات.

شعر كيسي، وهلة عابرة، بعد أن مدحه رئيسه وهيمنت النسبة الساحقة من الناخبين على عناوين الأخبار، بأن الوقت قد حان للاسترخاء والتفكير والتأمل: تُرى، هل سينجح هذا المشروع المغامر؟

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الكتاب أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- مراجعة المؤلف وملحوظات مكتوبة عن وثيقة بتاريخ 2008/1/8.

2- الجدول البياني للحوادث الأمنية في العراق بين كانون الثاني 2004 وأيار 2008.

3- رواية مصدر مطلع لوثيقة كانون الأول 2004.

4- مقابلة مع الرئيس بوش 2002/8/20. انظر أيضاً:

Bob Woodward, Bush at War, New York: Simon & Schuster, 2002, P. 342.

-3-

في أوائل عام 2005، وظفت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس صديقها وزميلها القديم فيليب زيليكو مستشاراً في الوزارة. المنصب بعيد عن الأضواء عادة لكنه نافذ ومؤثر. كان زيليكو، المفكر الحاصل على إجازة في الحقوق، ودكتوراه في التاريخ، وصاحب الأنا المتورمة، قد شارك رايس في تأليف كتاب عن إعادة توحيد ألمانيا بعد نهاية الحرب الباردة، وخدم بعد ذلك مديراً تنفيذياً في لجنة الحادي عشر من أيلول، التي تفحصت الهجمات الإرهابية ودرستها بالتفصيل ونشرت تقريراً (حقق أعلى المبيعات) فصّل أسبابها وجذورها وتنفيذها.

أرسلت رايس، التي لم تكن تثق كثيراً بصحة القصة المقدمة إليها من العسكر، زيليكو إلى العراق مع فريق صغير لتقويم الوضع على الأرض.

أبلغ كيسي رئيس هيئة الأركان المشتركة بيتر بيس: «إذا أرادوا إرسال زيليكو فيجب عليه معاينة موظفي الوزارة. فهم الذين أفسدوا الأمور كلها».

قال بيس إن من المنطقي أن يعاين زيليكو كل شيء.

حين وصل زيليكو إلى العراق قال له كيسي: «يمكنك الذهب حيث تشاء والتحدث مع من تريد».

في العاشر من شباط 2005، كتب زيليكو تقريراً من خمس عشرة صفحة (عُدّ سرياً ولا يوزع، أي لا يرسل إلى أحد سوى رايس نفسها). استنتج التقرير أن «العراق ما يزال دولة فاشلة. ويظهر العنف المستمر فشلها» [1]. قام زيليكو بزيارتين سريتين أخريين إلى العراق، نسج بعدهما بكل عناية الأخبار السارة مع جرعة قوية من الواقعية.

امتدحت رايس زيليكو على مذكرته، التي عرضت نتيجة ختامية واضحة: الولايات المتحدة لا تعرف ما الذي تفعله في العراق.

شعر رمسفيلد بالقلق دوماً من المفاجآت – «المجاهيل المجهولة» على حد تعبيره. في الحادي عشر من تشرين الأول 2005، أرسل وثيقة سرية إلى بيس وأبي زيد وكيسي بعنوان «تقرير استخباري عن العراق» [2]. وكان قد قرأ تقريراً لوكالة المخابرات المركزية يناقش طرق إجهاض هجوم يشنه المتمردون في العراق على غرار هجوم رأس السنة القمرية الذي شنه الفيتناميون.

فشل هجوم كانون الثاني عام 1968 الذي شنته القوات الشيوعية في فيتنام فشلاً عسكرياً ذريعاً، لكنه مثل انتصاراً نفسياً كاسحاً صدم الرأي العام الأمريكي، كوّن نقطة انعطاف كبرى في الحرب.

سأل رمسفيلد في المذكرة المؤلفة من فقرة واحدة والموجهة إلى الجنرال كيسي: «ما رأيك؟». هل يستطيع المتمردون في العراق شن هجوم مشابه؟».

أجاب كيسي: «أعتقد أن الفكرة أتت من عمل طلبت من السي آي إيه القيام به حول هجوم رأس السنة العراقي. والنتيجة أن هذا التمرد غير قادر على شن هجوم واسع النطاق. فالمتمردون يفتقدون التنظيم أو التشكيلات الحربية، لكنهم لا يحتاجون إلى أي منهما. يمكنهم ترك إدراك أو انطباع عن هجوم واسع النطاق بعدد أقل كثيراً بسبب زيادة حضور وسائل الإعلام» [3].

كان الكونغرس يطالب بدراسة للإستراتيجية. وجعلته رايس جوهر شهادتها أمام لجنة الشؤون الخارجية في التاسع عشر من تشرين الأول 2005. «يجب أن تتمثل إستراتيجيتنا العسكرية-السياسية بالإخلاء، والسيطرة، والبناء: إخلاء المناطق من المتمردين، وتأمينها والسيطرة عليها، ثم بناء مؤسسات عراقية قابلة للبقاء والاستمرار» [4].

اتصل كيسي بأبي زيد وسأله: «ما هذا بحق الجحيم؟».

رد قائد القيادة المركزية: «لا أعرف».

«هل توافق على هذه الإستراتيجية؟».

«لا، لا أوافق عليها».

حين أتت رايس إلى العراق بعد ذلك، طلب كيسي عقد لقاء خاص معها ومع السفير الأمريكي زلماي خليل زاد.

«عفواً سيدتي، ماذا يعني الإخلاء والسيطرة والبناء؟».

بدت رايس مدهوشة قليلاً: «جورج، هذه إستراتيجيتك».

«سيدتي، إن كانت هذه إستراتيجيتي ألا تظنين أنه كان على شخص ما أن يتفضل ويبلغني بها قبل أن تذيعيها على الملأ؟».

«أبلغنا الجنرال أوديرنو». كان الجنرال ريموند أوديرنو، صاحب القامة الطويلة والرأس الأصلع، يقود فرقة المشاة الرابعة في أثناء الغزو، وسافر الآن مع رايس بوصفه ضابط ارتباط بين المؤسسة العسكرية ووزارة الخارجية.

«سيدتي، بذلت جهداً كبيراً لدعم وزارة الخارجية في هذه المسألة، والحقيقة أنه لم يبلغني أحد. وأعد الأمر خطأ وخروجاً على القواعد».

كررت رايس القول إنها أبلغت الجنرال أوديرنو، واعتذرت فيما بعد إلى كيسي.

برأي كيسي، لم يكن الأمر مجرد خطأ في الاتصال. إذ لم ير في «الإخلاء والسيطرة والبناء» إستراتيجية قابلة للتطبيق، بل مجرد شعار براق (مثل تلك اللصاقات الصغيرة التي توضع على مانع الصدمات في مقدمة السيارة ومؤخرتها!). أما هدفه الرئيس فهو بناء المؤسسات العراقية كلها بحيث يتمكن الجنود الأمريكيون من العودة إلى الوطن. اتصل برمسفيلد.

«السيد الوزير، ما هذا 'الإخلاء والسيطرة والبناء'؟».

قال مزمجراً: «أوه! اللعنة على وزارة الخارجية...».

تحدث كيسي مع زيليكو. قال له إن الأمر أكثر من مجرد شعار. «فيليب، ما أقوله ليس رسمياً ولا مهنياً، بل شخصياً. أصارحك الرأي، كان يجب أن تتصل بي وتبلغني».

قال زيليكو: «حسناً...».

«هراء! دعنا نتحدث رجلاً لرجل. نحن نتعامل فيما بيننا كأفراد. كان يجب أن تتصل بي».

رد زيليكو: «جورج، كيف يمكنني الاتصال بك؟». يعرف الاثنان أن رمسفيلد مصاب بذهان الارتياب. فقد أُرسلت شهادة رايس إلى البنتاغون مقدماً ووقع عليها، لكنها لم تجد طريقها إلى كيسي قط.

بدا رد زيليكو على كيسي بسيطاً: «يمكنك الوثوق بي».

بعد وقت قصير من تصريح رايس عن الإستراتيجية، شاهد رمسفيلد عبارة «الإخلاء والسيطرة والبناء» في مسودة خطبة سوف يلقيها الرئيس. اتصل باندرو كارد، كبير موظفي البيت الأبيض، قبل زهاء نصف ساعة من موعد إلقائها.

قال بإلحاح: «احذفها، احذفها». ليس ثمة مشكلة في «التحرير» لأن هذا ما تفعله الولايات المتحدة. «لكن على العراقيين أنفسهم واجب السيطرة. وعلى وزارة الخارجية العمل مع طرف آخر من أجل 'البناء'».

خسر رمسفيلد. إذ قال الرئيس في خطبته التي ألقاها في الخامس والعشرين من تشرين الأول: «ومثلما شرحت الوزيرة رايس في الأسبوع الماضي، فإن إستراتيجيتنا هي الإخلاء والسيطرة والبناء» [5].

قبل شهور، أمر كيسي بإجراء دراسة عن ممارسات مكافحة التمرد، وكيف تطبق (أو لا تطبق) في مختلف أرجاء العراق.

في الثاني عشر من تشرين الثاني، قدم تقريراً من خمس عشرة صفحة إلى رمسفيلد. بينت الصفحة الثالثة الممارسات الناجحة والفاشلة في مكافحة التمرد. ولاحظ كيسي أن الناجحة تستمر تسع سنين في المعدل المتوسط، في حين تستمر الفاشلة مدة ثلاث عشرة سنة [6].

شملت خصائص الممارسات الناجحة في مكافحة التمرد توكيد المعلومات الاستخبارية، وتركيزاً على حاجات المواطنين وأمنهم، وقدرة على حرمان المتمردين من الملاذ الآمن وعزلهم عن باقي السكان، وقوة فاعلة من الشرطة المحلية.

أصبح من الواضح باطراد أن الجهود المبذولة في العراق تتصف بكثير من سمات الممارسات الفاشلة في مكافحة التمرد.

حين كان كيسي يحاول إخماد التمرد والقضاء على القاعدة في العراق، كان رمسفيلد يحاول، من مكتبه في الطابق الثالث من مبنى البنتاغون، التحكم بالعالم والسيطرة عليه بواسطة وثائقه ومذكراته السرية.

فربما يشرح بالتفصيل قضايا بحجم إستراتيجية الحرب؛ وبعد دقيقة يكتب مذكرة عن قواعد اللغة. إذ لا توجد تفاصيل مسهبة جداً ولا تفاصيل مختصرة جداً.

كتب رمسفيلد في مذكرة سرية إلى رايس في السابع عشر من تشرين الثاني حول قوات الأمن العراقية: «لاحظت أيضاً في الصفحة الثانية خطأ يجب تصحيحه في عدد النجوم (*) في المجموعة الثالثة».

«أريد أن أعرف على وجه الخصوص لماذا لا نستطيع إدخال أي تحسين على الإطلاق على نظام الرموز الملونة [التصنيف باستخدام رموز ملونة] بين الخامس عشر من كانون الأول والأول من تموز» [7].

* * *

في الثاني من كانون الأول 2005، أُرسلت مذكرة من رمسفيلد إلى كيسي وأبي زيد: «الموضوع: تسلل المتمردين إلى محافظة الأنبار» [8].

كان رمسفيلد قد اطلع على تقرير لوكالة المخابرات المركزية يقوّم تسلل المتمردين إلى بعض وحدات الجيش العراقي في المحافظة، ووجد التقرير، الذي زعم اعتماده على مصادر متعددة من المعلومات الاستخبارية البشرية وغيرها، أن الإرهابيين والمقاتلين الأجانب «ناشطون في مناطق غرب العراق واخترقوا بعض عناصر الجيش العراقي في محافظة الأنبار».

أراد الوزير إجابات.

أجاب كيسي: «أتفق عموماً مع جوهر التقرير وفحواه. نحن ندرك أن المتمردين وأفراد المليشيات اخترقوا قوات الأمن العراقية نتيجة الفساد لا الإيديولوجية بوصفه المحفز الرئيس. التأثير محدود في الجيش العراقي، لكن أظل قلقاً من ولاء بعض عناصر الشرطة العراقية للحكومة المركزية» [9].

«مرفق تقرير مقلق لوكالة استخبارات الدفاع عن مراكز اعتقال قوات التحالف وشبكات المتمردين»، مثلما كتب رمسفيلد في الثاني عشر من كانون الأول إلى كيسي وأبي زيد والسفير زلماي خليل زاد.

جلب التقرير المرفق والمؤلف من خمس صفحات من وكالة استخبارات الدفاع مزيداً من الأخبار المقلقة من العراق، وأشار إلى أن برنامج الاحتجاز العدائي يوجد مزيداً من الإرهابيين.

وذكر أن «المتمردين والإرهابيين يستخدمون مرافق احتجاز قوات التحالف لتبادل المعلومات حول الأساليب التكتيكية الناجحة، ويدربون المتمردين المحتجزين على مهارات الإرهاب، ويمارسون الدعوة إلى الإسلام المتطرف، ويجندون كثيراً من الأعضاء الجدد في التمرد» [10].

في أحد مراكز الاحتجاز، كما ذكر التقرير، خضع المحتجزون لتدريب على التمرد لإعدادهم وتجهيزهم بعد إطلاق سراحهم، حيث لُقن المجندون الجدد كيف يتحولون إلى انتحاريين، وكيف يستخدمون العبوات الناسفة المحلية الصنع، ويقومون بعمليات الاختطاف والتعذيب.

كان ذلك كله مقلقاً بوجه خاص حين نأخذ بالحسبان أن أكثر من 75% من المحتجزين أخلي سبيلهم بعد مضي أقل من ستة أشهر على اعتقالهم، ومنهم عدد كبير من المتمردين والإرهابيين.

تابع التقرير يقول: «كثير من المعتقلين يعتقدون اعتقاداً راسخاً ببراءتهم من أي تورط بالتمرد. لكن المجنِّدين من المتمردين يستغلون شعورهم بالإذلال والمهانة، إضافة إلى الغضب والخوف؛ لاستمالتهم وإغرائهم بالانضمام إلى التمرد، وهم رهن الاعتقال في سجون التحالف أو بعد إطلاق سراحهم فوراً».

واختتم التقرير بالقول: «ربما يكون المتمردون والإرهابيون والمقاتلون الأجانب وزعماء المتمردين الذين اعتُقلوا ثم أخلي سبيلهم أشد خطراً من حالهم قبل الاعتقال».

في صبيحة الأربعاء الثاني والعشرين من شباط 2006، تلقى كيسي اتصالاً هاتفياً من الجنرال بيتر تشياريللي (الذي يأتي بعده في سلسلة القيادة): انفجرت عبوة ناسفة في مسجد في سامراء، وهي مدينة على نهر دجلة تبعد قرابة 65 ميلاً إلى الشمال من بغداد.

بدأت الصور تأتي تباعاً وتظهر أن قبة مرقد الإمام العسكري، أحد أقدس أماكن الشيعة، قد دُمرت. كان كيسي قد وضع بمساعدة السفارة لائحة بالأماكن التي يمكن أن تشهد حوادث كارثية محتملة، لكنها لم تضم مسجد سامراء، الذي ترك دون حماية.

أشارت المعلومات الاستخبارية إلى أن أبا مصعب الزرقاوي، قائد منظمة القاعدة (السنية) في العراق، يقف وراء الهجوم. كانت محاولة واضحة لإذكاء نار الفتنة الطائفية، وأدرك كيسي على الفور أن الحادث واحد من «المجاهيل المجهولة» التي خشي منها رمسفيلد كثيراً.

في ساعات قليلة، تدفقت الميليشيات الشيعية، خصوصاً تلك المرتبطة برجل الدين مقتدى الصدر، إلى الشوارع، وأطلقت القذائف والمدافع الرشاشة على عشرات المساجد

السنية في بغداد. قتل ثلاثة من أئمة السنة، واختطف رابع. وقام عشرات الألوف بأعمال التخريب والشغب. فُرض منع التجول نهاراً على بغداد، وبدأت الجثث تظهر بالعشرات في صبيحة اليوم اللاحق.

أدان المسؤولون العراقيون الهجوم، وناشد الرئيس بوش العراقيين ضبط النفس. وخيم هدوء حذر على البلاد بعد عدة أيام، وبدا أن الأسوأ قد انتهى وانقضى.

قال هادلي في أثناء ظهوره في برنامج «واجه الأمة» الذي يبث على محطة سي بي إس في السادس والعشرين من شباط: «النقطة المثيرة هنا هي النتائج التي استخلصها أتباع المذاهب والطوائف من هذا الأسبوع العصيب. لقد حدقوا إلى الهوة السحيقة قليلاً. وأعتقد أنهم استنتجوا أن مزيداً من العنف والتوتر بينهم ليس في مصلحتهم» [11].

لكن بالنسبة إلى بعضهم، بدا أن العراق على شفا حرب أهلية أكثر من أي وقت مضى.

العشرين من آذار، جلب الرئيس الانتباه إلى عمل واحد من أشهر عقداء (كولونيلات) الجيش الأمريكي: «سوف أروي لكم قصة مدينة في شمال العراق تدعى تل عفر، كانت ذات يوم قاعدة أساسية لعمليات القاعدة، وأصبحت اليوم مدينة حرة توفر سبباً للأمل بعراق حر»، كما قال [12].

ثم شرح كيف وصل جنود فوج الخيالة المدرع الثالث البالغ عددهم 5300 رجل، بقيادة الكولونيل إتش. آر. مكماستر، في أيار الماضي إلى تل عفر، الواقعة على بعد 250 ميلاً من بغداد قرب الحدود السورية. لقد خنق المتمردون ومقاتلو القاعدة الحياة في المدينة وملؤوا نفوس سكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة بالخوف من الهجمات الوحشية ضد كل من لا يتعاون معهم. لكن في أثناء الشهور اللاحقة، تمكن مكماستر وفوجه بأسلوب منهجي من طرد المتمردين من القرى المحيطة بالمدينة أولاً، ثم من المدينة نفسها. ثم بدأت عملية إعادة الإعمار واستعادة الخدمات الأساسية، وإصلاح حال قوات الشرطة، وتأسيس حكم محلي. فعادت الحياة إلى المدينة مجدداً.

مثلت العملية تحولاً واضحاً عن العمليات السابقة في العراق، حيث يكتسح الجنود الأمريكيون المنطقة المستهدفة، ويقتحمون منازلها، ويعتقلون كثيراً من الشباب العراقيين الذين لا تربطهم أي صلة بالتمرد، قبل أن ينسحبوا دون ترك أحد خلفهم لمنع المتمردين من العودة إلى إرهاب السكان. لقد غلّ تركيز مكماستر على إدخال التحسينات الاقتصادية والسياسية، إضافة إلى العمليات الحربية، وتوفير الخدمات العامة الأساسية للسكان، فوائد ضخمة.

كان مكماستر في الثالثة والأربعين، رجلاً قوي البنية (يبلغ وزنه 86 كغ) معتدل القامة (175 سم)، أصلع الرأس، أخضر العينين، خلطة من الطاقة والنشاط والحماسة. تخرج من كلية ويست بوينت عام 1984، وأبدى بطولة حقيقية في حرب الخليج الأولى، حيث قاد في شباط عام 1991 جنوده في معركة دبابات حاسمة ضد أحد ألوية الحرس الجمهوري العراقي، ونال نجمة فضية تقديراً لقيادته. وبعيداً عن ساحة المعركة، حظي بسمعة واسعة بوصفه واحداً من أكثر ضباط الجيش بلاغة وصراحة وأعمقهم فكراً. صحيح أن بعض رؤسائه عدّوه مهرطقاً يصعب التعامل معه ويؤدي المهمات بطريقته الخاصة، لكن قلة منهم وضعوا كفاءته وبراعته موضع الشك أو المساءلة.

اعتاد مكماستر أن يقحم تعبير «يا رجل» في جمله الموشّاة بالازدراء والاحتقار. بعد تجربته في حرب الخليج، نال شهادة الدكتوراه في التاريخ العسكري من جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل، حيث أجرى أبحاثاً، وكتبَ أطروحة مبتكرة تحولت إلى كتاب عام 1997 بعنوان «التقصير في أداء الواجب: ليندون جونسون، وروبرت مكنمارا، ورؤساء الأركان، والأكاذيب التي أدت إلى فيتنام».

كشف الكتاب عن ذنب القادة العسكريين وحملهم مسؤولية الإخفاق في فيتنام. وقدم مكماستر الحجة على أن قادة الأركان المشتركة –«الرجال الصامتون الخمسة» كما سماهم – فشلوا في التعبير الكافي عن تحفظاتهم فيما يتعلق بالحرب. واستنتج أن رؤساء الأركان كانوا ضعفاء وأخفقوا في ترسيخ علاقة ودية جوهرية، وشخصية، بالقادة المدنيين بحيث يستطيعون معرفة ما في أذهانهم. أصاب العمل عصباً حساساً لدى جيل من القادة والضباط الذين خدموا في فيتنام وقدم درساً دائماً عن مسؤوليات القيادة وصراحتها ووضوحها.

«التقصير في أداء الواجب» أصبح جوهر كتيب إرشادي ميداني لتجنب فيتنام أخرى، وكتاباً مطلوباً قراءته في المؤسسة العسكرية برمتها. حتى الرئيس بوش قال إنه قرأ الكتاب. ولا ريب في أنه رسخ مكماستر بوصفه صوتاً لجيل جديد من الضباط العسكريين المصممين على عدم السكوت أو الاستكانة أو السلبية، خصوصاً قبل الحرب وفي أثنائها. وغدا مكماستر نوعاً من المقياس للضمير الأخلاقي العسكري وشجاعة الضباط للتعبير عن آرائهم دون خوف.

عزز النجاح في تل عفر سمعته ودعم مكانته.

قال بوش في خطبته التي ألقاها في العشرين من آذار: «تظهر تل عفر أن العراقيين قادرون، حين يعتمدون على مستوى أساسي من الأمان والأمن، على العيش معاً بسلام. وأظهر أهالي تل عفر السبب الذي جعل نشر الحرية والديمقراطية جوهر إستراتيجيتنا لدحر الإرهابيين. والإستراتيجية التي حققت هذا النجاح في تل عفر لم تظهر بين عشية وضحاها، بل عبر ممارسة أسلوب التجربة والخطأ. وتطلب الأمر وقتاً لفهم وحشية العدو في العراق والتكيف معها. لكن الإستراتيجية تعمل بنجاح».

ما لم يوضحه بوش في أصيل ذلك اليوم أن نجاح مكماستر في تل عفر لم يكن جزءاً من إستراتيجية أوسع نطاقاً، بل إستراتيجية مستقلة، ثورية ومتمردة تقريباً تولى تطبيقها عقيد في الجيش ووحدته. وكانت دليلاً إضافياً على أن أعظم المنجزات تحققت في العراق على الرغم من إستراتيجية الإدارة لا بسببها.

في اليوم اللاحق (21 آذار)، ذكر تقرير سري لوكالة المخابرات المركزية أن تنظيم القاعدة في العراق مستمر في النمو، وإضعاف الأمن، ومنع التطور المشروع على الصعيدين السياسي والاقتصادي. وأكد التقرير أنه حتى لو منحت الأقلية السنية دوراً في حكم العراق، فإن «من المرجح أن تستمر منظمة القاعدة في العراق في شن الحرب على الحكومة العراقية على مدى السنوات القادمة» [13].

بعد بضعة أيام، أرسل رمسفيلد مذكرة عبر سلسلة القيادة: «مرفق تعليق ميداني من السي آي إيه عن القاعدة. وجدته لافتاً. تساءلت متعجباً هل نركز بطريقة مناسبة على عمليات القاعدة؟ أود مناقشة المسألة معكم جميعاً»، مثلما قال بأسلوب نموذجي في التقليل من شأن الوقائع [14].

لم يمض وقت طويل قبل أن يصل تقرير مقلق آخر لوكالة المخابرات المركزية إلى مكتب رمسفيلد. وذكر التقرير السري بتاريخ 16 نيسان أن: «قائد شرطة كربلاء العراقي، اللواء رزاق عبد علي الطائي عقد في أوائل نيسان 2006 لقاء في منزله في كربلاء لمناقشة تأليف تحالف بين وحدة مكافحة الجريمة في الشرطة وجيش المهدي»، وهو قوة شبه عسكرية أنشأها رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر، «وقوة الحرس الوطني العراقي في كربلاء لمحاربة القوات الأمريكية إذا هاجمت جيش المهدي. واختُتم الاجتماع بعد أن اتفقت الأطراف كلها على القتال معاً إذا شنت القوات الأمريكية هجوماً على جيش المهدي» [15].

وأضاف التقرير أن اللواء علي زود أفراد جيش المهدي ببطاقات هوية خاصة بالشرطة العراقية تسمح لهم بالاقتراب من القوات الأمريكية ومهاجمتها وإيقاع عدد أكبر من الخسائر بين صفوفها.

في السابع عشر من نيسان، انتقلت الوثيقة من رمسفيلد إلى أبي زيد، وبيس، وكيسي، مرفقة بتقرير وكالة المخابرات المركزية. وبدا أن الوزير يدرك الطبيعة المأزقية لتسريع عملية نقل السلطة إلى العراقيين، مع أنه لم يذكر ذلك صراحة.

كتب يقول: «التقرير المرفق مقلق، وإن كان صحيحاً فربما نحتاج إلى التفكير بسرعة في تجهيز الوحدات وتدريبها التي قد تسبب لنا مشكلة في المستقبل» [16].

في اجتماع مجلس الأمن القومي في الخامس من أيار، وبحضور رايس ورمسفيلد وخليل زاد وغيرهم، أراد بوش معلومات عن المالكي، الرجل الذي اختير رئيساً جديداً للوزراء.

سأل: «كيف حال أدائه؟ ما تقويمكم الشامل له؟».

أجاب خليل زاد: «يعرف ما يريد. لكنه ليس بليغاً».

قال الرئيس مداعباً: «دعوا البلاغة جانباً!».

تابع السفير: «يريد فسحة لتعيين الأشخاص الأكفياء، وتأمين بغداد، ونقل الكهرباء من الباجي إلى بغداد باستخدام وسائل وزارة الدفاع».

قدمت رايس، التي وضعت جدول أعمال الاجتماع، الحجة على ضرورة بذل جهود في ثلاثة مجالات: السياسة والأمن والاتفاقات الدولية. وتطرق النقاش إلى إنتاج النفط والكهرباء وغيرهما من قضايا البنية التحتية.

قال بوش إنه يريد امتناع الولايات المتحدة عن القيام بأي عمل قد يؤثر في الوحدة ويسبب التفرق: «عليكم تجنب النزاع إذا سارت الأمور على ما يرام. إذ لا نريد أن نجري انتخابات عراقية جديدة».

في الثامن من أيار، كتب رمسفيلد مذكرة سرية قصيرة إلى هادلي. الموضوع: «الخسائر الأمريكية في الأرواح». ولاحظ وزير الدفاع أن الخسائر الأمريكية بين الانتخابات في كانون الأول وبداية أيار بلغت «197 قتيلاً و1701 من الجرحى».

«أعتقد أنك في نقطة معينة، إذا كنت تعمل مع القيادة العراقية وتحتاج إلى حجة، يمكنك إبلاغها أنه كلما طال وقت تأليف الحكومة وتوفير القيادة للعراقيين، زاد عدد القتلى. يجب أن نضع حداً» [17].

من جانبه، شعر كيسي بالقلق في الشهور اللاحقة على الانتخابات وهو يراقب «الهواء يخرج من المنطاد مع تفاوض العراقيين على الحكومة».

في السابع عشر من أيار، انعقد مجلس الأمن القومي مجدداً بحضور الرئيس ونائبه. وبعد ثلاثة أيام، سوف يعلن رسمياً تأليف حكومة المالكي في مراسم تقام في بغداد. لكن النقاش تحول إلى الوضع الأمني المتدهور.

أقر كيسي، عبر الفيديو، أن الوضع في معظم أرجاء العراق «مضطرب»، خصوصاً في بغداد، وعدد الهجمات المرتبطة بالعنف الطائفي مرتفع ويزداد ارتفاعاً، وأظهر أسماء وأعدادَ عمليات الإعدام التي جرت حديثاً، فظهرت على وجه الرئيس أمارات الكرب والهم والغم.

ذكر كيسي عملية أمريكية تجري في بغداد باسم ميزان العدالة. أفرزت العملية بعض التأثير، لكن هناك نقصاً في الشرطة العراقية. وتبين أن فرق الموت التي أسستها ميليشيات المهدي هي المسؤولة عن معظم حالات العنف. قُبض على بعض أفراد ميليشيات الصدر وهم يرتدون الزي الرسمي للجيش العراقي.

قال كيسي إن المالكي متشوق على ما يبدو إلى المساعدة على حل المشكلات وعرض بذل كل جهد ممكن.

سأل تشيني، مشيراً إلى فرق الموت: «من الذين تطاردهم؟».

أجاب كيسي أن العمليات ليست عشوائية. فقد شاهد قوائم تضم الأهداف، خصوصاً الشخصيات السنية التي يطاردها الشيعة.

قال الرئيس ملاحظاً: «يبدو أن الدافع سياسي لا جنائي».

وافقه كيسي الرأي.

ثم سأل الرئيس عن مشكلة العبوات الناسفة المحلية الصنع التي تقتل الجنود وتشوههم بمعدلات مرعبة، ومن يقف وراءها.

أكد كيسي حدوث زيادة في الأشهر الأخيرة في القذائف الصاروخية المتفجرة في مناطق الشيعة. وقال إن التقانة التي تأتي من إيران فتاكة على نحو خاص.

سأل الرئيس عن الدافع وراء زرع العبوات الناسفة المحلية الصنع: ما الهدف؟

قال كيسي: «دفعنا إلى الانسحاب في نهاية المطاف. مع أن بعض العنف يمارس الآن لأجل العنف ذاته وذلك لممارسة الضغط على العملية السياسية».

قال بوش إنه مدهوش من حجم الهجمات وعددها، وسأل عن إمكانية وجود نوع من البنية القيادية التي تضم عدداً قليلاً من الأشخاص الذين يستطيعون إصدار أمر بإيقافها. قال كيسي إن البنية مفككة إن وجدت أصلاً.

سأل بوش عن مشكلة العبوات الناسفة المحلية الصنع وهل تكون مهمة وصعبة في حالة عدم وجود القوات الأمريكية. قال كيسي إنها ستستهدف القوات العراقية في هذه الحالة. لكن في اللحظة الراهنة يمثل الأمريكيون أهداف ثلثي عدد الهجمات.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- ملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2005/2/10.

2- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2005/10/11.

3- مراجعة المؤلف وملحوظات على مذكرة سرية.

4- انظر:

Federal News Service, «Hearing of Senate Foreign Relations Committee, Subject: Iraq in United States Foreign Policy,» October 19, 2005, www.fnsg.com

-5 Presidential Documents, October 25, 2005, PP. 1610-1617 (Vol. 41, No. 43), www.gpoaccess.gov/wcomp/v41no43.html

6- مراجعة المؤلف وملحوظات على إيجاز سري بتاريخ 2005/11/12.

7- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2005/11/17.

8- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2005/12/2.

9- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية.

10- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2005/12/12.

11- انظر: CBS News Transcripts, Face the Nation, February 26, 2006.

-12 Presidential Documents, March 20, 2006, PP. 498-516 (Vol. 42, No. 12), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no12.html

13- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/3/21.

14- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/4/3.

15- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/4/16.

16- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/4/17.

17- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/5/8.

-4-

أنشأ الكونغرس، المحبط بسبب عدم تحقيق تقدم، مجموعة دراسة للوضع في العراق مكونة من الحزبين معاً*، وذلك لتقويمه بطريقة مستقلة وتقديم توصيات تتعلق بالسياسة إلى الرئيس. وقدم البيت الأبيض دعماً خجولاً ومتردداً.

تألفت اللجنة من أعضاء شيوخ شيبتهم السنون. وترأس عليها كل من الجمهوري جيمس بيكر (77 سنة) الذي شغل سابقاً منصب وزير الخارجية والمستشار السياسي للرئيس جورج بوش الأب، والديمقراطي لي هاملتون (76 سنة) الذي خدم في المجلس طوال 34 سنة، ورأس لجنة الشؤون الخارجية فيه، وكان عضواً في كل لجنة رفيعة المستوى تألفت منذ حرب فيتنام.

ضم الأعضاء الجمهوريون الآخرون المدعي العام السابق الجنرال إدوين ميز، كبير مستشاري البيت الأبيض في عهد الرئيس رونالد ريغان، الذي حل محل رودي غولياني (الذي رشح نفسه للرئاسة)؛ وقاضية المحكمة العليا المتقاعدة ساندرا داي أوكونور، أول امرأة تتسلم منصباً في المحكمة العليا؛ وروبرت غيتس، مدير وكالة المخابرات المركزية السابق في عهد بوش الأب؛ والسيناتور السابق المشهور بصراحته وجرأته ونزقه وصعوبة العمل معه، ألن سيمبسون (من ولاية وايومنغ). أما الديمقراطيون فهم ليون بانيتا، عضو الكونغرس السابق عن ولاية كاليفورنيا، وكبير موظفي البيت الأبيض في عهد بيل كلينتون؛ وفيرنون جوردان، محامي الحقوق المدنية والمستشار الموثوق لكلينتون؛ ووليام بيري، خبير الشؤون العسكرية المتحفظ الذي يحمل شهادة الدكتوراه في الرياضيات، وشغل منصب وزير الدفاع في عهد كلينتون؛ وحاكم ولاية فرجينيا السابق السناتور تشارلز روب، الذي خدم في مشاة البحرية في أثناء حرب فيتنام وصهر الرئيس الراحل ليندون جونسون.

* سوف نطلق على المجموعة اسمها الشائع: لجنة بيكر-هاملتون.

التقت اللجنة بانتظام لمقابلة مسؤولي الإدارة، والزعماء العراقيين، وأعضاء الكونغرس، والعلماء والباحثين، وأفراد المؤسسة العسكرية. خُصّصت، في الثامن عشر من أيار، آخر مقابلة بعد الظهر للجنرال ديفيد بترايوس، رئيس مركز الأسلحة المشتركة للجيش الأمريكي في فورت ليفنوورث (بولاية تكساس)، الذي كان يعمل على تأليف أول كتيب عسكري إرشادي ميداني عن مكافحة التمرد يصدر في عشرين سنة [1].

قابلت بترايوس أول مرة عام 1989، حين كان رائداً ومعاوناً عسكرياً موثوقاً للجنرال كارل فونو، رئيس هيئة أركان الجيش. كنت أعمل على تأليف كتاب عن البنتاغون ودعوته إلى عشاء في الحادي والثلاثين من كانون الثاني 1990 [2]. الكتاب حمل عنوان «القادة»، وركز على غزو بنما عام 1989، وحرب الخليج عام 1991 في أثناء ولاية بوش الأب. بدا واضحاً على الفور أن بترايوس يتمتع بذكاء لماح وقدر استثنائي من النشاط والفاعلية. وأرسل إلي فيما بعد نسخة عن أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة برنستون عام 1987 التي حملت عنوان «المؤسسة العسكرية الأمريكية ودروس فيتنام». الموضوع الرئيس للأطروحة، الذي أوجز في المقدمة التمهيدية للمخطوط المكون من 317 صفحة، هو: «لم تقدم القيادة العسكرية في أي حال منذ حرب فيتنام توصيات أكثر جسارة وجرأة من تلك التي قدمها معظم المستشارين المدنيين من الصقور» إلى الرؤساء.

«رجل ضئيل الحجم يرتدي النظارات وعليه ملامح الأكاديميين»، هكذا بدأت ملحوظاتي في الصفحات الست التي طبعتها بعد العشاء. نادراً ما تحدثت مع رجل يتصف بمثل هذا التركيز والنشاط والحماس. بل تكاد تسمع التروس في دماغه وهي تدور وتئز. ومع أن طوله لا يتجاوز 175 سم ووزنه لا يتعدى 70 كغ، إلا أنه مدمن على الرياضة واللياقة البدنية، وفاز بثلاث جوائز في مسابقة كلية جوالة الجيش، وهي «محنة» إذا جاز التعبير مدتها تسعة أسابيع تطحن الجسم والعقل.

في ذلك الحين كان بترايوس قد خدم في الجيش 17 سنة. وأكد إيمانه بأن كل شيء في المؤسسة العسكرية «يتحرك بدافع شخصي ويعتمد على الشخصية». ومع أنه شعر بعاطفة شخصية نحو رئيسه، إلا أنه أشار إلى صعوبة التعامل معه. فقد أبلغه فونو منذ بداية تعيينه معاوناً له أن «من أسباب تعيينك معرفتي أنك تملك ما يكفي من الثقة بالنفس

إلى حد أنني لو بقيت أصرخ غاضباً في وجهك طوال النهار لما تأثرت». كانت أقل مخالفة تفجر غضب فونو. بل كان ينهال بالتوبيخ على الرائد بترايوس حتى إذا لم يجد قفازيه الجلديين في مكانهما، أو لم ينظم جدول المواعيد بطريقة تلائمه. قبل إلقاء أي خطبة، كان القائد يتصبب عرقاً وتتوتر أعصابه ويبدأ بتعنيف بترايوس وتوبيخه. ذات مرة، حين ألغى فونو رحلة لشراء حذاء مع ابنه، وجد فجأة أن لديه 30 دقيقة يكون فيها حراً. الحالة أصابته بالتململ والقلق. فهو لا يقدر على التعامل مع الأوقات الحرة، وليس لديه ميل كبير إلى القراءة مثل بترايوس. زوده الوقت الذي قضاه مع فونو بفهم التأثير التي يمكن أن تمارسه شخصية كبار القادة في المؤسسة برمتها.

ظل بترايوس (53 سنة) حتى الآن رجلاً نحيلاً صبياني الملامح، ومشهوراً بذكائه وبلاغته ونشاطه. خدم نوبتين اثنتين في العراق؛ في الأولى كان قائداً للفرقة المجوقلة 101 الموجودة داخل مدينة الموصل الشمالية وحولها، وفي الثانية مسؤولاً عن تدريب قوات الجيش والأمن العراقية الجديدة بوصفه قائداً للقيادة الأمنية المؤقتة المتعددة الجنسية – العراق.

أراد أعضاء اللجنة التحدث مع بترايوس؛ لأنه امتُدح بوصفه جنرالاً فهم الوضع على الأرض ولديه سجل حافل وناجح في تهدئة المناطق التي يسيطر عليها.

كان من المفترض أن يعقد اللقاء عبر الفيديو الآمن (الاجتماع عن بعد)، لكن معهد السلام الأمريكي في قلب واشنطن، حيث اجتمع الأعضاء، واجه مشكلات تقنية. وبدلاً من ذلك، أتى الصوت إلى القاعة عبر مكبرات موضوعة في أركانها الأربعة، فبدا صوت بترايوس كأنه صوت الإله.

منذ اللحظة الأولى، بدا وكأنه يقرأ من نص مكتوب.

قال: «الإستراتيجية التي اتبعت طوال الأشهر الثمانية عشر الماضية كانت سليمة». ومع أن العنف المستمر جعل المهمة أكثر صعوبة إلا أنه «لا يوجد بديل أفضل للإستراتيجية الحالية».

وأضاف إن الولايات المتحدة وظفت «شخصيات لامعة ورائعة» لإدارة الحرب، وصادق على كفاءة كيسي وخليل زاد: «لن أفكك فريق القادة العسكريين والمدنيين العاملين حالياً في العراق».

سأل هاملتون: «وماذا عن مستوى العنف في العراق؟». أقر بترايوس بأنه يرتفع، وأضاف: «العنف والتمرد متغيران مستقلان»، في إشارة إلى المشكلة المتفاقمة.

قال بانيتا إن اللجنة أبلغت أن العراقيين لن يتمكنوا من تسلم زمام الأمن في بلادهم قبل الحقبة الممتدة بين عامي 2009 – 2013 فما رأي الجنرال؟

قال بترايوس إن هذا أسوأ الحالات، لكنه أضاف: «يمثل العراق أكثر البيئات الأمنية التي شهدها طوال واحد وثلاثين عاماً من الخدمة في القوات المسلحة تحدياً». ولم يعرض موعداً زمنياً خاصاً به.

شدد بترايوس أيضاً على المصالحة الوطنية: «يجب إعطاء السنّة سبباً لدعم العراق الجديد ومساندته. العراق يمثل تحدياً مدنياً – عسكرياً»، كما قال.

وكرر ما أعلنه مراراً على الملأ: مشكلة العراق لن تحل عسكرياً، بل يجب حلها سياسياً.

جاء الضابط العجوز وحيداً.

غزا الشيب رأسه منذ وقت طويل وسرقت التجاعيد أمارات الصبا من وجهه، لكن كولن باول بدا شخصية لافتة ومثيرة حين وصل إلى الاجتماع بلجنة بيكر–هاملتون في اليوم اللاحق (19 أيار)[3]. ومع أنه خلع زيه العسكري قبل أكثر من اثني عشر عاماً، إلا أنه ما يزال يسير بخطوات عسكرية منتظمة، بقامته المنتصبة وكتفيه المشدودين إلى الوراء. كان يرتدي بزة دكناء ناسبت مقاسه تماماً وقميصاً وربطة عنق وحذاءً أسود لامعاً. كان يمشي بسرعة، لكن لا تبدو عليه ملامح الاستعجال أو اللامبالاة.

حتى في تقاعده (بلغ الآن 69 سنة)، بقي باول مشهوراً ومميزاً مثل رئيس الولايات المتحدة. وربما وصل إلى المنصب لو لم يمتنع عن الترشح قبل عشر سنين، حين وضعته استطلاعات الرأي على القمة. في رأي كثيرين، ومنهم هو نفسه، امتلك الأدوات الضرورية للفوز بالبيت الأبيض – جمهوري أسود، رأس هيئة الأركان المشتركة، وكان الرجل العسكري رقم واحد في أثناء حرب الخليج عام 1991، وأكثر الشخصيات أهلاً للثقة ونيلاً للإعجاب والتقدير، وأحدث نسخة من «رجل عصرنا العظيم».

بدلاً من ذلك كله، اتخذ سبيلاً قاده الآن إلى هذه الحجرة الصغيرة داخل معهد السلام الأمريكي في مركز مدينة واشنطن. كان قد مضى ستة عشر شهراً منذ أن أُجبر على الاستقالة من منصب وزير الخارجية في إدارة بوش، وهي وظيفة تبين أنها صعبة ومعقدة. أصبح باول خارجياً وغريباً عن إدارة بوش، وعُد رجلاً مستقلاً يتبع آراءه الخاصة، و«محارباً متردداً» خارجاً عن سرب فريق بوش بعد الحادي عشر من أيلول، بكل ما اتصف به من مبالغة في استعراض العضلات والقوة.

سبيل باول قاده أيضاً إلى لعب دور في حرب العراق. لم يعتقد أنها ضرورية، لكنه شارك فيها عبر طرق متعددة، رئيسة وثانوية في آن. فقد عارض في بعض الأحيان، لكنه أذعن وسبح مع التيار المندفع، ومع احترامه وإجلاله –حتى خضوعه وطاعته– للرئيس. وفي أثناء مقابلة مباشرة وجهاً لوجه في جلسة في المكتب البيضاوي قبل شهرين من غزو العراق، طلب بوش دعمه وتأييده.

سأله بوش في طلب شخصي للانضمام إلى القائد العام في المعركة: «هل أنت معي؟ أريدك إلى جانبي».

وإيماناً منه بأن قرار الحرب بيد الرئيس -لا بأيدي الجنرالات أو وزراء الخارجية- تعهد باول بالولاء والإخلاص، ربما متردداً، لكن بأسلوب قطعي واضح لا يدانيه الشك: «أنا معك يا سيادة الرئيس».

ربما كان باول «أقرب» من أي مسؤول آخر في الإدارة إلى حجة الرئيس التي تذرع بها لشن الحرب. فقبل شهر من الحرب، ظهر في الأمم المتحدة وأمام أنظار العالم ليعرض ما قال إنها «حقائق» تثبت أن العراق يملك مخزوناً مهدِّداً من أسلحة الدمار الشامل. والعرض الذي دام 76 دقيقة ثبت أنه فاعل ومؤثر، بل بالغ الفاعلية والتأثير، حيث استعرض باول كل قواه وملكاته في الحث والإقناع.

مضت أربع سنين ولم يعثر على أسلحة الدمار الشامل، وعد كثيرون الحرب كارثية، وارتبطت سمعة باول بها برابطة يتعذر فصمها، وتضررت إلى الأبد. ولذلك كان اللقاء الذي عقد في الساعة العاشرة والنصف صباحاً من يوم الجمعة مهمة تدور حول التكيف

والاعتراف الذاتي بالذنب. كان عليه مواجهة الحرب وعواقبها بقية حياته، وكان اللقاء وقفة أخرى على الطريق للتوصل إلى حل يريحه من الكرب والتبريح.

حين دخل الحجرة الصغيرة، تلقى تحية حارة من أعضاء اللجنة. حدق حوله في الغرفة، وقال مداعباً: لابد من ابتكار عملية للفرار من السجن. فضجت القاعة بالضحك.

ظهرت علامات واضحة على نوع من الرابطة الرفاقية التي تجمع باول بأعضاء اللجنة، ومعظمهم كرس حياته لبناء قوة أمريكا ومصداقيتها، والانتصار في المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة، وتأسيس عالم تمثل فيه الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة. والآن يهدد العراق بتقويض كل ما بنوه.

جلس بيكر وهاملتون معاً عند رأس الطاولة، وباول مقابلهما، في حين اصطف الأعضاء الآخرون على الجانبين، والموظفون على طول الجدار.

سأل بيكر هل يريد باول قول شيء في البداية

«ليس لدي بيان افتتاحي».

سأل بيكر: لماذا ذهبنا إلى العراق بهذا العدد القليل من الجنود؟

كانت البداية غير عادية. فمن المفترض أن تركز اللجنة على الحلول المستقبلية لمعالجة المشكلة، لا على الصعوبات الماضية. لكن بدا أن السؤال المتعلق بأعداد الجنود يقع في صميم المشكلة، وقوة الغزو القليلة العدد نسبياً (150 ألف جندي) ناقضت فلسفة باول عن الحرب - القائمة على إرسال قوة كبيرة حاسمة تضمن النجاح. فيما يتعلق بحرب الخليج عام 1991 — التي مثلت مهمة عسكرية أكثر سهولة إلى حد بعيد هدفها طرد الجيش العراقي من الكويت— أصر باول، الذي كان يشغل منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، على قوة قوامها 500 ألف جندي.

أطلق سؤال بيكر مناجاة ذاتية استمرت زهاء عشرين دقيقة.

تذكر بيري فيما بعد: «انفجر كولن حينذاك».

وأضاف ليون بانيتا: «نفّس عن حنقه. كان غاضباً ومهتاجاً ومستاءً».

استشهد باول بالصفحات 393 - 395 من كتاب «الجندي الأمريكي»، مذكرات الجنرال تومي فرانكس، الذي كان مسؤولاً عن القيادة المركزية عند غزو العراق. واقتبس من ذاكرته ملاحظاً أن فرانكس ذكر دعوة باول في الخامس من أيلول 2002، قبل ستة أشهر من الغزو: «لدي مشكلات في حجم القوة ودعمها، بسبب طول خطوط الاتصالات» والإمدادات، مثلما حذر باول فرانكس.

كتب فرانكس يقول: «كولن باول هو الدبلوماسي الرائد والبارز للعالم الحر، لكنه لم يعد يرتدي زي الجيش. واكتسب الحق في إبداء الرأي، لكنه تخلى عن مسؤولية إدارة العمليات الحربية حين تقاعد من منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة عام 1993».

«رفعت السماعة وتحدثت إلى دونالد رمسفيلد. قلت أنا أقدر دعوته لكن أردت إبلاغه أن المؤسسة العسكرية تغيرت مذ غادرها».

ذكر فرانكس أن «رمسفيلد ضحك بينه وبين نفسه»، لكنه أراد التوثق من إعلان شكوك باول. «أريد منه إعلانها أمام الرئيس في مجلس الأمن القومي، وإلا سنغدو كالمداحل»، بحسب تعبير رمسفيلد كما ذكر فرانكس.

مرة أخرى لاحظ باول، وهو يستشهد بمذكرات فرانكس، أنه عبر عن مخاوفه في اجتماع لمجلس الأمن القومي عُقد في كامب ديفيد مع الرئيس بعد يومين. ووفقاً لرواية فرانكس، فإن «الدبلوماسي المهذب، الرقيق الصوت، تساءل عن نسبة قوة الصديق إلى العدو، وأكد بإصرار ملح» أن قوات التحالف ستعاني «خطوط إمداد طويلة إلى حد مبالغ فيه».

لم يذكر باول أن فرانكس كتب بعد صفحتين اثنتين أنه أوجز خطته الحربية دون اعتراض أحد. «لم يجادل باول في الإيجاز الذي قدمته، ولم يطرح أي سؤال إضافي عن العمليات»، مثلما قال فرانكس في إشارة إلى أن باول لم يعارض أو يتشبث برأيه.

أقر باول أمام اللجنة بتعذر توقعه التمردَ أو الفوضى التي عمت العراق في أعقاب الغزو. لكنه عرف فعلاً أن مهمة كهذه تطلب عدداً ضخماً من الجنود. فقد اعتمد مبدأ باول على قاعدة: اذهب كبيراً، واذهب لتفوز.

قبل سبعة أشهر من الحرب، طلب باول عقد اجتماع منفرد مع الرئيس بوش لتوضيح تبعات غزو العراق وعواقبها وتبيانها التي أخفق الرئيس وفريقه في تفحصها واستقصائها برأيه. أوجز باول ومعاونه، ريتشارد أرميتاج، العواقب بعبارة: «إذا فككت العراق وحطمته فهو ملكك وأنت مسؤول عنه».

تذكر بانيتا فيما بعد أن باول قال في الاجتماع مع اللجنة إنه حذر الرئيس. «أوضحت دون لبس أن عليك بعد الغزو أن تلتقط الأجزاء المبعثرة وتعيد تجميعها مرة أخرى. ولن تكون هذه المهمة سهلة». أو كما قال لاحقاً: «لا يقتصر الأمر على أننا لا نملك عدداً كافياً من الجنود لإعادة الاستقرار إلى البلد والتصرف بوصفنا قوة احتلال، بل لم نكن نريد العمل بوصفنا قوة احتلال. لكننا قوة احتلال فعلاً. ونحن من يحكم».

بالمدلول الكلاسيكي، لم توجد قط «جبهة» في هذه الحرب، والتمرد بدأ من الخلف، مثلما أبلغ اللجنة.

بعد أن كرر الحديث عن مستويات القوات، انتقل باول دون توقف إلى الإشارة إلى غياب التخطيط في حقبة ما بعد الحرب. وقال إنه ذهل من إجابة رمسفيلد حين سئل علناً عن عمليات السلب والنهب التي اجتاحت العراق دون ضابط: «هذه الأمور تحدث». في مؤتمر صحفي عقد في البنتاغون بعد ثلاثة أسابيع من الغزو، قال رمسفيلد إن الحرية «غير مرتبة ولا منظمة ولا نظيفة»، وإن عمليات النهب والسلب التي اجتاحت العراق كله كانت نتيجة «للشعور بالكبت» بعد عقود من قمع صدام حسين. استشهد باول بعبارة وزير الدفاع «هذه الأمور تحدث» بازدراء تام، مشيراً إلى أنها تقويم سخيف وتهرب من المسؤولية.

قال باول إنه ظل يفكر طوال ربيع عام 2003: «متى نجمع الأجزاء معاً؟». كل ما قاله البنتاغون هو: «الجلبي قادم. الجلبي قادم» (في إشارة إلى أحمد الجلبي، المنفي العراقي صاحب التاريخ المتناقض الذي عارض صدام حسين ردحاً من الزمن). كان الجلبي رمزاً للديمقراطية الجديدة في العراق، لكن باول نظر إليه بازدراء ولم يعره أي اهتمام.

«لم يكن مع الجلبي أكثر من ست مئة من قطّاع الطرق»، وأضاف باول ملاحظاً أن الجلبي خان الوعد الذي قطعه أمام البنتاغون حين أكد أنه سيستقبل قوات الغزو بعشرة آلاف رجل من أنصاره في العراق.

وبوصفه وزيراً للخارجية وقت الغزو عام 2003، قال باول إنه لم يبلّغ بقرار حل الجيش العراقي إلى أن طبق. كان حل الجيش العراقي برمته بجرة قلم قراراً حاسماً ومفصلياً، ومتعارضاً مع الإيجازات السابقة التي قدمت للرئيس ولباول. ولم يبلغ باول مقدماً بخطة اجتثاث البعث الكاسحة التي تحظر على الأعضاء السابقين في حزب البعث العمل في الوظائف الحكومية. لقد سحبت الخطة البساط من تحت أقدام البيروقراطية التي تدير البلد؛ لأن كثيراً من العراقيين اضطروا إلى الانضمام إلى الحزب للحصول على وظائف في حكومة صدام.

عبر باول عن دهشه من إرسال المسؤولين الذين يفتقدون المؤهلات المناسبة إلى العراق. وذكر على وجه الخصوص برنارد كيريك، مفوض شرطة نيويورك السابق المعروف بنزقه واضطرابه النفسي، الذي عينه بوش رئيساً للشرطة العراقية ووكالة الاستخبارات. سأل باول بأسلوب مزج فيه المفاجأة والازدراء: «برنارد كيريك مسؤول عن الشرطة؟ من أين أتى برنارد هذا؟».

مع أنه خرج من الحكومة منذ سنة ونصف السنة، إلا أن غضبه لم يهدأ ولم تخف حدته. والآن اندفع إلى السطح ليراه أعضاء اللجنة حين دمج سنوات من الاستياء المتراكم في شهادته.

لو كان غيره يقدم شهادته، لقاطعه بيكر وهاملتون على الأرجح. إذ أغرم الاثنان بالقول: «لا نريد التحسر على الماضي». لكن في هذه الحالة، تركا باول ينفس عن غضبه وكربه دون مقاطعة. كان يأخذهما في رحلة عبر الحرب بكل ما اتصفت به نكساتٌ وصدماتٌ واختلالٌ وظيفي.

تذكر ألن سيمبسون فيما بعد أنه قال: «هذا الرجل يتكلم من صميم أعماقه، فقد لسعته النار ومشاعره عميقة ومتأثرة بوضعه وحالته».

اشتكى باول، الذي شغل منصب مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان مدة سنة (حين كان جنرالاً بثلاث نجوم)، من مجلس الأمن القومي وأدائه، في انتقاد غير خفي لرايس. وقال إن القضايا الكبرى والمهمة لم تعرض قط عليه أو على الرئيس. فالغرض الكلي من مجلس الأمن القومي هو عرض القضايا والخيارات للنقاش والقرار على أعضاء فريق الأمن القومي والرئيس. على سبيل المثال، كما قال، حين رأس بريمر سلطة التحالف المؤقتة التي حكمت العراق طوال أكثر من سنة، كان يشتغل خارج سيطرة الجميع. وأضاف إنه عرف بخطة بريمر ونقاطها السبع من صحيفة واشنطن بوست. فضلاً على أن بريمر استعمل كلمة «احتلال» - وهي كلمة مذلة في مدلولها لأي مجتمع عربي يقدس الشرف والكرامة- ليوضح أنه يعد نفسه حاكماً يتمتع بسلطة مطلقة.

لم يكن في مجلس الأمن القومي جهاز يتحقق من التطبيق والتنفيذ. وقال باول إن الفلسفة قامت على مبدأ «نأمل أن تتحسن الأحوال. نحن نقول إن التحسن سيحدث. ولذلك نعتقد أنه سيحدث». لم يكن هناك متابعة ولا انضباط.

السؤال الجوهري هو: «من نقاتل؟». قال باول إن إجابة البيت الأبيض والبنتاغون هي: الزرقاوي، زعيم القاعدة في العراق. لكن هذه الإجابة محدودة جداً، إلا أن البنتاغون لم يرغب في التفكير في احتمالات أوسع.

انتقى باول طريقة التعامل مع رئيس هيئة أركان الجيش، الجنرال إيريك شينسكي، الذي طالب بقوة أكبر بعد الغزو، وقال إن رمسفيلد دمر حياته المهنية. لم يحضر أي مسؤول رفيع المستوى في وزارة الدفاع مراسم استقالة شينسكي، كما أضاف بازدراء؛ فالانشقاق لا يسمح به في البنتاغون. وأولئك الذي يصرخون بمعارضتهم يعاملون مثل شينسكي.

قال هاملتون فيما بعد: «كشف بتفاصيل دقيقة إحباطاته وخيبات أمله من رمسفيلد. وشعر بأنه خسر كل جدل جرى داخل الإدارة».

في معرض الحديث عن العنف الطائفي المحتدم بين الشيعة والسنة الذي تفجر في العراق آنذاك، أبلغ باول اللجنة أن «القوات المسلحة الأمريكية لا تملك سوى قدرة محدودة على فهم ما يحدث لتتصرف وفقاً له».

وقال إنه شعر بأن المؤسسة العسكرية عاجزة عن العثور على حل، وأن الأمريكيين فقدوا السلطة المرجعية كلها. «لم نعد المحتل، بل المراقب لحكومة من ثلاثين عراقياً محاصرين في المنطقة الخضراء» (المنطقة المسورة والمحمية التي تضم مباني الحكومة العراقية والسفارة الأمريكية في بغداد). وأضاف: «ليست لدينا سوى سيطرة واهية على الأحداث في العراق».

وأردف باول في معرض الإشارة إلى أن الرأي العام الأمريكي لم يعد يؤيد الحرب: «كل ما يمكن أن نفعله هو أن نأمل في أن تستطيع الحكومة العراقية السيطرة على الوضع... لم نعد نقود هذا القطار: العراقيون هم الآن في مقعد القيادة والمسؤولية».

وماذا عن إرسال مزيد من الجنود؟

أجاب باول: «سوف يطالب الكولونيلات دوماً بمزيد من الجنود والموارد. وكان على الجنرالات طلب مزيد من الجنود عندما أتيحت لهم الفرصة»، أي قبل الغزو. الفرصة تبخرت في رأيه. فقد تجاوز الجيش ومشاة البحرية أقصى حدود قدراتهما، وينتشران الآن في مناطق متعددة، ويتحطمان تحت أعباء الحرب المؤبدة وضغوطها.

قال هاملتون فيما بعد: «بدا محبطاً جداً حين كان يتحدث إلينا، ومتشائماً إلى أبعد حد من المستقبل. ولم يعتقد أن بالإمكان إنقاذ أمريكا من المستنقع العراقي».

سأل هاملتون: ما عواقب الفشل في العراق وتبعاته؟

قال باول إن الولايات المتحدة ستعد عاجزة. وانتقل بسرعة إلى استعمال صيغة الحاضر، كأنما هي عاجزة الآن. «[الرئيس المصري] مبارك يلقي بمواطنيه في السجون، وبوتين يطلق تعليقات ساخرة وشامتة». الصينيون يصغون بأدب وتهذيب، لكنهم في الحقيقة يتجاهلوننا.

أضاف باول: «تعب الناس وملوا من تعنيف الولايات المتحدة وتوبيخها. وتوقفوا عن الإصغاء إليها».

ظلت الحرارة طوال المقابلة ترتفع وتنخفض في الغرفة، وظل الموظفون يعملون على تعديل مكيفات الهواء. لكن دم باول بقي يفور ويغلي من شدة الغضب.

قال متهكماً: «كل ما يمكننا فعله هو بناء الجيش والشرطة، ولابد أن يتحولا إلى مؤسستين عاجزتين يتعذر إصلاح الأضرار التي تلحق بهما. فأنت لا تستطيع بناء جيش اعتماداً على أفراد تدربهم في خمسة أسابيع. الجيش جزء جوهري لا يتجزأ من المجتمع».

وماذا عن الاستخبارات على الأرض في العراق؟

قال باول مشيراً إلى تقارير وكالة المخابرات المركزية المنتظمة عن تصاعد العنف وتفاقم المشكلات: «ظل رؤساء فرع الوكالة [في العراق] يبعثون برسائل تحذيرية طوال سنوات. الوضع فوضوي هنا ومضطرب. لكن واشنطن لم ترغب في الإصغاء».

سأل هاملتون: هل توجد فرصة معقولة للحصول على العون من المجتمع الدولي؟

قال باول بحدة «لا».

من دول الجوار؟

« لا ».

أطلق عدد من الحاضرين ضحكات مكبوتة عبرت عن انزعاجهم وهزوا رؤوسهم من صدمة الحالة اليائسة (تقريباً) التي كان باول يصفها.

تذكر بيري فيما بعد: «نظرته العامة تشير إلى أن العالم، العالم كله، علينا. ولم يجادله أحد في رأيه في ذلك اللقاء».

وقال بانيتا فيما بعد: «كان اللقاء جلسة علاجية برأيي، من حيث إنه شعر أن بمقدوره الجلوس مع إخوة السلاح... أشخاص يقاسمهم تجارب الماضي. وأحس بالارتياح عندما نفّس عن مشاعره المكبوتة وغضبه الكظيم».

اللقاء الذي حُددت مدته بساعة، استمر وقتاً أطول، ومازال أمام اللجنة مقابلات تجريها في أصيل ذلك اليوم.

قال بيكر أخيراً: «حسناً، سوف يكون كتابك عظيماً يا كولن».

غادر باول الغرفة بهدوء كما دخلها؛ وحيداً ومهموماً. التفت بيكر إلى بانيتا وقال بجدية: «ربما كان الرجل الوحيد القادر على منع حدوث هذا كله».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أحد عشر مصدراً من المصادر المطلعة، وملحوظات دوّنها اثنان من المشاركين.

1- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع بترايوس على ملحوظات مدونة من سجل لجنة بيكر-هاملتون بتاريخ 2006/5/18.

2- مقابلة مع الرائد ديفيد بترايوس 1990/1/31.

3- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع باول على ملحوظات مدونة من سجل لجنة بيكر-هاملتون بتاريخ 2006/5/19.

-5-

في أواخر الربيع، التقى بوش بأعضاء حكومته كلهم، وطلب بإلحاح من كل منهم المشاركة في المجهود الحربي. وزَوّدَ أبي زيد وكيسي وخليل زاد بالتعليمات، وألقى الرئيس خطبة عبرت عن ضرورة مشاركة الجميع. بعد بضعة أسابيع، وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي في السادس والعشرين من أيار 2006، أعلنت رايس، المسؤولة عن تجميع الموظفين الراغبين في الذهاب إلى العراق من مختلف الإدارات والأقسام والوكالات، الأعداد النهائية: وافق ثمانية وأربعون شخصاً.

قال الجنرال كيسي الذي شارك في الاجتماع من بغداد عبر الفيديو الآمن، دون تفكير: «سيدتي، هذا عدد هزيل». إذ يثبت ذلك برأيه أن المدنيين لا يسهمون بما فيه الكفاية في الحرب — أهم مشروع تتولاه إدارة بوش والمهمة التي تجعل كثيراً من مصالح الولايات المتحدة على المحك. وكان يأمل أن يطالب الرئيس بمزيد من الحركة والفعل.

ردت رايس باقتضاب: أنت تتصرف بطريقة غير لائقة يا جنرال.

قال الرئيس: «بهذه الملحوظة السعيدة سوف نؤجل الاجتماع».

أرسل رمسفيلد على الفور مذكرة سرية إلى كيسي: «أعتذر إليك عن التعليقات التي صدرت في اجتماع مجلس الأمن القومي هذا الصباح. إنه النمط السائد. ولا يبدو أن بمقدور أحد فعل شيء إزاءه... شكراً لك على ما تفعله هناك كله، وعلى صبرك اليوم أيضاً» [1].

لم يشعر كيسي بأنه صبور. إذ لم تخرج رايس ولا هادلي بإستراتيجية وطنية للحرب في العراق، ولم يعثر أي منهما على طريقة للتوثق من ضمان الموارد الكافية لها. كان ديفيد ساترفيلد، نائب رئيس البعثة في السفارة، قد أبلغ رايس عندما زارت بغداد: «هذه

أهم مهمة لأمريكا، وليس لديهم سوى ثلاثة لغويين يتحدثون العربية على أعلى مستوى من وزارة الخارجية».

كتب رمسفيلد يقول، مركزاً على التفاصيل كحاله دوماً وأبداً، في مذكرة سرية عن مستويات الجنود وجّهها إلى كيسي في الثلاثين من أيار: «ألقيت نظرة على الصفحة المرفقة من التقرير ربع السنوي إلى الكونغرس. لاحظت أن المنطقة الرمادية هي التحالف، ونحن نزيد عدد العمليات الحربية كل شهر. كنت أحسب أن قوات الأمن العراقية ستزداد، والمجموع سيزداد، لكن التحالف يتناقص. ويبدو أن ما يحدث هو العكس. دعنا نفكر في المسألة ونعرف السبب»[2].

الآن، في السنة الرابعة من الحرب، مازال وزير الدفاع يسأل عن العدد المراوغ للجنود العراقيين الذين دربوا وأصبحوا جاهزين لأداء الواجب. ومازال يضغط لتقليص التورط العسكري الأمريكي في العراق، لا لإرسال مزيد من الجنود.

جيم جيفري، معاون رايس لشؤون تنسيق سياسة العراق، دبلوماسي من بوسطن خدم في السفارة الأمريكية في ألبانيا ثم شغل منصب نائب رئيس البعثة في السفارة الأمريكية في بغداد بين عامي 2004 – 2005. كان جيفري يعتقد أن الولايات المتحدة لا تستطيع التخلي عن العراق مثلما فعلت في فيتنام عام 1975، وعلى شاكلة زيليكو، رأى إمكانية ابتكار إستراتيجية ناجحة لمكافحة التمرد وفقاً لما فعله الكولونيل مكماستر في تل عفر.

في الخامس من حزيران، قدم زيليكو وجيفري مذكرة سرية من إحدى عشرة صفحة بعنوان: «إستراتيجية سياسية- عسكرية ممكنة لصيف عام 2006». عبرت المذكرة عن حجم ما يعانيه كل منهما من إحباط[3].

لاحظت المذكرة أن المالكي وحكومته الجديدة مستمران في «إطلاق مبادرات سيئة الإعداد لها أغراض خاصة، مثل إعلان حالة الطوارئ في البصرة في الأسبوع الماضي، أو التخطيط هذا الأسبوع لإعلان إطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين» الذين تحتجزهم القوات الأمريكية.

وكتبا بالحروف الداكنة: «احتمال نجاح الإستراتيجية المقترحة متدنٍ».

مازال هذا جهداً أمريكياً، وسيطرة الولايات المتحدة على الوضع عامل جوهري. «الحجة التي تقول إن على الولايات المتحدة عدم التشديد بقوة على ما تفضله للحكومة العراقية خاطئة. ومبدأ دعهم يقومون بالمهمة بأنفسهم عذر تبريري للتهرب من المسؤولية»، كما كتبا.

ولاحظا أن المالكي «لم يدِرْ من قبل مؤسسة كبيرة». بل لم يتول إدارة حتى مؤسسة صغيرة. فقد كان الرجل الشيعي البالغ من العمر 56 منفياً طوال 23 سنة، بين سوريا وإيران على ما يبدو. أما أهم مؤهلاته فهو عمله ناطقاً باسم حزب الدعوة، وهو حزب شيعي صغير نسبياً. ثم انتخبه البرلمان العراقي أول رئيس وزراء (غير مؤقت) للبلاد. وكان يمثل تسوية مقلقلة بين القوتين الشيعيتين الحقيقتين في العراق: مقتدى الصدر، رجل الدين الشاب وزعيم مدينة الصدر (الضاحية الشمالية الشرقية من بغداد التي يسكنها أكثر من مليوني نسمة)، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، أحد أقوى الأحزاب العراقية وأكبر حزب في مجلس النواب العراقي الذي يرأسه رجل الدين الزعيم والسياسي عبد العزيز الحكيم.

عرضت المذكرة السرية ثلاثة خيارات: آ) قوي؛ ب) متوسط؛ ج) ضعيف. ولم يكن من المفاجئ أن يشجع جيفري وزيليكو أوسطها.

الخيار آ الذي رفض دعي بـ«مكافحة التمرد على نحو كلي».

«هذه الطريقة تطبق مقاربة تل عفر في المناطق المضطربة الرئيسة كلها، بدءاً ببغداد. وهي تحتاج إلى عدد كبير من الجنود... وقد تتطلب جرعة إضافية مهمة من القوة الأمريكية المحاربة – عدة ألوية إضافية ربما – لكي تنجح».

لم يقدم الخيار بوصفه إستراتيجية ناجحة بالتأكيد، ومصممة لضمان النصر أو التصدي للمسألة الابتدائية الأكثر أهمية والمتعلقة بإمكانية تحقيق النصر. وفشل، مثل كثير من المقترحات الأخرى، في التصدي لمشكلة من يسيطر على المناطق، ويدمج السكان، ويستعيد النظام، ويظهر فوائد تأييد الحكومة العراقية الجديدة ومكاسب الانضمام إلى العملية السياسية.

الخيار «ب» كان «مكافحة انتقائية للتمرد»، ويشمل القتال في «بضع مناطق مختارة، وقد يحتاج أيضاً إلى جرعة إضافية من القوات الأمريكية على المدى القريب، فضلاً على المقامرة بأن تنتج هذه الإستراتيجية مناخاً أفضل لانسحاب القوات الأمريكية في وقت لاحق من هذه السنة أو السنة اللاحقة». ولا ريب في أن تسمية خيار أوصى به الاثنان «مقامرة» كان أمراً غير عادي لمعدي التقرير.

وصف الخيار «ج» أنه «خيار الحفاظ على الغطاء محكماً»، مقاربة «رد فعل» (لا الفعل) التي ستؤدي إلى «زيادة احتمال استمرار الانحطاط والتدهور وتردي الأوضاع الأمنية». ومع نوع من المفارقة المثيرة للسخرية، لاحظ مؤلفا التقرير عند التوصية باتباع الخيار «ب» أن «سياساتنا الراهنة تبدو أكثر تماشياً وانسجاماً مع الخيار 'ج'».

أشار المؤلفان أيضاً إلى إمكانية أن يؤدي الخيار «ب» إلى «تخفيض مهم في أعداد القوات الأمريكية، ربما إلى أقل من مئة ألف» في مدة ستة أشهر. ووفقاً لتحليلهما فإن «آخر خطة أمنية لبغداد لا تبدو كافية لإخلاء المدينة من المتمردين والسيطرة عليها، أو حتى الأحياء غير الآمنة فيها».

بعثت رايس بنسخة من المذكرة إلى هادلي في البيت الأبيض.

وبسبب خطورة الحالة الواضحة، كانت العلاجات متواضعة، والحدود التي رسمتها مقترحات زيليكو وجيفري مقيدة بما أتاحه رؤساؤهما من خيارات.

ظلت وكالة المخابرات المركزية تحذر من تنامي العنف الطائفي والمذهبي، وأن الحكومة الجديدة ليست لها جذور، فضلاً على أنها لا تمدها ولا ترسخها. لكن بدا أن أعضاء الحلقة الداخلية في الإدارة تحصنوا من الأفكار الجديدة الجريئة، وأولئك القابعين خارجها لم يتمكنوا من اختراقها.

أمر كيسي وحدات العمليات الخاصة بالعمل ليل نهار؛ لمحاولة تحديد موقع الزرقاوي، زعيم القاعدة في العراق. في أوائل حزيران، اتصل الجنرال ستانلي مكريستال، قائد

العمليات الخاصة المشتركة، عبر الخط الآمن وقال إنه يعتقد أن جنوده حددوا موقع الزرقاوي في منزل صغير يرجح أنه يضم نساء وأطفالاً.

«إلى أي درجة أنت متيقن من وجوده هناك».

أجاب مكريستال بصوت متقطع: «أنا متيقن».

بعد وقت قصير، اتصل مكريستال ليقول إن الطائرات قصفت الهدف ونقلت الجثة إلى مقره [4] .

أضاف قائد العمليات الخاصة: «سوف ننتظر البصمات. لكنها جثة الرجل حتماً. وجنودي الذين طاردوه على مدى سنتين مقتنعون كلهم بذلك».

اتصل كيسي عبر الخط الآمن برمسفيلد: «سيادة الوزير، أريد أن أبلغك أمراً لست متوثقاً منه 100%، لكن لدي ما يكفي من الثقة لأقول لك إنه حدث».

حبس رمسفيلد أنفاسه، متوقعاً الأسوأ.

«أعتقد أننا قتلنا الزرقاوي هذه الليلة».

أطلق رمسفيلد صرخة عميقة، إذ لم يتعود الأخبار السارة: «يا يسوع المسيح! كل ما استطعت قوله لنفسي هو: أي أخطاء أخرى ارتكبت أيضاً هناك؟».

في وقت لاحق، كتب رمسفيلد مذكرة إلى كيسي: «أهنئك على العثور على الزرقاوي وقتله، يا له من عمل ممتاز قمت به في العراق – لقد ملأتنا بالفخر والاعتزاز» [5].

قالت رايس في أثناء اجتماع عقد في السابع من حزيران 2006: «لا أعتقد أن هناك خلافاً كبيراً على الإستراتيجية. بل ستجدون أن معظم المعنيين مؤمنون بأننا على المسار المعقول الوحيد». كان ذلك يعبر عن موقفها العلني -المتفائل والعنيد. فقد كانت هي وأفراد فريقها يحافظون على المظاهر في محاولة للإشارة إلى وجود اتفاق واسع النطاق على الإستراتيجية الراهنة.

لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فمعظم من هم داخل الإدارة وخارجها أدركوا أن المسار الحالي يفقد معقوليته باطراد. وعملت رايس وأعضاء فريقها الأساسيين، مثل زيليكو، على تفحص إستراتيجية العراق ودراستها وكتابة مذكرات سرية حول ما توصلوا إليه من نتائج، وعرفت رايس تماماً أن المجهود الحربي يعاني مشكلة خطرة.

كانت تقول بعد سنتين، متذكرة تلك المرحلة: «توضح لنا تماماً أن ما كنا نفعله لم ينجح. ولن نحقق النجاح. وربما لن نتمكن من الدفاع عن الوضع القائم إذا تشبثنا بمسارنا».

قال بوش في مؤتمر صحفي صباحي عقد في حديقة الورود في الرابع عشر من حزيران، بعد يوم من زيارته المفاجئة إلى المالكي في العراق: «لقد عدت للتو من بغداد، وأنا مترع بالإلهام» [6].

لم يظهر أي تحفظ على الإستراتيجية ولم يلمّح إلى المشكلة التي تعانيها إدارته، ولم يعبر عن أي شك بكيسي.

قال بوش: «لدي أشخاص يقولون: أنت بحاجة إلى زيادة أعداد القوات –وغيرهم يقول: دور الولايات المتحدة يجب أن يكون غير مباشر لا كما كانت الحال سابقاً، أي يجب أن يكون دورها داعماً. ولهؤلاء كلهم أقول: سوف أعتمد على الجنرال كيسي».

وأضاف: «أعلم أن كثيراً من النقاش يدور حول أعداد الجنود. لكن أعداد الجنود هذه سوف يقررها الجنرال كيسي. سوف يقدم التوصيات، بالتشاور مع الحكومة العراقية. لكن مهما كان قراره، فستكون الرسالة: سنقف معك».

في أصيل اليوم نفسه، التقى الرئيس على انفراد بعشرة من أعضاء لجنة بيكر– هاملتون المؤلفة من الحزبين كليهما [7].

قال متخماً بالثقة، ومتجاهلاً استطلاعات الرأي العام، بعد أن قرر الإصغاء إلى الجنرال كيسي وحده: «الإستراتيجية ستنجح».

بدا الرئيس أيضاً متأثراً بانطباعه عن المالكي: «نعرف المشكلات، وسوف يجد حلولاً لها».

فقال بوب غيتس ملحاً: «نحن نبالغ في الرهان على المالكي. هل تحققنا أنه الرجل المناسب؟».

أشار بوش إلى أنه لا يشك في ذلك.

أصر ألان سيمبسون على ضرورة أن يعثر الرئيس على طريقة للحوار مع حكومتي إيران وسوريا. فانقطاع الحوار لا يفيد، كما قال، لا في الزواج ولا بين الحكومات.

لم يقدم الرئيس طوال ذلك الاجتماع سوى إعادة مكرورة لتصريحاته العلنية.

سأل بيكر: «هل هذا حقيقي؟». هل الرئيس جاد فعلاً في الإصغاء إلى توصيات اللجنة والعمل وفقاً لها مهما كانت؟

أكد بوش بإصرار أنه جاد فعلاً وأنه سيأمر أعضاء إدارته بالتعاون الكامل.

* * *

في بغداد، أعرب كيسي عن شكره وتقديره لتكرار الرئيس التصويت العلني بالثقة به. لكن ظل يسأل نفسه: ما الذي جلبه الزعماء المدنيون إلى حرب كهذه؟ فعلى الرغم من كل شيء، لم تُحشد الطاقة الكاملة للحكومة الأمريكية ولا الشعب الأمريكي. ولم يذكر أحد قط إستراتيجية شاملة تتعلق بما تقوم به الولايات المتحدة. إذ إن كل شيء تقريباً وضع على عاتق العسكر.

كان من المقرر أن يعود كيسي إلى واشنطن في وقت لاحق من ذلك الشهر لمقابلة الرئيس، ورمسفيلد، ورؤساء الأركان. لذلك التقى على مائدة الفطور مع كبار قادته في العراق. قال: «هل لدى كل واحد منكم العدد الكافي من الجنود الذين يحتاج إليهم؟».

رد الجميع بالإيجاب.

في الحادي والعشرين من حزيران، عاد كيسي إلى الولايات المتحدة، والتقى برؤساء الأركان في غرفة الاجتماع الآمنة داخل مبنى وزارة الدفاع (البنتاغون)، المعروفة باسم «الدبابة».

كان عنوان إيجازه السري: «آخر المعلومات المتعلقة بالعراق والاحتمالات المستقبلية» [8]. وأبلغهم أن العراق كله سيكون جاهزاً للانتقال إلى سلطة الحكومة العراقية في مدة ثمانية عشر شهراً، باستثناء محافظة الأنبار. وأظهرت خريطة ملونة الأنبارَ وحدها بلون أحمر، في إشارة دلالية إلى أنها ليست جاهزة بعد، في حين تلونت المحافظات الأخرى كلها بالأخضر. تصور كيسي إمكانية تخفيض عديد القوات الأمريكية في مدة ستة أشهر من خمسة عشر لواء قتالياً (المعدل الحالي) إلى عشرة فقط. آنئذ، بعد ستة أشهر، يمكن تقليص العدد إلى سبعة أو ثمانية، وبحلول كانون الأول 2007 يمكن أن تبقى خمسة ألوية قتالية أو ستة فقط.

قال إن هناك الآن 69 قاعدة أمريكية في العراق، لكنه ينوي تخفيضها إلى إحدى عشرة في مدة سنة ونصف السنة، أي بنسبة 84%.

بعد مقتل الزرقاوي، أحس كيسي بالتفاؤل. فالحرب على الأرض لا تشبه فيتنام. وهم لا يقاتلون وحدات منظمة أبداً. وعلى حد تعبيره: «حتى الميليشيات ليست سوى كومة من أكياس الخرق البالية محمولة على شاحنات».

في الثالث والعشرين من حزيران، كان كيسي في البيت الأبيض يوجز آخر المستجدات للرئيس.

أبلغ القائد العام: «أعتقد أن بمقدورنا تخفيض العدد لواءين»، أي أن خمسة آلاف جندي يمكن أن يغادروا العراق في أيلول دون أن يُستبدلوا. وأوجز خطته القائمة على الاستمرار في سحب الألوية طوال الثمانية عشر شهراً القادمة، لتبقى خمسة ألوية أو ستة فقط بحلول نهاية عام 2007.

وافق الرئيس على الفكرة دون الجدول الزمني، وقال: «ربما لا نحتاج إلى الاستعجال إلى هذا الحد».

في الطابق الثالث من مبنى مكتب أيزنهاور التنفيذي بجوار البيت الأبيض، كانت ميغان أوسوليفان، نائب مستشار شؤون الأمن القومي لشؤون العراق وأفغانستان، تعاني نوبة من مراجعة الذات وتفحص المشاعر والأفكار. لم تكن أوسوليفان، الشابة ذات الشعر الأحمر

القصير، التي تحمل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أكسفورد، تتجاوز السادسة والثلاثين من العمر. أما افتقارها إلى الخبرة العسكرية فقد جعلها غير مؤهلة لشغل المنصب وتنسيق حربين اثنتين في وقت واحد. لكنها ربطت نفسها برعاة أقوياء ونافذين: أولاً في الأشهر التي سبقت الغزو، مع الجنرال السابق جاي غارنر، الذي اختير للإشراف على إعادة الإعمار بعد الحرب؛ ثم طوال أكثر من سنة مع فريق جيري بريمر، رئيس سلطة التحالف المؤقتة (الذي حل محل غارنر).

فيما بعد، أمضت أوسوليفان عامين اثنين ضمن فريق مجلس الأمن القومي تعمل مباشرة مع رايس وهادلي. وكانت تذكر الآخرين بانتظام أنها عملت ثماني عشرة ساعة يومياً/ سبعة أيام في الأسبوع، ولم تواعد رجلاً منذ سنوات. كانت ذكية، وطموحة، ومثابرة، برزت مواهبها دوماً في بيئة العمل الجدي. اعتادت أن تكتب خمس مرات في الأسبوع ملحوظات بالغة السرية عن العراق (مكونة من ثلاث صفحات في المعدل الوسطي) تذهب مباشرة إلى الرئيس. شملت الأخبار الإصابات والتفجيرات والعمليات العسكرية والاستخبارات، حيث زودته بموجز سريع وشامل عن الأحداث اليومية. وذهبت نسخ منها إلى تشيني، ورئيس موظفي البيت الأبيض الجديد جوش بولتون، وهادلي. ظلت الملحوظات، يوماً بعد يوم، متخمة بالأخبار السيئة. وأوضح الرئيس لأوسوليفان وهادلي أنه ليس واثقاً تماماً بالمعلومات والتحليلات التي يتلقاها عبر القنوات العادية: العسكرية والدبلوماسية والاستخبارية.

أبلغني الرئيس فيما بعد: «البيئة لا تشبه تلك التي أجلس فيها بانتظار مسؤول كبير يأتي إلي ويأخذ من وقتي ثلاثين ثانية، ثم يذهب. ثمة عمل كثير هنا. حين تأتي ميغان أوسوليفان، أقول لها: قبل أن تذهبي، أريد أن أسألك شيئاً. ما تفكيرك؟ ما رأيك؟ أريد معرفة المزيد عن رأيك بالوضع» [9].

«أريد الحصول على المعلومات من تشكيلة متنوعة من المصادر».

مع تصاعد حدة العنف طوال أشهر الربيع، ذهبت أوسوليفان لتتكلم على انفراد مع رئيسها، ستيف هادلي، وهي تعلم أن مستشار شؤون الأمن القومي يريد أن تكون الاتصالات المهمة والحساسة شفاهية لا مكتوبة في مذكرات يمكن أن تتسرب.

قالت له مشيرة إلى آخر موجات العنف التي اندلعت في العراق: «أنا قلقة فعلاً من وجهة الأمور. لا أشعر بالارتياح تجاهها... أتصل بأصدقائي في بغداد، فأجد النبرة مختلفة... فهم في حالة ذعر». في اجتماعات مجلس الأمن القومي التي حضرتها، كثيراً ما أظهر الرئيس خيبة أمله، ولم يكن واضحاً هل كان محبطاً بسبب كيسي أم نتيجة عدم تحقيق أي تقدم إجمالي في العراق. الآن، كان كيسي يوصي بتخفيض عديد القوات لواءين، فرأت مزيداً من المشكلات التي تلوح في الأفق.

أبلغت هادلي: «نحن نواجه مشكلة هائلة. إنها خطوة كبيرة في الاتجاه الخاطئ. وسوف يتعذر إصلاح الوضع إن تسارعت الاتجاهات السلبية الراهنة». كانت الاتجاهات السلبية تجتاح العراق. ووصفت الوضع الحالي بأنه «محطم ومنهار».

وجدت أن هادلي يقاسمها مخاوفها. فخلافاً لبعض المسؤولين الآخرين في الإدارة، ما تزال أوسوليفان تثق بمعلومات وكالة المخابرات المركزية وأحكامها وغيرها من الوكالات الاستخبارية. إذ تتلقى منها إيجازاً عن الوضع في العراق ثلاث مرات أو أربعاً في الأسبوع. وفي إحدى هذه المرات على الأقل، التقت بستة أو أكثر من أعضاء فريق العراق التابع للوكالة للقيام بما سمته «غطسة عميقة» في جانب من جوانب الوضع في العراق طوال ساعة ونصف الساعة. ولم تسمع شيئاً يشير إلى احتمال ظهور أي تحسن. وشعرت إقراراً شاملاً تقريباً ضمن الإدارة، حتى من الرئيس نفسه، بأن الأمور لا تسير على ما يرام، وأن السياسة والمقاربة خرجتا عن المسار الصحيح. ومع ذلك، لم يتغير شيء.

فما العمل؟ ومتى نغير السياسة والمقاربة؟ الانتخابات التشريعية على الأبواب ولا يفصلنا عنها سوى خمسة أشهر، وسيطرة الجمهوريين المحدودة على مجلسي الشيوخ والنواب في خطر داهم. وسوء التعامل مع الحرب في العراق سيمثل بؤرة تركيز هجمات الديمقراطيين السياسية على بوش والجمهوريين.

قال هادلي إنه سيحاول مرة أخرى إطلاق عملية مراجعة للإستراتيجية.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثلاثة عشر مصدراً من المصادر المطلعة، فضلاً على ملحوظات كتبها اثنان من المشاركين.

1- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/5/26.

2- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/5/30.

3- ملحوظات مدونة عن مذكرة سرية بتاريخ 2006/6/5.

4- انظر:

Patrick Quinn and Kim Gamel, «Inside Tip Helped U.S. Take Out Al-Zarqawi,» Associated Press, June 8, 2006.

5- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/6/8.

6- Presidential Documents, June 14, 2006, pp. 1125-1137 (Vol. 42, No. 24), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no24.html

7- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع الرئيس بوش على ملحوظات مدونة من سجل لجنة بيكر-هاملتون بتاريخ 6002/6/41.

8- مراجعة المؤلف وملحوظات مأخوذة من إيجاز سري بتاريخ 2006/6/21.

9- مقابلة مع الرئيس بوش 2008/5/20.

-6-

في حزيران 2006، مضت على ديفيد ساترفيلد (51 سنة)، مسؤول الخدمة الخارجية الذي يتحدث العربية بطلاقة، أكثر من سنة وهو يقدم خدماته بوصفه نائب رئيس البعثة الدبلوماسية في بغداد، المنصب الثاني في السفارة. يتولى صاحب المنصب الثاني مسؤولية أداء العمل الأكثر صعوبة وقذارة، ومعروف تقليدياً أنه أصعب وظيفة في السفارة.

وبسبب ولعه بتعداد حججه بالترتيب مسبوقة بنقاط مستديرة، اشتهر ساترفيلد في وزارة الخارجية توددا باسم «النقطة البشرية الناطقة». ونتيجة رغبته في الخدمة في الوظائف الشاقة، في مدن مثل بغداد، وأداء المهمات الصعبة، أطلق عليه عدد من مساعدي رايس اسماً توراتياً: «أيوب الخدمة الخارجية».

كان ساترفيلد على وشك العودة إلى واشنطن ليصبح كبير مستشاري رايس ومنسق الشؤون العراقية. عمل في الخدمة الخارجية خمسة وعشرين عاماً، وشغل مناصب مهمة في ظل الإدارتين الديمقراطية والجمهورية كلتيهما. وكان عضواً في فريق العاملين في مجلس الأمن القومي في عهد كلينتون، وسفيراً في لبنان. تميز بتنظيره العقائدي، وكان يسأل دوماً: ما مصالح الولايات المتحدة؟

فيما يتعلق بالعراق، توصل ساترفيلد إلى نتيجة متشائمة تشير إلى فشل الإستراتيجية الراهنة والموقف الأمني. إذ إن الوضع يتردى ويهوي «على نحو حاسم خارج السيطرة». الطائفية/المذهبية متفشية ومنتشرة على أوسع نطاق. ورئيس الوزراء الجديد يوفر الحماية للمليشيات الشيعية المتورطة في أعمال قتل السنة وتعذيبهم. وبالمقابل، رفض الزعماء السنة إدانة عنف ميليشياتهم وفرق الموت السنية.

كان ساترفيلد يشكك في إمكانية انتصار الولايات المتحدة في العراق، على الأقل بالمدلول الذي يريده الرئيس. وبحث، بدلاً من ذلك، عن طرق لاحتواء الضرر وتقليص الأذى الذي لحق بالمصالح الأمريكية إلى أقصى حد ممكن. لكنه عرف من حضور اجتماعات مجلس الأمن القومي وغيرها أن البيئة المهيمنة لن تقبل مقترحات تدعو إلى إحداث تغيير جذري –بغض النظر هل يتمثل هذا التغيير بالانسحاب أو في زيادة عدد الجنود. فكلاهما يعاكس التيار السائد، وليس بمقدور موظف الخدمة الخارجية تجاوز هذه الحدود.

استنتج ساترفيلد، من موقعه في السفارة في بغداد، أن رمسفيلد فوض الجنرال كيسي بتخفيض عدد القوات؛ لأن الوجود العسكري الأمريكي الضخم مثّل تحدياً مباشراً ومرئياً –بل إهانة- لنظرية الوزير المرتكزة على تعريف القدرة العسكرية بواسطة إحراز نجاحات ساحقة وسريعة ومتتابعة. فالحرب الطويلة والعنيفة مثلت دحضاً نقض نظرية رمسفيلد وجرحاً غائراً أصاب تركته وميراثه في مقتل، حسبما اعتقد ساترفيلد، ولذلك ظهرت هذه الحاجة الملحة إلى الخروج من العراق. و لم يجسد الاحتلال، بمئة وخمسين ألفاً من الجنود الأمريكيين الذين تنحصر مهمتهم بمحاربة التمرد، وتحقيق الاستقرار، وحماية المنشآت المدنية –بدءاً بمحطات توليد الكهرباء وانتهاءً بمجاري الصرف الصحي- الدورَ الذي تخيله رمسفيلد للمؤسسة العسكرية المتحولة والمتغيرة والسريعة كلمح البرق.

وجد ساترفيلد أن جهود المؤسسة العسكرية الأمريكية في ميدان تدريب العراقيين كانت مزيفة غالباً. إذ أظهرت المخططات البيانية التفصيلية عدد العراقيين الذين تلقوا التدريب. لكنها لم تعبر قط عن العدد الحقيقي للجنود العراقيين المستعدين والمؤهلين للقيام بواجبهم. وبسبب الفرار من الخدمة، والإصابات، والأمراض، والإجازات الدورية، فإن عدد القوات العراقية العاملة فعلاً لا يمثل سوى نسبة ضئيلة من عدد أولئك الذين تلقوا التدريب.

حاول ساترفيلد مرات عديدة الحصول على الأعداد الدقيقة لكن دون جدوى. وقضى عامه في بغداد يحضر الاجتماعات اليومية لتقويم آخر الأخبار من ميدان المعركة، حيث

يعرض أصحاب التقارير المتفائلة شرائح ملونة بالأحمر والأخضر والأصفر (برنامج باوربوينت) تظهر لائحة لا تنتهي من مستويات القوات، والإحصائيات، والهجمات، والهجمات المضادة. أرقام وأرقام ومزيد من الأرقام. لكن نادراً ما حددت النتائج الإستراتيجية، أو عُرّفت، أو قومت. ولم يشر أحد إلى أي تقدم حقيقي.

لذلك كله، حين استعد لتسلم مهام منصبه الجديد مساعداً أول لرايس للشؤون العراقية، تملكه قلق شديد من الوجهة التي يتخذها بوش وإدارته. سوف يحل محل جيفري، الدبلوماسي المحترف، الذي خدم هو أيضاً مدة سنة نائباً لرئيس البعثة في بغداد، ومنسقاً مدة سنة للشؤون العراقية تحت إدارة رايس. كان جيفري قلقاً من تصاعد العنف في العراق إلى حد أنه قال ملاحظاً في السر: «أتساءل أحياناً، لماذا قبلت أصلاً هذه الوظيفة؟».

في نهاية حزيران، أخذ كيسي إجازة بضعة أيام، لكنه ظل على اتصال بفريق مساعديه في بغداد عبر نظام الفيديو الآمن. شنت القاعدة بعض الهجمات المروعة في أثناء غيابه [1]. إذ قتل انتحاري على دراجة هوائية في أحد الأسواق المركزية بشمال بغداد ثمانية عشر شخصاً على الأقل وجرح ثلاثة وأربعين. وانفجرت عبوة ناسفة في الحلة (60 ميلاً إلى الجنوب من بغداد) فقتلت ستة وجرحت ستة وخمسين. أما الهجمات على أفراد الشرطة والجيش العراقيين في بغداد فقد أودت بحياة أربعة عشر آخرين.

سأل كيسي: هل الوضع على هذه الدرجة من التدهور الذي تظهره شاشات التلفزة في واشنطن؟

رد مساعدوه لطمأنته: لا.

بعد بضعة أيام (السبت 7/1)، انفجرت شاحنة مفخخة في مدينة الصدر، ضاحية بغداد التي تضم مليوني شيعي وتخضع لسيطرة رجل الدين المتطرف مقتدى الصدر [2]. بلغ عدد القتلى 62 والجرحى 120. واختُطفت عضو سنية في البرلمان الجديد وثمانية من حراسها [3]. بحلول هذا الوقت، عاد كيسي إلى بغداد، وتغير تقويم الوضع. فقد كان الجنرالات والكولونيلات يرسمون صورة متشائمة ومتجهمة.

فكر كيسي: «حسناً فعلت بأخذ قسط من الراحة؛ لأن الحالة ستتفاقم وتزداد تأزماً».

تحدث مع أبي زيد ثم مع الجنرال بيس، وأبلغ القائد أنه غير رأيه فيما يتعلق بسرعة تقليص حجم القوات. قال: «لا أظن أن الاستعجال في تخفيض عدد الجنود مناسباً هنا. فهذه حالة أمنية لم تأخذ الوجهة التي توقعتها».

فوجئ بيس، لكنه لم يجادل القائد الميداني المسؤول عن الوضع على الأرض.

في صباح اليوم اللاحق، عقد كيسي اجتماعه المعتاد مع نائبه، الجنرال بيت تشياريللي، القائد الميداني المسؤول عن الشؤون اليومية في العراق. وكان الاثنان قد أقاما علاقة صداقة وثيقة وصريحة بعد العمل معاً على مدى أكثر من ستة أشهر.

قال تشياريللي: «إنها الفرصة الأخيرة لوحدة ستريكر». كان اللواء المقاتل 172 من ألاسكا، المعروف باسم «لواء الذئاب القطبية»، يستعد للعودة إلى أرض الوطن بعد أن خدم في العراق طوال سنة كاملة. هذه الوحدة التي يبلغ قوامها 3800 جندي تستخدم ناقلات الجند المدرعة «ستريكر» –وهي بالأصل دبابات تسير على ثماني عجلات ضخمة يمكن أن تصل سرعتها إلى ستين ميلاً بالساعة، وهي بارعة في المناورة في المناطق المأهولة في حين توفر الحماية لأحد عشر جندياً. وأضاف: «أحتاج إليها فعلاً».

رأى كيسي خوفاً يطل من عيني نائبه. وألح على معرفة السبب المنطقي الداعي لإبقاء الوحدة. لم يكن لدى تشياريللي سبب سوى تصاعد حدة العنف وغرائزه الفطرية.

قال كيسي أخيراً وهو يذعن لإلحاح مخاوف نائبه: «حسناً».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أبلغ كيسي رمسفيلد عبر نظام الفيديو الآمن: «يجب أن تعرف أنني أفكر في طلب تمديد بقاء وحدة ستريكر. أدرك أن بعض أفرادها عادوا إلى أرض الوطن». كان ثلاث مئة جندي من الوحدة قد عادوا إلى ألاسكا، في حين وصل ثلاث مئة آخرون إلى منطقة التجمع في الكويت استعداداً للعودة إلى الولايات المتحدة. وأضاف معلقاً إنها أفضل وحدة لديه. «هذا صعب، لكن نظراً للظروف الحالية هنا، أعتقد أنني سأحتفظ بتلك القوة هنا في العراق. أحتاج إلى التفكير في المسألة قليلاً، لكن هذا ما سأفعله».

قال رمسفيلد: «حسناً. لدي اجتماع في البيت الأبيض غداً، فإن أردت شيئاً أعلمني به، فأبلغه الرئيس».

في اليوم اللاحق اتصل كيسي برمسفيلد ليبلغه برغبته في الاحتفاظ بالوحدة: «أحتاج إليها».

لم يتردد رمسفيلد والرئيس في الموافقة على الطلب.

انفتحت أبواب الجحيم في الكونغرس وألاسكا، حيث ارتفعت لافتات «مرحباً بعودتكم إلى أرض الوطن» في قاعدة فورت وينرايت [4]. كتبت زوجة أحد الجنود، جينيفر ديفيز، عضو جماعة «أسر الجنود ترفع صوتها» المناهضة للحرب، على موقع على الويب: «اتصل زوجي بي ليبلغني بطريقة مهذبة أن الجيش مدد بقاءه في العراق أربعة أشهر، قبل ساعات من صعوده إلى الطائرة التي ستقله إلى أرض الوطن. أصبت بإحباط كامل، وخاب أملي، وانفطر قلبي. فعندما حسبت أننا سنستعيد حياتنا الطبيعية، وأن الكابوس قد انتهى... تغير كل شيء ومددت إقامته هناك... ما كان لهذه الحرب أن تبدأ، والآن أتساءل هل تنتهي حقاً؟!» [5].

أرسل رمسفيلد مذكرة سرية إلى كيسي يتشكى: «علينا أن نحسن أداءنا بمد النظر إلى الحد الممكن إنسانياً. نحن نواجه صعوبات في ألاسكا والكونغرس بسبب ذلك» [6].

انتظر كيسي أسبوعاً قبل أن يجيب رسمياً: «مع استمرار تدهور الوضع الأمني في بغداد، أصبح من الواضح لنا في خططنا أن القوات الأمنية العراقية والحكومة لا تملك القدرة على ممارسة تأثير حاسم على الوضع في بغداد على المدى القريب دون مساعدتنا. إن تمديد بقاء وحدة ستريكر غدا فرصة لممارسة تأثير حاسم في بغداد في مرحلة حرجة للحكومة ولمهمتنا». وقال إن الجنود الثلاث مئة الذين وصلوا إلى ألاسكا تجري إعادتهم الآن إلى العراق [7].

«وكحالي دائماً يا سيادة الوزير، أقدر شجاعتك ودعمك المتواصل لمهمتنا. جورج كيسي».

ذهب رمسفيلد إلى فورت وينرايت في ألاسكا للقاء زهاء سبع مئة من أفراد أسر «الذئاب القطبية» [8]. منعت الصحافة من حضور اللقاء، لكن بعض الزوجات سجلن الجلسة بالصوت والصورة وعرضن الأفلام على وسائل الإعلام.

سألت إحدى النساء لماذا يقوم زوجها بمهماته ضمن دوريات راجلة لتفتيش المباني ومداهمة البيوت، لا في عربات مدرعة تحميه من العبوات الناسفة محلية الصنع. قالت: «زوجي لم يدخل عربته المدرعة منذ أن وصل بغداد» [9].

طمأنها رمسفيلد قائلاً: «أكثر من 90% من عمليات تفتيش البيوت يقوم بها العراقيون».

انفجرت صرخات غاضبة من الجمهور: «لا!». «هذا كذب!». أجاب رمسفيلد وقد أخذ على حين غرة: «لا؟ ماذا تقصدون؟ هذا ما أبلغته. مهمة العراقيين تفتيش المباني».

كانت جلسة صعبة وقاسية، وطرح أفراد أسر الجنود أسئلة عديدة. هل يحتمل تمديد بقاء «الذئاب» مدة تتجاوز أربعة أشهر؟ هل يعودون إلى الوطن بحلول عيد الميلاد؟ قال رمسفيلد إنه لا يملك عصا سحرية، لكنه سيفعل كل ما بوسعه.

وهذا ما حصل. ففي مذكرة سرية إلى بيس، ورئيس هيئة أركان الجيش الجنرال بيتر شوميكر، والجنرالين أبي زيد وكيسي، كتب يقول: «ستكون إعادتهم إلى الوطن في عيد الشكر بدلاً من عيد الميلاد أمراً رائعاً». وأضاف: «أحتاج إلى توكيدات موثوقة أن هؤلاء لن تمدد إقامتهم مرة أخرى» [10]. لم يرجع أفراد وحدة ستريكر إلى الوطن في عيد الشكر، لكنهم تمكنوا من العودة في عيد الميلاد، ومثلما أمر وزير الدفاع، لم تمدد إقامتهم في العراق مرة أخرى.

ظل كيسي بعض الوقت يتلقى اثنتين أو ثلاث رسائل بالبريد الإلكتروني كل ليلة تنهال عليه بالشتائم والسباب؛ لأنه مدد بقاء وحدة ستريكر في العراق.

في السابع من تموز، أجاب الرئيس عن بضعة أسئلة من المراسلين بعد خطبة ألقاها في شيكاغو عبر فيها مجدداً عن ثقته بقائده في العراق [11]. قال: «الجنرال كيسي سيتخذ القرارات المتعلقة بعدد الجنود هناك. الجنرال كيسي حكيم وذكي، قضى وقتاً طويلاً في بغداد. وأنا أعتمد على حكمه. سوف يقرر الطريقة الفضلى لتحقيق النصر والعدد الضروري من الجنود. أمضيت وقتاً طويلاً أتحدث معه عن أعداد الجنود. قلت

له: جنرال، أنت قرر. أريد رأيك. لا أريد هذه القرارات أن تتأثر بالصخب السياسي، باللحظة السياسية».

في التاسع عشر من تموز، اتصل هادلي برمسفيلد ليسأل عن المجموعة الجديدة التي سيؤلفها كيسي، والسفير خليل زاد، والحكومة العراقية، وتحمل اسم «اللجنة المشتركة المعنية بانسحاب قوات التحالف» [12].

اتفق الاثنان على عدم صحة ذلك. فربما يكون الانسحاب هو المقصد والنية، لكن يستحيل أن يظهر علناً إلى هذه الدرجة الصارخة. الانسحاب كلمة خطرة تفوح منها رائحة «الهروب من المشكلة بدلاً من التعامل معها». أرسل رمسفيلد مذكرة إلى كيسي يقول فيها: «من المؤكد، في ظل البيئة الحالية، أن الاسم الذي يعتقد ستيف هادلي أنه تقرر لن يكون مناسباً» [13].

أجاب كيسي أن أحداً لم يفكر في اسم يشير إلى الخروج من العراق. بدلاً من ذلك، كما قال، صاغ مع العراقيين اسم «اللجنة المشتركة لتحقيق الأمن العراقي القائم على الاعتماد الذاتي» [14]. والاسم يشدد على «الاعتماد الذاتي» بدلاً من «الانسحاب»، مع أن الاثنين يسيران جنباً إلى جنب برأي كيسي.

* * *

وضع كيسي جهود رئيس الوزراء المالكي للسيطرة على الميليشيا الشيعية، التي تنشط بكل حرية خصوصاً في بغداد، موضع المساءلة والتشكيك. ووفقاً لأمر قديم يعود إلى حقبة بريمر (س. ت. م. رقم 91)، يفترض بالعراقيين تولي مهمة «نزع سلاح المليشيات، وتفكيكها، وإعادة دمجها». أبلغ كيسي الرئيس أن المالكي ربما يتباطأ ويتريث عمداً إلى أن ترسخ الميليشيات الشيعية مواقعها حول بغداد. ومن ناحية أخرى، كما قال، من المحتمل أن السبب يعود إلى عدم الفاعلية وانعدام الكفاءة العراقية. ومال إلى هذا الاحتمال الأخير. لكن تقويمه للمالكي كان قاسياً وسلبياً.

قال: «يتبنى حُكمين متحيزين يجب عليه التخلي عنهما. أولاً، يؤمن إيماناً راسخاً بأن البعثيين يعودون. فهو يخاف حتى الموت من البعثيين، والبعثيون يماثلون السنة برأيه، ولذلك لا يثق بهم على الإطلاق. ثانياً، الرجل شيعي طائفي». ولاحظ أن حزب الدعوة الشيعي الصغير، الذي يرأسه المالكي، حزب طائفي.

احتفظت أوسوليفان في مكتبها الملاصق للبيت الأبيض بمخطط بياني يظهر مستويات العنف في خمسة عشر حياً رئيساً من أحياء بغداد. وحاولت إقناع الجميع بالتركيز على حي الغزالية السني غربي بغداد، الذي يشهد تصاعداً دراماتيكياً في العنف. المخطط يبين بوضوح أن ما يفعله العسكر لا ينجح. والصورة التي يحصل عليها الرئيس من كيسي وخليل زاد أفضل بكثير من الواقع الحقيقي. فإستراتيجيتهما القائمة على تدريب العراقيين ثم الخروج من العراق غير مناسبة. لكنها تساءلت كيف تدفعهما إلى الاعتراف بذلك. فالإيجاز الأسبوعي الذي يقدمه كيسي (في ساعة واحدة) لم يكن منتدى مناسباً لطرح أسئلة جوهرية. لكن الأسئلة الجوهرية هي بالضبط ما يجب طرحه، وهي من نوع لا يبرز إلا عند المراجعة الكاملة للإستراتيجية.

برأي أوسوليفان، كان كيسي يعاني مشكلة تتعلق بالمصداقية. ففي التاسع عشر من تموز، أرسلت مذكرة سرية مطولة إلى هادلي ونائبه جي. دي. كراوتش بعنوان «تعديل إستراتيجيتنا الأمنية لتناسب الحقائق الجديدة في العراق» [15].

لاحظت أوسوليفان بأسلوب رقيق أنه بعد مرور شهرين على تسلم حكومة المالكي السلطة مازالت «العلامات الملموسة على التقدم مراوغة وغامضة، حيث يبذل المالكي جهداً شاقاً ومضنياً نتيجة محدودية الوسائل المتاحة لديه وتدهور الوضع الأمني».

وأضافت، وهي تدرك أن اللحظة كانت متاحة طوال شهور، أن «اللحظة سانحة الآن لاستكشاف: 1) هل تتوافق إستراتيجيتنا الأمنية وتتواءم مع الحقائق الجديدة (خصوصاً النزاع الطائفي)؟». استعمال كلمة «نزاع» أشار ضمناً إلى التوترات والصعوبات لا حمامات الدم التي عرفت أنها تقع حالياً. «2) هل تحد القيود الخارجية على الموارد

الأمريكية المتوافرة حتى نهاية عام 2007 قدرتنا على الاستجابة بصورة كافية لهذه الحقائق الجديدة». بكلمات أخرى، هل يوجد عدد كاف من الجنود؟». 3) هل نملك خيارات إستراتيجية لتجسير أي فجوات بين الموارد الأمريكية المتاحة وما مطلوب لضمان النجاح على المدى الطويل في العراق؟». أي، هل تملك الولايات المتحدة قوة كافية؟

على أحد المستويات، كانت أوسوليفان تطرح أكثر الأسئلة صعوبة وجوهرية: هل نعرف ماذا نفعل؟ لكن طبيعة المذكرة المؤقتة والمهذبة، وعباراتها الشرطية الهادئة، خففت من لذعة تأثيرها.

كتبت تقول: «يعد التركيز الراهن على تخفيض عدد جنود التحالف واحداً من عدة عوامل» —استخدمت هنا الخط الداكن العريض- «تشير إلى أننا ننفذ خطة اعتماداً على افتراضات لم تعد صالحة».

ثم اقترحت ضرورة «إعادة تقويم» الإستراتيجية الأمنية قبل سحب أي عدد إضافي من الجنود؛ لأن الوضع الأمني يتدهور ويزداد سوءاً في بعض الأماكن، «ووجود قوات وزارة الداخلية في المناطق السنية قد يصب الزيت على نار العنف الطائفي».

تابعت لتلاحظ بأسلوب متحفظ كرة أخرى أن «من الصعب أيضاً وصف أي قرار بإعادة الجنود إلى أرض الوطن في هذا الوقت بوصفه عاقبة للنجاح أو نتيجة لتحسن الأوضاع والظروف».

«ولهذا الأسباب كلها، نوصي بإجراء مراجعة أمنية حيث يمكن للرئيس أن يفكر في طرح سلسلة الأسئلة الآتية».

وركزت الأسئلة على العنف الطائفي، وهل المقاربة لبغداد هي الفضلى، وما تأثير وزارة الداخلية في السنّة.

ثم سألت أوسوليفان هل يجب التفكير فيما دعته إستراتيجية «مضافة» عبر توفير مزيد من الجنود. وفي سبيل تضخيم الطبيعة الملحة والعاجلة للأسئلة، اقترحت إثارتها في اجتماع مجلس الأمن القومي مع الرئيس في ذلك اليوم.

لكن أحداثاً أخرى وقعت يوم الأربعاء التاسع عشر من تموز اجتاحت تفكير بوش وسيطرت على اهتمامه [16]. فقد أصدر أول قرار نقض (فيتو) له في خمس سنوات قضاها في سدة الرئاسة، حيث رفض قانوناً أجازه الكونغرس يرفع القيود عن الأبحاث المتعلقة بالخلايا الجذعية الجنينية. كانت قضية عاطفية ووجدانية إلى حد بعيد، وأقام الرئيس مراسم احتفالية في أصيل ذلك اليوم في القاعة الشرقية من البيت الأبيض، حضرها أطفال ولدوا من أجنة مجمدة.

في ذلك اليوم أيضاً، عارض المالكي بوش علناً حين أدان بشدة العدوان الإسرائيلي على لبنان، الذي عدّه الرئيس مبرراً بوصفه دفاعاً ضد الإرهاب.

في خضم الأحداث اليومية الضاغطة، أرجئ النظر مرة أخرى في الأسئلة الملحة المتعلقة بالإستراتيجية الأمريكية في العراق.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Joshua Partlow and Naseer Nouri, «Dozens Are Killed in Violence Across Iraq,» The Washington Post, June 27, 2006, P. A16.

2- Edward Wong, «Car Bomb Kills More than 60 in Iraq Market,» The New York Times, July 2, 2006, P. A1.

3- «Sunni Female Legislator Kidnapped in Baghdad,» Associated Press, July 1, 2006.

4- «Leaders Praise Fortitude of Stryker Brigade Families,» American Forces Press Service, December 25, 2006, www.defenselink.mil/news/articles.html.

5- «172nd Stryker Brigade Tour of Duty in Iraq Extended; Family Members Speaks Out Against the War,» MFSO press release, July 28, 2006, www.mfso.org.

6- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/8/2.

7- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/8/9.

8- قام رمسفيلد بهذه الرحلة في 26/8/2006 وفقاً لروبرت بيرنز:

Defense Secretary Praises Soldiers Doing Extra Duty in Iraq, Says Families» Should not Be Angry,» Associated Press, August 26, 2006.

Michael Hastings, "Straight to the Heart," Newsweek, September 18, -9 2006, p. 36.

10- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/8/26.

Presidential Documents, July 7, 2006, p. 1290 (Vol. 42, No. 27), -11 www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no27.html

12- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية.

13- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية.

14- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية.

15-وثيقة سرية بتاريخ 2006/7/19، نزع عنها البيض الأبيض السرية عام 2008 استجابة لأسئلة محددة من المؤلف.

Charles Babington, "Stem Cell Bill Gets Bush's First Veto," The Washington -16 Post, July 20, 2006, P. A4; Edward Wong and Michael Slackman, "Iraqi Denounces Israel's Actions," The New York Times, July 20, 2006, p. A1.

-7-

أدرك هادلي وأوسوليفان أن إجراء مراجعة للإستراتيجية في العراق عملية خطرة، حتى تحت ستار سميك من السرية الصارمة والكاملة –حيث يقسم المشاركون كلهم على الكتمان وتختم الأوراق كلها بخاتم أعلى درجة من السرية. فالموقف العلني للإدارة يرتكز على مقولة تؤكد إحراز تقدم في العراق على الرغم من صعوبة الحرب. وأي تسرب لأخبار تشير إلى مساءلة البيت الأبيض لإستراتيجيته يمكن أن يكون مدمراً. لا تبعد الانتخابات التشريعية أكثر من ثلاثة أشهر. ومن المرجح أن يمثل العراق القضية الرئيسة، والهامش البسيط الذي يتفوق به الجمهوريون على الديمقراطيين معرض لخطر داهم.

لكن أوسوليفان عرفت أن الإستراتيجية الراهنة في العراق مصدعة ومنهارة، ولم تكن تنوي الاستسلام. ربما توجد طريقة لمراجعتها تحت اسم آخر. لقد عرفت من المدة التي قضتها في بغداد أن العمليات اليومية المتواصلة جعلت من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، التراجع وإعادة تقويم الأساسيات الجوهرية. لم يتوافر وقت كاف قط لطرح أسئلة جوهرية وأساسية. لذلك اقترحت على هادلي أن يرسل سلسلة من الأسئلة العريضة إلى رمسفيلد، وكيسي، وخليل زاد. وسوف يوقظهم البحث عن الإجابات من سباتهم ويدفعهم إلى إدراك حقيقة الوضع، مثلما أملت: «انتبهوا! لقد تغيرت هذه الصورة».

كان هادلي على استعداد للمحاولة كرة أخرى. أولاً، أدرك انقطاع الصلة، الواضح إلى حد موجع، بين ما يحدث على الأرض وإستراتيجية تخفيض عدد الجنود باطراد وثبات. فقد ظل كيسي يدعو إلى تخفيض عدد الجنود، على الرغم من أنه قرر وقف إعادة الألوية في الخريف القادم، ومدد إقامة لواء ستريكر. ولم تفت على هادلي أو الرئيس حقيقة أن خطة كيسي لتخفيض عدد القوات قد تأجلت مراراً وتكراراً طوال أكثر من سنة. وكان لدى

الجيش مخطط بياني سري، معروف باسم «مخطط الافتراضات المخفقة»، يظهر خططاً لتخفيض عدد الألوية في العراق –أحياناً إلى حد دراماتيكي– تعود إلى عام 2003 [1]. وفي كل حالة، لم تنفذ الخطة واقعياً، وبقي العدد ذاته ثابتاً (قرابة خمسة عشر لواءً).

تحدث هادلي مع الرئيس عن العراق كل يوم، وشعر الاثنان بقلق متزايد. وبدا أنهما يتفقان على أن لكل مجتمع مستوى يمكن تحمله من العنف –وهو موضوع كثيراً ما شدد عليه رمسفيلد. وفيما يتعلق بالعراق، كان السؤال هو: هل تفاقم العنف وانتشر إلى حد يحرم العراقيين من أي مظهر من مظاهر الحياة العادية؟ لكن العنف الطائفي في بغداد وحولها –حيث يراوح عدد الجثث التي يعثر عليها كل يوم بين 50--150 كان يعني أن الحياة اليومية بقيت صعبة ومرعبة ومحبطة إلى أبعد درجة. أبلغ هادلي بوش أنه يريد التمهيد لإجراء مراجعة كاملة للإستراتيجية عبر طرح سلسلة من الأسئلة الصعبة والمفصلة على رمسفيلد، وكيسي، وخليل زاد. قال: «سوف أطلب من رمسفيلد السماح لي بطرح هذه الأسئلة، وأعتقد أنه سيوافق».

قال الرئيس: «افعل ذلك».

أكد لي بوش فيما بعد أنه وافق على عقد جلسة الأسئلة: «يحتاج اللقاء بين وزير الدفاع وقائد القوات عبر نظام الفيديو الآمن إلى موافقة الرئيس ومباركته» [2].

في العشرين من تموز 2006، قرأ الرئيس مذكرة المعلومات اليومية البالغة السرية التي تشمل آخر الأخبار عن العراق وأكثر البيانات الاستخبارية حساسية التي جرى الحصول عليها من التنصت على الاتصالات والمصادر البشرية وغيرها.

أشارت المذكرة المكونة من ثلاث صفحات إلى أن «تدهور الوضع الأمني يتجاوز قدرة الحكومة العراقية على الاستجابة». وصحيح أن التمرد السني يتضاءل بحسب تقويم الاستخبارات «إلا أن تصاعد حدة العنف الطائفي على أيدي المتطرفين السنة والشيعة يتحول إلى أكبر تهديد داهم للتقدم في العراق». ثم وصل التقويم إلى نتيجته الكارثية: «اكتسب العنف زخماً ذاتياً وهو الآن يدعم ذاته بذاته».

في أسفل الصفحة الثالثة، مخطط بياني يراقبه الرئيس يومياً، ويوجز الإصابات والخسائر البشرية منذ الغزو عام 2003. في ذلك اليوم، بلغت الحصيلة حتى الساعة الحادية عشرية صباحاً بتوقيت شرق الولايات المتحدة:

«عدد الجنود الأمريكيين القتلى في المعارك: 2015.

عدد القتلى في الحوادث غير القتالية: 532.

عدد الجرحى: 19057».

أبلغ هادلي رمسفيلد: «هناك بعض الأسئلة الصعبة التي نحتاج إلى طرحها فيما يتعلق بموقعنا الراهن».

وافق رمسفيلد على الاقتراح.

شعر هادلي بالسرور لمعرفته أن رمسفيلد كان يستطيع أن يرفض أو يكتفي بتجاهل الطلب، مثلما فعل مراراً.

وهكذا، أرسل صفحات من الأسئلة إلى رمسفيلد، وكيسي، وخليل زاد، وحدد يوم السبت الثاني والعشرين من تموز موعداً لعقد اجتماع بواسطة نظام الفيديو الآمن (وكان اليوم بالمصادفة ذكرى ميلاد كيسي الثامن والخمسين).

دهش الجنرال تماماً. كان هناك أربعة عشر سؤالاً رئيساً، وترتبط بكل واحد سلسلة من الأسئلة الفرعية [3]. بلغ الإجمالي خمسين، وكانت من النوع الذي تطرحه وسائل الإعلام، أو الكونغرس، أو حتى الرئيس نفسه. ثمة أسئلة يتعذر على هادلي الإجابة عنها. ولم يتطلب الأمر جهداً لتيقن أن اللائحة تمثل هجوماً مباشراً على الإستراتيجية الحالية. أحد الأسئلة يقول: «ما الإستراتيجية المرسومة لبغداد؟». ومن العناوين الرئيسة «الإستراتيجية الشاملة». قرر كيسي وخليل زاد سلفاً عدم محاولة الإجابة عن الأسئلة كلها. بدت اللائحة مهينة، خصوصاً بعد تصويت الرئيس العلني والشامل بالثقة بكيسي قبل أسبوعين في شيكاغو.

في الثاني والعشرين من تموز، عقد هادلي اجتماعاً عبر نظام الفيديو الآمن مع رمسفيلد، وبيس، وأبي زيد، وخليل زاد، وكيسي. في حين بقي آخرون –ومنهم ميغان أوسوليفان، ومسؤول من كل من وزارتي الخارجية والدفاع ومكتب تشيني–يراقبون ما يجري.

بدأ كيسي وخليل زاد الجلسة بعرض روتيني لآخر الأخبار أملاً في تأجيل الإجابة عن الأسئلة. لكن عقد هادلي وأوسوليفان العزم على تجاوز ذلك.

سأل هادلي: «من يقف خلف العنف الطائفي في بغداد؟ إرهابيو القاعدة؟ البعثيون؟ السنة الذين يرفضون المشاركة في العملية السياسية؟ فيلق بدر؟ جيش المهدي؟ عناصر إجرامية؟».

أجاب كيسي بالقول إن الوضع يزداد «تعقيداً» باطراد، والمجموعات المذكورة كلها متورطة. إضافة إلى تصاعد الدعم الإيراني للعنف. لكنه شدد على أن العنف وحده ليس مقياساً صحيحاً للنجاح أو الفشل عندما تجري عملية نقل المسؤولية إلى العراقيين. فالتحدي الرئيس للأمن هو العنف الطائفي، الذي هو في حقيقته، كما قال كيسي وخليل زاد، صراع بين العراقيين على السلطة السياسية والاقتصادية.

سأل هادلي: «ما دور رئيس الوزراء المالكي في توفير التوجيه السياسي؟».

كتب كيسي في نسخته إجابة عن هذا السؤال: «دور العيّاب النقّاد». وشرح بالقول إن المالكي يقف على خطوط التماس عاقداً يديه على صدره، ينتقد الآخرين دون قبول تحمل المسؤولية عن الوضع. وقال إنه حاول استيعاب التوجيه السياسي من المالكي، لكن بقدر محدود خوفاً من إصابة النظام بالشلل. فقد أراد رئيس الوزراء التمتع بحق الموافقة على العمليات العسكرية الأمريكية كلها، لكن كيسي رفض. مع أنه وعد رئيس الوزراء بأنه «سوف يستشيره فيما يتعلق بالعمليات الكبرى، التي تترك تأثيراً سياسياً قوياً». وأكد أنه وفى بالوعد.

هل ثمة خلاف فيما يتعلق بكيفية استخدام القوات الأمنية العراقية؟

قال كيسي إنه لا يثق بها. فقوات المالكي بطيئة في الاستجابة وردة الفعل. وعلى سبيل المثال، حاول المالكي ممارسة سيطرة مباشرة على القوات الخاصة العراقية،

أكثر عناصر الجيش العراقي كفاءة، التي تفخر بالعمل مع الولايات المتحدة، وتطارد أي جماعة تعادي الحكومة، حتى الميليشيات الشيعية. وأضاف إنه أبلغ المالكي: «يجب ألا يتلقى هؤلاء الأوامر مباشرة منك، فإذا طلبت منهم القيام بمهمة وانتهت بقتل عدد من الأشخاص خطأً، فإن اللوم ساعتئذ سيقع عليك». بدا المالكي متفهماً هذا المنطق، لكنه تشبث برغبته في السيطرة والتحكم.

سأل هادلي: «هل تحتاج القوات الأمنية إلى مزيد من الجرأة والجسارة في بغداد؟».

قال كيسي: أجل في نهاية المطاف، ملاحظاً على صفحته أن المالكي «لا يمكّن» القوات الأمنية من العمل باستقلالية. ويجب على رئيس الوزراء إثبات أنه يقف إلى جانبها.

«هل أقمنا توازناً صحيحاً بين: 1) عدم السماح للعراقيين بالمبالغة في الاتكال السافر علينا؛ 2) ووضع مسؤوليات كثيرة على عاتقهم بسرعة؟».

قال كيسي إنه يفكر في هذا السؤال ويتصدى له كل يوم. ففي حين إنه السؤال المطروح دوماً، إلا أن الإستراتيجية تقوم على نقل المسؤولية إلى العراقيين في نهاية المطاف.

السؤال اللاحق كان: «هل ثمة حاجة إلى موارد إضافية، من جانب التحالف والعراقيين، لجلب مزيد من الأمن إلى بغداد في إطار زمني معقول، يمتد ستة أسابيع مثلاً؟».

كلما رسخت القوات الأمريكية الأمن في منطقة معينة، ثم سلمتها إلى العراقيين، ينهار فيها الأمن تدريجياً، كما قال كيسي. ولذلك فإن القوات الأمريكية في الحقيقة لم تسلم الملف الأمني إلى العراقيين على نحو كامل مطلقاً، بل وجدت طريقة ما للبقاء في المنطقة. لكنه رد ضمناً بالإيجاب، فربما ينقل مزيداً من القوات الأمريكية إلى بغداد، لكن لم يعلن ذلك بطريقة مباشرة. أوضح أيضاً أنه لا يعتقد بوجود حاجة إلى مزيد من القوات الأمريكية إجمالاً.

وماذا عن المليشيات؟ «ما المدة المطلوبة برأي العراقيين لكي يصبح التقدم ملموساً ومحسوساً؟».

قال كيسي: «المدة تراوح بين ثمانية عشر شهراً وأربعة وعشرين». أما حل الميليشيات، التي تضم كل واحدة بين عشرين ألفاً ومئة ألف عنصر، فيمثل مهمة صعبة وكبيرة.

«هل يتمثل جزء من المهمة الأمنية للولايات المتحدة والتحالف في كبح جماح المستويات المتصاعدة من العنف الذي تؤجج الطائفية لهيبه؟».

يلقي هذا السؤال دوماً عبئاً ثقيلاً على كاهل كيسي. كتب في لائحته يقول: «حماية السكان؟».

تؤكد الإستراتيجية التقليدية لمكافحة التمرد أن أمن السكان يحتل قمة الأولويات. لكن إشارة الاستفهام عبرت عن شكوك كيسي العميقة. فتولي تلك المهمة سيتطلب مزيداً من القوات، وكان متردداً في طلب المزيد؛ لأن ذلك يتعارض مع إستراتيجيته الإجمالية القائمة على إعداد العراقيين وتدريبهم لتسلم زمام الأمور. فضلاً على أن المالكي لم يكن مشاركاً وكان يضع القيود على العملية الأمريكية في بغداد. على سبيل المثال، ألغى رئيس الوزراء خمس مهمات للقوات الأمريكية والقوات العراقية الخاصة في مدينة الصدر.

كانت القصة معقدة. ففي أثناء أيام المالكي الأولى في منصب رئيس الوزراء، قدم إلى كيسي لائحة بأسماء عشر شخصيات سياسية مهمة يجب عدم «المساس بها»، وحصل منه على وعد بعدم مهاجمتها قبل الاتصال به. يتربع على قمة اللائحة مقتدى الصدر نفسه وعدد من قادته. وكلهم متهمون بممارسة أنشطة مشتبه فيها، مثل الهجمات الطائفية والتعاون مع القاعدة. في حين جهد أفراد القوات الأمريكية الخاصة والاستخبارات للحصول على معلومات استخبارية يمكن استخدامها ركيزة للإجراءات القانونية، وكثيراً ما خاطروا بحياتهم في سبيل ذلك.

وكان كيسي يتصل بالمالكي، أو بموفق الربيعي مستشار الأمن القومي، بشأن مطاردة المشتبه فيهم، لكنه أُبلغ الامتناعَ عن ذلك في خمس مناسبات على الأقل. فرد كيسي: «أفهم أن ذلك يعود إلى أسباب سياسية، لكنه يؤثر في معنويات الجنود». إذ مارس إلغاء العمليات تأثيراً محبطاً وترك جنوده يتساءلون علناً (وهذا أمر يمكن تفهمه): «ما الذي نفعله هنا بحق الجحيم؟».

واصل كيسي الضغط على المالكي بشأن مطاردة الأشرار والمطلوبين، وكانت معارضته تضعف باطراد. واعتقل معظمهم أو قتل. أمر كيسي، في إحدى المناسبات، بالقيام بعملية دون الاتصال بالمالكي، ولم يقل هذا شيئاً.

تابع هادلي طرح الأسئلة. وسأل تحت عنوان «الإستراتيجية الشاملة»: «هل يعزز العنف ذاته بذاته الآن، ومن ثم فهو خارج نطاق قدرة العملية السياسية وتأثيرها بطريقة هادفة؟».

فكر كيسي: سؤال لعين! فإن رد بالإيجاب سيبدو الافتراض صحيحاً، ومن ثم عليهم الاستسلام. أجاب: «لا». وكتب «لا» في صفحة الأسئلة.

«هل نحن على قناعة بأن الزعماء الشيعة في بغداد جادون بشأن كبح جماح جيش المهدي والسيطرة على فرق الموت الشيعية؟». ظل جيش المهدي، وهو قوة شبه عسكرية موالية لرجل الدين الشيعي مقتدى الصدر، مهيمناً على كثير من الأحياء.

قال كيسي «لا». وكتبها بأحرف كبيرة وخط رديء على صفحة الأسئلة. ما زال ينسب التباطؤ العراقي إلى انعدام الكفاءة والعجز، لا إلى التسويف المتعمد بانتظار أن تعزز الميليشيات الشيعية سيطرتها على أجزاء من بغداد. لكن راقب المالكي وغيره عن كثب بقدر استطاعته. ووجد أدلة رافقت الشك العميق، أن المماطلة متعمدة وأن هناك غرضاً مقصوداً يكمن خلف المطالة والامتناع عن الفعل والمبادرة.

«هل نحن مستعدون وفي موقع مناسب للتصدي لمزيد من القضايا الخلافية مع الكرد هذه السنة (النفط، الفيدرالية، كركوك)؟».

قال كيسي: «لا». إذ لا تملك الولايات المتحدة سلطة فرض ما تريد على الكرد، المجموعة الإثنية الكبيرة التي تتمتع نسبياً بحكم ذاتي في شمال العراق.

قال خليل زاد إن السنة والشيعة إجمالاً تبادلوا رفض بعضهم بعضاً بوصفهم شركاء موثوقين، ولم يتفقوا على شروط الشراكة.

ثم غاص هادلي في نقاش مستفيض حول ما كان يدعى «بعملية على غرار ديتون»، في إشارة إلى المفاوضات الناجحة والشهيرة التي جرت عام 1995، حين دعا ريتشارد هولبروك، مبعوث إدارة كلينتون إلى البوسنة، قادة ثلاثة أطراف متحاربة في البوسنة إلى مدينة ديتون بولاية أوهايو. بقي هولبروك طوال أسابيع في مكان مغلق ومنعزل مع الزعماء الثلاثة، وتمكن بفضل موهبته التفاوضية وثقته بنفسه، من إقناعهم

–بالوعد والوعيد– بالتوقيع على اتفاقية سلام، تنهي سنوات من عمليات القتل. أما الثمن فكان التزام الولايات المتحدة بإرسال عشرين ألف جندي، وهي قوة صغيرة بمعيار هذه الأيام.

شعر كيسي بغياب أي إستراتيجية سياسية في العراق منذ انتخابات عام 2005، وبالحاجة إلى رجل مثل هولبروك يجمع قادة السنة والشيعة معاً، ويقرب رؤوسهم، ويغرقهم بالمال لتحريك العملية السياسية. في التسعينيات، عين كيسي في فريق هولبروك في البلقان، وكان يعد هولبروك معلماً. مازال يتذكر كيف خرج من مكتب الرئيس الصربي، مجرم الحرب سيئ السمعة، سلوبودان ميلوسيفيتش، في بلغراد، وقال: «حسناً، أريد أن تظهر قاذفات بي 52 على شاشة التلفاز وهي تقلع من مطارات إنكلترا الآن!». كان ذلك جزءاً من عرض دبلوماسية الإكراه والإجبار. بعد عشرة أيام، بدأت غارات حلف النيتو الجوية.

في واحدة من رحلاته إلى الولايات المتحدة، بحث السفير خليل زاد عن مبنى يُعقد فيه اجتماع شبيه باجتماع ديتون. أراد جلب الزعماء العراقيين إلى الولايات المتحدة وحبسهم في غرفة مغلقة إلى أن يتوصلوا إلى اتفاق.

قال كيسي: «يمكنكم شراء مصالحة. استثمروا ملياري دولار، فيتغير جنوب العراق»، الذي يهيمن عليه الشيعة ويضم أغنى منابع النفط في البلاد.

لكن لم يعقد قط اجتماع على غرار ديتون. ولم يطلب من هولبروك ولا من أي مسؤول آخر في إدارة كلينتون شارك في حل النزاع في البلقان تقديم النصح أو المشورة أو العون.

أعرب رمسفيلد بوضوح عن عدم رضاه عن الجلسة. وعلى نحو مشابه، خلفت في كيسي شعوراً بالإهانة السافرة –فقد صُرّت هدية عيد ميلاده من هادلي بورقة تضم خمسين سؤالاً مهيناً.

أعدت أوسوليفان موجزاً سرياً لمناقشة يوم 22 تموز، وزع على هادلي ورمسفيلد وبيس وأبي زيد وكيسي وخليل زاد [4]. وافتتحته بـ«سؤال الإستراتيجية الشامل: ما التغيرات في الوضع في العراق؟ وهل تسوغ هذه التغيرات إجراء تعديلات في إستراتيجيتنا العسكرية والسياسية؟».

كان سؤالاً مثيراً للجدل والخلاف، لكنها استطاعت -بطريقة فاعلة- مع هادلي إطلاق شرارة الجدل حول الإستراتيجية.

أوجز هادلي النتائج للرئيس. وكانت المشكلة الأشد إلحاحاً أنهم لا يملكون خطة لتأمين بغداد، حيث تكتشف الجثث بالعشرات كل صباح.

في هذه المرحلة، طلب الرئيس عبر نظام الفيديو الآمن معرفة المسؤول عن جلب الأمن إلى بغداد. قال المالكي إنه كيسي، وأشار كيسي إلى المالكي.

وحين سألت بوش فيما بعد هل حدث ذلك فعلاً، قال لي: «أجل»، لكنه أضاف: «عقلي يعمل بهذا الاتجاه: إذا اختلطت المسؤوليات، فدعنا نوضحها. في الحالة المثالية، يجب أن يكون العراقيون في المقدمة. وأنت تعرف أن المالكي رغب في القيادة. وأراد كيسي من المالكي أن يقود. نحن جميعاً نريد من المالكي أن يقود، لكن المشكلة كانت فشل الإستراتيجية. لم يكن مستعداً لتسلم زمام القيادة. و[الهدف] كان واضحاً: السيطرة والبناء. و[الواقع] كان واضحاً: إخفاق في السيطرة وفشل في البناء»[5].

قال بوش إن ذلك أظهر «أن الأساليب التكتيكية تعاني عيوباً ونواقص، ونحن بحاجة إلى التعديل. وهذا ما تفعله مراجعة السياسة التي يجريها ستيف».

قال رمسفيلد مراراً وتكراراً إن الولايات المتحدة بحاجة إلى أن «تبعد يدها عن مقعد الدراجة العراقية». وأبلغ هادلي رايس وغيرها أنه بدأ يزدري استعارة رمسفيلد التشبيهية؛ لأنها أطلقت سلسلة من الذكريات الشخصية المقيتة لكنها وثيقة الصلة. فوفقاً لروايته، كان في أوائل الخمسينيات تلميذ حضانة في مدينة توليدو بولاية أوهايو، وقرر والده تعليمه ركوب الدراجة. أمسك الأب بحرص مقعد الدراجة، فركبها الابن وقادها على طريق منحدر.

صاح الأب: «ممتاز!»، في حين كان هادلي الطفل ببنطاله القصير وقميصه القطني يحرك الدواستين. لكن حين ابتعد صوت الأب، شعر الابن بأنه أصبح وحيداً. التفت إلى الوراء فسقط وحطم ركبتيه وكوعيه. انقضت سنتان ونصف السنة قبل أن يتمكن من معاودة ركوب الدراجة من جديد.

والآن، حين قال رمسفيلد إن الوقت قد أزف لإبعاد اليد عن مقعد الدراجة العراقية، فكر هادلي: «ثمة تكاليف وعواقب لإبعاد اليد عن الدراجة إن سقط الصبي عنها».

هوامش:

أتت المعلومات الوارد في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة.

1- مراجعة المؤلف وملحوظات مخطط بياني سري.

2- مقابلة مع الرئيس بوش 2008/5/20.

3- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/7/22.

4- مراجعة المؤلف وملحوظات على موجز سري بتاريخ 2006/7/22، جلسة عبر نظام الفيديو الآمن.

5- مقابلة مع الرئيس بوش 2008/5/20.

-8-

مع اقتراب انتخابات الكونغرس النصفية (بعد ثلاثة أشهر)، زاد الديمقراطيون انتقاداتهم الحربَ. وبعث عشرة من كبار الأعضاء الديمقراطيين في الكونغرس، منهم زعيمة الأقلية في مجلس النواب نانسي بيلوسي، وزعيم الأقلية في مجلس الشيوخ هاري ريد، برسالة إلى الرئيس بتاريخ 30 تموز، قالوا فيها: «خلافاً لتنفيذ 'إستراتيجية نصر' شاملة مثلما وعدت قبل شهور، يبدو أن إستراتيجية إدارتك تحاول تجنب الهزيمة. في هذه الأثناء، ما يزال الجنود الأمريكيون ودافعو الضرائب مستمرين في دفع ثمن باهظ، في حين تبحث إدارتك عن سياسة» [1].

واختتمت بالقول: «السيد الرئيس، إن مجرد التشبث بالمسار في العراق لا يفيد. نحن بحاجة إلى وجهة جديدة».

لم يعرف المرسلون أن الرئيس قد توصل إلى النتيجة نفسها، لكنه لم يعلنها على الملأ.

في الأول من آب، انفجرت عبوة ناسفة زرعت على الطريق تحت حافلة مكتظة بالجنود العراقيين في شمال العراق، فقُتل ثلاثة وعشرون وجرح أربعون. في اليوم اللاحق، قتل انتحاري ثلاثة عشر شخصاً وجرح ستة وعشرين في منطقة راقية من بغداد، في حين زرعت عبوتان في حقيبتين رياضيتين قرب ملعب لكرة القدم في منطقة شيعية غربي بغداد، فقُتل اثنا عشر وجرح أربعة عشر [2]. معظم الضحايا كانوا من الأطفال. وهذا كله مجرد عينة لمدى انتشار عمليات القتل المرعبة وتنوعها المروع.

في ملف هادلي («ج ب») الذي يضم ملحوظات طارئة وأخباراً عاجلة يجب أن ينتبه لها الرئيس، أظهر موجز سري أن مئة وخمسين هجوماً يقع في العراق يومياً، أي بمعدل ستة هجمات في الساعة. شملت الهجمات اعتداءات على المنشآت العراقية، وهجمات بالقذائف، وتفجير ألغام وعبوات ناسفة محلية الصنع، وإطلاق رصاص القنص، ونصب كمائن، وهجمات بالأسلحة الفردية والرمانات اليدوية والهاون والصواريخ، حتى بصواريخ أرض- جو.

ووزع محلل وكالة استخبارات الدفاع ديريك هاري في ورقة سرية في آب اعتماداً على آخر المعلومات الاستخبارية، توقع فيها حتمية تقسيم العراق إن بقيت الإدارة على المسار نفسه. فالحكومة العراقية تتداعى؛ وليست لديها الفرصة لمغالبة أحداث العنف العدائية بين السنة والشيعة. في حين لم تغير قوات الأمن العراقية طرائقها ولم تعدلها. وأدت سياسة «اعتقال المتمردين ثم إطلاقهم» إلى اختلاطهم بالسكان بدلاً من إزالة تهديدهم.

وسرعان ما اكتسبت ورقة هاري في اسم «ورقة يوم القيامة».

استمرت لجنة بيكر-هاملتون المعنية بدراسة الوضع في العراق في عملها خلف الأبواب المغلقة. وفي يوم الأربعاء الثاني من آب، اجتمع أعضاؤها في إحدى قاعات مبنى الكونغرس. وكانت الجلسة الأولى مع الزعامة الجمهورية المحبطة في الكونغرس —زعيم الأغلبية بيل فريست (عن ولاية تينيسي)، وميتش مكونيل (من ولاية كنتكي) الذي يأتي بعده في الزعامة [3]. قال فريست: «من الواضح أن الآمال تتحطم في العراق. وثمة أوقات صعبة أمامنا إلا إذا بدأ منحى الأمور يتغير. هناك افتراضات عديدة يجب تصحيحها قبل أن يتمتع العراق بالأمن والازدهار». أما مكونيل فقال إن العراق بحاجة على الأقل إلى درجة معقولة من الاستقرار. وفي إشارة إلى واحد من أكثر الأنظمة استبداداً وقمعاً في الشرق الأوسط، قال: «أرضى حتى بمصر».

ضج الجميع تقريباً بالضحك.

عقد الاجتماع اللاحق مع رئيسي لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ –جون وارنر (جمهوري عن فيرجينيا)، وكارل ليفين (ديمقراطي عن ميشيغان). قال ليفين، الذي سيصبح رئيس اللجنة إذا فاز الديمقراطيون بالسيطرة على المجلس، إن العراقيين «يظنون أن لديهم غطاء أمنياً. العامل الأهم الآن أن الصبر هو كلمة السر. كلمة السر تلك يجب أن تصبح: نفد صبرنا. لقد نفد صبرنا فعلاً» [4].

اعتقد عضو اللجنة تشارلز روب أن على الولايات المتحدة التزاماً أخلاقياً منذ أن غزت العراق يفرض عليها البقاء فيه إلى أن يستعيد العراقيون الأمن والنظام.

كان روب، الديمقراطي المحافظ والمتشدد المعروف بتأييده للمؤسسة العسكرية، نقيباً في مشاة البحرية (المارينز) في منتصف الستينيات حين عين مساعداً اجتماعياً عسكرياً في البيت الأبيض. وهناك، التقى بابنة الرئيس جونسون، ليندا بيرد، وتزوجها في البيت الأبيض في التاسع من كانون الأول 1969. ثم خدم مدة سنتين في فيتنام، وحاز نجمة برونزية بوصفه قائد سرية مقاتلة.

تبنى روب فكرة إضافة مزيد من الجنود على أساس مؤقت لجلب الاستقرار إلى بغداد. وأكد في حجته قائلاً: «لدينا أوراق كثيرة في اللعبة، ولذلك يجب ألا ينحصر خيارنا في مجرد الانسحاب بحسب جدول زمني ثابت». لكن لم يوافقه الرأي أحد من الأعضاء الآخرين على ما يبدو.

ظل روب ناشطاً وفاعلاً في الشؤون المتعلقة بمشاة البحرية، وعرف الجنرال بيس، وشعر بالفخر بارتقاء ضابط من مشاة البحرية أخيراً إلى منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة. ولذلك اقترح خطة إضافة مزيد من القوات. هل هذا ممكن؟ هل تقدر المؤسسة العسكرية على ذلك؟ في عدة مناقشات وأحاديث، رد بيس بالإيجاب. لكن حين تبادل الاثنان الرسائل بالبريد الإلكتروني، بدا بيس متردداً.

يعد روب السيناتور الوحيد الذي عمل في وقت واحد في اللجان الثلاث المعنية بالأمن القومي –الاستخبارات، والقوات المسلحة، والعلاقات الخارجية. وفي أثناء الجلسة مع عضوي مجلس الشيوخ وارنر وليفين، سأل عن احتمال زيادة عدد القوات (دعاه «موجة»

وفقاً لمحضر الاجتماع). واختار الكلمة عمداً؛ لأنها تعبر عن رأيه بزيادة سريعة في عدد القوات يتبعها انخفاض في نهاية المطاف. هل يمكن زيادة القوات؟

قال السيناتور وارنر: بلى.

وقال السناتور ليفين: لا.

لكن روب وضع الفكرة على شاشة الرادار. ومثلما قال فيما بعد: «لكل نهر منبع».

طرح لي هاملتون سؤاله المفضل: ما تعريف النجاح في العراق؟

قال وارنر: «سوف أسقط كلمة نصر. النجاح هو عراق مستقر يتمتع بالسيادة».

قال ليفين: «لن يحكم العراق ديمقراطياً، ويجب أن يكون الهدف الاستقرار؛ لكن يجب ذكر الديمقراطية».

تدخل ألان سيمبسون مقاطعاً: «سئم الناس هذه الحرب. وسوف يدفع الجمهوريون ثمناً باهظاً لها في تشرين الثاني. أعتقد أننا سنخسر الانتخابات في تشرين الثاني بسبب هذه الحرب».

توجه الجنرال أبي زيد لأعضاء اللجنة إلى معهد السلام الأمريكي وسط واشنطن للاجتماع مع قائد القيادة المركزية، ، الذي ظهر بالزي الرسمي وسلم أعضاءها عرضاً بواسطة برنامج «باوربوينت» [5].

الجنرال أبي زيد هو القائد الحربي المسؤول عن العراق أمام اللجنة التي يفترض أن تدرس الحرب في العراق. تحدث، كالعادة، عن المنطقة التي تقع تحت قيادته برمتها —الشرق الأوسط، وشرق إفريقيا، وآسيا الوسطى. وذكر مشكلات باكستان مع الأسلحة النووية، والمملكة العربية السعودية مع نفطها. فضلاً على التطرف السني في القرن الإفريقي والحركة الثورية الشيعية في إيران.

فيما يتعلق بالاستخبارات، قال أبي زيد: «تستهدف القيادة المركزية ووكالة المخابرات المركزية السلاسة والتكامل والتعاون في بيانات الأهداف». وفي إشارة إلى المصادر الاستخبارية البشرية، قال: «تمثل مصادرنا الاستخبارية البشرية قرابة 30% من المعدل الضروري، وارتفعت 10% على مستواها قبل بضع سنين. نحن نحصل الآن على معلومات من السعوديين اعتماداً على هجمات قاموا بها، وهي تذهب إلى وكالة المخابرات المركزية، ثم تزودنا الوكالة بالأهداف لنقصفها في العراق.

سأل بانيتا: «ما المشكلة في بغداد؟».

قال أبي زيد: «تحريك سيارة مفخخة ليس مشكلة، حتى مع زيادة عدد الجنود. يجب استهداف فرق الموت. يجب السيطرة على التمرد. كلا الجانبين يريد حرباً أهلية – القاعدة؛ لأنها تخدم التطرف السني، والمليشيا الشيعية؛ لأنها تخدم التطرف الشيعي».

قال الجنرال إنه «متفائل» بتراجع حدة العنف قبل رمضان الذي يحل في الشهر القادم: «لا يمكن أن يعد العنف مقياساً للنجاح». أما حجته فقديمة مكرورة: لقد قرر العدو -القاعدة أو المتطرفون الطائفيون- شن هجمات، فإذا كان مقياس النجاح مستوى العنف فإن العدو هو المتحكم والمسيطر.

سأل روب: هل يعد تخفيض عديد القوات الأمريكية علامة دالة على نفاد الصبر؟ أم إن الولايات المتحدة بحاجة إلى إرسال مزيد من الجنود؟

قال أبي زيد: «نحن نحاول الانسحاب من العراق. لكن العراقيين لا يصدقون أننا سننسحب. وهذه ليست دينامية جيدة، لكنها الحالة النفسية المهيمنة على المنطقة. سوف نساعد إلى أقصى حد ممكن، لكنها بلادهم».

سأل بوب غيتس: ما العلامة الدالة على نقطة التحول الحاسم في العراق؟

أجاب أبي زيد: «عندما يُحل الجيش العراقي، أو يصبح طائفياً، أو يتوقف عن خدمة الحكومة الوطنية. أو حين تتخذ الحكومة الإيرانية قراراً إستراتيجياً بمهاجمة قوات التحالف وإيقاع عدد أكبر من الإصابات في صفوفها. ربما يفعل الإيرانيون ذلك، فتظهر

حالة يهيمن فيها حزب الله على الجنوب ويضعف العراق». حزب الله جماعة متطرفة سياسية وشبه عسكرية في لبنان تحظى بدعم إيران.

لاحظ لي هاملتون: «نحن نبالغ في الرهان على المالكي».

قال أبي زيد: «يمكن أن نخسر المالكي. على سبيل المثال، لن يسبب غياب كرزاي مشكلة كبيرة»، في إشارة إلى حامد كرزاي الرئيس الأفغاني.

لاحظ عدد من الأعضاء فيما بعد أن أبي زيد لم يتكلم كثيراً عن العراق، بل بدا أنه لا يركز عليه.

في صبيحة اليوم اللاحق، الثالث من آب، قدم جون أبي زيد شهادته أمام لجنة القوات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ في مبنى الكونغرس [(6)]. سأل السناتور ليفين الجنرالَ هل يعتقد أن العراق ينزلق إلى أتون الحرب الأهلية؟

أجاب: «أعتقد أن العنف الطائفي بلغ درجة خطرة، خصوصاً في بغداد. وإذا لم يتوقف يمكن أن يتجه العراق نحو حرب أهلية».

حظيت تعليقاته باهتمام بارز في نشرات الأخبار التي بثت على شاشات المحطات الوطنية، وظهرت في الصباح القادم على الصفحة الأولى في جريدتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست.

أبلغ هادلي رايس أولاً بأول جهودَه الساعية إلى إجراء مراجعة داخلية للإستراتيجية، واطلعت على لائحة الخمسين سؤالاً التي وجهها إلى خليل زاد وكيسي. وبدا من الواضح باطراد لرايس غياب أي إستراتيجية. ولذلك أرادت إعادة تقويم الإستراتيجية بنفسها. لكنها بصراحة، كما قالت، لم ترغب «في فعل شيء يظهر على شاشة الرادار في الجو السياسي المحموم قبل انتخابات تشرين الثاني». إذ إن الإدارة ليس بحاجة إلى ما دعته بـ«قصة مثيرة» تثير الحساسيات وتعترف أن الوضع في العراق بلغ درجة من السوء بحيث

اضطرت الإدارة إلى التفكير في مقاربة جديدة. وهذا سيصب في مصلحة المنتقدين والديمقراطيين المناهضين الحربَ.

في يوم الجمعة الرابع من آب، ظهرت رايس على محطة «إم إس إن بي سي» في مقابلة مع مراسلها في البيت الأبيض ديفيد غريغوري [7].

قالت: «أعتقد أننا حققنا تقدماً. لا، لا أظن أن فشلاً قد حدث».

سأل غريغوري: «لكن ألا تناقشون ما يحدث إذا لم تنجح الخطة، ألا توجد خطة بديلة؟».

أجابت: «ما نريد فعله هو الاعتماد على الخطة والضغط بأقصى جهد لكي تنجح. عند هذه النقطة ترتكز طاقات الجميع، وأعتقد أن هذه الخطة ستنجح».

المشكلة أن تصريحاتها لم تكن صادقة. ففالبية الطاقة كانت ترتكز على العثور على خطة جديدة أفضل من سابقتها.

في صباح اليوم اللاحق (السبت)، غادرت رايس واشنطن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة الرئيس في كروفورد، ووصلت في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. ثم تناولت طعام الغداء مع بوش وهادلي [8].

كانوا يأملون أن تخمد نار العنف الطائفي من تلقاء ذاتها، لكنها ظلت مستعرة. وأظهرت التقارير الاستخبارية نزوحاً واسع النطاق لسكان بغداد. إذ تعرضت أحياء برمتها لهجمات الميليشيات –الشيعية والسنية على حد سواء– وظلت أكوام الجثث تظهر بمعدل بلغ الخمسين يومياً، وفي بعض الأيام تجاوز العدد هذا الرقم بكثير. لقد بلغ العنف حداً لم تشهده سنوات الحرب السابقة. وأصبحت أحياء بغداد رقعاً من المناطق المغلقة المعتمدة على الحماية الذاتية. وانتشرت في المدينة الشاسعة السيارات والشاحنات المحترقة، والحواجز والأسوار لتحولها إلى قلاع وحصون.

أبلغت رايس الرئيس أنها قلقة من تحلل نسيج المجتمع العراقي وتمزقه. مدت ذراعيها أمامها ثم باعدت بينهما بأسلوب درامي. وقالت إن العراقيين لن يجدوا ركيزة يعتمدون

عليها إذا استمروا في مهاجمة بعضهم بعضاً بهذه الطريقة. إن جوهر المجتمع المدني العراقي في خطر داهم.

قالت رايس متذكرة: «أعتقد أننا جميعاً عرفنا أن تلك هي المشكلة».

في مقابلة بعد سنتين، اعترف الرئيس أن المجتمع العراقي «يتمزق» بالفعل [9].

قال: «والسبب وراء ذلك هو غياب حكومة توفر الأمن للشخص العادي، ولذلك يلجأ إلى أطراف أخرى. سأطرح على نفسي سؤالاً كان عليك أن تطرحه علي...»

قلت: «تفضل».

«ما الذي جعلك تعتقد أن ذلك ليس أمراً حتمياً؟».

«سؤال وجيه. والإجابة؟».

قال إنه يعتقد أن الناس يريدون العيش بسلام، ثم يرفضون العنف في نهاية المطاف. لكن من دون حكومة فاعلة وكفؤة، لا يجدون أمامهم فرصة كافية. «يجدون الآن أنفسهم في وضع يضطرهم إلى الاعتماد على المليشيات المحلية القوية».

في اليوم اللاحق، ظهرت رايس في عدة برامج تلفازية تبث صباح الأحد. وعبرت عن تفاؤلها واختلافها مع التقويمات السلبية التي استشهد بها تيم روسيرت في برنامج محطة إن بي سي «قابل الصحافة». قالت: «لقد اختار العراقيون حكومة موحدة يمكن أن تخدم العراقيين كلهم. وحين أقول العراقيين لا أعني مجرد زعمائهم، الذين يرفضون الحرب الأهلية على ما يبدو، بل السكان العاديين» [10].

في يوم الإثنين، عقد بوش ورايس مؤتمراً صحفياً مشتركاً. استشهد الرئيس بالعراق بوصفه «ميدان المعركة المشهود في مسيرة التقدم نحو الحرية». وأضاف: «ما يحتاج الشعب الأمريكي إلى معرفته هو أن لدينا إستراتيجية» [11].

بحلول السادس عشر من آب، ذهب بوش في جولة انتخابية لمصلحة الجمهوريين استعداداً لانتخابات تشرين الثاني. وفي لقاء سياسي عقد في لانكاستر (بولاية بنسلفانيا)، قال إن إستراتيجيته الحربية تقوم على التشبث بالموقف الهجومي. وأعلن أمام جمهور من أربع مئة شخص في حملة لجمع التبرعات للجمهوريين: «الرهان مرتفع. لكنني أرى بوضوح الوجهة التي يجب أن نقصدها» [12].

* * *

في الأسبوع ذاته، التقى بوش وتشيني ورمسفيلد وهادلي والمستشار القديم دان بارتليت، على مائدة الغداء في البنتاغون مع أربعة من الخبراء في الشؤون العراقية، كان منهم ريويل غيريشت، من معهد أمريكان إنتربرايز المحافظ، وإيريك ديفيز، الخبير المختص بالعلوم السياسية من جامعة روتجرز.

أوضح بوش أنه يتمنى أن تنال الولايات المتحدة مزيداً من التقدير على جهودها وتضحياتها في العراق.

ولاحظ «سيكولوجية الجماهير»، والتأثير النفسي الجماعي الذي أحدثته القاعدة بعمل واحد –تفجير مسجد سامراء في شباط. ثم سأل: ألا يوجد شيء إيجابي في العراق؟

قال ديفيز إن التعليم يتحسن والمجتمع المدني يبدأ بالتكوّن.

وقال غيريشت: «هذا لا يهم إن استمرت دورة الانتقام الحالية بالتسارع. أنتم بحاجة إلى مراقبة الأمريكيين الوضعَ مع وجود أمريكي كثيف».

قال بوش ساخطاً مغتاظاً إن سأمه يزداد من نكران الجميل من جانب العراقيين. وأضاف إن من الصعب عليه فهم ذلك.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أحد عشر مصدراً من المصادر المطلعة، فضلاً على ملحوظات دوّنها اثنان من المشاركين.

1- انظر: Press release, Senator Harry Reid's office, «United House, Senate

Democratic Leadership Put Forward Concrete Plan for Change of Course in Iraq,» U.S. Federal News, July 31, 2006, accessed via Nexis.

2- Joshua Partlow and Saad al-Izzi, «Attacks Target Iraqi Soldiers and Police; Dozens of People Die in Series of Shootings, Blasts,» *The Washington Post*, August 2, 2006, p. A11; Damien Cave, "*The Struggle for Iraq*: Violence," The New York Times, August 3, 2006, p. A13.

3- اعتمدت المعلومات المتعلقة بجلسة اللجنة مع فيرست ومكونيل على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/8/2.

4- اعتمدت المعلومات المتعلقة بجلسة اللجنة مع وارنر وليفين على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/8/2.

5- اعتمدت المعلومات المتعلقة بجلسة اللجنة مع أبي زيد على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/8/2.

6- Congressional Quarterly Transcriptions, «U.S. Senator John Warner Holds Hearing on Iraq, Afghanistan and Counterterrorism,» Senate Armed Services Committee, August 3, 2006, accessed via Nexis.

7- State Department transcript, Interview on MSNBC's Hardball with David Gregory, August 4, 2006, ww.state.gov.

8- مراجعة المؤلف وملحوظات على برنامج رايس.

9- مقابلة مع الرئيس بوش 20/5/2008.

10- State Department Transcript, Interview on NBC's Meet the Press with Tim Russert, August 6, 2006, ww.state.gov.

11- State Department transcript, "President Bush and Secretary Rice Discuss the Middle East Crisis," Crawford, Texas, August 7, 2006, ww.state.gov.

12- Presidential Documents, August 16, 2006, p. 1463 (Vol. 42, No. 33), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no33.html

-9-

في صباح يوم الخميس السابع عشر من آب، جمع الرئيس مجلسه الحربي في غرفة روزفلت المغلقة في البيت الأبيض لعقد لقاء سري حول العراق ظل هادلي يخطط له منذ شهر تقريباً. كانت الغرفة، التي تعد مركزاً لتبادل آخر المعلومات والمقر الطبيعي لمثل هذا الاجتماع المهم، دون نوافذ وتخضع لعملية تجديد.

ارتفعت حرارة الجو في الخارج إلى قرابة 32 درجة مئوية، وزاد معدل الرطوبة —فهذا هو وقت الإجازة لكل من يستطيع الهرب من خمول عاصمة الأمة وركودها. كانت رايس تقضي مدة استراحة نادرة —خمسة أيام في منتجع غرينبراير في غرب فرجينيا. لكن في الجناح الغربي، حان وقت التأمل والتدبر. قدم هادلي سلفاً للرئيس إيجازاً خاصاً، شمل ملخصاً سرياً عن جلسة الأسئلة والأجوبة التي عقدت يوم 22 تموز مع كيسي وخليل زاد.

فوق رف المدفأة في الغرفة التي تبعد بضع خطوات عن المكتب البيضاوي، علقت صورة للرئيس الجمهوري ثيودور روزفلت (1901-1909)، مروض الخيل، على صهوة جواد أسود مُطَهّم. بدا روزفلت، المتجهم المصمم، مع حصانه، وكأنهما سيخرجان من اللوحة.

بدأ الرئيس بالقول: «يبدو أن الوضع يتدهور»، معترفاً أمام أقرب مستشاريه بدحض ينقض تفاؤله أمام عامة الناس. وقال إنه يبحث عن سبيل يتخذه. «أريد أن أكون قادراً على القول إن لدي خطة للرد». كان عليه العثور على طريقة ليشرح للشعب الأمريكي معنى الهزيمة بحيث يفهم التبعات والعواقب. تذكر، كما يفعل غالباً، أن قائد القيادة المركزية، الجنرال جون أبي زيد، قال إن الولايات المتحدة إذا انسحبت تحت الضغط، فإن الإرهابيين والمتطرفين سوف يأتون إلى الولايات المتحدة. فهزيمة الولايات المتحدة سوف تشجع العدو وتزيده جرأة وجسارة. وأضاف إن عليهم «أن يثبتوا بوضوح وجود

خطة لدينا لهزيمتهم. نحن بحاجة إلى طريق واضح نسير عليه قدماً ونعلنه بحلول عيد العمال». لم يكن لديهم أي طريق واضح ذلك اليوم، قبل أقل من ثلاثة أسابيع من الموعد المضروب.

ارتفع عدد الهجمات في العراق ليبلغ أكثر من تسع مئة كل أسبوع. بانت على بوش أمارات التعاسة الواضحة، بل بدا كسيراً مغتماً. فبعد قرابة ست سنين في المنصب، أنهكته الرئاسة وأزعجته الحرب. بلغ الستين في الشهر الماضي، وتغايرت صور حاكم تكساس الشاب في التسعينيات مع هذا الرئيس الجالس أمامهم وقد خط الشيب رأسه. كان مد التفاؤل الكاسح لدى بوش في حالة تراجع وانحسار.

قال بنبرة تنم على الإحباط والخذلان: «لا نرى سوى لمحات خاطفة عن أي شيء إيجابي يحدث». لم تكن عمليات التفجير والقتل الجماعي مادة ثابتة في نشرات الأخبار على شاشات التلفاز فقط، بل في غالبية التقارير السرية التي يتلقاها وفي مذكرة العراق اليومية التي يقدمها مسؤولو مجلس الأمن القومي. سأل: «من المؤكد أن شيئاً آخر يجري أيضاً؟».

تدخل رمسفيلد مقاطعاً في محاولة لإضفاء بعض المرح على الجو الكئيب: «رائع! نحن بحاجة إلى هذه القيادة»، في إشارة إلى ملحوظات الرئيس الافتتاحية. ربما يوجد رسالة جديدة، أو خطبة جديدة يمكن استخدامها «لإظهار أن هزيمة الولايات المتحدة يمكن أن تعادل هزيمة الشعب العراقي»، مثلما قال مقترحاً.

قال الرئيس مكرراً واحدة من مقولاته المفضلة: «نحن نعدل أساليبنا التكتيكية باستمرار، لكننا متشبثون بأهدافنا الثابتة». واستشهد بالموصل، ثاني أكبر مدن العراق، التي شهدت حديثاً قتالاً وحشياً وبطيئاً. وقاتلت القوات الأمريكية بضراوة، لتظهر رغبة في البقاء، كما قال.

أضاف الرئيس: «علينا مقارعة الانطباع أن من المستحيل الانتصار في هذه الحرب». لقد تراخى التأييد للحرب وتراجع بشدة. ووفقاً لاستطلاعات الرأي التي أجراها معهد غالوب، قال 56% من الأمريكيين إن الحرب كانت خطأ، في حين نفى 41% منهم ذلك. أما معدلات الموافقة على بوش وسياساته فلم تتجاوز 37% [1].

ثم سأل: «هل تستطيع أمريكا أن تنجح؟». بدا في واحدة من المرات القليلة أنه يعتقد احتمال عدم النجاح. «وفي هذه الحالة، كيف؟ كيف يجيب قادة قواتنا المسلحة عن السؤال؟».

انضم الجنرال أبي زيد إلى الاجتماع عبر نظام الفيديو الآمن، وكذلك فعل كيسي. لكن قبل أن يجيبا، روى الرئيس حديثه مع أرملة أحد الجنود. قالت له وفقاً لرواية الرئيس: «أنا أثق بك. لكن هل يمكنك الفوز؟».

بعد ذلك أعاد ذكر أهدافه —إقامة مجتمع حر قادر على الدفاع عن نفسه، وعلى الاستمرار والبقاء، والحكم الذاتي، مع تحوله إلى حليف موثوق في الحرب العالمية على الإرهاب. وأضاف تقويماً يبعث على الكآبة: «يبدو أن العراق عاجز عن تحقيق الأهداف».

قال الجنرال أبي زيد: «المنطقة في حالة مزاجية سيئة وتبدو وكأنها تمر بنقطة تحول فاصلة غير مرئية». وأضاف إنهم بحاجة إلى التركيز على/ومساعدة المعتدلين مثل رئيس الوزراء المالكي، مع التوجه المستمر نحو نقل المسؤوليات إليهم. هذا هو الموضوع الذي ظل هو ورمسفيلد وكيسي يسعون إليه. ومن الضروري إبعاد اليد عن مقعد الدراجة، وتحرك عجلات تدريب الحكومة العراقية.

أضاف أبي زيد إنه وجد ثلاث مشكلات كبرى — الصراع الطائفي بين السنة والشيعة؛ النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني؛ التيارات المتطرفة عموماً التي تتحرك تحت السطح. تتقاتل شعوب المنطقة وتتناحر —في باكستان وأفغانستان والعراق. «نحن نبالغ في الاعتماد على المنظور العسكري في التعامل مع هذه المشكلات، وبحاجة إلى مساعدة شعوب المنطقة على مساعدة أنفسها». تحتاج العوامل السياسية والاقتصادية إلى مزيد من الموارد والانتباه. «نحن بحاجة إلى التفكير بطريقة نبعث بها برسالة مختلفة»، كما قال. كان الرئيس مهتماً برسالة جديدة. لكن فاتت على أبي زيد كما يبدو فكرة الرئيس: عليهم التفكير في إحداث تغيير أكثر عمقاً وجذرية. وحث بوش أبي زيد على كتابة أفكاره وعرضها على رمسفيلد. فأعاد الوزير تأكيد موضوعه: «مساعدتهم على مساعدة أنفسهم».

قال بوش: «أعضاء مجلس الشيوخ يستمعون الآن إلى إيجازات استخبارية حول حقيقة الحرب الأهلية التي تعصف بالعراق الآن» —وهي فكرة رفضها ولم يصدقها. «هذه لحظة مهمة، والناس ينظرون أيضاً إلى الأمور في بغداد وكيف تجري».

قال خليل زاد: «نحن بحاجة إلى خطبة تحدد طبيعة الأمور وتعرّفها». إنها لحظة أخرى على درجة كبيرة من التعقيد والصعوبة بحيث تشوش الذهن وتربك الفكر. فقد ألقى بوش عشرات الخطب وقدم كثيراً من العروض العامة حول العراق، وقصد من غالبيتها أن «تحدد طبيعة الأمور وتعرفها». وعلى شاكلة أبي زيد، فشل خليل زاد في إدراك حقيقة أن التغيير الذي يتحدث عنه الرئيس يتجاوز البلاغة الخطابية.

قال كيسي: «نحن بحاجة إلى إظهار كيف استطعنا حرمان الإرهاب من ملاذ آمن». تلك واحدة من الإنجازات المفترضة: العراقيون لا يصدرون الإرهابيين إلى البلدان الأخرى، بل إن الإرهاب يُستورد إلى العراق. قال كيسي: «الخطة لا تتكشف بالسرعة الكافية أمام بعض الناس. والنجاح المستدام لن يتحقق إلا بأيدي العراقيين». الحكومة العراقية الجديدة برئاسة المالكي، التي لم يمض على وجودها في السلطة سوى أقل من أربعة أشهر، مازالت تحاول الوقوف على قدميها. وأضاف: «تتحرك قدماً بسرعة أكبر من الحكومة السابقة. وهي تحقق تقدماً بثبات، لكنها بحاجة إلى أربعة أو ستة أشهر أخرى. من المبكر معرفة هل تتمتع بالكفاءة والفاعلية أم لا».

سوف تحاول قوات كيسي تقليص حدة العنف في بغداد حتى شهر رمضان الذي يحل بعد أقل من ثلاثين يوماً. قال كيسي إنهم سيحاولون مضاعفة جهود الأحياء السكنية في كل مكان من بغداد، وينقلون المسؤولية عنها إلى قوات الأمن المحلية. وقال عن الإستراتيجية المعلنة القائمة على «الإخلاء والسيطرة والبناء»: «الإخلاء هو أسهل الأجزاء، وأصعبها السيطرة. نحن نقوم بنقل السيطرة إلى الحكومة العراقية في المحافظات».

وفيما يتعلق بقوات الأمن العراقية —الجيش والشرطة— سأل بوش: «هل توجد طريقة لقياس مدى فاعليتها وكفاءتها؟».

أجاب كيسي متهرباً من نصف السؤال: «الجيش العراقي يقاتل. نحن نبلي بلاء حسناً». كان يعتقد أن الرئيس ما يزال يرى العراق من منظور قياس حجم الضرر الذي لحق بالعدو. فقد اعتاد دوماً السؤال عن العمليات الهجومية. ولذلك ألقى «عظمة» إلى القائد العام إذا جاز التعبير. «نحن نقتل عدداً يراوح بين 300-350 متمرداً كل شهر».

تدخل الجنرال بيت بيس ليضيف: «لا نريد إجراء حساب لأعداد هؤلاء القتلى». كان يكره إحصاء عدد قتلى العدو، الذي يردد بوضوح صدى ما جرى في فيتنام؛ وعرف أنه مقياس مزيف، وأن استخدام الأعداد مقياساً للنجاح يمكن أن يشجع الجنود على ذبح المزيد. ولأن المهمة في العراق هي الخروج منه، فإن قتل مزيد من الضحايا لا يفيد بالضرورة. لكن بيس أذعن لرغبة الرئيس وفهم قصده: «قتلنا عشرة آلاف».

ذكر بوش أن أعداد القتلى مطلوبة لمجرد راحته الشخصية، لكن بالنسبة إلى كيسي كان علامة دلالية أخرى على أن الرئيس لم يفهم الوضع.

عرف كيسي وغيره أن ثلاث حروب تستعر في العراق؛ أولاً، هناك معركة مع التمرد السني، تشمل مقاتلة أعضاء حزب البعث؛ ثانياً، ثمة معركة ضارية مع أفراد شبكة القاعدة الإرهابية التي لم تنتشر في العراق إلا بعد الغزو؛ ثالثاً، هناك حرب طائفية/ مذهبية يتصاعد عنفها باطراد بين الأقلية السنية والأغلبية الشيعية.

قال خليل زاد: «تقع نسبة 90% من العنف الطائفي ضمن ثلاثين ميلاً من مركز بغداد. نحن بحاجة إلى جمع القوى المختلفة في العراق معاً». ثم تطرق إلى الأولويات السياسية —التوزيع العادل لعائدات النفط والغاز، والسماح لمزيد من البعثيين القدامى من ذوي المراتب المتدنية بالعودة إلى الحكومة، وكبح دور الميليشيات، التي تزداد طائفية وعنفاً. أما العامل الذي يسبب صداعاً إضافياً فهو وزارة الداخلية، التي تشرف على قوات الشرطة الوطنية المنخورة بالطائفية والفساد، وتحتاج إلى استقصاء شامل وإصلاح جذري.

قال كيسي: «العراقيون ليسوا في حالة مزاجية/ذهنية تشجع على التسوية والحل الوسط. يجب أن نجبرهم على ذلك». قبل شهرين (في حزيران)، قدم مذكرة سرية تتضمن جدولاً زمنياً من ثلاث مراحل تؤدي إلى اعتماد العراقيين على أنفسهم في عام 2009.

تحول بوش إلى المشكلة الشائكة المتعلقة بالشرطة العراقية وذكّر كيسي بأسلوب ساخر إلى حد ما أن الجنرال قال إن عام 2006 سيكون «عام الشرطة». لذلك سأل عن حقيقة الوضع.

أجاب كيسي: «نقوم بعمل جيد في مجال بنائها، وسوف نستكمل المهمة في عام 2006». ثمة برنامج جديد يجري على قدم وساق لإعداد أفراد الشرطة للاستقصاء والتحقيق والتدريب يستكمل بنهاية السنة. في حين كانت مساعيه وجهوده تحقق تقدماً في مجال جلب الجنود الأمريكيين إلى مخافر الشرطة العراقية.

سأل رمسفيلد: هل يمكن فعل شيء لتقديم مزيد من النصح والمشورة للمالكي لوضع خطة، وبيان مسارها الصحيح، ووضع مواعيد محددة لإنجاز العمل؟

أجاب خليل زاد: «هذه قضية حاسمة الأهمية، لكن من الصعب تهديد الحكومة العراقية». إذ ليس لدى الولايات المتحدة سلطة نافذة على الحكومة. وهذا يتباين مع الحقيقة البسيطة المتمثلة بكونها تحتل العراق. «يمكنك أن تشرب الشاي معهم فقط»، في إشارة إلى جلساته التي لا تنتهي مع العراقيين التي لم تثمر سوى نتائج هزيلة.

تحولت بؤرة التركيز إلى قول بوش إنهم بحاجة إلى خطة مؤلفة من خطوات إجرائية عملية وملموسة وقابلة للقياس، بدلاً من الأهداف النظرية المجردة.

قال فيليب زيليكو، مستشار وزارة الخارجية الذي كان يحضر اللقاء نيابة عن رايس، إن هناك أربعة ظروف مهمة لمصلحة التحالف: العدو لا يحظى بالشعبية بين العراقيين؛ أداء الحكومة العراقية يتحسن؛ الولايات المتحدة تزداد خبرة وحذقاً؛ معظم العنف لا يستهدف إسقاط الحكومة العراقية.

وعند التحول إلى موضوع بغداد، قال الرئيس: «يبدو الوضع سيئاً جداً». فرد خليل زاد: «ثمة اختلاف فعلاً في الآراء حول التهديد». الأغلبية الشيعية المهيمنة على الحكومة، تريد مطاردة القاعدة والبعثيين. «بالنسبة إليها، تعد فرق الموت الشيعية وسيلة دفاعية، فأعداؤها كلهم من البعثيين. على الجانب السني، تكمن المشكلات كلها في الميليشيات الشيعية وإيران» التي تدعم الميليشيات.

سأل بوش: «ما مستوى أدائنا ضد القاعدة. هل نملك ما يكفي من القوة البشرية للسيطرة على بغداد ومحاربة القاعدة والبعثيين؟».

أجاب كيسي: «نحن نبذل جهداً ضد القاعدة يحافظ على إيقاع العمليات ثابتاً».

قال رمسفيلد: «نعتقل كثيرين ونستجوبهم».

أضاف كيسي: «كشفنا للتو شبكة كبيرة لتفجير السيارات المفخخة في بغداد. لسنا بحاجة إلى مزيد من الجنود. في بغداد، لدينا ما يكفي منهم الآن». ضاعف كيسي لتوه عديد القوات الأمريكية العاملة في بغداد من سبعة آلاف إلى أربعة عشر ألفاً. وعلى العراقيين السيطرة على المناطق التي تم تأمينها، كما قال الجنرال، لكنه ليس متيقناً من قدرة العراقيين على القيام بذلك.

أكد بوش على الدوام أن عليه ترك إدارة الحرب إلى الجنرالات. وكما قال عام 2002، فإن المشكلة في أثناء حرب فيتنام تمثلت في «إدارة الحكومة للحرب بكل تفاصيلها الدقيقة» –البيت الأبيض ووزير الدفاع روبرت مكنمارا كليهما [2]. في أثناء حرب فيتنام، كان بوش طياراً (على طراز إف102–) في الحرس الوطني في تكساس، مع أنه لم يشارك قط في أي عملية قتالية. قال: «أتذكر أصدقائي الطيارين الذين قالوا إنهم لا يستطيعون عبور ثود ريدج [ممر جوي سلكته المقاتلات الأمريكية للوصول إلى هانوي] إلا في أوقات معينة، وكان العدو يعرف بموعد قدومهم».

عدّ بوش إدارة الحرب بتفاصيلها الدقيقة كلها من البيت الأبيض خطأً أحمر لا يتجاوزه. وكانت كلمات الجنرالات وآراؤهم مقدسة تقريباً ولا يمكن تحديها، ولم يكن يرغب بانتقادها. بل اعتاد أن يسألهم بانتظام هل يملكون كل ما يحتاجون إليه.

لكن ذلك كله كان على وشك أن يتغير.

قال بوش: «يجب أن ننجح. سوف نوفر الموارد اللازمة للنجاح. فإذا لم يتمكن العراقيون من تحقيق النجاح، فسوف نفعل نحن». وفي تحد مباشر لرمسفيلد، استخدم الرئيس استعارة مقعد الدراجة التشبيهية. «إذا ترنحت الدراجة، فسوف نعاود الإمساك

بالمقعد. يجب أن نتيقن تماماً من أننا لن نفشل. فإذا تعثروا، يجب أن نملك ما يكفي من القوة البشرية لمغالبة الوضع»، كما أعلن.

قال كيسي: فهمت. فهمت قصدك». لكن ما لم يفهمه تماماً هو كيف يوشك عالمه على التغير.

لم تنته أسئلة الرئيس. هل يحتاج كيسي إلى إذن من رئيس الوزراء المالكي لمواجهة الميليشيات الشيعية –خصوصاً تلك التي يقودها مقتدى الصدر؟

رد كيسي بالإيجاب، فهو يحتاج فعلاً إلى موافقة المالكي لمطاردة المطلوبين واستهدافهم في معقل مقتدى في مدينة الصدر. «يزعم المالكي أنه يعمل مع الصدر، وربما لديه صفقة هناك». رفض المالكي الموافقة على خمس مهمات ضد أعضاء فرق الموت الشيعية في مدينة الصدر والمناطق المجاورة، كما قال كيسي. «قلت للمالكي: إذا لم تسمح لنا بمطاردتهم، فاطلب من الصدر تسليمهم إلينا». وهكذا، أكد كيسي أن «المالكي يمارس حقه في السيادة». تقنياً، أنهت الولايات المتحدة والتحالف الاحتلال قبل ثلاث سنين، وأعلنا رسمياً العراق دولةً ذات سيادة. ومثلما عرف الرئيس، لا يعد المالكي فرق الموت الشيعية تهديداً. بل لا يملك قاعدة سياسية ويعتقد أنه بحاجة إلى المتطرفين الشيعة الذين يدعمونه بدرجة أو بأخرى.

سأل بوش: «إذا كان الشيعة يعتقدون أننا نحارب المتطرفين السنة، والقاعدة، فلمَ لا يطمئنهم ذلك؟».

قال كيسي: «سبعون في المئة من جهودنا تستهدف القاعدة والبعثيين، وثلاثون في المئة ضد فرق الموت». ولذلك فهو يملك حجة معقولة أمام المالكي.

سأل بوش: «كيف هو أداء المالكي؟».

قال خليل زاد: «أفضل بكثير من أداء سلفه»، رئيس وزراء الحكومة المؤقتة السابقة إبراهيم الجعفري، الذي كان وثيق الصلة بالإيرانيين ومقتدى الصدر، واشتهر بلقب «آلة صنع الضباب»؛ لأنه اعتاد التكلم دون توقف بأسلوب دائري. «يتصف بالحسم، ويعمل بسرعة أكبر، وهو مقل بالكلام نسبياً». لكنه مقيد بقوى أكبر حجماً يمثلها مقتدى الصدر، وعبد العزيز الحكيم زعيم أكبر حزب سياسي شيعي في العراق.

وافق كيسي على التقويم. «المالكي أشبه قليلاً بعلاوي [إياد علاوي الشيعي المدعوم من وكالة المخابرات المركزية الذي كان أول رئيس للوزراء عام 2004]. وما يزال يحاول الوقوف على قدميه بوصفه رئيساً للوزراء». ومع أن المالكي يعدّ البعثيين عموماً من أعدائه، إلا أنه ضم بعض السنة إلى الحكومة.

ذكّر بوش الحاضرين أنه اعتقد أن اللقاء الخاص الذي عقد في كامب ديفيد قبل شهرين سوف ينتج نقاط علام مرجعية يقاس تبعاً لها التقدم السياسي في العراق.

قال خليل زاد إنه حاول جمع الخيوط معاً للحصول على نتيجة إيجابية، خصوصاً فيما يتعلق بتوزيع الإعانات النفطية ووضع قانون للاستثمارات. لكن فيما يتعلق بالقضايا السياسية، فإن الأمر صعب جداً، حسبما قال السفير. إذ يتعذر على ما يبدو جمع الأطراف السياسية معاً.

قال بيس: «في كل ثلاثة أشهر، تعلن الحكومات ما فعلته أمام مواطنيها، وربما يجب على الحكومة العراقية إعلان ما أنجزته أمام الشعب العراقي كل ثلاثة أشهر».

أبدى خليل زاد تعاطفه بالقول إنها فكرة جديدة.

قال الرئيس: «ربما عليكم التفكير في ذلك». لكنه أراد الانتقال إلى قضايا أكبر وأهم. سأل: «ألا يمكن للشعب العراقي أن يعيش حياة عادية؟». ظل يؤكد منذ الغزو أن العراقيين، مثلهم مثل الشعوب كلها، يتوقون إلى الحرية. الآن، أصبح سؤاله جوهرياً وأساسياً. «ألا توجد مصفوفة يمكن استخدامها لوصف نوعية الحياة التي يعيشها الناس في العراق؟».

قال رمسفيلد: «يمكنك رؤية الأضواء حين تحلق فوق المدن ليلاً. العملة مستقرة نسبياً. والمدارس مفتوحة».

قال بوش: «مزيد من الأطفال في المدارس. الجامعات حاشدة بالطلاب. مزيد من الكهرباء؛ إذن الحياة طبيعية نسبياً؟». توقف قليلاً ثم أردف: «هل نستطيع أن نستخدم ذلك كله حجة لمصلحتنا؟».

قال خليل زادة: «مناطق واسعة في أفضل حال، سبعة ملايين عراقي لديهم هواتف خلوية. الشمال برمته يستقر، ويتحول إلى ورشة بناء. وجزء من الجنوب على خير ما يرام أيضاً».

لم يستطع زيليكو، الذي قام بعشر رحلات إلى العراق أن يتمالك نفسه: «سيادة الرئيس، بغداد في وضع مزر ومروع، ويعيش فيها ربع سكان العراق. العنف يجتاحها من أقصاها إلى أقصاها». مئة وخمسون هجوماً يقع كل يوم – بعبوات ناسفة محلية الصنع، وسيارات مفخخة، وأحزمة ناسفة يتمنطق بها الانتحاريون، وأسلحة خفيفة، وكمائن، وقنابل هاون، وقذائف مدفعية، فضلاً على صواريخ أرض-أرض وأرض-جو. ثم عدد أسماء المدن الرئيسة والمحافظات خارج بغداد التي يجتاحها العنف –الموصل وكركوك وديالى، في الشمال؛ والبصرة في الجنوب؛ والأنبار في الغرب. وقال: «الأوضاع ليست طبيعية ولا عادية، وملايين العراقيين يكافحون يومياً في سبيل البقاء، ونحن لا نكاد نفهم ذلك».

وبوصف زيليكو أستاذاً مختصاً بالتاريخ، تناول عملية صنع القرار الرئاسي وديناميات فريق الأمن القومي حين يكون تحت ضغط الأزمة في كتابه «أشرطة كنيدي التسجيلية: البيت الأبيض في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية». لكنه ربما تأثر بأمارات الألم على وجه بوش أو القلق في حركاته والانزعاج في إشاراته الجسدية. أو ربما لم يكن يريد أن يبدو خارج سرب المتفائلين، أو لم يرغب أن يعد من المعارضين الرافضين. أو لأنه أخفق في مغالبة الكليشيهات المبتذلة القديمة التي يعرضها المستشارون على الرئيس. وبغض النظر عن السبب، سارع إلى تغيير نبرته: «لكن من الأمور المشجعة والملهمة التي تكمن وراء وجودنا هنا، وتحتم علينا مساعدة هؤلاء الناس، بطولة المواطنين العراقيين العاديين –آلاف ممن لم نسمع عنهم يخاطرون بحياتهم في سبيل تحسين الوضع في ظروف بالغة الصعوبة».

قال كيسي إن التطرف بأساليبه المتعددة يمثل بحد ذاته مشكلة تتجاوز الانقسام المذهبي بين السنة والشيعة. وفرق الموت من الجانبين كليهما تدفع الناس إلى واحد من المعسكرين. ما يحدث هو صراع على السلطة بين العراقيين: «علينا التعامل مع هذا الوضع».

سأل بوش عن مقاتلي القاعدة وهل ما يزالون يتدفقون إلى العراق.

قال كيسي: «يحاولون ذلك». فأبو أيوب المصري، زعيم القاعدة الحالي في العراق، «يحاول جذب المواهب من الخارج».

قال جون أبي زيد: «يجب عدم التقليل من أهمية المشكلة المذهبية. ثمة خط مذهبي يقسم العالم العربي برمته، ويخترق العراق. الدين أسلوب حياة، ولذلك فإن الانقسام المذهبي عميق الغور. والصراع الدائر في العراق حالياً يمكن أن يحدد مصير المنطقة برمتها». تحدث بنبرة العارف الذي فهم التاريخ: ربما تكون سيرورة التاريخ ذاتها معاكسة للنظام الجديد الذي يتصوره بوش.

سأله بوش هل يعتقد أن الوطنية العراقية قادرة على منافسة المعتقدات الدينية. إذ اعتمدت المقاربة الأمريكية على انتشار المشاعر الوطنية العراقية، أو على الأقل المصالحة بين الشيعة والسنة.

أجاب جون أبي زيد: «ربما لا يصمد الوسط، فهو يترنح. والمعركة في سبيل الاعتدال والوسطية بالغة الأهمية».

سأل بوش عن التعايش وهل هو ممكن. «ففي غيابه يتعذر الحل والإصلاح».

ظل السؤال معلقاً في فضاء الغرفة.

قال جون أبي زيد إن الولايات المتحدة قادرة على المساعدة في إيجاده: «يجب أن نوجده في العراق».

ظل جوش بولتون (51 سنة)، الذي شغل منصب رئيس موظفي البيت الأبيض ستة عشر شهراً، صامتاً. وكان سلفه، أندرو كارد، قد أبلغه أن وظيفته تنحصر في «العراق، والعراق، والعراق». ولذلك انغمس في الجدل حول السياسة. عمل سابقاً رئيساً لتحرير مجلة «ستانفورد لو ريفيو» (Stanford Law Review)، ومصرفياً استثمارياً في مؤسسة غولدمان ساكس المالية. سأل: «من أهم الأمور للحكومة العراقية التوصل إلى طريقة لتقاسم السلطة وتقسيم الموارد. فإن ساءت الأحوال، فما الإجراءات الراديكالية التي يوصي بها الفريق؟».

ساد صمت طويل. كلمة «راديكالية» نادراً ما تستخدم في البيت الأبيض تحت إدارة بوش، حيث المبادئ الجوهرية ومسارات العمل الأساسية مترسخة من زمن بعيد: يجب

تخفيض الضرائب. يجب توسيع السلطات الرئاسية. يجب شن الحرب على العراق والانتصار بها.

في نهاية المطاف حاول رمسفيلد الإجابة: «هذا يمثل الوجه الخلفي من فكرتي السابقة. ما الذي نفعله؟ هناك أمور يمكن أن نراجعها الآن ونقول: هذا ما يمكن أن نفعله. يمكننا إغلاق القواعد، والحدود...». بل اقترح فبركة حدث خارجي، لكنه لم يحدد بوضوح ما يقصده. بدا أنه لم يفهم وزن اقتراح بولتون وثقله وأهميته المتعلق بالإجراءات «الراديكالية».

عاد الرئيس المرة الثالثة إلى موضوع بغداد: هل يمكن تهدئة الوضع فيها؟

قال كيسي: «أجل». كانت عملية «معاً إلى الأمام» تجري على قدم وساق، حيث جلب آلاف الجنود الأمريكيين إلى بغداد من أجزاء أخرى من العراق.

جلس هادلي صامتاً أيضاً معظم الجلسة. لا تبعد الانتخابات التشريعية عام 2006 أكثر من عشرة أسابيع، واحتمال خسارة الجمهوريين السيطرة على مجلسي الشيوخ والنواب بدا مرجحاً. وستكون السنوات الأخيرة من عهد إدارة بوش صعبة بغض النظر عن النتائج، لكنه عرف أن الطريق سيكون وعراً إلى حد لا يصدق إذا خسر الجمهوريون السيطرة على الكونغرس.

سأل هادلي: «هل يعد المسعى لعقد مصالحة مع السنة مهمة عبثية لا جدوى منها؟». كان واحداً من أكثر الأسئلة التي طرحت قسوة وصراحة. «وهل ثمة فرصة لنجاح الإستراتيجية؟». فمجرد طرح السؤال من شخص يفترض أنه حيادي أحدث مفاجأة. هل يمكن للشيعة والسنة العمل معاً؟ بل هل تعد فكرة العراق ذاتها بوصفه أمة واحدة ممكنة؟

أجاب خليل زاد أن من المبكر جداً معرفة ذلك، لكنه أضاف إن عوامل المصالحة غير متوافرة. «السنة لم يشاركوا حتى الآن فعلياً في العملية السياسية». وبعد ثلاثة انتخابات في العراق، ومضي ثلاث سنوات ونصف السنة على الحرب، كما قال، «لم يجري التصدي لهذه القضايا بعد». العداوة بقيت حادة. «هذا سيتطلب وقتاً. ولا يمكن تحقيق ذلك بقتل

ما يكفي من الناس دون إجراء مصالحة. سبعون في المئة من السكان يعادون السنة. لكننا نستطيع الاستمرار، ويمكننا إبرام الصفقة، ومن ثم إطلاق الأحكام».

عاد الرئيس إلى سؤاله الافتتاحي: «هل يمكن أن ننجح؟ إذا كان الجواب ربما، أو كان النجاح محل شك، فنحن بحاجة إلى موقف آخر ووضعية أخرى».

قال خليل زاد: «يمكننا ذلك بالتأكيد. نحن نحقق تقدماً». والانتباه لسوريا وإيران، برأيه، يمكن أن يدعم ذلك التقدم.

وافقه كيسي الرأي: «مثلما أُذكّر هادلي دوماً، يعرف العراقيون أنهم لن يعودوا إلى الوراء»، إلى النظام القديم حسبما قال.

قال الرئيس إنه يخطط لإلقاء خطبة تجمع التحليلات والمعلومات والإستراتيجية الجديدة معاً في سياق أوسع، يشمل قضايا النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي.

ربما أدرك تشيني أن اللقاء كان انتقادياً بطريقة مباشرة وغير مباشرة لخليل زاد وكيسي، ولذلك امتدح الجهد الشاق الذي يبذله الرجلان.

وافقه بوش الرأي بحماس: «أدعمكما بنسبة مئة في المئة، لكن يجب أن نطرح أسئلة صعبة. آمل أن يتفهم ذلك السفير خليل زاد والجنرال كيسي. فلكي نشعر بالثقة يجب أن أصرح لكم بما يجول بفكري. وتتوتر أعصابي إن عجزتم عن الإجابة. هذه أوقات صعبة؛ نحن بحاجة إلى طرح بعض الأسئلة الصعبة».

قال كيسي إنه يقدر أهمية الأسئلة الصعبة، ورفع الرئيس الجلسة.

لكن الإحساس بالشؤم والجو المقيت بقي مهيمناً. وبالطبع حمل إعلان الرئيس ونائبه بدعم الجنرالات بنسبة «مئة في المئة» تلميحاً لا يخفى على أحد أن العكس هو الصحيح. وبقيت بعض من أصعب الأسئلة وأقساها دون إجابات. أخبرني بوش فيما بعد أنه كان يبعث عن سابق قصد وتصميم برسالة إلى رمسفيلد وكيسي: «إذا لم تنجح المهمة فعلينا القيام بعمل مختلف... وأفترض أنهما فهما العبارة بوصفها رسالة» [3].

هوامش: أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Frank Newport, «Americans Continue to Call Iraq Involvement a Mistake,» Gallup News Service, July 28, 2006; Jeffrey M. Jones, «Latest Bush Approval Rating at 37%,» Gallup News Service, August 15, 2006, www.gallup.com

2- مقابلة مع الرئيس بوش 2002/8/20؛ انظر أيضاً:

Bob Woodward, Bush at War, p. 168.

3- مقابلة مع الرئيس بوش 8002/5/20.

-10-

مع أن ميغان أوسوليفان كانت تكتب للرئيس مذكرة يومية بالغة السرية عن العراق، إلا أن بوش كثيراً ما أمطرها بوابل من الأسئلة حين يراها في أثناء النهار في لقاءات تقديم الإيجازات أو في الاجتماعات في المكتب البيضاوي مع تشيني، وهادلي، ورئيس موظفي البيت الأبيض جوش بولتون، أو غيرهم. في مرات عديدة، كان اللقاء ثنائياً بين بوش وميغان. ولم تكن تشغل مجرد منصب معاون مستشار شؤون الأمن القومي للعراق فقط، بل تمتعت أيضاً بشبكة واسعة من الاتصالات الشخصية في العراق حافظت عليها طوال أكثر من ثلاث سنين.

في أوائل أيار2003، حين ذهبت أوسوليفان إلى بغداد لتعمل أولاً تحت إدارة جاي غاردنر ثم جيري بريمر، تمثلت مهمات وظيفتها بالتعرف إلى أكبر الأحزاب الشيعية، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي سيتمتع بقوة نافذة ومؤثرة على ما بدا في العراق الجديد. كان زعماء الحزب، الذين تجمعهم روابط قوية بالمتطرفين والإيرانيين، مترددين في بناء علاقات مع الولايات المتحدة. وهكذا، قادت أوسوليفان (ولم تتجاوز الثالثة والثلاثين آنذاك) سيارتها المتهالكة (من طراز هيونداي) في شوارع بغداد، وتوقفت حين شاهدت لافتة الحزب وسألت الناس: «هل تعرفون أحداً من هذا الحزب؟ هل تعرفون أين يمكن العثور عليهم؟». طرقت الأبواب مثل مندوبة مبيعات أو صحفية. وظلت على هذه الحال طوال سنة قبل أن تعرف زعيمي الحزب – عبد العزيز الحكيم وعادل عبد المهدي. وعندما عادت إلى البيت الأبيض، استمرت في الاتصال بأمثال هؤلاء العراقيين بواسطة الهاتف والبريد الإلكتروني. ولذلك، حين كان بوش يسألها، تستشير أحد المرجعيات. وفي أكثر من عشر مناسبات، طرح عليها أسئلة مثل: ما الذي تسمعينه من الناس في بغداد؟ كيف هو الوضع في بغداد؟ كيف هي حياة الناس اليومية؟ هل يستطيعون مغالبة العقبات والمشكلات؟ هل يعيشون حياة طبيعية؟

كانت أسئلته تزداد عدداً وتنوعاً باطراد ذلك الصيف. وتضاعف إصراره وإلحاحه. صممت أوسوليفان على عدم تضليله أو الكذب عليه. ولذلك كان جوابها بسيطاً: «الحالة جحيمية يا سيادة الرئيس».

ناقضت تقاريرها الصورة الوردية والأحاديث المفرحة والحكايات الإيجابية القادمة من العسكر والسفارة في بغداد. واعتقدت أن الاستمرار في طرح الأسئلة يدل على ذكاء الرئيس، وشعرت بعمق إحباطه وخيبة أمله. تمثلت مهمتها بتزويده بالمعلومات الصادقة، لكنها لم تعرف، ولم تحزر كيف –أو هل– يوازن ويوائم بين ما تبلغه من معلومات وبين معلومات التقارير الأخرى.

أكد لي بوش فيما بعد أن تقارير أوسوليفان ناقضت كثيراً من المعلومات التي سمعها من رمسفيلد وكيسي وخليل زاد [1].

تذكر الرئيس قائلاً: «كنت أطرح السؤال الآتي على الدوام: هل يقدر العراقيون على العيش في أمان وسلام؟». كانت أوسوليفان ترد بالنفي، ووافقها الرأي. «الإجابة بالنفي واضحة أيضاً من عدد القتلى، وعدد الهجمات الظاهر في الجدول البياني الشهير». فضلاً على خمسين جثة يعثر عليها كل يوم، وقد قيدت أيدي الضحايا وأطلق الرصاص على مؤخرة رؤوسها.

قال بوش: «تلك علامة دالة على أن الإستراتيجية لم تكن ناجحة. واتضح ذلك بجلاء من التقارير التي تشير إلى أن خمسة وعشرين شخصاً قتلوا هنا، وثلاثين ذبحوا هناك، وخمسة وخمسين سقطوا في مكان آخر. إضافة إلى التطهير العرقي، والنازحين، والأحياء السكنية التي كانت تضم خليطاً من السكان سابقاً وتحولت الآن إلى أحياء المذهب الواحد أو الطائفة الواحدة. أعني أن التردي في الأوضاع كان يتسارع».

وأردف: «السؤال الجوهري في ذلك الوقت، في أثناء تلك المرحلة، هو: لماذا تظن أن من الممكن تصميم إستراتيجية تنجح في وجه ما تراه كل يوم؟». الإجابة، كما قال، هي: « يريد الناس العيش بأمان وسلام».

علقتُ بالقول إن الرغبة في العيش بسلام لا توفر بحد ذاتها الوسيلة الضرورية لتحقيق السلام.

قال: «صحيح»، ثم أشار إلى أن المؤسسة العسكرية الأمريكية قادرة على الانتصار في المعارك. «تذكرْ، في كل مرة نظهر فيها، ننتقد هؤلاء». السؤال، كما قال، هو: هل يمكن للحكومة العراقية توفير الأمن، ومساعدة الناس في العثور على عمل، وتحسين إتاحة الخدمات الأساسية.

سألته: «إذاً، كنت على نار حامية في أثناء هذه المدة؟».

قال: «تعنين... تعنين كنت غاضباً؟ لا، لا...».

قلت: «لا، لا أقصد غاضباً».

قال: «لكن هذا ما تعنيه عبارة على نار حامية».

قلت: «رويدك. لقد تصاعدت حدة العنف. وأشخاص مثل ميغان [أوسوليفان] وبعض مسؤولي الاستخبارات...».

قال: «أقلقني أن الإستراتيجية لا تعمل بنجاح. نقطة انتهى».

قلت: «بالضبط. وخط المسار المعتاد الذي اتبعته هو إصلاحها».

قال: «أجل، لكن في هذا الحالة... أجل. لكن في هذه الحالة، كانت مسؤولية إصلاحها تقع على ستيفن هادلي»، ونظر إلى ستيفن هادلي الذي كان يجلس على أريكة في المكتب البيضاوي، وسأله: «أليس كذلك؟».

قال هادلي: «أجل. لكنه فريقك أنت يعمل تبعاً لتوجيهاتك».

رد الرئيس: «هذا ما قلته».

وبالطبع، كان ما قاله فعلاً، وما شدد عليه مراراً وتكراراً في مقابلاتنا، هو أن هادلي مثل القوة المحركة خلف ذلك كله.

قلت: «بالتأكيد. بكلمات أخرى، كان المسؤول الأول عن التنفيذ».

قال الرئيس: «إنه الرجل المناسب. اسمع: هادلي يعرفني إلى حد أننا لا نحتاج إلى عقد ندوة كبرى لاكتشاف أن علينا القيام بعمل مختلف. ولذلك فهو يشرع في عملية شاملة ويطلعني على آخر المستجدات».

مثل العراق أهم قضية في ولاية بوش. فهو القائد العام، وعرف أن الحرب خاسرة في الجوهر. ووفقاً لروايته، كان يفكر فيها على الدوام. لذلك سألته: «هل حددت لهم موعداً نهائياً في هذه المرحلة؟».

قال الرئيس: «لا أعتقد أنني حددت أي موعد. إذ لا داعي للعجلة».

لكن كيف لا يحدد موعداً نهائياً، ولا يشعر بأهمية السرعة في تغيير المسار، بعد مضي ثلاث سنوات ونصف السنة على حرب خاسرة؟

* * *

حين بدأ ديفيد ساترفيلد يشكك في مصداقية تقارير جنرالات القيادة العسكرية المرسلة من العراق، عاد بذاكرته إلى أوائل عام 2001، بعد أن أصبح أرييل شارون رئيساً لوزراء إسرائيل. كان ساترفيلد آنذاك في السادسة والأربعين ويشغل منصب معاون وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، فالتقى برئيس الوزراء الجديد بعد منتصف الليل في منزله. يعد شارون من أكثر الشخصيات إثارة للجدل في تاريخ إسرائيل، وكان سابقاً جنرالاً في الجيش ووزيراً للدفاع. في تلك الليلة، التهم شارون طبقاً ضخماً من «السوشي» وهو يلقي محاضرة على ساترفيلد، ويطعن المائدة بإصبعه لتوكيد كلامه. توقع أنه سيبقى في السلطة سنين قادمة؛ لأنه يسيطر كما زعم على الوسط البالغ الأهمية، مع أنه لا يحظى بتأييد اليمين المتطرف، ولا اليسار بطبيعة الحال.

قال شارون بإلحاح: «سوف أخبرك شيئاً آخر. كنت جنرالاً، وأعرف أن الجنرالات يكذبون؛ يكذبون على أنفسهم، وعلى السياسيين، لكنهم لن يتمكنوا من الكذب علي أبداً».

كانت خطبة عظيمة، ونصيحة مفيدة، كما فكر ساترفيلد. وبعد سنة من الاستماع إلى إيجازات الجنرال كيسي في العراق، التي عرضت الاحتمالات عبر عدسات وردية اللون، سأله ساترفيلد: «فسر لنا ما يحدث على الأرض. كيف تقوّم معنى «إخلاء» [اقتحام المباني وطرد العدو منها] وتفهمه؟ ومعنى 'سيطرة'؟. نحن نرى هذه المخططات البيانية الملونة للأحياء التي طُرد العدو منها والسيطرة عليها. ما معناها الدلالي؟ ما أساس مقاييسك؟ نريد أن نرى المسار والمتابعة، يوماً بيوم، أسبوعاً بأسبوع».

أجاب كيسي: «المهمة صعبة. نحن نتقدم. ونحقق النجاح». لم يظن ساترفيلد أن كيسي أو الجنرالات الآخرين يكذبون. بل اعتقد أن هذه هي طريقة أداء عملهم، حيث يتشبثون بتفاؤلهم ويتعلقون بشعور الثقة بالنجاح. لكنه لم يتمكن من طرد ذكرى حكمة شارون: الجنرالات يكذبون على أنفسهم وعلى السياسيين.

في حلقة في يوم السبت (2006/8/20) من برنامج «قابل الصحافة»، سأل مذيع محطة إن بي سي ديفيد غريغوري سيناتور أريزونا جون مكين: «هل نكسب الحرب في العراق؟» [(2)].

أجاب مكين: «لا أظن ذلك، لكنني لست واثقاً أنها تتحول إلى حرب أهلية... الوضع بالغ الصعوبة. يجب علينا أن نفوز –ليس لدينا حتى الآن نوع الجنود المطلوب هناك، وستكون عملية صعبة جداً».

قال غريغوري: «كرر الرئيس مراراً أن لديه إستراتيجية للنصر. وإذا أراد قادته العسكريون مزيداً من القوات فسوف يحصلون على بغيتهم. هل يجب إرسال مزيد من الجنود؟».

أجاب مكين: «أعتقد أن من المعروف والموثق الآن أننا لم نملك العدد الكافي منذ البداية، وأننا سمحنا لعمليات النهب والسلب، ولم نمتلك السيطرة والتحكم. نرتكب أخطاء في كل حرب، وثمة أخطاء ذريعة وخطرة ارتكبت هنا. السؤال هو: هل نحن قادرون على السيطرة على الوضع الآن؟ ما زلت أعتقد أننا قادرون».

سأل غريغوري: «هل تعتقد أن القادة العسكريين الميدانيين يطلبون مزيداً من الجنود؟».

أجاب مكين: «أعرف أن القادة العسكريين على الأرض بحاجة إلى مزيد من الجنود».

في مؤتمر صحفي عقد في اليوم اللاحق (8/21)، دافع الرئيس بحماس عن سياسته في العراق، وذلك على الرغم من الانتقادات التي أخذ يوجهها الآن الحلفاء والأعداء على حد سواء، حيث يدعو أشخاص مثل مكين إلى إرسال مزيد من الجنود، في حين يطالب آخرون بوضع جدول زمني للانسحاب. اعترف بوش أن تصاعد حدة العنف الطائفي وتزايد الخسائر الأمريكية في الأرواح «يضعفان الروح المعنوية لبلادنا»، لكنه أكد أن استعجال الانسحاب من العراق سيفرز تبعات وعواقب وخيمة [3].

قال بوش: «الانسحاب قبل إنجاز المهمة سيبعث برسالة إلى جنودنا مفادها أن تضحياتكم غير مجدية. الانسحاب قبل إنجاز المهمة سيكون كارثة».

وأضاف دون أن يذكر الجدل المحتدم خلف الكواليس ضمن إدارته: «ثمة جدل مثير يجري الآن في أمريكا حول كيفية إدارة الحرب. هناك كثير من الأشخاص البارزين والمحترمين يقولون: يجب أن ننسحب الآن. هذا خطأ فادح. هذه خطيئة كبرى بحق هذا البلد».

وأصر بإلحاح على أن للحرب في العراق أهمية حيوية للصراع الأوسع ضد الإرهاب العالمي: «إن حسبتم أن الوضع سيئ الآن، فتخيلوا الوضع في العراق إذا انسحبت الولايات المتحدة قبل أن تتمكن هذه الحكومة من الدفاع عن نفسها والاعتماد على نفسها».

وبدت أهداف الرئيس الطموحة فيما يتعلق بالعراق قد تبخرت. إذ لم يعد قادراً على تأكيد أن وجود الولايات المتحدة في العراق يجعل الوضع فيه أفضل حالاً، ولم يبق له سوى تقديم الحجة على أن الانسحاب سيزيد الوضع سوءاً.

في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من آب، قام الجنرال أبي زيد بجولة على حيين سكنيين يجتاحهما العنف من أحياء بغداد، برفقة مراسل (وكاتب) صحيفة واشنطن بوست ديفيد

إيغناتيوس، ومراسل لمحطة سي بي إس [4]. ظل الجنرال كيسي على مدى عدة أشهر يزج بآلاف مؤلفة من الجنود الأمريكيين في العاصمة لاستعادة الأمن ضمن خطة «معاً إلى الأمام»، التي تعني أن القوات الأمريكية والعراقية سوف تتعاون معاً لاستعادة السيطرة على العاصمة. وفي أثناء الجولة في جو صيفي قائظ بلغت حرارته 46 درجة مئوية، سأل أبي زيد مواطناً عراقياً يرتدي ثوباً أبيض وطاقية صلاة عن الوضع الأمني وهل شهد تحسناً، فأجاب: «نعم والحمد لله!». ومع أن إيغناتيوس ارتاب بصحة الإجابة، إلا أنه ذكر أن معدل عمليات القتل انخفض في بغداد بنسبة 41% ذلك الشهر، وحمل عموده في واشنطن بوست صبيحة اليوم اللاحق عنوان: «استعادة بعض النظام إلى شوارع العراق الطافحة بالشر».

في اليوم اللاحق، أصدر الجنرال كيسي تقويم القيادة السري: «الوضع الأمني في بغداد يتحسن، لكن الطريق ما زال طويلاً». وأضاف متفائلاً: «نحن على المسار الصحيح لإحداث تأثير ملحوظ بحلول رمضان» (في الشهر القادم) [5].

ضم التقرير السري إحصائيات من عملية «معاً إلى الأمام»، المرحلة 2، وقال بدقة –وجنرالات المؤسسة العسكرية يلتزمون الدقة دوماً– إن «عدد المباني التي جرى اقتحامها وتأمينها بلغ: 33009. عدد المساجد: 25. عدد المعتقلين: 70»، وذلك بحلول الخامس والعشرين من آب. كانت المهمة بالغة الخطورة للجنود، حيث يضطرون إلى اقتحام المباني وهم معصوبو العيون إذا جاز التعبير، إذ لا يعرفون هل المكان ملغم بالمتفجرات، أم حاشد بالمقاتلين المسلحين. في أثناء هذه المدة، كما ذكر التقرير، لم يزد عدد المعتقلين على سبعين. أي كان من الضروري اقتحام خمس مئة مبنى وتأمينهم لاعتقال متمرد واحد مشتبه فيه، أو أحد إرهابيي القاعدة، أو واحد من المتطرفين الطائفيين.

سألت الرئيس بوش عن تقرير الخامس والعشرين من آب، وأبلغته بدهشي حين وجدت أن الجنود أخلوا وسيطروا على هذا العدد الكبير من المباني ولم يزد عدد المعتقلين على سبعين. وهذا يعني أن العدو يسبق الجنود الأمريكيين بخطوة، ثم ينتظرهم ليغادروا قبل أن يعود مجدداً [6].

قال الرئيس: «أوه، لا أتذكر رد فعلي على هذا الاجتماع». ثم قدم نصيحته فيما يتعلق بتأليف هذا الكتاب: «اسمع، استخدم هذا كله لرسم صورة للبيئة العامة التي انتشرت فيها حقيقة أن الإستراتيجية لا تعمل بنجاح، وبوش يبدأ العملية...».

لكنني أردت أن أعرف ماذا قال لقادته العسكريين. «ألم تقل شيئاً للجنرال كيسي...».

«لا أتذكر».

«أو لرمسفيلد: دونالد، جنرال، هذه الإستراتيجية لا تعمل بنجاح».

«لا أتذكر ماذا قلت لهما».

تدخل هادلي مقاطعاً وقال إن كلاً من رمسفيلد وكيسي «أبلغه جزئياً أنها لا تعمل بنجاح»؛ لأن الإحصائيات أظهرت حجم المشكلات.

ومع ذلك، ذكر كيسي الثلاثة والثلاثين ألف مبنى بوصفها إنجازاً تحقق.

«لا أستطيع إعطاءك إجابتي لهذين الرجلين، لأنني لا أتذكر».

لكن في ذلك الوقت، أصيب ديفيد ساترفيلد بصدمة مروعة حين شاهد التقرير في وزارة الخارجية. قال في سره: مجرد أرقام إضافية. ضباب لإبهام الحقائق ودخان لإخفائها. التقرير يفتقد المنطق العقلاني. لقد أظهرت تقارير وكالة المخابرات المركزية وغيرها أن المباني ما إن تقتحم وتؤمن، حتى تعود مختلف العناصر المتطرفة أو العنيفة –خصوصاً الميليشيات الشيعية– إلى احتلالها من جديد. لم تتحرك القوات العراقية التي يفترض أن تشارك في «السيطرة» على الأحياء والمباني بالقوة الكافية قط. والبقاء بغرض «السيطرة» لم يكن جزءاً من مهمة القوات الأمريكية المحدودة، على الرغم مما تذكره إستراتيجية «الإخلاء والسيطرة والبناء» على الورق.

رغب ساترفيلد لو رد الرئيس أو تشيني أو رايس أو هادلي أو رمسفيلد –أو أي مسؤول آخر– على تقارير كيسي بالقول: «جورج، لا أجد معنى منطقياً فيها». بدلاً من ذلك، أومأ كل منهم برأسه موافقاً. وغالباً ما تنحدر المناقشة في مجلس الأمن القومي إلى درك عروض

مسرح الكابوكي الياباني الساخرة* أو المشاهد الإيمائية الهازلة**: حيث يقدم كيسي تقريره، فيسأل الرئيس إن كان بحاجة إلى مزيد من القوات، فيقول هذا لا، فيذكّر الجنرال بيس رئيس هيئة الأركان المشتركة الرئيس بالقدرة على إتاحة كل ما هو ضروري وتوفيره.

في اجتماعات كبار المسؤولين – أعضاء مجلس الأمن القومي من دون الرئيس– كانت رايس تنتقد بشدة تقارير كيسي المتفائلة أمام تشيني وهادلي وبيس وغيرهم. في إحدى المرات قالت: «مضت سنوات ونحن نستمع إلى إيجازات واثقة يقدمها العسكر، تتجاهل المشكلات الجديدة الملحة. الرئيس يريد التركيز على الحالة المشكوك فيها لا على أفضل الحالات».

وأكدت لكبار موظفيها أنها تجد بيس وكيسي وكبار المسؤولين العسكريين «مخلصين وصادقين» لكنهم حوصروا في متاهة من الأرقام والمقاييس، وتوقفوا عن قياس المشكلة الحقيقية المتمثلة بالعنف الطائفي.

لم تجأر بالشكوى قط أمام الرئيس لسببين اثنين: أولاً، كانت متفائلة، كحال الرئيس تماماً: «لدى الجميع ميل إلى التفاؤل»، على حد تعبيرها. وفي الحقيقة، بلغ الرئيس تقريباً حد المطالبة بالتفاؤل. إذ لم يحب التشاؤم، أو القلق، أو الشك. ثانياً، زعمت رايس أنه من غير اللائق أن تنتقد، بوصفها مستشارة الأمن القومي، رمسفيلد أو كيسي أمام الرئيس. فالشؤون العسكرية مجالهما لا مجالها، وعلى الرئيس أن يحكم على ما يقدمانه من معلومات أو نصائح وفقاً لجدارتها وأهميتها وصدقها. أكدت قائلة: «لا يحاولان وضع غشاوة على عيني الرئيس. ولا يحاولان خداعه».

وهكذا، لم يجر نقاش مباشر، واستمر مسرح كابوكي في عروضه.

قالت رايس: «[من الواضح] أن الأمور لا تسير في الاتجاه الصحيح إلا إذا كان المراقب أعمى».

حين عادت رايس من إجازة الأيام الخمسة التي أمضتها في غرب فرجينيا في شهر آب، طلبت من موظفيها نسخاً من البرقيات التي أرسلت من بغداد كلها، ومنها التقارير

* مسرح ياباني تقليدي يؤدي فيه الممثلون (الذكور) أدوار النساء والرجال معاً. (م)

** عرض مسرحي يؤدي فيه الممثل دوراً صامتاً باستخدام تعابير الوجه ولغة الجسد. (م)

والتقديرات الاستخبارية. وأخذت الأوراق وبعض الأقراص المدمجة إلى شقتها في مجمع مباني ووترغيت، وقضت بضعة أيام وحدها تعيد تقويم السنة الماضية والاحتمالات الآتية —والتصدي لسؤال: ماذا يحدث في العراق؟

اكتشفت قضيتين مقلقتين ومزعجتين على نحو خاص: أولاً، كان من المفترض أن يؤدي إشراك الأقلية السنية في العملية السياسية —ما سمي بالمصالحة السياسية– إلى وقف التمرد، لكن ذلك لم يحدث. ثانياً، أطلق تفجير مسجد سامراء شرارة التوترات وأعمال العنف الطائفية، فأثر تأثيراً سلبياً عميقاً في العملية السياسية. فكيف تجري المصالحة حين يتساهل المسؤولون الحكوميون أنفسهم مع العنف بل يسعرون لهيبه؟ التطور الإيجابي الضئيل والوحيد شهدته محافظة الأنبار، حيث بدا وكأن القاعدة تفقد تأييد السكان الذين أخذوا ينقلبون عليها.

في الثلاثين من آب، أكد بوش في مدينة سولت ليك (بولاية يوتاه) أن الانسحاب من العراق يعني كارثة كاملة [7].

قال: «إذا انسحبنا قبل أن يتمكن العراق من أن يدافع عن نفسه ويحكم نفسه ويعتمد على نفسه، فسوف تلحق بالولايات المتحدة الأمريكية هزيمة كبرى في هذا الصراع الأيديولوجي الذي يشهده القرن الحادي والعشرون».

«إذا انسحبنا قبل إنجاز المهمة، فسوف نساعد على إقامة دولة إرهابية في قلب الشرق الأوسط، تسيطر على احتياطيات النفط الضخمة. إذا انسحبنا قبل إنجاز المهمة، فسيفقد هذا البلد مصداقيته، وسوف يعدّ الناس كلماتنا كلمات جوفاء، ولن يثقوا بأحكام الولايات المتحدة وقيادتها وزعامتها. سيتراجع الإصلاحيون عن رغبتهم العميقة بالعيش في مجتمع حر. ويتساءل المعتدلون هل يستمع أحد إلى صوتهم مرة أخرى. إذا انسحبنا قبل إنجاز المهمة، فسيكون أولئك الذين ضحوا، أولئك المتطوعون البواسل من جنودنا الذين ضحوا، قد ماتوا عبثاً. ومثلما قال الجنرال أبي زيد، إذا انسحبنا قبل إنجاز المهمة —إذا انسحبنا من شوارع بغداد– فسوف يتبعنا العدو إلى شوارعنا في أمريكا».

في ذلك اليوم، كان العدو ناشطاً في شوارع بغداد. فقد هزت سلسلة من الانفجارات الأحياء التي تسكنها أغلبية شيعية في العاصمة، فقتل ثلاثة وأربعون، وذلك في ذروة أسبوع حافل بأعمال العنف خلّفت ثلاث مئة قتيل من العراقيين وثمانية عشر من الأمريكيين (8).

في اليوم اللاحق (31 آب)، أرسل كيسي آخر نسخة محدّثة من تقويم القيادة السري، ذكر فيها: «الوضع الأمني في بغداد مستمر بالتحسن. ارتفع عدد الهجمات قليلاً؛ لأن العدو يتحدى الخطة الأمنية. عدد المباني التي جرى اقتحامها وإخلاؤها وتنظيفها والسيطرة عليها ضمن عملية معاً إلى الأمام، المرحلة 2: 41054» (9).

إذاً، نجح كيسي في إخلاء ثمانية آلاف مبنى وتنظيفها والسيطرة عليها في ستة أيام، واعتقال بضع عشرات من المسلحين. لكن العملية لم تكن «معاً» بأي معنى من المعاني؛ لأن العراقيين لم يشاركوا، ويصعب عدّها «تقدماً إلى الأمام»؛ لأن العنف يتفاقم –كالمعتاد.

على الرغم من الأسئلة الخمسين التي طرحها هادلي وركزت على جوهر الإستراتيجية، والجلسة الصعبة والقاسية مع الرئيس قبل أسبوعين فقط، وتصاعد حدة العنف، ظل كيسي متشبثاً بشدة بإستراتيجيته القائمة على الانسحاب والانتصار. واستمر في التأكيد أن قوات الأمن العراقية يمكنها بعد مدة تراوح بين 12-18 شهراً تولي زمام المسؤولية الأمنية في البلاد مع قليل من الدعم الأمريكي.

لكن العنف المتصاعد خارج المنطقة الخضراء المحصنة يروي قصة مختلفة. فبعد الساعة العاشرة من ذلك الصباح، انفجرت قنبلة وضعت داخل عربة بائع متجول في سوق مكتظ بالناس في بغداد، فقتلت أربعة وعشرين مواطناً وجرحت خمسة وثلاثين آخرين. وفي جنوبي العاصمة، انفجرت دراجة مفخخة فقتلت عشرة من المواطنين قرب مركز للتجنيد. في حين انفجرت سيارة مفخخة قرب محطة وقود في بغداد، فقتل اثنان وجرح واحد وعشرون، منهم خمسة من الشرطة. وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن السلطات العراقية عثرت على ثلاث عشرة جثة أخرى مبعثرة في شتى أرجاء المدينة (10).

هوامش

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- مقابلة مع الرئيس بوش 20/5/2008.

2- انظر:

MSNBC Transcript, Meet the Press, August 20, 2006, www.msnbc.msn.com/.

3- Presidential Documents, August 21, 2006, pp. 1480-1493 (Vol. 42, No. 34), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no34.html

4- انظر:

David Ignatius, «Returning Some Order to Iraq's Mean Streets,» The Washington Post, August 25, 2007, P.A17.

5- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 25/8/2006.

6- مقابلة مع الرئيس بوش 20/5/2008.

7- Presidential Documents, August 30, 2006, pp. 1537-1544 (Vol. 42, No. 35), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no35.html

8- Edward Wong, «Car Bomb and Rockets Kill 43 in Baghdad's Shiite Strongholds,» The New York Times, September 1, 2006, P. A6.

9- ملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 31/8/2006.

10- Damien Cave, «Violence Grows, Killing 52 Iraqis, in Face of Security Plan,» The New York Times, August 21, 2006, P. A10.

-11-

وصل سبعة من أعضاء لجنة دراسة الوضع في العراق، ومن بينهم بيكر وهاملتون، إلى مطار بغداد في الحادي والثلاثين من آب. وزُودوا على الفور بسترٍ وخوذ واقية من الرصاص، ونقلوا على جناح السرعة بواسطة مروحيات هجومية إلى المنطقة الخضراء (في رحلة تستغرق خمس دقائق) [1].

حلقت المروحيات فوق المباني المحترقة بلونها الأدكن وارتفاعها المنخفض في العاصمة، في حين أطلقت بالونات حرارية كإجراء احترازي من صواريخ كتف-جو، وأطل الرماة بمدافعهم الرشاشة من النوافذ المفتوحة لمراقبة أي تهديد يصدر من المدينة الممتدة في الأسفل.

في المنطقة الخضراء، ركبوا أسطولاً من سيارات همفي المدرعة كانت بانتظارهم، مع طبيب إسعاف يجلس في كل منها في المقعد الخلفي. كانت الإجراءات الأمنية، الروتينية في ظل الاحتلال الأمريكي، مفاجئة ومقلقة ومزعجة للقادمين الجدد.

التقت اللجنة برئيس الوزراء المالكي أولاً. وعقد الاجتماع في قاعة تشريفات مزخرفة في أحد قصور صدام السابقة. وجلس المجتمعون في مقاعد خشبية وقدم لهم الشاي.

قال المالكي، الذي كان يحيط به فريق كبير من المساعدين، عبر مترجم: «من المفيد جداً أن تعرفوا أن الشعب العراقي يعيش في حرية. لم يحدث من قبل في تاريخ العراق أن عاش الشعب العراقي في حرية. ولن يتخلى عن هذا الكنز أبداً...».

وأضاف: «لقد تحقق النجاح. ثمة مشكلات، لكنها طبيعية وعادية تحدث في كل ديمقراطية... ثمة تقدم، يمكن رؤيته بكل وضوح في انخفاض عدد التفجيرات».

تبادل أعضاء اللجنة النظرات.

تابع رئيس الوزراء: «لدينا استقرار سياسي. وعلى الرغم من المشاهد الدامية، إلا أن التقدم يجري على قدم وساق... كان الإرهابيون في وضع هجومي. وتسلمنا الآن زمام المبادرة».

تململ الجالسون في المقاعد الخشبية، لكن لم يحاول أحد منهم تحدي رئيس الوزراء.

وحين سئل عن الوضع الأمني، أجاب المالكي: «المشكلة الحقيقية تكمن في البعثيين. واتخذنا إجراءات سوف تضعفهم أكثر».

زاد التململ بين الجالسين.

ذَهَلَ هاملتون. إذ بدا المالكي جاهلاً إلى حد خطر بما يحدث، أو رافضاً الاعتراف به. بدا مبرمجاً ليقول ما يعتقد أن الأمريكيين يريدون سماعه.

أقر المالكي أن الجيش العراقي أفضل تدريباً وتجهيزاً من الشرطة. وقال: «المشكلة مع الشرطة هي وجود المخابرات [جهاز استخبارات صدام] والعناصر الموالية النظامَ السابق».

كان تصريحه مثيراً الاستغرابَ. فقد أشار إلى مجموعات سنية وبعثية، في حين أن مشكلة الشرطة الحقيقية تكمن في مساعدتها فرق الموت الشيعية.

سأل بانيتا: «ماذا تكون نتيجة التصويت لو أجري استفتاء على وجود الولايات المتحدة في العراق؟».

قال المالكي: «ليست لدينا استفتاءات لمعرفة اتجاهات الرأي العام في العراق. هناك بالتأكيد من يتحدث عن انسحاب الأمريكيين. لكن القادة والزعماء على أعلى المستويات هم من يقررون. ونريدكم أن تبقوا».

طرح المالكي سؤالاً واحداً عند نهاية المقابلة التي استمرت ساعة: «هل يقترب الأمريكيون –تحت إدارة الجمهوريين أو الديمقراطيين- من الانسحاب من العراق؟»

قال بيكر: «ستحصل على الإجابة في السابع من تشرين الثاني».

يوم الانتخابات.

* * *

في الأول من أيلول، صبيحة اليوم اللاحق على المقابلة مع المالكي، التقى أعضاء لجنة دراسة الوضع في العراق مع مستشار الأمن القومي العراقي، موفق الربيعي. كان الربيعي، الطبيب الشيعي المختص بالأعصاب، قد غادر العراق في أوائل الثمانينيات للدراسة في بريطانيا، وعاد بعد الغزو الأمريكي [2].

قال إن من الضروري ملاحقة التمرد السني وسحقه. فسأله بيكر عن الميليشيات الشيعية وأضاف: «لم تتخل هي أيضاً عن العنف».

رد الربيعي: «أجل، لكن أمرها مختلف. هذه ميليشيات مختلفة. صحيح أن مقتدى الصدر يستخدم العنف، لكنه يستخدمه للحصول على السلطة ضمن الحكومة».

قال بيكر: «لكن هذه الميليشيات قتلت بالأمس مئة عراقي».

قال الربيعي: «أجل، لكن الصدر مختلف. فهو يوسع قوته وسلطته في الحكومة».

سأل بيكر: هل يميز بين أولئك الذين يريدون إسقاط الحكومة والذين يستخدمون العنف في مسعاهم إلى السلطة داخل الحكومة؟

قال الربيعي: «أجل».

في الجوهر، كان مستشار الحكومة للأمن القومي يتساهل مع عنف الميليشيات الشيعية. وبدا الجو المخيم كئيباً ومتجهماً.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، التقت المجموعة مع نائب رئيس الوزراء برهم صالح (كردي في منتصف الأربعينيات من العمر، أصلع الرأس يضع نظارة ويرسم ابتسامه ودودة تحت شاربه الأسود) [3]. بعد أن غادر العراق عام 1979، نال برهم صالح شهادتين في الهندسة

والإحصاء من جامعات ويلز وإنكلترا. وظل طوال سنين يمثل الاتحاد الوطني الكردستاني في لندن وواشنطن. حتى بعد عمله في الحكومة العراقية الوليدة، بقيت زوجته وطفلاه في بيت الأسرة في ولاية مريلاند.

يتحدث برهم الإنكليزية بطلاقة وعُرف بقدرته على تسيير الأمور بسلاسة. بل إن كثيراً من موظفي السفارة الأمريكية سألوا أعضاء اللجنة: «ما رأيكم ببرهم؟». كان يتصرف وكأنه أمريكي. وبدا واضحاً أن الكرد فازوا بتأييد المسؤولين في السفارة وتعاطفهم.

لاحظ برهم أن زعماء السنة والكرد الذين لم يرغبوا بانسحاب الولايات المتحدة يميلون إلى توجيه اللوم إلى إيران على كل ما يحدث. إذ عرفوا أن هذه الحجة تعجب الأمريكان وتستميلهم.

قال برهم: «لا تريد إيران تفتيت العراق، بل تريد العراق ضعيفاً. تريد إغراق الولايات المتحدة في المستنقع. وحين اعتمد العالم على صدام لموازنة تأثير إيران، حدث استقطاب وإبادة جماعية في العراق. أما الآن فإن ما يقلق الإيرانيين هو بروز عراق ديمقراطي فيدرالي وما يخلفه من تأثير في نظامهم. يمكن حل مشكلة الإرهاب والمشكلات الأخرى التي نواجهها كلها، لكن إيران وسوريا تستمران في العمل على زعزعة الاستقرار لدينا».

«مصدر المشكلة يكمن في سوريا وإيران. يجب فصم عرى التحالف السوري-الإيراني. يجب إبعاد سوريا من المعادلة. السوريون يتسببون بقتل العراقيين، حيث يسمحون للإرهابيين بعبور حدودهم، ويوفرون ملاذاً آمناً للبعثيين في سوريا».

بدا برهم مسترخياً ومرتاحاً حين قدم نصائحه، وتحدث كما لو أنه مسؤول أمريكي. قال: «إذا انتصرنا في العراق، فسوف نغير الشرق الأوسط. المهمة قابلة للتحقق، لكنها تتطلب اتخاذ خيارات صعبة. العراق ليس الصومال، فهو بؤرة الشرق الأوسط ومركزه، ولدى الولايات المتحدة ما يكفي من الحلفاء السياسيين والعسكريين في العراق لتسود وتنتصر».

كان برهم يسرد حكاية رغبت إدارة بوش بسماعها: يمكننا إنجاز المهمة. ثمة تقدم يحدث. لكن إيران تفسد كل شيء.

ثم عقدت جلسة في اليوم نفسه أيضاً مع عبد القادر العبيدي، وزير الدفاع العراقي. كان العبيدي، العربي السني، لواء في الجيش العراقي في عهد صدام [4]. وأبلغ البرلمان ذات مرة أن رتبته خفضت لمعارضته غزو الكويت عام 1990. وسمع أعضاء اللجنة مراراً عن مؤهلاته العظيمة قبل مقابلته. حيث قال المسؤولون العسكريون إنه من النوع المهني المحترف الذي يتحمل المسؤولية، وينأى عن الكلام الفارغ. والانتقاد الوحيد الذي يمكن توجيهه إليه هو حرفيته التكنوقراطية المغالية؛ وابتعاده عن اللعب بالسياسة.

قال العبيدي: «نحن في المراحل الأولى من الخطة [الموضوعة لاستعادة الأمن في بغداد]. النتائج أفضل مما كان متوقعاً. سيسبب دخول مدينة الصدر مشكلة؛ بسبب وجود زعماء أذكياء وكميات كبيرة من السلاح. في المناطق الأخرى مشكلات مشابهة، وسوف نتصدى لها في المستقبل... لدي إيمان راسخ باستعادة الأمن، وبقدرة وزير الداخلية على الحفاظ على الأمن وتطوير قدرة قوات الشرطة».

قال هاملتون: «بالأمس، قتل 45 شخصاً في بغداد وجرح 196، وسوف تركز عناوين الأخبار في أمريكا على هذا العنف. وهذا يؤدي إلى تراجع دعم الأمريكيين، في حين مازال تأييد الحرب مستمراً في التراجع».

رد العبيدي بالقول: «المصادر الرئيسة للعنف هي السيارات المفخخة، وأجهزة التفجير، والرصاص غير المباشر. ومنذ نهاية 2004 انخفض عدد الهجمات الإرهابية» (من الواضح أن ذلك لم يكن صحيحاً). « لم يتمكن الإرهابيون من اقتحام مخافر الشرطة، فالعمليات الإرهابية ليست نوعية. وهم يميلون إلى استهداف المدنيين والأبرياء».

وأضاف إنه قسّم عناصر القاعدة إلى مجموعتين اثنتين: أولئك الذين يأتون من خارج البلاد ولا همّ لهم سوى القتل، والذين جندوا داخل العراق «وهؤلاء يمكن أن نتوصل إلى اتفاق معهم. أما أكبر مصدر للعنف في العراق فهو الاختلاف على السياسة؛ لأن السياسيين كلهم لديهم مجموعات مسلحة».

ثم قال مداعباً إن من المساعد والمفيد قتل مزيد من السياسيين. وأردف: «السياسيون يقتلون الأبرياء. ما حدث بالأمس —سقوط خمسة وأربعين قتيلاً في بغداد– كان رداً من أحد السياسيين على آخر، وهذا لا علاقة له بالإرهاب».

كانت ملحوظة مفاجئة ومجفلة. فمثلما لا يرى موفق الربيعي مشكلة في قتل مقتدى الصدر للعراقيين لغايات سياسية، كذلك لا يرى وزير الدفاع عمليات القتل التي جرت حديثاً إلا بوصفها جزءاً من العملية السياسية.

بدأ بانيتا يستشعر الموضوع: الزعماء الشيعة يدافعون عن الشيعة، والزعماء السنة يدافعون عن السنة؛ وكلهم لديهم ميليشيات لحمايتهم. وتوضح باطراد، وعلى نحو يثير القلق والانزعاج، أن كثيراً من الزعماء العراقيين قبلوا العنف بوصفه وسيلة شرعية وضرورية لممارسة السياسة.

في صباح اليوم اللاحق (الثاني من أيلول)، توجهت اللجنة إلى السفارة الأمريكية المحصنة لسماع تقويم مسؤولي وكالة المخابرات المركزية [(5)]. وحين سأل أحد أعضائها عن الحكومة العراقية، أجاب إن مجرد ذهاب موظفي الحكومة إلى عملهم، على الرغم مما يواجهونه من تهديدات وعنف، يستحق الإعجاب والتقدير.

وأبلغهم رئيس المركز أن «المالكي لم يختره أحد. فقد ظهر اسمه في وقت متأخر. ولم يملك قاعدة من المؤيدين له في البلد، أو البرلمان، ويجب ألا ننتظر منه الكثير. مازال يدهشنا قبول العراقيين هذه المستويات المرتفعة من العنف. إذ يعتقد المالكي أن انفجار سيارتين مفخختين وسقوط مئة قتيل في اليوم أمر مقبول، ولا يؤثر في قدرة حكومته على الاستمرار والبقاء».

عبّر المسؤول أيضاً عن قلقه من وزارة الداخلية، التي تدير قوات الشرطة العراقية: «وزارة الداخلية فرقة من فرق الموت بلباس رسمي، وتشرف على السجون ومرافق التعذيب، في حين تتعرض أموالها للاختلاس باستمرار».

الحكم التقويمي الأساسي وفقاً لرئيس المركز: «لن نخسر طالما بقينا في العراق، لكن ما مدى استعدادنا للبقاء وإلى متى؟ من المؤكد أن العراق سينهار ويتفتت إذا انسحبنا. أنا متفائل بطبعي»، لكنه أضاف إنه غير متفائل بالوضع.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، التقت اللجنة بوزير المالية العراقي بيان جبر، الذي اشتهر بأنه زعيم طائفي ماكر وحقود [6]. وحين سئل عن الفساد في الحكومة، تجاهل السؤال بالقول: «كان الفساد مشكلة في الحكومات السابقة، لكنه الآن تحت السيطرة. لدينا هيئة لمراقبة الحسابات».

كانت إجابته سخيفة ولا معنى لها. فقد عرف الأمريكيون الحقيقة. وعرف العراقيون الحقيقة. ومن المؤكد أن أعضاء اللجنة عرفوا الحقيقة أيضاً.

اجتمع أعضاء اللجنة في السفارة الأمريكية في صباح اليوم اللاحق (الثالث من أيلول) للقاء الجنرال بيت تشياريللي، نائب الجنرال كيسي، والقائد الميداني للقوات الأمريكية كلها في العراق [7].

خدم تشياريللي، القادم من مدينة سياتل الذي يحمل شهادتي دبلوم، سنة في العراق قائدَ فرقة (وجنرالاً بنجمتين). بلغت حصيلة القتلى في فرقته، فرقة الخيالة الأولى، مئة وستين رجلاً وامرأة. وظل مدة طويلة واحداً من أبرز المؤيدين قيامَ الجنود بمساعدة السكان المحليين، وإعادة البناء، وإصلاح مجاري الصرف الصحي، وتقليص عمليات المداهمة واقتحام البيوت. وقدم الحجة على أن «نقطة الاختراق» هي العمل الاجتماعي المسلح. ونظراً لثقافة العراق السائدة وما تتصف به من رغبة بالثأر والانتقام والدفاع عن الشرف والكرامة، فإن قتل العراقيين واعتقالهم سوف يزيدان الوضع سوءاً، ويفاقمان استعداء السكان المعادين الاحتلالَ أصلاً.

يجسد معظم الجنرالات نماذج رتيبة للتحفظ والهدوء والبرود والانفصال عن الناس، فضلاً على استخدام الإحصائيات العقيمة. لكن تشياريللي يتميز بالحماسة والعاطفة، وبالقدرة على التعبير والإقناع والتأثير.

قال على الفور: «يمكننا اقتحام مدينة الصدر، لكن على الحكومة العراقية إعلان التزامها الواضح والصريح بالمشاركة، إذ لا يمكننا تنفيذ المهمة وحدنا». وأضاف إن من الضروري فهم السكان: «يهتم العراقيون بالأمن، والكهرباء، والماء، والصرف الصحي، والرعاية الصحية، بهذا الترتيب بالضبط».

وقال إن البيئة الحالية مغالية في الطائفية والمذهبية: «عندما تتغير الحكومة الأمريكية، لا يُقلق الأمريكيين سؤال هل تنقطع الكهرباء أم لا، لكن العراقيين يقلقهم ذلك». الظروف المعيشية مروعة. «أكوام القمامة في الأحياء السنية بارتفاع الخصر. والكهرباء لا تصل إلا أقل من ساعتين في اليوم. والمصارف مغلقة بأمر من وزير المالية. ووزراء الحكومة، المسؤولون عن توفير الخدمات الأساسية، يسهمون في الظروف المؤدية إلى العنف». من المدهش حجم الإجراءات وعددها التي تتخذها الحكومة برئاستها الشيعية؛ للامتناع عن مساعدة مجموعات معينة من السكان، حسبما قال.

قال الجنرال: «إذا لم تبذل هذه الحكومة جهدها لاكتساب ثقة المواطنين فسوف تفشل. ومن الضروري إيجاد قوة أمنية» من الجيش والشرطة تكون كبيرة إلى حد «إيجاد ديكتاتور آخر» مثل صدام حسين.

سأله بيكر: أليست الفوضى أسوأ من وجود قوة أمنية ضخمة؟

قال تشياريللي: «أوصلنا الجيشَ العراقي إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه، دون دعم حكومته ذاتها». وعلى الشيعة والسنة تعلم كيفية حكم بلادهم معاً. المصالحة هي التي تحمل مفتاح النجاح، كما أضاف.

سؤال غيتس اعتاد طرحه مراراً: ما عواقب حدوث كارثة في العراق؟ وبوصفه أبرز الشهود، قال إن المضامين الجيوسياسة للفشل في العراق باعتقاده تتجاوز بمراحل تلك التي نجمت عن الإخفاق في فيتنام.

وافقه تشياريللي الرأي: «المقارنات في الأهمية الإستراتيجية غير واردة على الإطلاق. العراق يمثل حرب المستقبل، وعلينا فهم الجوانب غير المتحركة، التي تعد أكثر أهمية من استخدام القوة».

أعاد تشياريللي توكيد القضايا المتعلقة بنوعية الحياة، التي شعر بأهميتها المركزية للنجاح. فقد شهد النتائج العملية لـ«عمليات الطيف الكامل»، حيث لم تقتصر واجبات جنوده على أداء مهمات المشاة النمطية فقط، بل شملت العمل على المشروعات المدنية –إصلاح شبكات الماء والكهرباء والصرف الصحي، وفتح المدارس– التي يكتسب عبرها

تأييد السكان وتعاطفهم. مثلت مشكلة البطالة، التي ربما تبلغ نسبة 40%، تهديداً لجنوده، كما قال. وبالمقابل، حين درس رجاله أنظمة شبكات المياه وتمكنوا من حل بعض مشكلات المياه في بغداد، تركوا تأثيراً مشهوداً.

قال إن مقتدى الصدر بنى قاعدة الدعم والتأييد له عبر الهيمنة على الوزارات المفتاحية مثل النقل والصحة والزراعة. وعرف تشياريللي تلك اللعبة جيداً: سيطرْ على الخدمات فتسيطر على الناس.

بعد أن غادر الجنرال، علق أعضاء اللجنة على أسلوبه المباشر والصريح والمؤثر. وعبر بيكر وهاملتون عن رغبتهما بتوصية الرئيس بوش بمنح تشياريللي نجمة رابعة والحلول محل كيسي.

فيما بعد، دار حديث على انفراد بين بيل بيري وتشياريللي. كان الخط الذي تتبعه الإدارة والبنتاغون يقوم على عدم الحاجة إلى إرسال مزيد من الجنود. لكن بيري أراد الحصول على الأخبار الدقيقة والحقائق الصحيحة من القائد الميداني.

قال بيري مشيراً إلى فشل عمليتي «معاً إلى الأمام» في استعادة الأمن في بغداد: «الأمور لا تسير على ما يرام».

وافقه تشياريللي الرأي.

قال بيري: «لو كنت وزيراً للدفاع وأتيت إلى هنا وعرفت حقيقة الوضع، لقلت إن سياستنا لا تنجح والوقت يداهمنا. سياسياً، الوقت ينفد منا. ولذلك أنا على استعداد لتزويدك بأربعة ألوية أو خمسة إضافية لتأمين بغداد. أولاً وقبل كل شيء، هل هذا يساعد؟».

رد تشياريللي: «لا»، كما يتذكر بيري.

قال بيري ملحاً: «أنا مستعد للقيام بذلك. ما ردك؟».

قال تشياريللي: «لا، صريحة وقاطعة».

قال بيري: «ثم عدد لائحة طويلة من الأسباب»، تلخصت في حقيقة أن المشكلة ليست عسكرية بل سياسية، ويجب حلها بواسطة الزعماء العراقيين – فهذا شعبهم، وجيشهم، وشرطتهم- لا بواسطة الجنرالات والجنود الأمريكيين.

تذكر ليون بانيتا أن تشياريللي أخبر أعضاء اللجنة أننا «لن نربح هذه الحرب عسكرياً. ولن نستطيع الفوز إلا حين نوفر الوظائف للناس، ونلبي حاجاتهم الأساسية، وننظف القمامة من شوارعهم، ونزودهم بالماء والكهرباء. وإلى أن نفعل ذلك، سنظل نخوض حرباً خاسرة».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة، فضلاً على ملحوظات كتبها في الوقت ذاته اثنان من المشاركين.

1- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع المالكي على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/8/31.

2- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع الربيعي على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/1.

3- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع برهم صالح على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/1.

4- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع العبيدي على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/1.

5- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع مسؤولي السي آي إيه على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/2.

6- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع جبر على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/2.

7- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع تشياريللي على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/3.

-12-

بعد ذلك، التقت لجنة بيكر–هاملتون بالجنرال مارتن ديمبسي، المسؤول عن تدريب الجيش العراقي، والجنرال جوزيف بيترسون، قائد الوحدات التي تدرب الشرطة العراقية [1].

قال ديمبسي إنه درب العدد المستهدف من العسكريين العراقيين، لكن في غياب المصالحة الوطنية يعد عمله عديم النفع والفائدة. وأضاف: «إذا لم يحققوا هذا التقدم بحلول نهاية السنة، فلن تكفيهم جنود العالم كله لتوفير الأمن».

لكن بيترسون استخدم نبرة مختلفة.

قال: «لا يوجد مبرر لهذا التشاؤم المنتشر حول الشرطة؛ لأن كثيرين في وسائل الإعلام وغيرها يركزون على السلبيات ويتجاهلون الإيجابيات. في عراق اليوم، تصمد قوات الشرطة وتقاتل، وتتفوق في أداء واجبها في أماكن عديدة».

ناقض تصريحه كل ما سمعته اللجنة تقريباً عن الشرطة، خصوصاً من رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية، الذي أبلغها في اليوم السابق أن وزارة الداخلية تدير فرق الموت ومرافق التعذيب.

كان أعضاء اللجنة قد أتوا إلى غرفة الاجتماعات الصغيرة في السفارة باللباس الرسمي؛ لإظهار الاحترام للعراقيين. وما كاد الجنرال بيترسون ينهي كلامه، حتى فُتح الباب على مصراعيه واندفع إلى الغرفة تشارلز روب وهو يرتدي قميصاً دون سترة. كان روب، المتحفظ عادة، يغلي من شدة الغضب. فقد غامر بالخروج إلى شوارع بغداد وأدهشه حجم الدعم المطلوب من القوات الأمريكية لإحدى وحدات الجيش العراقي «الاستعراضية».

قال روب: «كل ما يتحقق ضمن خطة تأمين بغداد يعود إلى القوات الأمريكية والجيش العراقي، لا قوات الشرطة». وأضاف إن سرية أمريكية كاملة تتألف من عدة مئات من الجنود تتخذ لها موضعاً في كل حي. «أما الشرطة فلا تمثل المجموعة المنضبطة التي نبحث عنها».

وقال إنه تحدث مع عدد من المواطنين العراقيين العاديين في الشارع، وسألهم: إلى من تعطون المعلومات إذا علمتم بوجود متمردين أو إرهابيين أو مجرمين؟ «فقالوا: إلى الأمريكان، لا إلى الشرطة العراقية»، كما ذكر.

قال الجنرال بيترسون، وقد تصدعت فجأة ركائز حكاية التقدم الإيجابي التي رواها، إن القوات الأمريكية لم تستكمل «إخلاء» ذلك الحي والسيطرة عليه. فمن المفروض أن يأتي العراقيون ليسيطروا عليه.

هز روب رأسه إشارة إلى النفي، إذ لم يقتنع بالقصة. هذا كله مجرد استعراض عسكري تؤديه المؤسسة العسكرية الأمريكية ووحدة الجيش العراقي؛ لأن كل من وجدهم هناك كانوا من الجنود الأمريكيين الذين يقودون العملية.

انتقل أعضاء اللجنة إلى الطرف الآخر من المنطقة الخضراء لمقابلة عبد العزيز الحكيم [2].

لم يوضع اسم الحكيم، زعيم الحزب الشيعي القوي، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق [3]، على اللائحة الأصلية للمقابلات. لكن الجميع كرروا الإشارة بإصرار إلى حجم ما يتمتع به من نفوذ، وكيف توجد في يديه، هو ومقتدى الصدر، السلطة والسيطرة على الشيعة، مع أن أياً منهما لا يشارك رسمياً في الحكومة.

في قصر الحكيم في المنطقة الخضراء، وجد أعضاء اللجنة رجل الدين يرتدي ثوباً أسود وعمامة سوداء. بدا هادئاً رقيق الكلام، قدم لهم الشاي وعصير البرتقال. لكنهم لم يشعروا بأنهم محل ترحيب حار مثلما استقبلوا من العراقيين الآخرين.

قال الحكيم للّجنة: «بعضهم يريد العودة إلى النظام القديم. ومن هؤلاء البعثيون والصداميون وأولئك الذين يتهموننا [الشيعة] بالكفر. البعثيون لا يقبلون التغيير. ويلجؤون إلى مهاجمة البنية التحتية. تمثل واحد من أول أعمالهم بقتل شقيقي». عاد شقيقه الأكبر، محمد باقر الحكيم، مؤسس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، إلى العراق بعد الغزو عام 2003، لكنه قتل بانفجار سيارة مفخخة في آب من السنة نفسها. في حين قتل ستة آخرون من أشقائه في عهد صدام حسين.

أضاف الحكيم: «تريد الدول الأخرى في المنطقة العودة إلى النظام القديم. تريد أن يفشل المشروع الأمريكي».

«يعتقد بعضهم أن بالإمكان معالجة العنف بإشراك السنة في العملية السياسية. المشكلة لا تكمن في السنة. نحن نريد العيش معهم. المشكلة تكمن في الصداميين» (الذين ما يزالون على ولائهم للديكتاتور السابق).

وأضاف: «الخطوات التي اتخذتها أمريكا لا تقلص أعداد الإرهابيين بل تزيدها».

من الواضح أن الحكيم لم يهتم كثيراً بالمصالحة الوطنية، التي قيل للجنة مراراً وتكراراً إنها مفتاح النجاح.

قال بإلحاح: «الحكومة هي الأقوى في المنطقة. فهي تتمتع بقاعدة شعبية عريضة. ثمانون في المئة من الشعب يؤيدونها». ولم يذكر أن نسبة العشرين في المئة الباقية التي لا تؤيد الحكومة تمثل السنة. في الجوهر، كان يقول إن الأغلبية الشيعية والكردية تدعم الحكومة، فمن ذا الذي يهتم برأي السنة؟

قال الحكيم: «حتى مع المشكلات التي نواجهها، نحن نسير قدماً إلى الأمام. ولو واجهت أوروبا عُشر المشكلات لسقطت الحكومات فيها».

ضغط هاملتون على الحكيم بشأن المصالحة الوطنية.

قال الحكيم: «بالطبع نحن ندعم هذه العملية. لكن بصراحة، يجب أن نسأل: مصالحة مع من؟ مع الصداميين، مع التكفيريين، أم مع من؟» (عنى بالتكفيريين الجهاديين

المتشددين الذين يؤمنون بمقاتلة الشيعة وتكفيرهم) «فإذا كانت مع أولئك الذين ظلوا يقتلوننا طوال خمسة وثلاثين عاماً... لا، سيظل الشعب العراقي يقاتلهم... عقدنا مؤتمراً حول المصالحة الوطنية. وسوف نعقد مؤتمراً آخر. لكن هل يوقفون العنف؟».

لم يكتف الحكيم بعدم إظهار أي شعور بالحاجة الملحة إلى المصالحة فقط، بل بدا أنه لا يرى مشكلة في الانقسامات المذهبية والطائفية في العراق –وهذا أمر ليس بالمستغرب من رجل يتزعم حزب أغلبية.

جلس الحكيم على كرسي في ركن الغرفة إلى جانب بيكر وهاملتون. في حين كان نائب الرئيس العراقي، ووزير المالية، ووزير المصالحة الوطنية، يجلسون إلى جانبه مثل تلاميذ المدارس الهادئين المطيعين. وبعثت الجلسة برسالة واضحة عمن يحكم ويسيطر ويهيمن.

جلس إلى جانب الحكيم أيضاً رجل يرتدي جبة وعمامة اسمه همام حمودي، سوف يشرف على لجنة مراجعة الدستور العراقي، مما يعني أن الحكيم سيمارس تأثيراً نافذاً في الدستور العراقي الجديد.

سأل بيكر الحكيم هل يقف إلى جانب الحكومة. رد بالإيجاب، فتدخل حمودي مقاطعاً: «الشيعة كلهم يؤيدون الحكومة». كانت عملية اختطاف واضحة للسلطة في غياب المشاركة السنية.

توقف بيكر وهاملتون عن طرح الأسئلة، وبدأ كل منهما بتقديم النصح للحكيم، بل تعنيفه وتوبيخه، وحثه على تبني الوحدة الوطنية وتأييدها.

قال له هاملتون: «ثمانون في المئة قاعدة سياسية استثنائية. وبوصفي سياسياً أمريكياً، فإن معنى ذلك أن على الحكومة الإسراع بعقد المصالحة الوطنية؛ لأن لديكم مثل هذه القاعدة السياسية القوية».

رد الحكيم قائلاً: «خطوات هذه الحكومة وتحركاتها محدودة جداً، هذه هي الحقيقة».

قال هاملتون، آملاً في مناشدة تيه الحكيم وغروره: «ليس من الصعب تفتت هذا البلد وتمزقه. والمحافظة عليه بلداً موحداً يتطلب زعامة استثنائية».

لاحظ حمودي فيما بعد أن الأسئلة التي طرحها أعضاء اللجنة أعطت انطباعاً أنهم يعتقدون أن المصالحة الوطنية تمثل أهم الخطوات. وقال: «الشيعة موحدون. الشيعة أمامهم عدو واحد: الصداميون والتكفيريون» (مكرراً عبارات الحكيم). وقال إن المصالحة لن توقف العنف، في إشارة ضمنية إلى أن القضاء على السنة هو الحل الوحيد للعنف.

لم يتراجع بيكر. وسأل عن الميليشيات.

قال الحكيم إن هناك أربعة أنواع من الميليشيات: 1) تلك التي حاربت صدام حسين — الميليشيات «الصالحة»؛ 2) خدمة حماية المرافق، وهي نوع من الجيش الخاص لكل وزارة، أنشأه بريمر والأمريكيون؛ 3) الميليشيات الشيعية والسنية التي ألّفها المواطنون للدفاع عن أنفسهم. وقال إن من الممكن تحويلها إلى «لجان الدفاع عن الأحياء»؛ 4) الصداميون والتكفيريون وأمثالهم، «وهؤلاء يجب مواجهتهم» كما قال.

قال بيكر: «الوقت مهم للشعب العراقي والشعب الأمريكي». ودعا إلى التحرك لكبح جماح المليشيات وعقد المصالحة الوطنية. «الوقت مبكر للحكومة الجديدة، لكننا في لحظة حاسمة».

غادرت اللجنة اللقاء يائسة كسيرة، وأقل ثقة من أي وقت مضى بتحول المصالحة الوطنية إلى حقيقة واقعة. كانت تلك واحدة من آخر المقابلات التي أجرتها في العراق، كانت وداعاً يثير القلق ويخلف الكآبة والتشاؤم.

نظر هاملتون حوله وفكر: «لا يوجد متفائل بيننا».

في رحلة العودة الطويلة، حاول غيتس وبانيتا التصدي لسؤال: «إلى أين نتجه؟».

قال بانيتا: «ما يقلقني كثيراً أن العراقيين ربما لا يملكون القدرة على حكم أنفسهم، ولا المقدرة على تنفيذ الإصلاحات الضرورية. فإذا امتنعوا، وإذا عجزوا، فأي خيار لدينا بحق الجحيم؟ ما الذي نفعله؟ ما الخطة البديلة؟».

قال بيكر إنه تحدث حديثاً مع الرئيس المصري حسني مبارك، فأكد له أن العراق –مثل مصر– بحاجة إلى رجل قوي (ديكتاتور) يسير الأمور وينجز المهمات. وأضاف مداعباً بنبرة متشائمة: «ربما تكون الخطة البديلة هي إعادة صدام».

سأل الأعضاء الآخرون بيكر بإلحاح هل يستمع الرئيس بوش إلى توصيات اللجنة.

فأجاب: «ما كنت لأقبل المهمة لولا يقيني أنه سيصغي إلى التوصيات ويعمل بها». ربما لن يوافق على كل ما توصي به اللجنة، كما قال، لكن من وجهة نظر سياسية ربما يضطر إلى ذلك لإنقاذ عنقه.

سأل بانيتا: «أين السلطة المركزية للتعامل مع السياسة المتعلقة بالعراق؟». عرف بانيتا من تجربته حين كان رئيس موظفي البيت الأبيض في عهد كلينتون أن شخصاً ما في البيت الأبيض يتولى مسؤولية مثل هذه القضايا. لكن بدا أن إدارة بوش ليس فيها مثل هذه السلطة. «من يتحكم بالسياسة هناك؛ هادلي؟ أم رايس؟ أم رمسفيلد؟ أم مجلس الأمن القومي؟».

اتفق الآخرون على أهمية السؤال. وحاول بانيتا الحصول على إجابة لكن دون جدوى.

في الخامس من أيلول، ألقى الرئيس بوش خطبة أمام جمعية ضباط القوات المسلحة في أمريكا [4]. وقبل ساعات، أصدر البيت الأبيض نسخة الإدارة المحدثة من «الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب». وصفت الوثيقة المؤلفة من 29 صفحة النجاحات التي تحققت في «الحرب على الإرهاب»، وحذرت من أن الأمة تواجه تهديدات إرهابية متنامية على المدى البعيد. وأكدت أن فكرة بوش عن نشر الديمقراطية والحرية تمثل أفضل الحلول الناجعة للإرهاب العالمي. كانت الوثيقة مسهبة وواضحة فيما يتعلق بالأهداف، وغامضة ومبهمة فيما يتصل بكيفية تحقيقها [5].

قال بوش ذلك اليوم: «نحن في موقع الهجوم ضد الإرهابيين في الجبهات كلها، ولن نقبل بأقل من النصر المؤزر الكامل».

ثم استشهد بالانتخابات العراقية الناجحة التي جرت في كانون الأول عام 2005، وبقتل الزرقاوي في حزيران. وقال إن حكومة الوحدة الوطنية الجديدة في العراق تمثل علامة أخرى على التقدم المتحقق.

وأضاف: «إن تراجعنا من العراق، إن لم نقم بواجبنا في دعم أولئك الراغبين في العيش بحرية ومساندتهم، فسوف يلتفت التاريخ بعد خمسين سنة إلى زمننا ولن يسامحنا، بل يطالب بمعرفة السبب الذي جعلنا نمتنع عن التحرك».

في الحادي عشر من أيلول 2006، في الذكرى الخامسة للهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن، ألقى الرئيس خطبة مسائية إلى الأمة [6]. استشهد بوحشية الهجمات بوصفها السبب الذي يجعل الانسحاب من العراق لا يمثل السبيل الصحيح. لقد ظلت أحداث الحادي عشر من أيلول نجماً هادياً لبوش –تذكرة مستمرة أن الحرب في العراق، بكل مشكلاتها السياسية والأمنية الهائلة، مسعى ضروري وصائب وقويم.

قال بوش: «لقد تعرضت أمتنا لاختبار لم نشهده منذ بداية الحرب الباردة. رأينا ما يمكن أن تفعله بنا حفنة قليلة من أعدائنا. ومهما كانت الأخطاء المرتكبة في العراق، فإن أسوأ خطأ هو الظن أننا إذا انسحبنا، فسيتركنا الإرهابيون وشأننا».

في صبيحة اليوم اللاحق (12 أيلول)، سار بيتر جي. شوميكر عبر المدخل الرخامي لمبنى مكاتب ريبان هاوس، ودخل المكتب رقم 2423.

مضت ثلاث سنين على شوميكر وهو يشغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش، وهي وظيفة أرهقته عاطفياً وأتعبته وجدانياً وأترعت أيامه بالإحباط. خدم شوميكر في العمليات الخاصة طوال حياته المهنية تقريباً. كان نقيباً في قوة دلتا الأسطورية في أثناء عملية سنة 1980 المشؤومة –(الصحراء واحد)- لإنقاذ الرهائن الأمريكيين الثلاث والخمسين في إيران. مثّل الهجوم الفاشل، الذي قتل فيه ثمانية جنود أمريكيين، ضربة

موجعة أخرى إلى المؤسسة العسكرية الأمريكية في أعقاب حرب فيتنام، وأدى جوهرياً إلى انهيار رئاسة جيمي كارتر وتلاشي آماله في إعادة انتخابه.

في السنوات اللاحقة، ارتقى شوميكر سلم المراتب العسكرية، وشارك في عمليات الجيش الرئيسة كلها، ومنها حرب الخليج عام 1991. ثم تقاعد في عام 2000 وهو جنرال بأربع نجوم، بعد قيادة قوات العمليات الخاصة كلها.

لكن في ربيع عام 2003، بعد بضعة شهور من غزو العراق، كان يقود سيارته عبر ولاية ويومنغ باحثاً عن مزرعة يشتريها، حين تلقى اتصالاً من مكتب رمسفيلد. تجاهل رمسفيلد الجنرالات العاملين كلهم، وضغط بكل قوته على شوميكر للعودة إلى الجيش وشغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش. سافر شوميكر بالطائرة إلى واشنطن وتناول العشاء مع رمسفيلد وزوجته جويس. وأمضى معظم أصيل ذلك النهار يصغي إلى محاولات تشيني لحثه وإقناعه، فقد كان ممثل ولايته (ويومنغ) في الكونغرس طوال عقد من السنين.

أراد رمسفيلد أن يكون الجيش أكثر مرونة وقدرة على الحركة وأشد فتكاً وتدميراً، وقال لشوميكر إنه سيدعمه في إعادة تأليف الجيش ليصبح أشبه بالقوات الخاصة —جيش مؤلف من وحدات مكتفية ذاتياً وأصغر حجماً يمكن نشرها بسرعة في أي مكان وأي وضع.

قبل شوميكر المنصب، مع أنه لم يتوقع أن تنتهي الحرب نهاية حاسمة بالربح أو الخسارة. فهي مجرد حرب طويلة وشاقة، رفض رمسفيلد والآخرون وضع خطة لها. أمضى شوميكر سنوات في لبنان في الثمانينيات، وشهد أعمال العنف المجنونة وتصاعدها غير المنطقي. وعاد وهو يعتقد أن في البشر طبيعة دكناء، وما إن تتحول العواطف الملتهبة إلى قتال وصراع، حتى يستحيل تقريباً كبح جماحها.

كان المكتب رقم 2423 مقراً للسيناتور جون مرثا (من بنسلفانيا). في داخله، علقت على أحد الجدران صورة مؤطرة تظهر مشاة البحرية (المارينز) يرفعون العلم الأمريكي في إيوجيما. في حين علقت على الجدار الآخر صورة لثيودور روزفلت. وقرب المدخل، وضع تمثال نصفي من البرونز لجورج مارشال، الذي أشرف على الجيش الأمريكي في أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم أصبح وزيراً للخارجية في عهد هاري ترومان.

جسد الجو المحيط تذكرة للزوار أن مرثا رجل عسكري حتى النخاع. فقد نال نجمة برونزية واثنين من أوسمة القلب الأرجواني؛ تقديراً لإنجازاته حين كان ضابطاً في مشاة البحرية في فيتنام.

صوّت مرثا لمصلحة شن الحرب على العراق عام 2002، لكنه ندم فيما بعد على قراره. وفي تشرين الثاني 2005، سبب حالة من الإحباط والجزع في البيت الأبيض حين دعا علناً إلى سحب الجنود الأمريكيين من العراق، وظل منذ ذلك الحين يثير قلق الإدارة وانزعاجها.

كان مرثا الديمقراطي (74 سنة) يشغل منصباً رفيعاً في اللجنة الفرعية المسؤولة عن تخصيص الميزانية الدفاعية في مجلس النواب، مما يعني أنه يتحكم بالأموال المتاحة للإنفاق.

ولهذا السبب بالذات أتى شوميكر لزيارته. قبل عدة أسابيع، اتخذ خطوة غير مسبوقة حين رفض تقديم ميزانية الجيش في موعدها النهائي (الخامس عشر من آب). وتبع اعتراضه سلسلة من التخفيضات في طلبات تمويل الخدمة التي قدمها البيت الأبيض والكونغرس. وأراد رمسفيلد أن يكتفي الجيش بميزانية تبلغ 114 مليار دولار، أي أقل بخمسة وعشرين ملياراً من المبلغ الذي قال شوميكر إنه بحاجة إليه.

ظل المحاربان الأشيبان في جلسة أخذ ورد مهذبة استمرت قرابة ساعة. تطرق الحديث إلى موضوع الحرب، ومستقبل المؤسسة العسكرية. اعتقد شوميكر أن أكبر تهديد مستقبلي هو الإرهاب العالمي. لكن مرثا لم يوافقه الرأي. وشعر أن الصين وغيرها من الدول المعادية ضمناً تمثل تهديدات أخطر [7].

قدم شوميكر الحجة على أهمية الانتصار في العراق. وقال إن معظم الذين قابلهم في البلد يريدون الفوز بها، وإن من المهم تحقيق النجاح.

شن مرثا هجوماً انتقادياً مريراً على الرئيس والحرب في العراق. وقال يمكنك التحمس للحرب بقدر ما تشاء، لكننا لا نملك العدد الكافي من الجنود لخوضها مدة أطول. الرأي العام معادٍ الحربَ بشدة. فكيف يمكن للرئيس تجاهل الشعب الأمريكي؟ هذه ديمقراطية،

كما أصر بإلحاح وهو يضرب الطاولة بقبضته ويلوح بنسخة من الدستور في الهواء متهماً بوش بأنه أصبح «ديكتاتوراً».

اقترح شوميكر على مرثا ضرورة الاطلاع على استطلاعات الرأي الأخيرة إذا حسب أن الرئيس لا يحظى بمستوى مرتفع من التأييد والقبول. وسيجد أن المؤسسة العسكرية تحظى بأعلى قدر من ثقة الشعب، تليها الشرطة والإطفاء، ثم الدين المنظم، كما قال. وكلها تتمتع بنسبة تأييد تفوق الخمسين في المئة أو تقاربها. أما الرئيس فتبقى نسبة تأييده في حدود الثلاثينيات، والكونغرس في العشرينيات أو أدنى. قال شوميكر: «نسبة تأييد الكونغرس أدنى من نسبة تأييد الرئيس».

صاح مرثا غاضباً حانقاً وقد احمر وجهه: «انتهى الاجتماع!».

وغادر شوميكر المكتب هادئاً صامتاً.

بعد عدة أيام، في الخامس عشر من آب، عقد بوش مؤتمراً صحفياً في الحديقة الوردية في البيت الأبيض [8].

سأله مراسل صحيفة واشنطن بوست بيتر بيكر: «السيد الرئيس، كثيراً ما استخدمت عبارة 'نقل المسؤولية للعراقيين وتقليص الدور الأمريكي'؛ لوصف سياستك حين يتعلق الأمر بسحب الجنود من العراق... يقول البنتاغون الآن إن عدد الجنود العراقيين الذين تدربوا بلغ 294 ألفاً، ومن المتوقع استكمال برنامج لتدريب 325 ألفاً بحلول نهاية هذا السنة. لكن الجنود الأمريكيين لا يعودون إلى أرض الوطن، وعددهم هناك يزيد على عددهم فيما مضى. فهل تتحرك قوائم المرمى وتتغير الأهداف؟».

رد بوش بإصرار: «لا، لا. العدو يغير أساليبه التكتيكية، ونحن نتكيف معها. هذا ما يحدث. سألت الجنرال كيسي اليوم: هل حصلت على ما تحتاج إليه؟ فقال: أجل حصلت على ما أحتاج إليه».

وتابع قائلاً: «أعتقد أنك على صواب، إذ ارتفع العدد من 135 ألفاً إلى 147 ألفاً كما أعتقد، أو 140 ألفاً تقريباً. والسبب في الزيادة هو أن الجنرال كيسي شعر أنه بحاجة إليها

لمساعدة العراقيين على تحقيق هدفهم. بهذا الطريقة سوف أستمر في إدارة الحرب. سوف أصغي إلى الجنرالات. ربما يكون من غير المناسب سياسياً زيادة عدد الجنود والانتخابات على الأبواب، لكننا لا نستطيع اتخاذ قرارات اعتماداً على السياسة، بل على كيفية الانتصار في الحرب. والسؤال الجوهري الذي يجب طرحه هو: هل يثق الرئيس بقادته على الأرض لإبلاغه بما هو ضروري؟ هذا فعلاً واحد من الأسئلة المهمة».

بدا الرئيس وكأنه يجادل نفسه.

قال: «بكلمات أخرى، إذا قلت: سوف أعتمد على حكمهم ورأيهم، يصبح السؤال اللاحق هو: ما مدى صحة حكمهم وصوابية رأيهم؟ أو هل حكمي صحيح إلى حد معرفة وتقرير هل يعرفون ما يفعلونه أم لا؟ وسوف أخبرك أن لدي ثقة عظيمة بالجنرال جون أبي زيد والجنرال جورج كيسي. فهما من الرجال الاستثنائيين الذين يفهمون صعوبات المهمة، ويعرفون أن هناك علاقة دقيقة وحساسة بين الاعتماد على الذات من جانب العراقيين والوجود الأمريكي في العراق».

«ومن ثم فإن الإجابة عن سؤالك هي أن السياسة مازالت صحيحة وصالحة، وكذلك سياستي القائمة على الإصغاء إلى قادتنا العسكريين الذين يزودوني بحكمهم ورأيهم فيما يتعلق بأعداد الجنود».

وبالطبع، عرف الرئيس ومستشاروه أن مقاربة نقل المسؤولية إلى العراقيين وتقليص الدور الأمريكي لم تكن تعمل بنجاح. وخلف الأبواب المغلقة، كانوا يبحثون بطريقة عاجلة عن إستراتيجية تعمل بنجاح.

بحلول منتصف أيلول، أدرك تشارلز روب أن لجنة دراسة الوضع في العراق كانت تفكر في دمج توصية بتحديد موعد ثابت للانسحاب المبكر من العراق. وكان من المقرر أن تعقد اجتماعاً في الثامن عشر من أيلول، لكنه سيذهب في إجازة أسرية خطط لها منذ سنة. ولذلك كتب مذكرة إلى زملائه الأعضاء، قال فيها: «من دون المبالغة في الإثارة المسرحية الصارخة، أعتقد أن معركة بغداد تجسد عاملاً حاسماً في أي تأثير نمارسه في العراق...

وأشعر أننا بحاجة، في التو واللحظة، إلى زيادة كبيرة على المدى القريب في أعداد القوات الأمريكية على الأرض». أما نقل القوات الأمريكية من أماكن أخرى في العراق فلن يفيد؛ لأن من المرجح أن تظهر المشكلات في الأماكن التي تركتها (شبه الوضع باللعبة التي يضرب فيها اللاعب رأس الخلد الذي يبرز من الحفرة فيختفي ويظهر من أخرى). أضاف روب: «الوقت بالغ الأهمية»، وإذا لم تنجح عملية «معاً إلى الأمام» بحلول الربيع، «فسوف نخسر». وأشارت مذكرته إلى أن «الوقت قد حان لإتاحة الفرصة لقواتنا العسكرية للقيام بما تدربت عليه والمبادرة إلى الهجوم –دون المبالغة في التقيد بمقاربة الإصابات المعدومة أو تفادي إحداث أضرار غير مقصودة بالمدنيين». الوقت ينفد وتقرير لجنة دراسة الوضع في العراق بحاجة إلى أن يكون «جريئاً وملتزماً بالنتائج التي توصلت إليها»، كما كتب، وأضاف: «أنا مدرك تماماً الصعوبات المتأصلة في هذا التقرير الوجيز المتشدق» [9].

أراد بيكر وهاملتون تقريراً وسلسلة من التوصيات تنال إجماع الأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين كلهم. وعرفا أن التقرير، في غياب الإجماع، لن يكون له سوى تأثير ضئيل أو لن يؤثر على الإطلاق، مما يجعل جهودهم عبثية ولا نفع منها. أما روب فاعتقد أنه بعث برسالة واضحة: لن يوقع إلا إذا أضيف خيار زيادة عدد الجنود.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة، فضلاً على ملحوظات كتبها في الوقت ذاته اثنان من المشاركين.

1- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع ديمبسي وبيترسون على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/3.

2- اعتمدت المعلومات عن جلسة اللجنة مع عبد العزيز الحكيم على ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر–هاملتون بتاريخ 2006/9/3.

3- في الثاني عشر من أيار2007، تغير اسم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العرق إلى المجلس الأعلى الإسلامي العراقي. انظر:

Damien Cave, «Changes by Iraqi Shiite Party Signal Distancing from Iran,» The New York Times, May 13, 2007, P. A6.

4- Presidential Documents, September 5, 2006, pp. 1557-1565 (Vol. 42, No. 36),
www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no36.html

5- انظر:

«National Strategy for Combating Terrorism,» The White House, www.
whitehouse.gov/nsc.

6- Presidential Documents, September 11, 2006, pp. 1597-1601 (Vol. 42, No. 37),
ww.gpoaccess.gov/wcomp/v42no37.html

7- مقابلة مع السيناتور جون مرثا 2007/9/27، ومقابلات مع غيره من المصادر المطلعة.

8- Presidential Documents, September 15, 2006, pp. 1607-1620 (Vol. 42, No. 37),
ww.gpoaccess.gov/wcomp/v42no37.html

9- مذكرة تشوك روب إلى أعضاء لجنة بيكر–هاملتون 2006/9/81.

-13-

كان الرجل الذي دخل مبنى البنتاغون يوم الثلاثاء التاسع عشر من أيلول على موعد خاص مع الوزير رمسفيلد. من النظرة الأولى، يمكن أن تقسم بأنه يعمل في مهنة شاقة تتطلب جهداً جسدياً. كان طويل القامة ضخم الجثة (وزنه 109 كغ، وطوله 185 سم)، قصير الشعر، بدا وجهه الأحمر وقسماته الصلبة أشبه بوجه ملاكم. إنه جنرال الجيش المتقاعد جاك كين، نائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق (المنصب الثاني من حيث الأهمية في جيش الولايات المتحدة) الذي يتمتع بخبرة سبع وثلاثين سنة من الخدمة.

مع أن كين البالغ من العمر ثلاثة وستين عاماً لم يعد جنرالاً نظامياً عاملاً في القوات المسلحة، إلا أنه لم يستطع التخلص من الذعر الذي صاحب أفكاره عن حرب العراق. وبوصفه مظلياً في حرب فيتنام، رأى حالات متعددة من الارتباك والتشوش في تلك الحرب وهي تحطم جيشه المحبوب وتستنزف موارد وطنه ومرجعيته الأخلاقية وروحه المعنوية.

لا يضاهي كين في تجربته القيادية إلا قلة قليلة من الأشخاص. فقد قاد فيالق كاملة قوامها خمسون ألف جندي. وأصبح جنرالاً مفضلاً لدى رمسفيلد —ولا يعد ذلك ميزة بسيطة حين نأخذ بالحسبان الازدراء المتبادل بين رمسفيلد وكثير من ضباطه. في عام 2002، وافق كين على طلب رمسفيلد بتسلم منصب رئيس هيئة أركان الجيش، لكنه غير رأيه فيما بعد واستقال؛ لأن زوجته، تيري، في حالة صحية حرجة نتيجة إصابتها بداء باركنسون (الشلل الرعاش). وأبدى رمسفيلد تعاطفه وتفهمه لقراره.

وعلى شاكلة كثيرين غيره، وجد كين رمسفيلد فظاً، واستعلائياً، وسيئ الظن بالقادة العسكريين. لكنه اعتقد أنه محق فيما يتعلق بالحاجة إلى إحداث تغيير جذري في المؤسسة العسكرية، خصوصاً الجيش. وبوصفه عضواً في مجلس سياسة الدفاع، وهو

مجموعة مستقلة من المستشارين تتلقى إيجازات بالغة السرية، بقي كين مطلعاً على آخر المستجدات المتعلقة بالعراق. وتقاسم إحباطاته من الحرب مع زميله العضو في المجلس، الناطق الرسمي السابق باسم البيت الأبيض، نيوت غينغريتش، الذي استحثه على عرض مخاوفه أمام الوزير.

حين دخل كين مكتب رمسفيلد، وجد هناك الجنرال بيتر بيس. وجلس الثلاثة حول طاولة اجتماعات صغيرة.

قال كين إنه تردد في الحضور. «لم أكن أريد أن أكون ناقداً آخر، فلديك عديد من المنتقدين. ولا أرغب أن أمثل عبئاً إضافياً. فأنا أكره المنظرين الذين يجلسون باسترخاء على مقعد مريح معتقدين أنهم يعرفون كل شيء ولديهم فكرة أفضل من أولئك الذين يؤدون المهمة فعلاً. هذا ليس أسلوبي. يعتقد نيوت غينغريتش أن علينا تبادل الحديث، وأظن أن هذا هو السبب المرجح وراء دعوتك إياي».

أومأ رمسفيلد برأسه موافقاً.

«لا أريد أن أضيع وقتك. الكل يبذل جهداً دؤوباً ويضحي كثيراً لأداء المهمة وفعل ما هو صواب. أنا هنا بصفتي عضواً في الفريق —مجلس سياسة الدفاع، المؤسسة التي أتعامل معها بجدية وأشعر بأهميتها». وشرح قائلاً إنه حضر كثيراً من إيجازات هيئة الأركان، وقام بعدة رحلات إلى العراق، وشارك في تقويم الوضع عامي 2004 و 2005.

أضاف كين: «نحن نقترب من حافة الفشل الإستراتيجي. وأريد مناقشة بعض الأمور لتقليل حدة هذا الخطر إلى أقصى حد ممكن». كان تقويماً صارخاً وحاول تخفيف حدته. «فشل إستراتيجي بمعنى أن الحكومة [العراقية] متشظية، وإن تشظت الحكومة وتصدعت فسوف يؤدي ذلك إلى حرب أهلية». في عامي 2003 و 2004، كانت الإستراتيجية العسكرية الأمريكية هجومية. «كان غرضها الرئيس قتل المتمردين وأسرهم. لجأنا إلى هذه الإستراتيجية، كما تعلم، في ربيع عام 2003 وصيفه» —في الشهور اللاحقة على الغزو.

كان رمسفيلد يدون ملحوظاته.

«كنا جيشاً تقليدياً. أعظم قوة برية في العالم. جيش جيد الإعداد والتدريب والاستعداد لخوض حروب كبرى، لكن غير مجهز ولا مستعد لعمليات محاربة التمرد. وبدأ القادة أولاً تنفيذ ما تعلموه، أي استخدام الأساليب التكتيكية التقليدية ضد عدو غير تقليدي... لم تكن لدينا إستراتيجية موحدة، ولا خطة للحملات، طوال ما تبقى من عام 2003، ومعظم عام 2004». تلك هي الحقبة التي كان فيها جنرال الجيش (بثلاث نجوم) ريكاردو سانشيز يشغل منصب القائد العام في العراق.

ثم تطورت خطة للحملة ونالت الموافقة في عامي 2004 و 2005، كما قال كين. «سارت الخطة وفق عدة خطوط عملياتية – الأمن، والحكم، وتدريب قوات الأمن العراقية، وإنعاش الاقتصاد، والبنية التحتية، وعمليات للحصول على المعلومات. لكنها إستراتيجية دفاعية فعلاً، إستراتيجية حرب قصيرة».

سأل رمسفيلد: «ما الذي تعنيه بإستراتيجية حرب قصيرة؟».

قال كين إنها مصممة لنخرج من العراق بأسرع وقت ممكن. «تعتمد اعتماداً كبيراً على تثبيت أركان حكومة فاعلة ومنح السنة حق التصويت، وعزل المتمردين، وجلبهم إلى... المشاركة في العملية السياسية. كانت منطقية واعتقدت بصوابيتها آنذاك».

وأضاف إن المقاربة العسكرية ركزت على تسليم الملف الأمني إلى القوات الأمنية العراقية بأسرع ما يمكن. «ويتمثل الجزء الآخر بحماية أنفسنا في أثناء ذلك كله – حماية جنودنا». هناك جزء آخر هو القضاء على الأماكن التي تمثل ملاذاً آمناً للقاعدة. «على الرغم من هذه الجهود والقبض على صدام وقتل ولديه، وإجراء ثلاثة انتخابات، وكتابة دستور جديد، وتنصيب حكومة دائمة، والتحسن الذي طرأ على قوات الأمن العراقية، وقتل الزرقاوي، إلا أن الحقيقة، الحقيقة الصارخة الجارحة، أن العنف قد تزايد كل سنة في المناطق المضطربة».

«والأسوأ حالة انعدام الأمن والاستقرار. فهي تهدد بقاء الحكومة ونجاح مهمتنا. فأين مكمن الخطأ؟ ما الخطأ في إستراتيجيتنا؟ لم نعمل قط على تبني إستراتيجية للقضاء على التمرد وهزيمته».

سأل رمسفيلد: «ما الذي تعنيه؟».

«لم نحدد مهمة للقضاء على التمرد وهزيمته. ولو فعلنا لوفرنا الحماية للسكان. وحقيقة أننا لا نحمي السكان تعني أننا نعرضهم لتأثير القاعدة، وللمتمردين السنة، والمليشيا الشيعية التي تستغل ذلك كله لمصلحتها. ولهذا السبب نشهد حمامات الدم اليوم». قال إن العراقيين ليسوا قادرين بعد على التعامل مع الملف الأمني. «هذه هي المشكلة. راهنا بمالنا على ذلك الحصان»، وتبين أنه أعرج.

قال رمسفيلد: «إنها إستراتيجية كيسي وأبي زيد».

قال كين: «أفهم ذلك يا سيادة الوزير. لكني أعتقد أن تأثيرك موجود في هذه الإستراتيجية». وذكّر رمسفيلد أنه لم يوافق على ما دعاه «إيديولوجية الحد الأدنى من التدخل» –الرغبة في تجنب إيجاد حالة من الاتكال المصطنع عبر فعل كل شيء نيابة عن العراقيين. اعتقد رمسفيلد دوماً أن نموذج البوسنة–كوسوفو في التسعينيات كان خطأ، وتضخم وتفاقم بقيام عدد كبير من الأشخاص من كثير من الوكالات الأمريكية بأداء مهمات كان يجب على الحكومات المحلية القيام بها. وهذا منطق معقول، كما قال كين، لكن ليس في وضع «تواجه فيه العداء وتتعرض للعنف المسلح».

ظل رمسفيلد يضع المسؤولية على عاتق أبي زيد وكيسي.

رد كين بالقول إن رمسفيلد أثر في البيئة بآرائه القوية النافذة، وهو من سمح لذلك كله أن يحدث. والجهود المبذولة لتقديم المشورة والنصح لقوات الأمن العراقية بحاجة إلى تعزيز ودعم، كما أضاف. فالقوات الأمريكية التي توفر التدريب للعراقيين هي على الأغلب من ضباط الحرس الوطني والاحتياط الذين لا يملكون خبرة عملياتية، وفي بعض الأحيان يقدمون المشورة إلى عراقيين أكثر خبرة منهم. وفي أحيان أخرى تكون عملية التدريب محرجة. «يجب أن تحظى بالأولوية في سياسة إدارة شؤون الأفراد الذاتية في جيش الولايات المتحدة»، كما قال كين.

رد رمسفيلد: «هذا ما يحدث. والمعنيون يحاولون حل المشكلة».

قال كين بلطف: «لا. لدي كثير من الأدلة الدامغة التي تثبت العكس. فبرنامج النصح والمشورة أقل كثيراً من المستوى المطلوب، ويجب علينا التشديد عليه».

لم يعتقد كين أنه يبلغ رمسفيلد بمعلومات يجهلها. لكن عرض بعض الحلول الممكنة.

شملت الخيارات المطروحة على الطاولة، كما كان يراها، الانسحاب الفوري، أو الانسحاب التدريجي، أو المحافظة على الوضع الراهن مع زيادة عدد المستشارين ومحاولة تحسين أداء قوات الأمن العراقية. «تترك هذه الخيرات كلها زمام المبادرة في يد العدو، وتبقي على زخم اندفاعته. وسوف تفاقم نقاط ضعف الحكومة وتزيد الضغوط عليها، إلى أن تنهار وتتفكك مما يضاعف احتمال الانزلاق إلى حرب أهلية. وعندئذ لن يكون الوضع محل جدل وخلاف، بل سيتضح بجلاء للجميع. لا يوجد خيار متاح أمامنا عند هذه المرحلة سوى القيام بما هو واضح لنا جميعاً الآن —فعل ما لم نفعله قط: جلب الأمن إلى الناس... لقد أصبح ذلك واضحاً لي إلى حد الإيمان أن الأمن غدا شرطاً سابقاً وضرورياً لتقدم العملية السياسية، والتنمية الاقتصادية، والتقدم الاجتماعي في هذا البلد المتشظي المنقسم».

وجد كين أن رمسفيلد لم يوافقه الرأي، لكن الوزير لم يكن في مزاجه التصادمي المعتاد.

قال كين إن المطلوب «زيادة عدد القوات لجلب الأمن». وهذا سيعني مزيداً من الألوية —عشرات الألوف من الجنود.

تجهم وجه رمسفيلد آنئذ. فهذا بالضبط ما لم يكن يريده الرجل الذي يتبنى فكرة القوة الصغيرة التي تتمتع بالمرونة وسرعة الحركة.

سأل كين: «كيف نحقق النصر؟ لا يمكنك إلحاق الهزيمة بالمتمردين عبر تدمير قواتهم؛ أي عبر التركيز على قتلهم وأسرهم. والحقيقة أنهم سيُبعثون من جديد». فهناك مخزون لا ينضب تقريباً من الشباب العراقيين الذين يعيشون في حالة من الاستياء والغضب. وفي حين إن قتل المتمردين مهم، كما قال، إلا أن القتل وحده لا يعد إستراتيجية مقبولة. «يتحقق النصر بالعزل الدائم للمتمردين عن السكان. عليك حماية السكان لنجاح هذا النوع من العزل. أما النتيجة المريرة فهي سيطرة المتمردين، المتمردين السنة، على سكان المناطق المضطربة»، كما قال.

وأضاف: «علينا تركيز قواتنا في المناطق للقضاء على المتمردين، ثم وضع قوات ثابتة للسيطرة على السكان بعد إنجاز المهمة، وحمايتهم ودعمهم، ومنع المتمردين من العودة لممارسة أعمال الترهيب والتخويف والقتل». يجب أن نعيش «مع السكان وبينهم» مدة أربع وعشرين ساعة سبعة أيام في الأسبوع، وعدم العودة إلى القواعد المتقدمة كل ليلة، مثلما فعلنا في الماضي. نحن نبالغ في الانعزال عن الناس. علينا السيطرة على السكان فيما يتعلق بتحركاتهم –الإحصاء، بطاقات الهوية... في نهاية المطاف، نحن بحاجة إلى إجراء انتخابات محلية واختبار الزعماء. وعلينا طرد فلول المتمردين».

استشهد كين بمثال من عام 2005. «أتذكر تل عفر؟ إتش. آر. مكماستر؟».

قال رمسفيلد: «أجل، أجل، أتذكر».

قال كين: «دعني أعود إلى الواقعة». تل عفر بلدة يسكنها 250 ألف نسمة. العملية نفذت على ثلاث مراحل –طرد المتمردين، وإقامة قواعد دوريات ثابتة، وكسب ثقة الناس، ومن ثم المساعدة في منع المتمردين من العودة. بعد ذلك أجرى الكولونيل مكماستر انتخابات محلية لتمكين المسؤولين المحليين وإنعاش الاقتصاد. واستطاع إعادة الاستقرار إلى المدينة في مدة راوحت بين 6-8 أشهر، وهذا إنجاز مشهود فعلاً، كما قال كين. «وكل من يذهب إلى هناك يعرف حجم هذا الانجاز المشهود».

سأل كين وهو يقرأ من ملحوظات دونها على عجل على صفحات رسمية صفراء: «ما الذي يمكننا فعله غير ذلك؟ قبل كل شيء، علينا أن نقرر هل نريد الفوز، وهل نحن جادون فعلاً في تحقيقه؛ هذا قرار رئيس. وعليك أن تدرك حقيقة أن الإستراتيجية الحالية سوف تؤدي بنا إلى الخسران والفشل إذا لم تعمل على تغييرها».

«إذا أردنا الفوز، فعلينا مواءمة سياساتنا مع مواردنا وخطابنا البلاغي». ثم سدد سهامه إلى الجنرال كيسي مباشرة: «علينا أن نضع شخصاً في موقع المسؤولية يعرف ماذا يفعل. يجب أن نطلب منه الانتصار ويكون مسؤولاً هو والجنرالات الآخرون، مع إبلاغهم أنهم لن يعودوا إلى أرض الوطن قبل تحقيق هذا الهدف».

علينا أيضاً، كما قال، حشد ثقل الحكومة الأمريكية كلها خلف جهوده. «وإدراك قيود قادة الحرب التقليدية الأكْفاء وحدودهم. بعضهم لا يصلح لقيادة عمليات مكافحة التمرد -خصوصاً بسبب الافتقار إلى المرونة الفكرية، والرشاقة وسرعة الحركة في التعامل مع حالة يسودها قدر كبير من الغموض وعدم اليقين». وتابع قائلاً إن الحرب التقليدية تعتمد اعتماداً كبيراً على الأقمار الصناعية والمعلومات الاستخبارية الدقيقة للمساعدة في تحديد مواقع العدو.

«لا تعرف، في مكافحة التمرد أو حرب العصابات غير النظامية، فعلاً أين مكان العدو». لكن في الحرب التقليدية، يضطر العدو إلى نقل معداته، ومؤنه، ورجاله، ومن ثم يفضح مقاصده ويضعف أهدافه. «هنا، لا ترى العدو. ومن ثم تتعامل كل يوم مع وضع يسوده قدر كبير من الغموض وعدم اليقين. وبرأيي، لا يستطيع أي قائد التعامل مع هذه الحالة إذا تدرب على التعامل» مع الحرب التقليدية. ما يفعله القائد في الوضع الطبيعي هو محاولة السيطرة على الغموض والتحكم بحالة عدم اليقين، وتطوير مقاييس لتقويم الأداء. «لكننا لا نفعل ذلك في سياق ما يفعله العدو حقاً بنا»، كما قال كين. وأوصى بأن يجمع رمسفيلد بعض الأشخاص المعنيين لتفحص الإستراتيجية، باستخدام تزايد حدة العنف أساً منطقياً لإجراء دراسة مستقلة.

قال كين لرمسفيلد: «هذا هو الوقت المناسب لإجراء التغيير بدءاً بكيسي وأبي زيد». إذ إن خدمة كل من الجنرالين قد مددت. «حين تضع إستراتيجية جديدة، يجب تكليف فريق جديد بتنفيذها بدلاً من الاعتماد على الفريق القديم، وذلك لإعطاء الإستراتيجية الفرصة التي تستحقها للنجاح. فمن الصعب جداً عليهما إجراء تغيير جذري والتخلي عن السياسات التي اتبعاها في الماضي. لا أعتقد أن عليك إعلان التغيير بطريقة صاخبة، بمعنى أن بمقدورك منح الجنرالين مخرجاً يحفظ ماء الوجه». التزمت التوصية القاعدة العسكرية غير المكتوبة، والمسكوت عنها عادة: يجب حماية العسكريين.

حين كان رمسفيلد يصغي، ألح كين على ملحوظاته. قال: «أوقف التخطيط لتخفيض عدد القوات الآن». كان كيسي يتبع هذه السياسة على الرغم من تفاقم حدة العنف.

سياسة أصابت الجميع بالتشوش والارتباك فيما يتعلق بمقاصد الولايات المتحدة والتزامها. كيف يقبل الجنود على الأرض تعريض حياتهم للخطر وهم يعلمون أن الانسحاب حتمي ويتعذر اجتنابه؟ «أوقف الضغط الذي تمارسه للإسراع في تدريب العراقيين، ونقل المسؤولية إليهم. أوقف خطط الانتقال إلى أربع قواعد ضخمة». تمثلت خطة كيسي في نهاية المطاف في الخروج كلياً من بغداد. وقال كين إن هزيمة المتمردين تتطلب الابتعاد عن المركزية مثلما يفعل المتمردون، وكان كيسي يجعل كل شيء أكثر مركزية من أجل تقليص الخسائر في الأرواح. صحيح أن تقليصها أمر جوهري، لكن ليس على حساب المهمة كما قال.

النقطة الثامنة، كما قال كيسي (فقد كان يعدد نقاطه): يجب مضاعفة حجم قوات الأمن العراقية من الجيش والشرطة في الخطة إلى 600 ألف.

من الواضح أن رمسفيلد لم تعجبه هذه النقطة، لكنه بقي صامتاً.

قال كين مرة أخرى: «يجب أن نجند مزيداً من القوات الأمريكية»، دون أن يشير إلى الحجم. «نحن بحاجة إلى ما يكفي من القوات لتأمين بغداد». يمكن تجنيد مزيد من القوات بطرق شتى. «لسنا بحاجة إلى تحديد مدة أداء الواجب باثني عشر شهراً للجيش وسبعة أشهر لمشاة البحرية. إذ يمكننا إطالة مدة المناوبة لكل منهما. يمكن أن تكون المدة غير محددة بزمن. لقد خضنا معظم حروبنا دون أن نحدد مدة أداء الواجب للجنود».

تذكر كين أيامه حين كان نائباً لرئيس هيئة أركان الجيش: «أنا الذي أوصيتك بجعل مدة أداء الواجب سنة كاملة، إن كنت تذكر، ثم طلبت مني أن أتحدث في الأمر مع الرئيس بعد بضعة أيام. ومن ثم أنا أؤمن كما هو واضح بقيمة المناوبة».

«لكن هذا يعود بنا إلى مقدمتي المنطقية الأصلية: هل نريد الفوز، وما مدى جديتنا في تحقيقه؟ وإذا كنا كذلك، فلابد من بعض التضحيات». لقد فشلت عملية «معاً إلى الأمام 1»، وعملية «معاً إلى الأمام 2» فشلاً ذريعاً، كما ذكّر كين الوزير، والسبب الرئيس يعود إلى عدم وجود ما يكفي من الجنود لحماية السكان.

«ما نفعله الآن هو التجمع في قواعد عملياتية أمامية؛ قواعد ضخمة، وجيدة الحماية، ومؤمركة من الداخل». هناك في أكبر القواعد مراكز للتدريب واللياقة البدينة، ودور للسينما، مثل تلك التي نجدها في مجمعات التسوق في الولايات المتحدة. «وهكذا، نخرج من هذه القواعد في دوريات. دوريات مؤلّلة في غالبيتها»، تغري بمزيد من الهجمات بالعبوات الناسفة المحلية الصنع. «ندعوها الدوريات الحاضرة: ليست لها قيمة كبيرة، ولا تجمع معلومات استخبارية مهمة، وهي مجرد أهداف للهجمات».

قال كين إن من البدائل المتاحة «دخول الأحياء السكنية واحتلال بعض المباني الخالية التي لا تستخدم. أو يمكن في بعض الحالات الاستيلاء على بعض المباني التي يستخدمها العراقيون أو يقيمون فيها، أو تعويض أصحابها مالياً مقابل ذلك». لقد اتبعت هذه الطريقة من قبل. فالجنود يتناولون الطعام وينامون هناك، ثم ينطلقون بدورياتهم منها. يمكنهم القيام بدوريات راجلة، و لا تؤثر العبوات الناسفة المحلية الصنع كثيراً في مثل هذه الدوريات، كما قال. «ميزة الدورية الراجلة أنها تتصل بالناس، بين الحين والآخر. ويتحدث أفرادها إلى التجار، والمواطنين. وفي نهاية المطاف، يعرف الناس أننا باقون، ولن نرحل. ويبدأ بناء الثقة، وهذه قضية مهمة».

ويتبادل الجنود والعراقيون الاعتماد بعضهم على بعض. «وهذا يتطلب بضعة أسابيع، لكنه سيحدث حتماً؛ لأن العراقيين سيبدؤون آنذاك بإبلاغ الجنود عمن هو العدو، وعن التهديد المحتمل في المنطقة. ولدينا أدلة على أن ذلك هو ما حدث في تل عفر مراراً وتكراراً... نحن نعلم أن الطريقة ستنجح من حيث أن الناس سيصبحون فعلاً أدوات استخبارية في أيدينا».

قال كين: «علينا إصلاح حال الاستخبارات الإستراتيجية والعملياتية». لم يكن عدد المحللين الوضعَ في العراق كافياً. «ليس لدى وكالة المخابرات المركزية، كما ذكر لي مصدر موثوق، سوى 38 محللاً يدرسون الوضع في العراق حصراً. بل إن عدد المحللين الأمريكيين الذي يدرسون أحوال الصين يفوق عدد محللي الشأن العراقي، مع أن العراق مسألة عاجلة وملحة ويعد تهديداً داهماً للأمن القومي إذا خسرنا المعركة فيه».

أطلق رمسفيلد بعض التعليقات الانتقادية لوكالة المخابرات المركزية، وافق عليها كين.

يعمل لدى مديرية الاستخبارات في هيئة الأركان المشتركة (التي تسمى J2)، ووكالة استخبارات الدفاع، 61 شخصاً يحللون حصراً الوضع في العراق، كما قال كين. لكن العدد المفروض يجب ألا يقل عن 156. ولذلك فإن البنتاغون يعاني نقصاً في المعلومات الاستخبارية عن العراق تتجاوز نسبته 50%.

قال كين: «نحن لا نعمل على سبر الشبكات. ما أعنيه بذلك أننا لا نملك على المسرح، في العراق، ما يكفي من المحللين الذي يحاولون فعلاً تحديد شبكات التمرد والقاعدة. كيف نقوم بذلك؟ الأمر يشبه التحقيق الجنائي المفصل في جرائم القتل، المعتمد على جمع التفاصيل والأجزاء الفسيفسائية معاً». وهذا يستلزم جهداً مضنياً لقراءة تقارير عمليات الاستجواب وغربلتها، والعمليات التكتيكية، واعتراض الاتصالات، وغيرها من التقارير الاستخبارية البشرية، إلى جانب الوثائق التي جرى الاستيلاء عليها، كما قال.

كانت لدى كين أيضاً قائمة مطولة بما هو مطلوب لإعادة بناء المجتمع السياسي والمجتمع المدني في العراق.

«نحن بحاجة إلى تجنب الخطب البلاغية الانتصارية. فهي تسبب مشكلات للمصداقية –ما يدعى بـ 'ضوء [ويستمورلاند] في نهاية النفق'. لقد سحب كيسي القوات مرتين الآن اعتماداً على النجاحات المتحققة. وما أقوله أنا إن فشل هذه الطريقة واضح لا لبس فيه، وما علينا أن نفعله هو زيادة عدد القوات. فإذا كنا سنقبل إحداث تغيير في الإستراتيجية هنا، فعلينا أن نتجنب الموقف الانتصاري حين تبدأ الإستراتيجية الجديدة بتحقيق النجاح، وأظنها ستنجح؛ لأنها تركز على العدو، الذي عملنا دوماً على التقليل من أهميته وتأثيره وشأنه».

النقطة الخامسة عشرة على لائحة كين أشارت إلى أن «علينا الفوز بمعركة بغداد. يجب ترسيخ الاستقرار في بغداد عبر السيطرة على سكانها. أعرف أنني قلت ذلك من قبل، لكنني أكرره للتوكيد».

وكأنما ذلك كله لم يكن كافياً، إذ وكل كين إلى رمسفيلد مهمة قراءة كتاب. «أظن أن عليك أنت وغيرك من المعنيين قراءة، كتاب عنوانه 'حرب مكافحة التمرد:

النظرية والممارسة' لديفيد غالولا، وفهمه. لا تزيد صفحات الكتاب على المئة، وإذا لم ترغب بقراءتها كلها، فاقرأ التمهيد والمقدمة، ثم الفصول 4-7، التي تتناول الممارسة والتطبيق».

قدم غالولا، الضابط الفرنسي السابق، الحجة في كتابه الذي نشر عام 1964 على أن حركات التمرد هي حروب ثورية يعتمد النصر أو الهزيمة فيها على كسب تأييد السكان المحليين ودعمهم.

دوّن وزير الدفاع ملحوظاته، وطرح أسئلته واستفساراته. لكنه كان نسخة متواضعة من رمسفيلد الناري القديم. وحين كان كين يغادر أدرك أن الجو المخيم على المكتب مختلف. إذ إن كل جانب وملمح من رمسفيلد، من أمارات التعب البادية على وجهه، إلى لغته الجسدية، يشير إلى إحساس بالإذعان والتسليم. قال كين في نفسه إنه لم يفاجئ رمسفيلد بأي موضوع طرحه، باستثناء حقيقة أن صديقاً كان يقول له هذه الأمور كلها مباشرة.

لكن كان من الضروري إحداث تغيير. فقد كان عدد القتلى الأمريكيين يراوح بين 50-75 كل شهر، والرقم يرتفع باطراد ارتفاعاً حاداً.

هامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع مصدر مطلع ومن ملحوظات كتبها معاصر للأحداث ومشارك فيها.

-14-

كان نجم الجنرال ديفيد بترايوس يسطع في سماء الجيش، وعده جاك كين المرشح الأوفر حظاً لحل مشكلة العراق.

وكان بترايوس مثل أخ أصغر لكين. فقد التقى الرجلان أول مرة في أواخر الثمانينيات، حين كان كين عقيداً في فورت تشافي (بولاية أركنساس)، وبترايوس رائداً يعمل مساعداً لرئيس هيئة أركان الجيش كارل فونو.

وسرعان ما تقاطعت بهما السبل مرة أخرى في فورت كامبل (بولاية كنتاكي). في ذلك الوقت، أصبح بترايوس عقيداً يقود كتيبة في الفرقة 101 المحمولة جواً، وكين جنرالاً يعمل مساعداً لقائد الفرقة.

في صبيحة يوم سبت من شهر أيلول عام 1991 [1]، كان بترايوس وكين يشاهدان جنباً إلى جنب جماعة مشاة تتدرب على مهاجمة ملجأ محصن بالقنابل اليدوية والذخيرة الحية. تعثر جندي وسقط على الأرض على بعد أربعين ياردة تقريباً فضغط دون قصد على زناد بندقيته (من طراز إم 16)، فانطلقت رصاصة لتخترق حرف الألف (a) على القطعة القماشية المعلقة على الجانب الأيمن من صدر بترايوس وتحمل اسمه Petraeus، وتترك ثقباً بحجم كرة الغولف في ظهره. ولو أصابت الطلقة حرف الألف في كلمة U.S Army (جيش الولايات المتحدة) على الجانب الأيسر، لقتل على الفور.

قال كين وهو ينحني على زميله المدد على الأرض: «أصابتك رصاصة. أنت تعلم ماذا ستفعل الآن؛ أولاً، سوف تنجو». ظل يتكلم مع بترايوس محاولاً منعه من السقوط في غيبوبة نتيجة الصدمة. «أريدك أن تركز تفكيرك»، وأمسك بيد العقيد المصاب، مدركاً أنه حالته تسوء.

قال بترايوس: «سأكون بخير. سأبقى صاحياً».

دفع طبيب مختص، في غرفة الطوارئ المحلية، بأنبوب صدري في جسم بترايوس –وهو إجراء طبي يسبب ألماً مبرحاً لا يحتمل. لكن بترايوس لم يتحرك واكتفى بهمهمة واهية. قال الطبيب لكين: «هذا أصلب جندي عرفته في حياتي».

نقلت مروحية إخلاء طبية بترايوس، وكين بجانبه، مسافة ستين ميلاً إلى المركز الطبي التابع لجامعة فاندربلت في ناشفيل، وطلب كين سلفاً أفضل جراح صدر متاح آنذاك. وحين حطت المروحية على سقف المستشفى، شاهد كين رجلاً بملابس الغولف في الانتظار.

قال الرجل (الذي سيصبح زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ بعد عقد من السنين): «أنا بيل فريست، رئيس قسم جراحة الصدر هنا».

سأله كين: «هل كنت تلعب الغولف؟».

«أجل، تلقيت اتصالاً فهمت منه أن لديك جندياً مصاباً بجرح خطر».

«أجل. وهو يعني الكثير لنا».

قال بترايوس الذي كاد يغيب عن الوعي آمراً فريست: «لا تضيع الوقت. افتح صدري في هذه اللحظة إن كان ذلك ضرورياً».

دامت العملية الناجحة أكثر من خمس ساعات. ثم تعافى بترايوس في مستشفى فورت كامبل، ودفع رئيس المستشفى إلى حافة الجنون بسبب إلحاحه على الأطباء لتخريجه. قال لهم: «يجب ألا تطبق علي القوانين والمعايير». ثم نزع الأنابيب من ذراعه، وقفز من السرير، ومارس تمرين الضغط خمسين مرة. في نهاية المطاف سمحوا له بالعودة إلى منزله.

جسد الحادث لحظة انعطاف مؤثرة في حياة بترايوس ومهنته العسكرية. واعتاد فيما بعد أن يقول مداعباً إنه تلقى الرصاصة بدلاً من كين: «تطلب الأمر أفعالاً انعكاسية سريعة لإنقاذ حياتك يا جنرال». لكنه لم ينس قط أن كين كان هناك ممسكاً بيده حين أشرف

على الموت. جمعتهما رابطة قوية، وأصبحا صديقين مقربين، وبقيت الصلة الجامعة بينهما متينة بعد سنوات حين ارتقى كين إلى منصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش، وقاد بترايوس الفرقة المحمولة جواً 101 في أثناء غزو العراق عام 2003.

* * *

في التاسع عشر من أيلول، في اليوم ذاته الذي ذهب فيه كين لمقابلة رمسفيلد [2]، التقى بوش سراً بالرئيس العراقي جلال الطالباني، والرئاسة وفقاً للدستور العراقي الجديد منصب شرفي لكنه مهم. الطالباني رجل ضخم الجثة أنيس المعشر يتحدث الإنكليزية بطلاقة، ويبدو بنظارته وشاربه كأنه جد.

قال بوش إن الميليشيات الشيعية وفرق الموت التابعة لها تمثل واحدة من المشكلات الرئيسة.

عارضه الطالباني الكردي الذي يؤمن بالحكم المحلي الذاتي معارضة شديدة. دعوا المناطق المحلية والقوى المحلية تتحرر، مثلما حدث في محافظة الأنبار، كما قال. العراق لا يحتاج إلى مزيد من الجنود الأمريكيين، بل إلى عدد أقل منهم. المشكلة أن الولايات المتحدة لم تزود القوات العراقية بما يكفي من الأسلحة المتطورة لمحاربة الإرهابيين والمتطرفين. ولدى وزير الدفاع العراقي قائمة بالأسلحة المطلوبة. وأضاف الطالباني إنه يعرف أن الأمريكيين لا يثقون دوماً بالعراقيين، خصوصاً الشرطة، ويقلقهم احتمال أن تصل الأسلحة في نهاية المطاف إلى أيدي الإرهابيين. لكنه أراد أن يقدم ضمانات وتطمينات.

قال بوش إن الولايات المتحدة ستحاول العثور على حل.

مثّل هذا الموقف أحد التناقضات في سياسة الولايات المتحدة. ففي حين استهدفت الإستراتيجية العامة تدريب القوات العراقية وإعدادها للقتال والاعتماد على الذات، إلا أن إدارة بوش لم تزودها بالسلاح الذي تحتاج إليه.

على سبيل المثال، قال جيم جيفري منسق كوندوليزا رايس للشؤون العراقية، في أثناء اجتماع لوزارة الخارجية عقد في اليوم اللاحق (20 أيلول)، إن الموارد تُمنح للجيش العراقي ببطء «يجعلك ترغب بالبكاء».

وقبل ثلاثة أسابيع، أعدم جيش المهدي الذي يتزعمه مقتدى الصدر عشرة من الجنود العراقيين بعد أن نفدت منهم الذخيرة.

قال جيفري: «يتفوق جيش المهدي في القوة النارية على الجيش العراقي. بل إن معظم الجماعات المسلحة تتفوق عليه. حتى فريق (SWAT) في واشنطن يمتلك قوة نارية أكبر من الجيش العراقي؛ لأننا لم نزوده بمدافع الهاون، ومضادات الدروع، باستثناء عدد قليل من قذائف آر بي جي، حتى هذه الكمية القليلة تطلبت قدراً كبيراً من الضغط والإلحاح. ولم نقدم للعراقيين حتى الآن عدداً كافياً من عربات همفي المدرعة».

* * *

في اليوم ذاته (20 أيلول)، تلقى رمسفيلد وثيقة استخبارية حساسة حول العراق [3]:

بالغ السرية

عبر قنوات المصادر البشرية/اعتراض الاتصالات

تقرير التحليل الدفاعي: العراق: زيادة احتمال الانقسام والتفكك

كان تقريراً كئيباً متشائماً، يتناول بالتفصيل الانهيار الطائفي المفترض بين الشيعة والسنة والكرد. لم توفر الحكومة ما يكفي من خدمات البنية التحتية، والأهم أنها لم توفر الأمن لمواطنيها.

اعتمد التقرير على المصادر البشرية، التي جندتها وكالة المخابرات المركزية CIA، وتقارير اعتراض الاتصالات التي جمعتها وكالة الأمن الوطني. وأظهر أن عجز المالكي وغيره من السياسيين العراقيين عن تحقيق تقدم سياسي يعود في جزء منه إلى الاصطفاف في المعسكرات الطائفية بدلاً من محاولة الالتقاء معاً.

فيما بعد، حين سألت الرئيس عن وثيقة العشرين من أيلول، وتحذيرها من زيادة احتمال تفكك العراق وانقسامه، قال: «ما قالته لي كوندي يقولونه الآن. 'من الأفضل

فعل شيء مختلف. أعني أنها وثيقة بيانات أخرى. لست واثقاً أنها وثيقة الصلة بما يحدث. ومجرد الحصول عليها لا يعني أنها وثيقة الصلة»[4].

لكن من الواضح أن رمسفيلد اعتقد أن التقرير وثيق الصلة بما يحدث في العراق. وأرسل نسخاً منه إلى الجنرالات: أبي زيد، وبيس، وكيسي. كتب قائلاً: «دعونا نناقشه في أقرب وقت ممكن»[5].

وحين جرت مناقشته، طرحوا الأسئلة المعتادة: هل المالكي هو الرجل المناسب؟ هل ينجح؟ هل يبقى في الحكم؟ أما النتيجة المستخلصة فكانت نسخة من الفكرة القديمة: الأعور بين العميان ملك. فالمالكي أفضل الموجود، على الأقل في الوقت الراهن.

في الثاني والعشرين من أيلول، بعد ثلاثة أيام من لقائه مع رمسفيلد، ذهب الجنرال كين للاجتماع بالجنرال بيت بيس رئيس هيئة الأركان المشتركة، الذي حضر اللقاء السابق، وطلب من كين القدوم إلى مكتبه لتبادل الحديث على انفراد.

قال بيس، ممتدحاً تقويم كين الانتقادي للوضع في العراق: «نسيت كم كنت مباشراً وصريحاً. أريدك أن تعرض تقويماً لأدائي بصفتي رئيساً لهيئة الأركان بعد مرور سنة على شغلي المنصب».

فوجئ كين بالطلب. فمن ناحية، كما فكر، ربما يعبر الطلب عن درجة غير عادية من الثقة بالنفس من جانب بيس، إشارة تدل على أن رئيس هيئة الأركان يريد الحصول على القصة الصحيحة مباشرة من شخص صادق لا يقول إلا الحقيقة. ومن ناحية أخرى، ربما يعبر عن شعور بعدم الأمان، عن إحساس بوجود رأي غير معلن عنه لم يصل إلى مسمعه. في العادة، تعني طلبات مثل «ما مستوى أدائي برأيك» في البنتاغون: «أريدك أن تمتدحني».

قال كين برقة: «لن أمنحك درجة النجاح».

سأل بيس والألم واضح على وجهه الشبيه بوجه صبي في الكشافة: «لماذا؟».

«حسناً يا بيت، إليك الإجابة. الحرب في أفغانستان والعراق تحتل قمة الأولويات التي تواجه البلد –خصوصاً في العراق؛ لأنها لا تسير بالطريقة التي توقعناها. ولذلك تحتل قمة الأولويات في وزارة الدفاع أيضاً. أنا أعمل بدوام جزئي في مجلس سياسة الدفاع، وبصراحة أنا أعرف عن حرب العراق أكثر منك. أنت لا تعمل على الموضوع على نحو مستمر ومتواصل، ولا تلتزم به فكرياً ووجدانياً وعاطفياً. يجب أن تستعين بالخبراء الذين يوجزون لي المعلومات. شاهدت التقارير المرسلة إليك. إنها تحليلات للاتجاهات والنزعات؛ تحليلات سطحية نوعاً ما».

سأل بيس: «ما الذي يجب أن أفعله برأيك؟».

قال كين: «قبل كل شيء، يجب أن تنهمك في القضية كل يوم. يجب أن تستغرق فيها فكرياً». وأضاف إنه يعلم أن على رئيس هيئة الأركان واجبات أخرى. «هناك شهادة أمام الكونغرس. عليك التفكير في مستقبل المؤسسة العسكرية. عليك عقد اجتماعات لذلك كله، وهي سهلة لأنها متوقعة وروتينية ولا تمثل تحدياً فهي جزء من عملية بيروقراطية لممارسة العمل». لكن كين اعتقد أن رئيس هيئة الأركان كان غارقاً في واجبات القيادة ومسترخياً بتأثيرها المهدئ المعتمد على الأرقام، حيث يجعله مجرد تلبية جدول المواعيد اليومية المرعبة يشعر أنه أنجز الكثير.

قال كين: «لكن العمل الحقيقي المميز لواجبك بوصفك جنرالاً بأربع نجوم، وواجب الوزير رمسفيلد، هو كسب هذه الحرب. هذا ما يتوقعه الشعب الأمريكي. فهو يتوقع منا الفوز بهذا الحرب والاستمرار بحمايته نتيجة لذلك».

«إن مهمة رئيس هيئة الأركان المشتركة تتمثل بالارتقاء بها فوق حدود الخدمة وأفقها الضيق».

قال كين إن الجنرال كيسي بحاجة ماسة إلى العون. «جورج كيسي يعمل على هذه الحرب ليل نهار. ولا يوجد في حياته شيء آخر يشغله عنها، فهو مستغرق فيها وحدها. لقد سيطرت على كل شيء يفعله. وسوف تكون قدرته في بعض الأحيان على الرؤية الواضحة محدودة دوماً ومحددة بتجربته المتواصلة والتعب الذي يعانيه».

قال كين إنه يعتقد أن هوس كبار القادة العسكريين بأخلاقيات العمل يفرز عكس النتائج المرجوة. «اليوم، يخوض جنرالاتنا حروباً بسرعة محمومة تعطي نتائج عكسية».

لنقارن ذلك كله بالجنرال دوغلاس ماك آرثر في الحرب العالمية الثانية، الذي كان يشاهد فيلماً سينمائياً كل ليلة. أو الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش، الذي «كان يركب الخيل، أو يأخذ غفوة مدة ساعة ونصف الساعة في أثناء النهار. وأمثال هؤلاء حققوا إنجازات عظيمة. هل تعرف ماذا يفعل رجالنا الآن؟ يأتون إلى مكاتبهم في السادسة والنصف صباحاً ولا يغادرونها قبل منتصف الليل». كما قال كين حانقاً.

فكر كين أن المسألة تتعلق بالشهامة والرجولة. ولأن الجنود يعملون هناك أربعاً وعشرين ساعة سبعة أيام في الأسبوع، اعتقد الجنرالات أن من الأفضل أن يعملوا مثلهم. لكن جوهر القضية هو التفكير المتجدد والواضح في مهمات الحرب. وقال إن ما يجب عليك فعله هو جمع هيئة الأركان المشتركة كلها وتحدي المقدمات المنطقية والافتراضات السابقة التي يتبناها كيسي وأبي زيد كلاهما. «فإذا كانت بعض الأمور لا تسير على ما يرام، ونحن نعرفها على ما أظن، يجب البحث عن إستراتيجيات بديلة. يجب ألا تهرع إلى رؤسائك –رمسفيلد أو الرئيس أو مجلس الأمن القومي– بل تساعد جورج وجون؛ هذا ما يمكنك عمله. لديك فريق من المساعدين الموهوبين والأذكياء هنا، جرى اختيارهم بكل عناية، ولا يفعلون سوى المصادقة على ما يفعله جورج وجون. لماذا؟ لأنك تريدهم أن يفعلوا ذلك، ضمناً، لأنك لا تتحداهما». قال كين إن بيس ورؤساء الأركان ومرؤوسيهم لا يؤدون واجبهم. «ولذلك قلت إنني لن أمنحك درجة النجاح».

قال كين إن على بيس أن يلتقي بديريك هاري، محلل الاستخبارات، ويصغي إليه بانتباه. فقد فهم هاري الحرب من البداية. صحيح أن وكالة المخابرات المركزية (CIA)، ووكالة استخبارات الدفاع (DIA)، ومديرية استخبارات رئيس هيئة الأركان (J2)، قد حاربته، لكنها عادت إليه الآن.

قال بيس إنه سيحصل على الإيجازات من هاري، وأضاف: «سوف أُؤلّف فريق عمل من الرجال الأذكياء في هيئة الأركان، الذين يمكن الوثوق بهم، ولا تشغلهم وسائل الإعلام، وأجمعهم معاً لتقرير ماذا ينجح وماذا يفشل في العراق».

وتفحص الإستراتيجيات البديلة، كما قال كين.

سأل بيس: «من ترشح للمهمة؟».

قال كين: «الكولونيل إتش. آر. مكماستر». كان مكماستر، الذي حقق النجاح في تل عفر، قد رافق كين في رحلتين قام بهما إلى بغداد في بداية العام.

سأل بيس: «ومن غيره؟».

قال كين إنه لا يستطيع ارتجال أسماء أخرى الآن، لكن مكماستر هو المفتاح – يصعب التعامل معه لكنه أساسي. قال أيضاً إن من الضروري تغيير القادة إذا كانت الإستراتيجية ستتغير.

سأل بيس: «من القائد المناسب للعراق؟».

قال كين: «ديفيد بترايوس. لا يوجد مرشح آخر يضاهيه، وهذه حقيقة لا شك فيها». فإذا بحث بيس عن أفضل مرشح فسيجد على الأرجح اتفاقاً شاملاً على اختيار الجنرال بترايوس للمهمة، كما أكد كين.

«ثمة تغذية راجعة سلبية عن ديفيد»، مثلما لاحظ بيس. كان من الصعب التعامل معه حين عمل مساعداً للجنرال هوغ شيلتون في التسعينيات –فقد أتعب رئيسه وبالغ في الترويج لذاته. واعتقد بعض الجنرالات أنه «متآمر». وحين عين قائداً لبرامج تدريب العراقيين، ظهر على غلاف مجلة نيوزويك في تموز 2004، تحت عنوان «هل يستطيع هذا الرجل إنقاذ العراق؟». واستنكر رمسفيلد وغيره في البنتاغون والجيش ما بدا أنه ذات متضخمة منخرطة في الترويج لنفسها.

قال كين: «أجل». من المؤكد أنه طموح، لكنه ليس مغالياً. طموح الجنرالات ليس أمراً جديداً. «يجب ألا يزعجك ذلك. بترايوس رجل موهوب جداً جداً».

سأل بيس: «من يذهب إلى القيادة المركزية؟». من يحل محل أبي زيد؟

قال كين: «فالون»، مشيراً إلى الأدميرال وليام فالون، قائد القيادة الأمريكية في المحيط الهادي.

ذكر بيس، وقد فوجئ نوعاً ما، لقب الأدميرال: «فالون الثعلب؟».

«إنه ذكي وواقعي. هذه القيادة تستحق شخصاً خبيراً متمرساً. ولديه الخبرة بعد إدارة قيادة منطقة المحيط الهادي، ثاني أشد المناطق اضطراباً في العالم». كان فالون يتعامل مع رؤساء دول منطقة المحيط الهادي، ووزراء الدفاع، واعتاد «التعامل مع زعامة الكونغرس في واشنطن، والإدارة، والشخصيات النافذة والمؤثرة».

قال بيس: «هذه فكرة مثيرة».

قال كين إن فالون ليس مجرد ضابط بحرية. فقبل عدة سنين، حين كان كين نائباً لرئيس هيئة أركان الجيش، عُرض على مجلس مراقبة المتطلبات المشتركة، إحدى الطبقات العديدة التي تقرر برامج البنتاغون وميزانيته، برنامجٌ إلكتروني ممتاز للجيش للموافقة عليه. ومع أنه صغير الحجم، ومعتدل السعر، إلا أن الجميع انتقده ورفضه. لكن فالون وقف معترضاً: «القوات البرية تنتصر في الحروب، ونحن ندعم هؤلاء المشاة؛ ولذلك امنحوهم برنامجهم».

وتأثر الرجلان العاملان في القوات البرية —بيس وكين- بما قاله فالون تأثراً شديداً.

في اليوم اللاحق، اتصل بترايوس، رئيس مركز أسلحة الجيش الأمريكي المشتركة في فورت ليفينوورث، بالجنرال كين وأبلغه أنه تلقى مكالمة من مكتب رئيس هيئة أركان الجيش. «يريدون تجميع بعض الرجال النابهين لدراسة الإستراتيجية وتقرير ماذا ينجح وماذا يفشل في العراق»، كما قال.

عرف كين بالطبع. اتصل بالأدميرال فالون. «أيها الثعلب، أريد أن أخبرك أنني أوصيت بك لتصبح قائد القيادة المركزية».

قال فالون بصوت بدا عبر الهاتف عالياً وغاضباً: «اللعنة... ما الذي تفعله بي؟».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- مقابلات مع عدة مصادر مطلعة. انظر أيضاً:

Rick Atkinson, *In the Company of Soldiers* (New York, Henry Holt, 2004), pp. 37-38, and Lois Romano, "When Edwards Nips Senate, Dodd Bites Back," *The Washington Post*, May 3, 2007, p. A32.

2- Presidential Documents, September 19, 2006. pp. 1638-1639 (Vol. 42, No. 83), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no38.html.

3- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة استخبارية سرية بتاريخ 2006/9/20.

4- مقابلة مع الرئيس جورج بوش 2008/5/20.

5- مراجعة المؤلف وملحوظات على إحدى المذكرات السرية.

-15-

في اليوم ذاته الذي التقى فيه جاك كين مع بيس، وصل كين أدلمان إلى مكتب رمسفيلد لمقابلته بحسب الموعد المحدد في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. كان أحد مساعدي رمسفيلد قد اتصل بأدلمان قبل بضعة أيام ليقول له إن الوزير يريد لقاءه. تردد أدلمان في تلبية الدعوة. لكنه قرر في نهاية المطاف أنه بحاجة إلى مواجهة صديقه القديم.

كان أدلمان، أحد الصقور المعروفين بالصراحة والجرأة، يحمل شهادة دكتوراه في العلوم السياسية ويصغر رمسفيلد بأربعة عشر عاماً. لكن علاقة سياسية وشخصية وثيقة جمعت الرجلين. فقد عمل أدلمان لدى رمسفيلد قبل 36 سنة (1970)، حين رأس رمسفيلد مكتب التعاون الاقتصادي في عهد نيكسون. وعمل مساعداً مدنياً خاصاً له في أثناء توليه منصب وزير الدفاع أول مرة في عهد جيرالد فورد. وفي عام 1986، حين فكر رمسفيلد في الترشح للرئاسة، أوضح بجلاء أنه يريد أدلمان مديراً لحملته الانتخابية.

تقاسمت أسرتا الرجلين عدداً لا يحصى من الإجازات على مدى السنين. وتبادلت كل منهما زيارة منزل الأخرى في تاوس، وسانتافي، وشيكاغو، وجمهورية الدومنيكان. وكثيراً ما سهر أفرادهما حتى الهزيع الأخير من الليل في مناقشة السياسة، والأدب، والمسائل الحياتية المهمة. في عام 2002، نشر أدلمان مقالة في صحيفة واشنطن بوست أعلن فيها أن غزو العراق سيكون سهلاً ميسراً إلى أبعد حد؛ لأن رمسفيلد وغيره من كبار المسؤولين في إدارة بوش على درجة رفيعة من الكفاية والأهلية.

كان أدلمان عضواً في مجلس سياسة الدفاع التابع لرمسفيلد، إلى جانب جاك كين، ونيوت غينغريتش، وهنري كيسنجر، ولذلك عرف كيف خرجت حرب العراق عن المسار المتوقع وأصبحت هماً مقلقاً للجميع. في أصيل يوم الجمعة هذا، حين جلس وحده مع

رمسفيلد إلى الطاولة الضيقة داخل مكتب الوزير الفسيح، بسجادته الكحلية وستائره السميكة، شعر بالارتياح. فقد أمضى وقتاً طويلاً في هذه الغرفة في أثناء السبعينيات، ووقتاً أطول مع الرجل الجالس قبالته على الطاولة. بدا كل شيء مألوفاً لديه.

بدأ رمسفيلد قائلاً: «أردت الاتصال بك. فقد كنا أصدقاء معظم سنوات شبابنا، وآمل شخصياً أن نبقى أصدقاء طوال ما بقي من حياتي».

فوجئ أدلمان. فمن النادر أن يظهر رمسفيلد بفظاظته المعهودة وتبلد مشاعره، مثل هذه العاطفة.

قال: «أريدك أن تعرف أنك مارست تأثيراً ضخماً في حياتي وكنت حاضراً فيها بقوة. كنت رائعاً مع كارول [زوجته]. كنت رائعاً مع بناتنا. لقد أحببتك طوال ثلاثين سنة مثل أخ»، بل أحببتك أكثر من بعض أشقائي، كما أضاف.

رد رمسفيلد مازحاً: «أعرف من هم». لكنه عاد إلى الجدية وقال: «ربما تكون فكرة جيدة أن تترك مجلس سياسة الدفاع».

قال أدلمان: «اسمع. إذا أردت مني أن أترك المجلس فقل لي، فهو لا يمثل جزءاً مهماً من حياتي، ولا جزءاً مهما من هويتي. أنت وضعتني فيه، ويمكنك أن تأخذني منه».

أجاب رمسفيلد وهو غير راغب على ما يبدو بطرد أدلمان: «لم أقل إنني أريدك أن تتركه. بل قلت ربما من الأفضل أن تتركه».

قال أدلمان لو كان من الأفضل لي أن أتركه لتركته، لكني مازلت عضواً؛ لأنني أستمتع بالعمل فيه. «لكن إذا كان من الأفضل لك أن أتركه، فقل لي. اكتب لي رسالة، وسوف أتركه».

حاول رمسفيلد أن يشرح وجهة نظره. فمع تقدم مسار الحرب وتدهور الوضع، بدأ أدلمان يطرح مزيداً من الأسئلة في أثناء الإيجازات الصحفية، ويقاطع المتحدثين مرات عديدة، ويعبر عن مزيد من الشكوك. قال: «أنت تثير الفوضى. وتتخذ موقفاً سلبياً».

تبخرت الكلمات الرقيقة المعسولة التي نطقها قبل دقائق.

قال أدلمان: «إثارة الفوضى هراء. أما الموقف السلبي فحقيقة لا لبس فيها».

تملك الغضب رمسفيلد. «دعني أوضح لك ما أعني. في الإيجازات الصحفية أنت تقاطع المتحدثين أحياناً، ولا تتركهم يكملون كلامهم».

قال أدلمان: «حسناً، إن كان ذلك ما تعني بإثارة الفوضى، أحسب أنك مصيب. لكن دعني أقول لك: هل تعلم من أين تعلمت ذلك كله؟ من هنا، من هذا المكتب. تعلمته منك قبل ثلاثين سنة»، وأشار إلى حيث يجلس رمسفيلد عادة. «تعلمته من المعلم».

لم يستطع رمسفيلد سوى أن يبتسم بصمت لسماعه ذلك. وقال حسناً، حسناً. لكن النقاش لم ينته بعد.

تابع أدلمان قائلا: «في الحقيقة، أنت مصيب في مسألة الموقف السلبي. فموقفي سلبي إلى أبعد حد تجاه قضيتين اثنتين».

«ما هما؟».

أجاب أدلمان: «عدم تحملك المسؤولية والمحاسبة، وقراراتك السيئة إلى حد مرعب».

قال رمسفيلد: «ماذا تعني بتحمل المسؤولية والمحاسبة؟ أنا أتحمل مسؤولية كل شيء».

أشار أدلمان إلى أن رمسفيلد وضع دوماً مسؤولية المشكلات أو الإخفاقات على عاتق الآخرين —وزارة الخارجية، والقادة العسكريين، والعراقيين. وقال: «لا أرى أنك تتحمل المسؤولية عن ذلك كله».

رد رمسفيلد بحدة: «هذا خطأ. أنا أتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية».

قال أدلمان مرة أخرى: «لا أفهم سبب قراراتك السيئة إلى حد مرعب».

«مثل ماذا؟».

قال أدلمان إن لديه أمثلة عديدة على القرارات السيئة، لكن قرارين اثنين سببا له قلقاً عميقاً على وجه الخصوص: استجابة رمسفيلد لعمليات السلب والنهب التي اجتاحت العراق بعد الغزو عبر قوله «هذه أمور تحدث»، وتعامله مع فضيحة الانتهاكات في سجن «أبو غريب».

«لا أستطيع أن أفهم كيف تقف على المنبر في البنتاغون لتقول 'هذه أمور تحدث. هذا ما يفعله الأحرار'. البرابرة وحدهم يفعلون ذلك لا الأحرار».

رد رمسفيلد: «لا أتذكر أنني قلت ذلك».

قال أدلمان: «كفاك!». كانت الجملة أكثر الشواهد التي اقتبست عن رمسفيلد انتشاراً وذيوعاً وشهرة. وأصبحت مدخلاً تمهيدياً ناجحاً لـ«الشواهد المألوفة لبارتليت».

قال أدلمان إن القوات الأمريكية في العراق التي يبلغ عديدها 140 ألفاً «لم تحرك ساكناً» إزاء عمليات السلب والنهب المستمرة. فلماذا لم يأمرها أحد بوقفها؟

قال رمسفيلد إن الجنود الأمريكيين تلقوا الأمر بوقفها.

سأل أدلمان: «هل أعطيت الأمر؟».

صاح رمسفيلد: «لم أعط الأمر. لكن أحد المسؤولين هنا أصدر الأمر».

«من هو؟».

«لا أعرف».

«لم تصدر أنت الأمر. ولا تعرف من أصدر الأمر. فكيف تعلم أن الأمر قد صدر؟».

«لأنني أعرف أن أمراً صدر بهذا الخصوص».

تجادل الاثنان حول هذه النقطة بضع دقائق. فإذا كان الأمر قد صدر، كما سأل أدلمان، «فلماذا لم يطع الأمر مئة وأربعون ألف جندي؟».

قال رمسفيلد: «لا أعرف».

انتقل الجدال إلى شكوى أدلمان الثانية: أبو غريب. أوضح أنه لا يلوم رمسفيلد على الانتهاكات التي حدثت هناك، لكنه يجده مخطئاً بسبب تعامله الهزيل مع الوضع.

قال: «اكتشفت ما حصل في الرابع عشر من كانون الثاني، ولم تحرك ساكناً حتى شهر أيار».

قال رمسفيلد حانقاً: «اللعنة. هذا ليس عدلاً. لم أعرف مدى خطورة الحادث».

قال أدلمان إن الحادث لا بد أن يكون خطراً وجدياً إذا وصل إلى حد إبلاغ الرئيس به. وسأله: «ألم تعلم بوجود صور؟».

رد أنه لم يعلم.

إذن، لم يدرك أحد، كما أضاف أدلمان، بين كانون الثاني وأيار حين افتضحت القصة، حجم المفاجئة الصاعقة الناجمة عنها.

قال رمسفيلد: «لا».

قال أدلمان: «هذا نظام بائس ومحزن فعلاً، حين لا يقف أحد ليقول 'يا للهول! هذه قضية بالغة الأهمية'. إن طريقتك في التعامل معها سيئة إلى حد مروع، وفاقمت المصيبة وزادتها سوءاً».

رد رمسفيلد بالقول إنه لا يستطيع قانونياً، حتى بوصفه وزيراً، فعل أكثر مما فعله؛ لأن عليه أن يضمن إجراء تحقيقات جنائية عسكرية مستقلة عن أي «تأثير من القيادة» أو التدخل من كبار المسؤولين في قمة الهرم.

لم يقتنع أدلمان بحجته. فقد قرأ على الإنترنت توجيهات وزير الدفاع حول التحقيق. كيف يمكن لأي جندي شاب تفسير مثل هذه اللغة التخريبية البتراء؟ قال له: «أحمل شهادة دكتوراه من جورجتاون، تخصص فلسفة، ولم أفهم كلمة مما قلت. عجزت عن توضيح جملة واحدة. وأظن أنك لم تفهم شيئاً أنت أيضاً. وضعت توقيعك، لكن التوجيهات صاغها المحامون. ولم تبين ما يجب فعله وما يجب الامتناع عن فعله. التوجيهات ملغزة وغير مفهومة». مثال آخر على الاختباء خلف المحامين واللغة المبهمة والامتناع عن إعطاء الجنود في الجبهة تعليمات مفهومة وتوجيهات ذات معنى. ونتيجة لذلك كله، فإن رمسفيلد قد خذلهم.

سمع رمسفيلد ما يكفي. قال: «علي أن أذهب».

قال أدلمان: «شكراً لك لأنك دعوتني. كان ذلك لطفاً منك».

رافق رمسفيلد صديقه إلى باب المكتب، وودعه باستعجال. حين ابتعد أدلمان، خطرت في باله رفقتهما التي دامت ثلاثة عقود. تذكر الرحلات التي قاما بها معاً إلى شتى أنحاء العالم، والاجتماعات الأسرية، والعلاقة الحميمة غير العادية، وآلاف الأحاديث التي دارت بينهما. قال في سره: «سوف يكون هذا آخر لقاء بيننا».

عرف أدلمان أن من الأفضل الصفح عن أخطاء الآخرين، ورمسفيلد لم يفعل شيئاً أضر به قط. فقد ظل دوماً صديقاً طيباً وفياً. لكنه لم يستطع الصفح عنه بسبب الفوضى التي أحدثها في البلد. والأسوأ أنه لم يغفر لنفسه عدم البوح بما في صدره قبل الآن، على شاكلة كثيرين من المقربين إلى أصحاب السلطة والنفوذ.

بعد أسبوعين، تلقى أدلمان رسالة بالبريد من مكتب وزير الدفاع، تبلغه أن البنتاغون بصدد إعادة تنظيم مجلس سياسة الدفاع وسوف يسمي قريباً مرشحاً بديلاً عن أدلمان.

واختتمت بالقول: «شكراً على ما أظهرته من تعاون. المخلص: دونالد».

* * *

في الأسبوع ذاته، رن جرس الهاتف داخل مكتب في مبنى أرونديل هاوس، المشيد بالقرميد منذ قرون، والمطل على نهر التيمز في لندن.

كان العقيد إتش. آر. مكماستر قد نقل حديثاً زوجته، كاتي، واثنتين من بناته الثلاث (لأن الثالثة تدرس في إحدى الجامعات الأمريكية) عبر الأطلسي؛ ليشغل مؤقتاً منصب كبير الزملاء الباحثين في المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية، وهو مؤسسة استشارية مرموقة تركز بؤرة اهتمامها على النزاعات السياسية والعسكرية. كانت الأسرة ما تزال تفتح الصناديق المحملة بالأمتعة والأغراض.

رد مكماستر على الهاتف. كان المتحدث عضواً في فريق العاملين في مكتب رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي.

«هل تستطيع الحضور إلى واشنطن غداً؟».

سأل مكماستر: «لماذا؟».

«لا يمكن أن نخبرك الآن».

«حسناً، ألا يمكن الانتظار يومين يا رجل!».

أراد حزم بعض الأغراض، وتوديع كاتي والبنتين مرة أخرى.

في ولاية كنساس، على بعد قرابة خمسة آلاف ميل، تفحص العقيد بيت منصور بريده الإلكتروني، ووجد رسالة من ديفيد بترايوس، يبلغه فيها بضرورة الحضور إلى واشنطن بعد يومين لبدء العمل في مهمة مؤقتة (تستغرق ثلاثة شهور) داخل البنتاغون بطلب من رئيس هيئة أركان الجيش.

اشتهر منصور، مثل بترايوس، بأنه واحد من أفضل المفكرين في الجيش وأبرزهم. فقد تخرج الأول على دفعته من ويست بوينت عام 1982، ونال شهادة الدبلوم والدكتوراه في التاريخ العسكري من جامعة ولاية أوهايو، فضلاً على دبلوم في الدراسات الإستراتيجية من الكلية الحربية التابعة للجيش. ألف كتاباً عن الحرب العالمية الثانية بعنوان «هجوم الجنود الأمريكيين في أوروبا»، دُرِّس في ويست بوينت، وعمل مؤقتاً في هيئة الأركان في البنتاغون على تخطيط العمليات في البوسنة وكوسوفو في أواخر التسعينيات.

يبدو منصور بنظارته أشبه بأستاذ جامعي منه بضابط عسكري قاد اللواء الأول والفرقة المدرعة الأولى في العراق بين عامي 2003-2004.

قبل أقل من شهرين، وصل مع أسرته إلى فورت ليفينوورث (بولاية كنساس) —بطلب من بترايوس— للمساعدة على تأسيس مركز الجيش ومشاة البحرية لمكافحة التمرد.

ما إن وصلت الدعوة حتى حزم حقيبة وسأل ابن عم له في سيلفر سبرينغ (بولاية مريلاند) إن كان يستطيع أن ينام في غرفة الضيوف.

في الوقت ذاته تقريباً، رن جرس الهاتف في منزل العقيد في مشاة البحرية توم غرينوود في فرجينيا. وأبلغه مساعد يعمل في مكتب رئيس هيئة الأركان المشتركة أن الاختيار وقع عليه ليكون عضواً في مجموعة سرية من العقداء (الكولونيلات) الذين سيجرون مراجعة متعمقة لحرب العراق وما يتصل بها من قضايا إستراتيجية. سوف تستمر المهمة حتى عيد الميلاد. وسأله المساعد، بالمناسبة، هل يمكنه أن يأتي إلى البنتاغون غداً؟

ابتهج غرينوود، الضابط المحترف المعروف بالتواضع وتغليب العقل على العاطفة، الذي عمل مساعداً في قيادة مشاة البحرية، وخدم في فريق مجلس الأمن القومي في أثناء غزو العراق. فقد عد المهمة فرصة سانحة لاستخدام سنوات تجربته في واشنطن وخبرته في السياسة لمخاطبة كبار الضباط والمسؤولين بصراحة.

عاد غرينوود حديثاً بعد سنة قضاها في محافظة الأنبار، حيث أشرف على تدريب قوات الأمن العراقية. كان في الخمسين، وابن ضابط وحفيد ضابط، نال إجازة في الاقتصاد من جامعة لي، وهي كلية صغيرة تدرس الآداب الإنسانية في فرجينيا، ثم نال شهادة الدبلوم من جامعة جورجتاون.

يبدو غرينوود، بقامته المعتدلة (177 سم)، وشعره القصير، وعينيه الرقيقتين، في مظهره وأسلوب كلامه، أشبه بأندي غريفيث (لكن دون النبرة المميزة)، وبأحد الجيران الطيبين في الحي، منه بضابط كبير في مشاة البحرية. لكن قاد مختلف التشكيلات العسكرية حتى مستوى لواء، وطاف شتى أرجاء العالم في خدمة العم سام –حيث درب في كامب بيندلتون، وقدم المعونات لإغاثة ضحايا الأعاصير في آسيا، وحارب المتمردين في العراق. وبعد مهمته المؤقتة في العراق أخيراً، عين مديراً لقيادة مشاة البحرية، وكلية أركان الحرب في كوانتيكو. لكن ذلك كله سيتوقف في أثناء مهمته السرية في البنتاغون.

في أثناء سنوات عمل غرينوود مع فريق مجلس الأمن القومي، كان شاهد عيان على ما عَدَّه إخفاقات تثير الذعر في التنسيق والاتصال بصدق ونزاهة بين البيت الأبيض تحت إدارة بوش، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية. أتى أحد الأمثلة المعبرة في خريف عام 2002. كان رمسفيلد قد انتهى لتوه من عرض في غرفة العمليات في البيت الأبيض آخر نسخة من الخطة البالغة السرية لغزو العراق.

كان غرينوود يجلس بمحاذاة أحد الجدران الخلفية، في «المقاعد الرخيصة»، كما دعاها، في حين جلس رمسفيلد ورايس إلى جانبي الرئيس على الطاولة الرئيسة. وبعد العرض، أمسكت رايس بنسخة من الخطة بالغة السرية المسجلة على مجموعة من شرائح (سلايدات) برنامج باوربوينت، التي حملت اسماً سرياً هو «بولو ستيب»، وزعت في أثناء العرض.

قال رمسفيلد: «لن تحتاجي إليها»، ومد يده إلى الجانب الآخر من الطاولة لاختطاف مجموعة الشرائح الحساسة من يد مستشارة شؤون الأمن القومي. إذ لم يكن يرغب في تركها هنا –حتى في البيت الأبيض– وأضاف: «إنها بالغة السرية».

قال الرئيس ساخراً: «حسناً، أعتقد أن المكان آمن هنا. لكن سأسمح لكل منكما بالعمل عليها». استدار وخرج. وغادرت رايس دون أن تحصل على نسخة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، دعا فرانك ميللر، رئيس غرينوود المباشر وكبير مديري سياسة الدفاع في مجلس الأمن القومي، غرينوود إلى مكتبه.

قال ميللر الذي شغل طوال اثنين وعشرين عاماً مناصب حساسة في البنتاغون: «تعال إلى هنا، أريد رؤيتك».

قال غرينوود: «سوف تطلب مني الذهاب إلى البنتاغون والحصول على تلك الشرائح التي رفضوا تركها هنا».

قال ميللر: «تماماً».

لبس غرينوود، الذي اعتاد العمل بالملابس المدنية، بزة مشاة البحرية لتحسين حظه في النجاح. وحمل أيضاً هوية رسمية وحقيبة يد. لم تكن لديه سيارة وسائق، ولذلك ركب مترو الأنفاق. ذهب إلى مكتب صديق له في هيئة الأركان في البنتاغون. كان من المخاطرة مقابلة الذين يعرفهم من المدنيين –من رجال رمسفيلد. فلا بد أن يبلغوه بالأمر.

قال غرينوود: «أريد منك خدمة. أعتقد أن هذا العالم مجنون، أليس كذلك؟».

وافق الصديق، وهو يعلم أن الخدمة تبادلية، وستكون على الأرجح على شكل إيجاز من ميللر أو غرينوود حول ما حدث في اجتماعات مجلس الأمن القومي. في العادة، توزع

نسخة من «موجز النتائج المستخلصة» –وثيقة سرية توجز القرارات أو النتائج الختامية للاجتماعات– بعد الاجتماعات، لكن قد تستغرق أياماً أو أسابيع لتصل إلى البنتاغون. حتى في هذه الحالة ستكون على الأغلب نسخاً منقحة ومختصرة عما حدث، الأمر الذي يجعلها عديمة الأهمية والفائدة. وبرأي غرينوود، كانت المراوغة هذه رمزاً معبراً عن إدارة مصابة بآفة الشك وانعدام الثقة.

بعد عدة شهور، وقبل عيد الميلاد في عام 2002، كان غرينوود في مكتبه يخطط لمغادرته في الساعة الواحدة بعد الظهر للتسوق استعداداً للعطلة التي ملأته بالإثارة.

مرة أخرى استدعاه ميللر وسأله: «ماذا ستفعل بعد الظهر؟».

أصابه شعور مقيت وهو يعلم أن السؤال يعني: «لدي مهمة كريهة لك عليك أن تؤديها».

قال: «يجب أن أتسوق بعض الأشياء الضرورية استعداداً لعيد الميلاد».

«لن تذهب قبل ساعتين؛ لأن علينا الذهاب في رحلة قصيرة».

«هل أحتاج إلى فرشاة أسنان؟».

« لا، لكنك بحاجة إلى خريطة العراق وإلى ملف إيجاز الاستعدادات للغزو. عليك إحضار ذلك كله. ثمة سيارة في انتظارنا عند المدخل بعد خمس عشرة دقيقة». أرسلتهما رايس لإبلاغ وزير الخارجية كولن باول خطةَ الغزو، مثلما كشف ميللر في النهاية.

كان غرينوود مستعداً دوماً لمثل هذه الإيجازات واعتاد تكرارها كل يوم.

جمع المواد الضرورية. كانت تعليمات رايس واضحة: «يجب إبقاء الأمر سرياً؛ لأنني لا أظن أن البنتاغون يقبل أن يذهب الموظفون العاملون معي في مجلس الأمن القومي لإبلاغ وزير الخارجية آخرَ المعلومات المتعلقة بالاستعدادات للحرب».

نقل أحد سائقي البيت الأبيض ميللر وغرينوود إلى وزارة الخارجية على بعد عشرة مباني. في الطابق السابع، كانت القاعات هادئة وخالية، فقد بدأت العطلة فعلاً. وجدا باول جالساً يقرأ صحيفة. وكان معه مساعده وأفضل أصدقائه، ريتشارد آرميتاج، ضابط البحرية السابق الذي خدم في فيتنام، والمعروف بصراحته وجرأته.

فتح غرينوود المخططات البيانية والتوصيفات المتعلقة بخطة الحرب. وهذه شملت هجوماً اختراقياً جنوبياً متعدد الفرق من الكويت باتجاه بغداد. وكانت فرقة المشاة الرابعة ما تزال على متن السفن في البحر المتوسط، على استعداد للهجوم على العراق من الشمال.

قال باول، جنرال الجيش السابق: «حرب على جبهتين ستكون منطقية بالتأكيد. لكن كيف ستقدم الفرقة العون وهي على متن السفن؟».

قال غرينوود: «سيدي، الفكرة هي الحصول على إذن دبلوماسي للهجوم من الشمال، لكن لم نحصل على الإذن بعد».

قال باول وهو يلتفت إلى آرميتاج: «لقد تأخر الوقت على ذلك». كان يشك في منح تركيا الإذن لفرقة مشاة أمريكية كاملة قوامها 20 ألف جندي بالزحف عبر أراضيها. أما ترك الفرقة على متن السفن فهي «فكرة غبية». فمن المهم زج الفرقة الرابعة مشاة في المعركة. وأضاف: «هذه واحدة من عدة مشكلات أجدها في هذه الخطة».

مع تقدم الفرق الأخرى باتجاه بغداد، كما سأل باول، كم عدد القوات الأمريكية التي ستبقى للحفاظ على الاستقرار في المناطق ومنع الهجمات المعاكسة من الخلف؟

قال غرينوود إنه لا يملك معلومات كافية عن هذا الأمر، لكن العدد لن يكون كبيراً؛ لأن الفكرة تقوم على اندفاع سريع وخاطف وصاعق نحو بغداد لإسقاط صدام.

تلك مسافة هائلة، كما قال باول باستهجان، ملاحظاً أنها تتجاوز 300 ميل، مع عدد من المدن الكبيرة على طول الطريق. ثم سأل آرميتاج: «هل تصدق ما تسمعه هنا؟». ومن أجل تخفيف حدة التوتر، بدأ يهزأ من ميللر وغرينوود ويسخر من الخطة التي حملاها إليه.

قال غرينوود وقد شعر بالحرج: «سيدي، أنا لا أتحمل المسؤولية الكاملة عنها».

أوضح باول أنه يعرف تماماً من أين أتت أصلاً: من رمسفيلد والجنرال تومي فرانكس.

شهد غرينوود من قبل معارك تدور بين المسؤولين من ذوي المراتب المتوسطة في إدارة بوش، لكنه رأى الآن الاختلال الوظيفي ذاته على أعلى المستويات. فالحالة الكارثية تقريباً من غياب التعاون وتبادل المعلومات مهيمنة على قمة الهرم، حتى فيما يتعلق بالأمور الأساسية. ولأن بوش وفريقه على شفا شن حرب، فقد تفاقم القلق الذي تملك غرينوود، ولم يشهد على مدى العقود التي قضاها في مشاة البحرية انحداراً إلى مثل هذا الدرك الأسفل.

قال ميللر مطمئناً غرينوود حين ركبا المصعد عائدين من مكتب باول: «لقد سجلت هدفاً!».

«لا أشعر بأنني سجلت هدفاً. فماذا يفعل عقيد مكسور الجناح مثلي يعمل تحت إمرتك في البيت الأبيض في إيجاز خطة الحرب لوزير الخارجية، ولا يملك عنها سوى معلومات من الدرجة الثالثة حصل عليها بشق الأنفس من هنا وهناك؟».

الآن، بعد مضي سنوات، أمل أن يمنحه استدعاؤه للانضمام إلى مجموعة البنتاغون السرية فرصة أخرى للمساعدة على تغيير وجهة حرب شعر بسوء إدارتها منذ البداية.

هامش:

استخلصت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

-16-

وصل الرجال الستة عشر الذين تعطلت حياتهم العادية إلى البنتاغون واحداً إثر الآخر؛ لأداء مهمتهم السرية. تألفت المجموعة من ثلاثة من مشاة البحرية، وأربعة من الجيش، وأربعة من البحرية، وخمسة من القوات الجوية. قضى بعضهم وقتاً طويلاً في العراق أو أفغانستان، ومعظمهم يحمل شهادات عالية. لكن قلة قليلة منهم عرفت الهدف الحقيقي من وراء استدعائهم إلى قاعدة العمليات الموجودة على ضفاف نهر بوتوماك.

تجمعوا في الأسبوع الأخير من أيلول في المركز الوطني للقيادة العسكرية ضمن قسم هيئة الأركان من البنتاغون –المركز العصبي للاستجابة للأزمات العالمية.

جمع الجنرال بيس ألمع العقول العسكرية؛ لدراسة ما آل إليه الوضع في العراق واستقصاء التحديات العالمية الأوسع التي تواجه الولايات المتحدة. كانوا أكفأ المفكرين في المؤسسة العسكرية، وقُدّر لكثير منهم أن يمثلوا الجيل اللاحق من الأدميرالات والجنرالات. والآن، سيكون هذا القبو المغلق بيتهم طوال ما بقي من السنة.

في السابع والعشرين والثامن والعشرين من أيلول، أوجز الجنرال بيس وغيره من القادة، إلى جانب مدير موظفي هيئة الأركان المشتركة، الجنرال والتر «سكيب» شارب، المهمة التي يجب على العقداء (الكولونيلات) التصدي لها على مدى الشهور الثلاثة القادمة.

ستكون مهمة المجموعة بالغة السرية. وإذا سأل أحد ما الذي يفعله العقداء، يجب الالتزام بالغطاء الخارجي المزيف: إجراء أبحاث متعلقة بسلسلة من المناورات الحربية.

طلب بيس من الرجال التفكير في أسلوب إبداعي واسع الأفق. ولديهم الحرية الكاملة في اتباع أفكارهم وآرائهم ومنطقهم، وليسوا بحاجة إلى التوصل إلى إجماع شامل.

وستقابل الأفكار المنشقة والآراء المخالفة بالترحيب، بل ستلقى الدعم والتشجيع، كما قال. يجب أن يحاول الضباط تصور القرارات التي يجب على أمريكا اتخاذها لتكسب «الحرب الطويلة»، الحرب العالمية على الإرهاب.

طرح بيس وغيره من القادة سلسلة من الأسئلة لكي يفكر فيها أفراد المجموعة، منها: كيف يمكن للولايات المتحدة تطبيق عناصر القوة الوطنية كلها بأفضل طريقة؟ هل تتبع البلاد الإستراتيجية الصحيحة للأمن القومي؟ كيف يمكنها التفوق على أعدائها بالتفكير وتهزمهم؟ كيف يمكننا معالجة المشكلة الإسرائيلية-الفلسطينية؟ كيف نحسن صورة أمريكا في شتى أنحاء العالم؟

طلب منهم اتخاذ منظور نقدي للطريقة التي شنت عبرها أمريكا الحرب العالمية على الإرهاب، وتحليل دور القيادة المركزية، ودراسة مسؤوليات هيئة الأركان المشتركة، والبحث في تاريخ حركات التمرد، واقتراح الخبراء المتمرسين والمفكرين النقديين، وتحدي الافتراضات كلها، ومساعدة صناع القرار على فهم الصراع الذي نخوضه، والتركيز على أهم المشكلات وأخطرها: العراق.

سوف ترفع المجموعة تقاريرها إلى بيس مباشرة في أصيل كل يوم جمعة، بين الساعة 2:30-4:30.

هيمن جو من الإثارة الملموسة على الضباط. وشعر غرينوود بازدياد إفراز غدة الأدرينالين في دمه حين فكر في المهمة التي تنتظره، وأحس بثقله وأهميته. فمن النادر أن تتاح لمثل هذه المجموعة الصغيرة من الضباط الفرصة للتأثير في السياسة على أعلى المستويات، وربما تحسين وضع أمريكا —وحال العالم بأسره.

سوف يقابل أفراد المجموعة رئيس هيئة الأركان المشتركة كل أسبوع وقادتها. وسينتظر وزير الدفاع نصائحهم ومشورتهم الحكيمة، كما فكر، وربما الرئيس نفسه أيضاً.

في الأسابيع الأولى، انهمك الضباط في مهمتهم مثل الجنود الذين يحضرون الخنادق في الخطوط الأمامية —مترعين بالدوافع المحفزة، والعزيمة، والتصميم. ثمة إحساس سيطر على المجموعة، نوع من المثالية، وسوف يجدون حلاً لمشكلة العراق.

بدؤوا يسمون نفسهم بطريقة شبه هازلة «مجلس الكولونيلات».

* * *

في الثلاثين من أيلول، عرض الجنرال كيسي رأيه عن طبيعة العدو أمام مجلس الأمن القومي في أثناء مؤتمر عبر الفيديو الآمن [1]. «أصبح العدو –والوضع الأمني–أكثر تعقيداً من السابق»، كما قال. ثم حدد أربع مجموعات يجب مواجهتها: المتطرفون السنة، المتطرفون الشيعة، المقاومون الذين يشنون هجمات على قوات التحالف، الإيرانيون الذين يزعزعون الاستقرار سراً.

قال هادلي لبوش: «سوف نقوم بذلك كله 'بالتقسيط'*. سوف نحشد –بالتقسيط– دعم الأمريكيين الاستمرارَ في هذه الحرب. سوف نضع إستراتيجية جديدة. سوف نظهر أن الإستراتيجية الجديدة تحقق النجاح. وإذا تمكنا من إظهار بعض النجاح في مدة ثلاثة أشهر، نستطيع على الأرجح حشد بعض التأييد والدعم مدة ثلاثة أشهر أخرى».

قال الرئيس إن الفكرة تبدو صائبة.

تابع هادلي: «سوف نفعل ذلك كله عبر خطة بالتقسيط». إذ لا يتوافر وقت كاف، ولم يعد من المقبول اتباع الجدول الزمني المحدد بالسنوات الذي ما يزال الجنرال كيسي يستخدمه. وعرف الرجلان أنهما يتعرضان للضغوط والهجمات من اليسار واليمين: الديمقراطيون يقولون: «الإستراتيجية ليست ناجحة. يجب الانسحاب». والجمهوريون يقولون: «الإستراتيجية ليست ناجحة. يجب إما إصلاحها أو الانسحاب».

* استخدم تعبير /by the drink/ (حرفياً: بالكأس)، الذي استخدم أصلاً في الحانات التي تقدم المشروبات الكحولية بالكأس (لا بالزجاجة)، ثم أصبح يعني «بالتقسيط» (لا دفعة واحدة)، أو «بالقطعة» (لا بالجملة). والتعبير مستغرب هنا لأن بوش كان مدمناً على الكحول. (م).

عرف الرجلان أيضاً أن الخطر المباشر يأتي من حزبهما. إذ أبلغ ليندسي غراهام، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية كارولينا الجنوبية، المراسلين: «نحن على شفير الفوضى، والخطة الراهنة لا تعمل بنجاح» [2]. أما جورج ألين، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية فيرجينيا فقال: «لا يمكننا الاستمرار في فعل الأشياء ذاتها وتوقع نتائج مختلفة. علينا تعديل عملياتنا، وأساليبنا التكتيكية» [3]. ومن بين أشهر المنتقدين وأبرزهم، كاي بيلي هتشيسون (تكساس)، وتشوك هيغل (نبراسكا)، ولينكولن تشافي (رود أيلند)، وأولمبيا سنو (مين) [4]. لكنهم لم يكونوا الجمهوريين الوحيدين الذين تراجع ولاؤهم وتقلص تأييدهم.

أدرك هادلي والرئيس أن عليهم إقناع زملائهم بالتقسيط أيضاً.

في يوم الأحد الأول من تشرين الأول، أرسل هادلي نائبه، جيه. دي. كراوتش، للقاء نقيب البحرية السابق وليام جيه. لوتي، كبير مديري شؤون الدفاع في مجلس الأمن القومي.

سأله كراوتش: «هل يمكنك وضع مفهوم، مفهوم عملياتي —خطة— عن وجهة جديدة في العراق؟ يريد ستيف منك القيام بذلك».

اشتهر لوتي، الذي عمل سابقاً مع تشيني ورئيس مجلس النواب السابق نيوت غينغريتش، بين موظفي مجلس الأمن القومي بآرائه المتشددة. فقد أيد حرب العراق تأييداً قوياً. وأراد اقتناص الفرصة للمساعدة في تغيير دفة الأمور.

عرف هادلي أن مراجعات أخرى تجري على قدم وساق داخل الحكومة —في وزارة الخارجية وفي البنتاغون— فضلاً على مجموعة دراسة الوضع في العراق (لجنة بيكر-هاملتون). لكنه لم يكن واثقاً أن أياً منها سيوصي بخيار زيادة عدد القوات، وأراد تيقن وضعه على الطاولة. وتوصل إلى نتيجة مفادها أنه السبيل الذي يجب اتباعه، وعرف أن الرئيس يريد عدّه خياراً. وتمثلت مهمة لوتي جوهرياً بسياسة ضمان الزيادة وفرصة تقويم جدوى إضافة مزيد من القوات.

قال كراوتش للوتي: «أعطني الخطة عندما تنتهي من إعدادها». وأضاف إنه يجب أن يعمل بطريقة سريعة وسرية، ويجب منع أي تسريبات. فانتخابات مجلس النواب ومجلس الشيوخ على الأبواب ولا تبعد أكثر من خمسة أسابيع.

في أوائل تشرين الأول، بدأ الرئيس حملة لحشد التأييد للجمهوريين في شتى أنحاء البلاد. في رينو (بولاية نيفادا) قال في الثاني من تشرين الأول: «إذا أصغيتم بانتباه إلى بعض زعماء الحزب الديمقراطي، فستجدون أن أفضل طريقة برأيهم لحماية الشعب الأمريكي هي الانتظار إلى أن نتعرض للهجوم مرة أخرى». لكنه أضاف: «ما ترونه هو بداية انتصار على إيديولوجية المتطرفين» [5]. في أريزونا، قال في الرابع من تشرين الأول، إن طبيعة الحرب قد تغيرت منذ الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية. «هذا نوع مختلف من الحرب. حرب تعتمد على قدرتنا على العثور على أفراد وإحضارهم إلى العدالة قبل أن يهاجموا مجدداً» [6]. إنها ذهنية «حاصرهم واقتلهم» التي شعر الجنرال كيسي أنها تعبر عن سوء فهم الرئيس الحربَ أساساً.

تفاقم القلق المهيمن على كوندي رايس وازدادت مخاوفها، إذ لم تقم بزيارة إلى العراق منذ خمسة شهور. قالت للرئيس وهادلي: «سوف أذهب. أعتقد أنني بحاجة إلى معاينة الوضع على الأرض مباشرة».

وصلت رايس إلى بغداد في زيارة غير معلنة مساء الثلاثاء الخامس من تشرين الأول. وبعد لقاء وجيز مع المالكي، ومؤتمر صحفي استمر عشرين دقيقة، التقت بالزعماء السنة في غرفة جلوس السفير خليل زاد الرحبة المفتوحة قرابة الساعة الثامنة مساء. جلس العراقيون على المقاعد والأرائك في الغرفة على شكل مربع محكم حول الوزيرة. كما حضر خليل زاد وساترفيلد.

بدأت رايس بالقول: «لماذا لا تبلغونني رأيكم عن سير الأمور هنا؟».

قال عدنان الدليمي، الزعيم الطاعن في السن لأكبر كتلة سنية في البرلمان، إن العنف الطائفي أصاب المجتمع العراقي بالشلل، خصوصاً في بغداد. وأضاف: «بدأ العام الدراسي، لكن لا يستطيع أحد –لا المدرسون ولا الطلاب– الذهاب إلى المدارس». التجارة على حافة الانهيار؛ لأن العراقيين يخافون من مغادرة منازلهم.

وأصر هو وزملاؤه السنة على أنهم ضحايا، ولا يفعل أحد شيئاً لحمايتهم. وعرض الزعماء صوراً كبيرة الحجم، بعضها ملونة، تظهر ضحايا التعذيب من السنة –وجثثاً مقطوعة الرأس وأخرى حفرت ثقوب في رؤوسها وأيديها. كانت الصور مرعبة. وألحوا على أن المليشيات الشيعية المرتبطة بأشخاص على أعلى المستويات في الحكومة هي المسؤولة عن عمليات القتل والتعذيب.

عرفت رايس أن هذه الصور تأكدت بالتقارير الاستخبارية الحديثة التي أظهرت أن مئة وخمسين جثة تكتشف أحياناً في بغداد كل صباح.

كانت رسالة السنة واضحة وبسيطة: نحن بحاجة إلى حماية. وقدم الزعماء تفاصيل وأسماء من وزارة الداخلية التي تدير قوات الشرطة. ومعظمها يشمل جرائم الإهمال المتعمد، وعدم المبالاة، لكن هناك أعمال بربرية واضحة لا لبس فيها. على الجانب السياسي، زعموا أن مقتدى الصدر يحاول فرض قرار على الأجندة العراقية يحدد جدولاً زمنياً لانسحاب الولايات المتحدة. واشتكوا من أن الشيعة لم يوفوا بالوعود التي أطلقت إبان تأليف الحكومة، وأنهم يعدون نظراءهم السنة أعداء، لا شركاء. والسنة الذين مُنحوا أدواراً في الحكومة يتعرضون عادة للخداع والتحايل من جانب المسؤولين في مكتب رئيس الوزراء. وبرأيهم، فإن الشيعة يتحملون مسؤولية المشكلات السياسية والأمنية كلها.

استنتجت رايس أن الوضع يستحق الدرجة التاسعة على مقياس متدرج من 1-10 (حيث الدرجة العاشرة تشير إلى زلزال مدمر).

وبعد أن قضت ساعة مع الزعماء السنة هؤلاء، التقت بالزعماء الشيعة، وأبرزهم عبد العزيز الحكيم.

قال الحكيم: «نحن نحاول استيعاب السنة بالطريقة الصحيحة. ربما كان بمقدورنا القول إنهم قتلوا آباءنا، ودمروا أسرنا وقرانا، واستخدموا الغازات السامة ضد إخواننا، ولذلك سنعاملهم بالمثل. هناك من يقول منا إن هذا بالضبط ما يجب علينا عمله. لكننا لم نفعل ذلك. لقد حاولنا إشراكهم في الحكم، حاولنا العمل معهم، لكنهم لا يريدون العمل معنا». وأضاف وأمارات الإحباط بادية عليه: «ألا ترون أنهم لا يريدون أن يكونوا جزءاً من العملية؟». يريدون كل شيء مثلما كانت الحال في أيام صدام. يريدون العودة إلى السلطة مرة أخرى، كما قال.

بدت الرواية الشيعية صورة مرآوية عن الرواية السنية؛ فكل طرف يعد الآخر عدواً.

كانت رايس تصغي بانتباه طوال أكثر من ساعة، ثم قالت أخيراً إنها تريد منهم فهم كيف ينظر الأمريكيون إلى العراق. «يفهم الأمريكيون أن هناك من فقدوا سلطتهم، مثل الصداميين الذي يحاربوننا. ويفهمون القاعدة» بسبب وحشية هجمات الحادي عشر من أيلول. «ويفهمون أن بعضهم يظن أننا قوات احتلال، ويقاتلوننا. لكنهم لا يفهمون كيف يقتل العراقيون العراقيين. ولن يقفوا معكم إذا كنتم تطلبون منا التورط في صراعات عمرها مئات السنين. وما سيحدث أننا سنرحل؛ لأننا لن نتمكن من البقاء، وفي مدة ستة أشهر سوف تتأرجح أجسادكم المتدلية من أعمدة الكهرباء».

أدركت رايس فيما بعد أن عبارة «تأرجح الأجساد المتدلية من أعمدة الكهرباء» ربما كانت فظة قليلاً، لكنها أثارت انتباههم. وسألت مترجمها عن مدى تأثيرها فيهم وكيف تلقوها.

أجاب: «كان تأثيرها ممتازاً».

في الساعة العاشرة والربع تقريباً، اجتمعت رايس، المنهكة من الرحلة وسلسلة اللقاءات المحبطة، مع المالكي مرة أخرى، ولم يحضر اللقاء سوى المترجمين.

قالت له إن النجاح مستحيل مهما فعلنا إذا لم يقرر العراقيون التوصل إلى نوع من المصالحة فيما بينهم. وأضافت: «لا أقصد بالمصالحة أن يحب أحدكم الآخر». فبعد سنوات من الحرب الداخلية المريرة، فهمت رايس التوترات بينهم، وسمعت قصصاً مروعة من الجانبين كليهما. «لدي سبب منطقي للاعتقاد بصدق هذه القصص. وحين تريد قوات الجيش أو الشرطة الدفاع عن أحد الأحياء، فإنها تُوقف أو تُعاقب إذا طاردت الشيعة الذين يقتلون السنة. الأبرياء هم أبرياء. وأريد أن أعرف هل تؤمن بذلك».

رد بالإيجاب.

قالت: «هذه هي مشكلتنا. نحن لا نرى ذلك». كلماتك لا تطابق أفعالك. والولايات المتحدة لن تبقي جنودها في العراق إذا لم تعثر على حل. وكررت التحذير الذي أطلقته: «في مدة ستة أشهر سوف تتأرجح أجسادكم المتدلية من أعمدة الكهرباء».

غادرت رايس بغداد صباح اليوم اللاحق، مدركة أنها أخطأت الحساب. فقد اعتقدت إمكانية عقد صفقة سياسية من نوع ما، صفقة تجمع الكرد والشيعة والسنة، حيث يتبادلون الاعتراف بحق الآخر في الوجود، ويتوصلون إلى تسوية حول اقتسام السلطة، والنفط، والمال. لكن العنف الطائفي يجتاح كل شيء -خصوصاً أن حكومة المالكي تبيح، بل تشجع، أعمال القتل. إن العنف الطائفي يمزق البلد إرباً إرباً.

في واشنطن، هرعت رايس إلى البيت الأبيض، والتقت بالرئيس في المكتب البيضاوي. وكان تشيني وهادلي من الحاضرين.

قالت للرئيس: «ما نفعله لا يحقق أي نجاح». والاستجابة للوضع المتدهور ليست كافية منذ التفجير في سامراء، كما أضافت. ومثلما فعلت في آب، أثارت أمام بوش صورة لمجتمع عراقي «يستسلم»، ويقف على شفير التمزق ويندفع إلى نقطة الانهيار.

وروت للرئيس ما دار بينها وبين الزعماء العراقيين من محادثات، وأبلغته أن المشكلة الرئيسة ليست في المالكي، بل هي أكبر. فالمشكلات تتعلق بالنظام كله على ما يبدو. على سبيل المثال، لا يثق أحد بالشرطة.

قالت مستذكرة طفولتها في الستينيات المضطربة في برمنغهام بولاية ألاباما: «لدينا هنا مشكلة تشبه ما حدث أيام يوجين كونور». ابتكر كونور، المفوض سيئ الصيت للأمن العام، قانوناً خاصاً به. فقد كان عضواً في منظمة كو كلوكس كلان، ومؤيداً مسعوراً الفصلَ العنصري، ورجل قانون تجاهل القانون وحارب الدمج العنصري بخراطيم المياه، والكلاب البوليسية، والتهديد. «إذا جاءت الشرطة إلى حيّنا، فهي لا تأتي لحمايتنا»، كما قالت، مضيفة إن العراقيين يعانون مشكلة مشابهة. «وقبل أن يجدوا طريقة لجعل الناس يعتقدون أن قوات الشرطة أو الجيش أو غيرها هي لحماية السكان، فلن يحققوا أي نجاح».

سأل بوش: «تعتقدين فعلاً أن الأمور وصلت إلى هذه النقطة؟».

أجابت: «أجل». على الزعماء العراقيين إثبات الكثير لشعبهم. على المالكي إثبات أنه لن يقبل العنف المنظم أو يشارك فيه، أو يتجاهله. «وبصراحة: يجب عليهم إثبات الكثير لنا».

وقالت إنها شعرت بالقلق؛ لأن الجهد الذي تبذله الولايات المتحدة لم يعد يتصل بالواقع الحقيقي على الأرض. كان بوش الذي اعتاد الأخذ والرد يصغي معظم الوقت.

سأل أخيراً: «كيف عرفت ذلك كله؟ كيف عرفت أنهم لا يتخذون خيارات صعبة؟ ما الذي رأيته؟».

قالت إن هناك بعض المقاييس المعينة التي يجب مراقبتها، وبعض المؤشرات التي توضح الأمور بطريقة أو بأخرى. والأهم، أن على الحكومة التي يقودها الشيعة ألا تتصرف بطريقة طائفية، ويجب أن تواجه الميليشيات الشيعية.

لا يوجد لدى المواطن العراقي العادي من يثق به، لا الحكومة ولا أمريكا، كما قالت رايس. نحن نخسر تأييد السكان. الحياة ليست عادية أبداً في العراق، «ولا تقترب من الحالة العادية، ولن تصبح عادية إلا إذا تحسن الوضع الأمني».

في نهاية المطاف، عادوا إلى السؤالين الواضحين: ما الذي يمكن أن نفعله حيال ذلك كله؟ وكيف نصلح الوضع؟

قالت رايس: «سيادة الرئيس، لا يمكنني تقديم أي إجابات سهلة. أريد أن أفكر في الموضوع. أريد أن أفكر فيما نستطيع فعله إزاء المسألة كلها».

لم تمض سوى ساعات منذ أن نزلت من الطائرة القادمة من العراق. وكانت بحاجة إلى وقت للتفكير وتأمل ما رأته، والأهم تصور الخطوة اللاحقة.

تحدثت رايس وهادلي عن الوجهة التي يجب اتخاذها. قالت رايس: «من الواضح أننا سنحتاج إلى طريقة ما للتفكير في المشكلة». وربما حان الوقت لجمع المعنيين معاً ودراسة الوضع بطريقة رسمية وموضوعية ونزيهة.

لكن أقلقتهما الانتخابات القادمة، وأرادا تجنب جلب الانتباه في البيئة السياسية المشحونة.

وهكذا ظلت المراجعات بعيدة عن شاشة الرادار.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- وثيقة سرية بتاريخ 2006/9/03، نزعت عنها السرية عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

2- انظر:

Jim Davenport, «McCain Says Mistakes Made in Iraq War,» Associated Press, October 25, 2006.

3- انظر:

Tom Raum, «Republicans Worry They' ll Pay Heavy Political Price for War,» associated Press October 23, 2006.

4- Kay Bailey Hutchison: Ibid.

5- In Reno, Nevada, on October 2: Presidential Documents, October 2, 2006, pp. 1713-1718 (Vol. 40, No. 40), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no40.html.

In Arizona, on October 4: Presidential Documents, October 4, 2006, pp. 1734- -6 1740 (Vol. 40, No. 40), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no40.html.

-17-

في أصيل يوم الجمعة السادس من تشرين الأول، توجه أعضاء «مجلس الكولونيلات» إلى جلستهم الكاملة الأولى مع رؤساء الأركان. نزل الضباط إلى غرفة مؤتمرات آمنة معروفة باسم الدبابة، وهو اسم أطلق في الحرب العالمية الثانية على قبو في مبنى خدمات الصحة العمومية (في جادة كونستيتيوشن) اعتاد القادة الاجتماع فيه. وبدت الغرفة بدرجات مدخلها وبابها المقنطر أشبه بالدبابة.

أما رسمياً، فالغرفة معروفة باسم قاعة مؤتمرات هيئة الأركان المشتركة، أو «الغرفة الذهبية»، حيث تغطي أرضيتها سجادة ذهبية، وتتدلى على جدرانها ستائر ذهبية سميكة وألواح خشبية دكناء، لتغدو أشبه بناد رجالي رث الأثاث. الدبابة مركز اجتماع سري للعسكر، مكان محرم تجري فيه المجادلات والمناقشات السرية، وما يقال داخله يجب ألا يتسرب إلى خارجه كما هو مفترض.

جلس الجنرال بيس وغيره من القادة في مقاعد جلدية داكنة حول طاولة مؤتمرات خشبية طويلة. في حين جلس اثنا عشر عقيداً وأربعة من نقباء البحرية بمحاذاة الجدران.

تعد المشاركة بالنسبة إلى أي ضابط في جلسة تعقد في الدبابة تجربة مثيرة تبعث على السرور والغرور. لكن العقيد مكماستر وجدها غريبة وسوريالية. فكتابه «التقصير في أداء الواجب» (1996)، انتقد بعنف قادة حقبة حرب فيتنام الذين اجتمعوا في الغرفة ذاتها ونعتهم بأنهم «خمسة رجال صامتون»، اتسموا بالطاعة والوداعة، وفشلوا فشلاً ذريعاً في الارتقاء إلى مستوى قوة الرئيس جونسون ووزير الدفاع مكنمارا وصدقهما.

سوف تركز جلسة اليوم على ما سمي بالحرب الطويلة على الإرهاب، هل ينشر الهدف الديمقراطية أم يزعزع استقرار بعض البلدان أو المناطق مثل الشرق الأوسط؟ أول عنوان طرحه الضباط هو: «القضية 1: الاستقرار مقابل الدمقرطة»، وكان انتقاداً غير مباشر لبوش، أكثر دعاة نشر الديمقراطية في العالم صراحة وجرأة.

ابتلع القادة الطعم.

قال الجنرال مايكل موسلي، رئيس هيئة أركان القوى الجوية، الذي انضم إلى سلاح الجو عام 1971 في ذروة حرب فيتنام: «يصاب بعضهم بالهياج المسعور؛ لأننا ندفع الناس إلى ابتلاع جرعات من ديمقراطية جيفرسون».

قال بيس إنه أبلغ الرئيس أن «الديمقراطية ليست تعبيراً أو مفهوماً مؤثراً مثل الحكومة التمثيلية».

سأل الأدميرال مايكل مولين، قائد العمليات البحرية، الذي تخرج من الأكاديمية البحرية في أنابوليس عام 1968، بأسلوب حذر: «إلى أي مدى نستطيع تجاوز الحكمة العسكرية في هذه النقطة؟».

«لا يمكننا تجنب المسألة»، كما قال الجنرال بيتر شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش، ملاحظاً أن عليهم تقصي عناصر القوة الوطنية كلها –لا القوة العسكرية وحدها، بل الدبلوماسية، والتأثير الاقتصادي والمالي أيضاً.

قال بيس: «يسرني أن أبلغ الرئيس بأي عامل يؤثر سلباً في جنودنا على الأرض».

وانتقل النقاش بعد ذلك بحسب جدول الأعمال إلى موضوع «مواطن الضعف الإستراتيجية» التي تعانيها أمريكا.

قال الجنرال شوميكر: «يجب أن نعاين كيف يقلص اشتغالنا الراهن بالمتمردين والإرهابيين في أفغانستان والعراق قدرتنا على ردع الأعداء الآخرين المحتملين».

قال الجنرال موسلي متشكياً: «لقد نسينا كيف نستخدم العوامل الأخرى للقوة الوطنية، باستثناء العوامل العسكرية. لدينا على الأقل ذراع مقيدة خلف ظهرنا. لهذا السبب نتراجع... وتتفكك قوتنا العسكرية».

رد الجنرال بيس ممتحناً الحاضرين: «لم نستغل مواردنا إلى أقصى حد، ولم يحشد سوى جزء من الأمة... جنرال موسلي، ماذا تعني بأننا نتفكك؟».

أجاب موسلي: «وفقاً لمعايير القياس كلها، فقدنا موقعنا في العالم. سياسياً، سمعتنا، وموقعنا، ومكانتنا هي الثروة الوطنية التي ننفقها على الحرب... على الأصعدة كلها... نحن في حالة هبوط حاد. حضرت مؤتمراً لحلف النيتو عُقد حديثاً وضع المشاركون فيه قدرتنا على مواصلة القتال والوفاء بالتزاماتنا العالمية موضع المساءلة والتشكيك». وأضاف محاولاً تلطيف الجو: «على الجانب المشرق، أعتقد أن البولنديين يقفون معنا».

صدرت عن الحاضرين ضحكات مكتومة.

أضاف الجنرال شوميكر: «قواتنا البرية وصلت إلى نقطة الانهيار من فرط الإجهاد».

عاد الجنرال بيس إلى إحدى الكليشيهات العسكرية المبتذلة: «يجب أن نكون مؤسسة تعلم». وقال إننا بحاجة إلى التكيف، وسوف يعدل الرأي العام الأمريكي موقفه. «نحن بحاجة إلى مساعدة عامة الأمريكيين على تجاوز النقطة الحرجة. وهم في انتظارنا لنفعل ذلك».

شعر بعض الضباط بالجزع من المناقشة التي لا هدف لها. ها هم كبار مستشاري الرئيس العسكريين، في خضم زمن الحرب، يهيمون على غير هدى. واتضح أن القادة في حالة من الغضب والانقطاع إلى حد مدهش وصادم عن عملية صنع القرار السياسي. والأسوأ أنهم لا يملكون خطة ولا صوتاً موحداً. وبدت المناقشة تجاذباً لأطراف الحديث في حانة ليلية.

التفت العقيد غرينوود إلى العقيد مكماستر في أثناء الجلسة، وسأله: «ألا يجعلك هذا كله تعتقد أن أحداً منهم لم يقرأ كتابك؟»

قال مكماستر: «أجل».

في الساعة 10:45 من صباح العاشر من تشرين الأول، أرسل رمسفيلد مذكرة سرية إلى بيس وإيريك إيدلمان، معاونه السياسي، موضوعها «بنية هيكلية جديدة للعراق».

كتب في المذكرة: « أبلغتك قبل شهرين أنني أريد تغيير البنية الهيكلية للعراق». ولم يكن في اقتراحه تغيير جذري: «وضع خطة عمومية (نقاط علام) لنقل مسؤولية الحكم والأمن إلى العراقيين، مما يسمح بتخفيض عدد قوات التحالف». وقال إن الرئيس وافق على اقتراحه. وزعم أن الخطة مجرد «تنبؤ»، وليست «جدولاً زمنياً صارماً» يمكن تعديله أو تحديده بعناية بالقول: «لا نعرف هل بمقدور العراقيين تحقيق الأهداف المطلوبة؟». وكانت أكثر قليلاً من خطوة قصيرة في العلاقات العامة.

لكن رايس رأت في الاقتراح شيئاً آخر. فهو يعبر برأيها عن طريقة رمسفيلد في تسريع عملية تخفيض القوات ونقل المسؤولية والملامة إلى وزارة الخارجية.

أبلغت زملاءها في السر: «سئمت من سماع هذا المنطق من وزارة الدفاع. سئمت من سماع الزعم أن وزارة الخارجية ليست في خضم الصراع، وأن المدنيين ليسوا في الصراع. سئمت من ذلك كله. فهذا خطأ».

في هذه الأثناء، أمضى بيل لوتي مع موظفي مجلس الأمن القومي أحد عشر يوماً من العمل المكثف المحموم على المفهوم العملياتي الجديد للعراق الذي أراده هادلي. قبل ثلاثة شهور، زار العراق مع رمسفيلد ولاحظ ما ما دعاه «حريقاً يستعر تحت الأرض». فقد شنت الميليشيات الشيعية حملتها الانتقامية الدموية، وغيرت طبيعة الحرب. وربما كانت إستراتيجية أبي زيد-كيسي القائمة على نقل إدارة الحرب إلى العراقيين ستنجح لو تحلى الأمريكيون بالصبر. لكن نفد صبرهم، كما استنتج لوتي.

في الحادي عشر من تشرين الأول، حمل لوتي مفهومه العملياتي الجديد إلى نائب هادلي، جيه. دي. كراوتش، وتمثل اقتراحه بالقيام بخطوة ضخمة. فالشرائح (السلايدات) السرية العشر التي حملت عنوان «تغيير الدينامية في العراق» أوصت «بزيادة» في عدد القوات في العراق «لتأمين المناطق والتشبث بها» و«توفير حالة من الأمن المعزز في بغداد وغيرها من مناطق

التمرد الساخنة» مثل الأنبار وديالى. وطالب لوتي بقدر أكبر من الاعتماد على الجيش العراقي بدلاً من قوات الشرطة. واستحث في إحدى الشرائح مضاعفة حجم الجيش العراقي تقريباً، من عشر إلى ثماني عشرة فرقة. وأن تشدد العمليات العسكرية على القضاء على الميليشيات الشيعية مثلها مثل القاعدة، مع بذل جهد جديد لوقف التدخل الإيراني في الشأن العراقي. ومن أجل إرضاء العسكر، أوصى لوتي أيضاً بزيادة الحجم الإجمالي للجيش ومشاة البحرية.

قبل كراوتش أفكار لوتي وأعطى نسخة إلى هادلي.

وهكذا، بينما كان وزير الدفاع يطالب في منتصف تشرين الأول بخطة تسرع خروج أمريكا من العراق، كان أحد موظفي مجلس الأمن القومي يقترح زيادة في القوات تعيد التزام الولايات المتحدة بالحرب.

مثلت ورقة لوتي مشكلتين اثنتين لهادلي: أولاً، لم يبلغ أوسوليفان أنه طلبها؛ ثانياً، عرف أن موظفي البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي لا يفترض بهم تولي وضع إستراتيجيات للتخطيط العسكري. ولذلك، قرر هادلي إخفاءها جزئياً، ودعا الجنرال بيس.

قال وهو يسلمه نسخة من ورقة لوتي: «هذه أفكار من موظفينا. أنتم المخططون العسكريون. أنتم تديرون عمليتكم» – مجلس الكولونيلات- «كل ما أطلبه أخذُها بالحسبان في عمليتكم».

قال بيس: «شكراً جزيلاً».

أما النتيجة، كما أمل هادلي، فهي أن تبدو زيادة القوات فكرة العسكر. ومع أنه شعر أن الزيادة هي أفضل خيار، إلا أنه اعتقد أن من المهم ألا يصبح مطالباً بالزيادة في وقت مبكر وبطريقة علنية.

في الساعة الحادية عشرة من صباح الحادي عشر من تشرين الأول، في اليوم ذاته الذي حمل فيه لوتي خطة زيادة عدد القوات إلى نائب هادلي كراوتش، عقد الرئيس مؤتمراً صحفياً في حديقة الورود. وكان قد التقى لتوه مع الجنرال كيسي في واشنطن.

اعترف بوش قائلاً: «لا شك في أن الوضع صعب في العراق». فالأمريكيون يشاهدون «عنفاً تعجز الكلمات عن وصفه» على شاشات التلفاز. وقال الرئيس إن الهجمات والخسائر ترتفع؛ لأن الولايات المتحدة والقوات العراقية «تواجهان العدو» وتحاربان الميليشيات غير الشرعية. «والسبب الذي جعلني أثير هذه المسألة هو أننا نتحرك. نحن نتخذ إجراءات عملية».

سأل ستيف هولاند من وكالة رويترز: «يقول السيناتو وارنر إن العرق ينجرف وينحرف عن المسار، ويؤكد جيمس بيكر أن من الضروري ربما إحداث تغيير في الإستراتيجية. هل أنت على استعداد للاعتراف أن التغيير ربما يكون ضرورياً؟».

قال الرئيس متهرباً من السؤال: «ستيف، نحن نغير باستمرار الأساليب التكتيكية لتحقيق الهدف الإستراتيجي. وهدفنا الإستراتيجي هو جعل العراق بلداً قادراً على الدفاع عن نفسه، والحفاظ على نفسه، وحكم نفسه بنفسه. الهدف الإستراتيجي هو مساعدة الديمقراطية الفتية على النجاح في عالم يحاول فيه المتطرفون تهديد الناس العقلانيين من أجل إسقاط الحكومات المعتدلة وإقامة حكم الخلافة وتوسيعه».

وأضاف: «وأنا أقدّر أن يقوم السيناتور وارنر برحلة إلى هناك ويأخذ نظرة عن قرب. أريدك أن تلاحظ أن ما قاله فعلاً هو: إذا لم تكن الخطة تعمل الآن بنجاح –الخطة المتبعة الآن لا تعمل بنجاح– فإن أمريكا بحاجة إلى تعديلها. أتفق كلياً مع هذا الرأي. هذا ما قلته للجنرال كيسي. قلت: أيها الجنرال، خطة تأمين بغداد في مرحلتها التنفيذية المبكرة. أؤيدك تأييدا قوياً، لكن إذا أتيت إلى هذا المكتب وقلت إن علينا فعل شيء مختلف، فسوف أدعمك. إذا احتجت إلى مزيد من الجنود، فسأدعمك. إذا أردت وضع إستراتيجية جديدة، فنحن معك؛ لأنني أثق بالجنرال كيسي».

لكن خلف الكواليس، كانت مراجعات الإستراتيجية العراقية تكتسب زخماً، ولم يكن كيسي مشاركاً فيها.

في ذلك اليوم نفسه، عقدت رايس اجتماعاً سرياً عبر الفيديو الآمن مع ساترفيلد، وزيليكو، وجيفري، وخليل زاد في بغداد. ذكر ساترفيلد أن عدد القتلى قد ارتفع منذ أن

نفذت خطة تأمين بغداد. وسأل: «كيف تعد هذه الخطة ناجحة حين يرتفع عدد القتلى؟». لا ريب في أنها إشارة تدل على الفشل.

سألت رايس بأسلوب منمق: «ما الذي يمكننا استقراؤه من ذلك عن خطة تأمين بغداد؟».

قال خليل زاد إن المسؤولين العسكريين يقولون إنهم لا يملكون قوات كافية لأداء المهمة.

سألت رايس مشيرة إلى جيش المهدي بزعامة مقتدى الصدر: «هل يستطيع الجيش العراقي ضرب جيش المهدي؟».

قال جيفري في سره: مستحيل.

قالت رايس: «الخطة لا تحقق أي نجاح يا زال [خليل زاد]. يبدو أن بغداد قد انزلقت إلى حكم الغوغاء».

طلب بيس لقاءً على انفراد مع رايس. وفي الساعة 2:45 من عصر الثاني عشر من تشرين الأول، وصل إلى الطابق السابع من مبنى وزارة الخارجية، وأدخل إلى مكتبها الداخلي الصغير، حيث يوجد مقعد في أحد الأركان، وأريكة، وعدد من الكراسي المصطفة حول طاولة قهوة صغيرة خفيضة.

جمعت الاثنين علاقة ودية تعود إلى الأيام المبكرة من عهد إدارة بوش، لكنهما نادراً ما التقيا وحدهما.

بدا بيس، المعروف بهدوئه واتزانه وبعده عن الإثارة الدرامية، قلقاً ومتردداً. وأحضر معه مخططين بيانيين سريين ليعرضهما على الوزيرة. كان أحدهما نسخة من مخطط بياني احتفظ به هادلي في ملف «ج. ب» (جورج بوش)، يظهر الارتفاع المطرد في عدد الهجمات في العراق. ويظهر الثاني عدد قوات الأمن العراقية –من الجيش والشرطة– وهو رقم يرتفع باطراد أيضاً. وكشف الرقمان معاً عن مفارقة محبطة.

سأل بيس: «كيف تفسرين هذا للناس؟ عدد القوات في البلد يرتفع بوضوح، والعنف ما يزال في ازدياد».

أجابت رايس: «أجل. هذه ليست صورة ممتعة، أليس كذلك؟». لم تعرف ماذا تقول أيضاً. إذ إن الأمن والتدريب يقعان ضمن نطاق سلطته.

شرح قائلاً إنه شكل «مجلس الكولونيلات». وأضاف إن أعضاء المجموعة، إلى جانب القادة، سوف يطرحون بعض الأسئلة الجوهرية فيما يتعلق بالإستراتيجية الراهنة.

سمعت رايس عن ذلك «عبر الأثير»، كما تحب أن تقول –أي من هادلي. وقالت إن موظفيها يجرون أيضاً استقصاء مشابهاً لدراسة المهمة الإجمالية، وما الذي يحاولون تحقيقه سياسياً.

لم تجد رايس طريقة يمكن بواسطتها ضم جهودهما معاً في اللحظة الحالية؛ لأن ذلك قد يتسرب ويولد قصصاً إخبارية «حساسة» عن قيام الإدارة بمراجعة نقدية لإستراتيجيتها، وسيكشف عن جدل سري يتناقض مع تطمينات الرئيس العلنية أن الولايات المتحدة تحقق النصر.

التقى «مجلس الكولونيلات» مع رؤساء الأركان يوم الجمعة الثالث عشر من تشرين الأول.

قال بيس في أثناء الجلسة: «مركز الجاذبية المباشر هو الرأي العام الأمريكي»، مقترحاً أن المشكلة تتعلق بفشل في العلاقات العامة والترويج للقضية. وقال مشيراً إلى الجنرال كيسي: «لدى جورج موعد زمني محدد بأربع سنين، والشعب الأمريكي لن يمنحنا أكثر من تسعين يوماً تقريباً». وهم بحاجة إلى «التعبير عن حقيقة أن انسحاب الولايات المتحدة لا يعني أن الحرب ستتوقف، بل ستظل مشتعلة –إن توقفت في العراق أو في أفغانستان أو في مكان آخر».

سأل شوميكر: «ما الحرب الطويلة؟ هل تستمر ثلاثين سنة؟ كيف نضع توقعات معقولة ونتعامل مع مشكلة تدوم ثلاثين سنة مع إبقاء الحالات المتفجرة تحت السيطرة؟ ... لن يتوقف العدو بعد سنتين».

سأل الأدميرال مولين: «كيف نعد الشعب الأمريكي لحرب طويلة الأمد؟».

قال الجنرال مايكل هاغي، قائد مشاة البحرية: «لن نفعل ذلك؛ لأنه سيظل مشاهداً وراغباً عن تغيير عاداته».

أضاف شوميكر: «لا يرغب عامة الأمريكيين في تغيير ما اعتادوا فعله».

قال هاغي: «موقفهم النهائي هو: يجب إعادة الجنود إلى أرض الوطن».

لكن عامة الأمريكيين، كما قال بيس معترضاً، يمسكون مفتاح النجاح المستقبلي. «نحن بحاجة إلى التعبير بطريقة أفضل عن الحرب الطويلة. يجب أن نطلب منهم التضحية».

قال شوميكر وهو يشير إلى السقف نحو مكتب رمسفيلد في الطابق الثالث: «تكمن المشكلة في هذا المبنى».

قدم قائد مشاة البحرية اقتراحاً ما كان سيعجب الرئيس: «كان علينا أن نطلب من الشعب الأمريكي التضحية عبر فرض ضريبة خمسة سنتات على كل غالون من الوقود أو ضريبة مشابهة بعد الحادي عشر من أيلول».

وافقه شوميكر الرأي: «الأمة بحاجة إلى حشد قواها. فمعظم البلد يتبنى موقف المشاهد».

تحول النقاش إلى النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني وعملية السلام.

قال بيس: « السياسة الأمريكية منحازة إلى إسرائيل طبعاً».

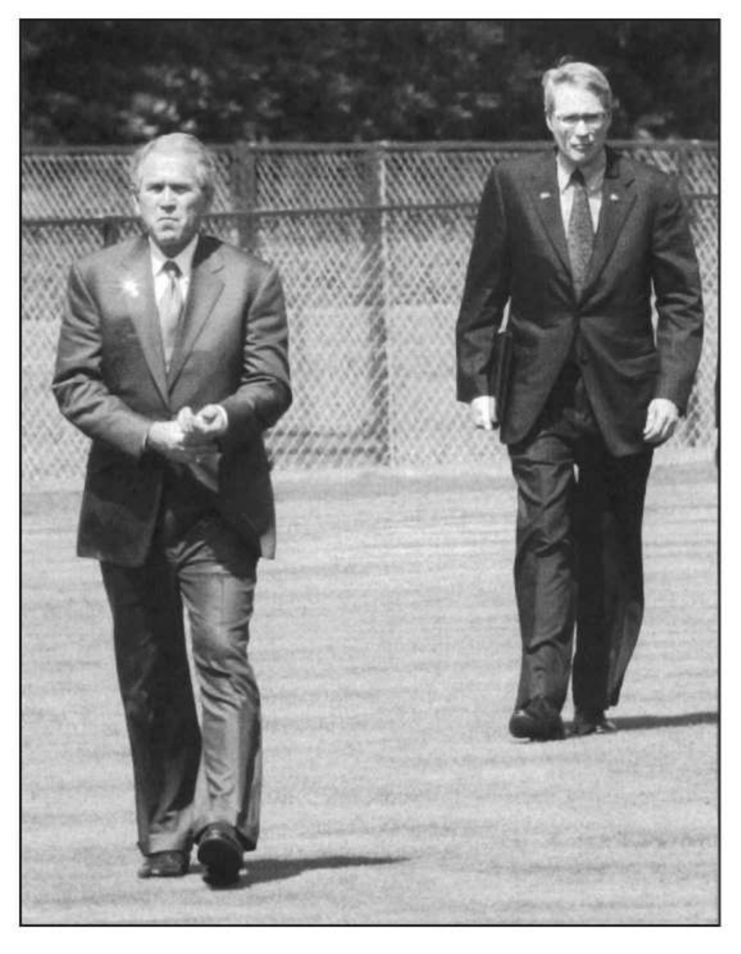
قال الأدميرال مولين إن الولايات المتحدة بحاجة إلى دبلوماسية أكثر فاعلية وظهوراً تجاه القضية. «أكدت الاستطلاعات واحداً إثر الآخر أنها المشكلة المركزية التي توحد العالم ضد أمريكا».

قال موسلي: «أي شيء آخر أفضل من وضعنا الحالي»، ثم أوجز مشاعره تجاه الإسرائيليين والفلسطينيين: «فليذهب الطرفان إلى الجحيم».

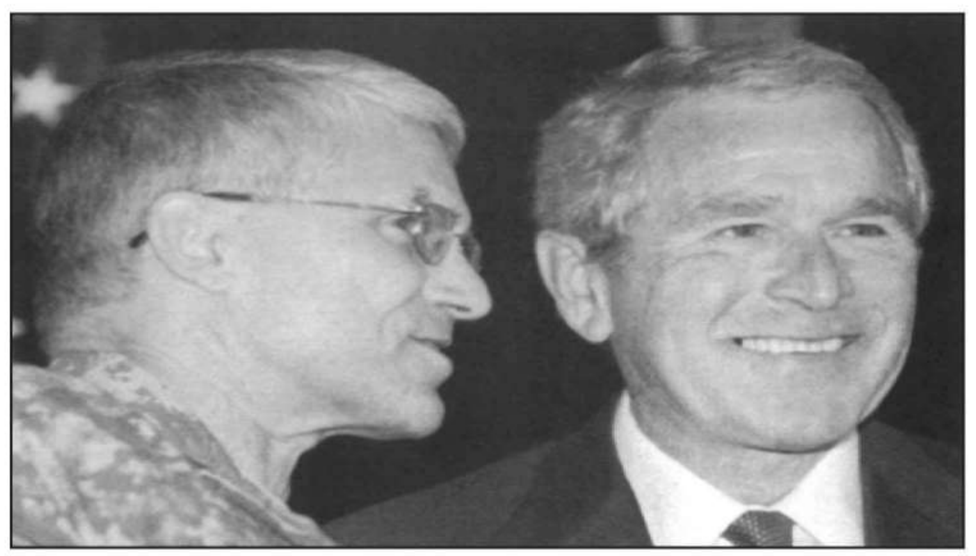
مع أن هادلي يكبر رايس بثماني سنين تقريباً، إلا أنه عمل نائباً لها في البيت الأبيض في ولاية بوش الأولى. والآن، في الولاية الثانية، حل محلها في منصب مستشار شؤون الأمن

القومي، بعد أن انتقلت إلى وزارة الخارجية. وجمعت الاثنين صداقة حقيقية وتبادلا المعلومات بكل حرية. واعتادا تبادل الحديث عدة مرات كل يوم –شخصياً في البيت الأبيض، قبل الاجتماعات وبعدها، أو على الهاتف الآمن، أو على الهاتف العادي.

في أحد الأيام، أثارت رايس سؤال المراجعات المتنوعة التي تجرى «بطريقة متذررة» بحسب رأيها.



1- «حين أشعر بشيء يشعر به. وحين يشعر بشيء أشعر به». هكذا وصف مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي علاقته بالرئيس جورج بوش. حوّل الرئيس إلى هادلي مسؤولية مراجعة الإستراتيجية المتبعة في العراق عام 2006. قال بوش: ««لنركز على النقطة المهمة هنا. بذل هادلي جهداً دؤوباً على هذه المسألة».



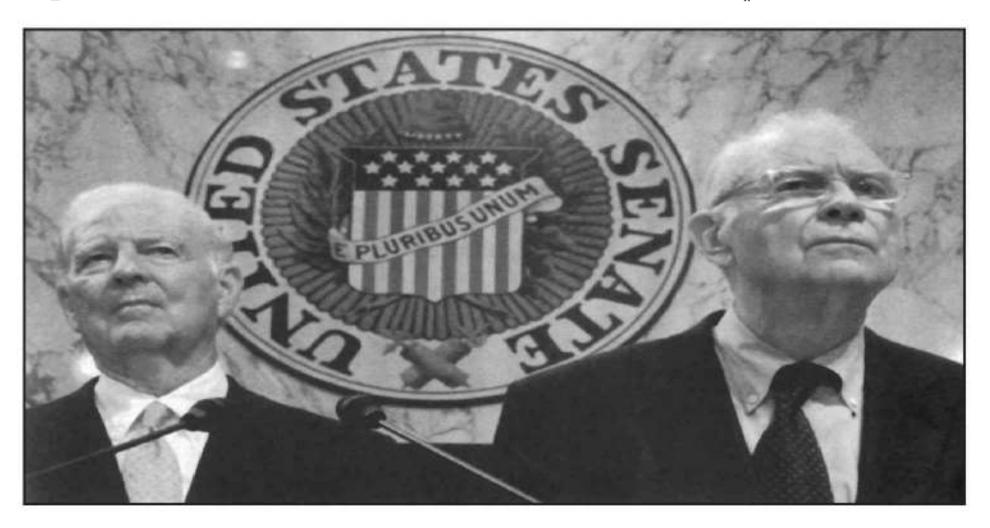
2- في الثالث عشر من حزيران 2006، قال بوش للجنرال جورج كيسي في بغداد: «يجب أن نفوز». فرد كيسي: «أنا معك. أتفهم ذلك. لكن إذا أردنا الفوز فعلينا أن نخفض عدد قواتنا». على الرغم من إظهار الدعم والمساندة والتأييد في العلن، كان بوش يفقد الثقة بإستراتيجية تخفيض عدد القوات. وتوصل كيسي إلى الاعتقاد أن الرئيس لم يفهم الحرب.



3- في عام 2006، قال بوش عن رئيس وزراء العراق الجديد نوري المالكي: «لم يشغل منصب رئيس (وزراء) بلد من قبل. عليه أن يتعلم. وسوف أنخرط معه شخصياً لمساعدته على التعلم».



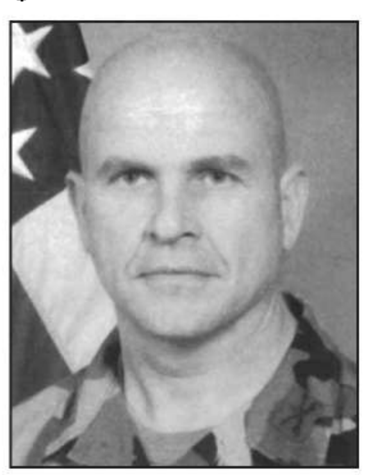
4- في أوائل تشرين الثاني 2006، قال بوش لنائب الرئيس ديك تشيني: «قررت استبدال رمسفيلد». قال تشيني: «حسناً يا سيادة الرئيس. أنا غير موافق، لكنه قرارك كما هو واضح».

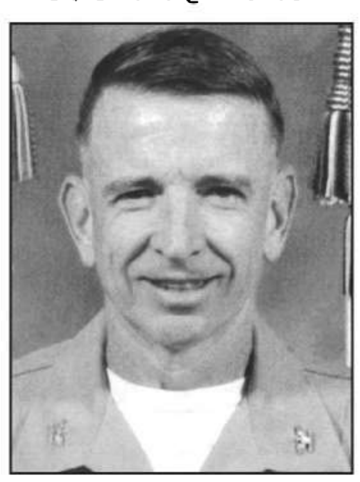


5- قابلت مجموعة دراسة الوضع في العراق المؤلفة من أعضاء من الحزبين كليهما، برئاسة الجمهوري جيمس بيكر والديمقراطي لي هاملتون، المسؤولين الرئيسين الذين شاركوا في صياغة السياسة المتعلقة بالعراق كلهم، ومنهم الرئيس نفسه. وسافرت إلى بغداد للقاء القادة العسكريين الأمريكيين والزعماء العراقيين. أما أول سطر في تقرير اللجنة، الذي صدر في كانون الأول 2006، فذكر أن «الوضع في العراق خطر ومتدهور».



6- في خريف عام 2006، أجرى الجنرال بيتر بيس مراجعة سرية داخلية للإستراتيجية بواسطة عدد من الضباط اللامعين في كل فرع من فروع المؤسسة العسكرية. لقبت المجموعة بـ«مجلس الكولونيلات»، ورفعت تقاريرها مباشرة إلى رؤساء الأركان. لكن النتائج التي توصلت إليها لم تعرض قط على وزير الدفاع أو الرئيس بوش.



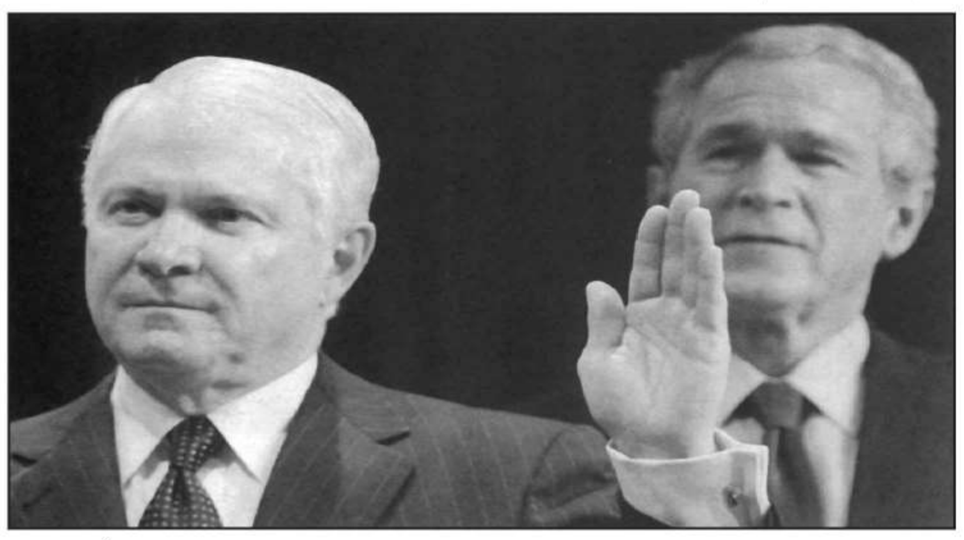


7- عمل العقيد (الكولونيل) توم غرينوود في فريق مجلس الأمن القومي بين عامي 2003 - 2004 (في ولاية بوش الأولى). وبوصفه عضواً في «مجلس الكولونيلات»، اختير ليعرض النتيجة المتشائمة التي توصلت إليها المجموعة أمام رؤساء الأركان: «نحن لا نكسب، إذاً نحن نخسر».

8- حقق العقيد (الكولونيل) إتش. آر. مكماستر، مؤلف كتاب «التقصير في أداء الواجب» الذي فضح ضعف رؤساء الأركان في أثناء حرب فيتنام، حقق نجاحاً لافتاً حين كان قائداً ميدانياً في العراق. وغدت أساليبه التكتيكية لمكافحة التمرد في تل عفر نموذجاً يحتذى مثاله لحماية السكان. كان عضواً في مجلس الكولونيلات، ثم أصبح مستشاراً للجنرال ديفيد بترايوس.



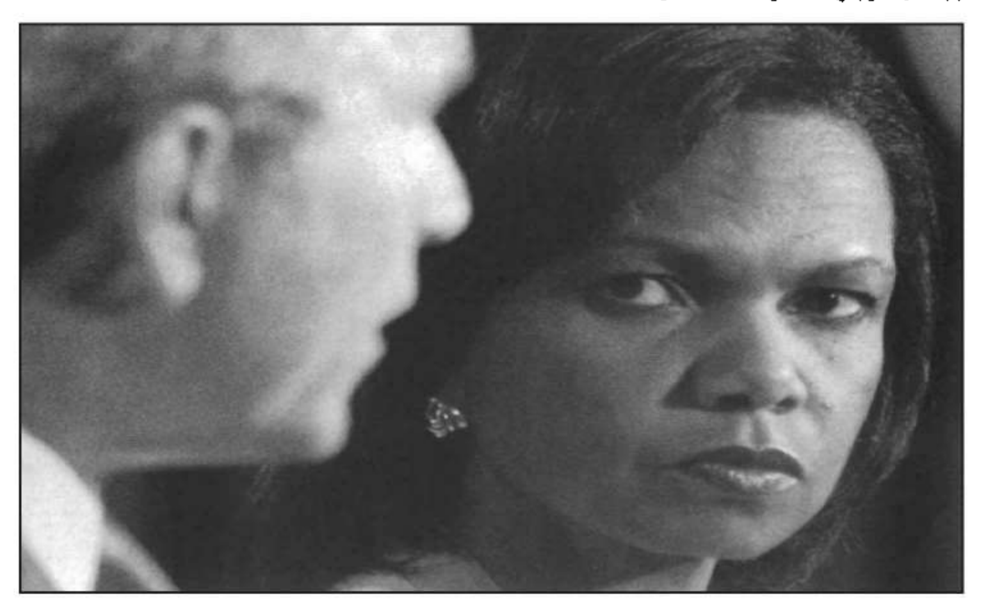
9- أراد دونالد رمسفيلد، الذي شغل منصب وزير الدفاع في إدارة بوش منذ البداية، الإسراع في تسليم المسؤولية إلى العراقيين. كان يقول مراراً وتكراراً: «يجب أن نبعد يدنا عن مقعد الدراجة [العراقية]». تعهد رمسفيلد بالاستقالة إذا خسر الجمهوريون الأغلبية في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ في انتخابات عام 2006. وفي اليوم اللاحق على الانتخابات أعلن بوش استقالة رمسفيلد وتعيين روبرت غيتس مكانه.



10- خدم روبرت غيتس، مدير وكالة المخابرات المركزية (CIA) السابق، ونائب مستشار شؤون الأمن القومي سابقاً، تحت إمرة خمسة رؤساء أمريكيين. طلب منه الرئيس بوش العودة إلى الخدمة العامة ليحل محل رمسفيلد. «الحياة قد تكون صعبة بالنسبة إلى وزير الدفاع، لكن هذه فرصة لصنع التاريخ»، كما قال له.



11- كان هادلي يكن إعجاباً لا مثيل له للرئيس وقال عنه إنه صاحب رؤية. و«يتحدى الحكمة التقليدية بجسارته وجرأته... وثمة عظمة في داخله».



12- كانت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس متشككة في جدوى زيادة عدد القوات في العراق. قالت للرئيس: إذا لم تنجح الزيادة، فستكون الرصاصة الأخيرة، الورقة الأخيرة، آخر سهم في جعبتنا. إذا راهنت بثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية، إذا استخدمت ثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية، وظلت الأمور على حالها، فما الذي تفعله حينئذ؟».



13- أوصت لجنة بيكر-هاملتون بسحب القوات الأمريكية المقاتلة كلها بحلول أوائل عام 2008. لكن عضو اللجنة تشوك روب (الأخير إلى اليسار) هدد بعدم التوقيع على التقرير إلا إذا شمل خيار زيادة قصيرة المدى في عدد القوات الأمريكية، وهي مقاربة تبناها الرئيس في نهاية المطاف.



14- قال مدير وكالة المخابرات المركزية مايكل هايدن عن الوضع في العراق أمام لجنة بيكر-هاملتون: «لقد أنفقنا كثيراً من الطاقة والثروة لإيجاد حكومة متوازنة، لكنها لا تؤدي وظيفتها... يبدو أن عجز الحكومة عن الحكم مشكلة يتعذر إصلاحها».






15- رأس جيه. دي. كراوتش نائب هادلي مراجعة الإدارة الرسمية للإستراتيجية المتبعة في العراق. واعتقد أن الرئيس يملك فرصة واحدة لإجرائها بطريقة صحيحة. أبلغ المجموعة: «لن نستطيع قضم هذه التفاحة مرة أخرى».

16- كانت ميغان أوسوليفان، معاونة مستشار الأمن القومي لشؤون العراق وأفغانستان، من بين أوائل مسؤولي الإدارة الذين أدركوا في ربيع عام 2006 أن الإستراتيجية لا تعمل بنجاح. وعندما سألها بوش عن الحياة في بغداد، قالت: «»جحيمية يا سيادة الرئيس».

17- في عام 2005، كتب فيليب زيليكو، بوصفه مستشاراً لرايس، يقول إن العراق «دولة فاشلة». واقترح إستراتيجية جديدة تقوم على «التراجع خطوة»، أي اتخاذ مسار وسطي بين زيادة عدد القوات والانسحاب.

18- اعتقد ديفيد ساترفيلد، موظف الخدمة الخارجية المتمرس وكبير مستشاري رايس حول العراق، أن إضافة مزيد من القوات سوف تفشل في تهدئة حدة العنف على المدى الطويل. وأقلقته أيضاً مبالغة خطاب الرئيس في نبرته الانتصارية.



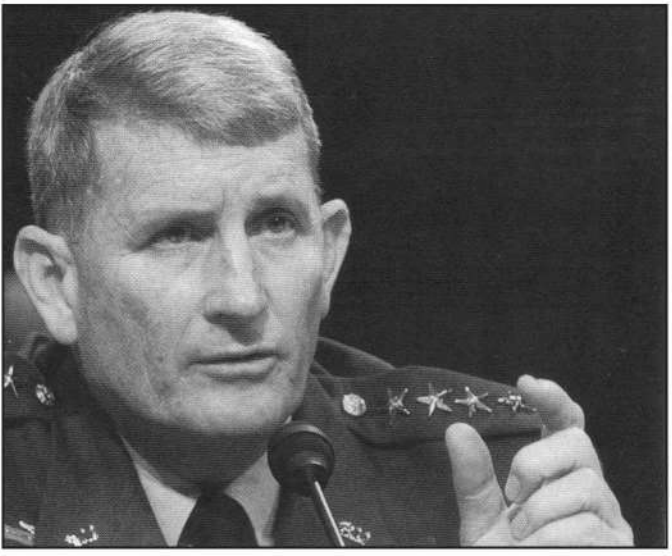
19- قال الرئيس بوش للمالكي حين اجتمعا على انفراد في عمان في 30 تشرين الثاني 2006: «أنا على استعداد لإرسال مئات الآلاف من القوات الإضافية». وأضاف قائلاً لرئيس الوزراء العراقي: «لقد فقدت السيطرة على عاصمتك، وفقدت السيطرة على بلدك».



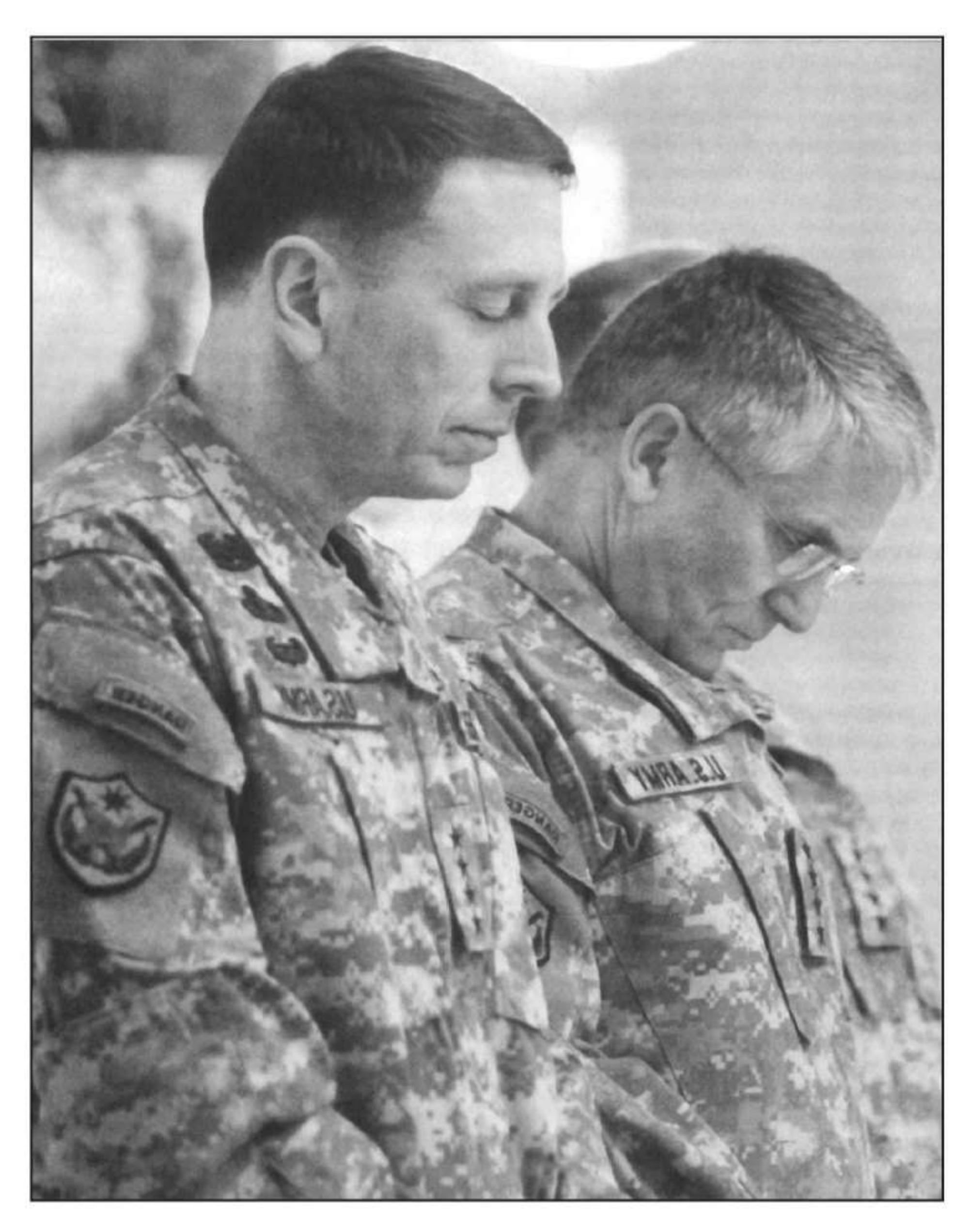
20- في أواخر عام 2006، قال جنرال الجيش المتقاعد جاك كين للرئيس: «ليست لدينا خطة لهزيمة التمرد». كان كين، معلم بترايوس وناصحه، مؤيداً قوياً لزيادة عدد القوات. سافر إلى العراق مراراً وقدم تقاريره إلى نائب الرئيس ديك تشيني.



21- في 13 كانون الأول 2006، التقى بوش وتشيني برؤساء الأركان في البنتاغون. أوضح القادة أنهم يعارضون زيادة عدد القوات؛ لأنها قد تحطم المؤسسة العسكرية. لكن الرئيس اتخذ قراره. ومع ذلك أراد أن يسمع رأيهم. «ربما اعتقدوا أنني اتخذت القرار، ومن المحتمل أن هذا هو ما حدث، لكن الباب لم يكن مغلقاً».



22- شعر الجنرال بيتر شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش، بالقلق نتيجة استخدام طاقة الجيش إلى أقصى حد، وأبلغ الرئيس أن إرسال خمسة ألوية لن يتحقق دون تمديد نظام المناوبة. «هؤلاء الشباب يعدون إرسالهم إلى العراق أو أفغانستان مهمة مستقبلية غير محدودة المدة. ولا أعتقد أن لديك الوقت الكافي لإرسال مزيد من القوات».



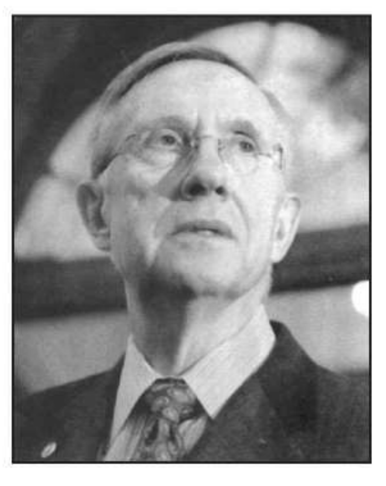
23- في العاشر من شباط 2007، حل الجنرال ديفيد بترايوس محل الجنرال كيسي قائداً عاماً للقوات في العراق. كان كيسي يريد نقل المسؤولية إلى العراقيين بأسرع وقت ممكن. وقال عن الإستراتيجية الجديدة: «إنها تتعارض مع كل شيء فعلناه طوال سنتين ونصف السنة».



24- في 29 آذار 2007، التقى الرئيس على انفراد بنانسي بيلوسي، رئيسة مجلس النواب الجديدة. قالت له بيلوسي: «السيد الرئيس، من واجبنا أمام الرأي العام محاولة التوصل إلى نوع من الإجماع». أجاب بوش: «آرائي معروفة تماماً. لقد عبرت عنها بكل وضوح».



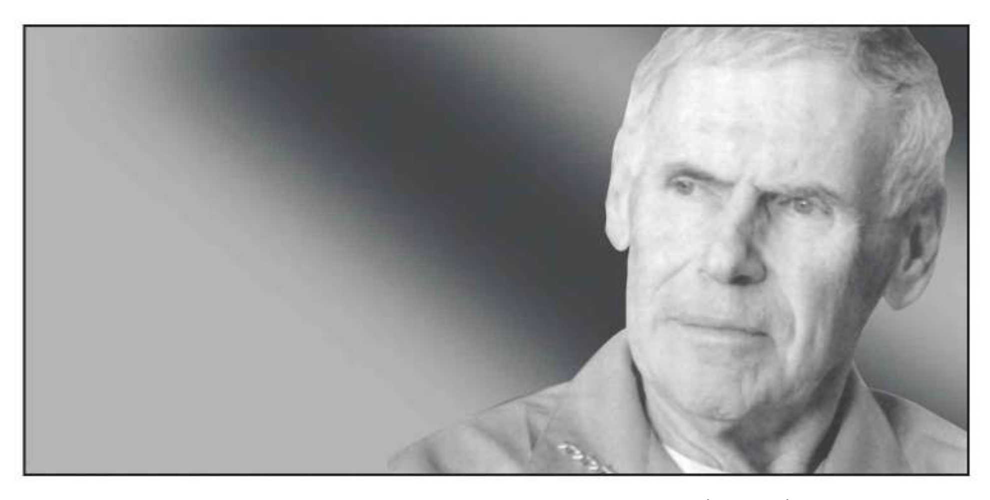
26- في 29 آذار 2007، التقى الرئيس على انفراد بنانسي بيلوسي، رئيسة مجلس النواب الجديدة. قالت له بيلوسي: «السيد الرئيس، من واجبنا أمام الرأي العام محاولة التوصل إلى نوع من الإجماع». أجاب بوش: «آرائي معروفة تماماً. لقد عبرت عنها بكل وضوح».



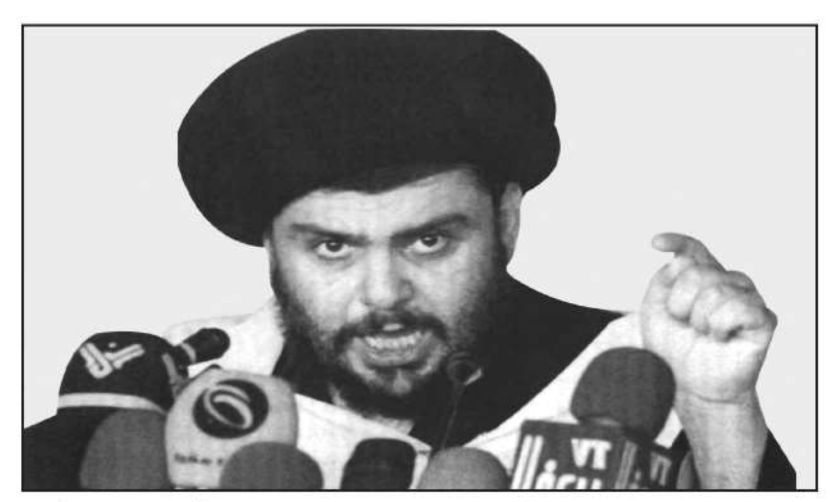
25-في 19 نيسان 2007، قال السيناتور هاري ريد زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ: «لقد خسرنا» الحرب في العراق. وعلق بوش فيما بعد على هذه الملحوظة: «لم يعد يصدمني شيء في واشنطن. لقد أوجدت هذه الحرب كثيراً من المشاعر القاسية، يصدر عنها كثير من الخطابات الفظة. من إخفاقاتي العجز عن تغيير نبرة الخطاب في واشنطن».



27- وافق الجنرال ديفيد بترايوس قائد القوات في العراق على تقديم تقارير منتظمة عن آخر تطورات الحرب أمام الكونغرس. وصف أحد المعلقين تقريره الأول الذي قدمه في العاشر من أيلول 2007 بأنه «أهم شهادة لأي جنرال منذ أربعين سنة». كان الجلوس في وضعية الاستعداد طوال ساعات موجعاً لبترايوس، فتناول أقراصاً مهدئة للألم. أشار بترايوس إلى تحقيق تقدم، لكنه تجنب المبالغة والتهويل.



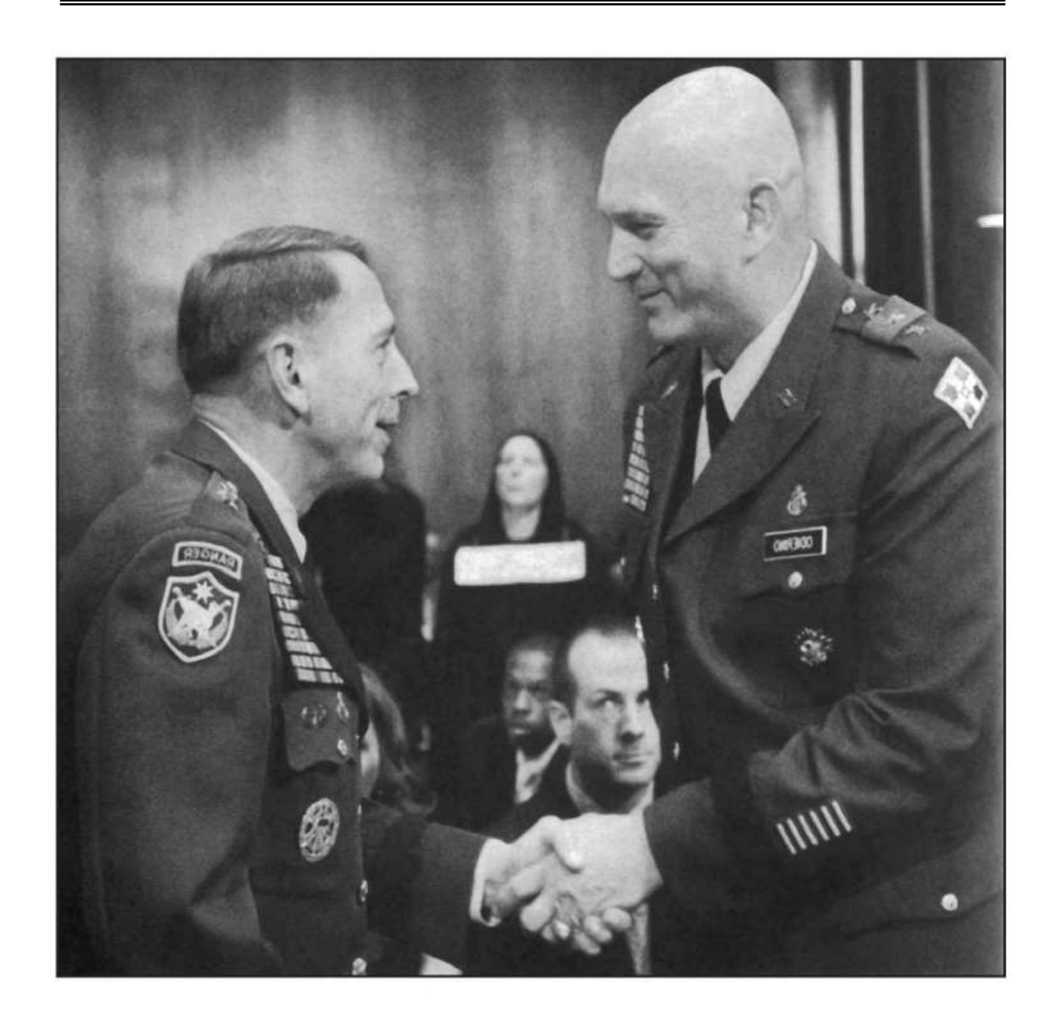
28- بوصفه قائداً جديداً للقيادة المركزية، وضع الأدميرال وليام فالون طلبات بترايوس المستمرة لإرسال المزيد من القوة البشرية موضع المساءلة. قال لرئيس هيئة الأركان المشتركة بيتر بيس: «هذا جنون... مهمة التفكير الإستراتيجية لا يقوم بها أحد... أفهم الآن السبب وراء الحال التي نحن فيها. يجب أن يطلق الرصاص علينا عقوبة على هذا كله».



29- يمثل رجل الدين الشيعي المتطرف مقتدى الصدر وجيشه (جيش المهدي) قوة مؤثرة في العراق. وحين أمر أتباعه بتعليق الهجمات عام 2007، ساعد في تقليص مستوى العنف. في عام 2008، أعلن إنشاء وحدة جديدة شبه عسكرية لمهاجمة القوات الأمريكية، لكن رأى بعض المسؤولين أن نفوذه يتراجع وينحسر وذلك مع تنامي قوة الحكومة العراقية وازدياد ثقتها بنفسها.



30- التقى موفق الربيعي، مستشار المالكي لشؤون الأمن القومي، بمسؤولي الإدارة في واشنطن مراراً وتكراراً. في التاسع من أيار 2007، ومع ارتفاع حدة العنف في العراق، أبلغ هادلي الربيعي: «يجب علينا تحويل التقدم إلى مسرحية. نحن بحاجة إلى حدث درامي».



31- في ربيع عام 2008، أعلن روبرت غيتس وزير الدفاع أن الجنرال ريموند أوديرنو سيخلف بترايوس في قيادة القوات الأمريكية في العراق، في حين سيتولى بترايوس مسؤولية القيادة المركزية. قال الجنرال المتقاعد جاك كين إن تعيين الجنرالين سوف «يغلق» الإستراتيجية الجديدة ويمنع تغييرها. «لنفترض أن الإدارة القادمة ستكون ديمقراطية وتريد التراجع بسرعة عنها، عندئذ عليها التعامل مع الجنرال بترايوس والجنرال أوديرنو. وستدفع ثمناً إن أرادت تجاهلهما أو تجاوزهما».



32- المرشح الجمهوري للرئاسة جون مكين، والمرشح الديمقراطي باراك أوباما يتبادلان التحية في «كابيتول هيل» (مبنى الكونغرس) عام 2007. سوف يرث أحدهما الرئاسة وحرب العراق في العشرين من كانون الثاني 2009.

قالت لهادلي: «يجب أن نجمعها معاً الآن. يجب أن نجريها بعيداً عن شاشة الرادار؛ لأن موسم الانتخابات شديد الحرارة، لكن يجب أن نجمعها معاً الآن ونقدم للرئيس بعض الخيارات».

وافقت على أنهما بحاجة إلى عملية مراجعة تعتمد أسلوب الإخصاب المتصالب، مع أنها ليست بالضرورة مستعدة للبدء بإدراج الخيارات.

قال هادلي إنه سيؤلّف مجموعة لتولي المهمة ترأسها ميغان أوسوليفان وتضم عدداً من معاونيها الموثوقين من موظفي مجلس الأمن القومي، وقالت رايس إنها ستضيف إلى المجموعة منسقها لشؤون العراق ساترفيلد. ولم يطلب من أي مسؤول من المؤسسة العسكرية أو الاستخبارات المشاركة في مراجعة البيت الأبيض –خصوصاً كيسي، الرجل الذي أعلن بوش أمام الملأ أنه يثق به فيما يتعلق بالإستراتيجية.

في يوم الأحد الخامس عشر من تشرين الأول، ظهر زعيمان جمهوريان بارزان في برنامجين حواريين على شاشة التلفاز –السيناتور جون وارنر (فرجينيا)، ورئيس لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ تشوك هيغل– وأعلنا ضرورة تغيير سياسة الولايات المتحدة إذا لم يتمكن العراقيون من استعادة بعض النظام. وقال وارنر إن على الإدارة ألا تنتظر أكثر من شهرين أو ثلاثة لتغيير الوجهة.

في الساعة 7:40 من صبيحة اليوم اللاحق، تحدث الرئيس بوش مع رئيس الوزراء المالكي عبر الهاتف الآمن. ووفقاً لملخص سري للمحادثة شدد الرئيس على ضرورة ألا يلتفت رئيس الوزراء إلى الخطاب البلاغي السياسي في الصحافة الأمريكية في إطار الاستعداد لانتخابات تشرين الثاني، فهو نفسه لا يلتفت إليه. وقال له إنه يثق به.

أجاب المالكي أنه واثق بدعمه وتأييده، لكن التعليقات العامة التي تنطلق من داخل الإدارة وخارجها تؤثر تأثيراً سلبياً في العراق وتضر بحكومته. وسمع شائعات تقول إن الولايات المتحدة وجهت له إنذاراً نهائياً ومنحته مهلة شهرين لوقف العنف. وقال أيضاً إن المناقشات حول تقسيم العراق تزيد الإرهابيين جرأة والمتطرفين جسارة. فقد زعم كتاب بعنوان «نهاية العراق» من تأليف بيتر دبليو. غالبرايث، الخبير المختص الذي يتمتع

بخبرة عقدين من السنين في الشؤون العراقية، أن التقسيم أمر محتوم ويتعذر اجتنابه. وأضاف المالكي إنه يأمل أن يصدر الرئيس بياناً علنياً ينفي فيه توجيه أي إنذار، وأنه يدعم المالكي ويؤيده، وأنه لا ينوي التوصية بتفكيك العراق وتقسيمه.

قال رئيس الوزراء إنه ألّف لجنة للعثور على مقترحات لحل مشكلة الميليشيات. «نحن بحاجة إلى إعداد مؤسسات تطبيق القانون وتجهيزها لمواجهة الميليشيات والإرهاب».

أعاد بوش توكيد دعمه للمالكي، ووعد أنه لن يدع العراق يتمزق ويتفتت. ونصحه بألا يترك الانتقادات والشائعات تنهكه وتستنفد طاقته، بل عليه قيادة الأمة في مواجهتها وعلى الرغم منها. وقال إنه يفعل ذلك على الدوام في الولايات المتحدة. وأضاف إن من المهم للمالكي إعلان التزامه قبل نهاية شهر رمضان بحل القضايا السياسية العالقة في موعد محدد في المستقبل –نوع من الموعد النهائي الذي يتجنبه هو بكل عناد. ومع ذلك، فإن مثل هذا الموعد النهائي، كما زعم بوش، سوف يساعد في التصدي للشائعات السياسية ووقفها. طلب الرئيس من المالكي أيضاً الاهتمام شخصياً بالتحقيق في اغتيال شقيق نائب الرئيس العراقي (السني) طارق الهاشمي. فهذا يساعد في إظهار أن رئيس الوزراء هو للعراقيين كلهم، لا للشيعة وحسب.

أجاب المالكي أنه ملتزم التزاماً كاملاً بذلك.

عبر بوش عن قلقه من الوضع في بغداد. وقال إن عليه أن يرص جهوده السياسية والأمنية معاً من أجل تهدئة الوضع في العاصمة، ويجب اتخاذ قرارات صعبة لتحقيق هذا الغرض؛ فالكثير من الأبرياء العراقيين يعتمدون على المالكي ليقوم بهذه المهمة.

رد المالكي بحديث مطول ومسهب، زاعماً أنه لن يتردد في التوثق من السيطرة على الوضع. «ما تزال هناك مشكلات في بغداد، لكن تبذل جهود أيضاً، فضلاً على التخطيط والمبادرات السياسية التي تجري على قدم وساق لتحقيق المصالحة الوطنية، وسوف نرى النتيجة. نحن ملتزمون بمحاربة الإرهاب وعزل الميليشيات. وسيُعقد اتفاق مع خليل زاد وكيسي لإصلاح وزارة الداخلية. ورسالتي هي أننا بحاجة إلى وضع حد للنشاطات [الطائفية]. سوف نجرب الخيارات كلها، لكننا في النهاية نحن على استعداد لاستخدام القوة».

واتفق الرئيس ورئيس الوزراء على التحدث معاً مرة كل أسبوعين.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Bernard E. Trainor, «Inside the 'Tank': Bowls of Candy and Big Brass,» *The New York Times*, January 11, 1988, p. A16.

2- مراجعة أجراها المؤلف وملحوظات على مذكرة سرية بتاريخ 2006/10/10.

3- Presidential Documents, October 11, 2006, pp. 1782-1796 (Vol. 42, No. 41), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no40.html

4- انظر:

Nedra Pickler, «Two Republican Senators Call for a New Strategy in Iraq,» Associated Press, October 15, 2006.

5- مراجعة أجراها المؤلف وملحوظات على ملخص سري بتاريخ 16/10/2006.

-18-

زاد اشتغال ميغان أوسوليفان وهوسها بالمقاربة المتخذة تجاه العراق. ومع أنها لم تقبل قط فكرة الإسراع في نقل السلطة إلى العراقيين، إلا أنها كانت برأيها إستراتيجية مقبولة على أقل تقدير عام 2005. وبحلول منتصف عام 2006، اعتقدت أن من المتعذر الدفاع عنها، فهي تناقض الحقائق وتجافيها. وإذا استخلصت درساً واحداً دائماً من سنوات عملها على الحرب والصراع –حيث اختارت الحرب الأهلية في سريلانكا موضوعاً لأطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه، ودرست عملية السلام في أيرلندا الشمالية – فهو أن الطرف الحيادي وحده القادر على حل مشكلة العداء المستشري واحتواء العنف الطائفي. وكانت القوات العسكرية الأمريكية القوة الحيادية الوحيدة في العراق. بدا هادلي موافقاً لكنه كان يتحرك ببطء.

وبدأ ذلك كله يتغير في شهر تشرين الأول.

أبلغ هادلي الرئيس بعد إيجاز عمل مجموعتي بيس ورايس: «أريد البدء بمراجعة داخلية غير رسمية». وسوف تعمل مجموعة صغيرة من موظفي مجلس الأمن القومي ومنسق رايس ساترفيلد بعيداً عن شاشة الرادار. ويمكنهما تحويلها إلى مراجعة رسمية فيما بعد.

قل الرئيس: «افعل ذلك».

تذكر بوش أنه قال لهادلي: «ستيف، دعنا نلقي نظرة ونرى أين نحن». ثم قال لي: «لنركز على النقطة المهمة هنا. بذل هادلي جهداً دؤوباً على هذه المسألة، ووافقت. لماذا؟ لأنني أثق به وبفريقه ثقة كبيرة».

في السابع عشر من تشرين الأول، استدعى هادلي ميغان أوسوليفان إلى مكتبه، وطلب منها البدء بمراجعة سرية، لن تشارك فيها الوكالات العسكرية والاستخبارية. قال

محذراً: «لا أريد الافتراض أننا نعرف الإجابة». وأضاف إن المراجعة يجب أن تكون شاملة ومن القاعدة إلى القمة. «لدينا فرصة أخرى لتصحيح الأمور. أريد العودة إلى الوراء وإجراء المراجعة بطريقة منهجية. أريد معاينة افتراضاتنا. ما افتراضاتنا السابقة؟ وكيف يجب أن تكون افتراضاتنا الحالية؟».

كان مجلس الأمن القومي بحاجة إلى أن يكون رائداً في السير قدماً على طريق جديد. ويجب على أوسوليفان وفريقها تقويم كل شيء: «بصراحة وسرية وجدية». أراد منها تفحص بضعة أسئلة على وجه الخصوص: ما المعوقات الإستراتيجية لسياستنا؟ لماذا لا تحقق النجاح؟ ما الذي يقف في طريق النجاح؟ هل الإستراتيجية بحاجة إلى تغيير؟ ما الموارد المطلوبة في حالة تغيير الإستراتيجية؟

قال هادلي إن حفنة من موظفيها إضافة إلى ساترفيلد من وزارة الخارجية فقط يمكن أن يشاركوا.

على نحو مشابه، شجعت رايس ساترفيلد على التفكير في تغيير إستراتيجي، فالإستراتيجية الحالية تفشل. «لا يمكن لها أن تنجح، ولن تنجح. ولن يستطيع أي تغيير على الحواشي والهوامش إصلاحها»، كما قالت.

في الحادي والعشرين من تشرين الأول، جمعت أوسوليفان مجموعة صغيرة في مكتبها في الطابق الثالث من مبنى إيزنهاور، المجاور للبيت الأبيض؛ لعقد أول اجتماع لها.

أراد ساترفيلد التفكير في الخيارات كلها –حتى المتطرفة والدرامية– بدءاً بسحب عدد كبير من القوات وانتهاء بجلب عدد كبير منها. قال: «دعونا نفكر في كل شيء ممكن». على الصعيد الشخصي، استبعد فكرة إضافة مزيد من القوات الأمريكية. فهذه، وفقاً لحجته، ستكون رمية النرد الأخيرة، مما يعرض مزيداً من الجنود الأمريكيين للأذى دون تحقيق نتائج تذكر. فضلاً على يقينه أن المالكي يجعل من المستحيل على مزيد من القوات الأمريكية العمل بطريقة فاعلة. لكن عليهم إضافة الفكرة بوصفها خياراً.

وضعت المجموعة لائحة بالمشكلات: الافتقار إلى مركز سياسي؛ الأجندات العرقية والطائفية؛ السياسيون العراقيون الأفراد الذين يسعون وراء مطامحهم الشخصية؛ إستراتيجية عسكرية غير كافية لوقف العنف؛ استحالة المتابعة على مسار سياسي مع انتشار الفوضى؛ بغداد التي يتغير شكلها أمام أعينهم بسبب الانقسامات الطائفية؛ إيران بوصفها تهديداً إستراتيجياً يهيمن على الأفق لا تستطيع الولايات المتحدة التصدي له بكفاية بسبب انشغالها بالعراق. لقد أصبحت الولايات المتحدة أكبر مصدر نفع إستراتيجي لإيران.

قالت أوسوليفان: «دعونا ندرج افتراضاتنا التي تأسست عليها إستراتيجيتنا كلها»، ثم نرى ما الذي تغير.

عُيِّن بيتر فيفر (44 سنة)، أستاذ العلوم السياسية في جامعة ديوك، وضابط الاحتياط في البحرية، والمساعد الخاص لهادلي، للعمل في المراجعة السرية للإستراتيجية. وسُرّ برؤيتهم يسألون عن الأساسيات، حيث لم يكتفوا بتعداد الافتراضات فقط، بل سألوا: ما المشكلات؟ ما الذي لا نعرفه؟ هل تكمن المشكلة في قدرة المؤسسة العسكرية، أم في إرادة العراقيين والأمريكيين. فضلاً على ذلك كله، كانوا يريدون تحضير الرئيس لطرح أسئلة صعبة على العسكر. فوجئ فيفر بمدى تشاؤم ساترفيلد فيما يتعلق بالاحتمالات. وتبين أن الثلاثة -هو وساترفيلد وأوسوليفان- يشتركون في القدر نفسه من التشاؤم.

طرحت مسألة إضافة مزيد من الجنود للبحث. لكن أسئلة عديدة رافقت هذا الخيار. كم؟ متى؟ كم عدد الجنود المتوافر؟ ما الذي يفعلونه لإحداث فارق ملموس؟

كان ساترفيلد متشككاً في إمكانية تهدئة حدة العنف الطائفي أو التأثير في القيادة العراقية التي تعاني اختلالاً وظيفياً عبر إضافة مزيد من القوات. لكن أي مناقشة جدية للفكرة يجب أن تشمل صوتاً عسكرياً.

قال ساترفيلد في إحدى المراحل: «هذا آخر حد يمكن أن نصل إليه. إذ لا يمكننا إطلاق الأحكام على قدرات القوات العسكرية، وقدرات الاستعداد. بل لا أظن أن جورج [كيسي] يعرف بالضرورة هذه الأمور. القادة -في القسمين المسؤولين عن العمليات والخطط والسياسة- هم من يمكنهم تحديد «المخارج المتاحة. أنتم بحاجة إلى مدخلات عسكرية».

كانوا يجرون مراجعة للإستراتيجية المتعلقة بحرب ما تزال مستعرة دون وجود أحد بالزي العسكري في الغرفة. وفي حين كان «مجلس الكولونيلات» يجتمع على نحو مستقل، فإن من المستحيل اندماج المجموعتين طالما بقي رمسفيلد هو المسؤول.

في بغداد، أصدر جنرال الجيش وليام بي. كولدويل، الناطق الرسمي باسم الجنرال كيسي، يوم الثلاثاء التاسع عشر من تشرين الأول، حكماً متشائماً ومقلقاً على عملية «معاً إلى الأمام»، الحملة العسكرية الأمريكية-العراقية التي استمرت طوال اثني عشر أسبوعاً؛ للتصدي لهجمات المتمردين ووقف أعمال العنف الطائفية في العاصمة [1]. فشلت العملية في التخفيف من حدة العنف، الذي تصاعد غالباً بسبب الهجمات المعاكسة في المناطق المستهدفة، كما قال كولدويل. إذ قُتل 74 جندياً أمريكياً في شهر تشرين الأول حتى الآن، ولما ينقضي نصفه.

قال كولدويل: «لم ترتق [عملية «معاً إلى الأمام»] إلى مستوى توقعاتنا الإجمالية المتعلقة بتخفيض مستدام لمستويات العنف. إذ وجدنا أن العناصر المتمردة، والمتطرفين، يردون الضربات في الحقيقة بقوة. ويحاولون العودة إلى تلك المناطق التي استهدفتهم فيها القوات العراقية والأمريكية. ونحن نعود باستمرار ونقوم بعمليات إخلاء وسيطرة». وأضاف إن العنف «يثبط العزيمة فعلاً».

احتل الخبر العناوين الرئيسة في وسائل الإعلام الأمريكية، واستخدم في الانتخابات التشريعية، وزاد حدة الاحتجاجات التي تطالب الرئيس بتغيير المسار.

بعد بضعة أيام، أرسل رمسفيلد مذكرة سرية إلى كيسي:

«تيقنْ من معرفة كولدويل أنه يقوم بواجبه على نحو ممتاز، وألا يقلق من التعليقات الصحفية على تصريحاته الأخيرة، فهو متفوق في أداء عمله ونحن نقدر له ذلك. شكراً» [2].

في الثالث والعشرين من تشرين الأول، عقد «مجلس الكولونيلات» جلسته الثالثة في «الدبابة» مع قادة هيئة الأركان المشتركة.

قال القائد بيس: «أمامنا بعض الأيام المظلمة قبل أن نتمكن من حشد الدعم والتأييد لما نحتاج إلى فعله»، دون أن يحدد ما هو بالضبط. وأضاف: «بلدنا لا يعتقد أننا في حالة حرب». وفي عبارة تناقض ما قاله الرئيس في خطابه بمناسبة الذكرى السنوية لهجمات الحادي عشر من أيلول، قال القائد: «ربما نكون في وضع آمن، لكننا لسنا أكثر أمناً».

راجع الكولونيلات معظم الوثائق السرية والعلنية التي توجز إستراتيجية بوش للأمن الوطني المتعلقة بالعراق، ومنها «الإستراتيجية الوطنية للانتصار في العراق» المؤرخة في الثلاثين من تشرين الثاني 2005. كانت الوثيقة غامضة ومبهمة إلى حد يثير الجنون، ومتخمة بعبارات مثل «لم يتحقق النصر في حرب قط اعتماداً على جدول زمني محدد، وهذا ينطبق على هذه الحرب أيضاً»، و«مهمتنا في العراق هي كسب الحرب. وسوف يعود جنودنا إلى أرض الوطن حين تنجز المهمة».

اعترض الجنرال شوميكر قائلاً: «لدينا هذه الكليشيهات الإستراتيجية المبتذلة في الوثائق والتصريحات العلنية التي تقنّع مصالحنا واهتماماتنا الحقيقية. فكيف نقيس التقدم إزاء الكليشيهات المبتذلة؟».

لم تكن الردود مجدية أو هادفة، لكن الجنرال موسلي عبر عن الحاجة إلى حلفاء إقليميين: «لا يمكننا القيام بالمهمة بمفردنا».

قال شوميكر: «تمثل إسرائيل وإيران مشكلتين يمكننا الاتفاق عليهما. نحن بحاجة إلى التعامل معهما»، وأضاف إن من الضروري وضعهما على جدول الأعمال، لا مجرد النظر إليهما بوصفهما «فيلين كبيرين في الغرفة».

لكن لم يعلق أحد على المسألة.

سأل بيس مشيراً إلى العراق: «كيف نحافظ على التوجهات الناجحة ونصحح التوجهات الخاطئة؟ بعضهم يقول إن ما نفعله الآن يزيد المشكلة سوءاً. نحن بحاجة إلى إجراء فحص عقلاني ومنطقي».

عرض الضباط شريحة (سلايد) تظهر الأهداف التي أملت الإدارة بتحقيقها في العراق، وفقاً لـ«الإستراتيجية الوطنية للانتصار في العراق».

قال شوميكر: «أنا لم أتأثر هنا. انظروا إلى هذه الكلمات! الحقوق المدنية غير قابلة للتحقق في العراق طوال حياتي على الأرجح. النظام الداخلي يتعذر تحقيقه». نظر إلى باقي فقرات اللائحة: «في الحقيقة، يمكنني تقديم الحجة على استحالة تحقيق الفقرات الثلاث الأخيرة في هذا الجانب بطريقة واقعية». أشارت الفقرات الثلاث إلى العراق القادر على الحفاظ على نفسه، والدفاع عن نفسه، والتحول إلى شريك في الحرب العالمية على الإرهاب. وأوجز رأيه بالقول: «لم نتصور كيف يناسب العراق سياق الإستراتيجية الإجمالية لأمتنا». لم يهدأ غضب شوميكر. ما الصورة الكبيرة؟ ما المصلحة القومية؟ «نحن نقبل الاقتراح القائل إن العراق وأمريكا يشتركان في عوامل البقاء نفسها. لست متوثقاً من هذا الافتراض».

في أصيل اليوم نفسه في البيت الأبيض، وجه أحد المراسلين إلى السكرتير الصحفي توني سنو في أثناء الإيجاز اليومي السؤال الآتي: «التقى الرئيس مع الوزير رمسفيلد والجنرال بيس اليوم. وسيعقد الجنرال كيسي والسفير خليل زاد مؤتمراً صحفياً في بغداد غداً. فهل جد جديد؟».

أجاب سنو: «لا. الجديد هو محاولة إبقاء المسؤولين على اطلاع على ما يجري في العراق وكيف ننوي المتابعة. لكن لا يحدث أمر جديد جذرياً. المشكلة أننا في كثير من المرات حين نتحدث عن ذلك نشير إلى تعديلات تجرى باستمرار، وبهذا المعنى إذاً هناك أمور جديدة تحدث. لكن هل هي تغييرات جذرية في السياسة؟ الجواب: لا» [3].

* * *

عقد خليل زاد وكيسي مؤتمراً صحفياً مشتركاً ونادراً في بغداد، مثلما وعدا. وذلك «لشرح إستراتيجيتنا وخططنا للنجاح في العراق»، كما قال كيسي [4].

تحدث خليل زاد أولاً، حيث أصر على أن «النجاح في العراق ممكن ويمكن تحقيقه ضمن جدول زمني واقعي». لم يعرّف النجاح، ولم يحدد مدة الجدول الزمني الواقعي. لكنه قال إن خطة لنقل المسؤوليات الأمنية إلى العراقيين ستكون جاهزة قبل نهاية السنة.

تحدث بعده كيسي: «أنا واثق أن المسؤولين في الولايات المتحدة حين يحاولون معاينة الوضع، فإنهم يجدونه مربكاً ومشوشاً ويصعب فهمه. لكنني واثق بقدرتي على التصدي للمشكلات كلها، لكن دعوني أحاول». ثم وصف تفجير مسجد سامراء في شباط، والعنف الطائفي الذي اجتاح العراق في أعقابه. وتطرق إلى الميليشيات وفرق الموت، وتدخل سوريا وإيران وتأثيرهما المزعزع للاستقرار.

قال كيسي: «ما وصفته للتو يعد تغييراً جوهرياً في منظورنا للتهديد والوضع العام الذي ساد هنا في السنة الماضية. ولذلك يحق للناس أن يسألوا: كيف تجرون التغيير؟ ما الذي تفعلونه بطريقة مختلفة؟». وعرض خط الإدارة المتبع والقائم على الأساليب التكتيكية «المعدلة باستمرار لنسبق العدو».

فيما بعد، قال كيسي إن خطة تأمين بغداد «مستمرة في ممارسة تأثيرها المخفف للعنف الطائفي»، وإن جنود التحالف والعراقيين يعملون؛ لتقليص حدة العنف في العاصمة. «مارست الألوية الأمريكية الإضافية التي أبقيت هناك تأثيراً حاسماً. وتمارس قوات الأمن العراقية تأثيراً مهماً أيضاً». وكان ذلك كله يتناقض تناقضاً صارخاً مع تقويم الجنرال كولدويل قبل بضعة أيام.

أضاف كيسي إن عملية بناء القوات العراقية أنجزت بنسبة 75%، وأنه يعتقد أن مثل هذا التقدم «يمكن أن يضع العراق في مكان جيد جداً في مدة اثني عشر شهراً».

وحين سئل القائد العام عن مستوى القوات في بغداد، تحدث عن أهداف السيطرة على مناطق معينة وتحسين الخدمات الأساسية للسكان.

قال كيسي: «الآن، هل نحتاج إلى مزيد من الجنود للقيام بذلك؟ ربما. وقلت منذ البداية، إذا احتجنا إليهم فسوف أطلبهم، من التحالف والعراقيين على حد سواء».

وأضاف بعد لحظة: «مازلت أعتقد اعتقاداً جازماً أننا بحاجة إلى الاستمرار في تخفيض عدد قواتنا مع اطراد تحسن حال العراقيين؛ لأننا بحاجة إلى الابتعاد عن طريقهم وإفساح المجال لهم».

في الساعة 10:31 من صبيحة الأربعاء الخامس والعشرين من تشرين الأول، دخل الرئيس الغرفة الشرقية من البيت الأبيض لعقد مؤتمر صحفي مطول [5].

قال عن العراق في ملحوظاته الافتتاحية: «سوف تقرر النتيجة مصير الملايين في شتى أرجاء العالم. إن هزيمة الإرهابيين والمتطرفين تمثل التحدي المميز لعصرنا وواجب هذا الجيل». وامتدح عمل لجنة بيكر-هاملتون، ملاحظاً أن أعضاءها يتخذون «نظرة جديدة للوضع في العراق وسوف تقدم توصيات للمساعدة على تحقيق أهدافنا. أرحب بهذه الجهود. وسوف تفكر إدارتي بكل عناية في أي اقتراح يساعد على تحقيق النصر».

«أعرف كثيراً من الأمريكيين الذي لا يشعرون بالرضا على الوضع في العراق. وأنا لست راضياً أيضاً. ولهذا السبب نتحدث عن اتخاذ خطوات جديدة للمساعدة في تأمين بغداد وتعديل أساليبنا التكتيكية باستمرار».

أخفى بوش حقيقة أنه يتولى هو وأعضاء رئيسون في فريق إدارة الحرب في حكومته القيام بمراجعات إستراتيجية شاملة، وطرح أسئلة أساسية عن المقاربة الراهنة للحرب.

تقليدياً، يطرح السؤال الأول في المؤتمر الصحفي الرئاسي مراسل أبرز وكالات الأنباء، أي تيرنس هنت مراسل وكالة أسوشييتدبرس.

سأل هنت: «هل تعتقد أننا نكسب الحرب، ولماذا؟».

قال الرئيس إنه واثق من نجاح الولايات المتحدة. العراقيون يريدون النجاح. لكن الصراع صعب، فهذا نوع مختلف من الحرب. وألقى خطبة عصماء من خمس مئة كلمة تقريباً لمراوغة السؤال.

ألح هنت: «هل نكسب؟».

قال الرئيس أخيراً: «أجل بالتأكيد. نحن نكسب».

في الوقت ذاته تقريباً الذي أعلن فيه الرئيس أن الولايات المتحدة تكسب الحرب، كان بوب غيتس، عضو لجنة بيكر-هاملتون، يراجع بعض المذكرات والملحوظات من زملائه

الأعضاء. فقد استكملوا مراجعاتهم وأبحاثهم وخططوا للاجتماع بعد ثلاثة أسابيع للبدء بكتابة توصياتهم وصياغتها.

من بين هذه المواد، مذكرة مؤرخة قبل بضعة شهور من بيل بيري قال فيها إن على اللجنة سؤال القادة الأمريكيين في العراق هل يحتاجون إلى مزيد من الجنود. حبذّ غيتس فكرة إرسال مزيد من الجنود. ومع أن الجنرال كيسي والجنرال تشياريللي قد أبلغا اللجنة معارضتَهما إرسال قوات أمريكية إضافية، إلا أن غيتس خشي من أنهما يرددان ترديداً ببغاوياً آراء رمسفيلد وجوقته. وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الجنرال تشياريللي، قائد القوات البرية في العراق، لإرسال مزيد من الجنود، إلا أنه اعترف بعدم وجود قوات كافية للتشبث بالمناطق التي جرى طرد المتمردين منها.

إذا توضح أمر واحد لغيتس، رجل وكالة المخابرات المركزية السابق، فهو تعذر الاعتماد على قوات الأمن العراقية، خصوصاً الوجود في المناطق المضطربة من العاصمة العنيفة. ومن الواضح بجلاء أن هناك حاجة إلى ما يكفي من القوات المؤهلة والكفؤة، أي الجنود الأمريكيين؛ للمساعدة في إخماد نيران العنف في العاصمة؛ لكي يبدأ النظام السياسي في العمل.

أرسل غيتس رسالة بالبريد الإلكتروني إلى بيكر وهاملتون يوصي فيها بزيادة تراوح بين 30-40 ألف جندي، مع ربط وجود هؤلاء الجنود الإضافيين بأداء العراقيين، كما قال. فكلما كان الأداء أفضل زادت مدة بقاء القوات الأمريكية.

في التاسع والعشرين من تشرين الأول، غادر هادلي، وأوسوليفان، ومساعد هادلي الخاص بيتر فيفر، إلى العراق لإجراء عملية مسح ميداني للأوضاع فيه.

في اليوم اللاحق، استدعت رايس كبار مستشاريها؛ للاجتماع في مكتبها الداخلي الصغير في مبنى وزارة الخارجية. أغلقت الأبواب خلفهم –وهذا إجراء احترازي نادر. بدأت الاجتماع بسؤال عن آخر انطباعاتهم عن الوضع في العراق.

قال ديفيد ساترفيلد: «فرصة النجاح ضئيلة جداً اعتماداً على إستراتيجيتنا الراهنة».

وعبر جيم جيفري عن القلق من انجراف العراق إلى مستويات من العنف تقترب من شفير «الإبادة الجماعية».

سألت رايس عن إمكانية إعادة تحديد الأهداف. لنفترض، كما قالت، أن هدف الولايات المتحدة ينحصر في مجرد فرض توازن قوة داخل العراق، وتثبيت الانقسامات القائمة في السلطة السياسية ثم دمجها. لنفترض أن يركز العراقيون على تقاسم عائدات النفط ومحاربة القاعدة، فضلاً على الحد من نزوح السكان وكبح عمليات التطهير العرقي. يمكن للولايات المتحدة فرض القواعد والأنظمة، دون أن تحاول أن تكون «عملاقاً» يقزم الآخرين كلهم. كيف يمكن معالجة أهم القضايا مع الحد من ظهور القوات الأمريكية؟

قال جيفري: «يمكن معاينة كثير من الخيارات المختلفة»، ومنها تخفيض عدد القوات اعتماداً على كيفية إعادة تعريف المهمة وتحديدها.

قالت رايس، وقد غلبها القهر، بل الحزن، إن عليهم ممارسة سياسة القوة. يجب أن تتمكن الولايات المتحدة من البقاء لتخوض المعركة في يوم آخر وظروف أفضل.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثمانية من المصادر المطلعة.

1- MNF-I press briefing, October 19, 2006, www.mnf-iraq.com

2- مراجعة للمؤلف وملحوظات على مذكرة سرية بتاريخ 2006/10/23.

3- انظر:

White House press briefing October 23, 2006, www.whitehouse.gov/news

4- MNF-I press coference, October 23, 2006, www.mnf-iraq.com

5- Presidential Documents, October 25, 2006, pp. 1877-1890 (Vol. 42, No. 43), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no43.html

-19-

وجدت رايس نفسها «تتساءل متعجبة»، على حد تعبيرها، عن ماهية الخطوة اللاحقة التي يجب اتخاذها. هل توجد طريقة لإعادة تعريف ما الذي يجب تحقيقه؟ هل بالغوا في الرهان على قدرة حكومة المالكي على البقاء؟ هل الحكومة العراقية مجرد مجموعة من السياسيين المتنفذين الذين لا هم لهم سوى مصالحهم الشخصية؟ هل يتمكن العراقيون من التجمع معاً في حكومة وطنية؟

لا تستطيع إدارة بوش الاكتفاء بمشاهدة العنف يتصاعد وينتشر ويخرج عن السيطرة. اقترحت رايس على الرئيس وهادلي افتراض «قيام العراقيين بإعلان الأحكام العرفية في بغداد»، لكن العراقيين فشلوا دوماً في بلوغ هذا الحد، وستكون الأحكام العرفية خطوة كبيرة. هل يتعذر تطبيقها؟

أثارت رايس احتمال إعادة البناء. هل وضعوا أعباء ثقيلة جداً على عاتق الحكومة العراقية؟ هل يتعذر عقد مصالحة بين الفصائل المختلفة؟ ربما يحتاج الرئيس إلى مواجهة الطائفية والقبول بها بوصفها جزءاً من طبيعة العراق. هل يتحسن وضع الولايات المتحدة إذا قالت للكرد في الشمال: «سوف نضع قوات في كردستان؟». ثم تجد جماعة سنية تتفق معها على حماية وسط البلاد؟ ثم تتوصل إلى ترتيبات مع الزعماء الشيعة في الجنوب؟ هل يوقف ذلك كله العنفَ؟ هل يساعد في الحفاظ على النظام؟

تحدثت مع هادلي عن هذا الخيار السري الآخر.

قال إن عليهم أخذه بالحسبان. ربما لن تنجح المصالحة. كان يسأل: «هل المصالحة مهمة عبثية لا جدوى منها؟».

تحدثت رايس مع الرئيس عن العراقيين. قالت: «إذا أرادوا ممارسة لعبة القوة بدلاً من الوحدة الوطنية، فهل نمارس لعبة القوة؟».

لم يعارض الرئيس الفكرة. بدا منفتحاً على أي خيار يحسن الوضع. «فكرة جيدة إذا أدت إلى تحسن الأمور».

حين عملا على استكشاف الفكرة، قررا أن المشكلة تتعلق فعلاً بالافتقار إلى القدرة لا الإرادة من جانب العراقيين.

في كل لقاء يعقد الآن تقريباً، كانت رايس تؤكد: «المشكلة لا تتعلق بالمالكي وحده. بل بالمالكي، والطالباني، والهاشمي، والمهدي. لا تدعوهم يتهربون من المسؤولية ليجعلوها مشكلة المالكي».

بالمعنى العملي، إذا حاولت الولايات المتحدة عقد صفقات مع الفصائل المختلفة، فربما أدى ذلك إلى تقسيم العراق. وقد يعني نهاية ديمقراطية وطنية، هي هدف بوش المعلن مراراً وتكراراً.

ظلت رايس تعود إلى خيار القوى السياسية المؤثرة؛ لأنه يعبر عن الظروف السائدة على الأرض –فما يسمى بحكومة الوحدة ثبت أنها عاجزة عن الحكم أو تخفيض مستوى العنف.

في لحظات الحقيقة الجارحة القاسية، شعرت أنهم بحاجة إلى الحفاظ على المؤسسات الديمقراطية في العراق، لكن لم يعد بالإمكان الاعتماد عليها. عليهم عقد صفقة مع أي قوة ضرورية؛ من أجل تثبيت الاستقرار في البلد.

لكن حتى إن كان عقد الصفقات هو السبيل الصحيح، فسوف يعده كثيرون تراجعاً. والتراجع يمكن أن يتحول إلى هزيمة عسكرية نكراء. وربما يقول أحد الزعماء في الأغلبية الشيعية: «هؤلاء على وشك الفرار، فلا فرق إذاً. لماذا لا أكون البطل الذي يحرر العراق من الأمريكان؟». ربما يفضي ذلك كله إلى صور للحوامات وهي تخلي آخر الأمريكيين من المنطقة الخضراء؛ ولا يريد أحد في الإدارة تصور هذه الفكرة.

كتب ساترفيلد مذكرة سرية إلى رايس بتاريخ الحادي والثلاثين من تشرين الأول [1]. وعرض في صفحة طويلة إلى حد غير عادي مسارات العمل المحتملة وعدد الافتراضات والنتائج الختامية المستخلصة.

من بين الافتراضات: تغيرت طبيعة الصراع بمرور الزمن، وانتقلت من حملات الإرهاب التي شنها الصداميون، والقاعدة، والمتمردون، إلى العنف الطائفي. الوضع يختلف اختلافاً كبيراً عن التوقعات في عامي 2002 و 2003. افتراض آخر: قوات الأمن العراقية عاجزة عن تخفيض مستويات العنف الطائفي إلى حد مؤثر. وكشفت خطط تأمين بغداد عن «عيوب خطرة» في الإستراتيجية المؤقتة وفي إرادة قوات الأمن العراقية وقدرتها على الاحتفاظ بالمناطق.

افتراض ثالث: لم تمارس العملية السياسية حتى الآن تأثيراً كبيراً في العنف، ومعظم مؤسسات الدولة لا تؤدي سوى الحد الأدنى من وظائفها دون توجيه الولايات المتحدة ودعمها. لا يوجد في العراق أي من المؤشرات التاريخية على النجاح أو المصالحة —العفو العام، ترتيبات وقف إطلاق النار، لجنة للحقيقة والمصالحة للبحث والاستقصاء والكشف عن أخطاء الماضي.

ربما يسعى المالكي ليكون زعيماً وطنياً، كما كتب ساترفيلد، لكن أفعاله وفشله وتردده في التصرف عبرت كلها عن هوية شيعية طائفية. وعبر عن قلقه من قدرة قوات التحالف على مواجهة نفوذ القاعدة في وادي الفرات الغربي، وحماية السنة في الأنبار من هيمنة القاعدة ومن هجمات الشيعة في بغداد وغيرها من المناطق المختلطة. أما أشد استنتاجاته إثارة للقلق فهو «انقطاع الصلة المتزايد» بين أمريكا وحلفائها من جهة، وبين الدوائر السياسية العراقية الأساسية من جهة أخرى.

شعر ساترفيلد أيضاً بأن الولايات المتحدة تبالغ في الانشغال بالعراق والتركيز عليه إلى حد غير ضروري، مما أضر بمصالحها الإستراتيجية. وزاد الرئيس الطين بلة عبر الحديث عن العراق وكأن آمال أمريكا كلها معلقة على النتيجة.

استنتج ساترفيلد أن استمرار اتباع الإستراتيجية الراهنة اعتماداً على السعي وراء حكومة وحدة وطنية مع مؤسسات تؤدي وظائفها «لا يوفر سوى فرصة ضئيلة ومتضائلة للنجاح في إقامة دولة عراقية ديمقراطية ومستقرة في العامين القادمين».

يجب إحداث تغيير في الإستراتيجية يؤدي إلى حماية الطائفتين السنية والشيعية «من حمامات الدم والانزلاق إلى حرب أهلية شاملة، والحفاظ على البنى الهيكلية للحكم الوطني إلى وقت يصبح فيه من الممكن تحقيق تقدم فعلي على أسس وطنية حقيقية، وإتاحة الفرصة للولايات المتحدة؛ للسعي نحو تحقيق المصالح الأمريكية الرئيسة المنسجمة مع غالبية المصالح العراقية».

يجب أن يتمكن الرئيس من تقديم الحجة على أن الولايات المتحدة تعدل إستراتيجيتها وموقعها وموقفها في العراق للتعامل مع الظروف المتغيرة، كما كتب ساترفيلد. وشدد على ضرورة أن يشرح بوش أيضاً أن الإستراتيجية الجديدة سوف تتطلب من الولايات المتحدة –وتسمح لها– تخفيضاً مستمراً ومهماً للقوات في العراق. «بحيث تخفض عدد القوات دون أن تنسحب» على حد تعبير ساترفيلد. وسيبقى الهدف متمثلاً بعراق مسالم ومستقر، لكن يجب أن تكون أولوية الولايات المتحدة مصالحها التي تتجاوز تخوم العراق.

أضاف ساترفيلد تحذيراً ختامياً ومهماً: «يجب أن نفهم احتمال أن يرفض الزعماء السياسيون العراقيون مقاربتنا لهم. وربما يفضل الزعماء الشيعة الاستمرار في حملتهم للوصول إلى السلطة والموارد دون أن يعيقها وجود القوات الأمريكية، بذريعة القتال ضد «الإرهاب السني». وربما لا يثق سنة العراق بالشيعة وبالولايات المتحدة، ويتعرضون لترهيب القاعدة في الأنبار، بحيث يفتقرون إلى القدرة الفاعلة على مساندة جهودنا، أو إيجاد مجتمع سني محلي منظم بدلاً من إلحاق الأذى بالشيعة. حتى في حالة القبول بمقاربتنا، سوف تواجه قواتنا تحدياً ظلّ، وربما سيبقى، خارج نطاق قدرتنا على مواجهته: كسر ظهر القاعدة في العراق، والتصدي لموجة العنف الطائفي الشيعي والنزعة الانفصالية، حتى بمساعدة زعماء الشيعة ودعمهم.

أكد ساترفيلد عدم وجود ضمانات. فأي إستراتيجية، مهما بدت ناجحة على الورق، قد تتعثر في الميدان. فعلى الرغم من كل شيء، يملك ساترفيلد تجربة عراقية خاصة به. فقد شهد فشل الخطط الأمنية واحدة تلو الأخرى. وفقد الثقة بقدرة الولايات المتحدة على وضع خطة عملية ناجحة على أرض الواقع.

بدأ ساترفيلد، ورايس، وغيرهما مسعى هادئاً وسرياً لحث بوش على التخفيف من غُلْواء خطابه البلاغي المتغطرس فيما يتعلق بالرهانات والإنجازات في العراق.

وشعروا بأن قصر النظر، والطريقة التي حول عبرها الرئيس العراق إلى اختبار نهائي وشامل ووحيد لقوة أمريكا أو ضعفها، والمنظور الذي يحدد تبعاً له النجاح أو الفشل، يضر بمصالح الولايات المتحدة وبموقعها وموقفها في العالم. لم يعد بمقدور الولايات المتحدة السماح بهيمنة حرب العراق عليها –فهي ليست حرب وجود أو بقاء على المستوى الوطني، فعلى الرغم من كل شيء كانت حرباً شنتها باختيارها.

لكن الرئيس استمر في تهييج هذا الإدراك. إذ قال قبل أيام في حديقة الورود إن «النتيجة سوف تقرر مصير الملايين في شتى أنحاء العالم» [2]. وهذا ما أصاب أعضاء في إدارته بالحرج والضيق.

لكن مع اتضاح حقيقة أن الرئيس سيضطر في نهاية المطاف إلى إلقاء خطاب يعرض فيه إستراتيجية جديدة، فلماذا لا نخالف التوقعات، كما اقترح ساترفيلد، ونقلب كل شيء رأساً على عقب؟ يتوقع الناس أن يلقي الرئيس خطاباً عن العراق، والعراق، ولا شيء سوى العراق. لماذا لا يستهل خطابه بعبارات مثل: «أريد أن أحدثكم الليلة عن قضايا تتجاوز إطار العراق. صحيح أن العراق مهم، لكن هذه القضايا تتجاوزه وتمارس تأثيراً واسعاً وطويل الأجل في مصالح الولايات المتحدة. دعونا ننظر إلى العالم؛ دعونا ننظر إلى المنطقة».

بكلمات أخرى، يمكن لبوش أن يقدم الحجة على قيمة السعي نحو بعض الأهداف الجوهرية في العراق، لكن دون محاولة الدفاع عنها في سياق النجاح في العراق، أو الانتصار

في العراق. يستطيع، بدلاً من ذلك، تناول موضوع إيران وبرنامجها النووي، أو التطرق إلى عملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية، أو الروابط والصلات مع الأصدقاء والحلفاء.

يمكن للرئيس أن يقول: أجل، العراق مهم، لكن هناك مجموعة هائلة من المصالح الأخرى في المنطقة وخارجها تحظى بأهمية حاسمة.

لم تلق أفكار ساترفيلد اهتماماً يذكر. وظلت دفينة ومنسية في حاسوبه في وزارة الخارجية.

بعد زهاء أسبوعين من اللقاءات، جمعت ميغان أوسوليفان النتائج التي توصلت إليها مجموعتها للمراجعة غير الرسمية، وكتبت مذكرة سرية مطولة لأعضاء فريق إدارة الحرب، دعتها: «الطريق إلى الأمام: أربعة مفاهيم تنظيمية»[3].

تملك الولايات المتحدة، وفقاً لمجموعة أوسوليفان، أربعة خيارات لكيفية متابعة المسيرة في العراق، لكل منها فوائدها ومخاطرها. وتناولت كل خيار بالتفصيل:

1- تعديلات هامشية: يعني هذا الخيار التمسك بالمقاربة الراهنة، وتجنب تدفق موارد جديدة ضخمة، والتركيز على نقل المسؤوليات الأمنية إلى العراقيين بأسرع ما يمكن. والقيام بذلك يفترض أن الإستراتيجية الراهنة سليمة وصحيحة وكافية في مواردها، وإحداث تغيير رئيس يعرض للخطر المكاسب السابقة.

2- تركيز جهودنا: تؤدي هذه المقاربة إلى «إبعاد قوات التحالف عن خطوط النار». ومن ثم تركز القوات الأمريكية على القاعدة في العراق، وتترك العراقيين يتعاملون مع العنف الطائفي. لاحظت أوسوليفان أن القاعدة تمثل تهديداً للأمن القومي الأمريكي، في حين أن العنف الطائفي موجه نحو الداخل. ومع ذلك، كما كتبت، فإن على الولايات المتحدة «واجباً أخلاقياً وإنسانياً ومصلحة في الحد من العنف الجماعي أو طرد السكان من مناطقهم». واعتقدت أن هذا الخيار سيحد من تعرض الجنود الأمريكيين للعنف الطائفي، ومن المرجح أن يحظى بتأييد الحزبين (الديمقراطي والجمهوري) معاً، على الأقل في البداية.

3- مضاعفة الرهان: يتمثل المفهوم هنا في «زيادة جهود التحالف السياسية والعسكرية زيادة كبيرة للفوز بـ 'معركة بغداد'، وتثبيت ركائز حكومة الوحدة الوطنية». وعند أخذ هذا الخيار بالحسبان، كما قالت، يجب أن تعتقد الولايات المتحدة أن «المسار الحالي في العراق يرجح أن يؤدي إلى الفشل لا إلى النجاح»، وأن «إدخال مزيد من الموارد يرجح أن يغل نتائج إيجابية لتبرير التكاليف والمخاطر المرتبطة بذلك»، وأن «الرأي العام الأمريكي سوف يؤيد جهداً واحداً أخيراً لتحقيق النصر في العراق».

من بين الملامح المفتاحية للخطة إضافة عدد يصل إلى 30 ألف جندي أمريكي لحماية الحدود، وإخلاء («تنظيف») الأحياء والسيطرة عليها، وإسراع عملية إعادة الإعمار، واستهداف القاعدة وفرق الموت. وفي سبيل تحقيق ذلك كله، كما كتبت، يجب على الرئيس «استنفار أمريكا ووضعها في حالة حرب»، وزيادة حجم القوات المسلحة، وتغيير أوقات المناوبة الدورية، واستخدام مزيد من المدنيين للمساعدة في هذا الجهد ونشرهم.

تمثلت المزايا التي وجدتها أوسليفان في الخطة في كونها توازي بين الموارد الأمريكية وبين خطاب بوش البلاغي، وتوفر أقصى قدر من القوة الدافعة لأمريكا؛ لتمارس تأثيرها في سلوك العراق والمنطقة، وتمتلك «أرجح احتمالات توفير النجاح كما عرفناه وحددناه». لكن هناك مخاطر، منها: قلة قليلة من العراقيين طالبوا بمزيد من القوات الأمريكية؛ لم يثبت المالكي حتى الآن أنه شريك لا طائفي يمكن الاعتماد عليه؛ مزيد من القوات قد «يفاقم مشكلة الاتكالية العراقية على المدى القريب... وربما ترتفع الخسائر الأمريكية في الأرواح، على الأقل على المدى القريب»، و«توفير دعم الحزبين سيكون بالغ الصعوبة ويرجح ألا يستمر دون إحراز تقدم سريع وملموس».

يمكن لهذه المقاربة أن تفكك المؤسسة العسكرية القائمة على المتطوعين. ويمكن لدورة العنف أن تعود بعد تخفيض عدد القوات الأمريكية، و«لا تترك أي مكاسب دائمة». والأهم، إذا فشلت الإستراتيجية، فلن يبقى تأييد كاف لالتزام طويل الأمد من جانب الولايات المتحدة. في الجوهر، سنخسر الحرب.

4- رهان على المالكي: سوف يعزز هذا الخيار الموارد السياسية والأمنية المتاحة للزعماء العراقيين، ومن ثم يستطيعون تخفيف حدة العنف والتقدم نحو تحقيق المصالحة. وفي حين تستثمر المقاربة الثالثة مزيداً من الموارد عموماً، فإن هذه الإستراتيجية تركز مزيداً من الموارد على المالكي وحكومته حصراً. لكن في سبيل القيام بذلك، كما كتبت أوسوليفان، يجب على المالكي إقناع الولايات المتحدة بأنه يشاركها الرؤية المتعلقة بعراق موحد وفيدرالي ولا طائفي، وأنه قادر على «جمع المعتدلين معاً عبر مختلف درجات الطيف السياسي».

سوف يزيد هذا الخيار «زيادة دراماتيكية لكن هادئة» حجم برنامج التثبيت/التدريب ومداه. يتمثل الجانب الإيجابي بزيادة ظهور العراقيين وريادتهم وتمكينهم. أما المخاطر فتتجسد في غلو المالكي في الطائفية، أو اختلال وظيفة الحكومة وعجزها عن مغالبة انقساماتها.

استنتجت أوسوليفان أن الخيار الثالث هو أفضل السبل، وأكثرها اختطاراً. لكنها ظلت حيادية في مذكرتها. فالرئيس هو من يقرر.

لم يتأثر ساترفيلد كثيراً بمذكرة أوسوليفان المتعلقة بالخيارات الأربعة. فقد مثلت ما دعاه «نهج ميغان الآلي» للعملية –استهداف قضية واسعة ومعقدة ومحاولة اختزالها في عرض مثالي بشرائح برنامج باوربوينت– كتلة متشابكة من الافتراضات والعقبات، والملامح الرئيسة والجوانب المفتاحية، والمزايا والمثالب والمخاطر، التي إن صيغت بأسلوب صحيح، يمكن أن تحل عقدة العراق. وبرأيه، تفضل أوسوليفان التعديل المستمر. في حين اعتقد ساترفيلد أنهم بحاجة إلى سياسة مستدامة وعملية. فقد أمضى وقتاً طويلاً في كابيتول هيل (الكونغرس)، واتضح له أن الأرض تهتز تحت الإدارة وتفتقد تأييد أعضاء من الحزبين كليهما، فضلاً على الرأي العام الأمريكي. ومهما كانت الإستراتيجية التي يتفقون عليها، يجب أن تكون عقلانية ومنطقية. يجب أن تمتلك حظاً من النجاح.

قال أحد الزعماء الجمهوريين البارزين لهادلي متوسلاً: «بالله عليك، لا تحدثني عن الفوز!». فهذا الكلام يبدو متغطرساً وانتصارياً ومغالياً في الثقة. وقال آخر: «توقف عن الكلام عن النجاح!».

أبلغ هادلي كتّاب خطابات البيت الأبيض، أملاً في التواؤم مع مطالب الحلفاء الجمهوريين: «دعونا نخفف النبرة». وطلب منهم حذف كلمات «نصر» و«فوز» و«ربح» و«نجاح»، عند الإشارة إلى العراق.

لكن الرئيس رفض الإصغاء. قال حين رأى إحدى المسودات: «لماذا لا نتحدث عن النصر هنا. أريد كلمات 'نصر'، و'فوز'، و'نجاح'».

وعادت الكلمات الطنانة إلى الخطابات.

قدم بعض الزعماء الجمهوريين، حتى أصدقاء بوش، الحجة على أن عامة الأمريكيين يتجاهلون خطب الرئيس. «لا يعتقد الشعب الأمريكي أننا سنكسب الحرب، أو أننا سنحقق النصر. أو لا يعتقدون على الأقل بتحقيق الفوز والنصر كما تحددا على ما يبدو في عامي 2003 و 2004. ومن ثم، يعتقدون يا سيادة الرئيس أنك منفصل عن الواقع حين تواصل الحديث عن الفوز والنصر»، مثلما قال له أحد الجمهوريين.

أجاب بوش: «لست منفصلاً عن الواقع. أعرف مدى صعوبة المهمة. أتحدث عن حجم الصعوبة. لكن يجب علي أن أوضح لجنودنا، وللمالكي، وللشعب العراقي، أنني ملتزم بالفوز والنصر. ويظن بعضهم ذلك نوعاً من الانفصال عن الواقع. لكن لدي جمهور آخر يجب أن أخاطبه».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة.

1- ملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/10/31.

2- Presidential Documents, October 25, 2006, pp. 1877-1890 (Vol. 42, No. 43), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no43.html

3- وثيقة سرية نزع عنها البيت الأبيض السرية عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

-20-

ترك تشيني، من مقر نائب الرئيس في الجناح الغربي، الخيار لأوسوليفان في المضي قدماً في مراجعتها للإستراتيجية. ولم يحاول تشجيعها أو وقفها، ولم يحضر أي موظف من مكتبه اجتماعاتها. عرف أن رمسفيلد قد أبلغ الرئيس أنه سيستقيل من منصبه إذا خسر الجمهوريون أغلبيتهم في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. وفيما وراء ذلك، لم يكن مطلعاً على خطط الرئيس.

منذ البداية، مثل تشيني قوة مشجعة على شن الحرب على العراق بوصفها السبيل الوحيد للتعامل مع صدام حسين. لكنه افتقد النفوذ الكاسح الذي شاع عنه. ومثلما كتب مراسلا صحيفة واشنطن بوست بارتون غيلمان وجو بيكر في سلسلتهما عن نائب الرئيس التي فازت بجائزة البولتزر عام 2007: «ليس تشيني، وفقاً للمصادر المطلعة على ما يجري داخل الإدارة كلها، الرئيس الظل في الحكايات الفولكلورية الشعبية». أما ستيفن هيز، مؤلف كتاب «تشيني: القصة غير المروية عن أكثر نائب رئيس أمريكي قوة وإثارة للجدل» وهو سيرة كتبها بالتعاون الوثيق مع تشيني، فقد وافق على أن كل ما فعله تشيني كان إما بتوجيه من الرئيس أو بموافقته.

بحلول خريف عام 2006، ضعف تأثير تشيني وتراجع نفوذ رمسفيلد. جمعت الاثنين أطول صداقة في إدارة بوش، صداقة عمرها 37 سنة، تعود إلى ما قبل عام 1969، حين منح رمسفيلد تشيني أول منصب حكومي في عهد إدارة نيكسون. وبعد خمس سنين، حين كان رمسفيلد رئيس موظفي البيت الأبيض في عهد فورد، اختار تشيني ليكون كبير معاونيه. وعندما تسلم منصب وزير الدفاع في السنة اللاحقة (في عهد فورد أيضاً)، ترقى تشيني إلى منصب رئيس موظفي البيت الأبيض ولما يتجاوز الرابعة والثلاثين. عرف تشيني بأسلوبه الهادئ المطمئن، وبدا طاعناً في السن حتى في شبابه.

خدم تشيني فيما بعد مدة عشر سنين عضواً في الكونغرس عن ولاية ويومنغ، مسقط رأسه، وترقى ليصبح الزعيم الثاني للجمهوريين في مجلس النواب. في عام 1989 أصبح وزيراً للدفاع في عهد بوش الأب. وفي عام 2000 أوصى بإلحاح بتعيين رمسفيلد وزيراً للدفاع في عهد جورج بوش الابن. ومنذ ذلك الحين، شيد تشيني ورمسفيلد نوعاً من الجدار الحديدي حول سياسة الدفاع والحرب لا يستطيع أحد الاقتراب منه. في كل مناسبة، كان تشيني يمتدح رمسفيلد ويدافع عنه، سراً وعلناً، وشخصياً أمام الرئيس. كان من أشد المعجبين برمسفيلد ولم يحاول إخفاء إعجابه. وبصفته نائب الرئيس، يتقدم تشيني على وزير الدفاع في التراتبية الهرمية، لكن رمسفيلد كان مثل شقيقه الأكبر.

قدم تشيني النصح والمشورة للرئيس كلما التقى به على انفراد، بعيداً عن باقي فريق بوش. رغب الرئيس بهذه الطريقة. وحين سألت بوش عن تشيني، قال: «ألتقي به مرة في الأسبوع، ونتبادل الحديث... وكلانا يبقي اللقاءات سراً». ولا يبدو أن أياً منهما يدرك كم تعرقل قناة الاتصال السرية هذه الإفصاح الكامل عن الآراء والبدائل داخل مجلس الأمن القومي. إذ لا يجرؤ أحد على تحدي تشيني؛ لأنه لا يعرف بالضبط ما قاله لبوش. وقرارات الرئيس كلها تحمل، قصداً أو عفواً، المباركة الضمنية لنائب الرئيس.

يغرم تشيني بالقول –مداعباً– إنه الشخص الوحيد في الجناح الغربي الذي يستحيل طرده من عمله؛ لأن الأمريكيين صوتوا له بالاسم في انتخابات عامي 2000 و 2004. لكنه عرف أن الرئيس يمكن أن يقطع الصلة بنائبه ويستثنيه من الاجتماعات والحوارات المتعلقة برسم السياسة.

عمل تشيني على ضبط أقواله ومعايرة أفعاله وحساب تصرفاته العلنية بحيث يبدو امتداداً لبوش لا مجرد صدى لصوته. وأدى مهمة رسول الرئيس ومندوبه. وفي عام 2004، حين تفجرت فضيحة إساءة معاملة السجناء في أبو غريب، قدم رمسفيلد استقالته مرتين. فأرسل الرئيس تشيني إلى البنتاغون للحديث مع معلمه القديم. ونجح تشيني حين جلس في مكتب وزير الدفاع، الذي شغله بين عامي 1989–1993، في إقناعه بالبقاء.

لن نقبل استقالتك، كما قال تشيني. صحيح أن أبو غريب مشكلة، لكن من غير المناسب أن يحمل رمسفيلد العبء كله على عاتقه. ويجب ألا يخسر وظيفته بسبب حفنة من الجنود غير المنضبطين؛ فهو أثمن وأهم.

تطلب الأمر ساعة، ووافق رمسفيلد على البقاء. قال لتشيني: «إذا حُمّلت المسؤولية فسوف أخرج من هنا. يجب أن يعرف الرئيس أني على استعداد للرحيل».

أبلغني الرئيس فيما بعد أنه أدرك في وقت من الأوقات حاجته «إلى فريق عمل جديد، خصوصاً وزيراً للدفاع، إضافة إلى قائد للقوات على الأرض. كان الوزير رمسفيلد يرسل إشارات هو أيضاً: 'عيون جديدة، وآذان جديدة'. أتذكر أنه قال ذلك ذات مرة. ودونالد رمسفيلد مهني محترف. وصديق لي. ظل قربي مدة طويلة. وحين تبدأ بالتفكير في أسلوب جديد، فإن الأمر لا يقتصر على إستراتيجية جديدة، بل يشمل أيضاً فريق عمل جديداً أيضاً»[1].

كان رمسفيلد قد أبلغ بوش: «سيادة الرئيس، ربما أنت بحاجة إلى عيون جديدة تنظر إلى الهدف».

تذكر بوش: «بدأت أشم رائحة مشكلة سياسية داخلية. لم تكن سياسة اللحظة هي التي تدفعني كما هو واضح، بل المضامين الإستراتيجية. من ناحية أخرى، أعرف أيضاً أن على الرئيس بذل جهد دؤوب؛ لمنح من حوله شعوراً بالأمل في الرسالة... إذ إن جزءاً من تيقن أن يتحول التغيير في الإستراتيجية إلى تغيير في العقول يتمثل بتغيير بعض اللاعبين؛ بعض أفراد فريق العمل».

أدرك بوش أن استبدال رمسفيلد سيكون قضية حساسة تحتاج إلى معاملة متأنية. فعلى الرغم من كل شيء، كانت الانتخابات تلوح مهددة على الأفق. ومن الضروري وجود وزير للدفاع للحفاظ على سلسلة القيادة في أثناء الحرب. لم يعتقد أنه يستطيع إرسال إشارات تدل على رغبته في استبدال رمسفيلد دون وجود بديل جاهز.

سألته كيف قرر أنه بحاجة إلى وزير دفاع جديد.

قال بوش: «كان الأمر ارتقائياً. حين قررت وضع إستراتيجية جديدة، عرفت أن نجاحها وفهمها بحاجة إلى منفذين جدد لها».

قال لي هادلي: «فكرة جيدة أن تضع تلك العبارة» في الكتاب.

قال بوش ضاحكاً: «يريد منك ستيف أن تستخدم كلمة 'ارتقائي'. تذكر ذلك. ما إن تقرر أنك بحاجة إلى إستراتيجية جديدة، ولكي تقنع الآخرين –من غير المطلعين على اللغة الاصطلاحية العسكرية- أن الإستراتيجية جديدة حقاً، فإن تجنيد منفذين جدد للإستراتيجية الجديدة يعد توكيداً للإستراتيجية الجديدة».

قال بوش إن رمسفيلد أدرك هذه الحقيقة، وأصر على الامتناع عن تبادل الاتهامات الغاضبة. فقد أراد بكل وضوح أن يخرج رمسفيلد بأقصى قدر ممكن من الهدوء والسلاسة. «دونالد واحد من المهنيين المحترفين الحقيقيين الذين يفهمون ما يجري في واشنطن، فهو في خدمة الرئيس، ويعرف أن المسألة ليست شخصية».

قال الرئيس إن رمسفيلد لم يكن مضطراً حتى إلى تقديم استقالته. «لدي استقالة مكتوبة من كل شخص يعمل تحت إمرتي، أستخدمها متى شئت... فأنا من ذلك النوع الذي إذا فقد الثقة بشخص أطلب منه الرحيل إذا وجدت ذلك ضرورياً».

في أوائل تشرين الثاني، أبلغ الرئيس رايس أنه قرر استبدال رمسفيلد، وسوف يتحدث مع بوب غيتس بشأن الوظيفة. كان غيتس (63 سنة)، الذي يمتلك خبرة ستة وعشرين عاماً في وكالة المخابرات المركزية، عضواً أساسياً في فريق الأمن القومي في عهد بوش الأب، وعمل مساعداً لمستشار شؤون الأمن القومي برينت سكوكروفت، ثم مديراً لوكالة المخابرات المركزية.

شعرت رايس بالارتياح، وقالت إن غيتس اختيار عظيم برأيها. وحين عملت في فريق مجلس الأمن القومي بين عامي 1989-1991، كان غيتس يدير لجنة النواب بأسلوب

لامع وذكي. وذكّرت الرئيس بطريقة مرحة إلى حد ما أن غيتس، الحاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الروسي والسوفييتي، كان متشدداً في نهاية الحرب الباردة، وهي تعلم أن «التشدد» سوف يعزز رأي بوش به. أما أكبر مشكلة فهي إقناع غيتس بالقبول، كما قالت. فطوال السنوات الأربع الماضية، شغل غيتس منصب رئيس جامعة تكساس إيه أند إم (Texas A & M)، وقال لها إنه حين يغادر تكساس هو وزوجته بيكي، سوف يعودان إلى ولاية واشنطن *، التي يحبانها، بأسرع ما يمكن. قالت رايس: يا سيادة الرئيس، الطريقة الوحيدة لإقناعه هي مناشدة مشاعره الوطنية.

* * *

سألتُ الرئيس فيما بعد: كيف اخترت غيتس وزيراً جديداً للدفاع؟ [2]

قال بوش إن صديقاً من أيام الجامعة (رفض الإفصاح عن اسمه) كان أول من اقترح غيتس. ووفقاً للرئيس، قال الصديق: «هل فكرت في غيتس وزيراً للدفاع من قبل؟ إنه رجل مؤثر».

قابل الصديق غيتس في جامعة تكساس. «فقلت: هذا مثير للاهتمام. فكرت في الأمر، ثم استدعيت هادلي. أما السبب الذي أثار اهتمامي فهو أن أداء بوب غيتس كان مدهشاً في جامعة تكساس، حيث أدار مؤسسة كبيرة، كان فيها بمحض المصادفة مكون عسكري، وهذا لافت بحد ذاته. ثانياً، يفهم تماماً ما يجري في واشنطن. ثالثاً، سيمثل منظوراً جديداً لمعاينة المشكلة. رابعاً، من غريب المصادفات فعلاً أنه عضو في لجنة بيكر–هاملتون».

سألت بوش هل استشار والده بشأن قراره، بالنظر إلى أن غيتس عمل مديراً لوكالة المخابرات المركزية ونائباً لمستشار شؤون الأمن القومي في عهده.

قال: «لم أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك، فقد سمعت أبي يتحدث عن غيتس كثيراً في الماضي. فهو معجب به جداً. آه... نسيت، لوالدي علاقة وثيقة بجامعة تكساس». إذ تضم مباني الجامعة المكتبة الرئاسية ومتحف بوش الأب. «أحبَّ وجود غيتس في الجامعة. وكان يعبر عن مشاعره وإعجابه بقيادة غيتس دون تحفظ. لا، لم أكن بحاجة إلى استشارته».

* ولاية في شمال غرب الولايات المتحدة تطل على المحيط الهادي. (م)

وافق هادلي قائلاً إن غيتس سيكون خياراً جيداً. فقد جمعت الاثنين علاقة عمرها 32 سنة، تعود إلى آخر أيام إدارة نيكسون، حين كانا موظفين صغيرين في مجلس الأمن القومي.

في عام 2005، حاول البيت الأبيض تجنيد غيتس لشغل منصب أول مدير للاستخبارات الوطنية. وقابل كبار موظفي البيت الأبيض، وأجرى سلسلة من المناقشات معهم وتبادلوا الرسائل حول مدى السلطة التي سيتمتع بها وحجمها، لكنهم لم يشركوا الرئيس في الحوار لإتمام الاتفاق. وحين رفض غيتس الوظيفة، فوجئ هادلي وشعر بالانزعاج قليلاً. كان بإمكانهم التعلم من تجار السيارات، كما قال غيتس مداعباً فيما بعد، حين عاد إلى جامعة تكساس؛ لأنهم «تركوه يغادر صالة العرض دون أن يشتري، وبقيت جيوبهم خاوية».

اقتنع غيتس بأنه أحرق الجسور كلها مع الإدارة. «لن أتلقى أي اتصال من هؤلاء. أنا في مأمن»، كما قال لزوجته.

ومع ذلك، اتصل به البيت الأبيض مجدداً في أواخر تشرين الأول 2006. سأله هادلي: «ألا يهمك أن تصبح وزيراً للدفاع».

في هذه المرة، لم يطرح غيتس أي سؤال. لم يتردد. فقد أراد دوماً الخارجية أو الدفاع. وتساءل كيف يمكن أن يرفض وشباب الوطن يموتون في حربين اثنتين.

قال لهادلي: «أجل. أنا مهتم بالمنصب».

كان الحديث قصيراً، وبعد أن وضع غيتس سماعة الهاتف، جلس وقد تملكته الدهشة وشيء من الذهول. قال في نفسه: سوف تقتلني زوجتي. فقد تعهدا دوماً بالعودة إلى ولاية واشنطن بأسرع وقت ممكن.

أبلغ هادلي بوش: «غيتس مهتم بالوزارة».

قال الرئيس: «تابع الأمر معه».

بعد بضعة أيام، اتصل جوش بولتون، كبير موظفي البيت الأبيض، بغيتس ليتيقن أنه جاد فعلاً. «نريد أن تجتمع مع الرئيس». واتفقا على لقاء غيتس مع الرئيس على مائدة

عشاء خاص يوم الأحد الثاني عشر من تشرين الثاني. لكن بولتون اتصل ليقول إن الرئيس يريد تقريب الموعد، فأعيد تحديده في الخامس من تشرين الثاني في مزرعة كروفورد.

استشار غيتس رجلاً واحداً فقط بشأن الوظيفة: الرئيس السابق جورج بوش الأب. كان غيتس قد عمل معه، وهما ينتميان إلى النادي الأكثر خصوصية وتقييداً وانتقائية في قبول الأعضاء في الحكومة الأمريكية: إدارة وكالة المخابرات المركزية. وبعد أن أبلغه اتصالَ هادلي، قال غيتس: «لا تبلغ أحداً على الإطلاق. لكن هل تظن أن علي قبول المنصب؟».

قال الرئيس السابق إنه لا يريده أن يترك جامعة تكساس. لكن في الوقت نفسه قال: «هذا عمل عظيم تقوم به».

* * *

في مركز القيادة العسكرية الوطنية في البنتاغون، كان «مجلس الكولونيلات» يفكك بطريقة جسورة لغز العراق المحير. عمل الضباط اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وكثيراً ما عادوا إلى بيوتهم بعد حلول الظلام. كان غرينوود يقود سيارته عائداً إلى منزله في آرلينغتون، في حين يتجه منصور شمالاً إلى الغرفة التي خصصها له ابن عمه في سيلفر سبرينغ، ويركب مكماستر مترو الأنفاق إلى فندق في وسط مدينة واشنطن.

في نهاية المطاف، جمع الكولونيلات الشرائح (السلايدات) معاً لعرضها على القادة [3]. تناولت واحدةٌ «فهم بيئة العمل»، ومن بين الفقرات التي وردت فيها: هناك تمرد متعدد الطبقات يشبه وحش الهايدرا الأسطوري المتعدد الرؤوس (إذا قُطع رأس نبت مكانه رأس)؛ العنف الطائفي ظل في ارتفاع واتخذ شكل تطهير عرقي؛ يعدُّ السنة الجيش العراقي غالباً ميليشيا شيعية؛ الحكومة العراقية مصابة بآفة الفساد، ومنحازة طائفياً، وتعاني العجز وانعدام الكفاءة والمهارة.

شمل العرض نظرة واقعية نقدية على إستراتيجية مختلف الأعداء. أما أهدافهم فهي كما استنتج الكولونيلات، طرد قوات التحالف، وإضعاف الحكومة العراقية الوليدة، ومنع تحقيق المصالحة السياسية، والهجوم على أهداف رمزية لتسعير العنف الطائفي، وجعل المواطنين العراقيين العاديين يعيشون في حالة دائمة من انعدام الأمن والأمان.

ومع اقتراب الاجتماع اللاحق مع رؤساء الأركان، أعد الكولونيلات قائمة بـ«الاتجاهات والمعوقات» في العراق. وفي حين كان بعض الأعضاء أكثر تفاؤلاً من غيرهم، إلا أن الشعور العام تمثل في أن الولايات المتحدة تواجه ورطة مأزقية. واتفقوا على تكليف غرينوود بإيجاز ما توصلت إليه المجموعة من نتائج مقلقة أمام القادة. وبدا بعض زملائه قلقين عليه، وقالوا له: «سوف يسلخون جلدك».

أجاب غرينوود: «لقد أرادوا الحقيقة».

كان الوقت المخصص للجلسة المحددة يوم الإثنين الثالث من تشرين الثاني أقصر من المعتاد. عرف غرينوود أن عليه التحدث بسرعة.

جلس القادة صامتين حين عرض شريحة على الشاشة المنتصبة خلفه: «هناك ستة اتجاهات رئيسة». كانت كلها سلبية.

1- إستراتيجيتنا الراهنة لا تعمل بنجاح.

2- الحكومة العراقية غير قادرة على توليد نتائج ملموسة ومعقولة في عيون الشعب العراقي.

3- ما زالت قوات الأمن العراقية ضعيفة وعاجزة.

4- الصراع العرقي والطائفي يتفاقم ويتصاعد.

5- حكم القانون غائب عن العراق.

6- التقدم الاقتصادي لا وجود له في العراق.

انتقل غرينوود بسرعة إلى العقبات الرئيسة الثلاث المعيقة للتقدم كما حددها الكولونيلات.

أولاً، إلى أن نعترف -كما قال- أننا في خضم تمرد معقد ونزاع يكاد يصل إلى درك الحرب الأهلية، لن تتمكن أمتنا من فهم طبيعة الصراع الحقيقية. وهذا ضروري برأيه لتشجيع خطاب صادق وتسهيل جدل نزيه.

ثانياً، لدينا ذهنية الحرب القصيرة وإستراتيجية الحرب القصيرة المتناقضتان مع الحرب الطويلة التي نخوضها.

وأخيراً، بعد ثلاث سنين من التضحيات، ينفد الوقت من الولايات المتحدة. وبوصفها قوة غزو أجنبية، فإن عبء الفوز يقع على عاتقها، أو على الأقل إظهار قدر معقول من التقدم في العراق.

ولأن ذلك كله لا يحدث بمعدل مقنع للشعب العراقي، أو الشعب الأمريكي، أو المجتمع الدولي، «تعتقد مجموعتنا أننا نخسر في العراق اليوم»، كما قال غرينوود.

وطبع جملة ختامية بالأحرف الكبيرة في نهاية الشريحة الأخيرة: «**نحن لا نكسب، إذاً فنحن نخسر**».

خيم الصمت على القادة. ولم يقدم أي منهم اقتراحاً مختلفاً.

لاحت على وجه القائد بيس كآبة غير معتادة، بل إحباط وإنكسار، كأنه يقول: «كيف لم أدرك ذلك كله».

في يوم الأحد الخامس من تشرين الثاني، رحب بوش بغيتس في مزرعته في كروفورد (بولاية تكساس)؛ لعقد لقاء ثنائي بينهما [4]. وصل غيتس بهدوء وقابل الرئيس في مكتبه الخاص المجاور للمنزل الأساسي، حيث اجتمع عدد من الضيوف للاحتفال بعيد ميلاد لورا بوش الستين.

التقى غيتس بالرئيس لقاء عابراً في ولايته الأولى، والتقطت له ذات مرة صورة مع حاكم الولاية بوش في مبنى تكساس التشريعي.

كان يمثل خياراً معقولاً وواضحاً، لكن مفاجئاً، لمنصب وزير الدفاع. فمع خبرة ثلاثة عقود تقريباً في وكالة المخابرات المركزية، وفي فريق مجلس الأمن القومي، كان رجل حكومة، لكنه اتصف أيضاً بنزعة استقلالية وعدم احترام الآخرين.

قال في مذكراته «من الظل» (1996)، التي كتبها حين بدا أن أيامه في الحياة العامة قد انتهت: «عملت في البيت الأبيض في عهد أربعة رؤساء، وشهدت كل شيء: المكائد، الطعن في الظهر، المطامح الوحشية، الصراع المستمر، المخبرون، الجواسيس، مسرّبو الأخبار، الذوات الأنوية المتضخمة التي بلغت حجم النصب التذكارية والمباني المحيطة، المعارك بين العمالقة، مسؤولون في الحكومة يتصابون (يتصرفون كالصبيان)، نوبات الغضب الجامحة.

كان من أقرب أصدقاء غيتس برينت سكوكروفت، الذي شغل منصب مستشار شؤون الأمن القومي في عهد بوش الأب بين عامي 1989-1993. حيث عمل غيتس نائباً له مدة سنتين، وأشرفا معاً على سياسة خارجية براغماتية بعيدة عن الإيديولوجيا. ومثلت دعوته الآن للانضمام إلى الحلقة الداخلية إيماءة إلى تلك المدرسة القديمة للسياسة الخارجية، التي مارسها والد الرئيس وسكوكروفت، الذي انتقد حرب العراق انتقاداً ضارياً. كان أسلوبهما أكثر صرامة وحذراً، حيث تعد الحرب الملجأ الأخير.

قال لي الرئيس فيما بعد: «عمل في إدارة والدي، لكنني لم أعرفه معرفة وثيقة. على أي حال، جلسنا معاً. وكما تعلم، أحب الحديث عن خلفية الشخص المعني وماضيه، لأعرف من هو... فأسأله عن الأسرة، وانظر ردة فعله على الأسئلة» [5].

قال إنه أبلغ غيتس أننا «في خضم حرب، وأنا بحاجة إلى قيادتك. ما كنا نفعله لم ينجح. سوف نغير إستراتيجيتنا. أحتاج إلى وجه جديد. فهل أنت مهتم؟».

قال غيتس إنه مهتم.

قال الرئيس عن العراق: «سوف نجري بعض التغييرات على الإستراتيجية. علينا تغيير مقاربتنا».

وافق غيتس، لكنه قال للرئيس إن لديه عدة اهتمامات أخرى تتجاوز تخوم العراق؛ أولاً، الجيش صغير ولا يكفي حجمه لأداء المهمات المطلوبة منه، ثانياً، شعر بأنهم خدعوا الحرس الوطني؛ فكثير من أفراده انضموا إليه بوصفهم جزءاً من الاحتياط الإستراتيجي للحالات الطارئة الوطنية، لكنه تحول إلى قوة عملياتية تنشر بانتظام، ثالثاً، يشتري

البنتاغون معدات تناسب الحرب الباردة، في حين تحتاج القوات الأمريكية إلى معدات تناسب صراعات مكافحة الإرهاب ومحاربة التمرد التي تواجهها الآن.

«بعد قليل من المناقشة، قلت: حسن، أنا أعرض عليك الوظيفة»، كما تذكّر بوش.

وافق غيتس على الفور. «أعتقد أنه اهتم بالفرصة السانحة»، حسبما قال بوش.

سأل الرئيس غيتس عن رأيه بفكرة زيادة عدد القوات في العراق. فأجاب غيتس إنه قد يؤيد الزيادة، مع أنه يعتقد بضرورة ربطها بأداء العراقيين.

تذكر بوش: «قال إنه يعتقد أنها فكرة جيدة. ولذلك بدأت أرى أن لدي رجلاً مؤهلاً وكفؤاً، يتمتع بسجل حافل، ويعرف ما يدور في واشنطن، ويدرك حاجتنا إلى إستراتيجية جديدة... لأنني عند هذه المرحلة، في تشرين الثاني، بدأت أفكر في زيادة عدد الجنود لا تقليصه. ومن اللافت فعلاً أن الرجل الذي تحدثت معه في كروفورد يفكر بالطريقة ذاتها».

قال بوش إنه أبلغ غيتس ذلك اليوم في كروفورد أن «الحياة قد تكون صعبة بالنسبة إلى وزير الدفاع، لكن هذه فرصة لصنع التاريخ».

في الأسبوع اللاحق، استمر ستة عشر ضابطاً (من عقداء الجيش ونقباء البحرية) في التمارك مع العراق في البنتاغون. ناقشوا قائمة بالخيارات الإستراتيجية المحتملة، التي سيوجزها العقيد غرينوود فيما بعد للقادة، ومن بينها [6]:

1- **ممارسة ضغط كبير وكامل.** زيادة عدد الجنود زيادة كبيرة، ربما بمئات الألوف، للتفوق على العدو، وكسر حلقة العنف الطائفي، ووقف عنف التمرد. كان العقيد مكماستر أكثر المؤيدين للخيار صراحة وجرأة، مع أن كثيراً من الضباط رفضوا الفكرة على أساس عدم وجود قوات أمريكية متوافرة وعدم كفاءة القوات العراقية.

2- **إطالة مدة البقاء في العراق.** الالتزام بإبقاء عدد كبير من الجنود على مدى سنوات، قد تبلغ عقداً، في سبيل إنشاء جيش عراقي مستقر وكفء. أيد العقيد منصور وبضعة ضباط آخرين هذا الخيار تأييداً قوياً.

3- **العودة إلى الوطن.** انسحاب سريع للجنود الأمريكيين. مع أن بضعة ضباط مالوا نحو هذا الخيار، إلا أن معظمهم اتفقوا على أن ذلك قد يؤدي إلى اندلاع حرب أهلية شاملة.

4- **إستراتيجية القطاع المعزول.** تطويق بعض المناطق المعينة وفصلها وعزلها للسيطرة على الدخول والخروج منها، والحفاظ على السلام والأمن فيها.

54- **التقسيم.** تقسيم البلاد إلى مناطق ومقاطعات اعتماداً على الهوية العرقية/الطائفية.

6- **الانسحاب التدريجي.**

7- **توليفة تجمع الخيارات الواردة آنفاً.**

قال الجنرال شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش: «مع وجود عشر فرق عراقية وخمسة عشر لواء من الجنود الأمريكيين وقوات التحالف، يصعب علي تخيل أننا لا نملك ما يكفي من الجنود».

سأل بيس: «هل يمكننا انتقاء الخيارات وتوليفها»، مقترحاً جمع أجزاء منها.

لم يتحمس الضباط للاقتراح، باعتبار أن الإستراتيجية الراهنة جُمعت بالطريقة ذاتها على ما يبدو من أجزاء متفرقة على عجل.

في السادس من تشرين الثاني، اليوم السابق على موعد الانتخابات، أرسل رمسفيلد مذكرة سرية إلى البيت الأبيض قال فيها [7]: «برأيي، حان الوقت لإجراء تعديل رئيس»، وأضاف مشيراً إلى ما أصبح إجماعاً تقريباً داخل الإدارة: «الأمور في العراق لا تسير بنجاح كاف أو بسرعة كافية». ثم عدد بعض الخيارات المحتملة: «تخفيض سريع في عدد القوات»؛ انسحاب القوات الأمريكية من المواقع المعرضة للخطر ووقف الدوريات الخطرة؛ تزويد الزعماء السياسيين والدينيين البارزين بالمال كما فعل صدام. وأضاف: «إعلان أن أي مقاربة جديدة تقررها الولايات المتحدة يجب أن تكون على أساس تجريبي. وهذا سيمنحنا القدرة على التعديل والتكيف والانتقال إلى مسار آخر، عند الضرورة، ومن ثم لا 'نخسر'».

كتب رمسفيلد قائلاً إن «الخيارات الأقل جاذبية» تشمل متابعة المسار الراهن، ونقل «جزء كبير من القوات الأمريكية إلى بغداد لمحاولة السيطرة عليها»، وزيادة عدد القوات الأمريكية «زيادة كبيرة»، وتحديد «موعد ثابت للانسحاب» في نهاية المطاف. كان كعهده دوماً يركز على الخريطة.

في اليوم ذاته، طلب بوش من تشيني البقاء بعد اجتماع عقد في المكتب البيضاوي. سارا معاً عبر المدخل إلى غرفة طعام الرئيس الخاصة.

قال الرئيس: «قررت استبدال رمسفيلد».

سأل تشيني: من؟ وهو يعلم أن بوش لن يتخذ هذه الخطوة دون وجود بديل جاهز.

قال بوش:»سيكون بوب غيتس». أراد إبلاغ تشيني، لكنه لا يريد أن يتحدث عن الموضوع أو يخبر أحداً به.

قال تشيني: «حسناً يا سيادة الرئيس. أنا غير موافق، لكنه قرارك كما هو واضح».

شعر تشيني بالخيبة والإحباط. من المؤكد أن رمسفيلد يحمل عبئاً ثقيلاً من الأفكار السابقة والتجارب، مثله، كما فكر. لكنه أدرك أن قرار الرئيس نهائي.

عرف تشيني أسلوب الرئيس وخبره. سوف يصف رمسفيلد بأنه «رجل صالح»، و»صديق»، و»مهني محترف» تمتع بتجربة واسعة وعمل دون كلل أو ملل. ولن يريد أن يقلل أحد من احترام رمسفيلد أو يدعوه بـ»الشرير». سوف يغطون على الموضوع ويخفون جانبه الكريه بعناية، وسيمنح وزير الدفاع وداعاً كريماً ولائقاً في البنتاغون مع أقصى قدر من المراسم الاحتفالية التي يمكنهم تنظيمها. وسيعلن تشيني على الملأ أن رمسفيلد «أفضل وزير دفاع عرفته هذه الأمة في تاريخها كله». وسيكون خروجاً آخر يحفظ ماء الوجه. أما التركيز على إنجازات رمسفيلد فسينقذ الرئيس ويجنبه عبء توجيه اللوم أو التحدث عن الفشل والإخفاق.

في يوم الثلاثاء السابع من تشرين الثاني، فاز الديمقراطيون بانتخابات الكونغرس النصفية، وسيطروا على مجلسي النواب والشيوخ. وفي أصيل اليوم اللاحق، ألقى الرئيس قنبلته: رمسفيلد خرج، وحل محله غيتس.

اجتاح الغضب الجمهوريين، الذين فقدوا للتو مواقعهم القيادية التي احتلوها منذ أمد بعيد. «أردت أن ألقي بأطباق الفطور على شاشة التلفاز»، كما قال بيتر هويكسترا، النائب الجمهوري عن ولاية ميشيغان، الذي خسر رئاسته للجنة الاستخبارات التابعة لمجلس النواب. ومثل كثير من الجمهوريين، برغم أنه لم يصرحوا علناً، شعر بأن بوش لو طرد رمسفيلد الذي لا يحظى بأي شعبية، قبل أسابيع، لساعد ذلك الجمهوريين في السباق التنافسي الحاد. بعض الجمهوريين الذين عُرفوا بولائهم الشديد، بدؤوا البحث عن طريقة للقفز من سفينة بوش الغارقة بسبب سياسته في العراق، مع أنهم لم يعرفوا إلى أين أو إلى من يلجؤون.

حين سألت الرئيس عن الموضوع بعد سنتين، قال إنه اعتقد أن حزبه سوف يحتفظ بالسيطرة على مجلس الشيوخ في الانتخابات النصفية [8]. لكنه لم ينسب الخسارة إلى حرب العراق وحدها. بل إن فضائح الجمهوريين لعبت دوراً كبيراً مماثلاً. «عُدّت الانتخابات تصويتاً على أشخاص افتقدوا النزاهة والصدق. أدين بعض أعضاء حزبنا بتهم خطرة، وذهب غيرهم إلى السجن، واستقال بعضهم الآخر من المجلس لأسباب متنوعة.

«وأنا هناك، أقود الحملات الانتخابية متوثقاً من النجاح».

في الثامن من تشرين الثاني، بعث هادلي بتقريره عن معاينته المباشرة للوضع في العراق. ففي مذكرة سرية من خمس صفحات (تسربت فيما بعد إلى الصحافة)، كتب هادلي يقول: «يشير الواقع الحقيقي في شوارع بغداد إلى أن المالكي إما يجهل ما يحدث، أو يخطئ في تجسيد نياته ومقاصده، أو لم تبلغ قدراته حداً كافياً بعد لتحويل مقاصده الحسنة إلى إجراءات عملية» [9]. من مسارات العمل التي أوصى بها هادلي «الطلب من وزير الدفاع والجنرال كيسي التوصية بشأن الحاجة إلى مزيد من القوات في بغداد».

التقى الكولونيلات مرة أخرى مع القادة يوم الثلاثاء التاسع من تشرين الثاني، وكانت الجلسة مصممة لتحضير الجنرال بيس للقاء يعقد في البيت الأبيض مع بوش في اليوم اللاحق؛ لمناقشة ما وصفه بيس بأنه «طريق غير مرسوم إلى الأمام» في العراق. وكان من المتوقع أن يقدم رمسفيلد وهادلي مذكرات. قال بيس إنه مضطر إلى عرض بعض الخيارات الإستراتيجية التي وضعها الكولونيلات. لكنه تجاهل عدداً منها، خصوصاً خيار «العودة إلى الوطن». وعرف الجميع أن الرئيس لن يفكر في أي اقتراح يشير إلى الخسارة، أو الفرار من المشكلة بدلاً من مواجهتها.

* * *

في صبيحة يوم الجمعة العاشر من تشرين الثاني، دعا بوش تشيني، ورايس، ورمسفيلد، وهادلي، وبيس، وجون نيغروبونتي (مدير الاستخبارات الوطنية آنذاك)، وجيه. دي. كراوتش (نائب هادلي)، إلى المكتب البيضاوي؛ للبدء بمراجعة رسمية لإستراتيجية العراق، كما قال لي الرئيس.

قال بوش مشيراً إلى كراوتش: «جيه. دي، سوف ترأس الاجتماع». ومن أجل تسهيل الاجتماع وإعطائه الأهمية الملحة المناسبة، كان على كل من الحاضرين ترشيح ممثل بارز لمجموعة المراجعة. وكان من المنتظر أن يكرس الممثلون وقتهم الكامل للمهمة، وعلى كراوتش عقد اجتماعات يومية معهم، حتى في عطلات نهاية الأسبوع. فقد أراد الرئيس تقريراً شاملاً في مدة ستة عشر يوماً.

في اليوم نفسه، العاشر من تشرين الثاني، حضر كيسي في بغداد احتفالاً بمناسبة مرور 231 سنة على تأسيس مشاة البحرية، وهي مراسم احتفالية سنوية يتعامل معها مشاة البحرية (المارينز) بجدية كبيرة. وبين الساعة الخامسة والسادسة مساء استعد لاجتماع عبر نظام الفيديو الآمن مع بوش ومجلس الأمن القومي. وسيجري أول مناقشة مع بوش منذ الانتخابات واستبدال رمسفيلد.

في الساعة 6:15 مساء بتوقيت بغداد (10:15 صباحاً بتوقيت واشنطن)، ومع بداية عطلة عيد المحاربين القدماء، ظهر كيسي وخليل زاد على شاشة الفيديو الآمن. كان بوش في غرفة روزفلت مع فريق الأمن القومي.

قدم الجنرال والسفير آخر ما لديهما من معلومات وأخبار كما جرت العادة.

طوال أكثر من عامين من التعامل مع بوش، لم يختبر كيسي شيئاً كهذا. تبين له بوضوح لا لبس فيه أن الرئيس كان مهتاجاً ومنزعجاً، ومتعجرفاً، وبارداً وعدائياً. اعتاد أن يجده على الدوام متفائلاً، ودافئاً، وودوداً. لكن في هذا اليوم، كان تمثالاً من جليد، وفظاً تقريباً.

قال كيسي لخليل زاد بعد الاجتماع: «يا للهول. أتساءل ما الذي سيحدث نتيجة لهذا الاجتماع؟». وفي كل الأحوال، تبين للاثنين بوضوح أن حياتهما سوف تتغير تغيراً جذرياً.

في اليوم اللاحق، السبت الحادي عشر من تشرين الثاني، التقى هادلي ورايس مع قادة فريق مراجعة إستراتيجية العراق –كراوتش، أوسوليفان، زيليكو، ساترفيلد– لوضع الأسئلة التي أرادا مناقشتها: هل يسعى الشيعة وراء أجندة هيمنة؟ هل يمكن للولايات المتحدة أن تؤثر فعلاً في الزعماء العراقيين لاتخاذ قرارات في مصلحة العراق، أم أنهم ينفذون أجندة طائفية لا محيد عنها؟ ما العلاقة بين الأمن والمصالحة السياسية؟ ما العلاقة بين مستويات القوات الأمريكية والأمن؟

أرادت مجموعة وزارة الخارجية –رايس، زيليكو، ساترفيلد– العثور على طريقة لإثبات أن حرب العراق لا تمثل القضية المهيمنة الوحيدة في السياسة الخارجية الأمريكية. واقترح أعضاؤها أن تتصدى المراجعة لما يأتي: كيف نعرّف المصالح الأمريكية الجوهرية ونحددها؟ هل نعيد التركيز على جهود أكثر تواضعاً وأقل طموحاً؟

كان السؤال الأخير هو: إذا كان العراقيون عاجزين عن التعامل مع المشكلة الطائفية بأنفسهم، فهل يمكن أن نبني جسراً إلى وضع أكثر استدامة بمرور الوقت؟

أرسل هادلي مذكرة سرية في بداية الأسبوع اللاحق [10]. «يأمر الرئيس بإجراء مراجعة للوضع في العراق للاستفادة من العمل الذي يجري حالياً لوصف الوضع الراهن... وإيجاز الافتراضات الإستراتيجية التي يجب أن يرتكز عليها الجهد في العراق الآن... وتحديد أهداف أمريكا الجوهرية ومصالحها الأساسية».

بعد شهور من الدراسات السرية للمشكلات الكامنة في إستراتيجية العراق، بدأ أخيراً البحث رسمياً عن الحلول الممكنة. وحدد موعد الاجتماع الأول في الساعة الخامسة مساء من يوم الأربعاء اللاحق، الموافق للخامس عشر من تشرين الثاني.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أحد عشر مصدراً مطلعاً.

1- مقابلة مع الرئيس بوش في 2008/5/20.

2- المصدر السابق.

3- وفقاً لملحوظات دوّنها أحد المشاركين.

4- انظر:

Sheryl Gay and Jim Rutenberg, «Rumsfeld Resigns; Bush Vows 'to Find Common Ground'; Focus Is on Virginia,» The New York Times, November 9, 2006, P. A1.

5- مقابلة مع الرئيس بوش في 2008/5/20.

6- وفقاً لملحوظات دوّنها أحد المشاركين.

7- «Rumsfeld's Memo of Options for Iraq War,» The New York Times, P. A 28.

أُكّدت المحتويات بواسطة مصدر مطلع في الإدارة عام 2008.

8- مقابلة مع الرئيس بوش في 20/5/2008.

9- انظر:

Michael Gordon, «Bush Adviser's Memo Cites Doubts About Iraq Leader,» The New York Times, November 29, 2006, P. A 1; "Text of the National Security Adviser's Memorandum on the Political Situation in Iraq, The New York Times, November 29, 2006, P. A 19.

أُكّدت المحتويات بواسطة مصدر مطلع في الإدارة عام 2008.

10- وثيقة سرية بتاريخ 2006/11/11، نزع عنها البيت الأبيض السرية عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحا المؤلف.

-21-

بعد الثامنة قليلاً من صباح الثالث عشر من تشرين الثاني، جلس أعضاء لجنة بيكر- هاملتون في مقاعد جلدية حول طاولة مؤتمرات خشبية دكناء اللون في غرفة روزفلت المغلقة، قبالة المكتب البيضاوي [1].

وصل بوش يرافقه تشيني، وهادلي، ورئيس موظفي البيت الأبيض جوش بولتون. وبعد مجاملات وجيزة، بدأ الرئيس: «يعدّ العراق جزءاً من صراع إيديولوجي»، كما قال مرتجلاً، وأضاف: «إذا لم تعتقدوا أن هذا صراع إيديولوجي، فإن ملحوظاتي لا موجب لها».

استشهد الرئيس بالزعماء الأجانب الذين ما يزالون يتفقون معه بشأن العراق، ومنهم الرئيس الباكستاني برويز مشرف، والرئيس الأفغاني حامد كرزاي، والملك السعودي عبد الله. فهؤلاء جميعاً يؤيدون الوجود الأمريكي في العراق، كما قال بوش.

«القاعدة ما تزال هناك، وهي ناشطة وفاعلة. وبرأينا، فإن أعضاءها هم المسؤولون. حيث يسعرون لهيب العنف الطائفي... ومهمتنا هي العثور عليهم وقتلهم». وأضاف البعثيين إلى لائحة مثيري المشكلات. وقال إن الشيعة يحمون أغلبيتهم بمقاتلة السنة.

ثم تحول إلى المالكي. في حزيران، حين التقى أول مرة بلجنة بيكر- هاملتون، كان مترعاً بالتفاؤل فيما يتعلق بالمالكي. قال الآن: «رئيس الوزراء ملتزم بتوحيد العراق. وهو يعلم أن عليه أن يمد يده إلى السنّة».

وقال إن التحدي يتمثل بإقامة توازن دقيق بين السلطة العراقية والوجود الأمريكي.

«يجب أن نفعل ما بوسعنا لتقوية المالكي. يجب مساعدته والحفاظ عليه. نحن بحاجة إلى تقوية المالكي لا إضعافه».

قال بوش إن رئيس الوزراء غضب من الضربات العسكرية التي وجهت إلى الأحياء الشيعية، وعبر عن خيبة أمله في السفير خليل زاد، وعدّ الأمر إهانة شخصية حين أعطى السفير خليل زاد الانطباع أن الولايات المتحدة تملي عليه مشيئتها.

«أفهم مشاعر الإحباط هذه»، كما قال، مضيفاً أن هذه علامة مبشرة على وجه العموم. «نحن نلزم الحكومة بتلبية معيار رفيع، معيار لا تستطيع حكومتنا ذاتها تلبيته. فهذا جدول زمني يستحيل ضمنه على أي ديمقراطية تحقيق هذه الأهداف. وسوف أسحب جنودنا إذا لم نتمكن من تحقيق هذه الأهداف».

وأضاف: «من الممكن تحقيق أهدافنا... أنا أدير هذه الحرب». وكل ما على القادة فعله هو إبلاغه بما يحتاجون إليه، كما قال.

تابع بوش قائلاً: «هناك قلق عميق على الجبهة الدولية من انسحاب الأمريكيين. فدينامية المنطقة تشير إلى أن السنة يجدون إيران مشكلة أخطر من إسرائيل».

وفيما يتعلق بإيران، قال الرئيس: «لا يمكن أن نقايض المساعدة في العراق بأسلحة إيران النووية. سوف يديننا التاريخ».

وفسح الرئيس المجال لطرح الأسئلة.

سأل لي هاملتون: «ما النصر؟».

أجاب بوش: «الكلمة التي تعبر تماماً عما نريد تحقيقه هي النصر. نريد حليفاً في الحرب على الإرهاب: حكومة يمكن أن تحكم، وتحافظ على نفسها، وتدافع عن نفسها».

اعتقد هاملتون أن الجواب مبالغ في الغموض وأن الرئيس لم يفهم ما قاله فعلاً. لكنه لم يعلق.

سأل بيكر: «كيف ندفع حكومة المالكي إلى القيام بما نعرف أنها بحاجة إلى فعله؟».

قال بوش إنه أبلغ رئيس الوزراء أن عليه اتخاذ قرارات صعبة فيما يتعلق بإصلاح قانون اجتثاث البعث وقانون تقاسم عائدات النفط. «أنا لا أضع الأعذار التبريرية»، كما قال، لكنه صحح كلامه بسرعة: «أظن أنني أختلق الأعذار للرجل».

سأل بيكر: «ما الذي يحدث إذا كانت هناك نقاط مرجعية صارمة –يقاس تبعاً لها الأداء أو غيره؟».

قال بوش: «هناك ما يغري على القول: يجب أن تفعل ذلك وإلا... نخشى أن يعد ذلك فرضاً للرأي. يزداد احتمال أن يستجيب المالكي حين يكون في صفنا».

قال فيرنون جوردان إنه كان يفهم دوماً ما تعنيه أمه حين تطلب منه تنظيف «الكراج». لكن حين يتحدث الرئيس عن النصر، لا يفهم ما يعنيه بالضبط. «ماذا يعني 'إنجاز المهمة' » في العراق؟

أجاب بوش: «يريد الناس أن يعرفوا سبب وجودنا في العراق»، وتجاهل سؤال جوردان وتحول إلى ما تعنيه الهزيمة: ملاذ آمن للقاعدة، وخسارة النفوذ الأمريكي، وفقدان ثقة المملكة العربية السعودية والأردن بأمريكا، وتزايد نفوذ الشيعة في المنطقة. وسوف «يضحك الإيرانيون علينا»، وتتوقف المحادثات الإسرائيلية – الفلسطينية.

وأضاف الرئيس: «ستكون عواقب الهزيمة كارثة على الأجيال القادمة. لن تعرف متى تحين لحظة النصر. يتحقق النصر حين تؤدي الحكومة وظيفتها على أكمل وجه، وحين يوضع قانون للنفط، ويكون الجيش قادراً على تحقيق الاستقرار. إنه علامة دالة على التقدم. أما نهاية العنف، نهاية العنف الطائفي، فلن تحدث».

ذَهَلَ ليون بانيتا؛ لأن الرئيس لم يعرّف قط معنى الفوز، ولا الهدف النهائي الذي تسعى إليه الولايات المتحدة.

سأل بيل بيري عن إمكانية إرسال مئة ألف جندي إضافي. فأجاب الرئيس إن ذلك ممكن مدة قصيرة، ملاحظاً أن الجنرال كيسي لم يعتقد أن مثل هذا العدد ضروري.

سأل بيري: «هل التجنيد الإجباري ضروري؟».

«لا، أبداً».

وماذا عن زيادة حجم القوات المسلحة؟

«نحن نفكر في المسألة».

قالت ساندرا داي أوكونور إن المالكي ضعيف جداً. فكيف يمكن للولايات المتحدة تقويته؟

أجاب بوش: «يمكننا تقويته عبر منحه مزيداً من السلطة على قواته الأمنية».

سأل هاملتون: «ما مدى صبرنا؟ الحقيقة أن المالكي لا يتخذ خطوات صعبة وحاسمة. إلى متى نستطيع مواصلة السير على هذا الدرب بتكلفة مليار دولار في الأسبوع، وخسارة رجالنا كل يوم؟».

أجاب بوش: « يتخذ المالكي فعلاً خطوات صعبة. فهو يعمل على عزل الميليشيات الشيعية وفصلها عن الصدر، ويحاول إقناع الصدر بالمساعدة. لدينا معلومات استخبارية كثيرة تشير إلى أنه يلاحق فرق الموت، وليس من العدل القول إنه مهماز محفز العنفَ الطائفي. هذا اتهام باطل».

حين تطارد الولايات المتحدة الميليشيات الشيعية، كما قال الرئيس «نبلغ رئيس الوزراء. لدينا خطط نظرية فاعلة للمساعدة، لكن العسكر يبالغون في الاعتماد على القوة. وعلى المالكي أن يقول أمام شعبه: ماذا تفعلون في أحيائنا السكنية بحق الجحيم؟».

سأل إيد ميز عن إعادة الإعمار.

اعترف بوش قائلاً: «تجاوزنا الحد الأقصى في تمويل إعادة الإعمار. ولن يوافق الكونغرس على إنفاق مزيد من المال. لهذا السبب نريد من المجتمع الدولي أن يساهم». ولا حاجة إلى التذكير أن المجتمع الدولي ترك العراق في أيدي الأمريكيين.

قال بوش إن موقف الملك عبد الله تغير تغيراً جذرياً. إذ لم يعد يركز على المالكي، بل بدأ يهتم بالنجاح في العراق ليصبح منطقة عازلة أمام إيران.

قال بانيتا: «من الصعب الحفاظ على هذه السياسات دون تحقيق تقدم على الأرض». وسأل عن إستراتيجية السيطرة والبناء وعن خطة تأمين بغداد: «ما مستوى أدائنا؟».

أجاب بوش: «بغداد خلطة منوعة». وأضاف إنه كثيراً ما سئل هل أصبح الجنود أهدافاً سهلة محاصرين في مخافر الأحياء، وهل يقاتلون أم لا. قال مطمئناً الحاضرين: «إنهم يقاتلون»، وأضاف بفخر واعتزاز: «قتلنا أو أسرنا 1700 في شهر تشرين الأول وحده».

لم يحدد مَن هؤلاء سبع المئة والألف!

تابع قائلاً: «أنا محبط مثل الشعب الأمريكي. الموت يطغى على النجاح. حين تبني مدارس أو تفتتح مستشفيات، تحقق نجاحاً. الموصل نجاح. تل عفر نجاح كبير، لكنه الآن يواجه التحدي. يمكننا بناء مدارس كل يوم، ولا يذكر ذلك بوصفه نجاحاً».

«لو لم أؤمن بأن ذلك كله يستحق العناء، لغادرنا [العراق]. نحتاج إلى تحقيق نصر إيديولوجي. أنا لا أقدم الأعذار، لكننا لا نستطيع تحسين الأمور في وقت قصير. الأمر يستحق العناء بسبب العواقب... تقريركم يمكن أن يمثل إسهاماً مهماً هنا، إن تصديتم للميول الانعزالية في بلدنا. هناك موقف في البلد – 'دعونا نخرج. دعونا نحمي تجارتنا. دعونا نوقف المهاجرين'. نحن بحاجة إلى التعامل مع المشاركة النفسية في الشؤون الدولية وموقع هذا البلد؛ لكي يبقى رائداً وقائداً. لا جدوى من الاعتماد على قيادة أوروبا أو غيرها. يجب أن تكون الولايات المتحدة قائدة العالم في التصدي لهذه القضايا الصعبة، وإلا لن يتصدى لها أحد».

سأل تشوك روب، الذي أيد في البداية إضافة مزيد من القوات، هل الرئيس مستعد لإحداث تغيير جذري على المدى القريب في بغداد؟

ذكر بوش آلية تجسير على المدى القريب –في إشارة واضحة إلى زيادة عدد القوات. فإذا أوصى بذلك وزير الدفاع المعين حديثاً، والقادة الميدانيون، كما قال، فلا بد أن يقبله.

سألت بوش فيما بعد عن ملحوظته أمام اللجنة حول «آلية تجسير على المدى القريب» (2).

قال: «لا أعرف ماذا تعني».

تدخل هادلي مقاطعاً: «أنت تعني: نريد الوصول إلى مرحلة يمكن فيها للعراقيين تحمل مسؤولية الأمن».

قال بوش: «هذا صحيح».

تابع هادلي: «وهذا ما كنا نفعله تحت قيادة كيسي ورمسفيلد. لكنك تقول: لا يملكان القدرة على الوصول إلى هذه المرحلة الآن».

قال بوش: «أجل، هذا صحيح».

قال هادلي: «نحتاج إلى جسر للوصول إلى نقطة يتحمل العراقيون عندها المسؤولية. وهذا يعني زيادة عدد القوات».

قال بوش: «تماماً».

أشار روب إلى أن الرئيس دافع دفاعاً قوياً عن المالكي في اجتماع الثالث عشر من تشرين الثاني.

سأل بوش: «هل المالكي هو الرجل المناسب؟ يقول كيسي إنه الرجل المناسب».

سأل روب هل وضع المالكي معايير مرجعية داخلية لقياس التقدم؟

قال بوش إنه تحدث عنها، لكن لم يضع أياً منها.

قال بيكر مقاطعاً ومشيراً إلى المالكي وغيره من الزعماء العراقيين: «هل نحن بحاجة إلى الاعتماد على هؤلاء إلى هذا الحد؟». غدت ثورات الغضب العفوية هذه سمة مميزة لبيكر في المقابلات الشخصية التي أجرتها اللجنة.

قال هاملتون إن الأمريكيين ليسوا موحدين. والبلاد تدير ظهرها لهذه الحرب. ولم يكن متيقناً كيف يمكن للولايات المتحدة الحفاظ على سياسة خارجية مؤثرة دون توحيد الجهود.

لم يجب بوش في البداية، لكنه رجع بعد ذلك إلى السؤال: «معظم الأمريكيين لا يريدون مغادرة العراق. معظم الأمريكيين يريدون تأييد خطة تعمل بنجاح... نستطيع النجاح. لن يكون الأمر سهلاً. نحتاج إلى المساعدة من عيون جديدة خارج الحكومة. سوف نبقى في العراق طوال مدة رئاستي».

«لا يريد المرشحون لانتخابات عام 2008 التعامل مع المشكلة. وهذه فرصة لنا». بدا أنه يقترح عملاً مشتركاً بينه وبين اللجنة. «هذه صفقة كبرى. وفكرتنا هي تعريف الأمريكيين أننا نعمل لتحقيق النصر... إذا قلت إنني أسعى إلى هدف أقل من النصر، فسوف أخرج من هنا غداً»، كما قال.

تذكر بيل بيري في مقابلة لاحقة معه أن بوش كان متحمساً ومتغطرساً في آن. «لم يكن ينشد مشورتنا، بل يبلغنا رأيَه عن الحرب. ألقى الرئيس علينا محاضرة عن آرائه المتعلقة بمدى أهمية الحرب، ومدى صعوبتها، وكيف نبقى معاً. خطبة عصماء على طريقة تشرشل... سيكون هناك دم وعرق ودموع... تبين بكل وضوح أنه يتصور صراعاً عالمياً كبيراً، يقوده هو، والعراق مجرد عنصر فيه، وكل من يتردد أمام حرب العراق لا يرى الصورة الكبيرة الشاملة التي يراها».

قال بيري: «خطر في بالي أنه يقارن نفسه بتشرشل. ليس هذا بوش الذي نعرفه من تصريحاته العلنية. كان بليغاً. كان مخطئاً وبليغاً».

حين تحدثت مع الرئيس فيما بعد، قلت له إن بيري شبهه بتشرشل حين تحدث أمام لجنة بيكر-هاملتون.

قال: «هذا لطف منه. فأنا أشعر بالارتياح حين يطريني أحدهم بهذا الشكل» [3].

بعد أن غادر الرئيس غرفة روزفلت، بقي أعضاء اللجنة في مقاعدهم للقاء الجنرال كيسي في بغداد عبر نظام الفيديو الآمن [4].

كان استقبال بوش البارد بعد الانتخابات توكيداً صارخاً لكيسي أن القائد العام على وشك التخلي عن الإستراتيجية الراهنة، والاستغناء عنه.

أبلغ كيسي اللجنة: «المشكلة ليست فينا بل في العراقيين».

وأضاف مفسراً: «النجاح الإستراتيجي الدائم لن يحققه سوى العراقيين. وإذا تحقق، فسوف يستغرق وقتاً أطول مما نريد. يجب على حكومة العراق وزعمائه اتخاذ قرارات صعبة، لكن من غير المرجح أن يفعلوا ذلك ضمن الجدول الزمني الذي حددناه. نحن نعتمد على حكومة تفتقر إلى القدرات. الحكومة تعتمد على المليشيات الشيعية».

قال كيسي إن المشكلة الحقيقية تكمن في العنف الطائفي الذي يمارسه المتطرفون السنة والشيعة، لكن «الحكومة العراقية تريد التركيز فقط على القاعدة والبعثيين».

أراد كيسي بكل وضوح تخفيض عدد القوات. «علينا تقليص وجودنا إلى مستوى يقبله العراقيون. لقد قطعنا ثلثي الطريق عبر عملية من ثلاث مراحل لنقل مسؤولية الأمن إليهم بحلول نهاية عام 2007».

قال إن لدى الولايات المتحدة ما يكفي من الجنود والموارد في العراق. ولو وجد إمكانية في تحقيق الأهداف عبر زيادة عدد الجنود لطلب مزيداً منهم.

«هذه هي المشكلات مع زيادة عدد الجنود. المشكلة عراقية. فكلما جندنا مزيداً من قوات التحالف، طالت المدة التي يحتاجها العراقيون إلى تحقيق الأهداف المطلوبة وتحمل المسؤولية»، كما قال.

«يمكن لزيادة عدد الجنود أن تمارس تأثيراً محلياً مؤقتاً، لكنها ستؤخر الحل على المدى البعيد».

سأل بيري عن أعداد الجنود.

قال كيسي مكرراً: «يمكن لزيادة عدد الجنود الأمريكيين أن تؤثر تأثيراً محلياً مؤقتاً. ولن يكفي أي عدد من الجنود في بغداد لمنع العراقيين من قتل بعضهم بعضاً. يمكن للزيادة في عدد الجنود الأمريكيين أن تساعد مدة وجيزة، لكن المدينة ضخمة... بغداد 'بالوعة' جنود».

الجملة الأخيرة بقيت معلقة في الهواء. وفكرة أن الجنرال يشبه ساحة المعركة بمستنقع يغرق في مياهه الآسنة الجنود الأمريكيون سببت صدمة وقلقاً.

تابع كيسي قائلاً: «عتبة تحمل العنف لدى العراقيين أعلى بالمقارنة بنا. ولا يقلقهم مستوى العنف المرتفع».

سئل كيسي عن فاعلية الجنود الأمريكيين في بغداد.

قال: «يمارسون تأثيراً مخففاً للعنف. ويكبحون جماحه. ولو لم يكونوا هنا لانتشرت حمامات الدم على أوسع نطاق. لم يظهر المالكي الإرادة السياسية للتصدي للمليشيات».

سأل بانيتا: «هل فات الوقت؟ هل يناور الشيعة لكسب الوقت؟».

أجاب كيسي: «أسأل نفسي هذا السؤال كل يوم. أرى يد الشيعة تحرك كل شيء في بغداد ليل نهار. لا أعرف».

بعد الاجتماع عبر نظام الفيديو الآمن مع كيسي، انضم مدير وكالة المخابرات المركزية الجنرال مايكل هايدن إلى لجنة بيكر-هاملتون المجتمعة في غرفة روزفلت في الساعة 10:15 صباحاً [5].

رأسَ هايدن (61 سنة)، جنرال القوات الجوية (بأربع نجوم)، وكالةَ المخابرات المركزية مدة خمسة أشهر ونصف الشهر فقط. ويتمتع بخبرة 36 سنة في عالم الاستخبارات، ونال شهرة ذائعة حين تسلم إدارة وكالة الأمن القومي بين عامي 1999-2005. تعد وكالة الأمن القومي أكبر وكالات التجسس الأمريكية، وتتنصت على الاتصالات في شتى أنحاء العالم، فضلاً على اتصالات المشتبه في ضلوعهم في الإرهاب داخل الولايات المتحدة مع الخارج، وذلك ضمن برنامج رصد الإرهابيين المثير للجدل الذي أمر به الرئيس بوش بعد الحادي عشر من أيلول. لكن هايدن، المعروف بمهارته في إيجاز المعلومات، استطاع النجاة من العاصفة بعد عرض سري قدمه لتفاصيل البرنامج أمام مجلس الشيوخ، الذي وافق عليه بثمانية وسبعين صوتاً مقابل خمسة عشر.

قبل الإدلاء بشهادته عن العراق أمام لجنة بيكر-هاملتون، تحدث هايدن مع الوزيرة رايس. جمعت بين الاثنين صداقة عمرها 20 سنة، بدأت حين عملا معاً بين عام 1986-1987 في هيئة الأركان المشتركة في غرفتين متجاورتين (دون نوافذ) في مبنى البنتاغون، حيث كانت هي في منحة أكاديمية، وكان هو عقيداً. ثم خدما معاً في فريق مجلس الأمن القومي في عهد بوش الأب. اعتقدت رايس أن هايدن، بأسلوبه الهادئ المتجرد عن الأهواء والعواطف، واحد من أذكى الناس الذين قابلتهم. وقالت له إنه أدى خدمة جليلة بتقويمه أمام اللجنة. «هذا هو الوقت لوصف ما يجري بصراحة وجرأة ودون مواربة».

أبلغ هايدن اللجنة: «رحيلنا عن العراق سيجعل الوضع أسوأ. وربما لا يجعل بقاؤنا الوضع أحسن حالاً. ومقاربتنا الراهنة دون تعديل لن تجعله أفضل».

«من الأسئلة المشروعة: هل ينفع تعزيز القوات الأمنية العراقية، حين تعد ضارية ومتوحشة، أم يضر؟ إن تعزيز القوات الأمنية العراقية ليس أمراً مفيداً بالإطلاق. ينطبق هذا الحكم دون قيود على الشرطة. أما بالنسبة إلى الجيش، فوضعه متقلب، وهذا يعني في هذه الحالة بالذات أنه مفيد».

وأضاف فيما بعد: «لا نتفق نحن والحكومة العراقية على هوية العدو. فكبار الزعماء في الحكومة العراقية يعدون البعثيين مصدر الشر. هناك بعثي متربص خلف كل شجرة... والتخلص من البعثيين برأيهم يؤدي إلى حل المليشيات واختفائها».

توافقت ملحوظات هايدن توافقاً دقيقاً مع ما رأته اللجنة وسمعته في أثناء زيارة أعضائها القصيرة إلى العراق. قال هايدن إن مصادر العنف متعددة: التمرد، والقتال الطائفي، والجريمة، والفوضى، ثم القاعدة.

وجدت اللجنة من اللافت أن يعد هايدن القاعدة آخر سبب للعنف في العراق. وكانت تمثل السبب الأول الذي يورده الرئيس دائماً تقريباً.

حين سئل عن التأثير الإقليمي، أجاب هايدن: «حتى لو وجد العراق على الجانب الآخر من القمر، لظل الوضع فيه على الدرجة نفسها من السوء»، أي إن مشكلات العراق ستظل كما هي حتى لو لم يكن في منطقة الشرق الأوسط المضطربة.

سأل بيكر عن سوريا، فقال هايدن إن «معركة حامية بالمدافع» تجري في الأوساط الاستخبارية حول طريقة التعامل مع سوريا.

وفيما يتعلق بمشكلات الوحدة الوطنية قال: «تراجعت الهوية العراقية إلى الظل، واحتلت الواجهةَ الهويةُ الشيعية أو السنية».

احتفظ هايدن، المطلع أيضاً على عمليات التنصت البالغة السرية ومصادر المعلومات البشرية التي تركز على الحكومة العراقية، بأقسى آرائه وأعنفها للمالكي والقيادة العراقية في بغداد. قال بنبرة حاسمة: «الحكومة عاجزة عن الحكم. لقد أنفقنا كثيراً من الطاقة والثروة لإيجاد حكومة متوازنة، لكنها لا تؤدي وظيفتها».

«يبدو أن عجز الحكومة عن الحكم مشكلة يتعذر إصلاحها. لقد وضعنا طاقاتنا كلها لإيجاد مركز، والمركز لا ينجز شيئاً، وقوى السلطة المحركة لا تتصل بشيء». وقال إن السفير خليل زاد يهرول من وزارة إلى وزارة يتحدث مع المسؤولين، ويحاول تشغيل الخدمات وتوفيرها، لكن لم يحدث شيء، لم يتغير شيء. «العنف منتشر ومتفاقم وخارج عن حدود المعقول. هناك نزاع على الأحياء، ونزاع على الجسور».

كأن رجفة أصابت هايدن بسبب تصاعد حدة التوتر وانتشار العنف. وعرض استعارة تشبيهية مأخوذة من سباقات الماراثون (وهو ممارس متحمس لهذه الرياضة). في كل ماراثون، كما قال، هناك نقطة تدرك عندها أنك تستطيع الوصول إلى خط النهاية، وأنك ستكون على ما يرام. لكن في هذه الحرب لم توجد مثل هذه النقطة. «لا أستطيع الإشارة إلى أي معلم أو علامة تحقق يمكن عندها عكس مجرى الأمور».

جلس هاملتون صامتاً جامداً. كان هذا أكثر التقويمات التي سمعها تشاؤماً – ومعقولية.

لكن هايدن لم ينته بعد: «يستحيل في المدى القريب إيجاد حكومة قادرة على أن تحكم، وتحافظ على نفسها، وتدافع عن نفسها». تلك هي أهداف الرئيس المعلنة حرفياً. «هناك ميزة في إعادة معايرة جهدنا لمساعدة المناطق داخل العراق»، وأضاف إن المطلوب ربما يكون إعادة توجيه الجهود الأمريكية نحو المناطق الطائفية في العراق، لا مجرد حكومة المالكي المركزية.

ذكر البوسنة مثالاً: «في البوسنة، تقاتلت الأطراف إلى حد الإنهاك»، مقترحاً ربما اتباع السيناريو نفسه في العراق.

كرر بيري ما قاله كيسي أمام اللجنة في وقت مبكر من ذلك الصباح –«لا يمكننا تحقيق النجاح دون مصالحة وطنية». وطلب معرفة رأي هايدن.

قال: «حين نأخذ بالحسبان مستوى العنف الخارج عن نطاق السيطرة، فإن أفضل ما يمكن أن نفعله هو احتواء غلوه وتجاوزاته والحفاظ على إمكانية تحقيق المصالحة في المستقبل».

استمع أعضاء اللجنة إلى كثير من التقويمات المتشائمة والكئيبة للوضع في العراق، لكن تقويم مدير وكالة المخابرات المركزية كان أشدها إثارة للقلق والانزعاج. وكان، لبعضهم، علامة دالة على لحظة محورية.

حان دور خليل زاد السفير الأمريكي في العراق، الذي عرض تقويماً أخف لهجة [6].

قال السفير: «لا تساعد القوى النافذة في تحقيق رؤية مشتركة. ولذلك فإن المصالحة ضرورية».

سأل وزير الخارجية السابق لورنس إيغلبرجر، الذي حل محل غيتس في اللجنة بعد أن رشحه الرئيس وزيراً جديداً للدفاع: «هل يعتقد المالكي أننا على استعداد لتنفيذ تهديداتنا إذا لم يصل أداؤه إلى المستوى المطلوب؟».

قال السفير: «هناك شعور في العراق بأننا أكثر اهتماماً من العراقيين أنفسهم بإحراز تقدم في العراق. نحن بحاجة إلى تغيير هذه النفسية».

سأل بانيتا: «قال المالكي إنه يريد مزيداً من السيطرة على القوات الأمنية، فهل يعد ذلك دعوة إلى مهاجمة السنة؟».

قال خليل زاد، متجنباً مرة أخرى الإجابة المباشرة: «لهذا السبب، من الضروري أن يستكملوا عملية المصالحة الوطنية».

واستمرت الجلسة على هذا النحو، لتترك معظم أعضاء اللجنة يهزون رؤوسهم تعبيراً عن الرفض وعدم التصديق.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع عشرة مصادر مطلعة وملحوظات متزامنة دوّنها اثنان من المشاركين.

1- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر-هاملتون مع الرئيس على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

2- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/20.

3- المصدر السابق.

4- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر-هاملتون مع كيسي على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

5- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر-هاملتون مع هايدن على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

6- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر-هاملتون مع خليل زاد على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

-22-

في الساعة الواحدة بعد الظهر، جلست رايس مع لجنة بيكر-هاملتون [1]. بدأت بالقول: «نحن بحاجة إلى ترسيخ مسار مستدام. نحن في مرحلة مختلفة الآن مع الحكومة الديمقراطية. من حسن الحظ أن العراقيين يريدون تحمل المسؤولية. وربما تحتاج الولايات المتحدة إلى مزيد من التسامح فيما يتعلق بإتاحة المجال لهم لاتخاذ الخطوات اللاحقة».

«ربما حان الوقت لننسحب قليلاً».

شجعت عبارة «ننسحب قليلاً» كثيراً من أعضاء اللجنة.

كان هناك، على وجه الإجمال، إعادة اصطفاف تحدث الآن في الشرق الأوسط، كما قالت. «هناك متطرفون في العالم العربي، ومعتدلون. وكثير من العرب يرون الآن إيران مشكلة أكثر خطورة من إسرائيل». وتعد سوريا على نطاق واسع عاملاً يزعزع الاستقرار.

سأل بيري: «هل نستطيع عكس اتجاه سوريا»، أي إقناعها بالمساعدة في العراق.

أجابت رايس: «السعوديون يقاطعون سوريا، فلماذا نقوم بالالتفاف على السعوديين، الذين يعدون أكثر أهمية كثيراً لعملية السلام؟».

أثارت الإجابة هياج بيكر: «هذه الحكومات العربية تتقاتل على الدوام. والسؤال الحقيقي هو: من الذي سيقود؟».

تشاجر وزير الخارجية السابق والوزيرة الحالية لحظة، حيث اعترفت رايس أن توسيع النفوذ الدبلوماسي واستخدامه لحل المشكلة الإسرائيلية-الفلسطينية ربما يستحقان العناء. لكن لديها تحفظات على إقامة علاقات مع سوريا وإيران.

قالت: «يقلقني أن سوريا ثمن باهظ جداً ندفعه. يعد العرب نهوض إيران تهديداً. المصنع الإيراني اليوم يختلف عن حاله قبل خمس عشرة سنة» –في إشارة موجهة إلى الحقبة التي شغل فيها بيكر منصب وزير الخارجية– «ولذلك عليّ تحدي فكرة أن إيران يمكن أن تكون حليفاً في هذه العملية».

لم يتوافق موقفها مع بيكر وعدد من الأعضاء. فكل من قابلته اللجنة تقريباً أبلغها أن الدبلوماسية الفاعلة مع سوريا وإيران أمر حيوي وبالغ الأهمية لاستقرار العراق والشرق الأوسط.

سأل بانيتا عن الانقسامات الطائفية المتنامية في العراق.

قالت مفسرة: «في العراق، هناك رعب وجودي من الآخر. هؤلاء الناس يريدون التوحد، لكنهم لا يريدون أن يُتركوا في الغرفة مع بعضهم بعضاً».

لم يحاول أحد تحدي هذا التناقض.

قالت رايس إن كل طرف يرى الولايات المتحدة تعويذة سحرية تجلب البركة إليه، و«طلسماً» ضد الطرف الآخر. «فيما يتعلق بالشيعة، نساعد في ضمان حفاظهم على أغلبيتهم ودورهم. وفيما يخص السنة، يريدون منا البقاء للدفاع عنهم ضد القمع والمذابح». وأضافت آملة أن يتيح هذا الدور للولايات المتحدة «التراجع خطوة والتفكير كيف نعمل باتجاه الوحدة دون أن تعيقنا المسؤولية اليومية وكيف يتفاعل العراقيون مع بعضهم بعضاً».

«ربما يفعلون كثيراً من الأشياء التي لا نحبها. لكننا لا نريد أن نفرض عليهم رأينا. نحن بحاجة إلى منحهم الثقة. ربما نبالغ في الضغط على خناقهم».

سألت أوكونور عن التقويم الكئيب والمتشائم لوكالة المخابرات المركزية الذي سمعته اللجنة ذلك الصباح من مدير الوكالة مايكل هايدن.

أجابت رايس: «نحن على اطلاع على التقرير المحبط. لكن الأمل يظل قائماً».

سأل هاملتون كيف يمكن ممارسة الضغط على الزعماء العراقيين بطريقة أكثر فاعلية. فقد ألح هايدن بعناد على عجز الحكومة العراقية عن الحكم. الوقت ينفد.

أجابت رايس أنها كانت صريحة مع المالكي، وقالت له «سوف تتأرجح أجسادكم المتدلية من أعمدة الكهرباء بعد وقت قريب إذا لم تتحدوا وتجتمعوا معاً».

وفيما يتعلق بالشرطة العراقية، قالت رايس: «الشرطة متعسفة»، وأشارت كما فعلت أمام الرئيس إلى «مشكلة كونور».

سأل هاملتون مع اقتراب نهاية الاجتماع: «هل أنت مقتنعة أن المالكي زعيم وطني؟».

أجابت رايس: «أنا مقتنعة بأنه زعيم وطني، لكني لست واثقة أنه يفهم ما يعنيه ذلك».

ألقى هاملتون محاضرة حماسية مؤثرة: «لدينا حكومة عاجزة عن الحكم، أو لم تحكم في العراق. نحن نعتمد على العراقيين لأداء المهمات الصعبة. كيف يمكن دفعهم إلى التحرك؟». حرك عضو الكونغرس المتمرس نظارته لتوكيد كلامه. «نحن ننفق مليارات دولار في الأسبوع. نحن نخسر رجالنا كل يوم. لقد كره الشعب الأمريكي هذه الحرب». يجب على البلد أن يكون موحداً في حالة الحرب، وهذا البلد ليس موحداً. «لا يوجد جهد موحد بين الكونغرس والرئيس. ولا يوجد اتفاق على ما نفعله في العراق».

جلست رايس صامتة ولم تجب. لم يكن لدى هاملتون أي فكرة عن حجم الخلاف داخل الإدارة.

وصل رمسفيلد وبيس إلى غرفة روزفلت في الساعة الثانية بعد الظهر [2]. ومع أن بوش أعلن قبل خمسة أيام أن رمسفيلد سيترك وزارة الدفاع، إلا أنه سيبقى وزيراً إلى أن يثبّت غيتس مكانه.

قال رمسفيلد للجنة: «هناك بعض التغييرات البيروقراطية والتشريعية يمكن أن توصوا بها وتؤكدوا نفعها». بدا هادئاً ومسترخياً، وأشار إلى أن الكونغرس بطيء جداً في توفير الميزانية الضرورية لإيصال المساعدة الأمنية إلى العراقيين. هناك كثير من القيود المعوّقة للجهود الأمريكية لتدريب الشرطة العراقية. ولا يبدي المدنيون العاملون في الحكومة الأمريكية رغبة كبيرة في الخدمة الخارجية في مناطق الحرب. وعدد الموظفين

المدنيين من وزارته الذين يعملون في الوزارات العراقية يزيد ثلاث مرات على عدد العاملين فيها من الوزارات الأمريكية الأخرى.

وجد هاملتون وعدد آخر من أعضاء اللجنة أن من المحير والمربك جداً انتقاء رمسفيلد هذه القضايا الجانبية ويترك المشكلات الحاسمة والخطرة.

أعلن رمسفيلد: «لا يمكن أن تخسر المؤسسة العسكرية معركة العراق. لكن يتعذر أن نربح دون القدرات غير العسكرية داخل الحكومة».

بعد ذلك حان دور بيس. قال الجنرال: «هناك كثير من الإصلاحات التي تحتاجون إلى تطبيقها في العراق في مجالات الأمن والاقتصاد والحكم. ويمكن للعسكر الأمريكيين قتل الناس ليل نهار، لكننا بحاجة إلى قدرات أخرى في العراق. الحكومة الأمريكية بحاجة إلى تجنيد موظفين أكثر شباباً ونشاطاً للذهاب إلى العراق».

سأل هاملتون هل يمثل تدريب الجيش العراقي قمة الأولويات.

تدخل رمسفيلد مقاطعاً: «أجل. التدريب يحتل قمة الأولويات. هنا بدأنا نبذل المال والوقت والجهد». مضى زهاء سنتين ونصف السنة منذ أن نشرت مجلة نيوزويك مقالة دعت فيها نهج الجنرال ديفيد بترايوس، الذي كان مسؤولاً آنذاك عن تدريب العراقيين، «خطة الخروج الوحيدة المتوافرة لدى الولايات المتحدة».

سأل هاملتون: «ماذا عن زيادة عدد القوات في بغداد؟ هل نستطيع ذلك؟».

أجاب بيس: «يمكننا أن نزيد العدد الحالي البالغ خمسة عشر لواء»، وأضاف إن الحفاظ على مستوى الزيادة بعد تموز 2007 سوف يتطلب زيادة مناوبات الحرس والاحتياط.

قال رمسفيلد: «كلما بالغنا في اتخاذ مظهر المحتل في العراق، تضاعفت اتكالية العراقيين. نحن بحاجة إلى نقل المسؤولية إليهم».

سأل بانيتا عن عمليتي «معاً إلى الأمام» 1 و 2.

قال بيس: «في الجوهر، ما زلنا نواجه مشكلة؛ لأن السنة والشيعة ما يزالون يقتلون بعضهم بعضاً». لكنه أضاف بطريقة صريحة ومباشرة غير معتادة: «لو وضعت جندياً

عند كل زاوية، سيظل السنة والشيعة يقتلون بعضهم بعضاً. على القيادة العراقية وقف هذا القتل. يمكننا منع الوضع من الخروج عن السيطرة، لكنهم سيواصلون التقاتل في غياب المصالحة».

سأل بيري عن محافظة الأنبار: هل أوفى زعماء العشائر بوعدهم بمطاردة القاعدة؟ هل نساعدهم عبر العمليات الخاصة؟

قال بيس: «أوفى زعماء العشائر بوعدهم، ومعظم القتال تخوضه العشائر الآن. أما مشاة البحرية فيقدمون لها الدعم والمساندة. والعمليات الخاصة تجري على نحو جيد جداً في مناطق العشائر، اعتماداً على المعلومات الاستخبارية من زعماء العشائر».

سأل بيكر: «هل تحدثنا مع العراقيين بشأن القواعد؟».

قال رمسفيلد: «لم نتحدث عنها على الإطلاق. نحن بحاجة إلى القدرة على منحهم إحساساً بالأمن. القيادة العسكرية الأمريكية لا تبحث عن مزيد من الأماكن لإقامة قواعد فيها. لكن رئيس الولايات المتحدة لا يريد التخلي عن هذا الاحتمال».

«هل تحتاجون إلى قاعدة؟».

لم يرد رمسفيلد.

سأل بانيتا عن إمكانية نشر عدد أقل من الألوية على الأرض وتوفير مدربين أفضل تأهيلاً.

قال رمسفيلد: «هذه فكرة تعتمد على تطوير القدرات العراقية وتنميتها». علينا تخفيض عدد قواتنا اعتماداً على الظروف القائمة على الأرض. يجب أن نقول مثلاً: «سوف نخفض هذا العدد من القوات في هذه المحافظات عندما نحقق هذه المعايير المرجعية...».

ألح على ضرورة أن تمارس الولايات المتحدة ضغطاً على العراقيين وتغرس فيهم مستوى من المسؤولية. «في الجوهر، يجب أن نقول للعراقيين: ألا تريدون أن تغادر قواتنا العراق؟ يجب أن يبادروا إلى إحراز التقدم لكي تغادر قواتنا بلدهم. يجب أن نعطي تطمينات إلى العراقيين ونؤكد لهم أن البلد بلدهم، ونعطي تطمينات للشعب الأمريكي أننا سنغادر العراق».

سأل بيكر: «كيف نعبر عن الفشل في تقريرنا؟».

أجاب رمسفيلد: «يجب أن توضحوا العواقب الوخيمة. يجب أن نجعل ذلك جزءاً من التفكير هنا، والتفكير هناك. يجب أن نوضح هذه العواقب الوخيمة لكي يفهمها العراقيون أيضاً. يجب وضع جدول زمني محدد للتقدم». ثم كرر بحماسة عاطفية كبيرة واحدة من عباراته المفضلة، العبارة التي قالها أمام الرئيس والفريق الحكومي المكلف بإدارة الحرب: «يجب أن نبعد يدنا عن مقعد الدراجة».

سأل فيرنون جوردان: «ما المدة المحددة هنا؟».

قال رمسفيلد: «بالنسبة إلى العراقيين يمكن أن تمتد سنوات. لكن الشعب الأمريكي لا يريد كما هو واضح البقاء طوال هذه المدة. فجدوله الزمني أقصر من الجدول الزمني للعراقيين».

في اليوم اللاحق، الرابع عشر من تشرين الثاني، عقدت اللجنة اجتماعاً عبر نظام الفيديو الآمن مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير [3]. كان بلير هو من طلب المقابلة؛ لأنه أدرك على ما يبدو أن آراءه تتوافق مع آراء غالبية أعضاء اللجنة.

أرسل بلير منذ مدة قريبة كبير مستشاريه للسياسة الخارجية، السير نيغل شاينفالد، إلى سوريا للبحث عن طريقة لفتح الأبواب الدبلوماسية. لم ينجح المستشار في مسعاه، لكن بلير ظل مؤيداً قوياً للحوار مع السوريين.

سأل بيكر بلير: هل يعد من المفيد عقد مؤتمر دولي كبير حول الشرق الأوسط والقضايا الإسرائيلية-الفلسطينية. —مثل مؤتمر مدريد (1991) الذي كان بيكر مهندسه حين شغل منصب وزير الخارجية؟

قال بلير: «إنها فكرة عظيمة. فكلما أسرع الناس في الاعتقاد بتصميمنا على التحرك في هذه المنطقة كان أفضل. نحن بحاجة إلى تعبير ضخم وملموس على تصميمنا».

بلغ هاملتون حد سؤال بلير عن توقعاته فيما يتعلق بتقرير اللجنة وتوصياتها.

قال بلير: «نحن بحاجة إلى مسؤولين جادين يتمتعون بالاحترام، ويتحركون بالإجماع، مع خطة لداخل العراق وخطة للمنطقة. هذه فرصة إستراتيجية سانحة... إنها اللحظة المناسبة لهذا التقرير».

في الساعة 2:30 بعد الظهر، اجتمعت اللجنة برئاسة هاملتون في قاعة المؤتمرات المريحة في الطابق الرابع من مركز ودرو ولسون الدولي للباحثين؛ لعقد الجلسة المرتقبة مع الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون [4].

أتى كلينتون كالمعتاد، تصاحبه هالة من الجاذبية الاستعراضية الآسرة. كان يلبس بزة أنيقة وترافقه حاشية كبيرة لم تكف مقاعد القاعة الصغيرة لجلوس أفرادها. وفي الممر القصير الممتد بين المصعد والقاعة، توقف الناشط العنيد أمام كل مكتب لمصافحة الموظفين.

انتهت اللجنة لتوها من الحديث مع كبار أعضاء فريق كلينتون للسياسة الخارجية —مستشار شؤون الأمن القومي ساندي برغر، السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة ريتشارد هولبروك، وزيرا الخارجية وارن كريستوفر ومادلين أولبرايت. وحين كانوا على وشك المغادرة، دعاهم كلينتون إلى انتظاره حتى ينهي مقابلته —لقد اجتمع فريق البيت الأبيض ووزارة الخارجية القديم مرة أخرى.

استهل كلينتون حديثه بالقول: «لا توجد خيارات جيدة. إذا أردتم تغيير المسار، فهنالك ثلاثة أشياء يمكن القيام بها: إضافة مئة ألف جندي، أو البقاء هناك والنزف حتى الموت، أو الانسحاب. أي سبيل آخر يمكنكم اتخاذه؟ تلكم هي خياراتكم».

«نحن لا نسيطر على الوضع الآن. وسوف تتقلص سيطرتنا أكثر ما إن نخفض عدد القوات... هؤلاء لا يملون من قتل بعضهم بعضاً».

استحث كلينتون اللجنة على التعامل بصراحة مع الجوانب السلبية لكل خيار. وتوضيح حقيقة عدم وجود حل سهل، مثلما نصحها. «لا يمكن حل هذه المشكلة على المدى القريب ضمن العراق. لا يمكن حل هذه المشكلة ضمن تخومه. ولا يكفينا حتى الحظ السعيد».

غير كلينتون بعد ذلك الموضوع بسرعة ليتحدث بنحو مسهب عن أفغانستان. «إذا لم تتصرفوا في العراق، فإن احتمالات خسارة أفغانستان كارثة أشد خطورة على الولايات المتحدة من خسارة العراق. فطالبان تشن الهجمات. وحليفتنا، باكستان، جزء من المشكلة. وإرسال مزيد من الجنود إلى أفغانستان أمر جوهري وبالغ الأهمية. ولا يمكننا التصدي للمشكلة في أفغانستان إلا إذا غادرنا العراق»، كما قال.

وذكّر أعضاء اللجنة بتأييد الأمم المتحدة والعالم لأمريكا في أفغانستان. وهذه الحالة لا تنطبق على العراق.

كان أداء «كلينتونياً» نمطياً، حيث يتحول فجأة من موضوع إلى آخر. حين بدأ الحديث عن الدبلوماسية، أمسك بسيجار (دون أن يشعله) وبدأ يبرمه بين أصابعه.

اقترح كلينتون بدء حوار مع إيران دون أي شروط سابقة. «يجب أن يكون لدينا مستشار موثوق لبدء الحوار مع إيران. فإذا أردتم مقاتلة بلد يوماً ما، فلا بد من الحوار معه».

ثم تحول إلى عملية السلام العربية-الإسرائيلية. قال: «لم يطلب بوش من [رئيس الوزراء الإسرائيلي] أولمرت فعل شيء؛ وهذا خطأ. في السنوات الأربع الأولى من ولايته، قُتل من الإسرائيليين والفلسطينيين ثلاثة أضعاف القتلى منهم في عهد إدارتي».

«كلما تحمسنا لها، انخفض عدد القتلى وتراجعت حدة العداء لأمريكا... ربما نفشل على واحدة أو أخرى من هذه الجبهات، ومع ذلك يظل وضعنا أفضل مما نحن عليه الآن».

دافع كلينتون دفاعاً قوياً عن إشراك السوريين في عملية السلام. «اذهبوا إلى السوريين واسألوهم: هل تعتقدون فعلاً أن العلاقة بالعراق مفيدة لكم». الحرب في العراق تضعف أمريكا في عيون العالم. «السياسة الخارجية الإيرانية والكورية الشمالية تزدري أمريكا؛ لأنها مقيدة بالعراق»، كما قال.

سأله روب: كيف يمكن إقناع الرئيس بوش بقبول مقاربة جديدة؟

أجاب كلينتون: «يعتقد بوش اعتقاداً راسخاً بصوابية ما فعله في العراق، ولا يمكنه التخلي عن اعتقاده». وما يجب قوله للرئيس بوش هو أن «التاريخ ما يزال ربما يسوغ

قرار غزو العراق... وقد يظل العراقيون يتقاتلون سنتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو سبعاً قبل أن يصيبهم الإنهاك ويتوصلوا إلى تسوية».

«لكن التاريخ ربما يظل يسوغ قرار الذهاب إلى الحرب. لذلك دعهم يتقاتلون، إذ لا يمكنك منعهم من قتل بعضهم بعضاً».

قال كلينتون إنه عاد لتوه من فيتنام. انظروا إلى البلد الآن. انظروا إلى الاقتصاد. أصبح أفضل من حاله قبل الحرب. بعد ثلاثين سنة من الآن، ربما يستطيع رئيس أمريكي الذهاب إلى العراق ويجده مكاناً أفضل حالاً مما هو اليوم. على بوش أن يفكر ضمن السياق الأوسع. «يعتقد الرئيس أن ما فعله هو الصواب، وأن التاريخ سيبرر قراره المتعلق بصدام».

أبدى كلينتون تعاطفاً قلبياً مع بوش، ودافع عن إخلاص خليفته ونزاهته. وقال إن بوش لا يتخذ قراراته -بغض النظر عن صوابها أو خطئها- اعتماداً على السياسة، بل يؤمن بها. وقال إن» نسبة 90% من قرارات الرئيس، بل 98% منها، لا علاقة لها بالسياسة، مهما بدا ذلك غبياً لكم».

كان كلينتون يحبذ الانسحاب من العراق، لكنه يعارض وضع جداول زمنية محددة. «أنت تخسر القوة الدافعة حين تضع جدولاً زمنياً». ويفضل سحب الجنود من العراق دون إنذار، بل سحبَ جزء منهم الآن وإرسالهم إلى أفغانستان. «يجب أن تكتبوا تقريركم وتوصياتكم بطريقة تجعل البلد أقوى وتؤكد قدرتنا على الخروج من هذه الورطة».

«الشعب الأمريكي يعارض هذه الحرب، ويعتقد أنها خطأ، لكنه منقسم حول ما يجب عمله. يكره الأمريكيون الخسارة، لكنهم يكرهون أيضاً إهدار مزيد من المال على استثمار سيئ. نحن نسير على حد السيف من الناحية النفسية. حين تكتبون تقريركم عليكم أن تظهروا كيف يمكن لأمريكا أن تخرج أكثر قوة في النهاية». توقف قليلاً، ثم أضاف: «يجب أن يشعر الأمريكيون بأنهم على الجانب الصحيح من التاريخ».

قال بيكر: «سيادة الرئيس، اقتربت أكثر من الآخرين من التعامل مع سورية».

واتفق مع كلينتون أيضاً على الحاجة إلى استمرار الدبلوماسية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

قال الرئيس السابق: «لا نساعد إسرائيل حين نجلس وننتظر طلبية الأسلحة القادمة». كأن بيكر عمل تحت إدارة كلينتون، كما خطر في بال بانيتا.

سأل هاملتون كلينتون عن عواقب الفشل في العراق، فضلاً على تبعات السياسة المتبعة حالياً.

قال كلينتون: «من المهم إعلان أننا نسعى وراء مسار مختلف»، وهذا أمر يحجم بوش عن القيام به مع تدهور وضع الحرب. وأضاف إن أمريكا استَعْدَت معظم دول العالم. «نحن ندفع ثمناً حين يكرهنا الجميع».

سأل بانيتا: كيف تدفع المالكي إلى التحرك على صعيد المصالحة الوطنية؟

«كنت سأقضي معه ومعهم [الزعماء العراقيين] وقتاً طويلاً جداً... جداً... ساعات وساعات...»، لكن هذا بالطبع أسلوب كلينتون لا بوش.

عاد كلينتون إلى ضرورة أن يطبق بوش النتائج التي توصلت إليها اللجنة. «إذا أعلن الرئيس تغييراً في المسار، فسوف يتاح له مزيد من الوقت –إذا تمكنتم من إقناعه بالتغيير. لقد أعيد انتخاب نيكسون بسهولة، وسقط عدد أكبر من القتلى [في فيتنام] بعد انتخابه».

وأضاف: «ربما يشعر الرئيس بأن هذا مريح له».

قال بيكر: «يريدنا أن نعطيه فرصة لتغيير السياسة».

قال كلينتون: «يريد الرئيس والبلد تزويد البلد بسبيل للمضي قدماً إلى الأمام. تكاليف البقاء حيث نحن باهظة، في الأرواح والأموال».

امتدت الساعة مع كلينتون إلى ساعة ونصف، ولم يرد أحد أن تنتهي على ما يبدو، خصوصاً كلينتون. فقد أثر حتى في الجمهوريين.

طرح فيرنون جوردان سؤالاً أخيراً: هل تتكلم مع بوش بعد صدور التقرير؟

قال كلينتون: «سأفعل إن كان الكلام يفيد. ربما نختلف، لكننا نلتزم مسؤولية الاحترام والدقة عند الاختلاف... لا يوجد ديمقراطي لا يرغب بتحسن الوضع في العراق».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع سبعة مصادر مطلعة وملحوظات متزامنة دوّنها اثنان من المشاركين.

1- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر–هاملتون مع رايس على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

2- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر–هاملتون مع رمسفيلد وبيس على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

3- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر–هاملتون مع بلير على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/14.

4- اعتمدت المعلومات المتعلقة بهذه الجلسة للجنة بيكر–هاملتون مع الرئيس كلينتون على ملحوظات مدونة في سجل اللجنة بتاريخ 2006/11/13.

-23-

في الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء الخامس عشر من تشرين الثاني، جمع كراوتش فريقه المكلف بمراجعة الإستراتيجية للقاء تمهيدي وتنظيمي مدة ساعة. اجتمع الفريق المؤلف من عشرة أعضاء تقريباً في الغرفة رقم 208 –المعروفة باسم غرفة كورديل هول– في مبنى أيزنهاور قبالة البيت الأبيض.

مثّل كراوتش، وأوسوليفان وكبار موظفيها المختصين بشؤون العراق مجلسَ الأمن القومي. حضر اللقاء أيضاً بيل لوت، كبير مديري الدفاع في فريق مجلس الأمن القومي، الذي أمر بإجراء دراسة الجدوى لزيادة عدد القوات في الشهر الفائت.

وحضر من وزارة الخارجية زيليكو وساترفيلد اللذان عينتهما رايس، في حين عين رمسفيلد ستيف كامبون، مساعده منذ مدة طويلة ومعاون الوزير الحالي لاستخبارات البنتاغون، وبيتر رودمان، معاون الوزير لشؤون الدفاع. وأرسل بيس جنرالين –دوغ لوت، رئيس العمليات في هيئة الأركان المشتركة، وجون ساتلر، رئيس قسم الخطط والسياسة في الهيئة. ومثّل ديفيد غوردون، نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية، مديرَ الاستخبارات الوطنية.

مثل جون هانا، مستشار تشيني لشؤون الأمن القومي، مكتب نائب الرئيس. وأوضح أن أي سؤال يطرحه، أو رأي يقوله أو يكتبه يمثل وجهة نظره الشخصية، ولا يعبر بالضرورة عن آراء تشيني، التي يطرحها مباشرة على الرئيس كما يعرفون جميعاً.

وزع كراوتش على الحاضرين ملفات ضمت ورقة أوسوليفان المتعلقة بالخيارات الأربعة: التعديلات الهامشية؛ تركيز جهودنا؛ مضاعفة الرهان؛ الرهان على المالكي.

وثمة ملحوظة تشير إلى أن الخيارات الأربعة ليست من النوع التي يستبعد أحدها الآخر، إذ يمكن مزجها وخلطها وتوليفها معاً.

سوف تبدأ المجموعة العمل الفعلي في اليوم اللاحق.

في يوم الثلاثاء السادس عشر من تشرين الثاني، قدم الجنرال كيسي موجزاً لآخر المعلومات إلى رمسفيلد عبر نظام الفيديو الآمن. ليس لرمسفيلد أي دور في مراجعة الإستراتيجية وأصبح خارج الحلقة، وبدا كأنه يتحدث من كوكب آخر. علم كيسي برحيل رمسفيلد قبل إعلان بوش في الأسبوع الماضي. ونظراً لأنهما يتقاسمان الأفكار الأساسية المتعقلة بالحرب نفسها، شعر بالأسف لرحيل الوزير.

قال لرمسفيلد: «أهم ما في الأمر أننا في موقع من الحملة أصبح فيه إسراع نقل المسؤولية الأمنية إلى القوات العراقية القادرة واستكمالها مناسباً إستراتيجياً ومجدياً وممكناً عملياً».

كتب في ورقة الإيجاز السرية: «النجاح الإستراتيجي الدائم سوف يحققه العراقيون. وسيتطلب وقتاً أطول مما نريد». لكنه حذف الكلمتين الأخيرتين [1].

«قطعنا ثلثي الطريق من عملية ثلاثية الخطوات لإيصال العراقيين إلى نقطة يمكنهم عندها تحمل المسؤولية بنحو معقول بحلول نهاية عام 2007 مع مستوى منخفض من الدعم المقدم منا». كان الموعد على بعد سنة. ثم عدد أربعة خيارات محتملة: «الإسراع في نقل المسؤولية إلى العراقيين؛ التعزيز؛ الحفاظ على الوضع الراهن»؛ والفكرة المحرمة تقريباً: «وضع جدول زمني محدد للانسحاب».

في ذلك الوقت تقريباً، أبلغ الجنرال أبي زيد الجنرال كيسي أن البيت الأبيض يفكر في إرسال مزيد من الألوية الأمريكية إلى العراق. فطُرح السؤال على الفور: ماذا يفعل كيسي بمزيد من الألوية؟ إذا لا يريدها لا هو ولا أبي زيد، لكنهما اتفقا على سؤال مرؤوسي كيسي.

التقى كيسي والجنرال بيت تشياريللي، قائد القوات الأمريكية كلها في العراق، مع قائد بغداد الجديد، الجنرال جوزيف إف. فيل (الابن).

قال كيسي: «يجب علينا تأمين بغداد. الآن. لقد حاولنا مرتين». كان يشير إلى عمليتي «معاً إلى الأمام» 1 و 2، اللتين انطلقتا في الصيف وفشلتا في تحقيق أهدافهما. «فشلنا. يجب أن ننجح في الثالثة يا رجل، وإلا سنقع في ورطة كبيرة». تحول كيسي إلى فيل: «خذ ورقة بيضاء، وأخبرنا بما نحتاج إلى فعله بحق الجحيم لمساعدتكم في تأمين بغداد».

طلب فيل، المقاتل المتمرس صاحب الوجه الصبياني الذي يمتلك خبرة ثلاثين عاماً في الجيش، بتزويده بلواءين إضافيين –أي قرابة سبعة آلاف جندي. بهذه الطريقة، كما قال، يمكنه نشر كتيبة من 600 إلى ألف جندي مع لواء عراقي كبير في كل منطقة من مناطق بغداد العشر. لم يفاجأ كيسي. كان فيل جديداً في الوظيفة، ومن الطبيعي أن يميل إلى الاعتماد على قواته بدلاً من العراقيين. ومع أن كيسي لم يرغب بجلب جندي واحد زائد عن الحد الضروري إلى «بالوعة» الجنود في بغداد، إلا أنه قرر مسايرة فيل والبدء بالإجراءات الرسمية لطلب القوات.

بقيت رايس على اتصال وثيق بزيليكو وساترفيلد المشاركين في مراجعة البيت الأبيض للإستراتيجية. أبلغاها أن خيار إرسال مزيد من القوات لا يحظى بتأييد كبير من المراجعين، باستثناء فريق مجلس الأمن القومي. فسألت: «ما الذي ستفعله الزيادة في عدد القوات؟ هل تفعل أكثر من التورط في الحرب الأهلية؟ هل سنضع جنودنا بين العراقيين المتقاتلين على مشكلات قديمة، قبل أن يسحب العراقيون البساط من تحت أقدامهم؟».

كان زيليكو وساترفيلد يعملان على مذكرة توجز ما شعر كل منهما بأنه رأي واقعي. وأملا في أن توفر مراجعة البيت الأبيض للإستراتيجية تغييراً يعد إشارة إيجابية إلى الكونغرس، ويستوعب مطالب لجنة بيكر-هاملتون، بل يمنح الديمقراطيين غطاء للتسوية.

أراد الاثنان عرض رأيهما في وقت مبكر، لذلك وزعت مذكرتهما السرية المؤلفة من 12 صفحة يوم الجمعة السابع عشر من تشرين الثاني. قرأها كراوتش، وأوسوليفان وغيرهما باهتمام كبير، وهم يعلمون أنها تعبر عن آراء رايس، التي ما تزال على الأرجح أقرب شخص إلى الرئيس.

قالت المذكرة[2]: «جوهرياً، تحققت الأهداف الأصلية لغزو أمريكا العراقَ. أما الخيارات المفتاحية المتعلقة بمستقبل البلد فيجب أن يتخذها العراقيون». وطالب زيليكو وساترفيلد «بعلاقات أكثر تقليدية بين الدولتين، بحيث تبقيان على بعد ذراع». وأكدا أن المنطقة الخضراء، حيث يحتمي المسؤولون الأمريكيون والعراقيون «ليست لها صلة وثيقة » بالمناطق العراقية الأخرى أو سلطة قوية عليها.

«يستنفد الجنود الأجانب الترحيب الذي تلقوه. ويعارض معظم العراقيين الوجودَ الأمريكي الذي يتحول بسرعة إما إلى عامل مزعج أو منبتّ الصلة عن الواقع».

وأضافا بكل جرأة: «ربما نستعيد فعلاً القوة الدافعة ونحقق نجاحاً أعظم عبر التراجع خطوة، وانتقاء مواقعنا، والاستعداد لحجب المعونة».

وإذا استمر الزعماء العراقيون في دعم العنف الطائفي و«الحملات المنظمة للقتل الجماعي أو التهجير الجماعي، يجب أن نعلن انسحاب القوات الأمريكية كلها من العراق وننفذه، إلى جانب الخبراء المدنيين الذين يقدمون المشورة والعون للحكومة العراقية. نعتقد أن التهديد الفعلي بمثل هذا العمل سيكون مؤثراً وفاعلاً». ومن الحوافز التي اقترحاها «أن تعرض الولايات المتحدة توفير الحماية لحكومة المالكي من انقلاب بعثي يخشاه».

بدت المذكرة برأي أوسوليفان اقتراحاً بقبول «هزيمة مشرفة»، وتمثيلاً لوجهة نظر وزارة الخارجية بأن الولايات المتحدة لا تملك سوى قدرة محدودة على التأثير في القصة التي تجري فصولها في العراق، ومطالبة أن تكون الأهداف أكثر تواضعاً. وبعد الأموال التي صرفت والأرواح التي أزهقت طوال ثلاث سنوات ونصف السنة، كما أكدت، فإن من غير المقبول عدم محاولة كل طريقة ممكنة لتحقيق النجاح.

أصيب بيل لوت، الذي وضع مسودة اقتراح لزيادة عدد القوات، بالرعب أيضاً من ورقة وزارة الخارجية. فهي برأيه وصفة للهزيمة والخروج المذل من العراق.

لم يوافق ساترفيلد على اتهام ورقة وزارة الخارجية بالانهزامية والجبن. واعتقد أنها عرضت أوضح صورة للخيارات الواقعية والعواقب الفعلية.

اعتمدت حجة زيليكو على «أننا بحاجة فعلاً إلى الخروج من مركز سياسة العراقيين وإجبارهم على تحمل مسؤولية حل مشكلاتهم بأنفسهم». لنأخذ الجيش العراقي مثلاً. الولايات المتحدة هي التي تديره جوهرياً —هيئة أركانه العامة، وإمداداته اللوجستية، وكل شيء يحتاج إليه، بدءاً بالاستخبارات وانتهاء بالطعام.

سأل ساترفيلد: «ما أهدافنا الأساسية ومصالحنا الحقيقية في العراق؟». وكرر رأيه أن المصالح القومية الأمنية للولايات المتحدة عانت بسبب «قصر النظر في رؤية العراق، وتحديد كل ما يحدث في العالم عبر منظور العراق». لقد تحول العراق إلى عدسة يرون عبرها كل شيء و«أصبح الحكم على الولايات المتحدة يخضع باطراد للنجاح أو الفشل في العراق —هيمنتها الإستراتيجية أو ضعفها»، كما قال. نحن بحاجة إلى «إبعاد العدسة المعتمة» ورؤية العالم كله.

في أثناء المراجعة المبكرة الأقل رسمية، ناقشت مجموعة أوسوليفان ما يمكن فعله إذا بلغ العنف الطائفي مستويات الإبادة الجماعية، أو ما سمته رايس «مذبحة على طراز سيربرينيتشا»، ليشبه موجة التطهير العرقي في مدينة سيربرينيتشا البوسنية، التي سقطت في أيدي الصرب عام 1995 في عهد إدارة كلينتون. حيث ذُبح ثمانية آلاف من الرجال والصبيان، وتعرضت عشرات النساء والبنات للاغتصاب، وأجبر عشرات الآلاف على النزوح.

صحيح أن العنف بلغ حداً سيئاً في العراق، لكنه لم يشمل حتى الآن إعدامات جماعية تطال الآلاف.

سأل كراوتش: «كيف توفرون الحماية للسكان المدنيين من مذبحة على طراز سيربرينيتشا، في حين تطالبون بالتراجع وتخفيض عدد القوات؟».

اعتقد ساترفيلد أن السؤال وجيه. يمكنهم إرسال رسائل صارمة إلى الزعماء العراقيين أو التهديد بالانسحاب.

قال كراوتش لزيليكو وساترفيلد: «حجتكما ضعيفة فعلاً هنا».

جمع الرجلان كل حجة ممكنة ضد زيادة عدد القوات، أو خيار «مضاعفة الرهان». لن ينجح الخيار بكل بساطة ، كما قالا. أمريكا لا تملك الموارد. قال ساترفيلد: «لا نعتقد أنه صائب».

عارض فريق وزارة الدفاع والجنرالان الممثلان لهيئة الأركان المشتركة زيادة عدد القوات أيضاً. قال الجنرال لوت: «لا بد من وجود عملية سياسية هنا. وأنتم، يا شباب، تقولون باستمرار إن نشر القوات سوف يوجد حيزاً مناسباً للعملية السياسية. لكني لا أجد أي صلة بينهما».

أخيراً، انضم هادلي. قال للمجموعة: «يجب أن تقدموا للرئيس خيار زيادة عدد القوات. يمكنكم أن تعرضوا عليه كل ما تتحدثون عنه، لكن عليكم عرض خيار زيادة عدد القوات. فهو راغب به، ويريد أن يعرف ماذا يعني. يمكنكم اتخاذ مواقفكم مع أو ضد أو بين بين، لكن عليكم عرضه عليه بوصفه خياراً».

لم يقل هادلي إن بوش اتخذ القرار. لكنهم عرفوا جميعاً أن هادلي حين يتكلم بمثل هذا التوكيد، يصبح مجرد ناقل لآراء بوش.

مع تحول رمسفيلد إلى بطة عرجاء، دون أن يثبّت خليفته غيتس مكانه، حدث فراغ في وزارة الدفاع. واندفع هادلي لملئه.

أبلغ (هادلي) الجنرال بيس أن الرئيس يريد خيار زيادة عدد القوات. وأمر بيس، المطيع للأوامر دوماً، بإجراء تحليل في هيئة الأركان المشتركة: ما الحد الأقصى المتوافر من الجنود؟ وأشارت الإجابة إلى أن بإمكان الجيش توفير خمسة ألوية إضافية مؤقتاً. هذا كل ما هو متوافر.

في الثامن عشر من تشرين الثاني، قدم فريق وزارة الدفاع، برئاسة ستيف كامبون، مذكرة إستراتيجية سرية من ست صفحات إلى مجموعة كراوتش لمراجعة الإستراتيجية [3]. وكانت هي إعادةَ معالجة لآراء رمسفيلد وأبي زيد وكيسي. «يجب إسراع الانتقال إلى الاعتماد على الذات. ونقل المسؤوليات الأمنية إلى الحكومة العراقية في عام 2007»، كما أشارت الورقة. أما الفكرة الجديدة الوحيدة فكانت اقتراحاً بمضاعفة عدد الفرق العاملة على نقل المسؤوليات ثلاث مرات.

أمكن للآخرين رؤية أيدي ممثلي وزارة الدفاع وهي مقيدة بأغلال رمسفيلد، حتى إن كان على وشك مغادرة الوزارة.

تألفت المذكرة السرية المقدمة من الجنرالين الممثلين لهيئة الأركان المشتركة من خمس صفحات، وضمت بعض العبارات القاسية والآراء المتشائمة [4]: «إذا لم نعدل إستراتيجيتنا، يمكن أن تكون النتيجة تفتيت العراق، وتصاعد حدة العنف الطائفي، وتقوية التمرد، والانزلاق إلى حرب أهلية مدمرة يمكن أن تمتد إلى البلدان المجاورة».

على المدى القريب، عددا الأهداف المعيارية لعراق يمكن أن يحافظ على النظام وحكم القانون، ويدافع عن نفسه، ويمنع الإرهابيين من إقامة ملاذ آمن لهم. و«على المدى البعيد، يتصوران عراقاً يرتقي إلى جمهورية حرة وموحدة وفيدرالية تمثل المواطنين العراقيين كلهم. وسوف تفشل الولايات المتحدة إستراتيجياً إذا فشلنا في الوفاء بضماناتنا الإستراتيجية للعراق». وشعر الجنرالان أن غزو العراق فرض على الولايات المتحدة التزامات إستراتيجية وواجبات أخلاقية لتترك للشعب العراقي ديمقراطية تعمل بنجاح.

لكنهما اتبعا خطاً مباشراً من مجلس الكولونيلات: «نحن نخسر في العراق؛ لأننا لا نربح».

وافقهما ساترفيلد الرأي: «لا يوجد تعادل. التعادل يعني الخسارة».

كتب الجنرالان أيضاً: «الوقت ليس في مصلحتنا؛ لأن الرأي العام الأمريكي لا يرى أي تقدم. والوقت ينفد في العراق أيضاً». ومع ذلك، اختتمت المذكرة بمفاجأة: قصة قصيرة

بيروقراطية من قصص أو. هنري. فبدلاً من تقديم اقتراح جديد جريء لعكس مسار الحرب، ركز الجنرالان على نقل «مسؤولية الحكم والأمن إلى العراقيين». «سوف تتحول المؤسسة العسكرية الأمريكية من جهد قيادة مكافحة التمرد إلى جهد التدريب والمشاركة».

إنها إستراتيجية كيسي: «الرحيل في سبيل الفوز».

أدرك الجنرالان أن أعمال الإدارة وخياراتها محدودة بسبب تراجع تأييد عامة الأمريكيين الحربَ.

لم توافق أوسوليفان. حتى لو قرر الرئيس تبني إستراتيجية جديدة، كما اعتقدت، فإن ذلك يجب ألا يكون الجواب الأخير والنهائي. فبإمكانهم معاينة الإستراتيجية مرة أخرى في المستقبل. باختصار: لديهم على الدوام مزيد من الوقت المتاح.

رد كراوتش: «لا. ثمة محاولة، مرة واحدة، تجري الآن في هذه الإدارة [المراجعة الإستراتيجية]. ولن نستطيع قضم هذه التفاحة مرة أخرى». وقال إن القرار الذي يوشك الرئيس على اتخاذه هو الإستراتيجية التي ستحملها الإدارة إلى الانتخابات الرئاسية عام 2008، ثم إلى نهاية ولاية بوش في العشرين من كانون الثاني 2009.

وافقه ساترفيلد الرأي. قال: «لن تقضم التفاحة مرة أخرى». وهذا أكثر ما يقلقه في فكرة زيادة عدد القوات. «يجب أن نجري المراجعة بطريقة صحيحة هذه المرة. فإن أخفقنا، فإن ما سنفعله هو إسراع عملية سياسية لآخر شيء نريده، وهو انسحاب متعجل. لا نريد بأفعالنا إيجاد ظرف نحاول بكل قوتنا تجنبه».

قدم ديفيد غوردون، ممثل الاستخبارات، ورقة بالغة السرية تفحصت المقاربات [5]. أولاً: «تعزيز الحكم الوطني». فاعتماداً على السوابق البريطانية في أيرلندا الشمالية وماليزيا، «سوف يحتاج تأمين العراق كله إلى أكثر من نصف مليون جندي أمريكي وعراقي، مع عدد يراوح بين 100-120 ألفاً في بغداد وحدها»، حسبما كتب في ورقته. لكنه اعترف بأن العدد كبير جداً، وأضاف إن «العمليات الأمريكية لتعزيز الاستقرار في الموصل وتل عفر

تشير إلى أنه ربما يكفي عدد أقل يراوح بين 207-263 ألفاً من الجنود الأمريكيين والجنود العراقيين المؤهلين وغير المنتمين إلى الأحزاب». وهذا لا يشمل عدداً يراوح بين 80-90 ألفاً من جنود الدعم والمساندة، وفقاً للورقة. وحين نأخذ بالحسبان أن هناك الآن خمسة عشر من الألوية الأمريكية المقاتلة في العراق، أي قرابة 60 ألف جندي، ولا يعرف أحد كيف يُحدد «الجنود العراقيون المؤهلون وغير المنتمين إلى الأحزاب»، نجد وفقاً لأي مقياس أن العدد يقل كثيراً عما هو مطلوب.

لم تكن مذكرة غوردون الاستخبارية متفائلة بالمعلومات المتعلقة بحكومة وطنية قوية. حتى مع إجراء إصلاحات مثل «تقديم ضمانات موثوقة للمشاركة في الموارد»، وتقاسم عائدات النفط مع الطوائف والمناطق كلها، «ستظل الحكومة الوطنية هشة»، كما أكدت المذكرة.

المقاربة الثانية هي تقسيم العراق، حيث أشارت الورقة إلى أن ذلك يزيد الوضع سوءاً. أما المقاربة الثالثة المتمثلة بدعم الشيعة، فمن المرجح أن تؤدي إلى «زيادة كبيرة في حدة العنف»، كما كتب في المذكرة.

كان غوردون الوحيد الذي تصدى بجدية لمسألة انسحاب الجنود الأمريكيين، وهي المقاربة الرابعة في الورقة. «تؤكد معظم التحليلات أن النتائج المباشرة لانسحاب أمريكي سريع ستكون سلبية على الأغلب: تصاعد حدة الحرب الأهلية الطائفية، تقوية القاعدة والإرهابيين في العراق، ضرر بالغ يصيب مكانة الولايات المتحدة، زعزعة الاستقرار في المنطقة».

باختصار، كما تستنتج الورقة: «لا توجد مقاربة مفضلة على نحو واضح على سواها، وتؤدي كلها إلى مخاطر كبيرة وأخطار جسيمة على الولايات المتحدة».

على وجه العموم، وجد المشاركون الآخرون الورقة مثيرة للاهتمام لكنها غير مفيدة. فبعد خطأ الاستخبارات الشنيع فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل في العراق، أصبحت الوكالات الاستخبارية حذرة باطراد، وميالة إلى المراوغة، مما جعل عملها التحليلي أقل فائدة.

في أثناء المراجعة، زودت التحليلات الاستخبارية زيليكو بتقرير عن الانقسامات الطائفية الخطرة داخل الجيش العراقي؛ حيث أظهر أن الشيعة يهيمنون عليه إلى حد يتعذر تسميته جدياً بجيش لاطائفي.

قال زيليكو لكراوتش: «دعونا نوزع الورقة على المشاركين في المراجعة هنا».

أجاب كراوتش: «لا، لا يمكن توزيعها».

سأل زيليكو: «تعني أنني لا أستطيع عرضها على كوندي؟». كان ذلك بالغ السخف، فلجأ زيليكو إلى جون نيغروبونتي، مدير الاستخبارات الوطنية، الذي قال إن الوثيقة الاستخبارية غير مكتملة من ناحية الإجراءات، ولم تصادق عليها الاستخبارات رسمياً، ومن ثم لا يمكن توزيعها.

كان زيليكو يلخص لرايس ما يجري في تقرير موجز يكتبه بعد كل اجتماع للمراجعة.

قدم ممثلو وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة الحجة مراراً على ضرورة أن توفر وزارة الخارجية مزيداً من الموظفين لحرب العراق. ولاحظ زيليكو أن وزارة الخارجية تعد مركز عمليات صغيراً بالمقارنة بالبنتاغون. وتحققَ، ثم ذكرَ أن عدد الموظفين العاملين في الخدمة الخارجية لا يتجاوز 6500 موظف، في حين أن العاملين في الفرق الموسيقية التابعة للمؤسسة العسكرية يزيدون على هذا العدد.

كتب جون هانا، رجل تشيني، ورقة أصر على أنها تعبر عن آرائه وحده. وقال فيها إن إستراتيجية المصالحة استلزمت استثماراً ضخماً في الحوار مع المتمردين السنة، ومن ثم دفعت الولايات المتحدة ثمناً باهظاً نتيجة ازدياد شكوك الأغلبية الشيعية. ولم يحقق الاستثمار في محاولة جلب السنة إلى العملية السياسية، وفي تلبية احتياجاتهم، نجاحاً فعلياً. دعونا نوقف، كما قال هانا، دفع السنة بالقوة في حلوق الشيعة. دعونا لا نخشى من القول إن الشيعة هم الأغلبية وهم الذين فازوا في الانتخابات.

ولأن الشيعة والكرد يمثّلون نسبة 80% من السكان، دعيت ورقة هانا «حل الـ80%».

على الرغم من نفي هانا، وافق تشيني على المبادئ الأساسية الواردة في الورقة: الشيعة يمثلون الأغلبية، وفازوا في الانتخابات. وينظر كثير من الناس في الشرق الأوسط بدونية إلى الشيعة، خصوصاً سنة السعودية. ولم يرغب بأن تبدو الولايات المتحدة وكأنها تحاول إضعاف الحكومة المنتخبة شرعياً في العراق.

* * *

في نهاية الأيام العديدة المحمومة، لم تحظ المناقشات والأوراق بإجماع يذكر. ومع ذلك قال كراوتش إنه سيجمعها معاً لعرضها بإيجاز على بوش بعد عيد الشكر. وقال أيضاً إنه سيقرر مع هادلي ما سيعرض على الرئيس منها.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/11/16.

2- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/11/17:

«Advancing America's Interests: Preserving Iraq's Independence».

3- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية بتاريخ 2006/11/18.

4- مراجعة المؤلف وملحوظات على وثيقة سرية.

5- قُدمت تفاصيل من الوثيقة للمؤلف بواسطة مصدر مطلع.

-24-

نشر توم ريكس، المراسل المطلع لصحيفة واشنطن بوست في البنتاغون، مقالة في الصفحة الأولى في العشرين من تشرين الثاني عن مجلس الكولونيلات ومراجعته «المحترزة والمحمية»، وحاول تحليل توصياته بشأن العراق [1].

التقى بيس بالضباط في ذلك اليوم؛ لشكرهم على عملهم الجيد حتى الآن. وقال إن أحد أعضاء المجلس ثرثار. وقد أضر التسرب فعلاً بجهودهم للبقاء بعيداً عن شاشة الرادار. «نحن القادة، نريد منكم، أنتم الضباط، إبلاغنا آراءكم وأفكاركم»، كما أضاف.

ثم ألقى قنبلة. «سأل وزير الدفاع والبيت الأبيض الجنرال كيسي عن رأيه بزيادة عدد القوات. هل تعد فكرة جيدة؟ وفي هذه الحالة، ما الذي يمكن فعله برأيكم بخمسة ألوية إضافية؟».

أخذ بيس القادةَ والضباط على حين غرة. لم يكن هذا الخيار بين البدائل المطروحة التي نوقشت وقدمت. فمن أين أتى إذاً؟ هل هو خيار جدي؟ هل قُضي الأمر واتخذ القرار؟

قال بيس إن لديه اجتماعاً بعد يومين في البيت الأبيض، ويريد أكبر قدر ممكن من المدخلات. «أريد أن أعرض على الرئيس توصية بما يمكن عمله». ومع أن يوم الأحد —الذي يبعد الآن ستة أيام– هو الموعد النهائي الذي حدده الرئيس، إلا أنه لا يتوقع أن يتخذ البيت الأبيض أي قرارات. «مجرد أساسيات وتوجهات. أنا مستعد لحمل خيارات أخرى». سأل مولين مشيراً إلى خيار زيادة عدد القوات: «متى يجب أن ننفذه؟».

أجاب بيس: «بحلول أواخر الربيع أو أوائل الصيف».

أوجز الجنرال ساتلر، رئيس الإدارة السياسية والخطط الإستراتيجية الذي شارك في مراجعة فريق كراوتش في البيت الأبيض، المواقف الأخرى المتخذة حالياً. تؤكد وزارة الخارجية أن المصالحة غير ممكنة. ويميل مكتب تشيني إلى الوقوف إلى جانب الشيعة – «أي دعم الفائز». وتستمر وزارة الدفاع في تأييد الإستراتيجية الحالية و«تعتقد وجود بارقة أمل».

بدأ القادة تصحيح الشرائح (السلايدات) التي وضعها الكولونيلات وتنقيحها وتعديلها، مع مزيد من التركيز على الوضع القائم؛ والتركيز على المقاربة المحافظة الأقل انتقاداً وذماً؛ وتخفيف لهجة الانتقادات؛ والتشديد على أي إشارة متفائلة. وتساءل الضباط: لماذا يجب عليهم تخفيف –وتلطيف– حدة آرائهم التي ستعرض على الرئيس؟ لكن طريقة القادة هي التي سادت.

ومع غوص القادة في تفاصيل لغة العرض وأسلوبه وطريقته، عبر شوميكر مرة أخرى عن موجة من الإحباط وخيبة الأمل.

«إذا استمعتم إلى المناقشة الجارية هنا يتضح أن الوقت يدهمنا... تفكيرنا الإستراتيجي تقلص إلى مستوى التوصية بأسرع الخيارات، لا أفضلها بالضرورة».

شعر بعض الضباط بأن عمل المجموعة يقع على آذان صماء. واشتبه بعضهم أن بيس لا يمثل آراءهم بقوة كافية، إذا مثلها أصلاً، في البيت الأبيض.

وأُبلغ القائد أن بعض الكولونيلات مصابون بالإحباط. فدعا أفراد المجموعة إلى اجتماع في اليوم اللاحق، الحادي والعشرين من تشرين الثاني. سألهم: «ما الذي جرى؟ أريد أن أعرف ما يشغلكم ويقلقكم».

نفس الضباط عن مشاعرهم، لكن بحذر.

قال بيس: «لقد قدمتم لي أفكاراً عظيمة لدراستها. دعونا نلتقي غداً صباحاً».

في اليوم اللاحق، الثاني والعشرين من تشرين الثاني، ظهرت صورة كيسي من بغداد على شاشة الفيديو الآمن في «الدبابة»، حيث اجتمع القادة والكولونيلات. وكان موضوع النقاش إمكانية زيادة عدد القوات.

قال كيسي محذراً ومكرراً تعويذته المعتادة: «سيكون لإرسال وحدات إضافية من قوات التحالف تأثيراً محلياً مؤقتاً. فهل يستحق المكسب التكتيكي عرقلة تقدم حكومة العراق في مجال تحمل مسؤوليتها الأمنية؟».

«هناك صراع على تقسيم السلطة بين العراقيين. فكلما طالت مدة تسليمهم مسؤولية أمن بلادهم، تقلص الدافع المحفز لحكومة العراق».

وعلى الرغم من تردد كيسي في الموافقة على زيادة عدد القوات، إلا أنه عرض أربعة اقتراحات في حالة حدوثها:

1- «تسميك الأحزمة» حول بغداد، بمعنى نشر مزيد من الجنود في المناطق المحيطة بالمدينة، حيث انتقلت إليها القاعدة كما أظهرت المعلومات الاستخبارية.

2- نقل السيطرة على بغداد إلى العراقيين في الأشهر الثلاثة الأولى من عام 2007.

3- نشر جنود في محافظة ديالى أو الأنبار لكبح جماح العنف الطائفي.

4- استخدام قوات إضافية لتأمين الحدود وحماية البنية التحتية.

أما شرط كيسي السابق لإرسال مزيد من القوات فهو التزام من جانب المالكي بالإسراع بالمصالحة.

وإذا ما أراد الرئيس الموافقة على الزيادة في في أثناء الشهر القادم، يمكن لخمسة ألوية أمريكية قتالية (أي عدد يراوح بين 20-30 ألف جندي) أن تصل بغداد بحلول نيسان 2007، اعتماداً على عدد جنود الدعم والمساندة. وهذا سيرفع عدد الألوية من خمسة عشر إلى عشرين. وبعد ستة شهور يمكن أن يعود العدد إلى خمسة عشر حسب المناوبة العادية.

سيكون «من المؤلم القيام بذلك، لكن إن حظي القرار بدعم في المنطقة وفي الولايات المتحدة، فربما يستحق تنفيذه. لكنني لست مقتنعاً. وأدرك أن جون [أبي زيد] وأنت يا جورج، لا توصيان بالزيادة في هذا الوقت»، كما قال بيس.

قال كيسي إن عدد الفرق في الجيش العراقي يزداد. «ومن ثم يتحقق تقدمٌ». وإذا سارت الأمور كما هو مخطط لها، يجب أن تصبح المحافظات كلها «تحت السيطرة الوطنية الكاملة» للحكومة العراقية بحلول نهاية عام 2007.

قال شوميكر: «ما يقلقني هو افتقاد القدرة على التعامل مع أي تهديدات أخرى في العالم. إن بناء القوات يتطلب وقتاً. ووضع بيضنا كله في سلة العراق مخاطرة كبيرة».

أضاف الأدميرال إدموند جيامباستياني (58 سنة) نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة: «نحن بحاجة إلى توافر قوات طوارئ والحفاظ على احتياطي إستراتيجي».

كان النقاش من ذلك النوع النظري التجريدي الذي يجعل الدم يغلي في عروق مكماستر. فقد قال سراً لأحد الزملاء: «لا يمكنك تدبر أمر طريقة للخروج من الحرب. يجب أن تخوض غمارها يا رجل! عدوك يخوض الحرب. هذا يثير جنوني». وبدا له أن القادة وكيسي أشد قلقاً من التهديدات التي «ربما» تظهر من الحرب الحقيقية التي تستعر نارها فعلاً أمام أنظارهم.

قال كيسي، مشيراً إلى التوصيات التي قدمها الضباط: «والآن إلى ورقتكم. لو كتبها إتش. آر. [مكماستر] لما منحتها أكثر من درجة مقبول».

علت ضحكات مكبوتة.

«أنا جاد. دعوني أبدأ بافتراضاتكم. أنتم تستبعدون المشكلات الصعبة»، كما قال.

وضعت ورقة الكولونيلات ثلاثة افتراضات: ستحدث المصالحة بين الشيعة والسنة في المستقبل القريب؛ مصالح الحكومتين الأمريكية والعراقية واحدة؛ ستعمل الوكالات والمؤسسات الحكومية الأمريكية معاً.

«ما أُدرج بوصفه افتراضات أعده أنا مهمات رئيسة. وإذا تمكنا من تحقيق الافتراضات الثلاثة التي جاءت في ورقتكم فسنكون على طريق الفوز في العراق. لكن المشكلة هي الإستراتيجية التي توصلنا إلى هذا الهدف».

قال مكماستر مخيباً بلطف آمال كيسي: «يجب افتراض نجاح هذه الأمور»، فإذا لم تنجح فلا جدوى من الاستمرار.

قال كيسي للمجموعة: «نتيجتكم النهائية غير مكتملة»؛ لأن حكومة العراق «ستحتاج إلى ضماناتنا الأمنية حتى بعد توقف القتال... سوف يحتاجون إلى مساعدتنا في بناء القدرة المؤسسية والاعتماد الذاتي على مدى سنوات قادمة. وأود أن أضيف أن الصراع الراهن يدور على تقاسم السلطة السياسية والاقتصادية بقدر ما هو عنف طائفي». وأردف مكرراً النتيجة التي يتشبث بها منذ مدة طويلة: «الافتراض الإستراتيجي الأساسي هو: لن يحقق النجاحَ سوى العراقيين».

بدا واضحاً أن غالبية الحاضرين في الغرفة، ومنهم أقوى القادة العسكريين في البلاد، لا يملكون ما يكفي من الرغبة في إرسال مزيد من الجنود إلى العراق، حتى بعد أن تبين أن الرئيس ينوي ذلك بالضبط.

في السادس والعشرين من تشرين الثاني، الأحد اللاحق على عيد الشكر، دعا الرئيس إلى اجتماع في مقر إقامته في البيت الأبيض في الساعة الخامسة عصراً لعرض مراجعة كراوتش للإستراتيجية [2]. سيعقد الاجتماع في الغرفة القائمة على سطح البيت الأبيض، التي شيد سقفها وثلاثة من جدرانها من الألواح الزجاجية. كانت زوجة كالفن كوليدج * قد دعت نسخة أصغر وأقدم من الغرفة «ردهة السماء»، في حين دعاها نيكسون «غرفة كاليفورنيا». وكانت الغرفة المفضلة لرونالد ريغان في البيت الأبيض، وكثيراً ما استخدمها في أثناء مدة تعافيه من جرح الرصاصة التي أطلقت عليه في أثناء محاولة اغتياله عام 1981. واستخدمها آل كلينتون لعقد الاجتماعات السياسية الخاصة ورسم السياسات حين أرادا أن تقتصر على كبار المستشارين.

لم تدخل رايس الغرفة الزجاجية طوال سنوات عملها مستشارة لشؤون الأمن القومي ووزيرة للخارجية. وتمثلت الخطة بجعل هذا اللقاء مختلفاً –مكان جديد في أصيل الأحد بعد عطلة مهمة. أخذت المقعد المجاور لوزير الخزانة هانك بولسون، الرئيس السابق لمؤسسة

* الرئيس الأمريكي الثلاثون 1923-1929. (م)

غولدمان ساكس، مصرف الاستثمار الأسطوري في نيويورك. جنى بولسون (60 سنة)، عامل تصليح خطوط الهاتف في دارتموث، حيث كان أيضاً عضواً في جمعية الشرف للطلاب المتفوقين في الجامعات والكليات الأمريكية، ثروةً طائلة في غولدمان ساكس. ومع أنه لم يقض في وزارة الخزانة أكثر من خمسة أشهر، فقد دعي إلى الاجتماع لتقديم وجهة نظر خارجية.

حضر اللقاء رمسفيلد، مع أنه في أيامه الأخيرة في وزارة الدفاع. وحضر أيضاً خلفه غيتس، مع أنه لم يثبت رسمياً في المنصب، وبدا مثل شبح صامت يحوم فوق الاجتماع وإجراءاته.

كان كراوتش قد استكمل النسخة النهائية من إيجازه المؤلف من أربع عشرة صفحة في الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة السابق. حيث لخص كثيراً من الأفكار المألوفة المتعلقة بأهمية العراق وعدم وجود «حل سحري». ثم تناول الوضع الراهن.

قال: «الوضع في بغداد لم يشهد تحسناً مهماً. حكومة العراق بطيئة... الشرطة العراقية في بغداد تفتقد الفاعلية بل أسوأ... الجيش العراقي أفضل استعداداً لكنه ما يزال هشاً... مستويات القوات الإجمالية في بغداد غير كافية لتحقيق الاستقرار في مدينة بهذا الحجم».

وعلى الرغم من ملحوظات المالكي وتعليقاته الإيجابية، كما قال كراوتش، فهو عاجز عن الفعل أو غير راغب في العمل والتصرف. السنة والشيعة «مراوغون» كلهم. ثم نطق بأشد الجمل إثارة للكآبة والتشاؤم: «العدو هو من يملك زمام المبادرة». وعرض مخططاً بيانياً يظهر تسعة افتراضات مفتاحية توضح أسباب تفاؤلهم في الماضي مقارنة بالواقع الحقيقي الراهن [3]. يشير أحد الافتراضات إلى أن «الزعماء العراقيين يشجعون الأجندات الطائفية»، وأكد آخر بأسلوب لا يمثل الحقيقة كاملة أن «تحمل الشعب الأمريكي للجهود في العراق يتراجع ويضمحل».

وأوجز كراوتش ما دعاه بـ«الإجماع البازغ»، وقال إن الهدف النهائي ما يزال «إسراع نقل المسؤولية الأمنية إلى العراقيين». كانت هذه فكرة رمسفيلد-كيسي. لكنه أضاف إن عليهم «التفكير في زيادة كبيرة في القوات الأمريكية».

تبع ذلك مناقشة تدفقت بحرية، حيث قدمت رايس الحجة على وجود مبالغة في التركيز على العراق وأن من الممكن إيجاد قوة دافعة عبر التراجع خطوة. وأوضح هادلي أنه يوصي بزيادة في عدد القوات. لكن الرئيس لم يتكلم كثيراً.

قالت رايس أخيراً: «لا تحصلون على صورة واضحة عن مجريات الأمور على أرض الواقع». وكانت قد ذكرت العبارة للمشاركين من قبل، لكنها لم تقلها قط أمام الرئيس مباشرة. إذ تحررت من القيود حين خرج رمسفيلد فعلياً من الصورة. «الإيجازات من العسكريين هي كتلة من الخرائط التي لا يمكن لأحد قراءتها –إحصائيات لا تتصل بأي شيء». ومع مثل هذه الصورة المبهمة والناقصة، كما قالت، من الصعب الحكم على الحقيقة ومعرفتها. ثم تحولت إلى الرئيس: «لا أدري كيف يخبرك أحدهم عن مزايا إرسال مزيد من القوات أو مثالبها وأنت لا تعرف ماذا يجري على أرض الواقع فعلاً».

سألت: «هل هذه الحكومة على درجة من الطائفية بحيث يتعذر عليها أداء وظيفتها؟ لا أدري. وهذا ما يقلقني فعلاً. وإذا ما أردنا فعل شيء، فمن الأفضل تيقن الإجابة».

قال هادلي بإصرار: «يجب أن نفعل شيئاً إزاء العنف». متى ستتراجع حدة العنف؟ كان يلح على هذه النقطة منذ شهور. ما يزال يحمل المخطط البياني لتصاعد حدة العنف في ملف «ج ب» (جورج بوش). ومثل ما كان يكرر مراراً: «سوف أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام في العراق حين يبدأ ذلك الخط البياني بالانحدار». ولأن الشرطة العراقية كما أكد كراوتش «تفتقد الفاعلية أو أسوأ»، والجيش العراقي ما يزال «هشاً»، فإن أفضل فرصة لتخفيف حدة العنف تكمن «في القوات الأمريكية».

سألت رايس: «ماذا سيحصل لو عجزنا عن تخفيف حدة العنف حتى بمزيد من القوات الأمريكية؟». ما المهمة المحددة لهذه القوات الإضافية؟ كيف ستختلف عن مهمة المئة والخمسين ألف جندي الموجودين الآن هناك؟ وتمثلت أسوأ كوابيسها في إرسال عشرين أو ثلاثين ألف جندي إضافي –الألوية الخمسة التي يتحدثون عنها– لأداء المهمات نفسها التي ما يزال يقوم بها الجنود إلى الآن، مع النتائج ذاتها.

فهمت رايس أن الفكرة هي تأمين السكان، وإرسال الجنود الأمريكيين مع الشرطة والجيش العراقيين إلى مخافر ومواقع في الأحياء. وسألت بأسلوب توكيدي: «لكن من يتحمل مسؤولية تأمين السكان؟ فإذا عجز العراقيون عن القيام بذلك، وإذا كانوا هم أنفسهم يهددون أمن السكان بنزعتهم الطائفية، فكيف يمكن استخدام الجنود الأمريكيين لأداء المهمة بحق السماء؟».

قدم كراوتش في إيجازه الحجة ضد فكرة أن تنأى القوات الأمريكية عن العنف الطائفي وتمتنع عن التدخل إلا في حالة حدوث إبادة جماعية. إذ يستحيل سياسياً على الولايات المتحدة، كما قال، أن تنحصر مهمتها في وقف المعاناة الإنسانية الواسعة النطاق فقط –مثل القتل الجماعي والتهجير الجماعي. والأهم أن ذلك متعذر وجنودنا في الساحة. ولا يمكن أن نطلب من الجنود الأمريكيين اتخاذ موقف المشاهد والبقاء على الحياد والعراقيون يُذبحون في دوامة العنف الطائفي. لا يمكن أن نطلب من القوات الأمريكية أن تتجاهل ما يحدث أمامها.

قال بوش إن عليهم ألا يتوقفوا عن التفكير في المصالحة الوطنية، وأضاف لتوكيد رأيه: «سوف تعود القوات الأمريكية إلى الوطن إذا لم نحقق هذا الهدف».

أثير السؤال المتعلق بدعم الولايات المتحدة للشيعة والكرد بنحو أكثر وضوحاً، وهل يخفف ذلك الضغطَ عنهم ويجعلهم أكثر قبولاً بالمصالحة مع السنة. لكن المعلومات الاستخبارية أشارت إلى أن حكومة المالكي ما زالت تظهر دلائل على تأييد الأجندة الطائفية. فضلاً على جلاء حقيقة أن السنة لا يريدون المصالحة.

قال الرئيس إن المشكلة تكمن في المتطرفين على الجانبين. وعلى الولايات المتحدة محاربتهم بطريقة متوازنة، دون الانحياز إلى أي منهما. وفي الوقت ذاته، يجب عليهم، كما أكد، دعم حكومة المالكي ومساعدة الأغلبية الشيعية على النجاح.

عاد الحاضرون إلى سؤال رايس، الذي كان واحداً من استفسارات هادلي الرئيسة في أثناء استجوابه الملح لكيسي وخليل زاد قبل أربعة أشهر: من يتحمل فعلاً مسؤولية تهدئة العنف الطائفي؟ من يقوم بهذه المهمة؟ هل تتولاها الولايات المتحدة؟

أوضح الجنرال بيس أن الأخطار من وجهة النظر العسكرية داهمة إلى حد أن إنجاز المهمة مستحيل عملياً. وربما لا تمتلك المؤسسة العسكرية الأمريكية القدرة على أدائها بنجاح.

كما سيضع ذلك الجيش الأمريكي في موقع يتعذر الدفاع عنه بين الشيعة والسنة، كما قالت رايس.

وأضافت أن شعوراً قوياً يدفعها إلى مطالبتهم بمزيد من الوضوح فيما يتعلق بالمصالح الأمريكية؛ لأنهم توقفوا عن التفكير فيها وأخذها بالحسبان. من هذه المصالح الحفاظ على المؤسسات الديمقراطية في العراق بحيث يمكن الاستفادة منها في المستقبل. فهل من مصلحة أمريكا محاولة الحفاظ على أمن السكان في العراق؟ كما سألت. إذا أردنا تحقيق هذا الهدف يجب أن ننجح؛ لأننا في حالة الفشل –أي إذا تولينا القيام بالمهمة ولم ننجح– لن نتمكن من العودة وتأمين المصالح الأخرى. ثم نظرت إلى الرئيس وقالت: «وإلا، علينا الفرار من البلد».

قال وزير الخزانة بولسون: «ليست لدي أي خلفية عن الموضوع كله. لكن لا أفهم ماذا نعني فعلاً هنا حين نتحدث عن إرسال مزيد من القوات الأمريكية، ماذا نعني بالضبط؟ لا أعرف ما الذي تحاولون فعله؟».

مضى على الغزو 1348 يوماً، وانقضت ستة أشهر على موافقة الرئيس وكبار مستشاريه سراً على الحاجة إلى مراجعة للإستراتيجية. لكن لم يملك أحد إجابة عن سؤال وزير الخزانة البسيط السهل.

قالت رايس في سرها: لقد ضلت الإستراتيجية طريقها. فكل شيء ينهار إلى حد أن الإجابة عن سؤال بولسون البسيط هي سؤال بسيط آخر: هل يمكن إعادة ترسيخ حد أدنى من الأمن لخوض المعركة في يوم آخر تتحسن فيه الظروف؟ بكلمات أخرى، هل يستطيعون البقاء؟

قال بوش إنه سيأخذ مدخلات من الجميع في الأسابيع الثلاثة القادمة، ويتوقع إعلان وجهة جديدة بحلول منتصف كانون الأول.

غادر كراوتش الاجتماع خائب الأمل والرجاء. وعلى الرغم من عدم تبين الحجة التي سادت على غيرها، إلا أنه شعر بأن مسؤولية الأمن ستترك بعد مدة قصيرة في أيدي العراقيين، وتلك مهمة لم يعتقد أنهم مستعدون للتصدي لها.

في اليوم اللاحق، الإثنين السابع والعشرين من تشرين الثاني، التقى بيس بالقادة وأعضاء مجلس الكولونيلات في «الدبابة»؛ ليوجز لهم مجريات الاجتماع في البيت الأبيض. «خرجت من الاجتماع سعيداً لأنني عرضت أفكاري»، كما قال وأوضح، إذ إن ذلك لا يمثل الحالة السائدة دوماً.

سأل قائد مشاة البحرية الجنرال جيمس تي. كونواي، مشيراً إلى زيارة هادلي الأخيرة: «هل حصل هادلي على منظور جديد بعد رحلته إلى العراق؟».

أجاب بيس «أجل»، وهو مقتنع بأن الأمن يمثل القضية رقم واحد، وبأن الأهداف السياسية والاقتصادية الأخرى كلها تبقى مراوغة وصعبة التحقيق دون العثور على طريقة لحماية الشعب العراقي.

قال الأدميرال جيامباستياني ملاحظاً: «منذ عام 2003، تفاقمت حدة العنف ولم يكن الأمن كافياً قط». عرف الجميع أنه على صواب.

قال بيس إن رايس أوضحت أنها تريد مزيداً من الأمن قبل النظر جدياً في مسألة تخصيص فرق إعادة إعمار المحافظات –الفرق المدنية/العسكرية الصغيرة التي عملت على إعادة الإعمار– لمحافظة الأنبار.

سأل شوميكر بأسلوب أظهر نفاد صبره وسخريته وتشككه: «هل ظهر شعور بالحالة الطارئة والمستعجلة في البيت الأبيض؟».

أجاب بيس: «ثمة شعور بوجود حالة طارئة وملحة في البيت الأبيض. ويميل إلى إعلان مرحلة جديدة في الحرب تساعدنا على تحقيق هدفنا الأصلي... فبحلول الأول من نيسان 2007، سوف يكون لدينا خمسة ألوية أخرى في العراق».

شعر شوميكر بالجزع. «ما خطتنا البديلة؟» إذا لم ننجح، كما سأل.

أجاب بيس: «سوف يصدر قرار في الأول من كانون الثاني يسمح لنا بنشر خمسة ألوية إضافية بحلول منتصف نيسان على أبعد تقدير». لم تكن هناك أي خطة بديلة.

سأل شوميكر بأسلوب يكاد يكون متحدياً: «هل يشارك المسؤولون أم إن الأمر مجرد سياسة؟».

أجاب بيس: «أجل، سيشاركون». ولهذا السبب تفكر الإدارة في الطرق التي تجعل الزيادة مفيدة. لكن إذا لم يحدث أي تقدم «بعد إضافة الألوية الخمسة، فنحن مجبرون على التجنيد الإجباري، وهو خيار لا يريد أحد التحدث عنه». إذاً، هذا هو السهم الأخير في جعبتهم. فإذا لم ينجحوا، فعليهم اللجوء إلى التجنيد الإجباري. ومجرد ذكر التجنيد الإجباري يعني دعوة أشباح فيتنام إلى «الدبابة».

دمدم شوميكر غاضباً في مناجاة طويلة: «يكرر المسؤولون الحديث عن جاهزية القوات الأمريكية واستعدادها. استعدادها لأي مهمة؟ نحن بحاجة إلى معاينة عمقنا الإستراتيجي للتصدي للأخطار الأخرى. كيف نصبح أكبر حجماً؟ كيف نجعل ما لدينا اليوم أكثر جاهزية واستعداداً؟ الأمر لا يتعلق بالعراق وحده!».

قال شوميكر إن مهمتهم هي جعل المؤسسة العسكرية الأمريكية مستعدة لمواجهة الأزمات المفاجئة. يجب أن يفكروا في كيفية إسراع الوصول إلى الجاهزية والقدرة على المستوى العالمي إجمالاً. «أشعر أحياناً وكأن الأمر أمل مقابل أمل. أشعر أنني أحاكي ما فعله نيرون حين كانت روما تحترق. المخاوف تجتاح كياني كله».

أراد بعض الضباط أن يقفوا ويصفقوا. الأمور تقلقهم هم أيضاً. في حين خالفهم آخرون الرأي، وشعروا أن من المهم أكثر خوض الحرب الراهنة. لكن وجوههم كلهم بقيت خالية من أي تعبير.

قال بيس بإصرار: «لا أحد يردد أوهاماً خيالية غير واقعية هنا. و ينظر المسؤولون المعنيون إلى هذه المسألة نظرة موضوعية ومتوازنة. ويعرف الرئيس ومسؤولو البيت الأبيض القيود المفروضة على الموارد».

لم يظهر بطريقة واضحة أن أحداً من الحاضرين يصدق فعلاً ما يقوله القائد، أو أن القائد يؤمن حقاً بما يقول. لكن ما اتضح بجلاء لا لبس فيه أن هناك كثيرين يرددون أوهاماً خيالية لا علاقة لها بأرض الواقع.

قال شوميكر: «أريد تيقن أننا نستغل الوقت لمصلحتنا على أفضل وجه، إذ لا يمكننا التعويض عن الوقت الضائع. وأخشى أن نؤخذ على حين غرة، حيث يتخذ الرئيس ورمسفيلد القرار ولا نتمكن نحن من تنفيذه».

قال بيس: «نحن بحاجة إلى إعداد أنفسنا على نحو مناسب للقرار المرجح صدوره».

وبصفة شوميكر رئيساً لهيئة أركان الجيش، كان مسؤولاً عن التجنيد والتجهيز والتدريب، وأقلقه مستقبل الجيش وقوته على المدى البعيد، وأراد تجنيد أكبر قوة إجمالية ممكنة. قال لبيس: «لا نريد أن نؤخذ على حين غرة إذا حدث ارتفاع مفاجئ في حدة العنف في العراق أو أفغانستان أو لبنان أو كوريا الشمالية. أعرف أن اجتماعكم لم يكن يدور حول هذه المسألة».

قال بيس: «ثمة شعور بالحالة الطارئة والملحة في العراق، لكنه لا يمتد ليشمل القضايا الأخرى. الآن، أريد أن أتمكن من إبلاغه [بوش] بما يمكن تحقيقه عبر زيادة عدد الجيش ومشاة البحرية وعدّتهم. وما الذي يحققه ذلك للأمة؟».

بدت أمارات القلق على وجه الأدميرال مولين. «يجب أن نخطط لأسوأ الاحتمالات لا أفضلها. وربما نريد الاحتفاظ ببعض الاحتياطي لمواجهة التهديدات الأخرى –مثلا: ثمانية ألوية لإيران».

عرف شوميكر أنهم لا يملكون ثمانية ألوية إضافية.

قال مولين إن عمليات الانتشار الموسعة والمتكررة قد تفكك قوة الجيش القائمة على المتطوعين. «نحن نواصل تفريغ القوة... المبدأ الأساسي الذي يتعذر تجنبه هو: إما تقليص عمليات الانتشار أو زيادة حجم القوة. وهذا ثمن قليل ندفعه للأمن المستدام».

قال قائد القوى الجوية موسلي: «أوافق على حاجتنا إلى مزيد من القوات البرية. نحن نستخدم مشاة البحرية جيشاً برياً ثانياً».

عاد بيس إلى ما قبل خمسة أشهر، حين قرر كيسي عدم تخفيض لواءين من القوات العاملة في العراق، مثلما خطط سابقاً. قال: «دعوني أقول لكم، تغير عالمي في تموز عندما أدركت أننا لن نخرج عن الطريق الرئيس».

ذهل العقيد غرينوود. كان ذلك الحديث كله عن تخفيض عدد القوات مجرد هراء. لم يكن لديهم إستراتيجية. وحين يضعون خطة لتخفيض عدد القوات، يفعلون العكس، ولا يوجد في النظام أحد يطلق الصفارة.

طلب بيس ملخصاً ختامياً يوجز الآراء المتداولة.

قال مولين إنه قلق من أن يؤدي جمع ورقة هيئة الأركان المشتركة مع أخرى من المدنيين في مكتب رمسفيلد إلى «إضعاف فاعلية أفضل مشورة عسكرية».

عرف بيس ما أراده بوش. «أنا أكثر اهتماماً بمسألة كيف تنجح الزيادة».

قال مولين: «ما زلت أبحث عن إستراتيجية شاملة هنا». لم يوافق أحد، ولا حتى بيس، كما بدا آنذاك. وتابع مولين يقول: «كيف يمكن وضع زيادة بحجم خمسة ألوية في الشهور القليلة القادمة بطريقة مناسبة ضمن الصورة الشاملة؟ نواجه كثيراً من القضايا والتهديدات الأخرى –أفغانستان، وباكستان، وكوريا الشمالية، وأماكن لا نفكر فيها اليوم».

ظل أعضاء لجنة بيكر–هاملتون يجتمعون طوال عدة أيام في أثناء الأسبوع الأخير من تشرين الثاني؛ لصياغة التفاصيل النهائية لتقريرهم.

اعتقد لي هاملتون أن الديمقراطيين يحبذون ما دعاه «مخرجاً مشرفاً» من العراق، ووضع بيل بيري جدولاً زمنياً للانسحاب. وأشارت مسودة توصيات بيري إلى أنه «بحلول الربع الأول من عام 2008 –على بعد سنة تقريباً– يجب أن تغادر العراق جميع الألوية المقاتلة غير الضرورية لحماية القوات».

قال بيكر: «لا يمكن أن أقبل ذلك». إذ لم يكن يريد جدولاً زمنياً صارماً. وعرف أن الرئيس بوش يعارض بعناد أي قيد يكبل يديه.

تساءل بيري لماذا تثير الجداول الزمنية الذعر، فالشركات والجيوش تلتزم بها، وهي ضرورية للتخطيط السليم. قال بصوته الرقيق: «لست على استعداد لتوقيع تقرير لا يحدد جدولاً زمنياً».

رد بيكر بلهجة أهالي تكساس الفولاذية: «إذاً، سوف نصدر التقرير من دون توقيعك».

عرف بيري أن بيكر لم يكن يناور.

قال هاملتون بإلحاح: «يمكن التوصل إلى حل وسط». فقد أراد موعداً محدداً للانسحاب.

لاحظ بانيتا أن الجنرال كيسي نفسه اقترح الربع الأول من عام 2007 موعداً للانسحاب.

لم يكن بيكر ليقبل جدولاً زمنياً صارماً ومتعجلاً. فقد عرف أن بوش سيرفضه ويؤكد أن الحروب لا تخاض وفقاً لجداول زمنية.

والتقى بيكر وبيري على انفراد لتسوية الخلافات بينهما.

كان يجب على أي توصية أن تكون مؤقتة وغير نهائية لتمنح الرئيس بعض المرونة، كما أصر بيكر. فمن الضروري حذف كلمة «يجب» في مسودة بيري، والاستبدال بها كلمة «يمكن» كما اقترح.

قال بيري: «حسناً، موافق»، إذ لم تكن وثيقة رسمية على الرغم من كل شيء. وكلمة «يمكن» مقبولة لإظهار القضية أمام الرأي العام. وهكذا، أصبحت الصياغة النهائية كما يأتي: «بحلول الربع الأول من عام 2008، وتبعاً للتطورات المفاجئة في الوضع الأمني على الأرض، يمكن أن تغادر العراق جميع الألوية المقاتلة غير الضرورية لحماية القوات».

خدم ميز، المدعي العام في عهد ريغان، 32 سنة في قوات الاحتياط التابعة للجيش الأمريكي، وشعر أن هذه الخبرة تؤهله للحكم في المسائل العسكرية. واقتنع أن عدد الجنود الأمريكيين في العراق لم يكن كافياً منذ البداية.

ما كان الرئيس ريغان سيرتكب مثل ذلك الخطأ كما قال فيما بعد. «كان سيزيد عدد الجنود. وسبب قولي هذا أن المرة الأولى التي ينشر فيها قوات قتالية على نطاق واسع كانت في غرينادا». وروى ميز كيف اتخذ ريغان القرار [4]. «قال [الجنرال الجيش] جاك فيسي، رئيس هيئة الأركان المشتركة: احسب العدد اللازم من الجنود الذين ستحتاج إليهم للقيام بهذه العملية، ثم ضاعفه؛ وبذلك تقل خسائر الطرفين معاً».

أراد ميز وتشوك روب تيقن أن يشمل التقرير خيار «زيادة» عدد الجنود. ولذلك جلس ميز مع بيل بيري لمعرفة إمكانية التوصل إلى تسوية.

رغب ميز أن يشير التقرير إلى شيء مثل «لكن، نستطيع دعم عملية لإعادة الانتشار على المدى القريب، أو زيادة عدد القوات القتالية لتأمين بغداد واستقرار الوضع فيها».

قال بيري إنه لا يمانع في ذلك، لكن مع شرطين اثنين: أولاً، يمكن للزيادة أيضاً أن «تُسرِع إنجاز مهمة التجهيز والتدريب»، حيث اعتقد أنها تمثل الهدف النهائي لكي يصبح من الممكن تسليم كل شيء إلى العراقيين.

لم يعترض ميز، إذ يمكنهم إضافة مثل هذا الشرط.

لكن نظراً لأن الجنرال كيسي ونائبه الجنرال تشياريللي قد صرحا بكل وضوح إنهما لا يحتاجان إلى، أو لا يرغبان في مزيد من القوات الأمريكية، قال بيري إن على اللجنة القول إنها ستؤيد الزيادة «إذا قرر القائد الأمريكي العام في العراق أن مثل هذه الخطوات ستكون مؤثرة».

وافق ميز على الصيغة اللغوية، والتفت الاثنان إلى الآخرين، وقالا إنهما توصلا إلى حل.

شعر بيري بالارتياح. إذ إن حفيده، العريف في مشاة البحرية، خدم حتى ذلك الحين مرتين في العراق، تحمس في الأولى كثيراً وتراجع حماسه في الثانية. «يا إلهي، لقد قلقنا عليه»، كما قال بيري فيما بعد. ولأن الجنرالات عارضوا بشدة إرسال مزيد من القوات، وأكدوا لأعضاء اللجنة –وبيري شخصياً– أنهم لا يريدون أي زيادة، أقنع بيري نفسه أن إضافة الفكرة إلى تقرير اللجنة لن يكون لها أي تأثير. وباعتبار توكيدات بوش العلنية والسرية بأنه ينتظر مشورة كيسي، شعر بيري بالثقة أن الزيادة لن تتم.

هوامش:

1- انظر:

Thomas E. Ricks, «Pentagon May Suggest Short-Term Buildup Leading to Iraqi Exit.» The Washington Post, November 20, 2006, p. A1.

2- مراجعة المؤلف وملحوظات على ثيقة سرية. ثم وثيقة مشابهة نزعت عنها السرية من قبل البيت الأبيض عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

3- مراجعة المؤلف وملحوظات على مخطط بياني سري. ثمة مخطط بياني مشابه نزعت عنه السرية من قبل البيت الأبيض عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

4- مقابلة شخصية للمؤلف مع إدوين ميز، 2007/6/15. غزت الولايات المتحدة جزيرة غرينادا الصغيرة في البحر الكاريبي عام 1983، بعد أن قام المتطرفون، بدعم من كوبا والاتحاد السوفييتي كما زعم آنذاك، بانقلاب عسكري وأطاحوا الحكومةَ. إضافة إلى ذلك كله، كان على الجزيرة ألف من الجنود الأمريكيين الذي احتاجوا إلى حماية أو إنقاذ.

-25-

غادر الرئيس بوش بالطائرة إلى العاصمة الأردنية عمان لعقد لقاء في الثلاثين من تشرين الثاني مع المالكي. حضر الجنرال كيسي أيضاً، وبدا أن الجليد قد ذاب مؤقتاً بين الرجلين. قال بوش بحرارة: «هاي جورج! كيف حالك؟». أبدى كيسي بضع ملحوظات ساخرة توجز ما يمكن أن يتوقعه الرئيس من المالكي. فبالاشتراك مع كيسي، وضع المالكي خطة لتأمين بغداد. دعت الخطة إلى إسراع نقل السيطرة إلى العراقيين بحلول نهاية عام 2007. وقسمت بغداد إلى عشر مناطق ينتشر لواء عراقي في كل منها، تساعده الشرطة العراقية وبعض القوات الأمريكية وقوات التحالف. وشملت فرض القانون العرفي على بغداد لمنع الميليشيات الشيعية والشرطة التي ينتمي أغلب أفرادها إلى الطائفة الشيعية من العمل بحرية في المناطق السنية.

أبلغ كيسي بوش أن الرسالة المهمة التي يجب إيصالها إلى المالكي هي: «يجب إجراء مصالحة إذا أردنا للخطة النجاح. إذ يمكن لها أن تعمل آلياً، لكن إن لم تدفع الحكومة الفصائل المتنازعة إلى المصالحة، فسوف تعرض كل شيء لخطر التفكك والفوضى».

كان المالكي يواجه مشكلة أخرى. فقد كان مقتدى الصدر يهدد بسحب مؤيديه من الحكومة إذا حضر المالكي اللقاء مع بوش. لكن رئيس الوزراء قرر الحضور مهما حدث.

وبعد تقديم خطة تضع السيطرة في أيدي العراقيين بحلول نهاية عام 2007، قال المالكي إنه يريد أن تتمتع القوات العراقية بحرية العمل في بغداد. ويمكن للقوات الأمريكية أن توجد حول بغداد، دون أن تدخل المدينة بالضرورة. قال رئيس الوزراء: «هذه محاولتنا الأولى لتحقيق الاستقلال. لقد وضعنا الخطة بأنفسنا».

لكنه أضاف: «أردت منكم الاطلاع عليها لأعرف هل هي واقعية. نحن بحاجة إلى تحمل المسؤولية عنها». كانوا كلهم يعرفون مدى انتشار العنف. اعترف المالكي: «إذا بقي العنف في العاصمة على هذا المستوى، لا يمكننا تحقيق أي تقدم في أي مجال». وبدا غير واثق وطالب بمراجعة أخرى لخطته. «الآن أريد منكم مراجعة الخطة وإبلاغي إمكانيةَ تطبيقها. أنا أعرف أنكم تقولون إنني لا أملك قوات كافية. وأعتقد أن هذا صحيح».

تذكر بوش أمامي: «كان فخوراً بخطته. وقلقاً ونافد الصبر. كأنه يقول: أريد أن أقود! يجب أن يروني في مقعد القيادة. وجدتُ الإشارة إيجابية؛ لأنني كنت أدفعه بهذا الاتجاه. أعتقد أنني كنت حكيماً بما يكفي لأقوم بذلك بطريقة لا تبدو أبوية. بكلمات أخرى، نحن شريكان. حدث ذلك في وقت كان فيه المسؤولون الأمريكيون يذهبون إلى بغداد ويقولون: تخلصّ من المالكي!» [1].

عرض بوش علي رأيه في كيفية التعامل مع رئيس وزراء مثل المالكي. «من الأمور التي يجب عليك فهمها، أنني أحاول وضع الشروط التي تجعل تلك القيادة الجريئة ممكنة، وإذا اعتقد أنني واحد من أولئك الذين يقولون: إذا لم تتبع بالضبط الطريقة التي أريد منك اتباعها، فسوف تطرد من المنصب، سوف يرفض. لن تكون قائداً جريئاً إذا كان هناك من هو مستعد لزلزلة الأرض تحت قدميك». في الوقت ذاته، أبلغني بوش: «كنت قاسياً معه إلى أبعد حد. فأنا أبذل جهداً كبيراً لإقامة العلاقات مع الناس، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى انتقادات حادة. لكن إن كنت رئيس أمريكا، فعليك احتلال موقع تستطيع منه أن تقول لمختلف الزعماء: هكذا أعتقد وأرى الأمور. ويجب أن تكون في موقع تجد منه الآخرين يقولون: نحن مستعدون للإصغاء. ومن ثم، كانت تلك مناقشة واقعية مع المالكي. لكنني قضيت وقتاً طويلاً مع المالكي، على الهاتف، وعبر نظام الفيديو الآمن، ووجهاً لوجه. بذلت جهدي لأكون في موقع أستطيع منه التواصل معه عبر علاقة إنسانية، بين إنسان وإنسان، حيث أحاول فهم إحباطاته وهمومه، لكن الموقع يمكنني أيضاً من إجباره على الإصغاء إلي».

في عمان، ماتت خطة المالكي المقترحة عند وصوله. استمع إليه بوش، لكن تبنى فكرة مختلفة. «لا نستطيع أن نكون في وضع مشابه لوضعنا في الصيف الفائت،

حيث يذهب جيشكم للقيام بمهمة، ثم تتصلون به لتقولوا: لا يمكنكم مطاردة هذا الشخص المطلوب».

بعد ذلك، طلب بوش لقاء المالكي على انفراد. لم يبق معهما سوى المترجمين، في حين أُبعدت رايس وهادلي إلى المدخل، حيث جلسا إلى جانب معاوني المالكي. بدأ أحدهم يصف المشكلات التي يواجها المالكي مع السنة.

قالت رايس: «لا، هناك أيضاً مشكلة شيعية، وعليكم الاعتراف بها. لدينا تقارير –ثمة مجموعات تهاجم القرى، وتقتل الرجال وتهجر النساء. فهل تقصدون أن التقارير غير صحيحة؟».

لم يجرؤ أحد من معاوني المالكي على تحديها.

في ذلك اللقاء كان بوش صريحاً مع المالكي. قال له: «أنا على استعداد لإرسال مئات الآلاف من القوات الإضافية». كان مستعداً لزيادة عدد القوات زيادة كبيرة. وأبلغ رئيس الوزراء: «لقد فقدت السيطرة على عاصمتك».

أسر له المالكي: «هذا صحيح. وعلي فعل شيء إزاء الأمر. لا أستطيع السماح بهذا».

تابع بوش: «أنت تفقد السيطرة على بلدك. نحن الآن على استعداد للمساعدة، لكننا لن نفعل –لأنها لن تفيد– إلا إذا حصلت على بعض الضمانات منك. وهي: وقف التدخل في إدارة العمليات العسكرية؛ عدم التدخل سياسياً في قرارات قادتك العسكريين».

ثم عدد فقرات لائحة من المطالب الإضافية. لن تكون هناك مناطق خارج حدود السيطرة، ولا قوائم «لا تمس» بأسماء الزعماء الشيعة أو المليشيات الشيعية التي تفعل ما تريد دون قيود. «سوف نطارد –قواتكم وقواتنا– كل من يتورط في أعمال العنف مهما كان. وهذا يشمل جيش المهدي والصدريين [جناحه السياسي]. سوف نقضي على عناصر أي مجموعة متورطة في العنف. ولن يتعرض للأذى من لا يتورط بالعنف».

تابع بوش قائلا: «ويجب أن تضمن لي التزامك عملية المصالحة الوطنية؛ لأن هذه العملية يجب أن تحقق تقدماً أيضاً».

رد المالكي بالإيجاب.

قال لي بوش فيما بعد عن المالكي واللقاء في عمان: «إنه رجل تكتسحه أحداث اللحظة. وهو يبدأ بوضع قدميه على الأرض. لقد أمضيت وقتاً طويلاً أتحدث معه. وأكد لي دوماً أنه سيقضي على المتطرفين. أتذكر بوضوح أنني قلت له: المجرم الشيعي مذنب مثله مثل المجرم السني. ولكي تكون [في نظر العراقيين] زعيماً عادلاً ونزيهاً عليك أن تتعامل مع الاثنين بالتساوي» [2].

لكن ذلك لم يحدث آنذاك، إذ لم يكبح أحد جماح المتطرفين السنة والشيعة في بغداد. قال بوش متذكراً: «بدأ الناس يحتمون بأحد الأطراف بدافع البقاء. لم تكن هذه الأطراف سياسية، بل تمثلت برجل قوي، أو صاحب نفوذ يمكن الاعتماد عليه، أو أنشط عصابة، للاختباء خلفها».

لم يتضح في ذلك اليوم في عمان أن المالكي فهم مدى جدية بوش في مسألة زيادة عدد القوات أو عرفها. ولم يعرف كيسي، الذي تُرك على الهامش، أن الرئيس أبلغ المالكي بهذه الطريقة المباشرة والصريحة عن مدى استعداده إرسالَ مزيد من الجنود الأمريكيين.

غادر كيسي اجتماع عمان معتقداً أن الرئيس والمالكي قد وافقا على خطة تأمين بغداد.

وفي مؤتمر صحفي مشترك عقد فيما بعد في فندق «فور سيزنز» في عمان، قال المالكي إنهما (هو وبوش) «كانا واضحين تماماً فيما يتعلق بأهمية الإسراع في نقل المسؤولية الأمنية إلى العراقيين» [3]. وقال الزعيمان في بيان مشترك إنهما «ناقشا إسراع عملية نقل المسؤولية»، ولم يشيرا إلى أنهما اتفقا عليها، لكن لم يلحظ أحد الفارق على ما يبدو [4].

أشار البيان إلى أنهما اتفقا على اتخاذ خطوات «لملاحقة المسؤولين عن الهجمات الجبانة التي وقعت في الأسبوع الماضي في مدينة الصدر وإحضارهم إلى العدالة». ففي الأسبوع السابق، وقعت سلسلة من الهجمات بالسيارات المفخخة ومدافع الهاون والصواريخ راح ضحيتها أكثر من مئتين في مدينة الأكواخ الفقيرة المترامية الأطراف [5].

أبلغ بوش رايس فيما بعد أن المالكي فهم المطلوب منه حسبما اعتقد. فقد تعهد بإنقاذ بغداد؛ كانت تلك مساومة. وأضاف: «أصاب فيما قاله. سمعت منه الصواب. والآن سنرى».

ذهبت رايس من عمان إلى البحر الميت للقاء وزار خارجية دول مجلس التعاون الخليجي، إضافة إلى وزيري الخارجية في مصر والأردن. ودعي اجتماع وزراء خارجية البلدان (السنية) «منتدى المستقبل» (6).

في ذلك الوقت تقريباً، نشر ديفيد سانغر، مراسل صحيفة نيويورك تايمز، مقالتين مفصلتين على الصفحة الأولى تناول فيهما توصيات لجنة بيكر-هاملتون المتوقعة. حملت المقالة الأولى عنوان: «لجنة لدراسة المبادرة الأمريكية تجاه إيران وسوريا»، في حين كان عنوان الثانية «اللجنة المعنية بالعراق ستوصي بسحب القوات القتالية»، وصدرت في اليوم الذي وصلت فيه رايس إلى اجتماع وزراء الخارجية.

جلست رايس مع وزراء الخارجية وهي تتوقع منهم الشكاوى المعتادة عن السلام بين فلسطين وإسرائيل، أو الصراع في لبنان.

لكنها ارتكزت كلها على العراق. فقد قال الوزراء واحداً بعد الآخر إنهم على قناعة بأن الولايات المتحدة على وشك شد الرحال ومغادرة العراق. وعليهم آنذاك أن يعقدوا صفقاتهم الخاصة مع السنة في العراق ومع بعضهم بعضاً. أما خوفهم الأكبر فتمثل على حد قولهم في «هلال شيعي»—هلال مكون من تكتلات كبيرة من السكان الشيعة تمتد من إيران، وعبر العراق، إلى لبنان وسوريا والأردن- يهدد سنة المنطقة.

سمعت رايس كثيراً من الأصوات الغاضبة. قال أحد وزراء الخارجية: «أمريكا سوف تستسلم». وسيعيد بوش الانتشار ويفاوض إيران وسوريا. وبلغ بعضهم حد القول إنهم يشعرون بالقلق من أن الرئيس سيعقد سلاماً منفرداً مع إيران. وهذا يشبه ذهاب نيكسون إلى الصين أو ريغان إلى الاتحاد السوفييتي. وذلك كله سوف يزعزع توازن القوة الإقليمي.

قال أحد الوزراء لرايس: «لستم بحاجة إلى التفكير في سحب قواتكم، بل بمضاعفتها».

بعد العودة إلى واشنطن، ذهبت رايس للقاء بوش. عرف الاثنان أن الحلفاء الإقليميين يعانون انقساماً في الشخصية: «فمن ناحية، لا تريد بلدان المنطقة أن نكون عدوانيين ومولعين بالحروب، ومن ناحية أخرى، تريد منا أن نكون عدوانيين ومولعين بالحروب»، على حد تعبير رايس. وبسبب الفوضى وعدم اليقين في العراق، كما أبلغت الرئيس، «تشعر بلدان أخرى في المنطقة بالقلق من أن الولايات المتحدة ليست عدوانية إلى حد كاف، ويصيبها الذعر من الانسحاب أو الخروج».

قالت بصراحة: «خرجتُ من الاجتماع مقتنعة بأنهم يعتقدون أننا على وشك القبول بالهزيمة في العراق، بل إن الهزيمة ستؤذن بنهاية النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط».

سأل الرئيس: «هل تعنين أننا لا يمكن أن نفوز».

قالت رايس إنها تعتقد أن النفوذ الأمريكي في الخليج الذي دام أكثر من ستين سنة، منذ عهد فرانكلين روزفلت، معرض للخطر. الخطر داهم ومحدق. «إذا لم تظهر القوة والعزيمة، فسوف يعقدون صفقاتهم الخاصة بهم»، كما قالت. ولا توجد طريقة أفضل لإقناع بوش من حثه على إظهار القوة والعزيمة.

كان عليهم، أكثر من أي وقت مضى، العثور على طريقة لعكس مسار الأمور، مثلما أضافت. وما اتضح من الاجتماع أن «زيادة عدد القوات الأمريكية ستترك تأثيراً مفيداً، بغض النظر عن نجاحها في تحقيق الأمن للسكان. وحقيقة أن رئيس الولايات المتحدة يرسل مزيداً من القوات، على الرغم من الصعوبات كلها، والأصوات جميعها، سوف تمارس تأثيراً هائلاً في المنطقة». ومع أن رايس نفسها لم تكن تحبذ إضافة مزيد من القوات، لكن فائدة إرسال رسالة مطلوبة إلى الحلفاء في المنطقة أصبحت الآن واضحة دون لبس.

سأل الرئيس مرة أخرى: «هل يمكننا الفوز؟».

قالت رايس: «أستطيع القول إننا لا نفوز الآن».

في الخامس من كانون الأول، انفجر الرئيس السابق جورج بوش (الأب) (82 سنة) باكياً نادباً حين كان يتحدث أمام مجلس نواب ولاية فلوريدا [7]. فقد كان ابنه، جيب بوش حاكم فلوريدا، يترك المنصب بعد احتلاله طوال ولايتين اثنتين. وفي إشارة إلى خسارة جيب في السباق الأول لمنصب الحاكم قبل سنين، قال الرئيس السابق: «لم يكن يشتكي. والمقياس الحقيقي للرجال يتمثل بكيفية تعاملهم مع النصر ومع الهزيمة». وتهدج صوته الناتج من فرط التأثر والحزن، ونحب وبكى وأخرج منديله ليمسح دموعه. واحتلت المشاعر العاطفية النادرة التي أظهرها الرئيس السابق عناوين الأخبار في محطات التلفزة الوطنية.

تناولت بيغي نونان، رئيسة فريق كتّاب خطابات بوش الأب وصديقته المقربة، الموضوع في عمود في صحيفة وول ستريت جورنال، حيث قالت: «لا يعتقد أحد يعرف جورج بوش الأب أن تلك اللحظة تتعلق بجيب وحده»، بل كانت على الأرجح تتعلق بـ«ابن آخر». ولاحظت أن «التقدم بالسن يمكن أن يتركك عرضة لقوة أي مشاعر لديك. فالدفاعات تتأكّل وتتداعى مثل حاجز يهرؤه الزمن».

أضافت بيغي: «فكروا في تلك اللحظة التاريخية المشحونة لدى بوش الأب». ولاحظت أن تقرير لجنة بيكر-هاملتون التي تضم أعضاء من الحزبين كليهما سوف يصدر غداً. «ومن المؤكد» أن جيمس بيكر، كبير مستشاري بوش الأب قد اتصل به ليقول إن التقرير «لن، ولا يمكن أن يوفر مخرجاً من الكارثة الوطنية الفاجعة». وعلى بوش الأب أن يعرف أن «ابنه جورج (على الرغم من النوايا الحسنة!) قد أخطأ في أخطر قرار اتخذه في مدة رئاسته —التوقف عند أفغانستان أم الانتقال إلى العراق؟- وهو يواجه الآن هزيمة اتضحت معالمها في التقرير».

«وماذا عن العالم الداخلي للرئيس بوش الابن؟... الرئيس يقدم نفسه كل يوم بطريقته المتغطرسة المتباهية، بما يبدو أنه طاقة حيوية مقلقة... وخلافاً لتبريح الرؤساء القدامى في أوقات الحرب، يبدو أنه لا يعاني أبداً مثل هذه التباريح. فكروا بلنكولن المحطم... أو

ليندون جونسون المعذب». فهل يعد ذلك نتيجة «للهدوء ورباطة الجأش أم الثقة الناجمة عن الجهل؟ الإجابة لديكم أنتم. وموقفكم من الحرب سوف يقررها على الأرجح. لكن سأخبركم أن السؤال يشغلني بمعناه ومغزاه. وعندما أسأل أحداً في البيت الأبيض، يكرر القول كالمعتاد إن الرئيس يعتمد على معرفته صوابيةَ مساره النهائي».

كانت تلك صرخة صادقة ومخلصة من قلب أقرب مساعدي بوش الأب – صرخة شعر بها جيمس بيكر لكنه لم يرد إعلانها على الملأ. كتبت نونان عن الرئيس بوش في ذلك الوقت: «إذا كان يعاني، فربما أخبرونا؛ فالمعاناة تجعله يبدو طبيعياً، وهذا شعور مشجع نراه في الرئيس. لكنه ربما لا يعاني. ربما يوكل غيره بالمعاناة. ربما يتركها لوالده».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة.

1- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008/5/20.

2- المصدر نفسه.

3- Presidential Documents, November 30, 2006, pp. 2104-2121 (Vol. 42, No. 48), ww.gpoaccess.gov/wcomp/v42no48.htm

4- Presidential Documents, November 30, 2006, p. 2112 (Vol. 42, No. 48), ww.gpoaccess.gov/wcomp/v42no48.htmlW

5- انظر:

Sudarsan Raghavan, «Sadr Casts a Shadow over Bush-Maliki Meeting,» The Washington Post, November 30, 2006, p. A19.

6- انظر:

David Sanger, «Panel to Weigh Overture By U.S. to Iran and Syria,» The New York Times, November 27, 2006, p. A1; David Sanger, "Iraq panel to Recommend Pullback of Combat Troop,' The New York Times, November 30, 2006, p. A1.

7- Peggy Noonan, «A Father>s Tears,» The Wall Street Journal, December 8, 2006.

-26-

توجه بوب غيتس إلى مجلس الشيوخ يوم الثلاثاء الخامس من كانون الأول لحضور جلسة تثبيته في المنصب [1].

سأله السيناتور كارل ليفين، العضو الديمقراطي عن ولاية ميشيغان الذي سيصبح بعد مدة قصيرة رئيس لجنة الخدمات المسلحة: «هل تعتقد أننا نفوز حالياً في العراق؟».

أجاب غيتس وهو يدرك أنه يعبر عن رأي يثير جدلاً خلافياً: «لا يا سيدي».

سرعان ما جاء الدور على جون مكين. سأل: «هل توافق على أننا وقت الغزو لم تكن لدينا قوات كافية للسيطرة على البلاد، حين ترى الأحداث من منظور الحاضر؟».

قال غيتس: «أظن أن بعض المسؤولين في الإدارة ما كانوا سيتخذون القرارات نفسها التي اتخذوها على الأرجح. وأعتقد أن أحدها يتعلق بعدم وجود ما يكفي من الجنود في العراق للسيطرة على البلاد بعد بداية الغزو».

حين سألت الرئيس فيما بعد هل كان عليه إرسال مزيد من القوات في وقت أبكر، قال إن التاريخ وحده سيحكم و«إنني قضيت وقتاً طويلاً أحلل هل كان إرسال مزيد من الجنود عام 2003» سيغير الوضع [2].

في جلسة تثبيت غيتس في المنصب، أشار مكين إلى أن الوضع مستمر في التدهور، في حين يصر أبي زيد وكيسي أن لديهما عدداً كافياً من الجنود. فلماذا؟

أجاب غيتس: «أيها السناتور، كنت عضواً في لجنة بيكر-هاملتون... وأريد إبلاغك أننا حين كنا في العراق سألنا القادة هل لديهم ما يكفي من الجنود؟ وهل من الضروري

زيادة أعدادهم زيادة كبيرة؟ وأقول إن الإجابة التي تلقيناها كانت: لديهم العدد الكافي... تلك هي الإجابة التي تلقيناها في بغداد».

بعد ذلك، سألت عضو الكونغرس هيلاري كلينتون التي كانت على وشك إعلان ترشحها للرئاسة: «هل يمكنك إخبارنا متى وكيف توصلت إلى النتيجة التي عبرت عنها في شهادتك: نحن لا نفوز —وهي نتيجة مختلفة عن النتيجة التي توصل إليها الرئيس؟».

قال غيتس: «بصراحة، أحسب أن الرئيس لو اعتقد أن الأساليب التكتيكية والإستراتيجية الراهنة التي كنا نستخدمها تحقق النجاح، لما بحث عن عيون جديدة ومقاربات جديدة وتكتيكات جديدة لوضعنا في العراق. أظن أنني توصلت إلى تلك النتيجة في أثناء عملي في لجنة بيكر-هاملتون، حيث سنحت لي الفرصة أول مرة فعلاً لمعاينة بعض هذه الظروف بالتفصيل».

تابعت كلينتون: «لدينا هذا اللغز المحير: رئيس ونائب رئيس سوف يقرران—الرئيس هو المقرر، مثلما يغرم بالقول- الوجهة النهائية التي يجب اتباعها للتقدم في العراق. ومن المحبط فعلاً لكثير منا رؤية هذه الأخطاء التي ارتكبت —عددت بعضها أنت- والتساؤل هل هناك تغيير سيحدثه الرئيس؟ هل تتبنى رأياً يتعلق بكيف ومتى ستحدث العملية التي يمكن أن تؤدي إلى إحداث بعض التغييرات في الخيارات والإستراتيجيات؟».

قال غيتس: «سيناتور كلينتون، أشعر أن العملية ستجري بسرعة ودون إبطاء».

استُكمل تقرير لجنة بيكر-هاملتون بعد ثمانية أشهر من العمل، والتقى أعضاؤها على انفراد بالرئيس بوش في الصباح الباكر من يوم الأربعاء السادس من كانون الأول في غرفة العمليات (التي تصل إليها آخر الأخبار والتطورات) في البيت الأبيض.

أوجز بيكر وهاملتون التقرير الذي وافق عليه الأعضاء بالإجماع، وحمل عنواناً فرعياً: «السبيل إلى الأمام —مقاربة جديدة». حث التقرير على تخفيض عدد القوات بهدف سحب جميع الألوية القتالية غير الضرورية لحماية ما بقي من الجنود الأمريكيين من

العراق بحلول الربع الأول من عام 2008. فضلاً على أن اللجنة أوصت بالقيام بمبادرة دبلوماسية، تشمل إجراء حوار مع سوريا وإيران.

قال بانيتا: «السيد الرئيس، لديك هنا عمل خمسة ديمقراطيين وخمسة جمهوريين حاولوا التوصل إلى إجماع. ومن المهم فعلاً النظر إلى هذه التوصيات. لا أعرف رئيساً يمكن أن يدير حرباً بأمة مقسمة. وهذا يمنحك الفرصة على الأقل لتحاول البدء برأب الصدوع والانقسامات التي وقعت وتوحيد البلد».

أومأ بوش برأسه ولم يقل شيئاً.

وحين سنحت الفرصة لتشوك روب للتحدث، لاحظ أن التقرير يقول: «لكن نستطيع دعم عملية إعادة انتشار على المدى القريب أو زيادة في أعداد القوات القتالية لتعزيز الاستقرار في بغداد».

بعد أن تحدث الأعضاء كلهم، اندفع المراسلون والمصورون إلى الغرفة في الساعة 7:58 صباحاً.

قال الرئيس: «تلقيت للتو تقرير مجموعة دراسة الوضع في العراق [بيكر–هاملتون] الذي أعدته لجنة متميزة من إخواننا المواطنين. سوف نتعامل مع كل اقتراح بجدية». ولاحظ أنه لن يوافق على الأرجح على التوصيات التسعة والسبعين كلها. «لكنها فرصة للتجمع معاً والعمل معاً على هذه القضية المهمة. وبرأيي، سئم البلد من المشاحنات السياسية التي تحدث في واشنطن، ويعرف الأمريكيون أن من الأفضل العمل معاً على قضية الحرب والسلام المهمة هذه» [3].

«سوف يمنحنا هذا التقرير فرصة للعثور على أرضية مشتركة، لمصلحة البلد –لا لمصلحة الحزب الجمهوري أو الحزب الديمقراطي، بل لمصلحة البلد». كان ذلك أقوى تصريح عن اتفاق الحزبين يدلي به بوش منذ غزو العراق. وتدفقت مشاعره الفياضة في مدح أعضاء اللجنة. «ربما كنتم تقومون بأعمال أخرى، وربما كانت حياتكم أيسر من الخدمة التي دعتكم حكومتكم إلى أدائها مجدداً، لكنكم سمحتم لنا بدعوتكم إلى الخدمة مرة أخرى، وأسهمتم إسهاماً مهماً وحيوياً في العمل لمصلحة البلد... نحن نصفق لعملكم».

اعتقد بيري أنه سيقبل أفكارهم.

عندما كان بوش يغادر الغرفة، استحثه روب مرة أخرى على التفكير في الفقرة المؤيدة زيادةَ عدد القوات، فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، ووعد بأن يفعل.

قال بوش فيما بعد إنه فهم أن روب هو الذي عبر أولاً عن فكرة الزيادة قبل أشهر. وتذكر أن «روب كان مشجعاً جداً، وفي أثناء اللقاءات اعتاد القول: سيدي الرئيس، لنتشبث برأينا وننفذ الفكرة. كان شخصاً يأمل أن ننجح» (4).

نشرت وسائل الإعلام تقرير اللجنة وتعاملت معه بوصفه نقطة تحول في الحرب. أعلنت صحيفة واشنطن بوست مثلاً أن «لجنة العراق تقترح إجراء تغيير رئيس في الإستراتيجية». في حين ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن «اللجنة تستحث إجراء تغيير أساسي في سياسة الولايات المتحدة في العراق» (5).

قال تيم روسرت، رئيس مكتب واشنطن في محطة إن بي سي الإخبارية: «هذا التقرير يستدعي التفكير العميق. فهو قوي، وحماسي، ويجمع رأي الحزبين معاً، وصدر بالإجماع –أعتقد أنه لا يمثل مجرد دعوة لإيقاظ بوش والبيت الأبيض فقط، بل البلد بأسره» (6).

أما فرانك وولف، ممثل فرجينيا الجمهوري في مجلس النواب، الذي كان أول من طالب بإنشاء لجنة لدراسة الوضع في العراق، فقال: «هناك شيء عظيم فيما يتعلق بحكمة الشيوخ. فهم قادرون على قول الحقيقة» (7).

أدرك هادلي أن الرئيس سوف يرسل مزيداً من القوات. فهو الخيار الوحيد الذي يحدث تغييراً جريئاً على ما يبدو. أما الحديث عن الخروج من العراق فكان أمراً سخيفاً وعبثياً برأي بوش. وحُيِّدت قدرة لجنة بيكر–هاملتون على تغيير مجرى الأمور نحو أي وجهة أخرى؛ لأن أعضاءها وافقوا بالإجماع على إمكانية تأييدهم دعم «عملية إعادة انتشار على المدى القريب أو زيادة في أعداد القوات القتالية». ولذلك، تابع هادلي إستراتيجيته المدروسة لإجبار الحكومتين العراقية والأمريكية على الخضوع لإرادة بوش؛ لكن ظهرت عقبات وعراقيل.

أولاً، لم يكن المالكي موافقاً. فقد عبر عن آخر مواقفه، في لقائه مع الرئيس في عمان في الثلاثين من تشرين الثاني، بالقول: «لا أحتاج إلى قواتكم. يمكننا أداء المهمة بأنفسنا. يجب أن نؤدي المهمة بأنفسنا».

وتمثلت العقبة الثانية بالقيادة العسكرية. فبعد خروج رمسفيلد، كان على الإدارة تيقن أن غيتس سيواصل تأييد الزيادة. لكن كيسي عارض. ولذلك يجب استبداله هو وأبي زيد. لكن هيئة الأركان المشتركة ومجلس الكولونيلات يمثلان مشكلة، وعرف هادلي أن بمقدوره حث الجنرال بيس وإقناعه عبر توضيح ما يريده القائد العام (بوش).

مثلت رايس عقبة كأداء ثالثة. فبرأي هادلي، كانت واقعة تحت سطوة تأثير مستشاريها، زيليكو وساترفيلد، وأفكارهما عن التراجع خطوة. وكان عليهما، هو والرئيس، بذل جهد دؤوب لإقناعها بالتخلي عن معارضتها.

في السابع من كانون الأول، أتى بيس إلى البيت الأبيض لعقد لقاء على انفراد مع هادلي. كان مجلس الشيوخ قد صادق على تعيين غيتس في اليوم السابق بخمسة وتسعين صوتاً مقابل صوتين اثنين، لكنه لن يؤدي اليمين القانونية قبل عشرة أيام بحيث يستطيع حضور مراسم إنهاء التخرج في جامعة تكساس قبل الاستقالة من منصبه رئيساً للجامعة. لذلك كان هادلي يشغل منصب وزير الدفاع بحكم الأمر الواقع.

سارع بيس إلى التبرير بالقول: «لدينا إستراتيجية للفوز. ومعظم الأعمال العسكرية التي نحتاج إليها لتنفيذ هذه الإستراتيجية تسير على قدم وساق. انبثقت هذه الأعمال من مراجعتنا، وستبدو مختلفة أمام الشعب الأمريكي».

عرف أن الرئيس أراد شيئاً مختلفاً ومرئياً وملموساً. «غالبية هذه الأعمال قام بها كيسي من قبل. لكنها غير مرئية، ولم تكن جزءاً من كل متكامل». على سبيل المثال، سوف ينقل مزيداً من المحافظات إلى سيطرة العراقيين، كما قال. كان كيسي يختار الألوية الأمريكية الموجودة في العراق التي يمكن نقلها إلى بغداد من أجل «زيادة داخلية» في عدد القوات. «صادق كيسي على ذلك كله ووافقت سلسلة القيادة حتى القمة. على الجانب

العسكري، نحن بحاجة إلى التفكير فيما يجب على العراقيين فعله، وإلى ما نحن بحاجة إليه لدعمهم إذا ما أرادوا النجاح».

مضى أكثر من ثلاث سنوات ونصف السنة على الحرب، وشعر رئيس هيئة الأركان أنه بحاجة إلى إبلاغ مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي أنه ليس مغرماً بالمعارضة.

ظل على ما يبدو منزعجاً ومتأثراً بتصريحات الرئيس بوش السابقة التي عبر فيها عن رغبته أن لا يلعب العسكر من أجل التعادل. قال: «نحن نخوض الحرب للفوز لا للتعادل». وأضاف إن ذلك كله يعتمد على الزعماء السياسيين العراقيين: «في غياب الزعماء العراقيين المستعدين للقيام بالمهمات الصعبة، لا يمكن أن نحقق النجاح».

وفيما يتعلق بالزيادة المقترحة في عدد القوات، قال بيس: «إنها مهمة عسكرية. ويجب أن تحدث تأثيراً، ويمكن أن تنجح، ويجب أن تكون محددة المدة»، أي إرسال مزيد من القوات مدة سنة أو نحوها. «ولا يمكن أن تستمر إلى الأبد».

«إذا تمكنا من عمل شيء مهم في بغداد، فسيكون له تأثير إيجابي في البلدين كليهما. لكن يجب أن يترافق بخطوات سياسية وأمنية. الشعب بحاجة إلى زيادة الجهد وتحقيق تقدم. وإذا قمنا بالمهمة معاً فلدينا فرصة في النجاح. نحن بحاجة أيضاً إلى معاينة متطلبات الزيادة لدعم هجوم المالكي على جيش المهدي. هناك حاجة إلى نقل خمسة ألوية، ويجب إبقاء بعضها في مسرح العمليات أكثر من سنة».

قامت سياسة المناوبة التي اتبعها الجيش على الخدمة مدة سنة في العراق تتبعها سنة استراحة في الوطن. لكن يجب تغيير هذه السياسة. وعلى الجنود أن يخدموا مدة أطول، فضلاً على ضرورة ألا تصل مدة الاستراحة إلى السنة لدى بعض الألوية. «لا يمكن أن نحمل العبء كله على عاتق القوات العاملة وحدها»، كما قال بيس. وعلى قوات الاحتياط فعل المزيد. «لقد جرى حشد ألوية الحرس الوطني الأربعة والثلاثين كلها. ومن المفترض أن تبقى في الوطن مدة خمس سنين قبل العودة مجدداً. وربما نضطر إلى التخلي عن هذا النظام». وقال إن نقل خمسة ألوية إضافية إلى العراق قد يتطلب أربعة أشهر. «ليست لدينا خمس مجموعات من المعدات لنشر خمسة ألوية. لذلك يجب أن تجلب المعدات معها، وبعض المعدات تظهر الآن تأثير نشر القوات. بعض المعدات لم تعد صالحة».

سأل بوش هادلي بعد اللقاء مع بيس: «كيف جرت الأمور؟».

قال هادلي: « على خير ما يرام، سيدي الرئيس. وهم يعملون على حل المشكلة».

استطاع بوش وهادلي –بذكاء وحذق، كما اعتقدا- تجنب سلسلة القيادة ووضع فكرة زيادة الألوية الخمسة على الطاولة. فعلى الرغم من كل شيء، وعلى الرغم من الأغراض العملية، لا يوجد وزير للدفاع. فقد غادر رمسفيلد ولم يصل غيتس بعد.

كانت أوسوليفان في بيئتها الطبيعية، وهي تصدر المذكرات، والمعلومات على شرائح برنامج باوربوينت، والمخططات البيانية، والخيارات. أظهرت إحدى المذكرات السرية التي وزعت على كبار المسؤولين في السابع من كانون الأول، ما عده هادلي إجماعاً بازغاً. وظلت تشير إلى الهدف بوصفه: «الإسراع في نقل مسؤولية الأمن إلى العراقيين» (هدف كيسي القديم)، لكن على الولايات المتحدة مساعدة العراقيين على إخماد نيران العنف الطائفي [8].

وأشارت وثيقة سرية أخرى من خمس صفحات بعنوان «العراق والولايات المتحدة والعنف الطائفي» إلى أن

الحقائق المتفق عليها تشمل «عجز القوات الأمنية العراقية حتى الآن عن التعامل مع مهمة إخماد نيران العنف الطائفي»، وإذا سلمت المهمة إليها، حتى مع إرسال مزيد من الجنود الأمريكيين، فإنها «ستفشل على الأرجح» [9].

وعبر متاهة من «الافتراضات المتفائلة» و«الافتراضات المتشائمة» وتحليلات المخاطر، اختزلت القضية في اقتراحين: 1) على الولايات المتحدة مساعدة العراقيين على تهدئة حدة العنف الطائفي؛ 2) «على الولايات المتحدة عدم التدخل لوقف العنف الطائفي إلا حين يهدد العنف بالوصول إلى حجم ما حدث في سريبرينتشا أو أكثر».

في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي انعقد في الثامن من كانون الأول، قدمت رايس الحجة لمصلحة «الاقتراح الثاني» المحدود أكثر من الأول، حيث قالت إن عليهم عدم التدخل إلا

في الحالات القصوى من العنف الطائفي. «على العراقيين تحمل المسؤولية. وعلى الولايات المتحدة تقليص دورها في معاقبة العنف الطائفي إلى الحد الأقصى» (10).

قال الرئيس: «نحن بحاجة إلى تقليص المخاطرة بحيث لا تصبح مقامرة».

تابعت رايس: «يجب على العراقيين تحمل المسؤولية. يجب إفهامهم أن دورنا يتقلص».

قال بوش: «حسناً، يجب أن تكون عملية جانبية بالحركة البطيئة، لا بالحركة السريعة. يجب أن يتحمل العراقيون المسؤولية. نحن جميعاً متفقون على ذلك. لكن المسألة هي: وفقاً لأي إطار زمني؟».

قال الجنرال بيس إن القيادة العسكرية لا يمكنها قبول الخيار الثاني –عدم التدخل إلا عند حدوث إبادة جماعية واسعة النطاق. إذ يتعذر عليها اتخاذ موقف من يشاهد العنفَ الطائفي المحتدم. ومن وجهة نظر عملية، كيف يمكن تحديد ذلك المستوى من العنف في خضم المعركة؟ أين يمكن رسم هذا الخط؟ نحن لا نعمل بهذه الطريقة، كما قال. جنودنا لا يعملون بهذه الطريقة.

قال الرئيس: «نعلم الآن أن التقدم لن يتحقق إلا بالعراقيين. أما المسألة المهمة فهي: متى يمكنهم تحمل المسؤولية؟».

قال الجنرال كيسي من بغداد عبر نظام الفيديو الآمن: «لن نتوقع منهم القيام بذلك قبل الصيف القادم».

فكرت رايس: الصيف؟ الموعد يبعد سبعة أشهر أو ثمانية، ولن يبق شيء من بغداد آنئذ.

قال بوش إنهم بحاجة إلى نوع من «الجسر»؛ لإيصال الجيش العراقي إلى مستوى يستطيع عنده تسلم زمام الأمور. «ما الذي نحتاج إليه فعلاً لدفعهم إلى الالتزام؟ هل توجد آلية إجبار؟ إذا لم يلتزموا، فلن يتحقق نجاح. فكيف ندفعهم إلى ذلك؟».

قال خليل زاد من بغداد: «يعرفون أن عليهم الالتزام. المشكلة هي جيش المهدي [مهماز العنف]. يعرفون أن عليهم مواجهة جيش المهدي، لكنهم لم يقرروا بعد».

قال بوش، وقد اتخذ بسرعة قراراً صارماً ظل يناقشه سابقاً كبار المسؤولين طوال ساعات: «إن الانتظار حتى الصيف هو مجرد تسويف وتهرب من المسؤولية. نستطيع الجلوس مع المالكي. يمكننا وضع خطة بحيث نتمكن من تحقيق ذلك كله في وقت أسرع. لا يمكننا الانتظار إلى الصيف. هل نجرؤ على مواجهة جيش المهدي بالقوة؟».

لم يجب أحد. فمواجهة جيش المهدي، وهو ميليشيا مؤلفة من سبعين ألف مقاتل، مهمة ضخمة وشاقة وتضع الولايات المتحدة في خضم الحرب الطائفية.

أشارت المعلومات الاستخبارية إلى أن المالكي يدرك باطراد أن جيش المهدي يستطيع تدميره في نهاية المطاف.

سأل الرئيس: «كيف نسلمه المسؤولية، التي نقول جميعاً إن عليه تحملها، دون أن يفشل؟».

اعتقد هادلي أن مساءلة الرئيس صائبة وصحيحة.

بدا أن الآخرين يوافقون على ضرورة أن تكون مواجهة جيش المهدي قراراً عراقياً، لكن يمكن للقوات الأمريكية أن تقدم المساعدة والعون.

سأل الرئيس: «إذاً، ما الذي نفعله في أثناء ذلك؟ ما الذي ينقصه؟».

اقترح بعضهم أن المالكي يفتقر إلى الإرادة السياسية، وأن لديه قوة عسكرية كافية للتعامل مع جيش المهدي بدعم من الولايات المتحدة.

قال بوش: «يمكننا فرض ذلك، لكن هناك مخاطر كبرى. رجل واحد يمكنه تقرير التقدم». كانت العبارة اعترافاً منه أن أعمال المالكي وأفعاله حاسمة الأهمية للوضع في العراق. «نحن بحاجة، ضمن مدة زمنية معقولة، إلى خطة لمواجهة الميليشيات قبل خطابي». كان يخطط للكشف عن الإستراتيجية الجديدة في خطاب يبث للأمة عبر التلفاز. «نحن بحاجة إلى وضع الكرة في ملعب العراقيين، لكن وفقاً لجدول زمني مقرر. لقد التزمنا بمطاردة القاعدة والصداميين. التزمنا بحمايتهم من إيران وسوريا على الحدود. المشكلة هي العنف الطائفي والميليشيات».

على وجه الإجمال، كما قال بوش، الرهان مرتفع كثيراً، وثمة «مقامرة» في الاعتماد على قدرة العراقيين على التعامل مع مسؤوليات كبح جماح العنف الطائفي بمفردهم. فإذا فشلوا، فقد تتشظى القوات المسلحة العراقية وتنقسم، وتنهار حكومة المالكي. وفي حين لن تتولى الولايات المتحدة بمفردها مهمة إنهاء العنف الطائفي، فقد قرر اختيار الاقتراح الأول. سوف تساعد أمريكا العراقيين إلى أن يتمكنوا من أداء المهمة بأنفسهم.

في مقابلة لاحقة [11]، أبلغني بوش أنه رأى خياراته عبر بديلين واضحين وصارخين: «الأول، نوع من الانسحاب من بغداد، وإذا احترقت فلتحترق، مادام أن اللهيب لا ينتشر ويمتد. والآخر، الدخول إلى خضم المعمعة والعمل على إنجاح المهمة».

«ومن الواضح أنني اخترت البديل الثاني».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثلاثة عشر مصدراً من المصادر المطلعة ومن ملحوظات متزامنة كتبها اثنان من المشاركين.

1- انظر:

Congressional Quarterly Transcriptions, «U. S. Senator John Warner Holds a hearing on the Nomination of Robert Gates to Be U. S. Secretary of Defense,» Senate Armed Services Committee, December 5, 2006.

2- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

3- Presidential Documents, December 6, 2006، pp. 2126-2127 (Vol. 42, No. 49), www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no49.html

4- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

5- Iraq Panel Proposes Major Strategy Shift, « The Washington Post, December» 7, 2006, p. A1; David Sanger, "Panel Urges Basic Shift in U.S. Policy in Iraq," The New York Times, December 7, 2006, p. A1.

6- David Montgomery, «Footnotes to History: Rituals of Delivering the Iraq Report,» The Washington Post, December 7, 2006, p. C1.

7- Ibid.

8- وثيقة بتاريخ 2006/21/7، نزعت عنها السرية بواسطة البيت الأبيض عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

9- وثيقة بتاريخ 2006/21/7،، نزعت عنها السرية بواسطة البيت الأبيض عام 2008 استجابة لأسئلة محددة طرحها المؤلف.

10- ملحوظات مشارك في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي انعقد في الثامن من كانون الأول 2006، ومقابلات مع غيره من المصادر المطلعة.

11- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/20.

-27-

اجتمع مجلس الأمن القومي في الساعة السابعة من صباح يوم السبت التاسع من كانون الأول، وحضر الاجتماع كيسي وخليل زاد عبر نظام الفيديو الآمن.

وكان من المقرر أن يلتقي الجنرال والسفير مع المالكي في اليوم اللاحق. وقال الرجلان إنهما يتوقعان أن يطلب مزيداً من القوات العراقية ومزيداً من المساعدة من جانب القوات الأمريكية الخاصة. وقالا، فضلاً على ذلك، إن المالكي يعتقد أنه يكسب المعتدلين العراقيين إلى صفه.

سأل الرئيس: «أليست مواجهة الصدر جزءاً من العملية بالنسبة إلى المالكي؟ فهو بحاجة إلى مواجهة الصدر، وإعلان عزمه على مواجهته؟».

قال كيسي وخليل زاد لا. إذ يستطيع القول إنه سيواجه الميليشيات وأولئك الذين يخرقون القانون. ولن يستهدف الصدر وحده؛ لأن وزراءه ما يزالون في الحكومة وانخرط في حوار مع المالكي في مرحلة من المراحل. فالصدر وجيشه يتمتعان بقوة كبيرة. لكن المالكي يستطيع أن يواجه الصدر بذريعة مواجهة الميليشيات. وهذا بدوره سيتيح للولايات المتحدة مطاردة جيش المهدي والميليشيات.

سأل بوش: «كيف يختلف ذلك كله عن وضعنا الآن؟».

قال كيسي: «يكمن الفارق في أننا سنقوم بالمهمة، سوف نضع خطة عملياتية، سوف نضع جدولاً زمنياً لأدائها. سوف يعلن المالكي في الثامن عشر من كانون الأول أن عملية مشتركة نخطط لها الآن ستنفذ إذا لم توقف الميليشيات –في وقت محدد- حمل السلاح، وممارسة العنف ضد المدنيين، ولم تقبل بنزع السلاح وحل نفسها وإعادة الاندماج».

بعد اجتماع مجلس الأمن القومي في اليوم السابق، تحدث بوش وهادلي عن بعض الجوانب السلبية للمساعدة في وقف العنف الطائفي. ولذلك سأل الرئيس: «ماذا لو امتنع جيش المهدي عن القتال؟ ماذا لو تبنى نموذج حزب الله في الاحتجاج على الحكومة؟ لا نريد جنودنا أن يتورطوا في مكافحة أعمال الشغب، فهذه مهمة العراقيين. فإذا اختبؤوا، يجب وضع لائحة بأسماء المطلوبين لمطاردتهم. كيف تقاتلون جماعة مختلطة ومريبة تعمل في الخفاء؟».

قال كيسي: «سوف نستعيد السيطرة العراقية على مدينة الصدر. وسيتضح متى يخرق الناس القانون. وعند العثور على سلاح يعتقل صاحبه. مدينة الصدر الآن ملاذ آمن».

قال هادلي إن ذلك سيكون اختباراً كبيراً للمالكي. فإذا اقتحم مدينة الصدر، معقل جيش المهدي، واستهدف الشيعة، فسيظهر بعض النوايا الحسنة والمخلصة واللاطائفية.

سأل بوش: «حسناً. إذا دخلنا إلى مدينة الصدر، فمن يدخلها؟ وكيف؟ هل لديكم قوات كافية لدخولها؟ من يبقى خارجها حين ندخلها؟ لن نبقى هناك، فمن يبقى فيها؟ نحن؟ العراقيون؟ ما الفكرة هنا؟».

قال له كيسي: «سوف ندفعه إلى وضع الشروط السياسية، ثم ندخل المناطق التي يكون فيها لجيش المهدي حضور مهم أولاً. ثم نرسل القوات العراقية وقوات التحالف من داخل العراق. سوف نحتفظ سلفاً بلواءين في الكويت بحيث يكونان على استعداد للتدخل في حالة انتشار الأعمال الحربية خارج بغداد. لا نريد تكرار ما حدث في نيسان وآب من عام 2004» (حين واجهت القوات الأمريكية جيش المهدي فانفجر العنف في شتى أرجاء العراق).

عاد بوش إلى موضوع مدينة الصدر وسأل بوش: «من يسيطر بعد دخولنا؟ القوات العراقية؟ الشرطة؟ الجيش؟».

أُبلغ أن خليطاً مكوناً من الجيش العراقي، والشرطة الوطنية، وبعض قوات الشرطة المحلية، سوف تقوم بالمهمة.

قال بوش: «يرتكز النجاح على مدى اعتمادنا على الشرطة. وتلك مشكلة. هل نضيف مزيداً من جنود الجيش العراقي؟ هل ندمج الشرطة الوطنية في الجيش؟».

تابع الرئيس: «يجب أن نكون واقعيين. نحن بحاجة إلى إطار زمني واقعي ومعيار واقعي للحكم على نوايا المالكي ومقاصده. وحين نسلك هذا السبيل، وإذا بذل جهد كامل لتحقيق الهدف، فسوف نحتاج إلى الاستعداد للقيام بشيء مختلف اختلافاً جذرياً».

علا صوت من خارج المجموعة المعتادة، فقد قال وزير الخزانة بولسون الذي حضر الاجتماع بطلب من هادلي: «السيد الرئيس، أنا موافق. ما المدة المتاحة لنا؟ وكم مرة نستطيع قضم التفاحة؟ هل نحن بحاجة إلى تطوير مزيد من الخيارات الجذرية وتجهيزها وإعدادها؟». ذكر خيار رايس، حيث لا تتدخل القوات الأمريكية إلا حين يصل العنف إلى مستويات الإبادة الجماعية. واقترح ألا ينتظر الرئيس طويلاً. «احكموا على المالكي. لكن تجربتي تشير إلى أن الناس لا يتغيرون كثيراً».

عرف هادلي أن رأي الرئيس كان مختلفاً قليلاً، خصوصاً فيما يتعلق بالمالكي. فقد اعتقد أنه ساعد على تغيير المالكي وتحسين أدائه عملَه.

ثم تحول الرئيس فجأة إلى الدفاع عن رئيس الوزراء العراقي. قال: «المالكي مصيب حين يقول إنه لا يملك الأدوات الكافية لأداء عمله. نحن بحاجة إلى تجريده من هذه الذريعة. نحن بحاجة إلى تزويده بالأدوات الصحيحة والمناسبة. لكنني سأتخذ القرارات، والهدف هو عمل جذري لتحقيق النصر».

فيما يتعلق بهادلي، كان ذلك خبراً رئيساً. لكن رايس فكرت بطريقة مختلفة. قالت محذرة: «ليس المالكي وحده المهم هنا. تذكروا أن الأمر لا يتعلق برجل واحد، بل يجب علينا تحدي مؤسسة معتدلة بأسرها: إذا لم تكونوا على استعداد لملاحقة المتطرفين، فسوف نترككم ليقاتل بعضكم بعضاً، وسوف نطارد القاعدة ونؤمن الحدود ويمكنكم جميعاً التقاتل حتى تحقيق نتيجة حاسمة. فإذا كنتم على استعداد للقيام بالمهمة، فسوف نقدم العون والمساعدة، وإلا سوف نحمي مصالحنا». تشمل هذه المصالح، كما قالت، منع العراق من التفكك كلياً واستمرار الحملة الأمريكية ضد القاعدة.

ذكر أحدهم التقارير الاستخبارية الحساسة، التي أظهرت أن القوات الأمنية العراقية لم تكن على مستوى مهمة وقف العنف الطائفي. فهل يبالغون فيما يتوقعونه من العراقيين؟

قال الرئيس إن المالكي اشتكى له من معدات الجيش العراقي، وله بعض الحق في ذلك. واستشهد برئيس الوزراء: «أنتم تتجولون بناقلات الجنود المدرعة والدبابات. ونحن نتنقل بالشاحنات». اشتكى المالكي أيضاً من أن الأشرار يملكون صواريخ محمولة وجيشه لا يملك سوى بنادق الكلاشنيكوف.

سأل بوش: «كيف يمكن لجيش غرس الخوف والرهبة في النفوس حين يبدو مثل الميليشيات التي يقاتلها؟ لذلك، علينا إبلاغ المالكي أننا سنزود جيشه بكثير من المعدات». طوال أكثر من ثلاث سنوات من الحرب، تمثلت الإستراتيجية الأساسية بنقل المسؤولية الأمنية إلى العراقيين. لكن المؤسسة العسكرية الأمريكية لم تزود الجيش العراقي بأفضل المعدات ولا بكميات كافية منها بعد لسبب بسيط: غياب الثقة.

قال المسؤولون العسكريون إنهم سيعاينون قدرتهم على تزويد العراق بمزيد من المعدات. إذ لا يملك العراقيون، كما لاحظوا، عربات همفي وعربات مدرعة إضافة إلى الشاحنات.

قال الرئيس: «على العراقيين صب مواردهم كلها في بغداد». فقد قيل له إن من الممكن نقل ثلاث وثلاثين كتيبة عراقية موجودة في تسع محافظات هادئة. سأل: «لماذا لا تنقل إلى بغداد؟».

قال له كيس: «نحن نقوم بنقلها».

سأل بوش: «هل يمكن للمالكي حشد أفضل القوات العراقية المتوافرة في مدينة الصدر؟».

اعترف كيسي: «لديهم فرقتان، واحدة في الجنوب وأخرى في الغرب، وهما أكثر قدرة من القوات الموجودة في مدينة الصدر الآن. لكنهما منخرطتان في أعمال أخرى مهمة».

سأل الرئيس: «كم عدد الألوية العراقية في بغداد؟».

قال كيسي إن عدد القوات الأمنية العراقية في بغداد يراوح بين 50-60 ألفاً، أي ثلاثة أضعاف عدد الجنود الأمريكيين في العاصمة.

فوجئ بوش وقال: «ما أكثر أقسام الجيش العراقي قدرة؟ وهل نحتاج إلى مزيد من الجنود الأمريكيين إذا وافق المالكي على القيام بالمهمة؟».

كان السؤال الثاني بالطبع سؤالاً أساسياً، لكن لم يقدم أحد إجابة مباشرة. بدلاً من ذلك، قال كيسي إنهم يفكرون في فرض الأحكام العرفية.

في هذه الأثناء، ركز الرئيس على عدد الجنود. قال: «نحن بحاجة إلى معرفة هل نستطيع توفير مزيد من الجنود في الأنبار وبغداد؟ فهما على ارتباط وثيق».

أدرك هادلي أن بوش يريد مزيداً من القوات في المنطقتين كلتيهما، ويحاول أن يظهر إلى أين يسير.

لكن النقاش تحول إلى مدينة الصدر، ولاحظ الحاضرون أن كثيراً من الشيعة يعدون جيش المهدي حامياً لهم.

بدا أن مجلس الأمن القومي يوافق على ضرورة خوض معركة على بغداد بطريقة أو بأخرى. وما إن تبدأ يجب أن تستمر إلى النهاية. أعرب بوش عن موافقته على الاقتراح القائل إنهم بحاجة إلى قوة جوية وبحرية إضافية في المنطقة لردع إيران، بسبب دعمها جيشَ المهدي وصلاتها به وبغيره من الجماعات الشيعية المتطرفة.

وفي إشارة إلى غيتس وبيس، قال: «بوب وبيت بحاجة إلى التفكير الجدي في المسألة. لكن بأي معنى؟ إذا حدث شيء، إذا تحدت إيران خطتنا، فكيف نرد؟ ما إن يؤدي بوب يمين القسم، يجب على بيت وبوب وجون [أبي زيد] القدوم إلي وإيجاز المعلومات المتعلقة بهذه القضية».

قال تشيني: «نحن بحاجة إلى إرسال رسالة قوية إلى إيران للتوقف عن التصرفات غير المسؤولة».

عاد الحديث إلى المالكي. قال الرئيس: «نحن بحاجة إلى لمسة ماهرة وذكية لدفع المالكي إلى موقع يستطيع منه تحقيق النجاح. هذا لا يعني المبالغة في الإلحاح والضغط عليه. نريده أن ينجح، ويجب مساعدته على النجاح».

كررت رايس تحذيرها المعتاد إلى العراقيين، وأنهم بحاجة إلى التجمع والتوحد معاً وإلا ستعلق جثثهم على أعمدة الكهرباء.

قال تشيني: «نريد شيئاً لردع إيران وسوريا. وهذا مهم لا للعراق فقط بل للمنطقة ولبنان أيضاً».

في صبيحة يوم الإثنين اللاحق، التقى بوش بمجلس الأمن القومي لعرض تقرير عن آخر الحوارات مع المالكي. ذكر كيسي وخليل زاد أن رئيس الوزراء وافق على القيام بعملية مشتركة وفورية في بغداد تستهدف كل من يمارس أعمال العنف، على الرغم من أن الخطة الأمريكية تدعو إلى البدء بالعملية في الشهر القادم (كانون الثاني).

قال الرئيس: «يجب على المالكي أن يعلن أمام شعبه وشعبنا أنه سيواجه الخارجين على القانون كلهم، وأنه طلب العون من قوات التحالف. ثم عليه أن يعلن الخطة التي ستساعدونه على وضعها في خطاب يلقيه على الأمة». ويجب أن يلقي المالكي خطابه قبل يوم أو اثنين من خطاب بوش.

سأل بوش: «على القوات العراقية أن تكون رأس حربة. فماذا يعني ذلك؟ هل يملك العراقيون القوات المطلوبة؟».

أجابه كيسي: «نريد أن يتحمل العراقيون المسؤولية. لديهم القيادة والتحكم. لديهم ما يكفي من القوات. لكن القضية تتعلق بالمعولية. نحن نعمل على هذه المسألة، وربما تعني النتيجة أن عليهم الاتكال بنحو أكبر على قوات التحالف.»

سأل الرئيس: «كيف نضمن مثابرة المالكي على أداء المهمة حتى اكتمالها؟».

اقترح الحاضرون البدء بالخطة التي قدمها المالكي في عمان.

سأل الرئيس: «هل تثابر القيادة العراقية على التزامها وتشبثها بالخطة، حتى حين يغلي المرجل السياسي؟».

ذكر كيسي وخليل زاد أن هناك ضغوطاً متعارضة. الحكومة العراقية تريد القيام بالمهمة، لكن عليها التقليل من الكلفة السياسية إلى أقصى حد. ولذلك، يجب أن يعلن المالكي أن الخطة خطته والجنود جنوده، ويستهدف العناصر والجماعات كلها لا جيش المهدي فقط. وعندما يناقشون الخطة مع المالكي يجب مراجعة الاحتمالات كلها.

قال بوش: «لا يمكن دفعه إلى التراجع عندما يرى الخطة، خصوصاً حين يعلنها قبل يومين من خطابي. فإذا احتاج إلى العون، فهل يقبل مزيداً من قوات التحالف؟».

عبر عدد من الحاضرين عن اعتقادهم أن المالكي سيقبل مزيداً من قوات التحالف، لكن لم يناقش أحد بعد العددَ المحدد معه.

قال الرئيس: «يجب على المالكي أن يكون جريئاً جسوراً، ويعلن أمام مواطنيه أنهم بحاجة إلى وقف العنف، وأنه بحاجة إلى مساعدتنا لأداء المهمة».

تحول النقاش مرة أخرى إلى المالكي وضرورة توحيد حكومته. فالجهد العسكري وحده لن يكفي. ثم أضاف أحد الحاضرين (لم يتضح اسمه من ملحوظات الاجتماع) بنبرة متفائلة: «سوف نشهد تراجعاً في حدة العنف بمرور الوقت، مع اشتدادها بين الحين والآخر... وربما يتطلب الأمر شهراً أو اثنين قبل أن يلحظ الناس تغيراً في الوضع».

قال الرئيس: «نحن بحاجة إلى الوقت بحيث يبزغ تحالف القوى المعتدلة وتؤدي الشرطة وظيفتها بكفاءة. نحن بحاجة إلى مزيد من الوقت وإلى جسر للحكومة بحيث لا يخرج العنف عن نطاق السيطرة ويمنعها من اتخاذ الخطوات الضرورية. نحن بحاجة إلى كبح جماح التطهير العرقي والتطرف بحيث تتمكن الحكومة من أداء عملها. فهل يعني ذلك كله الحاجة إلى مزيد من القوات الأمريكية؟».

تحول النقاش إلى الموارد المتاحة في حوزة المالكي. فقد أشارت التقارير إلى أن 40% من قوات الشرطة المحلية مشكوك بولائها، وهي نسبة مرتفعة جداً. واتضح أن المالكي لا يملك ما يكفي من القوة.

قال بوش: «يجب على المالكي أن ينسب إلى نفسه فضل إقناع الولايات المتحدة بتوفير القوات اللازمة لتحقيق النجاح».

ثم ناقش الحاضرون أهمية دعوة الزعماء الدينيين إلى الهدوء.

سأل بوش: «ماذا عن الأحكام العرفية بوصفها طريقة لإحداث تأثير نفسي؟».

قالت رايس: «نحن بحاجة إلى خطة أمنية، وخطة اقتصادية، وخطة سياسية».

قال الرئيس: «ما إن نقنع المالكي بالخطة، ونبدأ بتنفيذها، فلن نستطيع وقفها. أطلعوني على آخر المعلومات المتعلقة بالحوار مع المالكي. حاولوا إثارة مسألة الأحكام العرفية معه».

تحول النقاش إلى الأطراف العراقية المعتدلة التي يمكن أن تدعم المالكي وأهمية جعل بغداد تحتل قمة الأولويات.

لكن ماذا عن محافظة الأنبار؟ قدم القائد الأمريكي المحلي خططاً لإرسال مزيد من الجنود. فهل يساعد ذلك الوضع هناك؟

كان جيه. دي. كراوتش، معاون هادلي، قد زار الأنبار في أثناء رحلته إلى العراق في وقت مبكر من الخريف، واقتنع من التحدث مع الجنود والضباط الميدانيين أن إرسال مزيد من الجنود يساعد في تعزيز المكاسب التي تحققت هناك.

«قالوا: الأنبار محافظة شاسعة، لكنها ليست مكاناً واسعاً في الحقيقة. فإذا سيطرت على النهر والطريق، سيطرت على الأنبار كلها، أما البقية فصحراء قاحلة». وأبلغوه بعدم وجود قوة كافية للسيطرة على النهر والطريق، وفي بعض الأجزاء يتحرك المتمردون بحرية. قال إنهم أبلغوه أن إرسال عدد قليل من القوات الأمريكية، إضافة إلى الانتفاضة المحلية ضد القاعدة، يمكن أن يحدث فارقاً مهماً. ووجدها هادلي فرصة سانحة.

قال الرئيس أخيراً قبل أن يرفع الجلسة: «لا تخشوا من طلب مزيد من الجنود».

ظل الجنرال جاك كين يعمل طوال عدة أيام مع فريدريك كاغان، الأستاذ السابق لمادة التاريخ العسكري في كلية ويست بوينت، والخبير المختص بالحرب البرية، والباحث في

معهد أمريكان إنتربرايز، المؤسسة الاستشارية المحافظة المعروفة في واشنطن. لم يكن مظهر فريدريك (36 سنة) ومسلكه يناسبان نموذج المخطط العسكري المتشدد والمهتم بأدق التفاصيل. فقد ظل طوال سنين ينشر مقالات تدعو إلى زيادة عدد القوات في العراق، وعمل طوال شهور وبدوام كامل مع مجموعة التخطيط للعراق التي جمعها في المؤسسة الاستشارية. انضم إلى مجموعته عدد من الضباط المتقاعدين من ذوي الرتب العالية والمتوسطة، فضلاً على غيرهم من الضباط العاملين. وأمل كاغان أن يرفع جهده المستقل مستوى الخطاب والجدل، ويجذب بعض الانتباه في الأوساط المحافظة.

أصيب كاغان بالهلع من النتائج التي توصل إليها تقرير لجنة بيكر-هاملتون. قال كاغان المختص بالحروب والشؤون العسكرية في القرن التاسع عشر: «الوظيفة الأساسية للسياسيين هي التوصل إلى إجماع. أما المشكلة فهي أن إستراتيجيات الإجماع في الحرب لم تنجح قط. والسبب الذي جعل نابليون متميزاً ومتفوقاً مدة طويلة هو أن الآخرين ألّفوا مجالس حربية، في حين كان يفضل الأفعال على الأقوال، إضافة إلى جرأته ورفضه التنازلات والتسويات».

كان كاغان صديقاً مقرباً من العقيد مكماستر، الذي شكره -كتابة- على مساعدته في مؤلفه «التقصير في أداء الواجب». درّس الاثنان في ويست بوينت، وتأثر كاغان بما قام به مكماستر لإعادة الاستقرار في تل عفر، ودعاه نموذجاً يحتذى مثاله لمكافحة التمرد. وفكر كاغان وأفراد فريقه في وحدات الجيش التي يمكن إرسالها بوصفها جزءاً من زيادة عدد القوات في العراق. وتوصلوا إلى ضرورة إرسال خمسة ألوية. وكانوا يعدون المخططات البيانية، والجداول، والخرائط التي تفصل كيفية نجاح عمليات مكافحة التمرد في بغداد. قسمت إحدى الخرائط بغداد إلى 75 منطقة وأظهرت الروابط الطائفية/المذهبية أو المختلطة في كل منها. وخططوا لإصدار تقرير من 45 صفحة في الشهر اللاحق، بعد جلسة من العمل المكثف في عطلة نهاية الأسبوع بدءاً من التاسع من كانون الأول.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك، ذهب كين إلى مكاتب معهد أمريكان إنتربرايز للحصول على معلومات مفصلة عن الخطة. وكان قد أمضى سنوات عضواً في مجلس سياسة الدفاع التابع لرمسفيلد، وحصل على إيجازات بالغة السرية وسافر إلى العراق. لكنه ذهل من عمق المواد والمعلومات التي راكمتها مجموعة معهد أمريكان إنتربرايز.

سأل كاغان وخبراءه: «من أين حصلتم على هذه المعلومات كلها بحق الجحيم؟». وتصور أن الضباط العاملين هم الذين حصلوا على معظمها من البنتاغون. «لا تحاولوا خداعي. من أين حصلتم على المعلومات؟».

أصر أعضاء الفريق على أنها أتت من الإنترنت وغيرها من المصادر المفتوحة. وأظهروا له بعض الأمثلة، حيث طابق معظمها المعلومات السرية التي قرأها. وعلى أي حال، كان العمل مؤثراً. وغادر كين مقتنعاً أن المعلومات أجابت بنحو دقيق ومنهجي عن السؤال المتعلق بحجم القوات الأمريكية الإضافية التي يمكن استخدامها لحماية السكان العراقيين.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة.

1- ملحوظات مشارك في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي انعقد في التاسع من كانون الأول 2006، ومقابلات مع غيره من المصادر المطلعة.

2- ملحوظات مشارك في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي انعقد في الحادي عشر من كانون الأول 2006، ومقابلات مع غيره من المصادر المطلعة.

-28-

أعد هادلي ترتيبات حضور خمسة من الخبراء الخارجيين (المستقلين)، ومنهم جاك كين، إلى المكتب البيضاوي وتقاسم آرائهم عن الإستراتيجية العسكرية في العراق معه ومع الرئيس، ونائبه تشيني، وحدد الموعد يوم الإثنين الحادي عشر من كانون الأول. ومنح كل واحد عدة دقائق لعرض أفكاره.

أشار إليوت كوهين، عضو مجلس سياسة الدفاع، ومدير برنامج الدراسات الإستراتيجية في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز، إلى غياب المحاسبة على الفشل. وقال: «كلهم عظماء. في الحقيقة، هم كذلك. كلهم عظام. لكن الحرب لا علاقة لها بمدى عظمة الجنرالات وقربهم من القلب، بل بمدى فاعليتهم». فلا الوضع السائد ولا الجداول الزمنية للانسحاب ستنجح. وكان ذلك رفضاً واضحاً لخطة كيسي.

قال بوش: «هيه... أيها القوي... تبدو بأفضل حال».

أجاب كين: «بدأت أعيش حياة سعيدة أخيراً».

قال الرئيس مداعباً: «أريد أن أعيش حياة سعيدة أيضاً».

جلب كين معه ملحوظات توجز أفكاره. قال: «أعتقد أننا في أزمة والوقت يدهمنا. والتوصيات التي قدمت كلها -ومنها توصيات لجنة بيكر-هاملتون- لن تحل الأزمة. بل تسمح فعلياً، في حالات كثيرة، بتفاقمها. تتمثل الأزمة في حقيقة أن حدة العنف قد وصلت إلى مستوى مرتفع يدفع الحكومة العراقية نحو حافة الهاوية، أي إلى شفير التفكك والتشظي، وهذا سيؤدي إلى حرب أهلية داخل البلد. ولن نضطر إلى التجادل هل هي حرب أهلية أم لا، فالوضع سيكون واضحاً لا لبس فيه».

وأضاف إن هذه الأزمة «سلطت الضوء على حقيقة أن الأمن يمثل أهم قضية في العراق». ولاحظ الزيادة المطردة في حدة العنف حيث تفوق كل سنة سابقتها في «الفظاعة». و«هذا يظهر لنا بوضوح أن إستراتيجيتنا السياسية في العراق –الاستعجال لإقامة ديمقراطية تمثيلية– قد فشلت في كبح جماح العنف. كما فشلت الإستراتيجية العسكرية القائمة على تدريب العراقيين ونقل السلطة إليهم».

أما النتيجة، كما قال، فهي: «ليست لدينا خطة لهزيمة التمرد».

بدت على وجه الرئيس أمارات التساؤل والحيرة، لكنه لم يقل شيئاً.

قال كين إن إقامة الديمقراطية وتدريب العراقيين بقصد الخروج من العراق «إستراتيجية حرب قصيرة». «نحن بحاجة إلى إحداث تغيير شامل في الإستراتيجية. ولن تكفي زيادة أعداد الجنود لإحداث الفارق، بل ما نفعله بواسطتهم. لذلك، فإن علينا، أول مرة، تأمين السكان، وهذه هي الطريقة المثبتة لهزيمة التمرد التي لم نجربها قط، باستثناء حالة تل عفر. أما المكان الذي يجب البدء به، وتركيز الجهد الرئيس عليه، فهو بغداد، حيث يجب تأمين السكان على مدار الساعة. سيتطلب تأمين بغداد خمسة ألوية، أي أكثر من ضعف القوة المقاتلة الأمريكية هناك، إضافة إلى كتيبتين أخريين في محافظة الأنبار» كما قال.

أضاف كين: «هناك شيء اسمه الأرض المفتاحية بالمصطلح العسكري». إذ يجب توجيه اهتمامهم نحو أحياء بغداد المختلطة (الشيعية–السنية) على ضفتي النهر، التي يسكنها زهاء 1.8 مليون نسمة. «يجب أن ترتكز العمليات العسكرية هناك... حيث تقع غالبية أعمال العنف».

«سوف تظهر [هذه الخطة] للسنة والشيعة أننا ننوي حمايتهم معاً، وأننا لا ننحاز إلى أي طرف». وتوقع بأسلوب طموح القضاء على المتمردين السنة، وإرهابيي القاعدة، وفرق الموت الشيعية. «عندما ننهي المهمة ونطرد هؤلاء، يمكن لقوة أمريكية –عراقية مشتركة البقاء في هذا الأحياء وحمايتها على مدار الساعة».

أوصى كين بمضمومة اقتصادية لإعادة الإعمار مكونة من مرحلتين: أولاً، إيصال الخدمات الأساسية إلى السكان، ثم «تحسين مستوى المعيشة، لكن اعتماداً على

استعدادهم للتعاون». وقال إن عليهم (الأمريكيين) عدم المخاطرة بمواجهة كبرى مع الميليشيات الشيعية في مدينة الصدر. إذ يمكن لعملية عسكرية شاملة في مدينة الصدر أن توحد الميليشيا الشيعية المفككة التي يزيد عدد مقاتليها على سبعين ألفاً. «يجب ألا تشتت مدينة الصدر انتباهنا»، كما قال.

أخيراً، قال كين: «لا تدعوا أحداً يقول لكم إن ذلك سيكسر ظهر الجيش ومشاة البحرية، لأنه لن يحدث. فهذه القوات متوافرة، ويمكننا تمديد المناوبات». سوف تدعم الفرصةُ المتاحة للفوز المؤسسةَ العسكرية. سيرتفع مستوى الروح المعنوية، والدافع المحفز، والإخلاص والولاء. هناك كثير من الدروس المستمدة من السنوات الأربع التي مرت منذ الغزو، كما قال. «من أهم العبر التي تعلمناها أن الأمن شرط سابق وضروري لإحراز التقدم السياسي والاقتصادي».

اتفق جاك كين مع إليوت كوهين، وقال: «إن أردتم تعيين جنرالات جدد، فحمّلوهم المسؤولية وحاسبوهم وانتظروا منهم تحقيق النجاح».

حان دور جنرال الجيش المتقاعد باري مكافري: «لا أعتقد أننا بحاجة إلى زيادة عدد القوات، بل إلى زيادة برامج المشورة والنصح، وتمويل القوات الأمنية العراقية. يجب ألا نتورط في خضم حرب أهلية»، كما قال.

وقال وين داونينغ، وهو جنرال متقاعد آخر، إنه يعارض زيادة القوات ويقترح تركيزاً مكثفاً على القوات الخاصة. وكان قد رأس قيادة العمليات الخاصة في التسعينيات. ويمكن للتركيز على قوات العمليات الخاصة في العراق أن يغير حال الجيش العراقي، كما قال.

أما ستيفن بيدل، كبير الزملاء في مجلس العلاقات الخارجية، فقال إنه يعتقد أساساً أن زيادة عدد القوات تمثل الخيار الوحيد الذي يتيح فرصة تغيير مجرى الأمور.

بعد اللقاء، دعا جون هانا، مستشار تشيني لشؤون الأمن القومي، جاك كين، وهنأه على عرضه وطلب منه تقديم معلوماته المفصلة إلى تشيني. وفيما بعد، قدم كين وكاغان إلى نائب الرئيس ومستشاره نسخة موسعة من إيجاز كاغان، ودام اللقاء عدة ساعات. فقد ظل راعي رمسفيلد والمدافع عنه بعيداً عن مراجعة الإستراتيجية، التي استهدفت بنحو

واضح تغيير مقاربة رمسفيلد للحرب. وكانت خطة معهد أمريكان إنتربرايز أول عرض مفصل يقدم أمام تشيني لكيفية نجاح زيادة عدد القوات، وبدت الخطة أكثر معقولية؛ لأنها من بنات أفكار أستاذ سابق في كلية ويست بوينت يتمتع بالاحترام والتقدير، وحظيت بدعم النائب السابق لهيئة أركان الجيش.

في الساعة 10:30 من صبيحة اليوم ذاته، ذهب الرئيس إلى وزارة الخارجية للقاء أعضاء فرق إعادة الإعمار في المحافظات العراقية، وهي وحدات من المدنيين الأمريكيين المخصصة للمساعدة على إعادة بناء العراق.

قال بوش لأعضاء المجموعة: «أريد أن أعرف كيف أفوز».

فوجئ عدد من الحاضرين من كبار مساعدي رايس. تساءل أحدهم: «يا إلهي، عن ماذا يتحدث؟». هل انقطعت صلة الرئيس بما يحدث لأن الحرب على هذا القدر من الفوضى والتشويش؟ تمثل رأي وزارة الخارجية في أن الولايات المتحدة بحاجة إلى التراجع خطوة إلى الوراء. ومع ذلك، ظهر جيم سوريانو، الذي خدم في وزارة الخارجية مدة طويلة ويقود الآن أحد الفرق في محافظة الأنبار، ظهر على شاشة الفيديو الآمن ليقدم إيجازاً إلى بوش.

قال سوريانو: «السيد الرئيس، لا أستطيع نقل ما يحدث بالضبط، لكن شيئاً ما يجري هنا في الأنبار. إذ بدأت الأمور بالتحول». تحدث عن المواطنين المحليين وكيف بدؤوا يأتون إلى الأمريكيين بمشكلاتهم، وكيف بدأت الشبكة الإرهابية تفقد شعبيتها بسبب تكتيكات الترهيب الوحشية التي تتبعها القاعدة. «لا أريد القول إن الأمور تغيرت، لكنها بدأت بالتحول».

كانت تلك المرة الأولى التي تسمع فيها رايس أن الوضع في الأنبار يتغير فعلاً. وبعد انتهاء الاجتماع ذهبت إلى الرئيس والتقت به أسفل المبنى. قال بوش لها: «هذا شيء عظيم. لقد تأثرت بهؤلاء فعلاً». بدا مترعاً بالحيوية والطاقة بسبب خبر جيد عابر ورأي متفائل لمسؤول ميداني.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، دعا الرئيس هادلي وقال إنه سيؤجل قراره، وخطابه المنتظر إلى الأمة حول الإستراتيجية الجديدة. فقد أراد انتظار غيتس ليؤدي القسم، ويزور العراق، ويعود بتوصيته. وليس ثمة سبيل لاتخاذ مثل هذه الخطوة المهمة دون مشاركة مباشرة من وزير الدفاع الجديد.

في اليوم اللاحق، الثلاثاء الثاني عشر من كانون الأول، عاد مجلس الأمن القومي للاجتماع في غرفة روزفلت في الساعة التاسعة صباحاً.

كرر كيسي، من بغداد، مقولة أن النجاح الإستراتيجي الدائم لن يتحقق إلا بالعراقيين، ويتطلب مصالحة سياسية. وفيما يتعلق بـ«عملية الزيادة» المقترحة، تشبث برأيه القائل إن القوات الإضافية سيكون لها «تأثير محلي مؤقت في تقليص حدة العنف الطائفي في المكان الذي تنشر فيه». وكتب بالحبر الأخضر على نسخته من الإيجاز السري قائلاً إنهم يواجهون «خيارات صعبة ومطولة». ومع أن الزيادة قد توفر «متنفساً للحكومة الملتزمة» إلا أنها «قد تعد خطوة إلى الوراء» وتراجعاً عن هدف تسليم القيادة إلى القوات الأمنية العراقية، واستهدافاً للشيعة، وربما تؤدي أيضاً إلى خسائر إضافية في الأرواح.

قال الرئيس: «سوف أؤجل الخطاب إلى أوائل كانون الثاني، وأخفف الضغط. سنمكن المالكي ونساعده على دخول مدينة الصدر على الفور. هل هذه الأولوية صحيحة؟ أليس من الأفضل البدء بالأحياء المختلطة؟ إذا أردنا زيادة عدد القوات خصوصاً، فقد يكون من الأفضل ترسيخ الأمن في بغداد بدلاً من البدء بأصعب مهمة». لم يكن يريد أن تبدو العملية ضد الشيعة أو ضد الصدر، بل يجب أن تستهدف المجرمين والمتطرفين.

قال كيسي: «لم نكن ننوي الدخول فوراً إلى مدينة الصدر. نحن بحاجة إلى معرفة رأي المالكي، وإلى تقوية وجودنا في المدينة سلمياً وتقوية العناصر السياسية في مدينة الصدر أولاً».

قال بوش: «يجب أن نفعل شيئاً مختلفاً. يجب أن نظهر أننا نقوم بعمل مختلف اختلافاً جوهرياً». وأضاف مذكراً جنراله: «يجب أن نفوز». ثم طرح سؤالاً: «حسناً، ما الذي يمكن أن تفعله بحيث يكون مختلفاً اختلافاً جوهرياً؟».

قال كيسي إن بإمكانهم زيادة عدد الجنود، وهذا سيكون عملاً مختلفاً. لكنه لا يوصي به.

سأل الرئيس: «ما الذي يمكنك عمله سوى ذلك؟».

قال كيسي يمكننا زيادة التمويل وربما مضاعفة فرق إعادة الإعمار المؤلفة من مسؤولي وزارة الخارجية وغيرهم من المدنيين. «لكن ذلك لن يمثل عملاً مختلفاً اختلافاً جوهرياً».

بدا واضحاً لكيسي أن الرئيس قد أخرجه من الصورة. فبدءاً بحالته الذهنية وانتهاء بلغته الإشارية، تغير بوش في أثناء الشهر اللاحق على الانتخابات النصفية. وأدرك كيسي تماماً أنه فقد المكون الأساسي والضروري للقائد العام زمن الحرب. لقد فقد ثقة الرئيس، وهذا إدراك مدهش ومربك ومدمر.

وبعد ذلك خاطب بوش الجنرال أبي زيد قائلاً: «أجل، أعرف. سوف تقول إنك لا تؤيد الزيادة».

قال له بلى، وقدم حجته: إنهم بحاجة إلى الخروج من العراق ليفوزوا. لكن الرئيس لم يعد يصغي إليه أيضاً.

قال بوش قرب نهاية الجلسة: «الوجود الأمريكي يساعد في إبقاء غطاء القدر في مكانه. ويتيح الوقت لحكومة المالكي والقوات الأمنية العراقية. ويدفع الوضع في بغداد إلى مستوى يمكن السيطرة عليه». والقوات الإضافية التي ترسل إلى العراق تحت عنوان «الجسر» أو «زيادة القوة» «ستساعدنا هنا أيضاً؛ لأن مقياس النجاح لدى كثير من الأمريكيين هو تخفيض مستوى العنف، وتعين المالكي على السيطرة على الوضع. إن مضاعفة وجودنا القوي سيمنح حكومته وقتاً».

قال أحد الحاضرين إن الوضع في بقية مناطق العراق ليس هشاً ودقيقاً كحاله في بغداد.

قال الرئيس: «لكن العاصمة هي التي تسودها الفوضى. وحين تجتاح الفوضى عاصمتك يصعب عليك الحفاظ على موقعك، داخل وطنك أو خارجه». وأضاف في الختام: «لن ألقي الخطاب غداً. لكن دعونا نستغل الوقت للعمل مع المالكي».

كان من المقرر أن يترك الجنرال أبي زيد منصب قائد القيادة المركزية بعد قرابة ثلاثة أشهر (آذار 2007)، وكان كيسي يخطط لترك منصبه في الأشهر اللاحقة، في الربيع أو الصيف.

حذر أبي زيد كيسي: «سوف تترك المنصب» قبل الموعد المقرر.

في تلك الليلة، الثاني عشر من كانون الأول، تناولت رايس وغيتس العشاء في فندق ووترغيت. مضت خمس عشرة سنة تقريباً منذ أن عملا معاً في مجلس الأمن القومي في عهد بوش الأب.

قالت له: «بوب، لم تعد طريقة عملنا حين كنا هنا مفيدة. إذ لا يفيد أن يقدم البنتاغون الخيارات إلى الرئيس. فما يحصل عليه ليس سوى قصص خيالية عما يحدث»؛ إيجازات مغالية بالثقة تتفادى المشكلات الحقيقية. «وهؤلاء [مسؤولو البنتاغون] يأتون إلى هنا ولا يتيحون له فرصة الغوص في عمق ما يحدث فعلاً على أرض الواقع. وهذا ما يتشوق إليه». أما النتيجة فهي: «لا يملك الإجابات المتعلقة بكيفية إصلاح الأخطاء». وبصراحة، كما قالت، لم تتلق الإجابات عن الأسئلة الأساسية. فما الذي يمكن فعله؟ إذا أرسلوا مزيداً من القوات، فما المهمة؟ ما الذي يمكن للواءين أو خمسة أو حتى عشرة أن تفعله لكي تحدث اختلافاً مهماً؟

قال غيتس إنه يجمع المعلومات، ويتحدث إلى كثير من المعنيين. وعندما يتسلم المنصب رسمياً، ستكون زيارة العراق ورؤية ما يجري بنفسه على قمة أولوياته.

بدا أنه فوجئ قليلاً حين وجد نفسه وزيراً للدفاع، وقال إنه فكر في جنرالات جدد لديهم دراية بمكافحة التمرد. وخطط لتمكينهم.

اتفقت رايس وغيتس، بوصفهما على رأس وزارتين سياديتين، أن يتصارحا، ويتبادلا الدعم والمساندة، ويلتزما الصدق التام، ويحاولا المساعدة على تحويل مجلس الأمن القومي إلى مجلس حربي يؤدي وظيفته بكفاءة وفاعلية.

أصبح بوش وهادلي أكثر اقتناعاً من ذي قبل بالحاجة إلى زيادة عدد القوات. سأل هادلي: «كيف نبتكر عملية تدفع العسكر إلى التوصل إلى هذه النتائج؟». كان يضغط في سبيل التوصل إلى نوع من الإجماع يتيح له القول: «السيد الرئيس، نحن كلنا متفقون. بعضنا أقل اقتناعاً. لكننا جميعاً على المركب ذاته، نتجه نحو الوجهة نفسها».

كان الجنرال بيس يواجه الكابوس الذي يقض مضجع كل رئيس لهيئة الأركان المشتركة: تمرد القادة الآخرين. فقد تفاقمت مشاعر الإحباط لدى قادة الأسلحة الأربعة، وهمش عملهم مع مجلس الكولونيلات، والآن يعتقدون أن البيت الأبيض يتجاهل آراءهم.

سأل شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش، في أثناء أحد الاجتماعات في «الدبابة»: «بيت [بيس]، لماذا لا يترك ما نعمله هنا أي أثر هناك؟». هل يتلقى الرئيس الإيجازات عن عملنا؟

قال بيس: «أستطيع أن أقدم له جزءاً من المعلومات فقط، ولا أحصل على أي تغذية راجعة».

وما حجم هذا الجزء؟

أجاب بيس: «يصعب فعلاً عرض ما نتوصل إليه على الرئيس».

عّبر الأدميرال مايكل مولين، قائد العمليات البحرية طوال ثمانية عشر شهراً، عن قلقه في أثناء عدة اجتماعات من أن السياسيين سيجدون طريقة لتوجيه اللوم إلى القيادة العسكرية على ما يحدث في العراق. قال مولين: «يعملون بطريقة منسجمة على تحميلنا المسؤولية». في النتيجة النهائية، ستُحمّل مسؤولية المشكلات على عاتق الجنرالات، وسيكونون كبش فداء. أثار مولين المسألة عدة مرات بحيث اعتقد شوميكر أن قائد البحرية مصاب بنوع من «ذهان الارتياب» على ما يبدو.

غضب شوميكر عندما عرف من الأخبار أن جاك كين، نائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق، قد ذهب إلى البيت الأبيض ليوجز للرئيس إستراتيجية العراق الجديدة التي اقترحها معهد أمريكان إنتربرايز.

سأل شوميكر في اجتماع لرؤساء الأركان: «متى بدأ معهد أمريكان إنتبرايز ينافس هيئة الأركان المشتركة في هذه المسألة؟».

أزاح بيس، المعروف بقدرته على إخفاء آرائه، الغطاء قليلاً وأطلق تنهيدة واهية، لكنه لم يجب.

سأل شوميكر: «هل تدرك مدى خطورة هذا الأمر؟». اعتقد أن بيس مبالغ في اللطف والطيبة بحيث يتعذر عليه أن يكون فاعلاً ومؤثراً في حالة تُعد فيها الشدة والعزيمة والقدرة على مواجهة الآخرين مهارةً من مهارات البقاء. فيما بعد، قال شوميكر في السر: «إما أنهم لا يصغون إلى ما يقوله بيس، أو أنه لا ينقل الرسالة، أو ينقلها ناقصة». وفقاً للقانون، يعد رئيس هيئة الأركان المشتركة المستشار العسكري الأساسي للرئيس. لكن يستطيع قادة الأسلحة، الذين يعدون مستشارين أيضاً، نقل آرائهم بطريقة استثنائية إلى الرئيس بأنفسهم.

بلغ إحباط القادة حداً دفع بيس إلى أن يقول لبوش: «سيدي الرئيس، أنت بحاجة إلى الجلوس معهم وسماعهم مباشرة».

رأى هادلي في ذلك فرصة سانحة. ورتب لبوش وتشيني أمر زيارة «الدبابة» في الثالث عشر من أيلول. سيأتي الرئيس «مسلحاً» بما دعاه هادلي «مُحليات»: زيادة الميزانية ووعد بزيادة حجم القوات العاملة في الجيش ومشاة البحرية. ستكون أيضاً زيارة رمزية مهمة للقادة؛ لأن الرئيس سيقف على أرضهم. إذ نادراً ما التقى رمسفيلد معهم في «الدبابة» في السنوات الأخيرة، لكن الآن سيحضر الرئيس وغيتس معه.

ركب الرئيس وتشيني وهادلي سيارة الرئاسة وقطعوا المسافة القصيرة إلى الضفة الأخرى من نهر بوتوماك. اقترح نائب الرئيس طرح سلسلة من الأسئلة المنسجمة توضح أن المؤسسة العسكرية الأمريكية ليست مسيطرة على الوضع الأمني في العراق فضلاً على العراقيين أنفسهم، ولن يخالف ذلك أي من القادة.

قال تشيني: «إذا سمحت سيدي الرئيس، يسعدني أن أطرح أسئلة استقصائية منذ البداية».

قال بوش: «لا مانع عندي، افعل ذلك».

حين تجمعوا في «الدبابة»، سأل تشيني القادة: هل نريد المخاطرة بإلقاء الحمل كله على العراقيين الآن، خصوصاً الوضع في بغداد؟ وهل نريد ركوب هذه المخاطرة الكبرى دون معرفة أن حكومة المالكي يمكن أن تكون لا طائفية وفاعلة في أداء وظيفتها؟

اقترح القادة أن يختبر الرئيس العراقيين، ويدفعهم إلى إثبات قدرتهم على المصالحة، وعندئذ فقط يمكن المراهنة على إضافة مزيد من القوات.

ميز تشيني الحجة. إنها إحدى الحجج التي يقدمها الديمقراطيون، إضافة إلى رمسفيلد وكيسي: أجبروا العراقيين على تحسين أدائهم. لكنه شعر أنهم لم يملكوا القدرة بعد.

وجد تشيني أن الرئيس لن يغير المسار. فهو يعرف وجهته المرغوبة.

قال الرئيس: «لا يمكنكم الطلب من العراقيين المصالحة في هذا الوضع الأمني. أليس من الأفضل المراهنة على السيطرة على الوضع الأمني أولاً، ومن ثم يصبح اختبارهم عادلاً؟».

أكد القادة على ثلاث نقاط: يجب على العراقيين تنفيذ الخطة الأمنية بطريقة لا طائفية؛ المالكي بحاجة إلى قائد للجيش العراقي لا تكبله السلطة ولا يمنعه أحد من دخول أي مكان، حتى مدينة الصدر التي يعيق المالكي العمليات فيها؛ يجب القضاء على أي ملاذ آمن للقاعدة.

قال الرئيس: «حسناً». سوف يحصل على هذه الالتزامات من المالكي.

عبر القادة عن مخاوفهم وقلقهم من المالكي نفسه: حتى إن لم تسيطر عليه إيران، هل هو قريب إلى حد خطر من الإيرانيين؟

قال الرئيس إنه يؤيد المالكي تأييداً تاماً.

تحول شوميكر إلى القضية الحقيقية: إضافة خمسة ألوية إلى القوات، وقال: «السيد الرئيس، أنت تعلم أن الألوية الخمسة هي في الحقيقة خمسة عشر». كان شوميكر مسؤولاً

عن تجنيد القوة للجيش، ويحتاج إرسال خمسة ألوية إضافية إلى العراق إلى الإسراع في نشرها، ويجب تجنيد خمسة ألوية أخرى لتحل محلها. وإذا أرادوا المحافظة على الزيادة يجب تجنيد خمسة ألوية غيرها. ويستحيل القيام بذلك دون دعوة مزيد من وحدات الحرس الوطني والاحتياط أو تمديد المناوبة في العراق إلى أكثر من اثني عشر شهراً. وقال إن الجيش أمل في الانتقال إلى الوجهة الأخرى وتخفيض مدة المناوبة إلى تسعة أشهر. ولكي يكون صادقاً معه، كما قال، فإن القوة لن تتوافر دون إحداث تغيير جذري في نظام المناوبة الذي يتبعه الجيش (الخدمة مدة 12 شهراً)، أو في طريقة استخدام الاحتياط. فضلاً على ذلك كله، كما سأل، هل يتراجع مستوى العنف نتيجة الزيادة في عدد القوات؟ هل تغير (الزيادة) الوضع؟ فإذا كانت الإجابة بالنفي، فلماذا نلجأ إلى هذه الوسيلة؟ «لا أعتقد أن لديك الوقت الكافي لإرسال مزيد من القوات وتجنيد ما يكفي منها للاستمرار»، كما قال شوميكر.

قال الرئيس: «بيت [بيتر]، أنا الرئيس، ولدي الوقت الكافي».

قال شوميكر: «حسناً سيدي الرئيس، أنت الرئيس».

لاحظ عدد من القادة أن الألوية الخمسة هي في الحقيقة الاحتياطي الإستراتيجي لقوات الولايات المتحدة، القوات المتوافرة والمستعدة للتدخل في حالة نشوب أي نزاع في منطقة أخرى من العالم. ولا يعرف أحد أي أزمة جديدة ستحدث وتستدعي تدخل قوات برية كبيرة. حدث هذا قبلاً، فالأحوال الدولية حبلى بالمفاجآت. فهل يستخدم الاحتياط الإستراتيجي للولايات المتحدة ليترك القوة العظمى الباقية غير مستعدة لمواجهة الأزمات الكبرى؟ لقد أكد الرئيس دوماً أن هذا العالم محفوف بالخطر. فهل يريد أن يترك الولايات المتحدة في موقع تعجز فيه عن التعامل مع التمظهر الآتي لهذا الخطر؟

لم يوافق الرئيس، وقال: «لست قلقاً من غزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية في هذه المرحلة، هذا افتراض احتمالي ربما يحدث يوماً ما. نخوض الآن حرباً ويجب أن نفوز فيها».

لكن هل تشارك بقية الحكومة في المهمة؟ فقد أقلق القادة العسكريين أن المسؤولين المدنيين لا يؤدون دورهم كما يجب.

قال الرئيس إنه يضمن ذلك، وسوف تُوسع فرق إعادة إعمار المحافظات العراقية التابعة لوزارة الخارجية.

تحول مرة أخرى إلى شوميكر: «بيت [بيتر]، أنت لا تتفق معي، أليس كذلك؟».

قال شوميكر: «لا، لا أتفق معك. لا أرى الأمور على هذا النحو. لكن أعرف الآن أن الزيادة تعني تجنيد خمسة عشر لواء. كيف نجند هذه الألوية الخمسة عشر؟ لا أدري. هذا يتطلب أكثر مما نستطيع تأمينه. أنت تضغط على القوات، سيدي الرئيس، وهؤلاء الشباب يعدون إرسالهم إلى العراق أو أفغانستان مهمة مستقبلية غير محدودة المدة».

قال بوش: «يجب أن نرسل إشارة». ووعد بتقديم طلب إلى الكونغرس لتوسيع الجيش ومشاة البحرية.

ظل غيتس صامتاً طوال الاجتماع.

التقى بوش والقادة مع المراسلين والصحفيين في الساعة 2:45 بعد الظهر. ولم يكشفوا عن أي تفاصيل تتعلق بمناقشتهم، مع أن الرئيس قال: «عانى العدو خسائر أيضاً. لقد غلّت العمليات الهجومية التي شنتها القوات العراقية وقوات التحالف على الإرهابيين والمتمردين وقادة فرق الموت نتائج إيجابية». وإذا لم يُحصِ أحد أعداد القتلى، فإنه (بوش) سيفعل. «في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني والأسبوع الأول من كانون الأول، قتلنا أو أسرنا زهاء 5900 من الأعداء». وقال إنه التقى بالجنرال كيسي في اليوم السابق عبر نظام الفيديو الآمن، وناقش معه ما تم إنجازه كله «لهزيمة هؤلاء الأعداء».

وبالطبع، قدم كيسي حججه أيضاً ضد زيادة عدد القوات. وفي مواجهة ما يجب أن يكون تحليلاً جدياً للإستراتيجية، كان إصرار الرئيس على إعلان «قتل» 5900 «أو أسرهم» -وهذا إحصاء عديم الجدوى- دليلاً إضافياً يثبت برأي كيسي أن الرئيس لم يفهم الحرب.

لم يتخل شوميكر قط عن خوفه من تحول الزيادة إلى قنبلة موقوتة لسياسة الجيش. صحيح أن نتيجة اللقاء لم تشعرهم، هو وباقي القادة، بالرضا والقناعة، إلا أنهم عبروا عن رأيهم على أقل تقدير. والمشورة المرفوضة لا تمثل أساساً للتمرد.

قال بيس فيما بعد لهادلي: «لدينا، أنا والقادة، تحفظات. لقد تطرقت إليها الإستراتيجية الجديدة، وأشعر بالارتياح الآن».

شعر هادلي بالغبطة والسرور.

اعتقد تشيني أنه كان فاعلاً ومؤثراً. لم يدع بوش القادة إلى المكتب البيضاوي، ليجلس معهم، ويؤنبهم ويعنفهم، ويقول: «أحس بتعاسة غامرة. هذا لن ينجح. أريد تغييراً. أريد إستراتيجية جديدة». بل سمعهم ثم أوضح لهم دون لبس أنه سيفعل ما يريد.

قال لي بوش فيما بعد في أثناء مقابلة معه: «أنا على يقين أنني لم أرغب أن أجتمع مع هؤلاء القادة العسكريين وقد اتخذت القرار المهم دون أن أمنحهم فرصة مناقشته وفائدته». ولو ادعى الذهنية المنفتحة، كما أضاف، «فسوف يكتشفون ذلك. ولا يوجد أسوأ من أن يكون الرئيس على استعداد لاتخاذ قرار يتعلق بالقيادة العسكرية، بهؤلاء القادة، رؤساء الأركان، في حين يرقب الحاضرون الوضع في الغرفة كلهم، مثل الصقور، دون أن يعتقدوا أنني مهتم حقاً. ولذلك، ربما اتخذت القرار، لكن ذهني كان منفتحاً بما يكفي لأتمكن من تمثل نصيحتهم. وربما اتخذت ذلك القرار بعد الاجتماع مباشرة».

قلت له إن بعض القادة اعتقدوا، اعتماداً على ما ذكرته، أنه اتخذ القرار سلفاً، وأنهم اكتشفوا ذلك.

قال الرئيس: «أحاول دفعهم إلى موقف يستطيعون منه انتقاد الفكرة». ولاحظ أن القادة شعروا بحرية التعبير عن رأيهم. «ربما اعتقدوا أنني اتخذت القرار، ومن المحتمل أن هذا هو ما حدث، لكن الباب لم يكن مغلقاً».

لقد أدرك بوش سطوة منصبه.

قال الرئيس: «على وجه العموم، حين يقول القائد العام اتخذت القرار وانتهى الأمر، يقول رؤساء الأركان: أمرك سيدي الرئيس».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثمانية من المصادر المطلعة.

1- ملحوظات وروايات عدة مصادر مطلعة عن الاجتماع الذي عقد في البيت الأبيض بتاريخ 2006/12/11.

2- انظر:

Presidential Documents, December 11, 2006, pp. 2151-2152 (Vol. 42, No. 50),

www.gpoaccess.gov/wcomp/v42no50.html

3- ملحوظات لمشارك في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي انعقد بتاريخ 2006/12/12، ومقابلات شخصية مع غيره من المصادر المطلعة.

5-- مراجعة المؤلف، وملحوظات وردت في وثيقة سرية بعنوان «Iraq Security Way Ahead"، تاريخ 2006/12/12،

6- مقابلة مع الرئيس بوش 2008/5/12.

-29-

في الخامس عشر من كانون الأول، تحدث بوش مع المالكي عبر نظام الفيديو الآمن. طلب الرئيس من رئيس الوزراء الموافقة على إرسال قوات أمريكية إضافية. قال بوش: «عُدّ قوات التحالف قوات يمكن أن تساعدك على أداء العمل الصعب إلى أن تجهز قواتك. استخدم جنودنا لترسيخ الهدوء في بغداد».

ذكر المالكي أنه سيتحدث أمام مؤتمر للمصالحة الوطنية يعقد غداً، وسيعلن موافقته على الملأ. لكن حين وصلت ترجمة نص خطاب المالكي في اليوم اللاحق، لم يرد فيها أي ذكر للموافقة.

غضب الرئيس. وأشارت التقارير الاستخبارية إلى أن المالكي فقد ثقته بالقوات الأمريكية – إذ لم تتمكن من حل مشكلة العنف. وكان المالكي يقول: ما فائدة مزيد من القوات التي تفتقد الكفاءة والفاعلية، حيث لن يؤدي إرسالها إلا إلى تفاقم المشكلات؟

ظلت رايس متشبثة بشكوكها العميقة في جدوى زيادة عدد القوات، لكنها لم تستطع تجاهل تأنيب وزراء خارجية مصر والسعودية وباقي دول الخليج. إذ لا يمكن للإدارة الأمريكية أن تبدو حتى في الظاهر وكأنها تنسحب من العراق. ولكن برأيها، فإن ذلك يحطم فكرة التراجع خطوة التي ابتكرت بكل عناية ودقة (دعتها «خيار زيليكو»).

في اجتماع لاحق لمجلس الأمن القومي، كانت رايس في حالة مزاجية متحدية. قالت: «السيد الرئيس، أعرف أنك سئمت تكرار حديثي، لكنني أعتقد أن الظروف لا تسمح بالنجاح اعتماداً على استمرار الوضع الراهن أو إرسال مزيد من القوات.

إذ يمكنك أن ترسل ما شئت من القوات، لكن [النفترض] أن العراقيين لا يقومون بواجبهم المطلوب؟». وأضافت إن حكومة المالكي الشيعية يجب أن تواجه الميليشيات الشيعية (أي أن تواجه نفسها). «فكيف تتصدى القوات الأمريكية للعنف الطائفي حين يمتنع العراقيون عن مواجهته؟».

قال بوش أخيراً: «أريد أن أوضح الخيارات التي أراها هنا. يمكن أن نتشبث بالمسار، وتقولون كلكم إنه لا ينجح. أو يمكننا إعادة الانتشار دون أن نحقق النجاح [ونظر إلى رايس] وهذا هو خيارك يا كوندي. أو يمكننا زيادة عدد القوات لتحقيق النجاح».

أجابت: «لا أعني هذا كله». وأدركت أنها حمسته على الكلام. «لكن ما أعنيه هو المهمة التي يجب على القوات الإضافية أداؤها. يمكن أيضاً أن تفشل الزيادة إذا لم نعرف ما الذي ستفعله هذه القوات». كان ذلك واحداً من أكثر تحديات رايس جرأة أمام الرئيس مباشرة. ثابرت على تحديها وقالت إن وزارة الداخلية مازالت عملياً تشرف على فرق الموت، وما زالت مئات الجثث تكتشف كل يوم في بغداد. «يجب أن نقرر هل هذه أعمال تتعلق بالإرادة»، أم «بالقدرة» من جانب العراقيين؟ «فإذا تعلقت بالقدرة، فإن عشرين ألفاً من الجنود الأمريكيين سيحدثون فارقاً مهماً، أما إن تعلقت بالإرادة، فلن يتمكنوا من فعل شيء».

رفضت رايس التراجع عن مساءلتها المتعلقة بما يمكن أن تفعله القوات الأمريكية الإضافية. «قل لي كيف يفترض أن تحسن الوضع الأمني؟ وإذا اكتفت [القوات الإضافية] بتدريب مزيد من العراقيين بحسب الطريقة التي اتبعناها، حيث يفر نصفهم، فلن يحسن ذلك الوضع الأمني فعلاً».

تملّك كيسي شعور قوي بأنهم لن يتمكنوا من تخفيض مستويات العنف في بغداد –بغض النظر عن عدد القوات الأمريكية المستخدمة– إلا إذا اعتنق العراقيون مبدأ المصالحة السياسية. وإلا ستظل بغداد في الواقع «بالوعة جنود».

لم يفكر كثيراً في الضغط الذي يمارسه بوش لدفع العراقيين إلى الموافقة على إرسال مزيد من القوات الأمريكية. بل أمضى، بدلاً من ذلك، وقتاً طويلاً يحاول إقناع المالكي بعدم التدخل في الشؤون العسكرية وأن يسمح ببدء العمليات ضد الميليشيات الشيعية.

قال كيسي في أثناء إيجازه اللاحق مع بوش: «لدينا فرصة الآن للإسراع في نقل المسؤولية الأمنية إلى العراقيين». وهذا ما اتفقوا عليه قبل أسبوعين (في الثلاثين من تشرين الثاني في عمان). ولم يخالج كيسي الشك أن إرسال مزيد من الجنود الأمريكيين لن يكون له سوى تأثير مؤقت ومحلي. ووافق على ضرورة إضافة لواءين اثنين؛ لأن الجنرال فيل قال إنه بحاجة إليهما، وإلا يجب الاستمرار في الإستراتيجية المتبعة. وبالطبع، فإن نقل المسؤولية الأمنية إلى سلطة العراقيين لن يتم، بل يرجح انهيار القوات الأمنية العراقية من دون إحراز تقدم سياسي على صعيد المصالحة بين الشيعة والسنة.

في أول يوم كامل يقضيه غيتس في منصبه (التاسع عشر من كانون الأول)، طلب من الجنرال ديفيد بترايوس القدوم إلى واشنطن من فورت ليفينورث (بولاية كنساس)، حيث كان يشرف على تأليف كتيب القوات المسلحة الإرشادي الجديد عن مكافحة التمرد. احتل بترايوس لوائح الترشيح كلها لخلافة كيسي قائداً للقوات في العراق.

لا يناسب بترايوس النموذج النمطي للجنرال الأمريكي. إذ لا يشبه في شيء الجنرال المزمجر جورج باتون، فقد لقب في شبابه بـ«الأمرد»، وصعب على الزملاء النطق باسمه. لكنه قاد بنجاح الفرقة 101 المحمولة جواً («النسور الزاعقة») في بداية غزو العراق عام 2003، وطرح سؤالاً فكرياً محيراً ومعذباً على ريك أتكينسون، مراسل صحيفة واشنطن بوست الذي رافق الفرقة: «قل لي، إلى أين ينتهي هذا كله؟».

لم يقترب أحد من الإجابة عن السؤال. ومع أن الفرقة 101 خسرت ستين من جنودها في المعركة، إلا أنها تمكنت في البداية من فرض نوع من النظام في الموصل (شمال العراق). وبين عامي 2004-2005، رأس بترايوس القيادة الأمنية المؤقتة للقوات المتعددة الجنسية في العراق، وهي قيادة جديدة تولت مسؤولية تدريب القوات الأمنية العراقية وإرشادها وتزويدها بالمعدات، فضلاً على تحسين البنية التحتية. تلقى عشرات الألوف من العراقيين التدريب في أثناء المدة التي شغل فيها المنصب، مع أن الجهد أدى إلى نتائج مختلطة.

والآن، ها هو يجلس في مكتب غيتس الجديد.

قال غيتس: «سأذهب إلى العراق. ما الذي يجب أن أبحث عنه». كان يخطط للذهاب إلى العراق في وقت لاحق من ذلك اليوم.

قال بترايوس: «هل تحقق الإستراتيجيةُ النجاحَ؟ هل تحقق هذه المقاربة النجاح؟». في أثناء الشهور الثمانية التي انقضت على إبلاغه لجنة بيكر-هاملتون (التي كان غيتس عضواً فيها) أن الإستراتيجية صائبة، ازدادت شكوك بترايوس بسبب تصاعد مستويات العنف.

قال: «هناك قضية مفهومية كبرى هنا. هل الأولوية توفر الأمن للناس»، وهي أولوية شدد عليها في كتيب مكافحة التمرد الإرشادي «أم نقل المسؤولية إلى القوات الأمنية العراقية؟».

سأل غيتس: «هل توجد قوات كافية؟».

أجاب بترايوس: «لا أستطيع تصور أنها كافية. لكنني لست على أرض الواقع الميداني، ولم أحلل معادلة عدد الجنود إزاء المهمات». وأضاف إن عليه دراسة المهمة بطريقة منهجية ونظامية والتوثق بدقة من العدد المطلوب من الجنود لإنجازها.

عرف أن مستوى العنف أصبح عبئاً لا يحتمل على القيادة العسكرية الأمريكية. فكيف يتوقع أحد أن يتحسن أداء القيادة العسكرية العراقية؟

في وقت مبكر من صباح يوم الأربعاء العشرين من كانون الأول، قرأ العقيد توم غرينوود، وهو في آخر أيام خدمته في مجلس الكولونيلات، العنوان الرئيس في صحيفة واشنطن بوست: «بوش يقول أول مرة: الولايات المتحدة لا تربح الحرب في العراق». فكر غرينوود قائلاً: حسناً، ربما كانت رسالة «الكولونيلات» تحقق بعض التقدم مع القادة. «نحن لا نربح، إذاً نحن نخسر». تابع القراءة. نقلت الصحيفة عن بوش قوله: «أعتقد أن العبارة المثيرة التي يستخدمها بيس هي: نحن لا نربح، إذاً نحن لا نخسر» [1].

اجتاح شعور بالمرارة كيان غرينوود. لقد قلب بيس أو بوش –أو كلاهما ربما– عبارة الكولونيلات رأساً على عقب. إذ أصبحت كلمة «نخسر» «لا نخسر». فما الذي تعنيه ملحوظة الرئيس بحق الجحيم؟ الأسلوب يذكر برواية جورج أورويل الشهيرة «1984».

في ملحوظات كتبها غرينوود فيما بعد، قال: «لم نقابل وزير الدفاع قط. لم نقابل الرئيس قط. ولم أشعر أن معظم ما توصلنا إليه من أفكار رأى النور في عالم بيس. من هي ميغان أوسوليفان؟». بعد العودة إلى عمله المعتاد مديراً لقيادة مشاة البحرية وكلية الأركان في كوانتيكو (بولاية فرجينيا)، جمع إيجازات الكولونيلات على شرائح (سلايدات) برنامج باوربوينت. كتب في أحدها تحت عنوان «ما الذي تعلمته؟» ما يأتي:

«الحرب... يجب أن تظل الملاذ الأخير!!!».

قال الرئيس لوزير دفاعه الجديد: «اهتم بجورج. فلا أريد انتقاد كيسي أو إهانته».

بعد اليوم الأول الذي قضاه غيتس وزيراً للدفاع، غادر هو والجنرال بيس إلى العراق. وطلب مقابلة أبي زيد وكيسي على انفراد.

قال لهما إنه يفكر –هو والرئيس– بترقية كيسي إلى منصب رئيس هيئة أركان الجيش، أي الرئيس الاسمي للجيش إضافة إلى عضوية هيئة الأركان المشتركة. وهذا ما حصل للجنرال وليام ويستمورلاند حين غادر فيتنام عام 1968 –نوع من حفظ ماء الوجه.

قال كيسي لغيتس: «هذا شرف لي. وإذا تسلمت المنصب، إذا طلبت مني تسلمه، أحتاج إلى ستين يوماً بين الوظيفتين لإعادة شحن الطاقة واسترداد النشاط». كان كيسي يشغل منصب قائد القوات في العراق منذ ثلاثين شهراً تقريباً.

سأله غيتس عن المرشح الذي يحل محله.

قال كيسي: ديفيد بترايوس. إذ إن خدمة بترايوس مناوبتين اثنتين في العراق، والمدة التي قضاها رئيساً للمركز المشترك لفروع القوات المسلحة، وإعادة تأليف كتيب القيادة

العسكرية الإرشادي عن مكافحة التمرد، منحته الوقت الكافي للتفكير العميق فيما تفعله الولايات المتحدة في العراق. وإذا وجد شخص قادر على النظر إلى الوضع كله بطريقة مختلفة قليلاً فهو بترايوس، كما قال كيسي.

في المؤتمر الصحفي الأول الذي عقده غيتس خارج الأبواب المغلقة في العراق، اندلعت معركة حامية بالرصاص سُمعت أصداؤها في بغداد. فقال الوزير الجديد لمساعديه: «اللعنة!». وأضاف ساخراً: «إنها متعة كبيرة».

عرف أن الولايات المتحدة تواجه مشكلة خطرة في العراق. واستنتج أن من المهم ألا تفشل أمريكا؛ لأن العواقب الإقليمية ستكون وخيمة. لكنه استطاع أن يرى أن الاستقرار سيتطلب وقتاً أطول مما توقعه الكونغرس أو الشعب الأمريكي. وجعل هدفه الخاص متمثلاً بتحسين الوضع في العراق بحيث لا يصبح قضية مهيمنة في حملة الانتخابات الرئاسية عام 2008. ولم يكن يريد أن يُجبر الرئيس القادم على إعلان التزامات في أثناء الحملة يمكن أن تؤدي إلى الفشل.

أرسل جاك كين نسخة من خطة معهد أمريكان إنتربرايز إلى صديق قديم آخر خدم مدة طويلة في الجيش، هو الجنرال راي أوديرنو النائب الجديد للجنرال كيسي في العراق وقائد الوحدات المسؤول عن العمليات البرية التكتيكية.

قال أوديرنو في اتصال مع كين: «لا نريد هذا العدد من القوات في الأنبار؛ لأن الوضع فيها آخذ بالتحول». لكن الاقتراح بإرسال خمسة ألوية إضافية إلى بغداد يعد خطوة في الاتجاه الصحيح. إلا أن رئيسه، كيسي، وافق على خطة إرسال لواءين اثنين فقط إلى بغداد، ودار نقاش حول وضع ثلاثة أو أكثر في حالة تأهب؛ لكي تُستدعى عند الحاجة، بحيث يمكن إرسال واحد كل شهر.

قال كين: «يا إلهي. هذه إستراتيجية مفككة. ففي كل مرة نحتاج فيها إلى مزيد من القوات، نعلن إرسال لواء جديد إلى العراق». وأضاف إن قرار إرسال الجنود بهذه الطريقة يعد انتحاراً سياسياً، ويجب على الرئيس اتخاذ قرار واحد مرة واحدة بإرسال الألوية الخمسة كلها.

قال أوديرنو: «مشكلتي هي كيسي، لا أستطيع إقناعه بذلك، وما يزال هنا. لا أستطيع الحصول على المزيد من هذا الرجل».

قال كين: «دعني أحاول حل هذه المشكلة».

في الثاني والعشرين من كانون الأول ذهب كين للقاء هادلي في البيت الأبيض.

قال هادلي: «ربما لن نحتاج إلى هذه الألوية كلها. ونحن نتعرض لضغوط كبيرة في هذا الصدد».

قال كين: «ستيف، لا يمكنك النظر في احتمالات متعددة في هذه القضية، مثلما تفعل مع قانون الرعاية الصحية أو غيره. لديك مطلب عسكري. لقد حددنا المطلب. قائد الوحدات البرية التكتيكية هناك، راي أوديرنو، يوافق على هذا المطلب». المشكلة هي كيسي. «أعترف أن هناك بعض التعسر في هذه العملية مع كيسي. لكنك لا تستطيع المقايضة والتنازل عن هذه الأمور مقابل تحقيق أهداف سياسية؛ لأن المشكلة عسكرية هنا. ومشكلتنا هنا طوال السنوات الثلاث الماضية أنه لم يكن لدينا قوات كافية. والآن نحن نحاول الحصول على قوات كافية وتصحيح الوضع».

قال هادلي: «نريد فقط ترتيب إرسالها اعتماداً على الحاجة».

قال كين: «عسكرياً، ليس لذلك أي معنى منطقي. وعلى أي حال يجب أن تأتي القوات معاً دفعة واحدة حين تكون جاهزة. فكر في المعنى السياسي. لدينا لواءان اثنان يقاتلان على الأرض، والقائد يقول إننا بحاجة إلى مزيد من الجنود، فنرسل لواءً آخر إلى الكويت ومنها إلى مسرح العمليات [العراق]. سوف تفعل ذلك ثلاث مرات، والواشنطن بوست تراقب كل ما تفعله وتصغي إلى كل ما تقوله؟». وفي كل مرة يأتي الطلب للواء آخر يجب

تقديم تفسير، كما قال كين. ومن المحتم أن يكون التفسير كما يأتي: حسناً، ليس لدينا ما يكفي من الجنود. والأسئلة ستكون متوقعة: إذاً، قللتم من قيمة التكلفة مرة أخرى؟ الأمور لا تسير على ما يرام؟ «سوف يهاجمونك بعنف. هل تريد التعرض لثلاث هجمات إضافية نتيجة هذه المشكلة السياسية المتمثلة بزيادة عدد القوات؟ لماذا تفعل ذلك؟ ليس له أي معنى من الناحية العسكرية، ولا من الناحية السياسية حتماً».

قال هادلي إنه فهم الحجة، لكنه أضاف: «يمكننا على الأرجح القيام بذلك كله في ستة أشهر تقريباً، في وقت ما من الصيف يمكننا إعلان أننا نبدأ بسحب القوات».

قال كين مذعوراً: «ستيف، اسمع. لن تصل [الألوية الإضافية] إلى هناك قبل حلول الصيف. وسيتطلب الأمر باقي سنة 2007 إضافة إلى شهور من سنة 2008 للحصول على نوع من السبب والنتيجة ومعرفة تأثير ما نفعله. إن حماية الناس وتأمينهم، بمعنى تغيير المواقف، وتغيير السلوك، وإجبار السنة على الاقتناع بأنهم لن يفوزوا وأن عليهم السعي إلى المصالحة، وإقناع الشيعة بأنهم ليسوا مضطرين إلى مقاتلة السنة بعد الآن — ذلك كله يتطلب وقتاً. لن نتمكن من الحصول على إجابة قبل عام 2008. هذه هي الحقيقة».

لم يكن هادلي متيقناً. قال: «علينا أن نعتمد على ما يأتي من البنتاغون».

«مثل حالك طوال السنوات الثلاث ونيف الماضية، هل هذا ما تعنيه؟».

اتفق الاثنان على متابعة الاتصال بينهما.

بعد عدة أيام، اتصل بجاك كين جنرال (بنجمتين) كان يعمل في مديرية عمليات هيئة الأركان المشتركة (J-3).

قال الجنرال: «لدينا هنا خطة كيسي. اثنان واثنتان».

سأله كين: «ماذا تعني؟ لواءان اثنان من الجيش وكتيبتان اثنتان من مشاة البحرية؟». هذا يعادل قرابة سبعة آلاف جندي وأربعة آلاف من مشاة البحرية.

قال الجنرال: «أجل».

«وما رأيكم؟»

«رأينا الجمعي في هيئة الأركان هنا أن الخطة فاشلة. سوف تكون مجرد 'معاً إلى الأمام 3'». كانت تلك أسوأ مقارنة يمكن عقدها؛ لأن عمليتي «معاً إلى الأمام 1 و 2» فشلتا فشلاً ذريعاً واعترفت قيادة كيسي بالفشل علناً.

قال كين: «يا إلهي! على هذه الدرجة من السوء؟!!».

قال الجنرال: «سنأخذها إلى بيس».

قال كين: «يجب أن تبلغوا بيس أن من المستحيل نجاحها، مثلما أبلغتني». تلك هي اللحظة المناسبة للوقوف وقول الحقيقة أمام السلطة –وهي مهمة صعبة باعتبار أن رئيس مديرية عمليات هيئة الأركان المشتركة (J-3)، الجنرال دوغ لوت، عارض زيادة عدد القوات.

عاود الجنرال الاتصال بجاك كين ليبلغه ما حصل. «نقلنا الخطة إلى بيس وقلنا له: هذه الخطة [اثنان واثنتان] لن تنجح».

سأل كين: «وماذا قال بيس؟».

ردد الجنرال كلمات بيس كما يأتي: «لا أريد أن أعرف ذلك. لا أريد سماع أنها لن تنجح. أريد أن تخبروني كيف أبيعها في كروفورد». سوف يجتمع الرئيس مع مجلس الأمن القومي في مزرعته في الثامن والعشرين من كانون الأول.

قال كين: «اللعنة!». كان يعد بيس على الدوام مداهناً متملقاً، لكنه الآن -برأيه- يخذل أولئك الذي يرتدون البزة العسكرية ويقاتلون في الميدان. واستنتج أن لا فائدة ترجى من الاتصال ببيس، الذي لم يرغب على ما يبدو بمعارضة أبي زيد وكيسي، مع أن كلاً منهما سوف يستبدل. ومثل هذا التحدي للقادة الميدانيين سيكون داخل منطقة الخطر بالنسبة إلى رئيس هيئة الأركان. فالقائد العسكري الرفيع، رئيس هيئة الأركان المشتركة، ليس سوى مستشار، ولا يعد –تقنياً- جزءاً من سلسلة القيادة. تصور كين أن

بيس يقوم بحركة آمنة؛ ليختبئ عملياً خلف توصية أبي زيد وكيسي. قال كين: «بيس يتخذ ملاذاً بينهما، ويستخدمهما لحماية نفسه».

أجرى كين اتصالاً آخر، هذه المرة، بجون هانا مستشار تشيني لشؤون الأمن القومي. كان هانا ونائب الرئيس يتجهان إلى كروفورد لحضور الاجتماع.

قال كين لهانا: «إنها اثنان واثنتان. ناقصة ويستحيل تنفيذها عسكرياً. وفي هذه الحالة، يجب ألا نقبلها؛ لأننا بذلك نفاقم حدوث مزيد من العنف». إنها واحدة أخرى من عمليات «معاً إلى الأمام»، عملية محكوم عليها بالإخفاق. «سوف تعرض مزيداً من الجنود للخطر دون أن تملك القدرة على تخفيض مستوى العنف».

تحدث كين مع هادلي مرة أخرى وأبلغه أن على الرئيس (أو نائب الرئيس) طرح سؤال واحد على بيس: هل هذه القوة حاسمة؟ «الآن، الإجابة هي: لا، صريحة وصارخة، وسوف يعلم أن الإجابة هي لا صريحة وصارخة. سوف يبلغكم على الأرجح متلعثماً: حسناً، هذه هي توصية الجنرال أبي زيد والجنرال كيسي». فإن ألححتم عليه، كما أكد كين، فسوف يقول مثلاً: «حسناً، لم أطرح هذا السؤال عليهما. وأفترض أنهما يعتقدان أنها حاسمة، وإلا لما أوصيا بها». قال كين إن على الرئيس المطالبة بإجابة عن السؤال الآتي: هل تمثل الزيادة «قوة حاسمة»، فإن كانت الإجابة لا، يجب عليه نقض رأي مستشاريه العسكريين.

في هذه الأثناء، اتصل هادلي بمصدر آخر عبر القناة الخلفية. فقد حافظت معاونته لشؤون العراق، ميغان أوسوليفان، على اتصال منتظم مع الجنرال بترايوس. إذ التقى الاثنان أول مرة في العراق قبل أكثر من ثلاث سنين (2003) حين كانت تعمل في فريق جيري بريمر وكان هو قائد الفرقة 101 المحمولة جواً. وبقيا على اتصال، عبر البريد الإلكتروني والهاتف مراراً، وتناولا الطعام معاً بين الحين والآخر.

في إحدى المناسبات، حث بترايوس أوسوليفان على التحدث أمام مؤتمر لمكافحة التمرد حضره كثير من المسؤولين النافذين والشخصيات المهمة. قال لها: «ميغان، لا

يوجد مسؤول من البيت الأبيض في هذا المؤتمر الضخم». حضرت أوسوليفان المؤتمر مع بترايوس وارتجلت مجموعة من الملحوظات.

في مناسبة أخرى، اتصل بترايوس بأوسوليفان ودعاها إلى أول حفلة إنهاء تخرج في كلية جوالة العراق في فورت بيننغ (بولاية جورجيا). قال لها: «أريد أن تأتي لتشاهدي بنفسك». ركب الاثنان الطائرة معاً، وألقى بترايوس خطبة أمام الخريجين.

فكر بترايوس في عالم أوسوليفان، ونظر باحترام كبير إلى تفكيرها الأكاديمي وقدراتها الإدارية. وتقاسم الاثنان مشكلة مشتركة: محاولة العثور على خطة ناجحة لمكافحة التمرد.

أبلغ بترايوس أوسوليفان أنه يعتقد بإمكانية تطبيق الأساليب التكتيكية لمكافحة التمرد بطريقة فاعلة في العراق. ففي الحالة النمطية، يمثل استخدام 20 رجلاً من قوات مكافحة التمرد لكل 1000 من السكان (أي 2% من عدد السكان تقريباً) الحد الأدنى المطلوب لفاعلية مكافحة التمرد، كما ذكر في «الكتيب الإرشادي الميداني لمكافحة التمرد» (الكتيب الإرشادي المحدّث للجيش الأمريكي) [2]. «لكن، مثلما هي الحال في أي نسبة ثابتة، تبقى مثل هذه الحسابات معتمدة كثيراً على الوضع والحالة». ولا تستطيع القوات الأمريكية وحدها تحقيق مثل هذه النسبة في العراق —فذلك يعني في الحد الأدنى عدداً يصل إلى 120 ألفاً من القوات الأمنية تقريباً للسيطرة على سكان بغداد البالغ عددهم ستة ملايين نسمة- لكنه اعتقد أن المهمة يمكن إنجازها بمساعدة إضافية من القوات الأمنية العراقية والشركات الأمنية الخاصة.

سألت أوسوليفان بترايوس عن رأيه في اقتراح كيسي بزيادة لواءين إضافيين. قالت: «هل تستطيع تغيير إستراتيجيتك بلواء أو لواءين؟».

قال: «لا».

سألته: «كم عدد الجنود، كم عدد الألوية التي تحتاج إليها للقيام بذلك؟».

قال: «أريد القوات التي يمكن توفيرها كلها».

أبلغت أوسوليفان هادلي وكراوتش أنها تحدثت مع بترايوس. قالت: «فهمت أننا لا نستطيع تغيير الإستراتيجية بلواء واحد أو اثنين. سوف نرتكب الخطأ نفسه. الآن، نستطيع تصحيح أداء المهمة، لكننا لن نستطيع توفير الموارد اللازمة لها بطريقة مناسبة. وسوف تفشل».

أكد لي بوش أنه أُبلغ النتائجَ التي توصل إليها بترايوس، وأنه كان يفكر في بترايوس قائداً جديداً في العراق. قال الرئيس متذكراً: «إن كنت تفكر في تغيير الإستراتيجية إلى 'الإخلاء والسيطرة والبناء'، وأدركت عدم وجود ما يكفي للسيطرة، وإذا كنت القائد الجديد الذي يستعد لتسلم منصبه، فإن من المنطقي جداً أن تقول: أعطني كل ما لديك».

قال لي الرئيس فيما بعد [3]: «أتذكر جيداً أن القيادة العسكرية قالت: حسناً، مزيد من الجنود، لواءان اثنان. والتفتُّ إلى ستيف وقلت: ستيف، ما الذي توصلت إليه من تحليلك؟ ولأنه رجل حذر وحريص، تحقق مرة أخرى، وعاد إليّ وقال: سيادة الرئيس، أوصي أن تفكر في خمسة ألوية لا باثنين. قلت: لماذا؟ قال: لأنه حكم مدروس لأشخاص أثق بهم وتثق بهم، وهؤلاء أكدوا أننا بحاجة إلى خمسة ألوية لنتمكن من الإخلاء والسيطرة والبناء».

وبالطبع، جرى الاتصال بهؤلاء الأشخاص الموثوقين غالباً عبر القنوات الخلفية: راي أوديرنو أبلغ بترايوس أنه بحاجة إلى خمسة ألوية، وبترايوس أبلغ ميغان أوسوليفان أنه يريد القوات المتوافرة له كلها، وجاك كين أبلغ هادلي وتشيني أن الحد الأدنى الضروري هو خمسة ألوية.

أكد هادلي أن العدد «ينتج عن مناقشاتي مع بيت بيس».

قال بوش مقاطعاً: «حسناً، لا أعرف ذلك. لم أحضر هذه الاجتماعات، وسوف تسرّ حين تسمع ذلك؛ لأن علي واجبات أخرى أؤديها».

على الرغم من وصف هادلي، أبلغ بيس هيئة الأركان المشتركة قبل أسابيع أن البيت الأبيض هو الذي سأل في واقع الأمر ما الذي يمكن فعله بخمسة ألوية إضافية.

بعد أن عاد غيتس من العراق، تحدث مع بترايوس مرة أخرى عن مستوى القوات المطلوب، وما رأي الجنرال بالقضية.

عندما تُحدد الرسالة، كما قال بترايوس، يجب على القائد تعيين المهمات التي يجب إنجازها وتقرير العدد المطلوب من الجنود. فإذا لم تكن هذه الموارد متوافرة، فإن من واجب القائد القول: «إن عدم توافر هذا المستوى من الموارد يعرضنا للخطر». وفي مرحلة معينة، قد يكون الخطر داهماً إلى حد يجبر القائد على القول: «لا يمكن إنجاز هذه الرسالة». وعندئذ عليك تغيير إما المهمات أو الرسالة.

قال بترايوس إن من المهم الدخول في حوار مفتوح عن المتطلبات العسكرية، والترحيب بالشفافية. وأضاف: «لقد ألزمنا الأمة. وإذا امتنعت الأمة عن تزويد القائد الميداني بما يحتاج إليه ويطلبه، فيجب أن يعرف الجميع». وبالطبع، يجب أن تكون الطلبات منطقية ومعقولة. «لا يمكن أن أطلب شيئاً غير موجود. لا يمكن أن أقبل الإجابة بالرفض. لكن يجب على أشخاص آخرين أن يعرفوا أن الإجابة هي لا».

قال غيتس: «يجب أن تبلغني بما تحتاج إليه، وألا تقلقك السياسة هنا في واشنطن. دعني أتولى هذا الجزء من المشكلة، وهذا المبنى [البنتاغون] هو جزء من المشكلة. ركز أنت على ما تحتاج إلى فعله في العراق، وسوف أتولى أنا البقية».

أضاف غيتس وهو يعلم أن ميراث رمسفيلد لا يشجع على الرأي المخالف: «أتوقع منك الصدق والصراحة. أتوقع أن تخبرني بما تفكر فيه بالضبط، بتعابير سهلة وبسيطة. أريد أن أسمع منك ما عليك قوله».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثمانية من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Peter Baker, «U.S. Not Winning War in Iraq، Bush Says for 1st Time،" *The Washington Post*, December 20, 2006, p. A1.

2- United States Army and United States Marine Corps, *The U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual*, 2007.

3- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/20.

-30-

في يوم الأربعاء السابع والعشرين من كانون الأول، أوجز بيس للقادة والكولونيلات في «الدبابة» رحلته إلى بغداد.

قال رئيس هيئة الأركان المشتركة، مشيراً إلى إرسال لواءين إلى بغداد وكتيبتين إلى الأنبار: «نحن نعاين الآن خطة اثنين + اثنتين. على الصعيد النظري، هناك حاجة إلى إحداث تغيير جوهري. نحن بحاجة إلى إظهار أن خطة الإخلاء والسيطرة والبناء يمكن أن تنجح».

كان بيس سيتوجه إلى كروفورد في اليوم اللاحق لتقديم توصيته. وأعطى الكولونيلات «واجباً» يؤدونه في البيت: «كيف تصف الزيادة داخل حكومة الولايات المتحدة وخارجها؟».

في الساعة الرابعة من عصر اليوم نفسه، وصلت رايس إلى كروفورد لتناول العشاء مع الرئيس وزوجته لورا على انفراد، أما بقية أعضاء فريق مجلس الأمن القومي فسوف يصلون في الصباح اللاحق. جلس بوش ورايس، قبل العشاء، على مقعد أمام بيت مزرعة الرئيس.

قالت رايس إن بإمكانها أن تحزر أنه توصل، في ذهنه، إلى الاعتقاد بضرورة إصدار الأمر بزيادة عدد القوات. «أظن أن عليك القيام بهذا. سوف تأمر بالزيادة، أليس كذلك؟».

سأل الرئيس: «هل أنت مع الزيادة الآن؟».

قالت: «لم أعارض قط إضافة مزيد من القوات»، إذ أرادت فقط معرفة ما مهمتها.

«هل تعنين أنك الآن مع الزيادة؟».

أجابت: «أعتقد أن عليك الآن إصدار القرار. لكنه سيكون واحداً من أهم القرارات بتبعاته وعواقبه. وأنت تُعد على الأرجح، بسبب الأعمال التي اخترت القيام بها، واحداً من أهم أربعة أو خمسة رؤساء –في تاريخنا ربما، وفي السنوات المئة الماضية بالتأكيد، لكن ربما في تاريخنا كله. وعليك التفكير في كيفية القيام بذلك والحفاظ على البلد موحداً؛ لأن الرئيس المهم لا يمكن أن يسبب الانقسام».

قال: «علي القيام بما هو صائب».

قالت: «أجل، أعلم ذلك. لكن ما يجب علينا القيام به، هو العثور على طريقة لحشد تأييد أكبر عدد من الناس». الزيادة لن تحظى بالشعبية، وينتظر البلد والكونغرس تخفيض عدد القوات. ولذلك، سيكون من المهم أسلوب الشرح والتفسير. وأبلغته أنه لا يستطيع أن يقول: «لقد اتخذت هذا القرار، وليذهب إلى الجحيم كل من يعارضه». هذا لن ينجح. يجب أن يقول مثلاً: «كان القرار صعباً. وثمة سبب وجيه يدعو الناس إلى القلق. لقد كانت المهمة أصعب مما تصورنا، وارتكبنا كثيراً من الأخطاء، لكننا لا نستطيع أن نخسر في العراق. ولا أعتقد أن الأمريكيين يريدون أن نخسر في العراق».

قالت إن عليه أن يكون تصالحياً. عليه الاعتراف بأن الذين يخالفونه الرأي لديهم حجج مفحمة. أشار أنه موافق.

سألت: «ماذا لو فشلت الزيادة؟ ماذا نفعل عندئذ؟».

لم يجب بوش بكلمة.

قالت إن مثل هذه الزيادة في القوات تعتمد اعتماداً كبيراً على المالكي. فهل يشعر الرئيس أن المالكي يرتقي إلى مستوى المهمة؟

قال بوش إنه سيتحدث إلى المالكي مرة أخرى.

قالت إن هناك مجموعة محددة تماماً من الأمور الملموسة والمرئية والقابلة للقياس يمكننا أن نطلب من المالكي القيام بها. وعادت إلى الخطة البديلة. «إذا لم تنجح الزيادة،

فستكون الرصاصة الأخيرة، الورقة الأخيرة، آخر سهم في جعبتنا». وحسبت أن الزيادة الإجمالية ستبلغ قرابة ثلاثين ألف جندي مع قوات الدعم والإسناد. «إذا راهنت بثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية، إذا استخدمت ثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية، وظلت الأمور على حالها، فما الذي تفعله حينئذ؟». إذا لم تتراجع حدة العنف، وظل نسيج المجتمع يتمزق، فماذا ستكون حجة استمرار الحرب في العراق؟

لم يجب بوش، ودخل الاثنان لتناول العشاء.

قال لي بوش فيما بعد: «لست متيقناً أنني اقتنعت بمفهوم الورقة الأخيرة. أولاً، الورقة الأخيرة في نظري هي الانسحاب والأمل في تحسن الوضع؛ الأمل أن يستنفد العنف الطائفي المحتدم طاقته وتخف حدته، إزاء انفجار الوضع داخل العاصمة في حين نجلس نحن ونشاهد ما يحدث. برأيي، هذه هي الورقة الأخيرة».

سألته: «هل هناك ورقة أخيرة للرئيس؟».

رد بوش: «هذا سؤال مهم فعلاً»، وتوقف بضع لحظات وأضاف: «لا، هناك على الدوام ورقة أخرى» [1].

في الساعة الخامسة تقريباً من صبيحة اليوم اللاحق، سافر باقي أعضاء فريق الأمن القومي بالطائرة إلى تكساس لحضور الاجتماع المقرر في الساعة التاسعة والنصف صباحاً [2].

قال الجنرال بيس إنه استشار خبير مكافحة التمرد في الجيش، ديفيد بترايوس، إضافة إلى راي أوديرنو، نائب كيسي وقائد العمليات البرية التكتيكية في العراق. وأراد الاثنان الحد الأقصى من القوات المتاحة. ومازال كيسي يوصي بإرسال لواءين إضافيين اثنين إلى بغداد وكتيبتين اثنتين من مشاة البحرية إلى محافظة الأنبار.

سأل بوش: «هل تعد هذه المهمة قابلة للإنجاز. ما اختبار النجاح، اختبار إنجاز المهمة؟».

بدا أنهم متفقون على أن الاختبار هو مستوى العنف. مازال المخطط البياني في ملف هادلي «ج ب» في ذلك الشهر يظهر أكثر من 1300 هجوم أسبوعي في العراق.

قال الرئيس: «يجب أن نملك المقياس الصحيح للعنف».

قالت رايس: «الهدف هو أن يتمكن العراقيون من السيطرة على عاصمتهم». مازالت قلقة من عدم ارتقاء العراقيين إلى المستوى المطلوب، ومن تحميل الجنود الأمريكيين المسؤولية. «لا يتمثل المقياس بقيام أمريكا بتقليص حدة العنف، بل في ضرورة قيام العراقيين بتقليص حدة العنف. هذا واجبهم».

اقترح عدد من الحاضرين أن يظل المقياس المصالحة السياسية. سوف تخفف المصالحة الحقيقية وحدها حدة العنف.

ثم أعلن الرئيس مفاجأة. قال إن الزيادة لن تكون دفعة واحدة، وإلا «فسوف ينتظروننا إلى أن نستنفد قوتنا، وفي هذا مخاطرة كبرى».

سوف تتطلب قوات المتابعة اللاحقة للألوية الخمسة الأولى مزيداً من الألوية المتأهبة، بل عدداً أكبر مما توقعه الجنرال شوميكر. ومع ذلك، أراد الرئيس من غيتس البدء بتحديد وحدات المتابعة بحيث يمكن المحافظة على الزيادة والاستمرار فيها.

والمحافظة على الزيادة مستحيلة من دون جيش أكبر عدداً.

سأل الرئيس: «هل يمنح المالكي العراقيين والقوات الأمريكية حرية العمل؟». هل يملك القائد العراقي الجديد في بغداد حرية «مطاردة فرق الموت والدخول إلى الأحياء كلها؟».

كتب هادلي ملحوظة لنفسه: «نحن بحاجة إلى توكيد الأمر مع المالكي ودفعه إلى إعلانه في خطاب».

تحولت المناقشة إلى فريق القادة الجديد. أراد الرئيس وهادلي وكيسي بترايوس، وسيرقى كيسي إلى منصب رئيس هيئة أركان الجيش، ويرقى خليل زاد ليصبح سفيراً في الأمم المتحدة. وهذا يحفظ ماء الوجه للرجلين كليهما. سوف يتقاعد أبي زيد، ويستبدل في وقت مبكر من السنة القادمة.

أخيراً، عند نهاية الاجتماع الطويل والمتشعب، قال الرئيس: «سوف أتحدث مع المالكي» في الأيام القليلة القادمة «وقبل أن أقرر خطة بغداد على نحو نهائي، هناك بعض الأسئلة التي يجب على المالكي الإجابة عنها. وأنا على استعداد لتقديم التزام متزايد، لكن أريد أن أعرف هل المالكي ملتزم ومستعد لأداء المهمة. الأمر يحتاج إلى وجود عسكري قوي يتولى مسؤولية الأمن دون تدخل من السياسة. وسيبدو الوضع مختلفاً أمام العراقيين والأمريكيين... ويجب على المالكي أن يوضح دون لبس أنه يريد قوات التحالف لمساعدته».

قال بوش أيضاً إنه لن يلتزم بجدول زمني يحدد مدة وجود القوات الإضافية، لكنه سيرسل مزيداً من الألوية.

قال بيس: «حاضر سيدي، حاضر سيدي».

أدركت رايس أن بوش يعلم أن القوات التي قررها للغزو والاحتلال في البداية لم تكن كافية وهو مصمم على عدم تكرار الخطأ مرة أخرى.

بعد عيد الميلاد، عاد كيسي إلى الولايات المتحدة وكان مع زوجته في فينيكس حين تلقى رسالة بالبريد الإلكتروني من أحد معارفه.

قالت الرسالة: «يجب أن تعلم أن البيت الأبيض يلقي بك تحت عجلات الحافلة».

وبعد بضعة أيام، اتصل أبي زيد بكيسي محذراً وقال: «الزيادة قادمة، ابتعد عن الطريق».

***

أبلغ الجنرال بيس وزير الدفاع غيتس أن بترايوس هو الخيار الذي يوافق عليه رؤساء هيئة الأركان بالإجماع ليكون القائد الجديد للقوات في العراق. ونقل غيتس التوصية إلى الرئيس، لكنه قال إن بعض المعنيين في الجيش عبروا عن قلقهم من مبالغة بترايوس في الصراحة والترحيب بوسائل الإعلام وجلب اهتمامها.

لكن بوش وجد ذلك مغرياً. فقد بالغ أبي زيد وكيسي في التحفظ والتردد والابتعاد عن الصحافة. ورأى الرئيس في رغبة بترايوس بالإفصاح عن رأيه أمراً إيجابياً، وصَادَق على تعيينه.

واجه غيتس أيضاً مشكلة فورية أخرى تتعلق بفريق القادة. من يحل محل الجنرال أبي زيد في القيادة المركزية؟ من يملك ما يكفي من الخبرة والأسبقية في الرتبة (الأقدمية) ليكون رئيس بترايوس؟ تفحص غيتس وبيس المرشحين، وارتقى الأدميرال وليام جيه فالون («الثعلب»)، القائد الميداني الحالي في المحيط الهادي الذي أوصى به كين، إلى قمة اللائحة.

قضى فالون (61 سنة) مهنته العسكرية طياراً بحرياً وعرف بتغطرسه وتكبره. وبغض النظر عن بيس، كان أكثر ضباط المؤسسة العسكرية الأمريكية (من جنرالات النجوم الأربع) خبرة وتمرساً. قام بمهمات وطلعات قتالية في فيتنام، وقاد سرباً على متن حاملة طائرات في حرب الخليج عام 1991، ومجموعة سفن قتالية في أثناء أزمة البوسنة. ولعب دور الحاكم الممثل للولايات المتحدة في منطقة المحيط الهادي بمهارة وحذق، حين تنقل من عاصمة آسيوية إلى أخرى، والتقى بكبار الزعماء السياسيين والقادة العسكريين وحافظ على مصالح الولايات المتحدة.

جسد فالون نموذج الضابط الكبير البارز والمتغطرس فضلاً على الثقة بالنفس المميزة لضباط الطيران في البحرية (أو ما يسمى بـ«الحذاء البني»، حيث اعتاد طيارو البحرية ارتداء البزة الكاكي والحذاء البني). وقبل أن يصبح قائد منطقة المحيط الهادي، شغل منصبين مهمين: أولاً، نائب رئيس العمليات البحرية، ثم قائد أسطول المحيط الأطلسي.

كان فالون في إجازة مع أسرته في بيغ سكاي (بولاية مونتانا) حين اتصل به بيس وقال له إن غيتس يريد مقابلته. ثم سأله كم يحتاج من وقت للوصول إلى واشنطن.

سرعان ما وصل فالون إلى واشنطن.

قال غيتس إنه يريد منه تولي القيادة المركزية. «أحتاج إليك لشغل المنصب. أنت أفضل عسكري مؤهل للوظيفة».

سأله فالون لماذا اختاره هو بالذات؟ فالقيادة المركزية تشرف على الحربين البريتين في العراق وأفغانستان، والمنصب ذهب دوماً إلى جنرال من الجيش أو مشاة البحرية.

قال غيتس إنه يريد ضابطاً خبيراً متمرساً، واشتهر فالون بالإفصاح عن رأيه دون تردد أو لبس. وأضاف الوزير: «وأنت تعرف أنهم اتخذوا القرار بتعيين الجنرال بترايوس قائداً في العراق». كان يقصد بـ«هم» البيت الأبيض. كان بترايوس خياراً محسوماً. ورغب غيتس بفالون؛ لأنه يتمتع بالأقدمية، ولأنه لم يرد شخصاً يكتسحه بترايوس بتأثيره.

وفوق ذلك كله، عرف الجميع أن الإدارة كانت تراجع إستراتيجية العراق، وسوف تعلن مساراً جديداً في وقت قريب –وهو قرار لم يشارك فيه فالون.

طلب فالون مهلة للتفكير. العرض مهم جداً، ليس له فقط، بل لزوجته (ماري) أيضاً. فطوال أربعة عقود تقريباً رافقته في مهماته في فيتنام، وحرب الخليج وغير ذلك من المهمات التي أداها في شتى أنحاء العالم، من هاواي إلى السعودية.

ذهب فالون لتناول العشاء مع بناته الثلاث اللاتي يقمن في منطقة واشنطن. وطلبن منه بالإجماع رفض العرض. فقد تقرر، أو سيتقرر، الكثير من دون مدخلاته. لكنهن يعرفن أنه سيقبل في نهاية المطاف. وفعل ذلك بالضبط بعد استنصاح ماري.

قال لها إن لديه سببين اثنين: أولاً، سافر كثيراً في الشرق الأوسط على مر السنين، وعرف عديداً من الزعماء الأجانب وغيرهم من اللاعبين المهمين هناك. «لن تجد المشكلة طريقها إلى الحل إلا إذا جرى العمل عليها من اتجاهين: من داخل البلد وخارجه» كما قال. ثانياً، بوصفه قائداً لمنطقة المحيط الهادي، أرسل آلافاً مؤلفة من الجنود التابعين لقيادته إلى العراق وأفغانستان. «طوال سنتين، كنت أرسل الجنود إلى هناك، فكيف أرفض أنا الذهاب؟ هل من المعقول أن أرسلهم إلى هناك وأرفض أنا الذهاب؟».

أبلغ فالون غيتس أنه قبل الوظيفة.

وصل بترايوس إلى لوس أنجلوس يوم الثلاثاء الثاني من كانون الثاني 2007، وكان في طريقه إلى دار رعاية المسنين حيث يعيش والده البالغ من العمر تسعين عاماً، حين رن هاتفه الخلوي.

قال غيتس: «أريد فقط التوثق من أنك على استعداد» لتولي زمام الأمور في العراق. «أريد منك تولي المهمة. هل أنت على استعداد؟».

كان بترايوس على يقين تام أن العرض قادم. وتساءل وهلة هل يصر على شرط واحد: أن يطلب غيتس من جاك كين، معلمه الذي ساعد في إنقاذ حياته، أن يعود من التقاعد ليحل محل أبي زيد في القيادة المركزية. اعتقد بترايوس أن كين يستحق منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، لكن المنصب لم يعد شاغراً. وتردد بترايوس حول مسألة فرض الشروط، وفي النهاية قرر عدم تقديم مثل هذا الطلب.

وهكذا، قبل الجنرال البالغ من العمر أربعة وخمسين عاماً دعوة التاريخ عبر هاتف خلوي وهو على أحد طرقات لوس أنجلوس، بعد مرور يومين على السنة الجديدة. عرف أنه يتولى مسؤولية العمر كله قائداً عاماً لحرب كبرى فقد معظم مواطنيه ثقتهم بها.

دعا بيس بترايوس لسؤاله عن عدد الألوية التي يحتاج إليها.

قال بترايوس مشيراً إلى مساعد كيسي، راي أوديرنو: «يجب أن أتصل براي. هل يوجد مانع؟».

قال بيس: «لا بالطبع».

مثل عدد الألوية قراراً وجب على بترايوس تحمله وقبوله، ويجب اتخاذه قبل تولي القيادة في العراق.

اتصل بترايوس بأوديرنو عبر الخط الآمن.

قال أوديرنو: «نحن بحاجة إلى الألوية الخمسة كلها. يجب أن نرسلها كلها».

قال بترايوس: «حسناً، هذا عظيم. فهمت».

في زيارة سابقة إلى العراق، علم السيناتور جون مكين أيضاً أن أوديرنو أراد خمسة ألوية إضافية، حتى إن لم يرد كيسي ذلك.

اعتقد مكين أن زيادة مهمة في القوات كانت تحضر، وشعر بالانزعاج من كيسي. وحين علم الجنرال بيس بإحباطه، اتصل بكيسي في بغداد.

قال بيس: «يقول مكين إنك كنت عقبة في الطريق وأنك تعيق هذه السياسات كلها».

رد كيسي: «هذا هراء». أجل، لقد عارض زيادة خمسة ألوية، مثل معظم القادة على الأرض. لكنه أصر على أنه كان يحاول تهيئة بترايوس للنجاح.

بعد مكالمة بيس، تحدث كيسي إلى أوديرنو.

«راي، من أين حصل مكين على هذا الانطباع؟».

قال أوديرنو: «ليس مني؛ لأنني لم أتحدث إلى أحد»، وأضاف: «لكن بترايوس اتصل بي وتحدث عن بعض الأمور».

رأى كيسي أن أوديرنو كان جباناً. إذ لا يفترض بالقائد الجديد أن يبدأ التفتيش والتنقيب في كل مكان، والتحدث مع مرؤوسي القائد القديم؛ فهذا يعد انتهاكاً لبروتوكول الجيش. أمر كيسي على الفور معاونه بالاتصال بمعاون بترايوس: «اتصل به، وتحقق أنه سيوقف هذا الهراء كله».

لكنه قرر أن من الأفضل أيضاً أن يسلم الرسالة بنفسه. ولذلك اتصل ببترايوس.

قال كيسي: «لديك هنا خطة انتقالية مخصصة لك، وأنا أعمل عليها شخصياً. سوف نتوثق من حصولك على المعلومات التي تحتاج إليها. لكن لا يمكنك الاتصال بالقادة المساعدين».

أجاب بترايوس: «أجل، أعلم».

قال كيسي: «اسمع، سوف تأتي إلى هنا قريباً. لكن راي ما يزال يعمل تحت إمرتي الآن».

قال بترايوس: «أنا في موقف محرج فعلاً؛ إذ يُطلب مني إبداء الرأي، وأنا الذي سينفذ ما يتقرر في نهاية المطاف، لذلك أحتاج فعلاً إلى التحدث مع قائد العمليات على الأرض [أوديرنو] الذي أعلم أنه قدم توصية، وإلى معرفة الأس العقلاني للوضع». وقال أيضاً

إنه سيحتاج إلى معلومات إضافية: «هل يمكنني البدء بالحصول على بعض الإيجازات والمعلومات؟».

رفض كيسي السماح له بذلك.

تحدث بترايوس مع الجنرال بيس مرة أخرى.

قال: «سيدي، أعتقد أنك يجب أن تعلن وتضع خططاً لإرسال الألوية الخمسة كلها، وإلا فإن عليك في كل مرة أن تطلب لواء إضافياً، وهذا اعتراف بأنك لم تنجح في مسعاك الذي أعلنته في البداية. بالمناسبة، أبلغني راي أوديرنو أنه طلب خمسة ألوية. أعلن طلب الألوية الخمسة إذا كان هذا طلبه».

في الرابع من كانون الثاني 2007، تسربت أخبار تعيين فالون وبترايوس. اتصل فالون، الجنرال بأربع نجوم منذ ست سنين، بمرؤوسه الجديد، الذي سيصبح قريباً أحدث جنرال بأربع نجوم في الجيش، وتبادلا التهاني وعبرا عن آمال عظيمة وتوقعات كبيرة من العمل معاً.

سرعان ما أرسل بترايوس كتيبه الإرشادي الجديد عن مكافحة التمرد إلى فالون، الذي قرأه من الغلاف إلى الغلاف. كان الكتيب مثيراً للاهتمام برأي فالون، لكن الأحداث تجاوزته بالتأكيد، وعده نسخة محدثة عن ممارسات مكافحة التمرد في جنوب شرق آسيا. أما العراق، برأيه، فمكان مختلف بنزاعاته الطائفية وسماته الدينية. لكن هذا هو عمل بترايوس بوصفه قائد القوات في العراق.

أصر فالون فيما بعد على أنه عبر عن رأيه مباشرة أمام بترايوس، في حين ألح بترايوس بالإصرار نفسه على أن فالون لم ينقل إليه أي استنتاجات كهذه.

في الرابع من كانون الثاني أيضاً، تحدث بوش مع رئيس الوزراء المالكي عبر نظام الفيديو الآمن.

قال بوش: «أريد التحدث على انفراد مع رئيس الوزراء». وأخرج الحاضرين كلهم من القاعتين (في واشنطن وبغداد)، باستثناء المترجمين. أوضح للمالكي أنه بحاجة إلى إعلان واضح جلي يرحب بلواءين أمريكيين إضافيين على الأقل، ولا مجال للمراوغة هذه المرة. إذ أراد وعداً، وإذا وعد المالكي فعليه الوفاء بوعده.

في يوم الخميس ذاته، أدى أعضاء الكونغرس الجديد القسم، وتسلمت نانسي بيلوسي (66 سنة) رئاسة مجلس النواب لتصبح أول امرأة تشغل هذا المنصب [3]. وهكذا، غدت بيلوسي قريبة جداً من الرئاسة (لا يفصلها عنها سوى نائب الرئيس تشيني)، والمرأة التي تحتل أعلى مرتبة في تاريخ الحكومات الأمريكية.

على مدى عشرين سنة تقريباً، مثلت بيلوسي منطقة ديمقراطية مكتظة تشمل معظم سان فرانسيسكو. وانتظرت حتى عام 1987، بعد أن ربت خمسة أطفال ورعتهم، لتدخل عالم السياسة.

اعتقدت بيلوسي أن الشعب الأمريكي بعث برسالة عبر انتخاب الغالبية الديمقراطية. فقد أراد إنهاء الحرب، الحرب التي دعتها «خطأ ذريعاً» و«كارثة ملحمية». وشعرت أن قمة أولوياتها هي وضع نهاية لها.

قالت بيلوسي في مجلس النواب بعد أداء اليمين: «انتخابات عام 2006 هي دعوة إلى التغيير. والتغيير لا يقتصر فقط على من يسيطر على الكونغرس، بل من أجل وجهة جديدة للبلد. ولم نكن، نحن الشعب الأمريكي، أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالحاجة إلى وجهة جديدة من الحرب في العراق. لقد رفض الشعب الأمريكي التزاماً مفتوحاً بخوض حرب بلا نهاية» [4].

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008/5/21.

2- ملحوظات ورواية مصدر مطلع عن الاجتماع الذي عقد في مزرعة الرئيس بوش في كروفورد في 2006/21/28.

3- انظر:

Jonathan Weisman and Shailagh Murray, “Democrats Take Control on Hill,” The Washington Post, January 5, 2007, p. A1.

4- Press Release, «Pelosi Calls for a New America, Built on the Values. That Made Our Country Great,» January 4, 2007, www.house.gov/pelos

-31-

في السادس من كانون الثاني 2007، قال المالكي في خطبة ألقاها في بغداد: «يجب أن يكون الجيش نموذجاً للجميع... ويجب ألا ينحاز إلى أي جماعة سياسية أو طائفية». وسوف ينفذ الجيش العراقي خطة جديدة لتأمين بغداد، وأضاف: «ستوسع القوات المتعددة الجنسية دعمها ومساندتها لقواتنا المسلحة». ثم أعلن واحدة من أشد عباراته مناهضة للطائفية حتى الآن: «سوف تحرم خطة بغداد الأمنية الخارجين على القانون كلهم من الملاذ الآمن، بغض النظر عن انتمائهم الطائفي أو السياسي» [1].

شعر بوش وهادلي أن الإعلان عن زيادة يختارها الرئيس في عدد القوات الأمريكية يكفي في البداية. وخضعت مسودات خطاب بوش القادم إلى تعديل إثر تعديل. استشار بيس مرة أخرى بترايوس، الذي أراد من الرئيس أن يوضح أن المهمة الرئيسة للقوات الأمريكية قد تغيرت من تدريب العراقيين إلى تأمين السكان. أراد بترايوس أيضاً من بوش الالتزام بإرسال أكبر عدد ممكن من الألوية.

أراد بوش أن يعطي القائد الجديد ما طلبه، وقرر أخيراً إرسال الحد الأقصى المتوافر من الألوية (خمسة). إضافة إلى ذلك، سوف يرسل أربعة آلاف جندي إضافي من مشاة البحرية (المارينز) إلى محافظة الأنبار. وهذا، كما قال، سيبعث برسالة قوية تعبر عن التزامه إلى الشعب العراقي، والقاعدة، والمتمردين، والمتطرفين، والأصدقاء في المنطقة.

كان السناتور مكين يطالب بإرسال مزيد من الجنود منذ سنين. لكن علاقته ظلت على الدوام متوترة مع البيت الأبيض وسيده. أتذكر أنني قابلت مكين في بهو الجناح الغربي قبل ثلاثة أشهر من هجمات الحادي عشر من أيلول الإرهابية. وقال لي إنه منزعج من إعلان البيت الأبيض أن لقاء على العشاء جمعه حديثاً بالرئيس كان «صعباً وجافاً». فقد

اعتقد أن العشاء كان ودياً تماماً. ثم نظر في أرجاء الغرفة، وشد قبضتيه بقوة وقال: «كل شيء في فوضى لعينة».

وحين كان البيت الأبيض مشغولاً بما يمكن فعله في العراق، بعث مكين برسالة إلى الرئيس قال فيها إن أي إستراتيجية جديدة «لن تحقق النجاح دون زيادة في عدد القوات». واقترح «إرسال خمسة ألوية إضافية إلى بغداد».

اتصل هادلي بمكين عدة مرات محاولاً الحصول على دعمه وتأييده. أراد مكين التفاصيل. وأبلغه هادلي أن قرار الرئيس سوف يدخل السرور إلى قلبه.

في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأربعاء العاشر من كانون الثاني، وقبل ساعات قليلة من موعد إلقاء خطاب بوش، سألت محطة إم إس إن بي سي (MSNBC) الإخبارية مكين هل يؤيد الرئيس [2].

قال: «لا أستطيع التعليق قبل معرفة التفاصيل الصحيحة. لقد أكد لي مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي وغيره أنني سأشعر بالرضا».

ألح هادلي على مكين: «إذا لم تؤيد الرئيس يا جون فلن يؤيده أحد». وذكر أن الرئيس قرر إرسال الألوية الخمسة كلها؛ دون الاحتفاظ بأي منها. «عليك أن تقرر، فهذه هي الزيادة التي قررناها».

قال مكين إنه سيؤيد الرئيس ويدعمه.

قبل عدة ساعات من تقديم الرئيس إستراتيجيته الجديدة إلى الأمة عبر شاشة التلفاز، عقد هادلي لقاء جماعياً عبر الهاتف مع عدد من أعضاء لجنة بيكر-هاملتون.

قال هادلي إن قرارات الرئيس تتبع الزيادة التي اقترحتها اللجنة، وإن عليهم أن يشعروا بالسرور؛ لأن الرئيس تبنى كثيراً من التوصيات التسع والسبعين.

قال ليون بانيتا: «ستيف، ثمة ثلاث توصيات قدمناها». الأولى، حملة دبلوماسية دولية، ومن ضمنها إجراء حوار مع إيران وسوريا.

قال هادلي إنهم يفعلون الكثير على صعيد الدبلوماسية الدولية، لكنهم لم يستطيعوا جعلها تشمل إيران وسوريا.

أما الثانية فهي فرض نقاط علام مرجعية على العراقيين لقياس أدائهم وتهديدهم بتقليص عدد القوات إذا فشلوا في تلبية بعض المعايير وإجراء الإصلاحات.

قال هادلي إنهم لا يستطيعون وضع مواعيد نهائية.

وتمثلت الثالثة بالانتقال من الدور القتالي إلى الدور المساند، مع تركيز على استكمال المرحلة بحلول الربع الأول من عام 2008.

قال هادلي إن الرئيس سيؤكد عملية الانتقال «لكننا لا نريد وضع أي أطر زمنية لها».

قال بانيتا: «حسناً يا ستيف، هذا هو جوهر توصياتنا ومغزاها».

قال هادلي: «لكن عليك النظر إلى توصياتكم كلها، وهي في الحقيقة مفيدة جداً».

بدا الرئيس قلقاً، ومتصلباً تقريباً، حين شرع في الساعة التاسعة والدقيقة الواحدة في إلقاء خطابه إلى الأمة الذي استمر عشرين دقيقة من مكتبة البيت الأبيض [3].

قال بوش: «الوضع في العراق غير مقبول للشعب الأمريكي —وليس مقبولاً لي. وأنا أتحمل مسؤولية أي خطأ ربما ارتكب».

«من الواضح أننا بحاجة إلى تغيير إستراتيجيتنا»، كما أضاف. وسوف تقوم القوات الأمنية العراقية بحملة جديدة لتأمين بغداد، لكنها بحاجة إلى العون من الولايات المتحدة. وقال إنه سيرسل عشرين ألف جندي إضافي. ستذهب خمسة ألوية إلى بغداد؛ ويتوجه أربعة آلاف من مشاة البحرية إلى محافظة الأنبار.

تعهد بوش أيضاً بزيادة حجم الجيش ومشاة البحرية.

قال الرئيس: «لن يبدو النصر يشبه ذلك الذي حققه آباؤنا وأجدادنا. لكننا قادرون، وسوف نسود».

أتت ردة الفعل بسرعة من الديمقراطيين وبعض الجمهوريين على حد سواء. فبعد دقائق على انتهاء الخطاب، التقت محطة إم إس إن بي سي مع السيناتور باراك أوباما في مبنى الكابيتول [4].

قال أوباما: «لست مقتنعاً بأن إرسال عشرين ألف جندي إضافي إلى العراق سوف يحل مشكلة العنف الطائفي هناك. وفي الحقيقة، أعتقد أن التأثير سيكون عكسياً. وأظن أن ذلك سيبعد الضغط عن العراقيين للتوصل إلى نوع من التسوية السياسية يعتقد كل مراقب أنها الحل النهائي للمشكلة التي نواجهها هناك».

«لذلك كله، سوف أعارض بشدة اقتراح الرئيس. أنا لا أشك في إخلاصه حين يقول إنه يعتقد أن هذه هي أفضل مقاربة. لكن أعتقد أنه مخطئ».

أما السيناتور الجمهوري جورج فوينوفيتش (من ولاية أوهايو) فقال: «أيدت الرئيس في ذلك، وأقبل حلمه. وفي هذه المرحلة من اللعبة، لا أظن أن الحلم سيتحقق» [5]. ووصف تشوك هاغل، السيناتور الجمهوري وأحد المحاربين القدماء في فيتنام، الخطة بأنها «أخطر خطأ ارتكب في السياسة الخارجية في هذا البلد منذ فيتنام، إذا نفذت» [6].

اعتقدت رايس أن الطريقة التي اتبعت للتوصل إلى القرار كانت طريقة نمطية ونموذجية، حتى إن عارضته وتطلب أكثر من ستة أشهر. وعدّ زيليكو القرار النهائي مقامرة. فبدلاً من مقاربة الوضع في العراق بوصفه مشكلة تتعلق بالغموض وعدم اليقين، وتتطلب إستراتيجية متنوعة أو حافظة –عسكرية ودبلوماسية واقتصادية– فإن الرئيس تعامل معها مثل مضارب في البورصة يأمل في عائد كبير من نوع واحد من الأسهم.

لم يوافق ديفيد ساترفيلد على القرار النهائي بتورط الولايات المتحدة في العراق بطريقة تزداد عمقاً باطراد. وبقي قلقاً من أسلوب هادلي في التوصل إلى إجماع –غير موجود– بالإكراه: اتخاذ مواقف متعارضة، وانتقاء أكثر الأرضيات المشتركة غموضاً، والسعي الدؤوب لتلفيق اتفاق على إستراتيجية كان يؤيدها في السر منذ البداية. وأحبطه

أن رايس وافقت على الرغم من تحفظاتها. واتفق مع تقويم أحد الزملاء أنها «تؤمن إيماناً عميقاً بشيء إلى أن تقرر الإيمان بشيء آخر».

شعر هادلي برضا أكبر. فقد تصور وجهة الرئيس وجعل كل شيء يتناسب مع تلك الوجهة. لم يتبنَّ بوش فكرة التراجع خطوة التي اقترحتها رايس وزملاؤها. ورفض التقويم المتشائم لوكالة المخابرات المركزية، والنسخ المتنوعة من الخطط التي فضلها رمسفيلد وكيسي والقادة ولجنة بيكر-هاملتون ومعظم الديمقراطيين لتخفيض عدد القوات. وكان التوصل إلى إجماع بالإكراه، كما اعتقد هادلي، شكلاً فنياً اشتغل عليه. وسأل نفسه: «أما كنا نستطيع فعل ذلك من قبل؟». لكن نظراً إلى العراقيل والعقبات الكثيرة، لم يعرف كيف.

ولا عرف الرئيس أيضاً. أبلغني فيما بعد: «قبل تفجيرات سامراء بدا أن الإستراتيجية تحقق النجاح. لكن تفجيرات سامراء، وغياب الحكومة، وعدم كفاية السيطرة بعد الإخلاء، أدت كلها إلى تغيير الوضع برمته تغييراً جذرياً. واستجبنا لما يحدث على الأرض» (7).

لكن السجلات تظهر إمكانية إحداث تغيير مهم قبل هذا الوقت لو أصر الرئيس على التحرك حين أدرك أول مرة أن الإستراتيجية «لم تكن تحقق النجاح»، وأن «ما يحدث على الأرض لم يكن مقبولاً»، ولو لم يدفعهم شبح الخسارة في الانتخابات إلى التحرك بمثل تلك الطريقة السرية.

في النهاية، بقي درس واحد يتكرر مراراً في تاريخ الحكومات الأمريكية: من بين أقوى الشخصيات التي تخطو في قاعات السلطة، ومن بين أشد مسؤولي الحكومة عناداً، وأكثر الجنرالات صلابة (وهم داخل الخدمة أو خارجها)، ومن بين أعلى الأصوات في جوقة الكونغرس صخباً وضجيجاً، هناك شخص واحد مهم.

كان الرئيس مسيطراً، وعلى شاكلة معظم أسلافه، نفذ مشيئته.

سألته إن كان يستطيع تحديد متى عقد العزم.

قال: «لا، لا أستطيع. المسألة تراكمية، لكن هناك لحظة... بالنسبة إلي، أعتقد أن الإجابة أحياناً تصبح أسهل مع مزيد من الدراسة، ومزيد من المناقشة، والعودة إلى الوراء. سوف يقول لك الآخرون إنني شخص... شخص يتبع المنهج السقراطي. مثلاً: يجلسون حولي ويعتقدون أنهم موجودون هنا للتحدث عن قضية، وسوف أستفز أفكارهم عنها، لمجرد معرفة موقفهم. أود لو أستطيع تحديد اللحظة لك. لكن لا بد من وجودها. ربما يعرف ستيف متى حانت».

وفقاً لهادلي، أتت تلك اللحظة حين اتصل به الرئيس في منتصف كانون الأول من عام 2006 وقال: «أشعر بالارتياح لقراري، لكنني لا أريد إلقاء خطاب الآن. أريد منح غيتس فرصة الذهاب إلى هناك، ومعاينة الوضع، وتقديم مدخلاته».

سألت بوش هل صلى إلى الله قبل اتخاذ قراره.

قال الرئيس: «طبعاً. الأمر شخصي جداً».

قلت له أنت تفهم سبب السؤال.

قال: «لا، لماذا؟».

«كثير من الناس لا يفهمون الصلاة».

«حسناً، عليهم إذاً استنصاح رجل دين متمرس».

«هل تحدثت مع راعي كنيستك عن القرار؟».

«لا».

هل تشاورت مع زوجتك؟

«تعرف ما أفكر فيه، إذ تربطنا علاقة وثيقة». ضحك وأضاف: «لا أظن أنني استشرتها».

وماذا عن جون مكين؟

«أنا على ثقة بأنه قال: أنت بحاجة إلى إرسال مزيد من الجنود. يستطيع التحدث معي متى أراد. يكفي أن يقول: أنا هنا لأبلغك... ويبلغني ما يريد. مكين مفيد جداً. عرفت أن كثيرين –من الجانبين- سوف يهللون للقرار في واشنطن. لكن إن أردت شخصاً محفزاً، وإن أردت شخصاً يقول إن القرار صحيح، فلن تجد أفضل من جون مكين. فهو يتمتع بكثير من المصداقية».

سألته: «هل كنت ترغب لو استمعت إليه في وقت أبكر؟ فقد كان منذ عام 2003 ينتقد علناً، ويطالب بإرسال فرقتين إضافيتين، وبمزيد من الجنود».

أجاب بوش: «فكرت بجدية في كل ما قاله. وفي نهاية المطاف، يعتمد الرئيس على نصيحة قادته العسكريين حول أمر كهذا».

«سوف ألح على السؤال. هل كنت ترغب لو استمعت إليه حين تنظر إلى الأمور الآن؟ فهو الرجل الذي يريد أن يخلفك الآن في التعامل مع هذه القضية، وظل طوال سنين يطالب بالزيادة... وهو واسع الاطلاع، وعلى صلة بالمؤسسة العسكرية».

«أجل، مكين رجل واسع الاطلاع».

«هل كنت ترغب لو استمعت إليه؟».

أجاب بوش: «السؤال الحقيقي هو: هل كان عليك إرسال مزيد من الجنود في وقت أبكر؟ بغض النظر هل استمعت إلى مكين أو غيره. التاريخ وحده سيحكم».

هل فكر في التعبئة الكاملة، نظراً إلى أنه أعلن بنفسه أن الرهان في العراق مرتفع جداً؟

قال: «لا لم أفكر في التعبئة؛ لأن الحفاظ على وجود عسكري فاعل في العراق في معركة إيديولوجية طويلة سوف يتطلب التزاماً صارماً من أولئك الذين يرتدون الزي العسكري، والطريقة الوحيدة لضمان ذلك الالتزام الصارم تتمثل بالخدمة التطوعية. ثانياً، أتذكر القلق الذي سيطر على أمريكا حين جند الفتيان بطريقة إجبارية في خدمة لم يكونوا راغبين بها» في أثناء حرب فيتنام.

بدلاً من التعبئة الكاملة، التي ستشمل حتماً تجنيداً إجبارياً، تمثلت مقاربته، كما قال، بـ «زيادة عدد جيش المتطوعين وتأكيد أن فوائد الخدمة ومكاسبها حقيقية وملموسة ومنافسة أجرَ الوظائف الأخرى. فضلاً على رعاية الأسر».

أكد بوش أنه فهم مدى صعوبة الحرب على البلد، والجنود، وأسرهم. «أفهم تماماً حجم الألم الذي يمكن أن تسببه الحرب. أفهم مدى صعوبة أن يذهب عضو الكونغرس لحضور جنازة جندي في دائرته. أفهم ما يشعر به أفراد المجتمع المحلي حين يضعون أشرطة الحداد على شاب بطل قتل في المعركة. يصعب جداً على البلد قبول الحرب، خصوصاً الحرب الطويلة المستمرة».

لقد فهم، كما قال، حقيقة أنه واجه قراراً عظيماً في خريف عام 2006 وشتائه.

«فكرت في هذا القرار ليل نهار... كان القرار بالنسبة إلي شغلاً شاغلاً. الآن، كانت تلك حقبة احتشدت بعدد لا يحصى من حفلات الاستقبال. وربما يهمك أن تعلم أنني صافحت تسعة آلاف شخص أتوا إلي».

وأضاف: «لست مفكراً عميقاً، لكنني شخص كثير التأمل. فكرت كثيراً في القرار. وفي الواقع، مرت أوقات استراحة واستطاع من حولي معرفة أن فكري... أنا متيقن أنهم عرفوا أنني مشغول بأمر آخر. وكنت أفكر في البيانات والمعطيات المختلفة المقدمة لي كلها، والتبعات والعواقب المختلفة كلها».

«وعلى الأقل من وجهة نظري، تمثل أصعب جزء من اتخاذ القرار المهم بالتحضير له. لكن عندما تعقد العزم وتصمم تصبح اللحظة محررة».

طوال سبعة أشهر على الأقل من عام 2006، كان الرئيس بوش يعرف أن الإستراتيجية المتبعة في العراق لم تكن تعمل بنجاح. وبغض النظر عن محاولاته لتغطيتها بلغة إيجابية وقناع براق يجعلها تبدو أقل سوءاً أمام الأمريكيين، فإنه كان يخسر الحرب. لكن لم يحدد أي مواعيد نهائية، ولم يكن في عجلة من أمره، وتجنب أي مواجهة مع وزير الدفاع رمسفيلد، أو الجنرال بيس، أو الجنرال كيسي حول الحاجة إلى التغيير.

لقد أخر الخوف من تسرب الأخبار «الحساسة» التي تفضح المداولات السرية في الإدارة قبل انتخابات الكونغرس عام 2006، أخر إجراءَ مراجعة جدية للإستراتيجية. واستبعد المخططون العسكريون الأمريكيون المشاركة المباشرة في هذه المراجعة إلى ما بعد الانتخابات. وجعل رمسفيلد استقالته متوقفة على حدث سياسي بدلاً من الحرب ذاتها —إذ قرر الاستقالة إذا خسر الجمهوريون السيطرة على مجلس النواب أو مجلس الشيوخ.

ووكل الرئيس مسؤولية العثور على إستراتيجية جديدة إلى ستيف هادلي، مستشاره لشؤون الأمن القومي، وذلك وفقاً لما عرفته ولكلمات الرئيس ذاته. والجدير بالذكر أن مستشار شؤون الأمن القومي يعينه البيت الأبيض ولا يتطلب موافقة مجلس الشيوخ. ويستطيع الرئيس اختيار أي شخص يريد ليشغل المنصب، واختار بوش هادلي له.

قال لي بوش: «إذا دخل ما تحاول فعله إلى عقلي، وهو ما أفترض أن تحاول فعله، وكان جيداً ومفيداً، فلا أعترض عليه...» (8).

ظل يؤكد ويكرر النقطة المتعلقة بدور هادلي المفتاحي. قال: «عليك أن تفهم ستيف. لقد كان مؤثراً جداً، ويجب أن تذكر دوره بطريقة صحيحة في الكتاب».

تناولنا في النقاش عدد مسؤوليه الرئيسين عن العراق —رايس، غيتس، هادلي- الذين عملوا معاً في إدارات جمهورية سابقة. قلت مداعباً إنني ربما أؤلف كتاباً يوماً ما عن أولئك الذين لم يغادروا واشنطن، مثل هادلي.

قال الرئيس: «لا، يجب أن يحمل عنوان: حياة وعصر ستيفن هادلي: الوطني الأمريكي العظيم»

علق هادلي ساخراً: «سيكون الكتاب بغلافين لكن دون صفحات».

قال الرئيس: «مجد دؤوب. مفكر واضح الذهن. عقل منظم».

قلت: «ويحب البقاء خلف الكواليس».

قال الرئيس: «حين تواجه مشكلة معقدة على صعيد قضايا الأمن القومي الكبرى، أطلقْ العنان لهادلي». وابتسم واقترح عنواناً لكتابي: «أطلقْ العنان لهادلي!».

هذا ما فعله بوش بالضبط. لقد سلم القائد العام إدارة حرب كان يخسرها إلى مستشاره لشؤون الأمن القومي.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع خمسة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Iraqi PM Addresses Army on Saddam Execution, Baghdad Security Plan,»» BBC Monitoring International Reports transcript, January 6, 2007.

2- MSNBC Interview with Senator John McCain (R-AZ); Subject: Iraq,» Interviewed by Tim Russert,» Federal News Service, January 10, 2007, www.fnsg.com.

3- Presidential Documents, January 10, 2007, pp. 19-23 (Vol. 43, No. 2), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no2.html4-

MSNBC Transcript, Hardball, January 10, 2007, www.msnbc.msn.com.

5- Dana Milbank, «The Secretary vs. the Senators,» *The Washington Post*, January 12, 2007, p. A1.

6- Ann E. Kornblut, «Devastating Criticism by Both Parties,: *The New York Times*, January 12, 2007, A12.

7- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

8- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

الجزء الثاني

-32-

في صبيحة اليوم اللاحق على الخطاب الذي أعلن فيه الرئيس إرسال مزيد من القوات إلى العراق، ذهب إلى فورت بينينغ (بولاية جورجيا) للتحدث أمام العسكريين وأسرهم. عارض قراره الجنرال كيسي والجنرال أبي زيد، قائداه العسكريان الميدانيان. في حين اقترح الجنرال بيس ورؤساء الأركان زيادة أقل حجماً، في حال الموافقة على أي زيادة. أما الجنرال شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش، فقد أوضح دون لبس أن الألوية الخمسة ليس لها وجود فعلاً في سياسة الجيش الحالية القائمة على تبديل مناوبة القوات كل اثني عشر شهراً. وظل غيتس مشاهداً على الأغلب في أثناء العملية، مع أن التنفيذ يقع الآن على عاتقه. لكن في ذلك الصباح، اعتقد الرئيس أنه سطر نسخته الخاصة من التاريخ.

«القادة الميدانيون على الأرض في العراق، هم الذين أستمع إليهم –بالمناسبة، هذا ما تريدون من القائد العام أن يفعل. لا تريدون قرارات تتخذ اعتماداً على السياسة أو مجموعات الضغط التمثيلية أو الاستطلاعات السياسية، بل تريدون أن تتخذ قراراتكم العسكرية بواسطة الخبراء العسكريين المتمرسين. وهؤلاء حللوا الخطة، وقالوا لي وللحكومة العراقية: لن تنجح إلا إذا قدمنا العون والمساعدة. ثمة حاجة إلى وجود أكبر حجماً» [1].

وشرح بوش قائلاً: «ونظر قادتنا إلى الخطة وقالوا: السيد الرئيس، لن تنجح الخطة إلا إذا قدمنا الدعم وأرسلنا مزيداً من الجنود».

* * *

بغض النظر عن الطريقة التي رأى كيسي الخطة عبرها، ظل يتوصل إلى نتيجة مفادها أن الزيادة كانت مناورة سياسية لا عسكرية.

قال في السر فيما بعد: «شعرت دوماً أن الزيادة استهدفت بناء الدعم والتأييد على الصعيد الداخلي لا النجاح على الأرض في العراق. فهي تمنح الرئيس بعض الوقت. لكن لا أعلم كم تمنح من الوقت في العراق».

حتى في هذه الحال، اعتقد كيسي أن بناء الدعم والتأييد على الصعيد الداخلي أمر مشروع، ففي غيابه لن ينجح المجهود الحربي أبداً. والسؤال هو: هل تمكن الرئيس من الحصول على الوقت الكافي لتحويل مسار الحرب أم اكتفى بتأجيل يوم الحساب؟

في الثالث والعشرين من كانون الثاني، حضر الجنرال ديفيد بترايوس جلسة لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ للموافقة على تعيينه. قالت سوزان كولينز (جمهورية عن ولاية مين) المعروفة بفكرها المستقل: «قرأت مقالة مهمة جداً لك عن مكافحة التمرد نشرت قبل سنة في المجلة العسكرية ميليتاري ريفيو (Military Review). وعرضت أربع عشرة ملحوظة اعتماداً على مناوباتك وخبراتك السابقة».

«وحين نظرتُ إلى هذه الملحوظات –ملحوظات أظن أنها مترعة بالرؤى الثاقبة وأوافق عليها- استنتجت أنها لا تتسق مع الإستراتيجية الجديدة التي نوشك على تطبيقها. ففي ملحوظتك الأولى، حيث استشهدت بما قاله لورنس [العرب] في آب من عام 1917، قلت: لا تحاول القيام بكل شيء بيديك. وتحدثت عن ضرورة ارتقاء العراقيين إلى مستوى المسؤولية. أقلقتني حقيقة أن الإستراتيجية التي نوشك على اتباعها في هذا البلد تزيل الضغط عن العراقيين للقيام بواجبهم... ومن ثم نحن نرتكب الخطأ الذي حذرت أنت منه» (2).

أجاب بترايوس: «بصراحة، ما وصفتِه كان بالفعل توتراً فكرياً حول المهمة في العراق منذ البداية. ففي الذهن دوماً حكمة لورنس العرب فيما يتعلق بضرورة عدم القيام بالمهمات كلها بأيدينا، واعتدنا أن نقول: ما نريد أن نفعله هو مساعدة العراقيين على الوقوف على أقدامهم. نريد أن نكون قربهم. نريد أن ندعمهم. لكنهم في بعض الأوقات يترددون ويتعثرون، والسؤال هو: متى نعود ونقدم المساعدة والعون؟ في أعقاب تفجير مسجد

سامراء والعنف الذي تصاعد طوال الشهور الأخيرة من عام 2006، أعتقد أننا وصلنا إلى نقطة نحتاج عندها فعلاً إلى زيادة المساعدة قليلاً، خصوصاً في مجال توفير الأمن».

بعد قرابة أربع سنين من الغزو، سوف يبدأ بترايوس من جديد في العراق.

بعد ثلاثة أيام، في السادس والعشرين من كانون الثاني، صادق مجلس الشيوخ بالإجماع (81-0) على تعيين بترايوس [3]. والتقى بوش في المكتب البيضاوي ذلك الصباح مع غيتس وهادلي وبيس وبترايوس.

قال بوش بعد قليل: «أريد التحدث مع قائدي». وحين أصبحا على انفراد، راجع الرئيس بإيجاز قراره بزيادة عدد القوات، أو ما دعاه بـ«مضاعفة الرهان».

قال بترايوس: «السيد الرئيس، هذا ليس مجرد رهان مضاعف»، إذ يجب أن تشارك الحكومة الأمريكية برمتها، والمؤسسة العسكرية الأمريكية برمتها. «إنه قرار يشمل الجميع».

في الثلاثين من كانون الثاني 2007، عقدت لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ جلسة للموافقة على تعيين فالون [4].

سأل السيناتور جون مكين: «ما درجة ثقتك أن الحكومة العراقية والمؤسسة العسكرية العراقية على مستوى المهمة التي نقوم بها الآن وفقاً لهذه الإستراتيجية الجديدة؟». قال فالون إن هناك بعض الجنود العراقيين الأكْفاء، وغيرهم بحاجة إلى عمل كثير، وذلك وفق تقويمه الأولي. ثم إن بعض الزعماء العراقيين أكفاء، وبعضهم الآخر يفتقد الكفاءة والفاعلية. والمهمة الضرورية كما قال هي إجراء تقويم نزيه لما هو واقعي وعملي.

أضاف فالون: «ربما يجب علينا إعادة تعريف الأهداف هنا، والقيام بخطوات أكثر واقعية فيما يتعلق بإحراز التقدم».

التقى فالون فيما بعد بمكين على انفراد. قال مكين إنه سمع أن فالون لا يؤيد فعلاً خطة بوش لزيادة عدد القوات.

قال فالون: «لا توجد خطة، بل مجرد تخصيص موارد إضافية. علينا معاينة الخطة حين يصل بترايوس إلى هناك».

* * *

في يوم السبت العاشر من شباط، حل بترايوس محل كيسي، وأقيمت مراسم رسمية في كامب فيكتوري، في القاعة الرئيسة المترفة والمزخرفة بالأعمدة المرمرية والثريات الكريستالية داخل أحد قصور صدام حسين السابقة بالقرب من مطار بغداد الدولي. وأعلن بترايوس أن الوضع الذي ورثه «صعب» لكنه «ليس يائساً» (5).

التقى الجنرالان على انفراد بضع ساعات. وقف كيسي أمام خريطة للعراق ووصف الوضع الراهن في كل محافظة. قال: «تعلم أنني طلبت لواءين اثنين. ولا أؤيد إرسال البقية. لكنني وضعتها على استعداد في حال احتجت إلى جلبها».

وأضاف: «لدينا هذه الألوية على أتم استعداد. وسيصل واحد منها، الأول، إلى هنا في الأسبوع القادم، والثاني وافق عليه المالكي. لكن البقية لم يوافق عليها، إلا أنها مبرمجة لتصل إلى الكويت، واحد كل شهر، وستعمل أنت معه على هذه المسألة».

«ما نراه هنا تغيير رئيس في الإستراتيجية، ونقل مسؤولية القيام بالمهمات من العراقيين إلينا. لكن مهما تفعل، ومهما تقرر، يجب أن توضحه؛ لأن التغيير عميق وكبير».

كان كيسي يترك المنصب ليصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش، وهذه ترقية من الناحية التقنية، تجعله مسؤولاً عن تجنيد القوات وتدريبها وتجهيزها، لكنه لم يعد جزءاً من سلسلة القيادة. قال الجنرال الفخور بشيء من الحزن: «هذا يتعارض مع كل شيء فعلناه طوال سنتين ونصف السنة».

كان بترايوس مسؤولاً عن تدريب العراقيين حين طورت الإستراتيجية الانتقالية، وأعلن تأييده ومساندته إياها. يجب توضيح هذا التغيير، كما قال كيسي، للجنود الأمريكيين والعراقيين على حد سواء.

حذر بترايوس قائلاً: «كل جندي تجلبه إلى هنا سيبقى طوال مدة مناوبته الكاملة. أنت بحاجة إلى فهم ذلك». ففي الماضي، اعتقدوا واهمين بإمكانية إعادة بعض الجنود إلى الوطن في وقت أبكر. لكن ذلك لم يحدث قط. قال كيسي: «كل شخص تجلبه إلى هنا، يصبح في نهاية المطاف عنصراً لا غنى عنه نظراً إلى كثرة المهمات وتعددها». وهذا ما عناه حين أطلق على بغداد اسم «بالوعة جنود».

تذكر الرجلان كلاهما تحذير وزير الخارجية السابق كولن باول للرئيس بوش قبل ستة أشهر من غزو العراق. «ستكون المالك الفخور لخمسة وعشرين مليوناً من البشر»، كما قال باول لبوش. في السر، أشار باول ونائبه وأقرب أصدقائه، ريتشارد أرميتاج، إلى ذلك بوصفه «مبدأ مخزن الخزف»: تكسره فتملكه.

شعر بترايوس، في اليوم الأول ذاك، مع عظم المهمة الموضوعة أمامه، والضغوط التي تمارس على الإدارة في الوطن لتحقيق النجاح، شعر بأنه يرزح تحت ثقل العالم كله. لكنه قال لأقرب مستشاريه: «اقتلع المرآة الخلفية من الحافلة، ودعنا نركز بصرنا على الأمام والآتي. نحن حيث نحن. ربما تشعر بالإحباط. بصراحة، أنا أشعر بالإحباط. ربما يثير الوضع غضبك، لكن دعنا الآن نفكر كيف نحسنه».

أبلغ مساعديه أنه يريد تطبيق مقاربته الجديدة حالاً. ووضع على الفور خطة مؤقتة لحملة مشتركة، وأوضح أن المهمة هي حماية السكان وأن أداءها يجري بالعيش بين الناس.

وقال لهم: «أعظم فكرة هي تأمين السكان وخدمتهم. هذه فكرة بالغة الأهمية. ومن أجل تأمين السكان عليكم العيش بينهم، ومشاركتهم في كل ما تفعلونه». عليهم التحرك وتأسيس محطات أمنية مشتركة، ومخافر أمامية قتالية، وقواعد للدوريات، ونقاط تفتيش حول بغداد.

بعث برسالة قصيرة إلى مرؤوسيه كلهم، بعد أن فكر ملياً في كل كلمة فيها [6]. استخدم كلمة «أمن» ثلاث مرات. «سوف نقوم بحملة محورية لتحسين الأمن للشعب العراقي».

وفيما يتعلق بأولئك الذين يعارضون العراق الجديد، قال: «يجب أن نضربهم دون هوادة. ويجب علينا، نحن والعراقيين، بوصفهم شركاء لا أعداء، وضع شروط الصراع». أما الهدف فهو توفير الوقت الكافي للعراقيين لإنقاذ بلدهم. «ومن أجل القيام بذلك، يجب على كثير منا العيش بينهم والقتال إلى جانبهم».

أبلغ بترايوس مساعديه: «سوف نخرج مع الجنود. سوف نخرج مع بعض الدوريات في بغداد». وأشار إلى خريطة وانتقى منها أحياء تذكّرها حين رأس تدريب القوات الأمنية العراقية، وسمع عنها الآن قصص رعب مريعة: «دعونا نذهب إلى هنا وإلى هنا».

كانت الغزالية المنطقة الأولى، الحي السكني الذي راقبته ميغان أوسوليفان مراقبة دقيقة من البيت الأبيض. تذكرها بترايوس، كانت حياً مزدهراً للشريحة العليا من الطبقة الوسطى. ذهب بترايوس مع الدوريات أيضاً إلى العامرية، القطاع السني في غرب بغداد، والدورة، الحي السني الآخر. سار في الأحياء ساعات طويلة، وصدم بما شاهده. تحولت الأحياء إلى مدن أشباح. ولم يشاهد مثل تلك المناظر في حياته كلها.

أصدر أوامره: «سنبدأ من هنا». ستقام أول محطة أمنية مشتركة لحماية السكان العراقيين في الغزالية، ودعوها: «حاجز الإسمنت الواقي»، حيث جرى عزل ساحات المعارك اليومية بحواجز إسمنتية لتطويق السكان وحمايتهم. من الممكن أن يشن أفراد القاعدة أو المتمردين الهجمات، لكنهم لن يتمكنوا بعد الآن من الدخول بشاحنات تحمل المتفجرات أو القذائف الصاروخية إلى المناطق المحمية من العاصمة.

أدرك أن الغزالية والدورة هما أهم منطقتين في بغداد، وإذا لم يتمكنوا من إعادتهما إلى الحياة مجدداً، وتحسين الوضع فيهما قليلاً، فلن يستطيعوا أداء المهمة الجديدة. أنهى اليوم الأول في منصبه القيادي وهو يشعر بأن ثقل العالم كله يرزح على منكبيه. والآن انتهى اليوم الثاني وعلى عاتقه حمل عالمين اثنين. تذكر حكمة الكاتب الدرامي الروماني سينيكا الابن: «الحظ يأتي حين يلتقي الاستعداد مع الفرصة السانحة». شعر بأنه مستعد، وهذه هي الفرصة. فهل يعني ذلك أن الحظ يحالفه؟

في اللقاء اللاحق عبر نظام الفيديو الآمن مع الرئيس ورايس وغيتس، ذكر أن الأحياء التي زارها كانت مجرد «مدن أشباح».

قال بترايوس: «يجب أن تدركوا أن الوضع سيزداد صعوبة قبل أن يتحسن».

في يوم الإثنين التاسع عشر من شباط 2007 (عيد الرؤساء)، وكان يوماً بارداً عاصفاً، زار بوش ماونت فيرنون، مزرعة جورج واشنطن الممتدة على ضفاف نهر بوتوماك، على بعد ستة عشر ميلاً إلى الجنوب من واشنطن.

قال بوش: «عند رؤية أحداث الماضي من منظور الحاضر، يسهل علينا الاستخفاف بالنجاحات التي حققها جورج واشنطن. لكن طريق أمريكا نحو الحرية كان طويلاً، وشاقاً، ولم تكن النتيجة مؤكدة على الإطلاق». فقد وصل «جيش واشنطن القاري» إلى حافة الكارثة مرات عديدة، لكن «إرادته لم تقهر» [7].

كان يحتفظ بصورتين مرسومتين لواشنطن ولينكولن في المكتب البيضاوي، وكثيراً ما قارن نفسه ببعض أسلافه، ملاحظاً أن حكم التاريخ عليهم يظل أكثر لطفاً ورقة من الروايات المعاصرة.

كانت رايس حاضرة حين أشار بوش إلى بعض اللوحات أمام زوار البيت الأبيض، وقال: «ما يزالون يؤلفون الكتب عن الرئيس الأول جورج واشنطن، ولن يقلقني ما يقولونه الآن عن الرئيس الثالث والأربعين». أو كان يذكر كيف تشبث لينكولن، الذي يعده بوش أعظم رئيس أمريكي، بالمسار في أثناء الحرب الأهلية، على الرغم من الخسائر الهائلة، والهزائم العسكرية العديدة، والشكوك التي حامت حول الانتصار في الحرب.

كان هاري ترومان أيضاً من الرؤساء المفضلين لدى بوش.

قال بوش أمام طلاب سنة إنهاء التخرج في كلية ويست بوينت في العام الماضي: «أوضح الرئيس ترومان دون لبس أن الحرب الباردة كانت صراعاً إيديولوجياً بين الطغيان والحرية. وعبر الأعمال التي قام بها الرئيس ترومان، والمؤسسات التي شيدها،

والتحالفات التي شكلها، والمبادئ التي أرساها، وضع الركائز التأسيسية لانتصار أمريكا في الحرب الباردة... واليوم، في بدايات قرن جديد، نخوض مرة أخرى حرباً لا تشبه أي حرب خاضتها أمتنا من قبل. ومثل حال الأمريكيين في أيام ترومان، نحن نضع الركائز المؤسسة للنصر... لقد أوضحنا دون لبس أن الحرب على الإرهاب صراع إيديولوجي بين الطغيان والحرية» [8].

بعد أيام قليلة من وصول بترايوس، دعا ديفيد كين، معلمه ونائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق، إلى قضاء أسبوعين في العراق. أمضى كين أربعة أيام في بغداد، ويوماً في محافظة الأنبار، وآخر في محافظة ديالى. والتقى بخليل زاد وفريق العاملين في السفارة. عمل في التدريب على مستويات القيادة كلها، بدءاً من اللواء مروراً بالكتيبة وانتهاء بالفصيلة.

في السادس من آذار، أوجز كين لنائب الرئيس تشيني رحلته إلى العراق، ليؤسس قناة اتصال خلفية سرية –من بترايوس إلى كين إلى تشيني إلى بوش– حول سلسلة القيادة.

قال كين: «هناك إشارات مبكرة على النجاح، لكن العملية مجرد بداية، إذ لا يمكننا توقع النجاح». لكنه أضاف إن بترايوس أعاد تنشيط المهمة. «لقد منحهم الأمل في أننا نستطيع أداء المهمة».

قال كين إنه حضر لقاء بين بترايوس ورئيس الوزراء العراقي الأسبق إياد علاوي. فمنذ خسارته أمام المالكي، توقف عن مساعدة رئيس الوزراء الجديد، إذ أراد احتلال المنصب مرة أخرى. «هذه الحكومة لن تسقط. وعليك التوقف عن الجلوس على الحاجز آملاً سقوطَها. ساند ما نفعله هنا. وشارك في اللعبة»، كما أبلغه بترايوس.

قال كين إن بترايوس فاز بالإذن من المالكي بمطاردة المليشيات الشيعية. فقد أراد المالكي السيطرة على قواته العراقية أول مرة، وأتاح بترايوس له ذلك، لكننا «أخذنا زمام المبادرة في معظم الحالات»، وفشل قادة العمليات التكتيكية العراقيون في أغلب الأحوال تقريباً.

«يجب أن نكون متفائلين لكن بحذر، ونبتعد عن الموقف الانتصاري. لقد قللنا على الدوام من قوة هذه العدو»، كما قال كين. وسيتطلب الأمر مدة تراوح بين 12-18 شهراً للشعور بالتأثير الكامل لزيادة عدد القوات والإستراتيجية الجديدة لتأمين السكان. وأي حكم على النتائج في مدة ستة أشهر سيكون «سخيفاً»، كما أبلغ نائب الرئيس.

أضاف كين: «حال السفارة لا ترضي». وبرأيه، تشبه السفارة في سنغافورة أو باريس، من ناحية مدى التزامها بالحرب.

«أنتم بحاجة إلى الامتناع عن توقع تحقيق النجاح في الصيف ثم البدء بالانسحاب بحلول نهاية السنة. إنها وصفة للكارثة في عام 2008. وما يحدث أننا نبدأ بالانزلاق تدريجياً إلى مستويات العنف التي شهدها عام 2006». الجميع بحاجة إلى الاتفاق: «القيادة المركزية، ووزارة الدفاع، وهيئة الأركان المشتركة، ووزارة الخارجية، وجهود الوكالات المشتركة، ومجلس الأمن القومي».

وقال إن الوزير غيتس وغيره في البنتاغون ليسوا على اتفاق مع بترايوس.

سأل تشيني: «ماذا تعني؟».

أجاب كين: انظر إلى تعليقات غيتس الأخيرة حول رغبته بالانسحاب بحلول نهاية السنة. فقد قال غيتس في أثناء جلسة استماع عقدت أخيراً أمام لجنة الخدمات المسلحة إنه يأمل، إذا نجحت خطة تهدئة العنف في بغداد وبدأ العراقيون القيام بواجباتهم، «أن يبدأ انسحاب جنودنا في أواخر هذه السنة» (9).

أضاف كين: «هذه إشارة برأيي على أنه لم يعتنق حقاً هذه السياسة. فمن وجهة نظر عسكرية، يجب أن تُعزَّز هذه الخطة في عام 2008. لدينا لواءان إضافيان، فلماذا يمهد الوزير السبيل لأمر إلا إذا كان موافقاً عليه؟».

كان كين في نظر تشيني شخصاً نافذاً وفذاً: جندياً خبيراً متمرساً حافظ على صلات وثيقة بالبنتاغون، وليست لديه مصلحة شخصية، وكان معلماً وناصحاً لبترايوس، وصريحاً، ودقيقاً، ويهتم بالأمور الجوهرية المهمة، ويستحق الانتباه، ويسهل فهم أفكاره، فضلاً على أنه لا يضخم التوقعات والآمال ولا يضيع وقت تشيني سدى.

أبلغ جون هانا، نائب تشيني، كين فيما بعد أن نائب الرئيس نقل تقريره إلى الرئيس.

في العراق، كان في ذهن بترايوس «فكرة عظيمة» أخرى.

سأل معاونيه: من هو العدو؟ فهم يقاتلون القاعدة، والمتمردين، والمتطرفين الشيعة والسنة على حد سواء. إلا أن من الممكن التصالح مع بعض هؤلاء، في حين يجب اعتقال بعضهم الآخر، أو قتلهم، أو طردهم. لكن السؤال هو: كيف يمكن تحديدهم. الجواب يتطلب معلومات استخبارية دقيقة لتحديد من الذين يمكن كسبهم إلى جانبنا ومن لا يمكن –الذين يمكن التصالح معهم والذين يتعذر التصالح معهم.

طلب من محلليه رسم أشكال توضيحية ومخططات بيانية. من الواضح استحالة التصالح مع القاعدة. لكن ماذا عن ألوية ثورة العشرين، وهي جماعة متمردة سنية حملت اسم انتفاضة تفجرت ضد البريطانيين في أعقاب الحرب العالمية الأولى؟ وماذا عن مختلف عناصر جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر؟ أي أفراد أو جماعات يمكن تفتيتها وتقسيمها؟

قال بترايوس لمعاونيه: «هذا ما يجب أن يشغلنا». أحضر أيضاً ديريك هارفي، محلل استخبارات وزارة الدفاع، الذي سيرفع تقاريره إليه مباشرة.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Presidential Documents, January 11, 2007, pp. 25-30 (Vol. 43, No. 2), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no2.html

2- «Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Nomination of Lieutenant General David H. Petraeus, U.S. Army, to Be General and

Commander, Multinational Forces Iraq,» Federal News Service, January 23, 2007, ww.fnsg.com.

-3 U.S. Senate Roll Call Votes, 110th Congress, 1st Session, January 26, 2007, www.senate.gov

-4 Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Nomination» of Admiral William Fallon for Appointment to Grade of Admiral and to Be Commander, U.S. Central Command,» Federal News Service, January 30, 2007, www.fnsg.com.

-5 General David Petraeus's change of command remarks, MNF-1 change of command, February 10, 2007, www.mnf-iraq.com.

-6 Commanding General's Letter to the Troops for February, February 9, 2007, www.mnf-iraq.com

-7 Presidential Documents, February 19, 2007, pp. 182-183 (Vol. 43, No. 8), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no8.html

-8 Press Release.»President Delivers Commencement Address at the United States Military Academy at West Point,» May 27, 2006, www.whitehouse.gov.

-9 Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Defense» Department Fiscal Year 2008 Budget and Fiscal Year 2007 Supplemental,» Federal News Service, February 6, 2007, www.fnsg.com.

-33-

في ربيع تلك السنة، حضر الأدميرال فالون اجتماعاً في البيت الأبيض حول إيران.

قال فالون: «أعتقد أننا بحاجة إلى القيام بشيء لمواجهة هؤلاء». فالعراق يشترك مع إيران بحدود تمتد مسافة 900 ميل، وهو بحاجة إلى المشورة والإرشاد، وإستراتيجية للتعامل مع الإيرانيين.

قال بوش: «حسناً، هؤلاء حمقى وأنذال».

دهش فالون. فوصفهم بـ«الحمقى والأنذال» لا يعد إستراتيجية. نطق الحاضرون كثيراً من الكلمات والأفكار، خصوصاً عن الزعماء الإيرانيين. فهم يتصفون بالسوء والشر وصلتهم مقطوعة بشعبهم. لكن لم يقدم أحد مقاربة حقيقية. ولم يرد أحد الانخراط في مواجهة دبلوماسية.

سألت فيما بعد الرئيس عن الموضوع، وأصر على أنه كان واضحاً فيما يتعلق بالسياسة تجاه إيران. قال لي: «كانت إستراتيجيتنا تقوم على محاولة إقناعهم أولاً بالتخلي عن طموحاتهم في مجال الأسلحة النووية، وهذا يعني تعليق برنامجهم للتخصيب. وإذا كانوا على استعداد للقيام بذلك، يمكنهم الجلوس إلى الطاولة. وسنكون هناك مع شركائنا الآخرين. ثانياً، مواجهتهم وصدهم عن محاولة ترويج نمط الحكم الخاص بهم، أولاً، عبر إقامة دولة فلسطينية، وثانياً، عبر مساعدة الديمقراطية الفتية في لبنان، وثالثاً، عبر النجاح في العراق. وكنت واضحاً تماماً ومنذ البداية حول إستراتيجيتنا وأهدافنا».

حاول فالون حل المشكلة مع المسؤولين الآخرين في البيت الأبيض والبنتاغون. لكن في كل مرة يحاول فيها إثارة القضية، ويقدم الحجة على تعذر حل مشكلة العراق دون مشاركة جيرانه الآخرين، مثل إيران، تكون ردة الفعل سلبية.

كانوا يقولون له: «دعك من هذه المسألة».

قال لبعض من معاوني هادلي وغيتس: «هراء. يجب التصدي لها؛ لأنني لن أتمكن من أداء وظيفتي إلا إذا واجهت هؤلاء».

الشيء ذاته ينطبق على السوريين. شرح قائلاً إنه حين ذهب لرؤية الزعماء الآخرين في الشرق الأوسط، وجد أن كلاً منهم يتناول الموضوع نفسه بتنويعات مختلفة: «لقد بدأتم هذه الحرب الملعونة، ولم تكن لديكم أدنى فكرة عن الجحيم التي ستحاصركم. انظروا إلى ما فعلتم، والفوضى التي نعيش فيها الآن، فما أنتم فاعلون لحل هذه المشكلة؟».

أظهر كثيرون في السر، ومنهم غيتس نفسه، مشاعر القلق من فالون.

أبلغ فالون غيتس: «إذا أرادوا أن يشغلوا وقتهم كله بالقلق مني، وما أقوله وما أفعله، بدلاً من محاولة التفكير بما يجب على هذا البلد [الولايات المتحدة] أن يفعله، فأظن أنني لا أصلح لهذا المنصب. ربما ارتكب أحد خطأ فادحاً حين قرر وضعي فيه».

سافر بترايوس إلى كل منطقة في العراق. وسعى للحصول على المدخلات من الجنرالات والجنود. سار في الشوارع، وزار الأحياء التي أجبر سكانها على النزوح، وعرف كيف تغيرت الحال من سيئ إلى أسوأ. وجمع بواسطة البريد الإلكتروني والاتصالات الهاتفية فريقاً خاصاً به ليأتي إلى العراق ويدرس الوضع فيه دراسة متعمقة.

وكل إلى الكولونيل مكماستر، مهندس الحملة الناجحة في تل عفر، مهمة قيادة الجهود. وتمثلت المهمة بتجميع أهم العقول المدنية والعسكرية وأذكاها لتقويم إستراتيجية التحالف الراهنة، وتقرير الطريقة المثلى لتغييرها. وستُعرف المجموعة باسم فريق التقويم الإستراتيجي المشترك.

بحلول أوائل آذار، جمع بترايوس ومكماستر فريقاً مؤلفاً من قرابة عشرين فرداً، من بينهم اقتصاديون، وخبراء في مكافحة التمرد، وعلماء وباحثون في الشأن العراقي، وضباط، ودبلوماسيون [1]. عرف بترايوس أن كثيراً منهم يتمتعون بأهمية حاسمة

للجهود في العراق. شعر بالرضا عن ذلك كله. فبإمكانه تحمل الناس الذين يقولون إن الإمبراطور دون ثياب، طالما يساعدون في العثور على حل للمشكلة.

التقت المجموعة في القاعة الرئيسة لأحد القصور السابقة في المنطقة الخضراء. في مركز القاعة، رزحت طاولة تحت حمل كدس ثقيل من الأوراق ارتفاعه عدة أقدام. كانت الوثائق –وغالبيتها سرية– تتناول كل جانب من جوانب الحرب. وشملت لائحة القراءة خطط الحملة الراهنة، والتقويمات الشخصية للسياسيين العراقيين، والإحصائيات المتعلقة بالعنف، والخدمات الحكومية، والقدرة المؤسسية. وغاص أعضاء فريق التقويم في جبل من الأوراق والوثائق، وانقسموا إلى فرق أصغر، توجه أحدها إلى المناطق الكردية ومحافظة نينوى، في حين اتجهت الأخرى إلى كركوك وتكريت وبعقوبة وغرب الأنبار، واتجهت مجموعة إلى البصرة في الجنوب والمحافظات المجاورة، وجالت أخرى في بغداد. واستغل أعضاء آخرون صلاتهم العراقية العديدة لمحاولة جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات.

في قاعة القصر الرئيسة، أوجز أعضاء المجموعة المعلومات لبعضهم بعضاً. تبين أن الحكومة العراقية في حالة أسوأ من الفوضى والتشتت مقارنة بتوقعاتهم السابقة. ومستويات العنف مازالت مرتفعة إلى حد مقلق. والإستراتيجية الأمريكية التي سعى إليها كيسي حتى آخر يوم في منصبه –تدريب العراقيين والانسحاب بأسرع وقت ممكن– جعلت الوضع الأمني أشد ضعفاً وهشاشة.

في الوقت الحاضر، «تندفع الولايات المتحدة نحو الفشل» كما قرر فريق التقويم.

وبعد أسابيع من العمل مدة تراوح بين 14-20 ساعة في اليوم، استنتج الفريق أن الصراع تحول في الجوهر إلى معركة في سبيل السلطة والبقاء. والسؤال المهم طرحه هادلي قبل شهور: هل يعد السعي نحو تحقيق المصالحة مهمة عبثية؟

أوصى الفريق بأن يطالب مسؤولو التحالف الوزارات العراقية بالشفافية ويصروا على ضرورة إنفاق ميزانياتها، وهذا لم تفعله عام 2006. وأوصى بما دعاه بعضهم «إستراتيجية أعمدة الكهرباء»، التي تعني أساساً أن يعمل الأمريكيون على تعنيف

المسؤولين العراقيين الفاسدين والعاجزين وفضحهم وتوبيخهم أمام الملأ، وتوضيح أنهم طردوا من مناصبهم بسبب ميولهم الطائفية؛ ليكونوا عبرة تؤكد أن مثل هذا السلوك لا يمكن تحمله أو التساهل معه.

عسكرياً، تمثلت المهمة الرئيسة في توفير الأمن للسكان على المستوى المحلي، عبر توسيع «المحطات الأمنية المشتركة»، وتعزيز المخافر الأمامية بواسطة قوات الجيش والشرطة العراقية والقوات الأمريكية. كان بترايوس ومرؤوسوه مغرمين بالقول: «لا توجد مواصلات –ذهاباً وإياباً- إلى ساحة القتال» (أي يجب على الجنود المقاتلين عدم مغادرتها).

ثمة تركيز أيضاً على تهيئة الشروط المناسبة لإعادة البناء وإعادة تنشيط الاقتصاد، وجلب مقتدى الصدر إلى مائدة المفاوضات، وتحديد الأعداء الذين يستحيل التصالح معهم والقضاء عليهم، والعمل على تبني سياسة الاستيعاب على المستويين المحلي والوطني. شمل التقرير أكثر من مئة صفحة، وسيصبح أساس خطة حملة بترايوس الجديدة وأفضل أمل للإنقاذ وتحقيق شيء من النجاح في العراق.

حل الأدميرال فالون محل الجنرال أبي زيد في القيادة المركزية في السادس عشر من آذار. وقال لمعاونيه وفريقه في أصيل ذلك اليوم: «سوف نبدأ على الفور». وكان أول الأسئلة التي طرحها هو: ما مهمتنا؟ قرأ بيان المهمة فكاد يغص. كان البيان مغالياً في التشديد على الأساليب التكتيكية. وقال إن المفترض بالقيادة المركزية، التي يمتد نشاطها من الشرق الأوسط إلى القرن الإفريقي، أن تكون قيادة إستراتيجية تتناول الأفكار الكبرى. «نحن بحاجة إلى إعادة كتابة بيان المهمة، إذ لا يمكن أن يكون لدينا عشر أولويات؛ فهذا يعني تشتيت الجهود والتركيز» كما قال.

قسم كبار المساعدين إلى مجموعات صغيرة للتفكير والتحاور والتناقش مدة ساعة. وحين استدعاهم قال: «الآن، دعونا نرى هل نستطيع التعبير عما يقوله الجميع». الأمر واضح لا لبس فيه. «هناك منزلان يحترقان. ولهب الحريق ساطع وهّاج». سيمثل العراق وأفغانستان قمة الأولويات.

سأل فالون عن حجم العاملين في القيادة المركزية: «كم عدد الموظفين هنا؟».

ذكر أحد مساعديه أن العدد يبلغ بالضبط 3415.

أجاب فالون: «لا بد أنك تهزأ بي. أعطني تفصيلاً عنهم. كم عدد العاملين في مفرزة الأمن الشخصي المخصصة لي؟».

أجاب عدد من المساعدين: 53، 49، 60 تقريباً.

قال: «حسناً، لنأخذ الرقم الأصغر. تسعة وأربعون شخصاً في مفرزة الأمن الشخصي، لماذا؟».

قالوا له إن العادة جرت على هذا النحو.

أمر فالون: «أريد التفاصيل المتعلقة بكل واحد منهم: ماذا يفعل، ومن أين أتى».

كان العشرات منهم من الاحتياط الذين جندوا لحماية القائد.

«نخوض حربين اثنتين، ويوجد هنا ثلاثون رجلاً جندوا منذ سنوات لحمايتي؟! هذا هراء. كان لدي رجل واحد في المحيط الهادي. تخلصوا منهم. الآن».

قال معاونوه سوف تذهب إلى مناطق الحروب وستحتاج إلى حماية.

قال: «حين أذهب إلى العراق سيكون بترايوس أفضل من يوفر الحماية لي». وفي أفغانستان أيضاً سيوفر قادته الحماية له. وطلب منهم تخفيض العدد إلى 12.

قالوا إن الحماية يجب أن تغطي نائبه، وزوجته، ومنزله.

يقع مركز القيادة في قاعدة ماكديل الجوية في تامبا ضمن مجمع صغير محاط بحاجز، ويقع خلفه كوخ للحراسة –داخل قاعدة تتمتع بحراسة أمنية مشددة عند رأس شبه الجزيرة.

قال فالون عن الحارس: «لا أريد أحداً. أخرجوه من هنا».

شاهد سيارتين سوداوين رباعيتي الدفع تصطفان في موقف مبنى قيادته وتسدان المدخل الأمامي. فسأل: «بحق الجحيم، ماذا تفعل السيارتان هنا؟!». أجابوا إنهما

جزء من أجهزة فريقه الأمني ومعداته. فعليه أن يركب سيارة ليقطع المسافة البالغة نصف ميل إلى مقر القيادة. «تخلصوا منهما أيضاً، واجلبوا سيارة ركاب عادية أستطيع الجلوس فيها».

هل يريدها مصفحة؟

«لا».

اعتقد فالون أنه يشهد ميراث التجنيد الإجباري أو تركته الذي طبق حين دخل الخدمة عام 1967. فبالنسبة إلى الجيش كانت العمالة مجانية، والعاملون متوافرون وتحت الطلب، ولم تغير المؤسسة العسكرية طرائقها في استخدام القوات بطيش وتهور ودون فاعلية، كأنما هناك مورد لا ينضب منها.

شعرت رئيسة مجلس النواب نانسي بيلوسي أن الديمقراطيين، مع الأغلبية الجديدة التي يتمتعون بها في مجلسي النواب والشيوخ كليهما، سوف يتمكنون من فرض تخفيض على عدد القوات الأمريكية في العراق. ورأت في الزيادة محاولة من جانب الرئيس لإيقاع الفوضى في الحركة المناهضة للحرب وتشتيت جهود الديمقراطيين. وعرفت أن بوش أمر بزيادة عدد الجنود أربع مرات على الأقل منذ عام 2004 (20 ألفاً أو أكثر في كل مرة) لتعزيز الأمن في أثناء الانتخابات العراقية في أغلب الحالات. في إحدى المرات أرسلت القوات الإضافية بين شهري أيار وتشرين الأول من عام 2006، حين تفجر العنف إلى حد الخروج عن السيطرة تقريباً، فلماذا تكون هذه الزيادة مختلفة؟ طرحت السؤال مباشرة على الرئيس في الأيام الأولى لرئاستها المجلس.

قالت له: «السيد الرئيس، أرسلنا قوات إضافية من قبل»، وأوردت شواهد موجزة. «فما الذي يجعلك تظن أن هذه الزيادة ستحقق النجاح؟».

أجاب بوش: «لأنني أمرت الجنود بضرورة تحقيق النجاح».

قالت: «حسناً، لماذا لم تأمرهم في المرات السابقة؟».

فيما بعد، أبلغت بيلوسي أقرب مساعديها: «أنا قلقة جداً جداً من الحالة الذهنية لهذا الشخص الذي قرر متابعة خوض الحرب دون دعم من عامة الشعب». ففي أوائل عام 2007، أظهرت استطلاعات الرأي أن ثلثي الأمريكيين لا يعتقدون أن الحرب تسير على ما يرام، في حين لم يزد عدد الذين اعتقدوا خلاف ذلك على 30%.

كان من المقرر أن يتحدث بوش وبيلوسي في مراسم احتفالية تقام في مبنى الكابيتول يوم الخميس التاسع والعشرين من آذار 2007؛ تخليداً لذكرى طياري توسكيغي في الحرب العالمية الثانية. وقبيل المناسبة، التقى الرئيس ورئيسة المجلس على انفراد في مكتب بيلوسي.

قالت: «السيد الرئيس، من واجبنا أمام الرأي العام محاولة التوصل إلى نوع من الإجماع». كانت على قناعة بأن عامة الأمريكيين يريدون من الرئيس والكونغرس التوصل معاً إلى حل، وعلى استعداد لدعم تشريع قانون لا يطالب بتخفيض عدد القوات، والاكتفاء بجعل ذلك مجرد هدف.

أجاب بوش: «آرائي معروفة تماماً. لقد عبرت عنها بكل وضوح».

قالت بيلوسي: «آرائي معروفة أيضاً. لكن النقطة ليست هنا. المهم أن من واجبنا أمام الرأي العام محاولة العثور على نوع من الأرضية المشتركة».

لم يبد بوش أي اهتمام.

أبلغني الرئيس فيما بعد في مقابلة شخصية أنه لا يتذكر اقتراح بيلوسي بالعثور على أرضية مشتركة بعد قراره زيادة عدد القوات. «القرار أثار اضطراباً في الكونغرس. وكان كثير من الحزبين كليهما يأملون أن أسحب الجنود بدلاً من إرسال مزيد منهم. وما إن تلتزم بزيادة عدد الجنود، تصبح الأرضية المشتركة، من وجهة نظري، تمويل الزيادة وضمان أن يحصل الجنود على ما يحتاجون إليه لتحقيق النجاح» [2].

قام فالون بأول رحلة إلى العراق بصفته قائد القيادة المركزية، وبعد ذلك، طلب كين من بترايوس إعلامه بما حدث في اجتماعهما الأول.

قال بترايوس دون حماس: «سار على ما يرام».

قال كين: «اللعنة! هيا، قل لي، ماذا حدث؟».

قال بترايوس: «أعرف أنك تحب هذا الرجل. لكن سأقول لك يا سيدي إنه بالغ في إلقاء الخطب حين كان هنا». فقد ذكره بنظام مكبرات الصوت في إحدى سفن البحرية حيث يقول القبطان عبره: الآن، اسمعوا هذا». كان لدى فالون الكثير ليقوله -ما هو الخطأ في العراق، وكيف نصححه- لكن «ليست لديه خبرة».

أمل كين أن يحمي فالون ظهر بترايوس في واشنطن. إذ إن كل قائد في زمن الحرب بحاجة إلى مؤيد له يؤثر في السلطة التنفيذية، في الكونغرس ووسائل الإعلام. لكن بدلاً من المدافع والراعي والحامي، بدا وكأن بترايوس يواجه مشكلة أخرى.

في يوم الجمعة السادس من نيسان 2007، أقام غيتس حفل وداع صغيراً في مكتبه للجنرال شوميكر، الذي سيتقاعد من منصب رئيس هيئة أركان الجيش. قبل شوميكر مغادرة المنصب قبل بضعة شهور من الموعد المحدد لكي يحل كيسي محله. فوفقاً لقوانين الجيش وأنظمته السارية، يجب وضع كيسي، إذا لم يتوافر شاغر لجنرال بأربع نجوم، في منصب أقل رتبة، وهذا تخفيض غير مقبول في الرتبة والمكانة لقائد القوات في العراق، بعد أن ظل الرئيس يهيل المديح عليه طوال ثلاثين شهراً. دعا غيتس بعض رؤساء أركان الجيش السابقين، ومنهم الجنرال المتقاعد غوردون سوليفان، والجنرال المتقاعد إيريك شينسكي الذي سبب موجة من الاضطراب والإثارة حين أعلن على الملأ أن عدد الجنود الأمريكيين في العراق غير كاف.

سأل غيتس شوميكر، الذي استدعاه رمسفيلد وتشيني من التقاعد لتولي منصب هيئة أركان الجيش عام 2003، هل يريد أن يقول شيئاً؟

قال: «أنا فخور جداً بما فعلناه في الجيش». فوفقاً لحساباته، أظهرت توقعات البنتاغون ثماني مرات في أثناء عمله في المنصب أن عدد الجنود في العراق سوف ينخفض، وفي

كل مرة بقي العدد ثابتاً نسبياً. وشعر بالفخر لأن الجيش أدى واجباته على الرغم من الافتراضات المتكررة بفشله.

وأضاف: «دعني أخبرك أنني أشعر بخيبة أمل مريرة فيما يتعلق بتجربتي في دوائر واشنطن. وعلي إبلاغك أن هذه المدينة، بالنسبة إلي، حاشدة بالأقزام». هناك الكثير من التفكير التكتيكي لحل المشكلات السياسية كما قال، لكن التفكير الإستراتيجي البعيد المدى غائب تماماً. والمشكلة الرئيسة أن كثيراً من المسؤولين في واشنطن لم يفهموا قط عقلية المحارب، والمعنى العميق الكامن في صميم رفض الاستسلام، واحتلال موقع تفضل الموت على تركه. لقد اعتقد كثيرون أن الصراع هو ما يحدث في مجلس الشيوخ أو في البيت الأبيض. لكن الصراع الحقيقي هو الصراع من أجل البقاء المادي.

بدا أن رؤساء الأركان السابقين فوجئوا قليلاً بخطابه، لكن عند نهاية الطاولة كان غيتس يبتسم ويومئ رأسه موافقاً.

بعد أربعة أيام حل كيسي محل شوميكر، وفي يومه الأول في المنصب الجديد دعي إلى إيجاز في مكتب غيتس. سوف تمدد مناوبة أفراد الجيش في العراق وأفغانستان من اثني عشر شهراً إلى خمسة عشر، ويجب نشر خمسة ألوية عاملة من الجيش دون قضاء إجازة سنة كاملة في الوطن. تلك هي الطريقة الوحيدة لزيادة عدد القوات، مثلما أعلن الرئيس.

حذر الجنرال بيت تشياريللي، الذي أصبح الآن كبير المساعدين العسكريين لوزير الدفاع، حذر غيتس قائلاً إن من الضروري فعل شيء لتمديد مناوبة القوات في العراق.

قال: «إذا أردنا الحفاظ على عشرين لواء في العراق حتى نهاية الصيف، يجب تمديد مناوبة خمسة ألوية بين الوقت الراهن وشهر تموز. ويمكننا الآن أيضاً القيام بذلك بحسب طريقتنا السابقة ونستطيع إعلان التمديد بالتدريج. وسوف تأتي الأخبار السيئة كل شهر على مدى خمسة شهور مزعجة» مع إعلان التمديد كل مرة.

أو يمكن فعل ذلك على الفور عبر إعلان مناوبات شاملة مدتها خمسة عشر شهراً. قال تشياريللي إن الجنود في العراق فهموا الوضع، وإن من الأفضل لوزير الدفاع أن يقر به ويعلن التمديد ليوفر نوعاً من القابلية للتوقع.

قال: «الفتيان كلهم هناك يعرفون هذا. ويفهمون الحسبة ويعتقدون أنك أحمق لعدم إعلان الحقيقة».

سارع غيتس والجنرال بيس إلى الموافقة على التوصية وقالا إنهما ذاهبان إلى البيت الأبيض للحصول على مصادقة الرئيس. فوجئ كيسي بالاستعجال. فسياسة المناوبة في الجيش تقع تحت مسؤولية رئيس هيئة أركان الجيش. ولو لم يكن في يومه الأول من الوظيفة لقال: «انتظروا لحظة، ليس ثمة حاجة إلى الاستعجال». لكن هناك تسريبات إلى وسائل الإعلام والأخبار عن السياسة الجديدة، وقرر غيتس المضي قدماً وإعلانها.

في الساعة الثالثة من عصر اليوم اللاحق، ظهر غيتس وبيس في قاعة المؤتمرات الصحفية في البنتاغون. قال غيتس: «سوف تمدد مناوبات الوحدات كلها هناك» في العراق وأفغانستان «ومناوبات الوحدات التي ستنشر مددت الآن –وسوف تمدد إلى خمسة عشر شهراً» [3].

أخذ الإعلان شوميكر على حين غرة، إذ أتى بعد يوم واحد من تقاعده. لم يستشره أحد. والمشكلة التي أوجزها للرئيس قبل أربعة أشهر، حول عدم وجود قوات كافية لإرسال مزيد من الجنود، جرى التصدي لها دون أن يستشير أحد رئيس هيئة أركان الجيش المغادر والقادم.

قال لزوجته: «لن يطول المقام بهم كثيراً».

ما دعاه فالون «معركة كبرى على الطعام» مع بترايوس، تطورت وتفاقمت طوال ربيع عام 2007.

بدأ يتلقى طلبات إرسال مزيد من القوات من بترايوس، وكان عليه وعلى فريق مساعديه دراستها وتحويلها إلى وزير الدفاع، الذي يجب أن يوافق على كل عملية نشر جديدة للقوات. كانت هناك شكاوى من مساعدي بترايوس مفادها أن مختلف الوحدات في العراق أصبحت أقل عدداً مقارنة بحالها في الماضي. قال فالون: «هناك سبب وراء صغر عددها. إذ يفترض أن تكون أكثر فاعلية».

صب فالون غضبه أيضاً على مساعديه الذين يتعاملون مع الطلبات. قال لهم: «أنتم تضيعون وقتي عندما تطلبون مني أن أقرر—وأنا جنرال بأربع نجوم- هل نزيد خمسة جنود هنا أم خمسة عشر هناك؟ هذا جنون مطبق!». كانوا يسألونه باستمرار الموافقة، أو عدم الموافقة، على طلبات محددة. صاح أخيراً: «توقفوا، توقفوا، توقفوا! أحضروا الطلبات التي تتعاملون معها كلها».

تفحص قائمة الطلبات. قال وهو يقرؤها جهاراً: «ألفان هنا. عشرة هناك. ألف وخمس مئة هنا. خمسون هنا. ستون هناك. هذا جنون. سوف نوقف دمغ هذا الهراء بختم الموافقة».

كان فالون مصمماً على تحدي السبب الموجب لكل طلب لمزيد من الجنود، وعدم إرسال ما يزيد على الحاجة الملحة إلى منطقة الحرب. وفي كل مرة يطالب فيها بترايوس بالمزيد، كان فالون يعترض. قال ذات مرة: «انظر إلى هؤلاء الأفراد الإضافيين. ما الذي يفعلونه؟ لدي دراسة في جيبي فُوِّض جون أبي زيد بإجرائها تقول إن هناك 20 ألفاً من الأفراد الإضافيين على الأرض في العراق الآن».

ظن بترايوس أن العدد لا يتجاوز خمسة آلاف، وهؤلاء يعملون في مجالات الإمداد اللوجستي والتموين.

قرر فالون الرفض عدة مرات، فاعترض بترايوس واحتج. لم يكن يمانع الرفض بحد ذاته، لكنه أراد أن يعلم الجميع أن الطلبات، مهما كانت صغيرة، تقابل بالرفض.

قال بترايوس: «سيدي، نحن بحاجة إلى أن نكون واضحين جداً مع بعضنا بعضاً. إذا أردت أن تقول لي لا، فقل لا. لكن أبلغ عندئذ وزير الدفاع، والرئيس، والشعب الأمريكي أن قائد القوات طلب ولم يحصل على ما طلبه».

أبلغ فالون الجنرال بيس: «بيت، هذا جنون، وأحد الأسباب وراء وضعنا المزري. لدينا هؤلاء كلهم، بما لديهم من تجربة وخبرة وقدرة ذهنية، ومن المفترض أن يتخذوا القرارات العملياتية. وعلى أي شيء يهدرون وقتهم؟ تفاصيل الأفراد. تجارة اللحم. انظر إلى هذه الطلبات كلها».

على حد علم فالون، كان ذلك يستهلك ألف ساعة في بغداد، ومقره في تامبا، وفي واشنطن. قال: «مهمة التفكير الإستراتيجية لا يقوم بها أحد. يعقدون جميعاً شرائط أحذيتهم. أنا أفهم الآن السبب وراء الحال التي نحن فيها. يجب أن يطلق الرصاص علينا عقوبة على هذا كله».

هوامش:

1- شملت المجموعة ديفيد كيلكولين، الخبير الأسترالي في مكافحة التمرد؛ وروبرت ردفورد، السفير الأمريكي في الجزائر؛ ومولي في، الدبلوماسية المتمرسة التي أمضت مدة في العراق؛ وريك وادل، خريج ويست بوينت، الذي حصل على منحة للدراسة في أكسفورد وخدم مدة في مجلس الأمن القومي؛ وويلبر باجاركتاري، الصحفي السابق واللاجئ الألباني من كوسوفو الذي نال شهادة دبلوم من جامعة برينستون؛ والكولونيل مارتي ستانتون، المؤلف والمحارب المتمرس الذي شارك في حرب الخليج الأولى، والبوسنة، وحرب العراق؛ وبي. جيه. ديرمر، طيار المروحيات الحربية السابق الذي عمل في العراق في عامي 2004-2003 لمصلحة وكالة مخابرات الدفاع؛ وستيف بيدل من مجلس العلاقات الخارجية ومعهد بروكينغز؛ وتوبي دودج، الخبير بالشؤون العراقية من لندن؛ والكولونيل جيه. آر. مارتن، الأستاذ في الكلية الحربية وزميل بترايوس القديم على مقاعد الدراسة.

2- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

3- Department News Briefing, April 11, 2007, www.defenselink.mil.

-34-

كان وقتاً مروِّعاً للإدارة، وذلك مع استمرار انحسار التأييد الجمهوري بسرعة، حيث لم يبق سوى حفنة قليلة من الحلفاء الثابتين على موقفهم. لكن لم يبز أحد جون مكين في التأييد العلني. ففي أوائل نيسان 2007، أخذ بترايوس جون مكين (70 سنة)، المرشح الجمهوري للرئاسة، في جولة في سوق الشورجة في بغداد. حومت المروحيات الهجومية في السماء، وحشد أكثر من مئة جندي في عربات همفي المصفحة لتوفير الحماية له ولثلاثة آخرين من أعضاء الكونغرس. وفي مؤتمر صحفي عقد في أعقاب الجولة التي استمرت ساعة، قال مكين إن الرأي العام الأمريكي لا يتلقى «صورة كاملة» عن التحسن في الوضع الأمني. «الأمور تتحسن في العراق، وأشعر بالسرور من التقدم الذي تحقق» [1].

انتُقد مكين فيما بعد انتقاداً شديداً على هذا الحكم بعد جولة في سوق محصن بالجدران والأسوار والحواجز الإسمنتية، ومطوق بشرنقة أمنية فعلية من القوات الأمريكية. وأبلغ أحد المسؤولين العسكريين صحيفة واشنطن بوست أن تحليل مكين للوضع الأمني في بغداد كان «مغالياً قليلاً».

قدرت كوندي رايس تعليقات مكين الإيجابية. ودعته إلى لقاء خاص على انفراد في وزارة الخارجية في الساعة الثامنة والنصف من صباح الثاني عشر من نيسان. بدا مكين متوتراً حين وصل. وتوقعت رايس منه إعادة التوكيد على تفاؤله. وبعد بعض المجاملات الترحيبية، أطلق العنان لنفسه.

«ربما نكون على وشك خسارة الحرب الثانية في حياتي»، كما قال الرجل الذي عذب مدة خمس سنين حين كان أسير حرب في فيتنام. ثم شن السيناتور هجوماً انتقادياً عنيفاً على دور وزارة الخارجية في العراق. إذ إن مسؤوليها برأيه لا يشاركون بكامل قوتهم

وقدرتهم واهتمامهم، ولا يتصرفون وكأنهم في حالة حرب فعلية. القسم المدني لا يقوم بدوره. أصغت رايس بهدوء. فقد رددت انتقاداته أصداء كثير من الانتقادات الموجهة إلى وزارة الخارجية.

قالت رايس أخيراً: «هذا ليس صحيحاً يا جون». ثم أخبرته عن التغييرات المؤسسية التي حدثت، ومنها نظام محسن للشؤون الذاتية (شؤون الأفراد والعاملين) ضَمن إرسال أفضل المؤهلين إلى بغداد، فضلاً على تغيير فرق إعادة الإعمار المؤقتة، التي تقوم الآن كما قالت بنصيبها العادل من العمل في العراق. وامتدحت السفير الجديد، ريان كروكر، إذ يؤلّف هو وأعضاء سفارته فريقاً كفؤاً من الدرجة الأولى، مثلما أصرت.

بعد عشرين دقيقة، خرج الاثنان من مكتب رايس لعقد مؤتمر صحفي والتقاط الصور وتبادل الحديث مع المراسلين.

قالت رايس، حين سئلت عن التفجير الانتحاري ذلك اليوم في «كافتيريا» مبنى البرلمان العراقي في المنطقة الخضراء المحصنة في بغداد: «سنشهد أيام يسر وأيام عسر» [3].

سأل أحد المراسلين: «ما المضامين بالنسبة إلى الوضع الأمني في العراق إجمالاً والزيادة في عدد القوات؟ وكيف تسير الأمور؟».

أجابت إن الهجمات التي يشنها الإرهابيون متوقعة.

قال مكين: «انتظر لحظة. لم نرسل إلى بغداد بعد سوى ثلث الألوية الخمسة». والهجمات الاستعراضية المشهودة مصممة «لإضعاف إرادة الشعب الأمريكي». لكن هناك صورة أكبر كما قال. «نحن نحقق بعض النجاحات الصغيرة نتيجة الإستراتيجية التي يطبقها الجنرال بترايوس والجنرال أوديرنو».

لم يذكر مكين شيئاً عن مخاوفه السرية من حقيقة أن الولايات المتحدة على شفا الخسارة.

في مؤتمر صحفي مع عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين يوم الخميس التاسع عشر من نيسان، قال رئيس الأغلبية في المجلس هاري ريد إنه يعتقد أن «هذه الحرب قد خسرناها وأن الزيادة لا تحقق شيئاً، مثلما أشار العنف المتطرف في العراق يوم أمس» [3].

قارن ريد أيضاً بوش بالرئيس السابق ليندون جونسون، الذي أرسل قبل أربعين عاماً قوات إضافية إلى فيتنام بعد مقتل أربع وعشرين ألفاً من الجنود الأمريكيين. «لم يكن جونسون يريد أن تتضاعف خسائر الحرب، ولذلك أرسل مزيداً من القوات إلى فيتنام. فقتل 34000 جندي إضافة إلى القتلى الـ 24000».

قوبل تصريح ريد بانتقاد واسع من الأصدقاء والمعارضين على حد سواء.

في السر، هاجم كارل ليفين، السيناتور الديمقراطي (عن ولاية ميشيغان) ورئيس لجنة الخدمات المسلحة، زميله، وقال إنه يرفض رسالته وطريقة تقديمها. فهي رسالة مروعة، تضعف الروح المعنوية للجنود. وفيما بعد، أبلغ ريد زملاءه أن ليفين «وبخه توبيخاً عنيفاً».

كتب ريد في مذكراته «المعركة الصائبة» يقول: «هل كان علي اختيار كلماتي بعناية أكبر؟ ربما. لكنني قلتها، وعنيتها، وأنا لا أعتذر عنها» [4].

غضب الرئيس غضباً شديداً لكن لم يعلن غضبه أمام الملأ. سألته فيما بعد: «هل صدمت حين سمعت التصريح؟» [5].

قال بوش: «لم يعد يصدمني شيء في واشنطن. لقد أوجدت هذه الحرب كثيراً من المشاعر القاسية، يصدر عنها كثير من الخطابات الفظة. من إخفاقاتي العجزُ عن تغيير نبرة الخطاب في واشنطن. وهذا فشل الآخرين أيضاً... لكن الخطاب البلاغي خرج أحياناً عن نطاق السيطرة كلياً. ولم يكن قلقي منصباً على ذاتي، أعني اعتدت الأمر. وأنا أفهم تماماً حقيقة أن من يتخذ هذه القرارات، سيتعرض لكثير من الانتقادات الجدية، وأنا أقبل بذلك كله. أنا قلق على الذين يعرضون حياتهم للخطر في سبيل مسعى على درجة لا تصدق من الأهمية فيما يتعلق بتبعاته على المدى البعيد بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والأمن».

«لدينا فتية يلبون النداء ويتطوعون لخوض المعركة؛ لأنهم يؤمنون بالقضية. وعندما يرون إشارات متناقضة تأتي من واشنطن، لا بد أن تتساءل ما الذي يعنيه ذلك لهم. تذكر الأمر الآخر: نحن نتعامل مع ذهنية بالغة الهشاشة في العراق في هذا الوقت

بالذات. شعرت دوماً أن من المهم جداً للعراقيين فهم أن الولايات المتحدة شريك موثوق يمكن الاعتماد عليه».

بحلول الربيع، وتدهور الوضع في العراق أكثر من أي وقت مضى، واجهت إدارة بوش ضغطاً متزايداً من حلفائها في الشرق الأوسط. كانت انتقادات المملكة العربية السعودية، إحدى أكبر الدول المصدرة للبترول إلى الولايات المتحدة وأكثر حلفائها العرب موثوقية ومعولية، خرجت إلى العلن. ففي آذار، انتقد الملك عبد الله (82 سنة) الوجود الأمريكي الضخم في العراق انتقاداً مريراً، ودعاه «احتلالاً أجنبياً غير شرعي» [6]. وفي أواخر نيسان، أرسلت رايس ديفيد ساترفيلد للقاء الملك.

خاضت السعودية والولايات المتحدة معاً حرب الخليج عام 1991؛ لإخراج صدام من الكويت المحتلة. وفي عام 1994، اقترح السعوديون على الرئيس كلينتون شن عمليات سرية أمريكية–سعودية مشتركة لإسقاط صدام. وفي عام 2002، السنة السابقة على غزو العراق، اقترح السعوديون أن ينفق البلدان مليار دولار لإزاحة صدام عن الحكم سراً. وبعد غزو عام 2003، تصورت المملكة العربية السعودية (السنية) دولة عراقية يحكمها رئيس سني قوي لكنه أقل عدوانية من صدام وأكثر استعداداً لرعاية المصالح السعودية. وبدلاً من ذلك كله، تحقق الكابوس السعودي المرعب، وذلك مع قيام حكومة شيعية في العراق وتعاظم تأثير شيعة إيران ونفوذهم.

فهم ساترفيلد سبب قلق الملك السعودي. فقد طارد بلاده شبح «هلال» من الدول الشيعية في الشمال، يمتد من إيران إلى سوريا مروراً بالعراق. كانت إيران تزود المتمردين في العراق بأسلحة فتاكة وترسل أفراداً من قوة القدس، نخبة الحرس الثوري الإيراني. وعرف الأمريكيون ذلك وأعلنوه على الملأ. حاولت الولايات المتحدة مواجهة التورط الإيراني ضمن حدود العراق، لكنها لم تفعل الكثير، أو لم تفعل شيئاً داخل إيران. وهكذا، أخذ الإيرانيون يستفزون أمريكا، ويظهرون أنهم يملكون اليد العليا. وخشي السعوديون، مثل باقي دول الخليج الأخرى، من أن الولايات المتحدة لن تكتفي بالخروج من العراق بل قد تتخلى عن المنطقة بأسرها.

عقد ساترفيلد مع الملك عبد الله اجتماعاً صعباً ومتعباً يوم الأحد الثاني والعشرين من نيسان. لقد سلمت الولايات المتحدة العراق إلى إيران على طبق من ذهب، كما قال الملك. «سمحتم للفرس، للصفويين (حكام فارس الشيعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر) بالاستيلاء على العراق».

حاول ساترفيلد الرد. يمكن للعراق أن يكون دولة قوية مستقلة.

قال الملك: «حذرتكم من ذلك. حذرت الرئيس، ونائب الرئيس، لكن آذانكم كانت صماء. ولست مهتماً بمزيد من النقاش حول هذا الأمر».

فهم ساترفيلد أن الملك لا يمكن أن يتصور دولة شيعية تكون مستقلة عن إيران. وبرأي الملك، لا يوجد ببساطة زعيم وطني شيعي يمكن أن يعمل ضد إيران.

قال ساترفيلد محاولاً طمأنته: «نحن هنا. نحن هنا منذ أكثر من خمسين عاماً. ولن نذهب. وأؤكد لك أن الرئيس ليس ملتزماً بالعراق فقط، بل بالمنطقة كلها. لهذا السبب نحن نطلق رِزْمة من الخطوات». وتُحضر حالياً عقود مبيعات ضخمة من الأسلحة لدول الخليج، ومصر، حتى لإسرائيل. «هذه إشارات دالة على أننا باقون هنا، ولن نخرج من المنطقة».

أوضح الملك أن موضوع عراق يحكمه الشيعة ولا يكون حليفاً لإيران أمر مستحيل ولا يستحق النقاش. وانتهى الاجتماع.

كتب ساترفيلد مذكرة إلى رايس. فرفعتها إلى الرئيس، الذي أرسل تشيني ليتحدث إلى الملك عبد الله. كان تشيني يعد بطلاً في السعودية. ففي عام 1990، حين غزا صدام الكويت وهدد السعودية، أرسل الرئيس بوش الأب وزير دفاعه تشيني إلى السعودية ليقدم وعداً أن الولايات المتحدة ستحمي المملكة –عملية درع الصحراء. وقاد بوش الأب وتشيني التحالف الذي ضم المملكة في حرب الخليج الناجحة عام 1991.

حين وصل تشيني إلى السعودية، سأله الملك عبد الله عن والد الرئيس الحالي، الذي يعد بطلاً في المملكة أيضاً. وفي أثناء اللقاء الذي استمر أربع ساعات، وتضمن حفل غداء

في الثاني عشر من أيار، حاول نائب الرئيس شرح سياسة بوش الابن فيما يتعلق بالعراق. لكنه لم يتمكن من زحزحة السعوديين عن موقفهم. وبكل احترام قال الملك إنه لن يخوض في الموضوع.

قال فالون لبترايوس في ذلك الربيع: «أريد إرسال بعض الأشخاص. أريدهم أن يكونوا مراقبين لا يلاحظهم أحد. أريدهم أن يجمعوا أكبر قدر ممكن من المعلومات. أريدهم أن يطلعوا بقدر الإمكان على كل ما يحدث بحيث يمكننا محاولة تقرير أين يجب أن نكون».

قال بترايوس: «كما تشاء يا سيدي».

رأس فريق فالون الأدميرال جيمس إيه. وينفيلد (الابن) الذي خدم سابقاً مساعداً تنفيذياً لفالون. اعتقد فالون أن وينفيلد أذكى شخص في المؤسسة العسكرية وهو قادر على اختراق الضباب للوصول إلى جوهر أي مشكلة.

تجول وينفيلد في البلد بضعة أسابيع، ووجده بترايوس مغرماً بالسرية. كان يحترمه شخصياً، لكنه لم يخدم في العراق قط، وبدا أنه لم يمنح الوقت الكافي لإجراء مسح للوضع. ولم يعتقد بترايوس أن وينفيلد مؤهل لبناء إستراتيجية جديدة أو إجراء تقويم كامل للحرب على الأرض.

بحلول نهاية مراجعته، استنتج أن هناك عدداً فائضاً من الأفراد العسكريين في العراق، ومغالاة في طلبات إرسال قوات إضافية.

أبلغ بترايوس الأدميرال: «سوف نطلب ما نحتاج إليه إلى أن تتوقف حاجتنا إليه». فقد أرسل إلى هنا ليكسب حرباً. «وإذا أراد أحد أن نسحب القوات، فعليه أن يقول لنا، وعليه أن يقول للعالم كله إنه طلب منا ذلك. هذه هي الطريقة. فإذا كانت المسألة مهمة، يجب أن يعلم بها الشعب الأمريكي».

ذكر وينفيلد في تقريره إلى فالون: «إذا اعتقدت لحظة أن هؤلاء سوف يتطوعون في الإسراع بأي شيء، أو التخلي عن أي شخص، فأنت واهم. هذا لن يحدث. يجب أن يؤمروا من فوق».

في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من نيسان، وافق مجلس النواب بأغلبية ضئيلة على مشروع قانون بتخصيص 114 مليار دولار للإنفاق على الحرب، وطالب القانون بانسحاب الجنود الأمريكيين من العراق بدءاً من أول تشرين الأول. كانت نتيجة التصويت 218 مقابل 208 (7).

قالت رئيسة المجلس بيلوسي: «في الخريف الماضي، صوت الشعب الأمريكي لمصلحة وجهة جديدة في العراق. وأوضح دون لبس ضرورة تقديم كل ما يحتاج إليه جنودنا لأداء مهمتهم، لكن يجب إعادة جنودنا إلى أرض الوطن، بأمان وبسرعة».

بعد يوم، وافق مجلس الشيوخ على مشروع القانون. لكن بوش اعترض عليه.

كان بمقدور بيلوسي جمع الأصوات في مجلس النواب لقانون آخر يطالب بالانسحاب، لكن أنظمة مجلس الشيوخ تتطلب 60 صوتاً لمنع استخدام أسلوب التأجيل التكتيكي في مشروعات قوانين لا تتعلق بالإنفاق، ولم يقترب قط الديمقراطيون في مجلس الشيوخ، الذين لا تزيد أغلبيتهم عن صوت واحد، من الحصول على هذه الأصوات العديدة.

وفي لقاء آخر عقد فيما بعد، ذكرت بيلوسي الرئيس مرة أخرى بأن عامة الأمريكيين يعارضون الحرب. «لقد فقدوا الإيمان والثقة في إدارة الحرب». في هذه المرة لم تتوقع إجابة، ولم تحصل على واحدة.

أبلغت مساعديها: «ثمة خطأ ما هناك». أصرت، وهي الكاثوليكية المؤمنة، أنها تصلي من أجل الرئيس: «أقول هذا مع تعاطف شخصي معه واحترام للمنصب الذي يشغله. وربما أحترم المنصب أكثر مما يحترمه هو... لقد قرر أن يصب جام غضبه على كل من يخالفه الرأي في أي وقت... إنه عنيد، عنيد جداً. ثمة خطأ ما. الأمور لا تسير على ما يرام». وقالت إن المؤرخين سوف يفكرون إلى الأبد في سلوك بوش ويحاولون الإجابة عن هذا السؤال: كيف يمكن لرئيس الولايات المتحدة أن يختطف النوايا الطيبة للشعب الأمريكي ويستغل مخاوفه؟

لم يرق لكثير من الجمهوريين عدم إحراز تقدم بعد مرور ثلاثة أشهر من زيادة القوات. وعلى وجه الخصوص، شعر النائب بيتر هويكسترا (من ميشيغان)، الذي خسر رئاسته

لجنةَ الاستخبارات في مجلس النواب حين فاز الديمقراطيون بالأغلبية في الخريف، شعر بقلق شديد. فقد قام هويكسترا، المتشدد المعروف بجديته وأدائه واجباتِه بكل حماس، بست رحلات إلى العراق. واعتقد أن الحرب الأشمل على الإرهاب لا تنال الانتباه الكافي. وتلقى إهانة في الخريف في أثناء لقاء في البيت الأبيض حين اشتكى أحد زملائه إلى بوش من أن الرئيس لم يطلب أي تضحية من عامة الأمريكيين. أجاب بوش: «ليست التضحية سوى كلمة رمزية تغطي زيادة الضرائب». ولذلك، تحدث هويكسترا في السر مع النائب جون بوهنر، زعيم الجمهوريين في مجلس النواب.

قال: «يوشك الرئيس على خسارة الجمهوريين كلهم في لجنة الاستخبارات». فالجمهوريون التسعة الذين عرفوا أكثر من غيرهم الوضع الحرج في العراق كانوا على وشك القفز من السفينة بسبب قرار زيادة عدد القوات. وسرعان ما دعي التسعة إلى البيت الأبيض لعقد لقاء على انفراد مع بوش. وعبر كثير منهم عن قلق بالغ من الزيادة. من أي أتت؟ وما معناها؟

أصغى بوش وأعطى إجابات صادمة حول الحاجة إلى تحقيق الفوز. واستنتج هويكسترا من قبل أن الحرب كانت خطأ. وشعر أن الرئيس لم يكن يصغي فعلاً إلى أسئلة أعضاء حزبه أو آرائهم.

تعلقت بعض الأسئلة بأسامة بن لادن. لماذا تبدو الولايات المتحدة وكأنها تخلت عن البحث عنه؟

أصر بوش على أن المطاردة مستمرة، وطمأنهم هادلي أن لائحة القضايا التي أثاروها كلها تلقى الاهتمام. لم يهدِّئ اللقاء الذي دام ساعة ونصف الساعة شكوكَ الجمهوريين، لكنه منعهم من القيام بثورة علنية.

هجس في صدر فالون القرار الذي أصدره الكونغرس عام 1975 بقطع التمويل عن حرب فيتنام. وعلى شاكلة كثيرين، ومنهم الرئيس جيرالد فورد، شعر بأن قطع التمويل أجبر الأمريكيين على الانسحاب مبكراً. وخشي فالون الآن من «أن نكرر ما حصل في فيتنام

في السبعينيات، حين كنا بالفعل في وضع جيد تكتيكياً، قبل أن يقطع الكونغرس أرجلنا. نحن لا نريد أن نكون في وضع نتخلى فيه عن جهد ثلاث سنوات أو أربع وننسحب». أراد العثور على «موقع يشعر فيه الشعب الأمريكي والكونغرس أننا نبذل أقصى جهد». أراد مهلة لتحقيق نتيجة معقولة.

شعر فالون أنه بحاجة إلى تقويم المناخ السياسي في واشنطن. وهذا سيمارس تأثيراً مهماً فيما يمكن أن يفعله في المنطقة عموماً وفي العراق خصوصاً. كان عليه اكتشاف ما يمكن احتماله والتساهل معه سياسياً. عرف أن عليه التعامل مع الكونغرس، واعتقد أن علاقاته جيدة وودية إلى درجة كافية مع الجمهوريين والديمقراطيين بحيث يستطيع معرفة أين يقفون. ولم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يدرك القصة في كابيتول هيل: تلاشى الدعم السياسي للحرب كلياً.

قبيل الساعة الثالثة عصراً من يوم الأربعاء التاسع من أيار 2007، دخل طبيب عراقي في الستين من عمره، له لحية غزاها الشيب وفي ملامحه شبه بالمخرج السينمائي ستيفن سبيلبرغ، إلى الجناح الغربي من البيت الأبيض في زيارة إلى ستيف هادلي. كان موفق الربيعي، مستشار الأمن القومي العراقي، تواقاً إلى لقاء نظيره الأمريكي. لم يسعده توسيع الاجتماع ليضم السفير العراقي في واشنطن ونائب رئيس الوزراء برهم صالح. سأل أحد معاونيه: «من دعا هذين؟ كيف انضما إلى الاجتماع، تحقق من الأمر».

ستيف هادلي هو الذي دعاهما. حضرت اللقاء أيضاً ميغان أوسوليفان.

سألهم هادلي: «ماذا ستفعل الولايات المتحدة والعراق في الأشهر التسعة أو الاثني عشر القادمة لوضع العراق في أفضل موقع ممكن لتجنب انسحاب متعجل للجنود الأمريكيين؟ ما الخطوات التي يجب علينا اتخاذها بحيث لا يبدو أن التحالف يتراجع ولا يبدو أننا تخلينا عن العراق في محنته؟».

«نحن بحاجة إلى خطوات متعينة. ولا نريد أن نلغي التحالف قبل الأوان، أو نسبب انسحاباً متعجلاً. مفتاح النجاح، من وجهة نظر الولايات المتحدة، هو تخفيض حجم

العنف الطائفي. أعرف أننا بحاجة إلى المكان والزمان لاستكمال بناء القوة الأمنية العراقية –بناء قدراتها. يجب أن يستمر العراق في الريادة والنجاح بحيث يتمكن من الحصول على السيادة الحقيقية». مع أن العراق –تقنياً– دولة ذات سيادة منذ عام 2004، إلا أن هادلي كان يعبر عن فكرة معروفة للجميع. فبوجود قرابة 170 ألف جندي أمريكي في العراق الآن، كان العراق أبعد ما يكون عن «السيادة الحقيقية».

تحول هادلي إلى العلاقات السنية-الشيعية، وقال إن عليهم «العثور على أرضية للمصالحة السياسية».

قال صالح ملاحظاً: «لا نملك الإطار السياسي. ولسنا في موقع نحقق منه النجاح. نحن نفتقر إلى مشاركة السنة». لا توجد شخصية وطنية يمكنها أن توحد البلد. «ليس لدينا مانديلا».

«الأشرار يفرضون أجندتهم». وهؤلاء، برأي صالح، هم المتمردون السنة وإرهابيو القاعدة. قال: «هناك حرب بالوكالة». معركة بين القاعدة والولايات المتحدة تجري على التراب العراقي.

قال هادلي: «لدينا أرضية مشتركة واسعة، والكثير من العمل لنقوم به. تأخر الوقت، لكن الوضع الأمني قد تغير، وعلينا أن نأخذ ذلك بالحسبان». كان يشير إلى تصاعد حدة العنف. ثم التفت إلى الربيعي، الذي التقى عدداً من أعضاء الكونغرس، وقال: «ذهابك إلى الكونغرس أمر مفيد. وأنت ترى مدى تفجر الوضع، والاندفاع نحو اليسار فيما يتعلق بالعراق».

وافقه الربيعي الرأي.

قال هادلي: «لا يريد أحد العودة إلى الصفر»، بمعنى سحب الجنود الأمريكيين كلهم. «وعواقب الفشل لا يمكن تصورها. لكن إذا لم نتمكن من التعامل مع الوضع على المدى القريب، فسوف نفشل». وأضاف إن عليهم العمل على خمس قضايا: الميزانية، والدستور، والنفط، واجتثاث البعث، والمصالحة. لقد مثلت ميزانية العراق الوطنية مشكلة هائلة بسبب عدم إنفاق نسبة تراوح بين 25-30% منها، في حين ضخت الولايات المتحدة مليارات

الدولارات في الحرب. وفيما يتعلق بالدستور العراقي، قال: «حسبنا أن العملية الدستورية ستغل ثماراً عظيمة. ونحاول الآن إصلاحها وترقيعها؛ لكن الرقع لا تكفي». كان التقويم محبطاً على الجبهات كافة. وظهرت نبرة سوداوية متشائمة في سؤاله اللاحق: «كيف نسير قدماً؟».

لم يجب أحد.

قال هادلي: «يجب علينا أن نحول التقدم إلى مسرحية. نحن بحاجة إلى حدث درامي. لا أعرف ما هو». نظر إلى صالح والربيعي. «عليكما اكتشافه».

لم يقدم العراقيون الثلاثة أي أفكار.

سأل هادلي: «ميغان، ما الذي أغفلته؟».

قالت أوسوليفان: «يجب علينا تحويل حدث ما إلى مسرحية، حدث درامي».

قال الربيعي: «لا توجد عصا سحرية». كان متيقناً حدوثَ تقدم بحلول الخريف على صعيد الميزانية وقانون للنفط، وتحديد موعد للانتخابات في المحافظات. لكن المالكي نفسه لا يملك القوة الكافية للقيام بذلك كله. قال الربيعي وهو ينظر إلى الأمريكيين: «عليكم اللجوء إلى ليِّ الأذرع» على مستويات الحكومة العراقية كلها.

وأضاف: «التحدي الأكبر هو الوقت. وهم [إرهابيو القاعدة وغيرهم من المتطرفين] قادرون على انتظارنا حتى نفشل». قال أيضاً إن هناك سوء فهم، إذ لا يعد كثير من العراقيين القاعدة وجيش المهدي منظمتين متطرفتين.

أوجدت الجهود التي ركزت على جلب البعثيين السابقين إلى الحكومة مشكلات معقدة. وقال: «استطعنا تحويل البعثيين إلى ضحايا».

قال هادلي: «على المدى الطويل، علينا إعادة نشر قواتنا ووضعها في قواعد إستراتيجية». إذ لا يمكن للوعد بحماية السكان ولا إرسال مزيد من القوات أن يستمران إلى الأبد. «وهذا قد يعني إعادة القوات الأمريكية إلى قواعد عملياتية أمامية». وقال عن عملية الحكم: «عليكم إشراك الخصوم كلهم في الحكومة، والتوصل إلى صيغة ما».

ثم عاد إلى الموضوع الذي جعل أمارات اليأس بادية عليه: «لكن عليكم تحقيق شيء من التقدم الملموس».

قال الربيعي إنهم بحاجة إلى إضافة العفو إلى قائمة القضايا الرئيسة، بمعنى ضرورة منح فرصة للمتمردين وغيرهم من الإرهابيين المناهضين للحكومة لتجنب العقاب أو السجن. «هذا أمر صعب، لكنه ربما يكون ضرورياً. فإذا منحوا العفو، مع مثالبه كلها، فسيفقدون الذرائع والمبررات» لممارسة المعارضة العنيفة. «يجب قبول مخاطرة العفو. بل يجب التفكير في عفو عام غير مشروط».

لم يشعر هادلي بالارتياح للفكرة. قال: «المشكلة أن الأشرار حين تطلق سراحهم سيمارسون أعمال القتل مجدداً».

قال برهم صالح: «أنا لا أؤيد العفو العام غير المشروط».

قال هادلي بدلاً من التحكيم بينهما: «حسناً، ماذا نسينا يا ميغان».

«الشيء الوحيد الذي أود قوله، وأشدد عليه، وأؤكده، هو الحاجة إلى المَسْرَحَة الدرامية». أيدت أوسوليفان زيادة عدد القوات، وشعرت بخيبة الأمل من عدم ظهور أي نتائج حتى الآن.

اتفق الحاضرون، وكأنهم يظهرون مدى فشل توقعاتهم، على أهمية زيارة المالكي للرمادي، التي كانت ذات يوم مركز عنف التمرد وتحولت الآن إلى مدينة هادئة مسالمة. لكن يجب على المالكي القيام بكثير من مثل هذه الزيارات. واقترح أحدهم أن يزور رئيس الوزراء مدينة القائم في محافظة الأنبار في أقصى الجزء الغربي من العراق.

قال هادلي: «أجل، اطلبوا من رئيس الوزراء زيارة القائم، وستكون خطوة عظيمة».

طلب الربيعي لقاء وجيزاً مع هادلي على انفراد. وحين أصبحا وحدهما، قال إن لديه خبراً مدهشاً. لقد أمضى ثلاث ساعات قبل عدة أيام في القاهرة مع رئيس المخابرات المصرية عمر سليمان. وعرف أن مصر متورطة في عمل سري لمحاولة تغيير الحكومة العراقية عبر إسقاط المالكي، كما قال الربيعي.

قال هادلي: «حسناً، سوف آخذ الخبر على محمل الجد».

فيما بعد، تلقى المصريون تحذيراً من مغبة التدخل في شؤون العراق الداخلية.

* * *

في ظهيرة الرابع عشر من أيار 2007، أرسلت مذكرة سرية إلى الرئيس:

«قتل جنديان أمريكيان وجرح أربعة في هجوم بالأسلحة الخفيفة...

قتل جندي من مشاة البحرية برصاص قناص في الفلوجة...

قتل جندي أمريكي وجرح اثنان في هجوم بعبوة محلية الصنع في بغداد...

فضلاً على ذلك كله، قتل جندي أمريكي وجرح أربعة في هجوم بالقذائف الصاروخية والعبوات الناسفة المحلية الصنع في بغداد.

أخيراً، قتل جندي دنمركي وجرح ستة في هجوم بالأسلحة الخفيفة في البصرة».

قالت المذكرة الموجزة إن جماعة تابعة للقاعدة تدعى «دولة العراق الإسلامية» أصدرت بياناً عن ثلاثة جنود أمريكيين مفقودين: «جنودكم في قبضتنا. فإذا أردتم أن يكونوا بأمان لا تبحثوا عنهم».

أبلغت المذكرة السرية اليومية التي توجز آخر أخبار العراق لبوش أن أربعة آلاف جندي أمريكي يبحثون عن الجنود المفقودين. أما المخطط البياني للخسائر فأشار إلى ما يأتي:

«عدد القتلى (في الأعمال الحربية): 2755.

عدد الجرحى: 25389».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع عشرة من المصادر المطلعة

1- انظر:

Kirk Semple, «McCain Wrong on Iraq Security, Merchants Says,» The New York times, April 3, 2007, p. A1; "Briefing By Senator John McCain (R-AZ), Representative Mike Pence (R-IN), Representative Rick Renzi (R-AZ); Topic: Their Visit to Iraq," Federal News Service, April 2, 2007, www.fnsg.com; Sudarsan Raghavan, "Sum of Death Statistics: A Perilous Iraq; Merchants, U.S. Officials Take Issue with McCain's Remarks on Security Gains," The Washington Post, April 4, 2007, p. A49.

Remarks with Senator John McCain After Their Meeting,» State Department» -2 transcripts, April 12, 2007, www.stste.gov.

Senate Democrats Hold a News Conference on Iraq,» Congressional Quarterly» -3 Transcriptions, April 19, 2007, accessed via Nexis.

Harry Reid, The Good Fight (New York: G. P. Putnam's Sons), p. 20. -4

5- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008./5/21

Glenn Kessler and Karen DeYoung, «Saudis Publicly Get Tough with U.S.; -6 King's Remarks on Iraq Follow Signs Riyadh Is Distancing Itself from Bush, «The Washington Post, March 30, 2007, P. A14.

Carl Hulse and Jeff Zeleny, «House Approves War Spending Measure that -7 Requires U.S. to Start Pullout from Iraq,» The New York Times, April 26, 2007, P. 12.

-35-

في أيار، ذهب كين إلى العراق لقضاء أحد عشر يوماً آخر لمراقبة الوضع على الأرض. وفي الخامس والعشرين منه قدم تقريره إلى تشيني.

قال: «هناك تغير مهم في الزخم». فقد أمضى معظم وقته في أحياء بغداد. «سوف تزيد الخسائر مع استمرارنا في الدخول إلى مناطق لم ندخلها من قبل. مازالت العبوات الناسفة المحلية الصنع تمثل 75% من الأسلحة المستخدمة ضدنا». ويمكن للعبوات الناسفة المحلية الصنع والقذائف الصاروخية المتفجرة المتقدمة التي زود بها الإيرانيون حلفاءهم أن تخترق العربات المصفحة الأمريكية كلها، وهي قادرة على قتل من فيها جميعهم. «صحيح أن معدل استخدام العبوات الناسفة المحلية الصنع قد انخفض، إلا أن قدرتها على الفتك قد زادت».

ألح كين قائلاً: «نحن بحاجة إلى الوقت هنا. ويجب الانتظار إلى عام 2008 حتى تتاح للعمليات فرصة من النجاح».

أبلغ كين تشيني أن الجنود الأمريكيين في العراق مثاليون. وحين غير الرئيس المهمة، وغير الإستراتيجية، وغير القادة، وطلب منهم ركوب مزيد من المخاطرة، استجابوا له. فالقوات ملتزمة، وروحها المعنوية بقيت مرتفعة. قال: «يحبون اتخاذ موقف الهجوم، ويعتقدون أنهم زودوا بمستلزمات الفوز، لكن التسريبات الأخيرة سحبت البساط من تحت أقدامهم؛ وهذا محبط جداً».

قال تشيني إن بترايوس وأوديرنو تحدثا أخيراً إلى الرئيس عن ذلك. «عقد بترايوس حديثاً اجتماعاً مع الرئيس عبر نظام الفيديو الآمن، وقال إنه يتساءل متعجباً مع راي عما يحدث». وأضاف إن الرئيس أبلغهما أنه ملتزم كلياً بالمهمة.

وعلى وجه الإجمال، كما قال كين، ضعف التمرد السني كثيراً. «التأييد الشعبي يتأكّل. وعلاقات تنظيم القاعدة في العراق تتشظى وتنقسم. ويعبر السنة عن استعداهم للانضمام إلى قوات الأمن العراقية في العملية السياسية. وهذا أمر بالغ الأهمية. المفاوضات واعدة، لكن يجب علينا الحذر من إستراتيجية التخريب- القتال-المساومة» من جانب السنة. أما «العدو العسكري الرئيس فهو تنظيم القاعدة في العراق. وله قدرة كبيرة على إضعاف الدعم السياسي في العراق والولايات المتحدة. لكنه وهن وخسر ملاذه الآمن في الأنبار».

وقال إن القادة الأمريكيين «يدركون تماماً أنهم يملكون زمام المبادرة ضد القاعدة، وهم يركزون على جهد مهم ومنسق في مطاردة أفرادها».

الخبر السيئ أن جيش المهدي «يحظى بدعم إيراني لا تحده قيود في جنوب العراق ومدينة الصدر»، مع أنه ليس كتلة صلدة واحدة.

وفيما يتعلق بالجانب السياسي، قال: «يبدو أن المالكي يبتعد عن الصدر، وهذه علامة مهمة وإشارة مشجعة. وعلينا بذل جهود شاملة لتشويه سمعة الصدر ومصداقيته؛ لأنه برز بوضوح بوصفه عدونا السياسي رقم واحد في العراق».

قال كين إن رئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية في بغداد أبلغه بعملية بالغة السرية يمكن القيام بها لمنع المقاتلين الأجانب من القدوم عبر سوريا. أما التأثير الكامل لزيادة عدد القوات فلن يمكن الشعور به قبل نهاية تموز؛ لأن آخر الألوية الخمسة لن يصل حتى حزيران. «تظهر كل منطقة من مناطق العمليات التي زرتها في شباط الماضي، أي قبل تسعين يوماً، خصوصاً في بغداد، تحسناً وتقدماً»، كما قال كين.

«هناك مشكلة الشيعة أو جيش المهدي في شرق بغداد وهناك ملاذ آمن في مدينة الصدر. يعرف القادة هذه المشكلة، وحين تصل القوات كلها في حزيران، سوف يتصدون لها. ومازالت هناك أيضاً قطاعات سنية مقاتلة تستضيف القاعدة حتى الآن». وسمى ست مناطق: شرق الرشيد، والدورة، والغزالية، والمنصور، والعامرية، والعادل».

«ويدور قتال صعب ومعقد ضد القاعدة وجيش المهدي في محافظة ديالى. ويمقدورنا على الأرجح استخدام مزيد من القوات على الأرض»، لكن بدلاً من ذلك، خطط القادة لأخذ الجنود الذين يوفرون الحماية للقوات في القواعد الأمريكية.

«ويضعف السلوك الطائفي الذي تتبعه الحكومة العراقية إلى الآن شرعيتها». في بعض الأحيان، أظهر الضباط الأمريكيون الذين عملوا في الماضي مع الشركاء العراقيين المتورطين في النشاط الطائفي نوعاً من عدم المبالاة. «لكن الجنرال بترايوس غير هذه السياسة»، كما قال منتقداً كيسي. «هذه فضلة باقية من القيادة السابقة».

«تتعرض حكومة المالكي إلى ضغط استثنائي. وتبقى نياته ومقاصده غامضة. ثم إنه خاضع لمعلومات مغلوطة وتأثيرات حاقدة»، كما قال كين. لكن بترايوس يتفوق على أي قائد أمريكي جاء قبله في القدرة والمقدرة. «نحن نحتل عاصمتهم بقواتنا بطريقة لم نتبعها قبلاً».

وعد بترايوس علناً بالعودة إلى واشنطن في أيلول ليقدم تقريره أمام الكونغرس. واعتقد كين أن ذلك يمثل مشكلة فيما يتعلق بالتوقعات. «وبمعنى من المعاني، يعد ذلك جدولاً زمنياً بحد ذاته لتقويم نجاح « الزيادة في عدد القوات» أو فشلها، إذ يفترض أن يكون تقريراً عن التقدم الذي تحقق فقط. فبحلول أيلول، سوف يتحسن الوضع الأمني على الأرجح، لكن «يحتمل ألا نلبي المعايير السياسية التي يضعها الجميع. والخطر هو أن يغطي عدم اليقين السياسي هذا على التقدم الفعلي الذي تحقق. وبرأيي، يجب ألا يحدث ذلك».

وأضاف كين ملحاً: «هذا مقدور عليه. يمكننا تحقيق النجاح. يجب أن نُمنح الوقت الكافي للنجاح».

قبل أسبوع، أجبر الرئيس الكونغرس على تمويل الحرب ثلاثة أشهر أخرى دون ربطه بمواعيد محددة للانسحاب. لكنه لم يهدئ مشاعر الاستياء والتململ داخل حزبه.

في السادس والعشرين من أيار، حافظ زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ميتشل مكونيل (من ولاية كنتكي) على المستوى ذاته من انتقاد الجمهوريين الوضعَ في العراق وعدم رضاهم عنه، حين قال: «الكتابة واضحة على الجدار: نحن ذاهبون إلى وجهة أخرى في الخريف، وأتوقع أن يقودنا الرئيس إليها. وأعتقد أنه أشار بنفسه إلى عدم رضاه عن وضعنا الراهن بالتأكيد» [1].

وقال كبار الجمهوريين إنهم يتوقعون إستراتيجية جديدة في الخريف القادم بعد أن يقدم بترايوس تقريره أمام الكونغرس.

أبلغني الرئيس فيما بعد [2]، بعد أن امتنع عن الخوض في تفاصيل ما قاله مكونيل في السر: «لن ألوم هذا الرجل. كان كثير من الأعضاء يرسلون إشارات، بعضها إلي مباشرة. لذلك، لا أريد الحديث عن شخص واحد. لكن كنت أعرف من كبار أعضاء فريق الإدارة مدى إلحاح الأعضاء الجمهوريين ومطالبهم: من الأفضل أن ينسحب بترايوس. من الأفضل أن نفعل هذا الأمر أو ذاك. لن يتحقق التقدم إلا بتقليص عدد القوات هناك... وغير ذلك من الآراء المعبرة عن مثل هذه المواقف».

«أفهم سياسة الحرب، وسوف أصغي إلى هؤلاء الحلفاء والأصدقاء. لكن برأيي، يتمثل الهم الأساسي بالنجاح في العراق. وتعد هذه الهموم السياسية قصيرة المدى مقارنة بتبعات الفشل وعواقبه على المدى البعيد. ومن جانبي، أنا على استعداد كامل للتضحية بالشعبية على المدى القريب من أجل فعل ما هو صواب، بحيث يقول الناس على المدى البعيد: الآن، نحن نفهم لماذا اتخذ القرار الذي اتخذه».

أعد تشيني ترتيبات زيارة كين إلى البيت الأبيض في الحادي والثلاثين من أيار. وانضم كين إلى الرئيس، ونائب الرئيس، ومستشار الرئيس (هادلي) على مائدة غداء في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة للمكتب البيضاوي.

أعاد كين توكيد معظم ما قاله لتشيني لكنه توسع وفصّل. الخسائر الأمريكية في الأرواح تزداد، لكن السبب هو شن هجوم معاكس حقيقي، يشبه معركة إنتشون في

الحرب الكورية وغزو النورماندي في الحرب العالمية الثانية. ولو أدين الهجوم المعاكس في النورماندي، كما قال كين، بسبب الخسائر البشرية المرتفعة «لكان علينا شد الرحال والرجوع إلى السفن والإبحار بها عائدين إلى الوطن».

قال كين إن الإستراتيجية تعمل بنجاح. «والمسألة مسألة الوقت». وهو لا يريد أن يلقي محاضرات أو مواعظ، لكن «حتى مع هذا الاختطار، هناك شيء يجب قوله: ربما يكون هؤلاء العسكر الذين أرسلناهم إلى العراق أكثر القوات التي وضعناها في ساحة المعركة مثالية منذ حرب الاستقلال».

قال الرئيس: «يشمل ذلك الحرب الأهلية أيضاً».

قال كين: «هذا محتمل. لكن الشعب الأمريكي ساخط على الجهد المبذول ولم يعد يؤيد الحرب». وكذلك الكونغرس. «ومع ذلك كله، وفي كل يوم، يذهبون إلى هناك وهم على أتم الاستعداد للتضحية بكل غال ونفيس في الحياة».

نشرت صحيفة نيويورك تايمز على صدر صفحتها الأولى في نهاية ذلك الأسبوع خبراً بعنوان: «البيت الأبيض يناقش تخفيض عدد القوات بنسبة 50% بحلول عام 2008». وزعمت أن رايس وغيتس يؤيدان إجراء تخفيضات على عدد القوات، مما يترك قرابة مئة ألف جندي فقط في العراق بحلول السنة اللاحقة. قال كين إن مثل هذه الأخبار «موهنة للعزيمة» و«مدمرة للروح المعنوية» [3].

وأضاف إن الضباط، حتى من ذوي الرتب الرفيعة، لم يفهموا الفروق الواهية في واشنطن، «إذ لا يفصلون بين القائد العام، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وبين البيت الأبيض. ويفترضون أن كل ما يصدر عن البيت الأبيض لا بد أن يشمل الرئيس».

تدخل بوش مقاطعاً: «أشار بترايوس إلى شيء مشابه حين استهل آخر اجتماع بيننا عبر نظام الفيديو الآمن. إذ قال: السيد الرئيس، بصراحة أنا وأوديرنو نتساءل عما يحدث. قلت لديفيد إنه يحظى بتأييدي الكامل، إضافة إلى دعم الإدارة».

تابع كين: «الخبر السار أن المالكي يبتعد عن الصدر. ولم يرفض قط أي طلب لبترايوس بقتل قادة الميليشيات الشيعية أو اعتقالهم. وهذا أمر مدهش تماماً». فقد وافق المالكي على خمسين من هذه الطلبات.

قال كين: «يجب أن ندعم المالكي ونقف معه. ونظراً إلى مدى ضعفه، وضعف تحالفه، والوقت المتاح لنا هنا في أمريكا، لا أعتقد أن لدينا الوقت اللازم لتغيير الحكومة». يتعرض المالكي لضغط استثنائي. «ويستجيب لآخر اتصال يتلقاه بالهاتف الخلوي». فقد أبلغه بترايوس كيف يتعرض المالكي لهجوم الشيعة، ثم السنة، ثم الأمريكيين كل ليلة، حيث يريد كل طرف شيئاً مختلفاً منه.

قال بوش إن المالكي يتطور في أداء وظيفته.

أضاف كين: « يحظى السفير كروكر بقبول الجميع».

قال الرئيس: «أجل، كروكر رجل عظيم».

قال كين: «اختياره موفق، ويتمتع بسمعة رائعة».

وأضاف: «وتربطه علاقة وثيقة ببترايوس».

قال بوش: «المالكي لا يحب بترايوس كثيراً».

قال كين: «لا، بالطبع لا يحبه. تمثلت إستراتيجية كيسي بتسليم السلطة إلى العراقيين والقيام بالمهمة بأنفسهم. لذلك كان يعطيهم القيادة ويترك لهم التصدي للقضايا كلها، بحيث بدا سلبياً إلى حد ما. فجاء بترايوس وطالب المالكيَّ بالكثير. وفي كل مرة يدخل مكتب بترايوس، يتلقى طلباً منه». قال كين إن كروكر بحاجة إلى بعض العون. «لم يصل أي من أعضاء فريقه».

قال هادلي: «سيكونون هناك في الصيف».

شرح كين قائلاً إن السبب يعود إلى استمرار وزارة الخارجية في تبني سياسة عدم نقل موظفيها في أثناء العام الدراسي. ولاحظ أن المؤسسة العسكرية تنقل أفرادها حين تحتاج المهمات الحربية إلى نقلهم. نقطة.

قال كين إن الكونغرس أصر لسوء الحظ على عودة بترايوس في أيلول وتقديم تقرير علني. وإن عودة قائد ميداني أمريكي إلى واشنطن لتقديم إيجاز عن مدى التقدم الذي حققه تعد سابقة سيئة. إذ يجب على القائد الميداني رفع تقريره عبر سلسلة القيادة وحدها.

قال بوش: لا علاقة لي بالأمر».

كان الكونغرس قد أجاز قانوناً يطلب من بترايوس تقديم شهادته أمامه.

في السادس من حزيران 2007، قضيت ثلاث ساعات في مدينة نيويورك مع وزير الدفاع السابق في عهد كلينتون، بيل بيري، الذي كان ناشطاً جداً في لجنة بيكر-هاملتون. وعلى شاكلة معظم أعضاء اللجنة، أدرك بيري أن بوش رفض توصياتهم الرئيسة عبر تبني مبدأ زيادة القوات. وبدا ذاهلاً على نحو خاص؛ لأن الجنرال كيسي والجنرال تشياريللي أبلغاه أن إضافة مزيد من القوات لن يكون لها أي تأثير.

قال بيري، الحذِر عادة: «دعني أتنبأ. في تشرين الأول، سيحدث تغيير رئيس في طريقة إدارة الحرب. وسبب قولي هذا يعود إلى أن ديفيد بترايوس، حين شهد أمام الكونغرس في جلسة تثبيته، أبلغ الأعضاء أنه سيعود في أيلول ويقدم تقريراً. وديفيد رجل صادق وأمين، ولذلك سيقدم تقريراً صادقاً وأميناً. وأتوقع أن الزيادة لن تكون ناجحة. ولذلك سوف يفضح تقريره الكارثة المتواصلة وسيعلنها بصراحة... وآنئذ، أعتقد أن الرئيس سيخسر قرابة ثلث الجمهوريين في الكونغرس، الذين ظلوا إلى الآن متشبثين بتأييدهم إياه. وعند تلك النقطة، سوف تتغير الديناميات كلها». وسوف يصوت الكونغرس لتجاوز أي اعتراض من بوش، كما قال بيري. «سوف يمسك المشرعون بزمام السيطرة، وأولئك الذين يسيطرون سيريدون إنهاء الحرب» [4].

بدأت قوات بترايوس تستميل العشائر في الأنبار على نحو منتظم، حيث تمكنت من تجنيد الزعماء الذين أحبطهم عنف القاعدة وانتهاكاتها وتدخلاتها [5]. كان جهداً

ابتدأ في أواخر عام 2005 مع مشاة البحرية في منطقة القائم الواقعة في أقصى محافظة الأنبار قرب الحدود السورية. وانتشرت الحركة ببطء وثبات على طول وادي الفرات إلى الرمادي، حين أخذ شيوخ العشائر الآن يرسلون المئات من الشباب المحليين للانضمام إلى قوات الشرطة العراقية.

لكن ماذا عن بغداد؟ سمع بترايوس أن نقيباً في القوات الخاصة العراقية السابقة وقائد مجموعة متمردة سنية تدعى «وطنيو بغداد»، يريد الانضمام إلى الولايات المتحدة ضد القاعدة. وهكذا، جلب أبو عابد، المعروف أيضاً باسم سيف، قوة يراوح عديدها بين أربعين ومئة من المقاتلين المتمرسين [6].

وجد أبو عابد نفسه فجأة عاطلاً عن العمل حين جرى حل الجيش العراقي عام 2003. وعلى شاكلة كثيرين غيره، جعلته البطالة يشعر بالازدراء وعدم الاحترام تجاه الأمريكان. لكن منذ ذلك الحين، استولت القاعدة على حي العامرية السني. وفجرت منزل أبو عابد وقتلت أشقاءه، وهي تطارده الآن. كان حي العامرية على درجة من العنف بحيث لم تتمكن القوات الأمريكية وقوات التحالف من دخول المنطقة بعربات همفي. فقد فجر في الحي العديد من دبابات إم 1 وناقلات الجنود المدرعة من نوع برادلي.

علمت القوات الأمريكية أول مرة بتغير موقف أبو عابد حين تلقت اتصالاً بالهاتف الخلوي من إمام محلي أبلغ فيها قائد الكتيبة الأمريكية المرابطة في المنطقة أن المليشيا تنوي استرداد الحي من سيطرة القاعدة. وانتشر خبر طلب مجموعة «وطنيو بغداد» (بتزويدها بالسلاح وعدم التدخل) بسرعة البرق عبر سلسلة القيادة.

انضم بترايوس، الذي كان يمارس رياضة العدو مع بعض الضباط الشباب، إلى الرائد الموجود مع وحدته العسكرية في العامرية. قتل قرابة عشرة من جنود كتيبته ذلك الشهر. وأبلغ الرائد بترايوس أن العرض المقدم من أبي عابد مهم، مع أن مساعدته هو ورجاله مغامرة محفوفة بالمخاطر. ولن تسعد رئيس الوزراء المالكي رؤية الأمريكيين يدعمون ميليشيا سنية. وتساءل عدد من الضباط هل يعقد الأمريكان صفقة مع الشيطان. فعلى الرغم من كل شيء، كان أبو عابد متمرداً سابقاً قتل دون شك جنوداً أمريكيين.

قال بترايوس آمراً: «علينا مساندته. ليركب مع رجاله عربات برادلي. زودوه بذخيرة من الجيش العراقي».

في مدة أربع وعشرين ساعة، بدأ الهدوء يخيم على الحي. كان المقاتلون العراقيون يعرفون المنطقة، وأخذوا يقودون الجنود الأمريكيين إلى مخابئ الأسلحة، والعبوات الناسفة المحلية الصنع، وملاجئ القاعدة. وفي حين عبر بعض الضباط في الكتيبة عن تحفظاتهم العميقة، عدَّ معظمهم الترتيبات وانخفاض مستوى العنف اللاحق علامة دالة على إحراز تقدم.

في السر، عد بترايوس ذلك كله نقطة تحول محتملة في العاصمة. فمفتاح تخفيض عدد القوات الأمريكية هو دفع العراقيين إلى حماية السكان، بحيث لا يقوم بالمهمة جنود بترايوس.

استطلع غيتس رأي حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ، ومنهم كارل ليفين، الرئيس الجديد للجنة الخدمات المسلحة، حول احتمال إبقاء بيس في منصبه رئيساً لهيئة الأركان المشتركة مدة عامين إضافيين [7].

سأله غيتس: «ما رأيك؟».

قال ليفين: «ستدور رحى حرب طاحنة هنا حول العراق».

طلب غيتس من ليفين معرفة رأي زملائه.

شعر ليفين أن القضية تتعلق بالمحاسبة. إذ لم يحمّل الكونغرس أحداً من المستويات القيادية العليا مسؤولية السياسة الفاشلة. وعرف بعدم وجود طريقة يمكن عبرها الموافقة على التمديد لبيس دون أن تتحول الجلسة إلى جلسة تنفيس عن الغضب.

سأل غيتس: «حسناً، هل ترى أن الآخرين يراودهم الشعور ذاته أم لا؟».

استطلع ليفين، الذي خدم في مجلس الشيوخ منذ عام 1979 وصوّت ضد الحرب عام 2002، آراء قرابة ستة من زملائه الديمقراطيين وبعض الجمهوريين، فأبلغوه كلهم أن جلسة التمديد لبيس ستتحول إلى معركة حقيقية. وقال بعضهم: لا وحق الجحيم».

بادئ ذي بدء، لعب بيس دوراً في صياغة إستراتيجية لم تنجح. والأسوأ أن هناك شعوراً بين أعضاء مجلس الشيوخ -عززه الاستماع إلى مجموعة متنوعة من الضباط- أنه ليس صريحاً، وأنه ليس من النوع الذي يقف في وجه الإدارة ويقول إن الأمور تجري على مسار خاطئ. على سبيل المثال، قال الجنرال المتقاعد جيمس جونز، قائد مشاة البحرية بين عامي 1999-2003، إن بيس كان متخاذلاً ولين العريكة في تعامله مع رمسفيلد وشبهه «بالببغاء على كتف الوزير».

حذر ليفين غيتس من أن المعركة ستكون شرسة. سوف تركز جلسة التمديد على الإخفاقات في العراق كلها، وعلى دور بيس فيها. ولم يعرف كيف سيثبت بيس في المنصب. وهكذا، قرر غيتس عدم المخاطرة.

في يوم الجمعة الثامن من حزيران، أعلن غيتس أن الجنرال بيس سوف يترك منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة في أيلول [8]. وقال إنه أراد أن يجنب بيس جلسات الاستماع المريرة في مجلس الشيوخ. «أعتقد أن الأحداث التي وقعت في الأشهر الأخيرة أوجدت بيئة لن تكون فيها عملية التثبيت والموافقة في مصلحة البلد. وأشعر بخيبة الأمل؛ لأن الظروف هي التي جعلت هذا القرار ضرورياً»، كما أبلغ المراسلين في البنتاغون

على الرغم من محاولة غيتس التمويه على قراره بكلمات معسولة، إلا أن الحقيقة هي أن بيس طرد من منصبه. وسوف يتقاعد بعد أن عمل في الوظيفة مدة سنتين فقط، وهي أقصر مدة يقضيها رئيس أركان منذ أكثر من أربعة عقود. ومع تقاعد الأدميرال إدموند جيامباستياني، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، في الوقت ذاته تقريباً، خرج من الخدمة كبار جنرالات واشنطن الذين ارتبطوا برمسفيلد في أثناء عمله وزيراً للدفاع.

في حزيران، أرسل هادلي أوسوليفان إلى العراق، فوجدت الهلع مسيطراً في كل مكان. فقد وصلت الألوية الإضافية، وطبقت الإستراتيجية الجديدة، لكن العنف ظل يتصاعد، ليتجاوز عدد الهجمات 1550 في الأسبوع، أي قرابة 220 في اليوم -وهذا رقم قياسي جديد. وفوق ذلك كله، بقيت السياسة راكدة. إذ لم تلح أي بارقة للمصالحة في الأفق. لكن مما لا يصدق أنها فضلت بغداد على واشنطن!

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع عشرة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Michael Abramowitz and Peter Baker, «White House Considers Next Steps in Iraq: Troop Drawdowns and Shift in Mission Are Promised on Successful 'Surge,'» *The Washington Post*, May 27, 2007, P. A5.

2- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008/5/21.

3- David E. Sanger and David S. Cloud, «White House Said to Debate '08 Cut in Troops by 50%,» *The New York Times*, May 26, 2007, P. A1.

4- مقابلة مع بيل بيري، 6/6/2007.

5- في حزيران 2008، وزع بترايوس توجيهاً من ثلاث صفحات بعنوان «القوة المتعدد الجنسيات-دليل قائد القوات في العراق لمكافحة التمرد» أظهر اعتقاده أن حماية السكان العراقيين تشمل أعمالاً محددة تقوم بها القوات على الأرض. وعدّد اثنين وعشرين عملاً، منها:

*العيش بين الناس. لا يمكن الانتقال جيئة وذهاباً إلى ميدان هذا الصراع. يجب إقامة محطات أمنية مشتركة، ومخافر قتالية متقدمة، وقواعد للدوريات في الأحياء التي ننوي تأمينها...

*تشجيع المصالحة. لا يمكننا التخلي عن هذا المسعى...

*تعزيز الشرعية العراقية... الشرعية في عيون الشعب العراقي أمر جوهري للنجاح الإجمالي.

*بذل الجهد للحصول على المعلومات الاستخبارية... يجب العمل على أساس «الحاجة إلى المشاركة» لا «الحاجة إلى المعرفة»...

*على الجندي الأمريكي أن يسير ويتجول على رجليه (الدوريات الراجلة أفضل من الدوريات المؤللة) ويتوقف للتحدث مع السكان...

*يجب بناء العلاقات. العلاقات مكون حاسم الأهمية من عمليات مكافحة التمرد...

*إدارة التوقعات. يجب تجنب الإعلانات عن النجاح قبل الأوان...

*يجب التشبث بالحقيقة... وعدم تجميل القبح... وتجنب الحكايات الخيالية، وترك الحقائق تتحدث عن ذاتها...

*التشبث بقيمنا... لا يوجد مسعى أصعب من هذا الذي نؤديه. وغالباً ما يكون وحشياً، وكثير المتطلبات بدنياً ومادياً، ومحبطاً ومخيباً الآمالَ. خبرنا جميعاً لحظات من الغضب، لكن لا نستطيع الاستسلام للدوافع المظلمة ولا التساهل مع الأفعال غير المقبولة التي يرتكبها الآخرون...

6- Joshua Partlow, «For U.S. Unit in Baghdad, an Alliance of Last Resort,» *The Washington Post*, June 9, 2007, P. A1.

7- مقابلة مع كارل ليفين، 6/12/2007.

8- News Conference with Secretary of Defense Robert Gates Announcing» Recommendation of Admiral Michael Mullen to Be Chairman of Joint Chiefs of Staff, and General James Cartwright to be Vice Chairman,» Federal News Service, June 8, 2007, www.fnsg.com.

-36-

في الساعة التاسعة من صبيحة الثالث عشر من حزيران، شن المتمردون هجوماً ثانياً على مرقد الإمام العسكري في سامراء، أحد أقدس الأماكن لدى الشيعة. دمر الانفجار مئذنتي الجامع (اللتين يبلغ ارتفاعهما عشرة طوابق). وكان الهجوم الأول على المرقد قبل ستة عشر شهراً قد أطلق موجة كاسحة من العنف الطائفي. في بغداد، حبس بترايوس مع مسؤولي الاستخبارات الأمريكية العسكرية أنفاسهم.

تملك المالكي غضبٌ عارم.

سأل بترايوس بنبرة اتهامية: «كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ فمع قوات التحالف الموجودة هناك كلها، والقوات العراقية، لابد أنكم، أنت والتحالف، قد سمحتم لهذا أن يحدث. كيف دخل هؤلاء إلى هناك؟».

أجاب بترايوس: «كانت أعداد كبيرة من القوات حاضرة في المكان، لكن هناك أمراً آخر. ما أقترحه عليك، أنني سأرسل لك مروحية ومساعدي الشخصي. اذهب إلى هناك. اذهب بنفسك. وألق نظرة. اذهب وتحدث مع القادة واعرف منهم ما حدث».

كان مساعد بترايوس رجلاً طويل القامة (لعب في شبابه كرة السلة)، ومترجماً ماهراً، ومقاولاً مدنياً اسمه سعدي عثمان، ولد في الأردن ودرس في كلية مينونايت في كنساس وعمل ذات يوم سائقاً في مدينة نيويورك. (سماه بترايوس «مايكل جوردان الأردن»!). بدأ سعدي العمل عند بترايوس مترجماً في الموصل بعد غزو العراق عام 2003. وحين عاد بترايوس قائداً عاماً للقوات في العراق، جعل سعدي واحداً من كبار مستشاريه. كان يجيب على هاتف بترايوس الخلوي في العراق، ونظر إليه كثير من العراقيين على أنه بترايوس ذاته.

ركب المالكي وسعدي الحوامة إلى سامراء واستقبلهما القادة العراقيون المحليون.

بدأ المالكي يصرخ على قائد الشرطة الحاضر هناك: «في كل مرة أسألك عن سامراء، تقول كل شيء على خير ما يرام. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ أنت غبي! أنت عاجز! ولديك هؤلاء الحراس كلهم» حول المسجد.

ثم أمر المالكي بفرض حظر على التجول لوقف حركة المشاة والسيارات. وفيما بعد، اتضح أن عدداً من أفراد الشرطة العراقية متورطون في عملية التفجير.

في اليوم اللاحق، الرابع عشر من حزيران، التقى المالكي وبترايوس وكروكر قرابة الساعة 12:45 بعد الظهر.

قال المالكي: «نحن نفهم حقيقتين فعلاً عن الإرهابيين الآن: الأولى أنهم يستهدفون الخدمات الأساسية؛ لأنها تمارس تأثيراً مباشراً في الناس، والناس يمارسون تأثيراً مباشراً في الحكومة. وهذا يظهر أن الحكومة عاجزة عن وقف الهجمات واستعادة الخدمات الأساسية». وذكر على وجه الخصوص قطع إمدادات النفط والكهرباء. «والحقيقة الثانية التي نعرفها أنهم سيستهدفون الأماكن المقدسة؛ لكي يستفزوا العنف الطائفي بين الجماعات».

تجاهل السفير كروكر هذه الرواية الوصفية التي تفصل ما هو واضح لا لبس فيه، وقال له: «الأوامر التي أصدرتها نتيجة أحداث الأمس تستحق مني التحية. وأعتقد أنك فعلت الصواب بالضبط. فأهمية العبارات في أوامرك هي أنك تضع اللوم على القاعدة مباشرة، وتظهر أن هذا الهجوم موجه إلى مكونات الشعب العراقي كله: السنة والشيعة والكرد أيضاً. فمن المهم جداً عدّ الهجوم هجوماً للقاعدة على العراق، لا على أي طائفة معينة فيه».

قال بترايوس: «أجل. أوافق تماماً. لقد فعلت ما هو صواب. والأمور هادئة الآن، لكن لا نستطيع الاعتماد على هذا الهدوء».

قال المالكي: «لهذا السبب أصدرنا قرار منع التجول الموسع، وأجلنا الامتحانات» (في إشارة إلى امتحانات المدارس الثانوية).

قال بترايوس: «كانت رحلتك بالأمس بالغة الأهمية. لقد أظهرت قدرة قيادية كبيرة».

«لقد أغلقنا المنطقة برمتها».

سأل بترايوس: «كم من الوقت يتطلب إعادة بناء المرقد. هل يمكن البدء بأعمال البناء فوراً، مع أو دون الأمم المتحدة؟». كان يشير إلى خطة إعادة بناء المسجد بعد التفجير الذي وقع منذ ستة عشر شهراً.

أجاب رئيس الوزراء: «أجل. في الحقيقة كنا بالأمس على وشك توقيع الأوراق مع منظمة اليونسكو والشركة التركية التي فازت بالعقد، لبدء عملية إعادة البناء». اليونسكو منظمة تابعة للأمم المتحدة تتعاون مع العراق في مشروعات إعادة الإعمار. قال المالكي إن الرئيس بوش اتصل به أمس «ليقول إن الولايات المتحدة ستوفر أي دعم ضروري لإعادة البناء».

قال كروكر: «توقيع العقد في الأيام القليلة القادمة، مع كثير من الدعاية، سيكون إشارة قوية إلى الرأي العام. وسيشعر العالم كله بالسرور».

أجاب المالكي: «حسناً، الأمر بيد اليونسكو».

اتبع بترايوس وكروكر الاستجابة السياسية العراقية النمطية. فبدلاً من أن يمدا أيديهما إلى رقبة المالكي لخنقه كما رغبا على ما يبدو، قال بترايوس: «هناك من يقول إنك بارع فعلاً إن تمكنت من تحويل العداوة إلى فرصة، ويمكن فعل ذلك في هذه الحالة».

قال المالكي: «أهالي سامراء خائفون الآن»، وأضاف بكل ثقة: «لكن عندما يشاهدون قوات الأمن العراقية سوف يساندونها علناً، أنا واثق بذلك».

لكن الاستخبارات الأمريكية أظهرت أن الطائفية تنخر قوات الشرطة العراقية، وما يزال بعض أفرادها يحملون صور صدام. لكن أياً من الرجلين لم يحاول تحدي توكيد المالكي.

قال بترايوس: «احتفظ بالسر مدة يومين. سوف نشن هجوماً شاملاً على مستوى العراق كله على المناطق التي تتخذها القاعدة ملاذاً لها». ووعد بأن يشارك رئيس

الوزراء بأي معلومات استخبارية يحصل عليها نتيجة العمليات. قال كروكر إن الزعيم الكردي مسعود البرزاني وافق على الامتثال للقانون العراقي القاضي بالتشارك في عائدات النفط مع المحافظات الأخرى، وهذا تشريع مهم. «والخطوة اللاحقة هي تقديمه أمام البرلمان».

كان المالكي يومئ رأسه موافقاً. «لم نكتف بالاتفاق على ذلك فقط، بل لدينا اتفاق إطاري حول قانون اجتثاث البعث».

انقض بترايوس على فرصة العلاقات العامة. فقد عرف أن هادلي وغيره في الإدارة يبحثون عن حدث درامي مؤثر. واقترح أن يستغل المالكي الاتفاق على إعادة بناء مسجد سامراء وخبر التسوية فيما يتعلق بقانون النفط. قال: «سوف تركز عليك برامج التلفاز الحوارية التي تبث يوم الأحد. فلماذا لا تنظم حملة دعائية حول هذه الأحداث الإيجابية المفضلة لتسليط الضوء على إنجازاتك؟». وأضاف: «دعني أساعد في مثل هذه البرامج».

قال المالكي: «هناك خبر سار آخر. لقد علق الصدر مشاركة ممثلي تنظيمه في المجلس، ويمكن للبرلمان التعامل مع هذا النشاط كله بسرعة وبفاعلية أكبر». في المدة الأخيرة، خرج ستة من الوزراء الموالين للصدر من الحكومة احتجاجاً على رفض المالكي وضع جدول زمني لانسحاب القوات الأمريكية. مما ترك المالكي حراً في اختيار من يحل محلهم.

قال بترايوس: «سوف أشدّد على محطة فوكس الإخبارية هذه النقاط كلها، بحيث تحصل على تأييدي».

قال علي الدباغ، الناطق باسم المالكي: «أجل. يجب أن نشارك في البرامج الحوارية».

قال بترايوس: «سوف نوزع الأدوار». ثم أشار إلى الدباغ: «تحدث أنت مع الجزيرة».

وأضاف: «لدينا مزيد من الأخبار السارة». حرص على اختتام الاجتماعات مع المالكي بملحوظة إيجابية. إذ استكملت للتو عمليات إصلاح منصات تصدير النفط في الخليج

مما يتيح للناقلات تحميله. قال: «علينا تسليط الضوء أيضاً على استكمال عمليات تصليح منشآت تصدير النفط في البصرة». وطلب أيضاً التقاط صور لمناطق جنوب غرب بغداد التي تركز عليها عمليات إعادة التطوير.

تمثلت فلسفة بترايوس فيما يتعلق بتغطية وسائل الإعلام بأن المراسلين ينقبون عن الأخبار السيئة بأنفسهم. وإذا لم يقدم هو والمالكي أخباراً سارة، مهمة كانت أم غير مهمة، فمن المرجح ألا يذكرها أحد.

في السابع عشر من حزيران، ظهر الجنرال بترايوس في برنامج «فوكس نيوز صنداي» مع كريس والاس، وقال: «بالأمس، عقد اتفاق بين منظمة اليونسكو وحكومة العراق لإعادة بناء مسجد سامراء». لكن والاس لم يظهر أي اهتمام، وسأل بدلاً من ذلك عن مستويات العنف وعدم وجود قانون للنفط. قال بترايوس إن من المتعذر حل مشكلات العراق كلها «في سنة أو اثنتين... تاريخياً، دامت عمليات مكافحة التمرد تسعة أعوام على الأقل أو عشرة». لكنه أضاف ملحاً: «ثمة احتمال جيد بحدوث تقدم في الأشهر القادمة».

في نهاية المطاف، وقع اتفاق إعادة بناء مسجد سامراء، لكن تعثر الاتفاق على إصلاح قانون اجتثاث البعث وقانون النفط.

في الثامن والعشرين من حزيران، جمعت رايس عشرين من كبار المسؤولين في وزارة الخارجية، وأهم نوابها، وأقرب مساعديها؛ لعقد لقاء على مدى يومين اثنين في منتجع إيرلي سنتر (الذي يضم مرافق لعقد المؤتمرات) في أرياف ولاية فرجينيا. وبعد أن ناقش المجتمعون مختلف البرامج الضرورية لتغيير الدبلوماسية والمعونات الخارجية، أثارت الوزيرة السؤال الحقيقي.

سألت: «هل تريدون التحدث عن العراق؟».

أشار الجميع إلى الرغبة في الخوض في الموضوع. فالعنف في أعلى مستوياته، والفوضى تعم العراق كحالها دوماً. وقتل إلى الآن 3562 من الجنود الأمريكيين.

استحثتهم رايس على التحدث بصراحة وصدق، وكأنما ضغط أحد على زر ليحرر الضغوط والتوترات التي تراكمت طوال سنين.

تذكر أحد المشاركين، وهو من أخلص حلفاء رايس في الوزارة، ما حدث آنذاك: «كان همهم منصباً على الإستراتيجية؛ هل تنجح؟ هل يمكن أن تنجح؟ ما التأثير الدائم لحرب العراق في موقع الولايات المتحدة في العالم؟ وفي المنطقة؟ على الصعيد المحلي، ما تأثيرها في الولايات المتحدة؟ لم تقل رايس الكثير، لكن اللحظة كانت مترعة بالكآبة لأنهم قالوا: لا نعرف إلى أين نتجه، ولا نعرف ما هذا الذي يحدث، ولا نعرف هل يمكن لإستراتيجية زيادة القوات أن تنجح». وأكد عدد من المشاركين الآخرين مدى تشاؤم النقاش الذي دار حول العراق.

اتبعت رايس السلوك المتوقع فاختارت التركيز على أي بارقة أمل وأي رأي متفائل سمعته. تذكرت فيما بعد ما جرى: «قال ثلاثة أو أربعة من المساعدين: لا يمكن أن نخسر، بل لا يمكن أن يتصور أحد أن نخسر». فالخسارة في العراق ستترك تأثيراً مدمراً في زعامة أمريكا، كما أكد الحاضرون. لذلك يجب أن نفوز. ولم يقدم أحد الحجة لمصلحة الانسحاب الصريح.

لكن أغلبهم غادروا الاجتماع محبطين يائسين. فإستراتيجية إدارة بوش الجديدة بإرسال مزيد من القوات الأمريكية لحماية السكان لم تظهر سوى القليل من أمارات النجاح.

في التاسع والعشرين من حزيران، التقى بوش بالزعماء الجمهوريين في مجلسي الشيوخ والنواب.

قال النائب راي بلنت (جمهوري من ولاية ميسوري) الذي يحتل المرتبة الثانية في زعامة الحزب في مجلس النواب: «السيد الرئيس، ليست لديك مصداقية عند التحدث عن العراق».

رد بوش: «أعلم ذلك».

قال بلنت: «أسوأ شيء تفعله أن تتحدث عن العراق».

اعترف بوش قائلاً: «يعتقد الناس أنني بالغت في التفاؤل مدة طويلة».

لاحظ بلنت أن الشعب العراقي لم يغتنم الفرصة لإقامة ديمقراطية فاعلة طوال أربع سنين. «لا يوجد في البلد أحد يهتم كثيراً بالديمقراطية بحسب نموذج جيفرسون».

أجاب بوش: «أعرف أن الناس يشعرون بذلك، لكن لا أوافقك الرأي». فقد اعتقد أن الديمقراطية هي السبيل الوحيد، ولديه آمال كبار بزيادة عدد القوات.

سأل الرئيس بترايوس عدة مرات: «هل ننقل المعركة إلى العدو؟». أو «هل نحن في موقف هجومي؟». وفي عدد من المناسبات، سأل عن خسائر العدو: «كم عدد الأعداء الذين قتلناهم؟».

لم يعطه بترايوس الأرقام المطلوبة إلا كل بضعة أسابيع. كان يقول: «السيد الرئيس، لن نحقق النصر والانسحاب من العراق عن طريق القتل. والمسألة لا تتعلق بنسب متبادلة» من القتلى الأعداء مقابل القتلى الأمريكيين. لكنه اعترف: «نحن أشد فتكاً، وتفاوت النسب هائل». فقد كانت قوات التحالف تقتل عشرات من مقاتلي العدو مقابل كل جندي أمريكي يردى.

* * *

ذهب الجنرال كيسي لإجراء فحص طبي روتيني في مركز والتر ريد الطبي العسكري الذي تمتد مرافقه على مساحة شاسعة في شمال غرب واشنطن. لمح الجنرال المتقاعد جاك كين يقف في الطابور أمام مكتب قسم الأشعة.

التقت عينا الجنرالين وهلة، فأشاح كين ببصره كأنما لم يعرف كيسي.

قال كيسي: «مرحباً جاك، كيف حالك؟»، ومد يده مصافحاً. كان ينتظر لحظة كهذه. «هل اتصل بك رئيس الأركان؟».

سأل كين: «لا، لماذا؟».

«لأننا نشعر –رؤساء الأركان يشعرون– أنك تتدخل إلى درجة مبالغ فيها في تأييد سياسة لن تحاسب عليها. نحن نحاسب عليها، أما أنت فلن يحاسبك أحد. تلك هي المشكلة يا جاك».

قال كين إنه تصرف بوصفه عضواً في مجلس السياسة التابع لوزير الدفاع، حيث يفترض بأعضائه تقديم نصائحهم ومشورتهم بطريقة مستقلة. وما كان يفعله كله مجرد محاولة لمساعدة بترايوس، كما قال. لقد أيد إستراتيجية كيسي–رمسفيلد طوال ثلاث سنين. «وعند مرحلة من المراحل، لم أعد أؤيدها. أنا لا أعمل على طريقة 'الجوال الوحيد'».

قال كيسي مجدداً: «ليس من اللائق أن يتدخل جنرال متقاعد إلى هذا الحد ويؤيد سياسة ليس مسؤولاً عنها أو لن يحاسب عليها».

قال كين: «سوف أعمل بمشورتك»، لكنه لم يشر إلى أنه سيغير أسلوب عمله.

في الرابع من تموز، دعت بيلوسي مجموعة من المحاربين الجرحى لمشاهدة الاحتفال من مكتبها في مبنى الكابيتول. إذ توفر شرفتها منظراً شاملاً للشارع العريض واستعراضِ الألعاب النارية.

فقد أحد جنود مشاة البحرية رجليه، وبدا مجرد جذع يجلس على كرسي متحرك.

قال: «سيدتي رئيسة المجلس»، ومد رأسه من كرسيه ليشير إلى حيث يقسم الرؤساء اليمين: «كنت هناك في احتفال تنصيب الرئيس عام 2005، وأنشدت مع جوقة الأكاديمية البحرية».

سمع الرئيس وهو يلقي واحدة من أكثر خطب التنصيب طموحاً في التاريخ. إذ قال بوش في ذلك اليوم: «تتمثل سياسية الولايات المتحدة بالسعي إلى/ودعم الحركات والمؤسسات الديمقراطية في كل أمة وثقافة، مع الهدف النهائي المتمثل بالقضاء على الطغيان والاستبداد في عالمنا».

سألت بيلوسي الملازم الشاب في مشاة البحرية، الذي نجا من عبوة زرعت على جانب الطريق ويتعافى الآن في مركز والتر ريد بعد أن خضع لعدة عمليات جراحية: «كيف حالك؟». أجاب: «مرت علي أيام حالكة، لكني أحاول استعادة عافيتي. مرت علي شهور حالكة السواد».

حاول بترايوس العثور على بضع دقائق للمطالعة قبل النوم. وتمكن بالتدريج من قراءة كتاب بروس كاتون «غرانت يتسلم زمام القيادة»، الذي يتناول حملات الجنرال يوليسيس إس. غرانت لتحويل مجرى الأمور لمصلحة الرئيس لينكولن في أثناء الحرب الأهلية. دهش بترايوس على وجه الخصوص من طريقة غرانت في التعامل مع النكسات. فبعد اليوم الدموي الأول من معركة شيلو*، وجد الجنرال شيرمان غرانت في الهزيع الأخير من الليل يقف وحيداً في ظل شجرة تحت وابل مدرار من المطر.

قال شيرمان: «غرانت، مر علينا يوم من الجحيم، أليس كذلك؟».

قال غرانت وسيجاره يتوهج في العتمة بعد أن سحب منه نفساً سريعاً وعميقاً: «أجل. لكن سنضربهم غداً».

أصبحت عبارة «سنضربهم غداً» صيحة حشد في حلقة بترايوس الداخلية كلما أتت الأخبار السيئة، ومنها ذلك الخبر عن مقتل 160 عراقياً في تفجير عدد من السيارات المفخخة. أدهش بترايوس أسلوبُ غرانت في تلقي الضربات، واحدة إثر الأخرى، من الجنرال روبرت إي. لي، الذي رفض بكل عناد أن يتعرض للتطويق. كتب غرانت يقول: «أقترح الاستمرار في القتال على هذه الجبهة ولو تطلب خوضه الصيف كله». وغدت العبارة صيحة حشد أخرى.

سأله أحد أصدقائه: «أتظن نفسك غرانت؟».

قال بترايوس: «لا». كان يقرأ أيضاً عن الجنرال ماثيو ريدجواي، الذي ساعد في تحويل مسار المعارك في الحرب الكورية.

* معركة دموية جرت (قرب بيتسبيرغ) في 6-7 نيسان عام 1862 في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. انتهت المعركة دون نتيجة حاسمة بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة. (م).

في ربيع عام 2007، عملت أنا ومساعدي برادي دينيس على اقتفاء الملحوظات المدونة في المقابلات الرئيسة التي أجرتها لجنة بيكر-هاملتون. ومنها التقويم المتشائم والكئيب لمدير وكالة المخابرات المركزية مايكل هايدن فيما يتعلق بحكومة المالكي. قال هايدن إن «عجز الحكومة عن الحكم يبدو أمراً محتوماً يتعذر عكسه»، وأضاف إنه لا يستطيع «الإشارة إلى أي معلم أو نقطة مرجعية يمكن تغيير دفة الأمور وفقاً لهما». وقال غالبية أعضاء اللجنة إن تقويم هايدن مثّل السبب الرئيس وراء استهلال التقرير بعبارة «الوضع في العراق خطر ومتدهور».

أخذت هذه المعلومة إلى لين داوني، مدير التحرير التنفيذي لصحيفة واشنطن بوست. حتى بعد شهور من شهادة هايدن أمام اللجنة، كما قلت له، ما زالت تمثّل خبراً مثيراً ومهماً ويجب نشرها بأسرع وقت ممكن. وافقني داوني الرأي. ولأن المواد جمعت بشرط وضعها في كتاب سينشر في السنة اللاحقة، إلا أننا التقينا -أنا وداوني- مع أحد المصادر وطلبنا تغيير القواعد الأساسية. قال داوني إنه شعر بأن واشنطن بوست تعد «متهربة من أداء واجبها» إذا لم تنشر هذه المعلومة بسرعة. في البداية، رفض المصدر، لكنه أقر في نهاية المطاف بأن تقويم هايدن كان أهم شهادة موثوقة تلقتها اللجنة، وتستحق النشر.

اتصلت بعدد من مسؤولي وكالة المخابرات المركزية وسألت عن إمكانية لقائي بهايدن والتحدث عن شهادته، وهل غيّر تقويمه أم لا. رفض هايدن لقائي، واشتكى إلى لي هاملتون، السيناتور الديمقراطي الذي رأس اللجنة مع جيمس بيكر. ووفقاً لهاملتون، قال هايدن: «يعرف ودوارد الكثير عن هذه الشهادة. لقد قدمت الجانب الحالك من الوضع، وودوارد سيجعله أشد حلكة».

نشرت واشنطن بوست القصة في الثاني عشر من تموز تحت عنوان: «السي آي إيه تقول إن الوضع المضطرب يبدو أمراً محتوماً يتعذر عكسه».

في اليوم ذاته، سأل مراسلٌ الرئيسَ عن القصة في أثناء مؤتمر صحفي كان يعقده.

قال بوش: «في هذا الصباح، كان مايك هايدن يقدم لي إيجازه الأسبوعي، فسألته عن مقالة الصحيفة التي تستشهد بها. وكان جوابه أن ملحوظاته أمام لجنة بيكر-هاملتون

مختلفة قليلاً عن الشاهد الذي قرأته». ووفقاً لبوش، فإن ما يتذكره هايدن عن شهادته أمام اللجنة في تشرين الثاني 2006 هو أن «الإستراتيجية الراهنة في العراق لا تعمل بنجاح... وأننا بحاجة إلى تغيير في الوجهة». واستخدم الرئيس ما دعاه بالشهادة التي تذكرها هايدن لتدعيم قراره بتغيير الإستراتيجية. ثم تجرأ على القول علناً أول مرة: «مثلما قلت لك في تشرين الثاني الماضي، في ذلك الوقت كنت جزءاً من تلك المجموعة من الأمريكيين الذين لم يوافقوا على ما كان يحدث في العراق؛ لأن الجهود المبذولة كلها حتى ذلك الحين بدت على وشك الفشل».

كأنما كان بوش مجرد مشاهد عادي، مثله مثل الأمريكيين العاديين الذي عارضوا مسار الحرب!

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- John F. Burns, «Revered Mosque in Iraq Is Bombed for Second Time,» *The New York Time*, June 14, 2007, P. A1.

2- General Petraeus on Fox *News Sunday*, Fox News Transcript, June 17, 2007, www.foxnews.com

3- Presidential Documents, January 20, 2007, pp. 74-76 (Vol. 41, No. 3), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no03.html

4- شواهد هايدن مأخوذة من ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر-هاملتون بتاريخ 2006/11/13.

5- محادثة هاتفية مع لي هاملتون، 2007/6/12.

6- Bob Wooward, «CIA Said Instability Seemed 'Irreversible,'» *The Washington Post*, July 12, 2007, P. A1.

7- Presidential Documents, July 12, 2007, pp. 944-956 (Vol. 43, No. 28), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no28.html

-37-

قام كين برحلة أخرى إلى العراق وقضى هناك أسبوعين من شهر تموز. أبلغه بترايوس، وغيره من الجنرالات ورئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية أن التمرد السني ينهار. إذ إن آلافاً مؤلفة من المتمردين السنة السابقين يتعاونون مع الولايات المتحدة وقوات التحالف الأخرى. في محافظة الأنبار وحدها، انضم واحد وعشرون ألفاً من السنة، وأجاز المالكي لثمانية عشر ألفاً من المتمردين السابقين حمل السلاح وتلقي الرواتب. حضر كين اجتماعاً سرياً بين بترايوس ومرؤوسيه. ثم اجتمع الاثنان وحدهما.

أبلغ بترايوس كين أن أهم ما يفكر فيه هو شهادته أمام الكونغرس في أيلول. هناك الكثير من الأخبار السارة لديه، لكنه قال إنه سيكون حذراً ولن يبالغ في الحديث عن النجاحات. فالمبالغة كانت مشكلة في هذه الحرب منذ البداية.

نصحه كين قائلاً: «يجب أن تكون واقعياً ومعقولاً، لكن مترعاً بالأمل. لا تخف من أن تبدو مترعاً بالأمل. حاول العثور على طريقة لتكون واقعياً، لكن اكشف عن نفسك. واعلم أن أعضاء مجلس الشيوخ جماعة من المجانين، لكن جمهورك في نهاية ذلك اليوم سيكون الشعب الأمريكي، الذي ينتظر ويراقب. إنه التلفاز وقوة التلفاز. حين تتحدث إليهم، يجب أن ترسخ علاقة بهم، ومن أجل ذلك يجب أن تكشف عن نفسك قليلاً. يجب أن يشعروا بك قليلاً، من أنت، ومن تكون. دعهم يعرفون شيئاً عنك».

* * *

في يوم السبت الثامن عشر من آب، قدم كين إيجازاً سرياً إلى تشيني في مقر إقامة نائب الرئيس في جادة ماساتشوستس في شمال غرب واشنطن. وكان رئيس مجلس النواب

السابق نيوت غينغريتش قد نصح كين قائلاً: حين تقابل الرئيس أو نائب الرئيس «لا تترك شيئاً على الطاولة... عبر عن آرائك في المشكلات كلها بصراحة فتشعر بالارتياح».

مع اقتراب الموعد المقرر لشهادة بترايوس أمام الكونغرس في الشهر اللاحق، أبلغ كين تشيني: «لا أرى أي دليل على أن الإدارة، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، قد هيأت الظروف الملائمة لنجاح هذه الشهادة».

سأل تشيني: «ماذا تعني؟».

قال كين: «يتمتع وزير الدفاع بقدر هائل من المصداقية». فقد كان غيتس عضواً في لجنة بيكر-هاملتون، ووافق الكونغرس على تعيينه بالإجماع. «يجب أن يكون على أتم الاستعداد لدعم قائده الميداني وحث الزعماء الأساسيين في مجلسي الشيوخ والنواب على تأييده قبل الإدلاء بشهادته، أي تهيئة الظروف الملائمة». وأضاف إن بترايوس لم يحصل على العون لا من رئيس هيئة الأركان المشتركة، ولا من القادة أنفسهم، ولا من الأدميرال فالون قائد القيادة المركزية، ولا من فريقه. ولم يكن الدعم الحقيقي يأتي إلا من الرئيس ونائب الرئيس. وهذا أمر مهم، لكن على الآخرين تأييده ومساعدته طوعاً.

مثّل فالون على وجه الخصوص مشكلة حقيقية لكين. «أنا أول من رشح اسم فالون، لكنه يمارس ضغطاً متواصلاً على بترايوس. ويدفعه إلى إجراء أنواع التحليلات كلها للخروج في وقت مبكر أو سحب عدد كبير من القوات» كما أبلغ تشيني. وأشار إلى التقرير الذي أصدره الأدميرال وينفيلد بعد أن طلب منه فالون تقويم الوضع في العراق، فقد أضعف موقف بترايوس. «ما حدث لفالون أنه قبل الهموم والمخاوف السياسية في واشنطن كلها... أتفهم ذلك إلى درجة معينة. لكن في مقابل القدوم إلى هنا وتقوية عزيمة رؤساء الأركان، ضعفت عزيمته هو بالآراء السائدة في واشنطن وآراء رؤساء الأركان. فانعكس ذلك كله على بترايوس».

منذ أن وصل بترايوس إلى العراق، كما قال كين «أصبح رؤساء الأركان أكثر اهتماماً بتجاوز الجيش ومشاة البحرية أقصى ما لديهما من طاقة بدلاً من التركيز على الفوز بالحرب. وهم لا يقولون ذلك بتلك الطريقة»، لكن هكذا فهم بترايوس. «وحقيقة أن

الجيش يتعرض للضغط والتوتر أمر متوقع في أثناء الحرب. وهذا هو سبب وجوده». فإذا تجاوز أقصى ما لديه من طاقه حين يخوض حرباً نشعر بضرورة الفوز بها، فليكن ذلك كما قال. فقد حدث هذا في الحروب السابقة.

صمتُ تشيني المميِّز له دعا إلى المزيد.

قال كين: «سأتكلم بصراحة. الوزيرة رايس تجوب العالم متصديةً لقضايا السياسة الخارجية، لكن أين تقف فيما يتعلق بالعراق؟ لست متيقناً. ولا أظن أنها على استعداد لإلحاق الضرر بسمعتها حول هذه القضية». يجب عليها مساعدة السفير ريان كروكر، الذي سيقف أمام الكونغرس مع بترايوس.

حاول كين أن يشرح السبب الذي يجعل الافتقار إلى الدعم والمساندة مؤثراً في بترايوس. «في العادة، يعطي القائد العسكري الناجح نتائج كما هو واضح. وهذا هو معنى النجاح. وهذا يعني أيضاً أنه يساعد سلسلة القيادة المكونة من رؤسائه. إذ يملؤهم الفخر به، مما يعزز بالتأكيد مكانة المؤسسة المسؤولة. وحين ينجح، يحظى دوماً بدعم سلسلة القيادة».

أما المفارقة، كما قال كين، فهي أن بترايوس حصل على قيادة قتالية لجنرال بأربع نجوم «لحملة حربية، والتعامل مع قضية تصب بكل وضوح في المصلحة الوطنية، حيث الرهانات مرتفعة جداً... وعند تلك النقطة، توقفت سلسلة القيادة عن دعمه ومساندته أول مرة في حياته المهنية، حيث يؤدي أهم وظيفة قام بها سابقاً أو سيقوم بها لاحقاً. وكان تأثير ذلك كله مدهشاً ومربكاً بالنسبة إليه».

قال كين إن المسألة لا تقتصر على رئيس بترايوس المباشر، الأدميرال فالون، بل برئيسي فالون أيضاً –الجنرال بيس الذي لن يتقاعد قبل الخريف، وغيتس الذي لم يساعد بترايوس كما يجب. «علينا جميعاً أن نكون صفاً واحداً خلفه –وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية. ويجب ألا يوضع العبء على عاتق هذين الرجلين [بترايوس وكروكر] فقط، فيضطران للقدوم إلى هنا ويتحولان إلى جسر تعبر عليه الإدارة».

قال تشيني أخيراً: «نستطيع تقديم العون هنا. يمكننا المساعدة هنا».

دام الحديث قرابة ساعة ونصف الساعة. وفي أثناء اللقاء، أطلت لين تشيني، زوجة نائب الرئيس، برأسها وقالت بهدوء مذكرة زوجها: «تذكر، يجب أن نكون هناك بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة».

ومع أن كين اتبع نصيحة نيوت غينغريتش بالتشبث بالصراحة دوماً إلا أنه تساءل هل تجاوز الحدود هذه المرة –حيث انتقد وزيري الدفاع والخارجية معاً.

بعد بضعة أيام، وفي أثناء لقاء عبر نظام الفيديو الآمن عقد مع بغداد، قال الرئيس إنه قلق من أنهم لا يقومون بما يكفي لمؤازرة بترايوس وكروكر، وموعد شهادتهما يقترب بسرعة، وعلى كل فرد في الإدارة، حتى هو نفسه، أن يساعد طوعاً على إنجاحها.

حين استقال دان بارتليت في أوائل الصيف، تولى إد غيليسبي، ممثل جماعات الضغط السابق ورئيس لجنة الجمهوريين الوطنية، منصب مستشار بوش في البيت الأبيض ومدير الاتصالات.

كان غيليسبي قد سأل بارتليت: «أين لوحة جدول المواعيد؟»، مشيراً إلى البرنامج الذي أمل في وجوده في البيت الأبيض؛ لبيان كيف يمضي الرئيس وقته وجدول إلقاء خطبه ومضمونها.

قال بارتليت ضاحكاً: «لا توجد واحدة».

أراد غيليسبي (46 سنة)، الأيرلندي اللطيف الذي جمع الملايين من تمثيله جماعات الضغط، أن يكون إستراتيجياً. فشجع الرئيس على إلقاء سلسلة من الخطب التي تثير انتباه الجمهور، وتؤكد الرهانات المرتفعة في العراق، وتقدم الدعم والمساندة إلى بترايوس وكروكر.

في الثاني والعشرين من آب تحدث بوش أمام المؤتمر الوطني لقدامى المحاربين في مدينة كنساس (بولاية ميسوري)، وعقد مقارنة غير عادية بين فيتنام والعراق [1].

«التركة الواضحة التي لا لبس فيها لحرب فيتنام هي ثمن انسحاب أمريكا الذي دفعه الملايين من المواطنين الأبرياء، الذين نحتت تباريحهم مصطلحات جديدة أضيفت إلى مفرداتنا، مثل 'شعب القوارب'، و'معسكرات إعادة التثقيف'، و'ميادين القتل'. والسؤال الذي نواجهه الآن هو: هل يقاوم الجيل الحالي من الأمريكيين إغراء التراجع؟». ثم أضاف: «وخلافاً لفيتنام، إذا انسحبنا قبل استكمال المهمة، فإن هذا العدو سيلاحقنا إلى ديارنا».

بعد ستة أيام، ظهر الرئيس في المؤتمر السنوي للمنظمة الأمريكية للمحاربين القدماء الذي انعقد في رينو (بولاية نيفادا)، وقال إن الانسحاب من العراق سيترك «منطقة معروفة بالاضطراب والعنف مهددة بشبح محرقة نووية» [2].

في يوم الخميس الرابع والعشرين من آب، أفرجت الاستخبارات الأمريكية عن بعض الأحكام التقويمية المهمة وغير السرية ضمن تقديراتها الاستخبارية الوطنية للوضع في العراق. وجد التقويم «تحسناً قابلاً للقياس لكن غير متكافئ» في الوضع الأمني. ومع أن مستوى العنف قد تراجع، إلا أنه بقي «مرتفعاً». وعلى الجبهة السياسية، قالت وكالات الاستخبارات إن «المجموعات الطائفية في العراق تبقى غير قابلة للتصالح» [3].

ولم يشمل التقرير العلني التقويم الذي يشير إلى أن «فرصة المالكي في البقاء في منصبه مدة تراوح بين ستة أشهر واثني عشر شهراً تقل عن نسبة 50%»، وذلك وفقاً لأحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكية. فضلاً على ذلك كله، يعاني المالكي «مشكلات صحية حقيقية... تشير إلى أن حالته تتدهور»، تبعاً للمسؤول نفسه.

مع انقضاء شهور الصيف، انتظر بترايوس تغير مسار الأمور. وفي كل يوم سبت، يوزع فريق العاملين معه أحدث مخطط بياني يظهر ارتفاع أو انخفاض مستوى العنف. ففي أثناء الأسبوعين الأخيرين من حزيران، انخفض عدد الهجمات بأكثر من ثلاث مئة هجوم، ثم ارتفع قليلاً في الأسبوع اللاحق. وبعدها ارتفعت الأرقام، ثم بقيت تنخفض

بثبات طوال ما تبقى من آب. وبحلول نهاية الصيف انخفض العدد من 1550 هجوماً في الأسبوع إلى أقل من 800 –أي بنسبة 50% تقريباً، لكن المعدل الوسطي بقي خمسة في الساعة الواحدة.

لماذا انخفض حجم العنف هذا الانخفاض اللافت؟

على أحد المستويات، بدأت الزيادة في عدد الجنود تمارس تأثيرها المقصود. فمضاعفة عدد القوات الأمريكية داخل بغداد وحولها من 17000 إلى قرابة 40000 تركت تأثيراً واضحاً، مثلما يحدث في أي مدينة. إذ تمكن الآلاف من الجنود الإضافيين، مقترنة بخطة بترايوس لمكافحة التمرد، من تهدئة حدة العنف الطائفي وغيره من أساليب العنف التي ميزت الثمانية عشر شهراً الماضية. وأقيمت قرابة 30 محطة أمنية مشتركة حول بغداد بحلول صيف عام 2007. وتحسن الأمن على طول الحدود مع إيران وسوريا، وتحسن أداء الجيش العراقي.

لكن الحقيقة الكاملة لم تكن بهذه البساطة. فهناك ثلاثة عوامل أخرى على الأقل حظيت بأهمية مماثلة، أو تفوقت في الأهمية على الزيادة في عدد القوات.

بدءاً من شهر أيار عام 2006 تقريباً، شنت القوات الأمريكية ووكالات الاستخبارات الأمريكية سلسلة من العمليات السرية مكنتها من تحديد أماكن أفراد مهمين ونافذين في الجماعات المتطرفة (مثل القاعدة)، والتمرد السني، والمليشيات الشيعية المرتدة، أو ما يسمى بالمجموعات الخاصة، ثم استهدافهم وقتلهم. ودمجت العمليات، التي كانت إما من نوع «برامج الوصول الخاصة»، أو جزءاً من «المعلومات المصنفة الخاصة»، بعضاً من أكثر الأساليب والمعلومات سريةً لدى الحكومة الأمريكية.

طلب مني كبار الضباط العسكريين والمسؤولين في البيت الأبيض عدم نشر التفاصيل أو الأسماء الرمزية المرتبطة بالبرامج الرائدة المبتكرة. وقدموا الحجة على أن نشر الأسماء وحده قد يؤدي إلى فضح الأسرار التي أفادتنا كثيراً في العراق. ولأن الكشف عن تفاصيل مثل هذه العمليات يمكن أن يضعف استمرار استخدامها، اخترت عدم التطرق

إليها بمزيد من التفصيل هنا. لكن عدداً من المصادر الموثوقة تقول إن هذه الأنشطة السرية مارست تأثيراً واسع النطاق في العنف ويمكن أن تمثل العامل الأكبر في تخفيض مستوياته. وأكد عدد من هذه المصادر أن نسبة راوحت بين 85-90% من العمليات الناجحة و«المعلومات الاستخبارية الفاعلة والواقعية» نتجت عن هذه الأساليب والعمليات والمصادر الجديدة. وقال آخرون إن النسبة مبالغ فيها، لكنهم اعترفوا بأهميتها. مرة أخرى، كان الإبداع الأمريكي الابتكاري هو الذي حقق الميزة والتفوق.

استخدم الجنرال ستانلي مكريستل، قائد قيادة العمليات الخاصة المشتركة، المسؤولة عن مطاردة القاعدة في العراق، استخدم ما دعاه أسلوب «الحرب التعاونية»، القائم على الاستفادة من كل أداة متاحة ووسيلة متوافرة بنحو متزامن، من التنصت على الإشارات السلكية واللاسلكية إلى المعلومات الاستخبارية البشرية وغيرها من الأساليب التي تتيح القيام بعمليات بسرعة البرق ومتزامنة أحياناً. أما ديريك هارفي، خبير وكالة استخبارات الدفاع ومستشار بترايوس، فقد قال سراً إن العمليات كانت فاعلة إلى حد أنها منحته «لذة الجماع».

حين سألت بوش فيما بعد عن ذلك، قدم إجابة بسيطة: «قيادة العمليات الخاصة المشتركة ممتازة».

العامل المهم الثاني في تخفيض مستوى العنف هو صحوة الأنبار، حيث انقلب عشرات الآلاف من السنة على القاعدة وانضموا إلى القوات الأمريكية. ارتكبت القاعدة أخطاء إستراتيجية في المحافظة، وقضت المبالغة في الثقة بالذات على فرصتها بالنجاح. فقد تزوج أعضاؤها نساء العشائر المحلية بالقوة، واستولوا على المستشفيات، واستخدموا المساجد لعمليات قطع الرؤوس، وقصفوا الملاعب بمدافع الهاون، ونفذوا أحكام الإعدام بالمواطنين، وتركوا الجثث المقطوعة الرؤوس في الشوارع وكتبوا عليها: «لا ترفع هذه الجثة وإلا ستلقى المصير نفسه». وأدت الأساليب الوحشية إلى إضعاف معظم التأييد المحلي للتنظيم.

وطوال عدة شهور، عملت القوات الأمريكية مع زعماء العشائر، الذين قاتلوا الأمريكان ذات يوم، للمساعدة على بناء قوات أمنية محلية في شتى أرجاء المحافظة.

أبلغني الشيخ أحمد أبو ريشة، الذي تحالف شقيقه الأصغر مع القوات الأمريكية أولاً قبل أن يلقى حتفه، ويرأس الآن مجلس الصحوة العراقية: «نحن الذين أنقذوا الوطن. ونحن قادرون على مقاتلة القاعدة» [4].

وبدأت القيادة العسكرية الأمريكية تأليف مجموعات من آلاف الرجال الذين دعاهم بترايوس «المواطنين المحليين المعنيين» (وعرفوا فيما بعد باسم «أبناء العراق»)، وهي مجموعات تحرس الأحياء وتحمي سكانها وتقدم المعلومات الاستخبارية إلى القوات الأمريكية والعراقية.

التحول الثالث المهم حدث في التاسع والعشرين من آب، حين أمر مقتدى الصدر جيش المهدي القوي بتعليق عملياته، ومنها الهجمات على الجنود الأمريكيين. عرف بترايوس وغيره أن ذلك لم يكن إحساناً من الصدر، فقد تبع أمره قتالاً جرى بين جيش المهدي والقوات العراقية في مدينة كربلاء المقدسة، قتل فيه 50 من الحجاج الشيعة الذي احتشدوا هناك للاحتفال بإحدى المناسبات الدينية السنوية، وجُرح 275 منهم. وكان أمر الصدر بتعليق نشاطات جيشه طوال ستة أشهر ضربة حظ مفاجئة للأمريكيين، ضمن سلسلة من الأحداث السعيدة صبت كلها في مصلحتهم.

في أثناء تلك المدة، حصلت وكالات الاستخبارات الأمريكية على معلومات مستفيضة عن رئيس الوزراء المالكي، وأفراد فريقه ومساعديه وغيرهم داخل الحكومة العراقية. ويعتقد بعض المسؤولين المطلعين على جمع المعلومات الاستخبارية عن المالكي أنها توفر نظرة شفافة إلى أعماله وأفعاله.

قال أحد المصادر: «نحن نعرف كل ما يقوله».

وقال آخر إن المالكي ومساعديه اشتبهوا، بل عرفوا هذا الرصد والمراقبة، ولذلك التزموا جانب الحذر في أحاديثهم المتبادلة، واتخذوا إجراءات مضادة. في بعض الحالات المعينة، كما أضاف، قدمت المصادر البشرية إلى كبار المسؤولين الأمريكيين تحذيرات ومعلومات عن مواقف رئيس الوزراء، وخططه، ومناوراته، وأعماله السرية، ومساعديه وموظفيه في الحكومة العراقية.

وقال المصدر عن عمليات رصد المالكي ومراقبته: «من المتعذر الحصول على الشفافية المطلقة... ولا يمكن معرفة ما يدور في رأسه. فحين يتكلم، لن تشتبه أنه يخدعك. لدينا الكثير –الكثير– من الرؤى المتعمقة، لكن المعرفة المطلقة أمر مستحيل. ولن أقدر على القول إنني أعرف تماماً كل ما يفعله المسؤولون العراقيون».

وقال مصدر ثالث إن رصد المالكي ومراقبته أكثر من مجرد عملية روتينية.

وأدرك مصدر رابع حساسية القضية، وسأل: «ألم يكن من الأفضل لو امتنعنا عن مراقبته حركاته وسكناته ورصدها؟».

من المنطقي تماماً جمع المعلومات الاستخبارية عن الأعداء المعروفين أو المشتبه فيهم. لكن التجسس على الأصدقاء والحلفاء، خصوصاً في ديمقراطية فتية تعهدت الولايات المتحدة بمساعدتها (مع أنها غير مسبوقة) تثير أنواع الأسئلة كلها. ومن المؤكد أن الوكالات الاستخبارية مغرمة بمعرفة ما يجري في الحلقة الداخلية، لكن عدداً من كبار المسؤولين قالوا: «ما المكسب؟ وهل يستحق المجازفة؟». لم تتضح فائدة هذه المعلومات للرئيس بوش. ومثلما يتعذر على الولايات المتحدة الانتصار في العراق عن طريق القتل، كما قال الجنرال بترايوس، فإن من المستحيل على الأرجح أن تحقق الاستقرار السياسي –الهدف النهائي– عن طريق التجسس.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أحد عشر مصدراً من المصادر المطلعة.

1- Presidential Documents, August 22, 2007, pp. 1107-1114 (Vol. 43, No. 34), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no34.html2-

Presidential Documents, August 28, 2007, pp. 1124-1131 (Vol. 43, No. 35), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no35.html

3- NIE, «Prospects for Iraq's Stability: Some Security Progress but Political Reconciliation Elusive,» August 2007,
www.dni.gov/press_releases/20.

4- مقابلة مع الشيخ أحمد أبو ريشة، 2008/6/3.
انظر أيضاً:

Sterling Jensen, «Lessons from an Anbar Sheik,» The Washington Post, September 29, 2007, P. A19.

-38-

في التاسع والعشرين من آب 2007، كتب مساعد بترايوس، الضابط السابق في الجيش الأسترالي، والخبير المعروف في مكافحة التمرد، ديفيد كيلكولن، على أحد مواقع الويب: «قضينا السنوات الأربع الأخيرة نبني بكل عناية/وندعم نظاماً سياسياً عراقياً لا يعتمد على المؤسسات القبلية/العشائرية». ولاحظ أن سلطة التحالف المؤقتة، بإدارة بول بريمر، همشت العشائر عام 2003؛ لكي تركز على بناء دولة ديمقراطية «حديثة» في العراق [1].

لكننا الآن، كما كتب: «نشهد التقدم السياسي والأمني الأهم منذ سنين، وذلك عبر بنية هيكلية خارج تلك التي بذلنا جهداً دؤوباً لإيجادها. فهل يبطل ذلك جهود السنوات الأربع الأخيرة؟ لا على الأرجح، طالما ندرك أن رؤية إقامة ديمقراطية «حديثة» (بمدلول البلدان الصناعية الغربية) بحسب نموذج جيفرسون، تعتمد اعتماداً كلياً على المؤسسات غير القبلية، فستظل على الدوام رؤية غير واقعية إلى حد ما. ففي الكيان السياسي العراقي، قد ينتهي الأمر بحقوق العشائر وهي تلعب دوراً يشبه حقوق الولايات في الديمقراطيات الأخرى».

أضاف كيلكولن: «وبصراحة تامة، فإن النمط الذي نشهده يناقض ما توقعناه من الزيادة في عدد القوات إلى حد ما... فالمفهوم الأصلي تمثل في قيامنا (التحالف والحكومة العراقية) بإيجاد وضع أمني مستقر، يوجد بدوره حيزاً لعقد 'صفقة كبرى' على المستوى الوطني. وبدلاً من ذلك، نرى النقيض بالضبط: سلسلة من الصفقات السياسية أدت إلى طرد المتطرفين، وأنتجت تحسناً رئيساً في الأمن على المستوى المحلي، والحكومة الوطنية تقفز إلى السفينة لتلحق بالركب. وبدلاً من إجراء مصالحة بقيادة التحالف تتجه من القمة إلى القاعدة، فإن هذه المصالحة جرت بقيادة عراقية، ومن القاعدة إلى القمة،

اعتماداً على المجتمع المدني لا على السياسة الوطنية. ومن الغريب أنها تعمل بنجاح على ما يبدو إلى الآن».

في الختام، قال كيلكولن إن الولايات المتحدة، بغض النظر عما تصورته أو أملت فيه من الزيادة، قبلت الحلول التي اختارها العراقيون بأنفسهم. «مهمتنا هي تقديم الدعم كلما دعت الحاجة، وضمان وجود إجراءات حماية سياسية مناسبة، ومعايير مطبقة لحقوق الإنسان، لكن علينا في نهاية المطاف إدراك أن ذلك كله سيتبدى بطرق جيدة أو سيئة، لكن غير قابلة للتوقع في الجوهر».

أراد فالون أن يستبدل ببترايوس قائداً آخر للقوات في العراق في خريف ذلك العام. كان بترايوس يتعرض لكثير من الضغوط. تلك كانت المرة الثالثة التي يخدم فيها في العراق، فقد أمضى فيه أربع سنين تقريباً من السنوات الخمس الماضية، وحمل عبء العالم كله على كتفيه، وعانى الإجهاد والتوتر، ولم ينل ما يكفي من النوم والراحة.

تذكر فالون صور رجال البحرية في الحرب العالمية الثانية، التي غطت جدران مبنى قيادة المحيط الهادي في هاواي عندما عمل قائداً لها. كان الأدميرال مارك ميتشر في التاسعة والخمسين حين عاد إلى الولايات المتحدة عقب انتهاء الحرب، لكنه بدا في التسعين، وتوفي بعد سبعة شهور.

أما الأدميرال جون إس. مكين، جد سيناتور أريزونا، فقد عانى إجهاداً فظيعاً في أثناء حرب المحيط الهادي، فانخفض وزنه عند انتهائها إلى 45 كغ فقط. ثم حضر مراسم استسلام اليابان في الثاني من أيلول عام 1945، وتوفي بأزمة قلبية في كاليفورنيا بعد أربعة أيام.

كان ضرر حرب العراق لا يصدق، وطحنت برحاها بترايوس.

فيما بعد، أصر فالون على أنه أوصى غيتس باستبدال بترايوس. لكن غيتس أنكر الواقعة كما أبلغ مساعديه.

في صبيحة الإثنين، العاشر من أيلول، ظهر إعلان على مساحة صفحة كاملة في نيويورك تايمز ينتقد بترايوس قبل ساعات من تقديم شهادته أمام الكونغرس. وضعت الإعلان جماعة ليبرالية سياسية تدافع عن الحقوق تدعى «موف أون. أورغ» (MoveOn.org).

كُتب بالأحرف الكبيرة تحت صورة بترايوس: «الجنرال بترايوس أم الجنرال الذي خاننا» *. «الجنرال بترايوس رجل عسكري في حرب مستمرة مع الحقائق» [2].

صدم بترايوس بمثل هذا التهجم الشخصي، فهو علامة دالة على مدى فظاظة المشاعر المعادية الحربَ وما وصلت إليه من قوة وانتشار.

وحين فتح بريده الإلكتروني ذلك الصباح، اكتشف أن امرأة من بلدته كورنوال –أون-هدسون، قد أرسلت إليه نسخة من قصيدة روديارد كيبلنغ «لو»:

لو تستطيع الحفاظ على رأسك، عندما

يفقد من حولك رؤوسهم ويلومونك على فقدها...

وحين تابع القراءة، اتخذت الأبيات مدلولاً شخصياً:

لو تتمكن من مواجهة النصر والكارثة

وتعامل هذين المخادعين بالتساوي

لو استطعت تحمل الحقيقة التي نطقتها وسماعها

وقد حرفها الخبثاء لجعلها فخاً للبسطاء...

بعد ظهر ذلك اليوم، وصل بترايوس وكروكر إلى غرفة الاستماع الشبيهة بالمغارة في مبنى كانون هاوس أوفيس، بزخارفها الذهبية، وستائرها السميكة، وثرياتها الضخمة. وكانت حشود المراسلين ومصوري التلفاز، والمحتجين، قد وصلوا قبل ساعات ليملؤوا كل بوصة من الغرفة ويعطوا المناسبة جو السيرك. وجلبت مقاعد مطوية لاستيعاب أكثر من مئة من أعضاء مجلس النواب، حيث سيمنح كل منهم فرصة سؤال الجنرال والسفير.

* ثمة لعب على الألفاظ في الإعلان. إذ تحول اسم بترايوس Petraeus إلى betray us بمعنى خاننا أو خدعنا. (م)

قال ديفيد غيرغن، المستشار السابق لخمسة رؤساء أمريكيين، على محطة سي إن إن إنها «أهم شهادة لأي جنرال منذ أربعين سنة»[3].

في الساعة 1:30 تقريباً بدأ بترايوس قراءة بيانه الافتتاحي. وأمكنه سماع أزيز كاميرات المصورين، كأنها أصوات مكتومة لمدافع رشاشة.

أصابه فجأة شعور غريب بالاستخفاف بالذات وهو يتلو بيانه. كانت لحظة غريبة تساءل فيها عما يفعله هنا، تجربة أتته من خارج الجسد.

مع استمرار الجلسة، أحس بأن مقعده منخفض فاضطر إلى الجلوس منتصب الظهر، كأنه في وضعية استعداد، وقد وضع يديه على الطاولة أمامه. بدأ ظهره يؤلمه، فتناول في أثناء الاستراحة أقراصاً مهدئة للألم.

على مدى ساعات ذلك النهار الطويل التي امتدت إلى الليل، اتسم بترايوس وكروكر بالهدوء والتعقل والاتزان والتأني، وأجابا عن كل سؤال يمكن تصوره عن الحرب. قال بترايوس إن تقدماً كافياً تحقق إلى حد أن إحدى وحدات مشاة البحرية التي نشرت بوصفها جزءاً من الزيادة في عدد القوات سوف تغادر ذلك الشهر، ليتبعها في كانون الأول إعادة نشر أحد ألوية الجيش. ومع ذلك، حذر من مغبة التعجل بالانسحاب. وشبه المهمة في العراق «ببناء أضخم طائرة في العالم وهي تطير، وهي تتعرض لإطلاق النار»[4].

في عدد اليوم اللاحق قالت صحيفة واشنطن بوست على صدر صفحتها الأولى: «يؤيد بترايوس انسحاباً أولياً؛ الجنرال يمتدح التقدم المتحقق، ويحذر من استعجال الفشل». امتُدحت الشهادة بوصفها معقولة وقابلة للتصديق. وتمكن بترايوس وكروكر من منح الرئيس مزيداً من الوقت[5].

في ذلك الصباح، الذكرى السادسة لهجمات الحادي عشر من أيلول، ذهب بترايوس وكروكر إلى مجلس الشيوخ لعقد جلسة استماع ماراثونية أخرى. ثم دعا بوش زعماء الكونغرس إلى البيت الأبيض لمناقشة شهادتي بترايوس وكروكر، وسماع آرائهم عن العراق. بدا الرئيس مفعماً بالنشاط والحيوية، فقد كان أداء جنراله وسفيره جيداً.

لاحظ لاري ريد (ديمقراطي من ولاية نيفادا)، زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، الذي رفض الحرب وانتقد بوش، وهو يجلس بجانب الرئيس في القاعة، أمارات الجرأة والتباهي على وجهه. واعتقد أنها لا تليق بهذه المناسبة السنوية الحزينة [6].

قال بوش إن الجهاديين الإسلاميين المتطرفين يستخدمون الحرب أداة حشد وتعبئة، برغم أن ذلك لم يقلقه كما بدا. «بالطبع، تحتاج القاعدة إلى مجندين؛ لأننا نقتل أعضاءها»، كما قال مع ابتسامة واهية. وأضاف: «نحن نقتلهم، كلهم».

التقى جاك كين مع نائب الرئيس في الجناح الغربي يوم الخميس الثالث عشر من أيلول، بعد يومين من انتهاء بترايوس وكروكر من الإدلاء بشهادتيهما. جلس الجنرال في مقعد أمام مكتب نائب الرئيس وعبر مرة أخرى عن قلقه من الضغط المتواصل على بترايوس من رؤساء الأركان، والأدميرال فالون، وموظفيهم، الذين يقوّمون عمله، ويصرون على الدراسات والتقارير لتبرير طلب حتى أقل عدد من القوات الإضافية.

فجأة، دخل بوش مع كبير موظفيه جوش بولتون. تبادل الجميع التحية. وغادر بولتون الغرفة.

قال بوش وهو ينظر حوله بإعجاب: «أتعلم يا ديك، لديك مكتب جميل هنا». وبدا كأنه يزور مكتب تشيني أول مرة مع أنه لا يبعد أكثر من مئة خطوة عن المكتب البيضاوي.

قال تشيني مشيراً إلى السنوات الثماني التي قضاها والد بوش نائباً لريغان بين عامي 1981-1989: «السيد الرئيس، كان هذا مكتب والدك».

قال بوش وهو يحدق حوله: «أجل. حسناً. يبدو مختلفاً قليلاً».

التفت الرئيس إلى كين، وقال لنائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق: «أعلم أنك تتحدث مع ديف. أنا أحترم سلسلة القيادة».

اعتقد كين أن هذا يعني أن الرئيس شعر بأنه لا يستطيع استدعاء بترايوس مباشرة، نظراً إلى ضرورة حضور غيتس والأدميرال فالون أيضاً.

قال بوش: «أعرف أن لدى رؤساء الأركان والبنتاغون بعض المخاوف. أحدها يتعلق بالجيش ومشاة البحرية وتأثير الحرب فيهما، والآخر بالحالات الطارئة والافتقار إلى» قوات للرد الإستراتيجي على تلك الحالات الطارئة.

قال كين: «السيد الرئيس، مع الاحترام كله، وفيما يتعلق بالحالات الطارئة، لا أرى كيف يمكن لخسارة الحرب في العراق أن تساعدنا على التصدي لأي من هذه الحالات الطارئة المحتملة. وهذا ما نخاطر به حين لا نركز الجهد كله على الحرب». فالهزيمة، أو أي علامة دالة على الضعف سوف تزعزع العلاقات مع الحلفاء، خصوصاً تلك المضطربة أصلاً، كما قال، وتشجع الأعداء على المغامرة. «يبدو لي أن علينا كسب الحرب أولاً».

أومأ بوش رأسه موافقاً.

كرر كين التعبير عن قلقه من الضرر الذي يسببه رؤساء الأركان، ومسؤولو القيادة المركزية، وفالون، لبترايوس والعبء الذي يحمله والضغط الذي يتعرض له. «لا يكون من تربى في ثقافة عسكرية مستعداً كثيراً لمواجهة سلسلة قيادة لا تدعمه، ومع ذلك يحقق النجاح. في العادة يتعرض للطرد. الأضواء مسلطة كلها على بترايوس، ومن الواضح أن المصلحة الوطنية للولايات المتحدة ومصداقيتها على المحك، وهو يمشي على حد السيف، دون أن يجد من يمد له يد المساعدة». أما النتيجة، كما قال، فهي أن بترايوس: «يبدأ بالبحث عن طرق للتخلص من هذا الضغط، وهذا يعني نوعاً من التكيف». والدليل أنه وافق على سحب لواء بحلول كانون الأول.

قال الرئيس إنه يريد أن يسلم كين رسالة شخصية إلى بترايوس من القائد العام. وعرض أفكاره وودعهما وغادر.

ذهب كين إلى الردهة الكبيرة في الجناح الغربي، وجلس بين الأرائك والمقاعد ودوّن كلمات الرئيس. ثم اتصل ببترايوس وقال إن عليهما الاجتماع.

في تلك الأمسية، قدم الرئيس في خطبة بثت للأمة على التلفاز تقويماً متفائلاً للوضع. وقال إن بترايوس وكروكر استنتجا أن «الظروف تتحسن في العراق، وأننا استولينا على زمام المبادرة من العدو، وأن الزيادة في عدد القوات تحقق نجاحاً».

وأشار إلى نقطة التحول المفصلية التي حدثت في محافظة الأنبار بمساعدة العشائر المحلية. وفي بغداد، كما قال «تراجعت حدة أعمال القتل الطائفية، وبدأت الحياة العادية تعود مجدداً».

وأضاف إن أمام الحكومة العراقية شوطاً طويلاً لتقطعه، لكن المكاسب على الصعيد الأمني سوف تتيح للولايات المتحدة عدم استبدال قرابة 2200 رجل من مشاة البحرية من المقرر أن يغادروا الأنبار في وقت لاحق من أيلول، وإعادة لواء مقاتل من الجيش إلى أرض الوطن بحلول عيد الميلاد. وقال إن بترايوس يتوقع أن يتمكن من تخفيض مستويات القوات من عشرين لواء مقاتلاً إلى خمسة عشر بحلول شهر تموز من عام 2008، مما يعني أن الجنود الإضافيين الذي أرسلوا سوف يعودون إلى الوطن.

شرح بوش قائلاً: «المبدأ الهادي لقراراتي المتعلقة بمستويات الجنود في العراق هو العودة اعتماداً على النجاح. فكلما زاد نجاحنا، زاد عدد الجنود الأمريكيين الذين يمكن إعادتهم إلى الوطن». وقال إنهم لن يعودوا كلهم؛ لأن «النجاح سوف يتطلب انخراط الولايات المتحدة السياسي والاقتصادي والأمني ردحاً من الزمن يتجاوز مدة رئاستي...».

«يقول بعضهم إن المكاسب التي نحققها في العراق أتت متأخرة جداً؛ لكنهم مخطؤون. إذ لا يعد مكسباً متأخراً توجيه ضربة إلى القاعدة، وتشجيع الحرية، وتقديم الدعم لجنودنا في قتال يمكنهم الانتصار فيه» [7].

في مؤتمر صحفي عقده غيتس في اليوم اللاحق، الرابع عشر من أيلول، ذكر أنه يأمل أن يتمكن من تخفيض عدد القوات في العراق إلى مئة ألف بحلول نهاية عام 2008 [8]. تجاوز حجم التخفيض الكبير ما وافق عليه بترايوس أو بوش. وظهرت تعليقاته على الصفحات الأولى من الجرائد الصادرة في مختلف أرجاء البلاد في اليوم اللاحق، مع عناوين مثل: «غيتس يسعى إلى تخفيض أكبر في عدد القوات» [9].

اتصل بترايوس بالمساعد العسكري لغيتس، الجنرال بيت تشياريللي.

قال: «ما هذا الذي يحدث؟».

أجاب تشياريللي: «آه، لا تقلق. يعرف الأمر. لا بأس. انجرف قليلاً. سوف نصلح المسألة».

فيما بعد، قال وزير الدفاع إنه لم يجد طريقة لتخفيض عدد القوات إلى مئة ألف بحلول الوقت الذي يترك فيه بوش منصبه. واعترف علناً: «العملية ستكون أكثر بطئاً». ولدى بترايوس خطة مفصلة، والحكومة العراقية والقوات الأمنية تحقق تقدماً، وهو لا يريد الاستعجال. وأضاف: «يجب أن نعمل خطوة خطوة».

في يوم السبت الخامس عشر من أيلول، ذهب كين إلى قاعدة فورت ماير في أرلنغتون (بولاية فرجينيا)، حيث يقيم بترايوس وزوجته هولي في مسكن مقدم من الجيش. وكان بترايوس سيتوجه قريباً إلى بغداد.

جلس الرجلان وحدهما، ووصف كين لقاءه مع الرئيس ونائب الرئيس. ثم أخرج صفحة من الورق كان قد كتب عليها رسالة الرئيس إلى بترايوس وقرأها جهراً:

«أحترم سلسلة القيادة. أعلم أن لدى رؤساء الأركان والبنتاغون بعض المخاوف المقلقة. أحدها يتعلق بالجيش ومشاة البحرية وتأثير الحرب فيهما. والآخر يتعلق بالحالات الطارئة والافتقار إلى رد إستراتيجي على تلك الحالات الطارئة».

«أريد أن يعلم ديف أنني أريده أن يفوز. هذه هي الرسالة. وسيحصل على القوة التي يحتاج إليها طوال مدة حاجته إليها».

«وحين يشعر بأنه يريد إجراء مزيد من التخفيض، عليه أن يعتمد في قراره على الظروف التي يعتقد أنها تبرره في العراق. وبالنسبة إلى القضيتين المقلقتين اللتين ناقشناهما هنا في واشنطن —العمليات الطارئة وحاجات الجيش ومشاة البحرية- يجب ألا يشغل باله بهما، فهما من اختصاصي».

«لا أريد تغيير الإستراتيجية قبل أن تنجح. لقد انتظرت أكثر من ثلاث سنين لتطبيق إستراتيجية ناجحة. ولن أتخلى عنها قبل الأوان. ولن أجري أي تخفيضات إضافية إلا إذا اقتنعت أنت بجدواها».

كانت رسالةً تعبر عن الدعم الكامل، ولن يطالب أي قائد ميداني بأكثر منها. وحقيقة أن بوش أرسلها عبر القنوات الخلفية، أو حتى مجرد إرسالها، تكشف عمق الخلافات وحدتها بين الرئيس والمؤسسة العسكرية في واشنطن. ولم يبلغ حتى غيتس أو هادلي بإرسالها.

فيما بعد، أكد هادلي، الذي كان على ثقة في البداية بأنه سيعلم بها، أكد مع بوش إرسالها. وحين سألت الرئيس عنها في عام 2008، شرح السبب الذي جعله يرسلها بواسطة كين. «أردت أن يعرف ديف أنني أريد الفوز. وأن كل ما يحتاج إليه سيحصل عليه، في حدود المستطاع طبعاً. لا أريد أن يفكر القائد الذي عينته أنه يتعامل مع رئيس مشغول بآخر استطلاعات الرأي أو السياسة إلى حد القلق من إصدار قرار أو توصية تجعل [القائد] يشعر بالانزعاج» [10].

بعد أن سمع بترايوس رسالة الرئيس من كين، قال: «أتمنى لو يخبر القيادة المركزية والبنتاغون بها». فالمسؤولون فيهما هم الذين يجب عليه التعامل معهم كل يوم، وهؤلاء يتبنون منظوراً مختلفاً اختلافاً كبيراً. ومثلما هي الحال دائماً، فإن جريرة مخاوف واشنطن المقلقة يتحملها القائد الميداني.

قال كين: «لقد حاولت». أمل أن يجبر الرئيس وتشيني غيتس، ورؤساء الأركان، والقيادة المركزية، على اتباع الإستراتيجية ذاتها.

قال بترايوس إن شهادته أمام الكونغرس كانت محنة لم يتوقعها. فالجلوس في المقعد في وضعية الاستعداد طوال اليوم الأول مدة عشر ساعات ونصف الساعة عذبه وأوجعه. فضلاً على عبثية الاستراحات القليلة والطعام الذي لا يسد الرمق. وأضاف إنه كان مستعداً لسماع الخلافات على السياسة، لكنه فوجئ بالهجوم عليه شخصياً. فإعلان «الجنرال الذي خاننا» كان صعباً عليه بوجه خاص. «الناس معتادون على هذا الموضوع، فالجميع يتحدثون عنه. لكن عندما تجد اسمك وصورتك، تشعر حتماً بأنه هجوم على شخصك». وأضاف إنه لا يعرف هل يتمكن من تجاوز هذه المحنة.

قال كين إنه بوصفه نائباً لرئيس هيئة أركان الجيش (سابقاً)، اعتاد تقديم ست شهادات في السنة. لكن لم يتعرض لهجوم شخصي قط. «عليك أن تفهم غرابة هذه المسألة، وشذوذ هذا النوع من السلوك».

رأى كين أن صديقه مدمر عاطفياً ومنهار وجدانياً. ففي أثناء الشهادة المتلفزة، بدا مجروحاً قليلاً، لكن ذلك جعل العرض أكثر فاعلية وتأثيراً، ولم تبد دفاعية أو انتصارية.

مع أن بترايوس قد وافق على العودة مرة أخرى بعد ستة أشهر لتقديم شهادة علنية توجز آخر التطورات، إلا أن كين أبلغه: «إن استطعت تدبير أمر إلغائها فافعل ذلك». وهذا أمر صعب؛ لأن ظهوره أمام الكونغرس أبعد عن كاهل إدارة بوش كثيراً من الضغط. وأضاف: «لكن إن عدت مرة أخرى، فسيكون لديك المزيد من قصة النجاح لروايتها، نظراً إلى ما نعرف أنه سيحدث إلا إذا تبين خطأ افتراضاتنا، وأعتقد أن هذا المستوى من القلق فيما يتعلق بمسألة العراق برمتها سوف ينحسر ويتراجع. وأتوقع أن يحدث ذلك بالتأكيد. ومع أن الاستجابة لن تصل إلى حد التعبير عن المحبة، لكنها ستختلف عن سابقتها كما أعتقد».

«القضية الحقيقية بالنسبة إليك أن حياتك العسكرية برمتها، وكل ما حدث قبل الشهادة، وكل ما سيحدث بعدها، سيتحدد بمسألة واحدة: العراق. لقد انضممت إلى مجموعة مختارة من الجنرالات، ولم نواجه وضعاً مشابهاً منذ فيتنام. ونظراً إلى حقيقة أنك تحقق النجاح وستستمر في تحقيقه، أعتقد أنك أقرب إلى جنرالات الحرب العالمية الثانية منك إلى جنرالات حرب فيتنام». والنموذج الواضح هو دوايت أيزنهاور. «ما ستفعله في الأشهر الباقية سوف يحدد مصيرك طوال ما بقي من حياتك المهنية العسكرية وحياتك العادية».

«القضية هنا هي التوثق من عدم تبديد المكاسب التي حققناها. فمن المحبط جداً أن تضطر إلى الوقوف في وجه سلسلة القيادة التي تتبعها كل يوم، وتحاربها، بدلاً من تلقي الدعم منها».

قال بترايوس إن الجيش يفكر في تعيينه في مناصب جديدة بعد العراق، ومن بينها: قائد حلف شمال الأطلسي، أو قائد القيادة المركزية (المنصب الذي يشغله الأدميرال فالون حالياً)، أو رئيس قيادة التدريب وعقيدة التشغيل، التي تشرف على تدريب الجيش، وتطوير العقيدة العملياتية، وشراء منظومات الأسلحة الجديدة.

قال كين بنبرة شبه موبخة: «كفاك يا ديف. قيادة التدريب والتشغيل؟! صحيح أنها قيادة مهمة، لا أجادل في ذلك. لكن عليك أن تفهم من أنت الآن وما حدث لك». وكان هنا يعني ما قاله للتو عن بترايوس وكونه أقرب إلى جنرالات الحرب العالمية الثانية. «لم نشهد جنرالاً مثلك منذ مدة طويلة. ربما لا تدرك هذه الحقيقة، لكنك تمارس تأثيراً أعظم من أي قائد عسكري في البلد الآن. ونفوذك أقوى من رؤساء الأركان، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، وقائد القيادة المركزية بالتأكيد». فقدرة بترايوس على تكوين الرأي العام لا تضاهى. «ما تتمتع به يتجاوز ما يملكه أي قائد آخر»، بل حتى الرئيس نفسه. «لقد بلغت تلك المكانة بسبب التحول الذي حققته في هذه الحرب. فالجميع يعلم استحالة إنجاز ذلك لولا جهودك. ونظراً إلى هذه الحقيقة، هذه هي المنصة التي تقف عليها، شئت أم أبيت».

قال بترايوس: «لم أفكر في الأمر على هذا النحو».

قال كين ضاحكاً: «إذاً، لا تفكر في قيادة التدريب والتشغيل. لا يوجد قائد أريب يسمح بتعيينك في هذا المنصب. لن يحدث ذلك أبداً». ثم تحدث بوصفه رئيسه السابق في الجيش: «لقد استثمرنا فيك. إذا أردت البقاء في المؤسسة العسكرية، فسوف يسمح لك بالتأكيد. ويمكنك أن تقدم الحجة المقنعة على رغبتك بتركها، حيث لا يوجد منصب يقارن بمنصبك الحالي».

الاقتراح الضمني هو الاشتغال بالسياسة.

قال كين: «هناك منصبان اثنان عليك التفكير فيهما: أحدهما القيادة المركزية. فالمكانة التي وصلت إليها سوف تغل علينا مكاسب على شكل قوة ونفوذ في المنطقة؛ وهذا ما لا يستطيعه أي قائد آخر. فهذه المنطقة هي مركز الجاذبية للأمن الدولي والنزاع في العالم».

في القرن العشرين كانت أوروبا هي المركز، حيث جرت حربان عالميتان فيها. لكن المركز الآن هو الشرق الأوسط. «سوف نخوض حروباً أخرى هنا»، كما قال كين.

الاحتمال الثاني هو منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، لكن ذلك يعتمد على مدة الخدمة التي يرغب بترايوس بقضائها. فالرئيس الجديد، الأدميرال مولين، قد بدأ لتوه مدة خدمته التي تستمر سنتين، ولذلك لن يشغر المنصب قبل عام 2009 على أقل تقدير.

في مقر القيادة المركزية في تامبا، شعر فالون بأن نفوذه يتضاءل. واستشعر أن بترايوس يحظى بقناة اتصال مباشرة بالبيت الأبيض، تتجاوزه هو وسلسلة القيادة. ومع ذلك، شهدت علاقته ببترايوس تحسناً كبيراً على مر السنة. وبرأي فالون، توصل الاثنان إلى نتيجة مفادها أن بالمستطاع تخفيض عدد القوات إلى أربعة ألوية أو خمسة في مدة عامين أو ثلاثة، برغم أن أياً منهما لم يذكر ذلك علناً.

لكن فالون بقي متشبثاً بصراحته المعهودة. وقال لغيتس: «إن اعتقدت أن ذلك يضعف فاعلية قدرتنا على أداء المهمة هنا، فأبلغني وسوف أستقيل».

فقال غيتس، بنبرة لا تعبر عن موافقة حماسية: «تابع العمل».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة

1- انظر:

David Kilcullen, «Anatomy of a Tribal Revolt, « *Small Wars Journal*, August 29, 2007, www.smallwarsjournal.com

2- انظر:

General Petraeus or General Betray Us?» MoveOn.org advertisement, *The New*» *York Times*, September 10, 2007, P. A25.

انظر أيضاً:

http://pol.moveon.org/petraeus.html.

3- CNN Newsroom, September 10, 2007,http://transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS.

4- Joint Hearing of the House Armed Services and Foreign Affairs Committees;» Subject: The Status of War and Political Developments in Iraq, «Federal News Service, September 10, 2007, www.fnsg.com.

5- Peter Baker and Jonathan Weisman, «Petraeus Backs Initial Pullout; General Praises Progress, Warns Against 'Rushing to Failures,'» *The Washington Post*, September 11, 2007, P. A1.

6- Harry Reid, The Good Fight, 2008, P. 10.

7- Presidential Documents, September 13, 2007, pp. 1204-1208 (Vol. 43, No. 37), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no37.html.

8- Defense Department News Briefing, September 14, 2007, DOD transcripts, www.defenselink.mill.

9- Julian Barnes, «Gates Seeks Bigger Troop Cut; The Defense Chief Looks to Reduce the Number in Iraq by Nearly Half Before 2009-a Deeper Trim than Bush Plans,» *Los Angeles Times*, September 15, 2007, P. A1.

10- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

-39-

بعد عودة بترايوس إلى بغداد، انهمك على نحو متزايد بأصغر تفاصيل عمليات الحكومة العراقية. احتلت قمة الأولويات مساعدة الحكومة الجديدة على تحقيق تقدم سياسي، لكنه وجد أن ذلك يحدث في نوبات غير منتظمة، خطوة بطيئة مؤلمة في كل مرة. كان ذلك كله يعني عدم وجود قضية تافهة، ولا مشكلة عادية. فقد لعب دور الحكم في النزاعات المحلية وجادل في قضايا من اختصاص المجلس البلدي لا الحكومة الوطنية.

في أحد الاجتماعات مع كبار الوزراء العراقيين، لاحظ بترايوس أن عدداً ضخماً من سيارات الحكومة العراقية قبل غزو عام 3003 مازالت تحمل اللوحات والعلامات الحكومية العراقية، على الرغم من عدم معرفة هوية سائقيها. قال: «غالبية عمليات الاختطاف تجري بسيارات حكومية». إضافة إلى ذلك، لا يطيع كثير من هؤلاء السائقين الأوامر عند مختلف نقاط التفتيش المنتشرة حول بغداد. فكيف تنوي الحكومة السيطرة على المركبات التابعة لها؟

اقترح وزير الداخلية العراقي وضع علامات جديدة بحيث «لا نقبل إلا الإذن الذي يوقع عليه الوزير المعني شخصياً بأن السيارة قانونية».

تجهم وجه بترايوس. فإلى وقت قريب، كان على وزير الدفاع توقيع العقود كلها شخصياً، وسوف يمضي ساعات في توقيع أكداس هائلة من الأوراق.

قال وزير الدفاع إنه عيّن نائب قائد القوات البرية على رأس لجنة للإشراف على «تمييز السيارات بالطريقة المناسبة والسيطرة عليها». وهكذا، ألقي عبء مشكلة أمنية كبرى على عاتق لجنة.

«الإجابة عن كل شيء هي تعيين لجنة، ومن ثم عليك مساعدتها»، مثلما اشتكى بترايوس سراً، مع أنه أكد أن الأمور تنجز مع الزمن، وإن بنحو بطيء.

في أثناء الاجتماع ذاته مع كبار المسؤولين، لم يتمكن بترايوس من الاتفاق مع الوزراء العراقيين حول أرقام الهواتف المخصصة للمحطات الأمنية المشتركة في مختلف أرجاء بغداد، التي سيوجد فيها الجنود الأمريكيون، والجنود العراقيون، والشرطة العراقية —وهي جوهر إستراتيجية بترايوس لتأمين السكان. ومثلما تبين، لم تكن بعض المحطات مجهزة حتى بخطوط أرضية. وبعد كثير من النقاش، اتفقوا على تخصيص بعض أرقام الهواتف الخلوية للمحطات.

في مناسبة أخرى، وبخ بترايوس لواء عراقياً بسبب عدم وجود ضباط صغار وضباط صف في الجيش العراقي. فقد قال غاضباً: «نعرف كلنا المشكلة: ليس لديكم ضباط صف أو ضباط من الرتب الصغيرة يلزمون جنودكم بالمعايير. الجميع يعلم ذلك. ونحن نتكلم عن المشكلة منذ شهور». في الجيش الأمريكي، يحتل ضباط الصف وصغار الضباط قلب الوحدات الفاعلة وروحها. «إذاً، أين خطتك لتجنيد ضباط الصف؟ يجب أن نناقش هنا كيف نحل المشكلة، لا أن تأتي إلى هنا وتضيّع وقتنا بالحديث عن مشكلة نعرفها كلنا!».

فيما بعد، طلب بترايوس من مستشار أمريكي يعمل مع العراقيين أن يبلغ اللواء العراقي دعوته إلى الغداء. «قل له إنني أحترمه وأقدره حقاً، وكنت أحاول المساعدة وحسب. قل له إنني لم أهاجمه شخصياً».

في أحد اجتماعات اللجنة الوزارية المعنية بالأمن الوطني، الذي ضم المالكي وغيره من كبار المسؤولين في الحكومة، كانت المشكلة موضوع النقاش أن وزير المواصلات المؤقت لم يدفع فاتورة ستة أشهر لمجموعة «غلوبال ستراتيجيز»، وهي شركة مقاولات بريطانية توفر الأمن والحماية لمطار بغداد الدولي. وكان العقد الذي بلغت قيمته خمس مئة مليون دولار في السنة مهدداً بخطر الإلغاء.

قال برهم صالح نائب رئيس الوزراء: «المشكلة أن البلدان الأخرى لن ترسل طائراتها إلى هنا دون ضمانات أمنية».

قال بترايوس: «هذه مشكلة ضخمة. ولا تقتصر على بغداد فقط، بل يجب العمل أيضاً في البصرة ومرفأ أم قصر، وهو مهم؛ لأنه المرفأ البحري الوحيد في العراق. يجب وجود شركة موثوقة من خطوط الطيران الدولية تكلف بمسؤولية الأمن»، وإلا ستتوقف الرحلات إلى بغداد، مما يزيد عزلة البلد عزلةً. ويمكن لمكان العراق في الاقتصاد العالمي الجديد أن يواجه نكسة خطرة، وربما يتعذر تجاوزها.

بعد ذلك، تحول كبار الوزراء العراقيين، مع رئيس الوزراء، والقائد الأمريكي العام، إلى موضوع الحديد الخردة. استشهد بترايوس بدراسة أظهرت أن في العراق ما قيمته 16 مليار دولار من الحديد الخردة منتشر في مختلف أنحاء البلد، ويشمل حطام السفن التي تسد المرفأ في أم قصر. وقال إن وزير الصناعة والمعادن يحتاج إلى 75 مليون دولار ليبدأ مشروع تنظيف البلد من الحديد الخردة ثم إعادة استعماله. لكنه لاحظ أن المبلغ غير متوافر.

أكد صالح أن المبلغ غير وارد في الميزانية. وقال إنهم يأملون خصصة مشروع الحديد الخردة. ووعد بمتابعة العمل على الموضوع.

في الساعة الواحدة بعد ظهر الثاني من تشرين الأول، ذهب مستشار الأمن القومي العراقي موفق الربيعي لمقابلة رايس في وزارة الخارجية. ومع أنه عرف تماماً أن بترايوس وكروكر يمسكان بزمام معظم الأمور في بلاده، إلا أن من الضروري، كما اعتقد، التفاوض على اتفاق جديد على وضع القوات يسمح للقوات الأمريكية بالبقاء في العراق. قال لها الربيعي: «ليس من الضروري الإعلان عن هذا». إذ أراد رئيس الوزراء المالكي «إلغاء المنغصات المزعجة التي تعد انتهاكات واضحة للسيادة العراقية».

قالت رايس وهي تلقي المسؤولية على المنسق الجديد لشؤون العراق في البيت الأبيض، خريج كلية ويست بوينت عام 1975 الذي عينه بوش «قيصر حرب» الإدارة في العراق وأفغانستان قبل خمسة أشهر: «هذه مشكلة دوغ لوت. سيكون رئيس فريق الولايات المتحدة في تطوير هذه العلاقة».

قال الربيعي: «حسناً، يجب أن تمدي لنا يد العون».

قالت رايس إن من الضروري تأليف مجموعة عمل، لكن في اجتماع حضرته أبلغ بوش الرئيس العراقي جلال الطالباني أنهم «لا يريدون عقد مثل هذه الاتفاق في خضم الموسم السياسي الانتخابي في الولايات المتحدة. وعندئذ، لن يكون من الصعب الموافقة عليه في الولايات المتحدة فقط، بل يستحيل أن يحظى بالموافقة في العراق أيضاً في ظل الظروف الراهنة».

قال الربيعي: «نحن بحاجة إلى حكومة مركزية أكثر قوة. وهذه الحكومة ليست قوية، ولن تتمتع بالقوة إلا إذا أصبحت الولايات المتحدة أكثر جرأة وجسارة في مواجهة أولئك الذين يعرقلون عملها»، وكان يعني السنة وحلفاءهم في الخارج، مثل السعودية.

أجابت رايس: «حسناً. من الذين يجب أن نضغط عليهم؟ ومن أجل أي غرض؟».

قال: «يجب أن تساعدونا عبر الضغط على زعماء الكتل السياسية» مثل طارق الهاشمي (السني)، نائب الرئيس العراقي «بحيث يعرفون أنهم لا يستطيعون بكل بساطة اللجوء إلى العنف بدلاً من المشاركة في العملية السياسية. تولوا مسؤولية التعامل مع الحزب السني، وسنتحمل مسؤولية التعامل مع مقتدى الصدر، والشيعة».

سألت رايس عن الحدود الإدارية للمحافظات، وتلك قضية متنازع عليها.

قال الربيعي: «هناك شلل عام. ركود شامل».

«لماذا؟».

قال الربيعي: «لأن هذه الحدود الإدارية كلها رسمت بالدم. ولن يوافق أحد طوعاً على تغييرها». وأضاف: «سيتفجر قتال حولها. وببساطة شديدة، لا يوجد أحد يملك ما يكفي من نفوذ في المنطقة سواكم أنتم، الولايات المتحدة. نحن لا نملك مثل هذا النفوذ. أنتم وحدكم. ويمكنكم بالحوار الحقيقي فعل شيء مع سوريا وإيران. أما نحن فلا نملك القدرة».

في الساعة الثالثة من عصر اليوم ذاته، التقى الجنرال دوغ لوت بالربيعي في غرفة اجتماعات صغيرة مجاورة لغرفة العمليات (التي تصل إليها آخر المعلومات العسكرية والسياسية) في البيت الأبيض. أبلغه الربيعي أن العراقيين يواجهون مشكلات حقيقية في شراء الأسلحة الأمريكية. «نحن نفضل أن ترتقي غالبية أسلحتنا في الجيش –على الأقل– إلى مستوى معايير الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي».

قال لوت: «بصراحة تامة، ما زلنا نتبع نظام الحرب الباردة. ونائب الوزير إنغلند هو المسؤول عن إصلاح نظام مبيعات الأسلحة الخارجية لتلبية الحاجات في أفغانستان والعراق على وجه الخصوص»، وثمة فريق يعمل على الموضوع.

قال الربيعي: «حسناً، يجب الإسراع في العملية»، فالنظام بطيء جداً.

وافقه لوت الرأي، لكن النظام تطلب إصلاحاً منذ سنين.

قال: «إن واجهت أي مشكلة فلا تتردد في الاتصال بي مباشرة. هذه رزمة من بطاقاتي»، وأعطاه عدداً من بطاقات البيت الأبيض تحمل اسمه وأرقام هواتفه.

وفيما يتعلق بقضية ميليشيا الصدر الحساسة، قال الربيعي إن من الأفضل للقوات الأمنية العراقية مطاردتها ومواجهتها. «حتى لو اتبعنا أسلوباً أكثر قذارة، حتى لو ارتكبنا أخطاء، حتى لو أصبنا بخسائر جسيمة، دعونا نقوم بالمهمة. نحن على استعداد لإراقة مزيد من الدماء».

قال لوت: «حسناً، حسبت أن القوات الأمنية العراقية أنجزت معظم المهمة على أي حال».

قال الربيعي: «في الحقيقة، لم تفعل شيئاً من هذا القبيل. القوات الأمريكية تبعد القوات الأمنية العراقية. وتبدو العملية كلها أمريكية، لا عملية عراقية مستقلة. دعونا نحاول ونرتكب الأخطاء مادمتم أنتم لا تزالون حولنا».

في الرابع من تشرين الأول ذهب الربيعي لمقابلة نائب وزير الدفاع غوردون إنغلند، ومعاونه لشؤون السياسة إيريك إدلمان.

أبلغهما الربيعي أن المالكي وحكومته بحاجة إلى كثير من العون والمساعدة لإظهار مزيد من التقدم بحلول نيسان 2008، الموعد المقرر لتقديم بترايوس وكروكر تقريرهما الثاني أمام الكونغرس.

قال إنغلند: «إذا لم يجد الكونغرس أنكم تحققون تقدماً، فلن نحصل على المال، ولن نتمكن من مساعدتكم، وسينتهي كل شيء».

قال الربيعي: «أحمل رسالة من رئيس الوزراء إلى الوزير [غيتس] تتعلق بالمتطوعين العراقيين في القوات الأمنية، الذين يدعوهم بعض المعلقين بالمليشيات السنية. في المناطق المختلطة، يجب أن تقوم الحكومة بدور مأمور صرف الرواتب، نظراً إلى ضرورة سيطرتها على الوضع فيها». لكن في الوقت الراهن، فإن الولايات المتحدة هي التي تدفع لها. «يطالب التحالف بحلول سريعة، لكن يجب أن تقود العملية حكومة العراق. يجب أن ترسخ سياستها وعملياتها. وهذا المجال يمثل نقاط احتكاك هائلة بيننا». لم يعجب الحكومة التي يقودها الشيعة في العراق الترتيبات العديدة التي جرت حديثاً مع السنة. «يبدو الأمر كأنه فعل يائس من التحالف الذي يسعى إلى العثور على أي سبيل متاح لإيجاد قوى تمكنه من مغادرة العراق». ولن تنجح «أساليب الحلول السريعة» هذه إلا في المناطق السنية أو الشيعية فقط. «حتى في مدينة الصدر، تبلغ نسبة السكان السنة 10%».

قال إدلمان: «من المؤكد أن بترايوس وأوديرنو على علم بهذا كله».

أجاب الربيعي: «أجل. لكن يجب إدراك حقيقة أن على المجندين أن يمثلوا قيمة مضافة إلى القوات الأمنية العراقية، لا عنصراً يضعفها... فأول مبدأ من مبادئ وحدة القيادة وجود قائد واحد مسؤول».

وانتهز الربيعي الفرصة ليشتكي مرة أخرى من البطء في الحصول على الأسلحة الأمريكية، وقال محذراً: «هذا سيؤخر تخفيض عدد قواتكم».

سمع جاك كين عبر أخبار متسربة من البنتاغون أن الأدميرال مايكل مولين، رئيس هيئة الأركان المشتركة المعين حديثاً، قد أبلغ زملاءه أن واحدة من أولى خططه «إعادة كين إلى الصندوق» بمعنى تحجيم دوره وتأثيره. اتصل كين ورتب موعداً مع مولين.

قال مولين: «هذه جلسة صعبة بالنسبة إلي، لكنني لا أريدك أن تذهب إلى العراق بعد الآن لتساعد بترايوس».

سأل كين: «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟!».

قال مولين: «لقد تجاوزت مكتب رئيس هيئة الأركان المشتركة وأضعفته». لم يكن واضحاً للشعب الأمريكي من المسؤول فعلاً عن المؤسسة العسكرية.

قال كين: «كفاك. الشعب الأمريكي لا يعرف من أكون. هذه من قصص واشنطن. لا يمكن أن تكون جاداً».

قال مولين: «بل أنا جاد».

حاول كين أن يخبره كيف ذهب في أواخر عام 2006 إلى رمسفيلد وبيس واشتكى أمامهما من إستراتيجية حرب العراق. وأدى ذلك إلى مقابلة الرئيس في الحادي عشر من كانون الأول؛ لأن الجنرال بيس أوصى به.

قال كين: «ربما تستاء من حقيقة أنني ساندت بترايوس، وأيدت تنفيذ السياسة، وحاولت حمايته من بعض الأمور التي تجري في هذه المدينة وفي هذا المبنى. أنا لا أعتذر عما قمت به».

قال مولين إنه أصبح مطلعاً تماماً على الضغوط المتراكمة على الجيش ومشاة البحرية، وإن أسر الضباط والجنود هي التي تتحمل عبء هذه الضغوط، في حين تخسر المؤسسة العسكرية ضباطها المؤهلين والأكفاء.

قال كين: «مايك، هذا كله صحيح. لكنه يصح أيضاً على كل حرب نخوضها مهما كانت عواقبها». فالحروب تفكك الجيوش، ويجب إعادة اللحمة إليها؛ هذا هو ثمن الحرب، لكنها تستحق هذه الثمن. «لم تتحدث مرة واحدة عن الفوز يا مايك، لم تذكر الفوز ولا مرة... فهل تريد الفوز في العراق؟».

كان سؤالاً مهيناً يطرح على زميل السلاح.

قال مولين: «بالطبع أريد الفوز».

رد كين: «هذا ما أفترضه. لكنك حين تضغط بهذا القدر على بترايوس لتخفيض عدد القوات فأنت تخاطر مخاطرة كبرى، مخاطرة التعرض للخسارة لا للفوز».

قال مولين: «هنا سوف نختلف».

سأل كين: «هل تريد مني حقاً التوقف عن مساعدة بترايوس. ديف بترايوس، بغض النظر عمن يريد التحدث إليه، وبغض النظر عن حجمه، أو شكله، أو آرائه، لنقدر حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه -فهو يعمل في أصعب وظيفة عسكرية- فلماذا لا تدعه يتلقى العون؟».

قال مولين: «لا، لا أريد المخاطرة. لا أريدك أن تساعده».

انتهى الاجتماع.

فيما بعد، حين لم يتمكن كين من الحصول على إذن بالذهاب إلى العراق، اتصل ببترايوس، الذي أبلغه أنه التقى مولين في العراق قبل تسلم منصب رئيس هيئة الأركان، وقال له (مولين) إنه لا يريد أن يأتي كين مرة أخرى. قال بترايوس: «فوجئت فعلاً».

أبلغ بترايوس مولين أنه يتفهم رفض رئيس هيئة الأركان تدخل كين. لكن نشاط كين لم يكن تدخلاً. فقد كان يقدم المشورة العسكرية للرئيس، ونائب الرئيس، وبترايوس نفسه. «ربما يمكنك التفكير في الاستعانة به والاعتماد على نصائحه بمرور الوقت».

قال مولين: «لا». كان جديداً في منصبه، ويحاول إعادة ترسيخ سلطة مكتب رئيس هيئة الأركان.

اتصل كين بجون هانا في مكتب تشيني ليبلغه ما حدث. وبعد وقت قصير، تلقى كين اتصالاً من جنرال الجيش سكيب شارب، مدير هيئة الأركان.

قال شارب: «لدينا طلب غير عادي. تلقينا طلباً من البيت الأبيض بتوفير ضمانات تتيح للجنرال كين زيارة العراق ومساعدة بترايوس مثلما كان يفعل في السابق». كان شارب على ما يبدو يقوم ببعض الأعمال قبل عرض الطلب على الجنرال مولين. «هذا غريب فعلاً. هل تعرف السبب وراء هذا الطلب».

قال كين: «أجل، بالطبع، فقد منعت من الذهاب إلى هناك».

«من منعك؟».

«رئيس هيئة الأركان». ساد صمت طويل حين أدرك شارب أن المعني هو رئيسه. «سكيب، هل أنت على الخط؟».

«أحاول معرفة ما الذي يحدث هنا».

تحدث كين فيما بعد مع الجنرال تشياريللي، المساعد العسكري لغيتس.

قال تشياريللي: «تلقى الوزير بعض الملحوظات». كان هذا ما يقوله الوزير وموظفو مكتبه لكل من يسأل. «يمكن للجنرال كين، مثلما كان يفعل في الماضي، وسيفعل في المستقبل، الذهاب إلى العراق لمساعدة الجنرال بترايوس كلما رغب الاثنان بذلك. ليست لدينا أي مشكلة فيما يتعلق بهذه المسألة».

طلب نائب الرئيس تشيني من مولين أن يبعد المطرقة عن كين. لم يوافق، ولذلك أرسل مذكرة وتحدث إلى غيتس عن مدى أهمية مساعدة كين. وطلب الرئيس أيضاً السماح للجنرال كين بالعودة إلى العراق.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة.

-40-

قال الرئيس العراقي جلال الطالباني (أحد أبرز الزعماء الكرد) ذات مرة: «العراق مثل باقة من الأزهار –مختلفة لكن مجمعة معاً». أما ديفيد ساترفيلد فقد شبه العراق بخزان ماء حاشد «بالأسماك النهمة التي تتبادل الافتراس».

ظلت التقارير الاستخبارية والدبلوماسية تظهر الغلو الطائفي لكبار معاوني المالكي وروابطهم الوثيقة بأفراد أو حركات تعارض الوجود الأمريكي في العراق معارضة شديدة، مثل الإيرانيين والصدريين.

ومن أبرز هؤلاء المساعدين باسمة الجيدري، المرأة القوية التي تحمل ثلاث شهادات جامعية. وصف أحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكي باسمة الجيدري بأنها «معادية الغربَ، والأمريكان، والاحتلال». جمعتها بالمالكي علاقة متينة مبنية على ثقة عميقة، وذلك وفقاً للمسؤولين في الاستخبارات والجيش. تمتعت بنفوذ هائل، واستغلت موقعها في مكتب المالكي لإصدار الأوامر إلى كبار ضباط الجيش العراقي وغيرهم من المسؤولين الحكوميين بوقف العمليات ضد أعضاء المليشيا الشيعية.

تأمر فتطاع. تقول: «لا تعتقل هذا الشخص»، فيمتثل اللواء العراقي. أو «أوقفوا هذه العملية» فيذعن. في السنة السابقة، لعبت دوراً أداتياً فاعلاً في عمليات «تطهير» بعض الأحياء في بغداد من السكان السنة التي انتشرت على نطاق واسع. وأمضت السفارة الأمريكية، ووكالات الاستخبارات الأمريكية، وقيادة بترايوس ساعات تنأى عن الحصر في محاولة فاشلة لمعرفة كيف يمكن إخراجها من مكتب المالكي. أخفقت الجهود والمساعي كلها، ومنها تعيينها سفيرة في الخارج.

استمرت الجيدري في التمتع بسلطة هائلة. وعلى الرغم من نزوعها الشديد إلى معاداة السنة، إلا أن المالكي اختارها عام 2007 لرئاسة لجنة المصالحة الوطنية التي يفترض بها جمع الشيعة والسنة معاً. ولم يصدق المحللون في أجهزة الاستخبارات ما حدث.

ذكر ساترفيلد في تقريره إلى رايس أن المالكي يفقد باطراد صلته بالواقع الحقيقي. فقد انقسم جيش المهدي (التابع للصدر) وتشظى، وهرب أفراده خشية الاعتقال، فنسب المالكي الفضل إلى قيادته النابغة. وعزا إلى جهوده النابهة صحوة الأنبار وتجنيد المواطنين المحليين من السنة الذين أصبحوا يقاتلون القاعدة ويساعدون في تخفيض مستوى العنف في المناطق الرئيسة. روايات المالكي المضللة تشمل: العراق عاد للوقوف على قدميه؛ كل شيء على خير ما يرام؛ لقد تجاوزنا المنعطف.

كلما حاول كروكر، أو بترايوس، أو ساترفيلد، أو غيرهم من المسؤولين الأمريكيين حث المالكي على القيام بشيء، يستحضر تأييد بوش. «الرئيس يدعمني فلماذا أستمع إليك أنت؟!».

في واشنطن، تجادل الرئيس وكبار مساعديه حول ما يجب عمله. شعر بوش أنه أقام علاقة شخصية متينة بالمالكي، وارتأى أنه لو احتد في الحديث مع رئيس الوزراء، وصارحه وبالغ في الضغط عليه، لأجبره على التراجع والانسحاب. إذ يمكن لتدمير ثقة المالكي بنفسه وتقديره ذاته أن يحدث مفعولاً عكسياً.

عاش المالكي حياة متخمة بالضغوط والتوترات إلى حد لا يصدق على مدى السنوات الثماني عشرة الماضية. واستنتج بوش أن المبالغة في الضغط عليه ستؤدي بهم إلى حكومة جديدة وزعيم جديد. ومن يكون هذا؟ لا أحد يعلم. وكم تحتاج العملية من وقت؟ ليس لدى أحد أي فكرة. قال المحللون في الاستخبارات إنه لا يلوح أحد في الأفق يحل محل المالكي. وسقوطه يؤدي إلى «فوضى شاملة». استبداله «قفزة في المجهول»، كما قال الرئيس. لا، شكراً. يمكن للآخرين الضغط على المالكي والتكلم معه بنبرة صريحة وجارحة وحادة، لكن ليس هو. سوف يتشبث برئيس الوزراء الحالي ويستمر في دعمه وطمأنته سراً وجهراً.

* * *

في شتاء ذلك العام، تركزت مطالعة بترايوس في الأمسيات على الحرب الأهلية مجدداً. وكان الكتاب هذه المرة «نيسان 1865: الشهر الذي أنقذ أمريكا» لجاي وينيك.

قرأ بترايوس عن بطله، الجنرال يوليسيس غرانت، وعن جهوده لإجبار الجنرال روبرت لي على الانسحاب من ريتشموند. أعلن غرانت «يجب أن نضغط عليهم في كل مكان»، وهي إستراتيجية تبناها بترايوس في العراق. في إحدى المراحل، حاول الجنرال لي يائساً الوصول إلى قطار يفترض أن يحمل المؤن إلى جنوده المتضورين جوعاً. اندفع لي إلى الأمام، يسابق الريح على صهوة جواده الشهير «ترافيلر»، وفتح أبواب العربات. لكنه لم يجد سوى الذخيرة.

توثق الجنرال لي، كما قرأ بترايوس، من عدم ارتخاء كتفيه أمام رجاله. إذ لم يرد أن يشعروا بإحباطه وخيبة أمله. استمد بترايوس السلوان من معاناة الجنرالات قبله، وتبنى مبدأ القيادة حتى في خضم الشك والخيبة وعرف أهميته. وقرر ألا يلحظ جنوده أي ارتخاء في كتفيه.

في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول، قبل أسبوع من عيد الميلاد، ذهبت رايس إلى بغداد حيث زارت فريق إعادة إعمار المحافظات في كركوك، ثم انتقلت إلى بغداد. في تلك الأمسية، عقدت لقاء روتينياً دام خمساً وعشرين دقيقة مع المالكي، وبترايوس، وكروكر. وفي الساعة 7:30 تقريباً طلبت من الآخرين مغادرة القاعة لكي تتمكن من الحديث على انفراد مع رئيس الوزراء.

قالت له بصراحة وحدة: «أنت لا تحقق أي نجاح»، وحاولت أن تعدد المشكلات الإدارية والسياسية التي تواجهها حكومته. فقد تعذر إجراء المفاوضات حول قرارات جديدة لمجلس الأمن وغير ذلك من القضايا بسبب غياب الأطراف العراقية الأخرى باستثناء المالكي وموظفيه. ولذلك، يجب أن تشمل المفاوضات في المستقبل فريقاً تمثيلياً يضم السنة والكرد. «لا يمكنك النجاح وحدك» كما قالت.

«هناك أشخاص في مكتبك لا يهمهم خدمتك أو خدمة الشعب العراقي».

سأل المالكي: «من هم؟».

«رئيس الوزراء، لن أعدد أسماءهم، لكنني أستطيع إبلاغك أن خدمة الأشخاص المحيطين بك ليست جيدة».

قال المالكي: «أنا أنتظر الفرصة منذ مدة طويلة للحديث عن هذا الموضوع. دعيني أصف صعوبة وظيفة رئيس وزراء العراق». وأضاف إنه مطوق بالأعداء. فالمجلس الرئاسي، المكون من الطالباني والهاشمي ومهدي، يتآمر عليه ويعرقل التشريعات دوماً. وذكر حالات محددة ومكائد مزعومة – خلطة من الشك والريبة والوصف الدقيق للصراع على السلطة في خضم الكراهية الطائفية. دام اللقاء ساعة وربع الساعة.

فيما بعد، تأخرت رايس في الوصول إلى المحطة اللاحقة من رحلتها؛ بسبب الاشتباه في وجود عبوة ناسفة محلية الصنع يجب تفكيكها. وأبلغت مستشاريها أنها ستعود إلى بغداد بأسرع وقت ممكن؛ لوضع إيقاع للحوار المباشر مع المالكي والزعماء الآخرين – السنة والشيعة والكرد.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، اقتربت مخاوف المالكي على نحو خطر من التحقق. فقد كوّن الكرد، إلى جانب الزعيم السني طارق الهاشمي، تحالفاً وضع إعلاناً (مانيفستو) أكد فيه أن الحكومة العراقية لا تؤدي واجبها. وأمل في إجراء تصويت بحجب الثقة عن حكومة المالكي لإسقاطها. غضب الملكي، وحثه اثنان من كبار مستشاريه، صادق الركابي وسامي العسكري، على الجدل العلني. وكتبا دحضاً مباشراً ومستفزاً. لكن مستشار الأمن القومي موفق الربيعي، قال محذراً: «هذا سيخرج الموضوع إلى العلن، فتعم الفوضى والاضطراب. حاولوا التعامل مع المسألة سراً».

أخيراً، أرسل المالكي موفق الربيعي شمالاً لمقابلة الزعيم الكردي مسعود البرزاني، الذي وافق في نهاية المطاف على عدم التركيز على إعلان يمكن أن يسهم في انهيار الحكومة.

في الثاني عشر من كانون الثاني 2008، التقى الرئيس ببترايوس على انفراد في كامب أريفجان، القاعدة الأمريكية في الكويت. وأعاد توكيد الرسالة التي أرسلها بواسطة ديفيد كين –كل ما تحتاج إليه سوف تحصل عليه، إن أمكن. فإن تعذر ذلك فسنجد طريقة لجعله متيسراً.

سأل بوش: «حسناً، دعني أتحقق الآن: يقولون إنك تريد مقر القيادة العليا للقوى المتحالفة في أوروبا».

قال بترايوس: «أجل يا سيدي. أعرف كثيراً من الأشخاص في حلف النيتو بسبب الوظيفة التي أعمل بها الآن، وتسهم الدول الأعضاء بقواتها [في العراق]، وعملت في لبنان عدة مرات». عمل مساعداً عسكرياً للقائد الأمريكي في أوروبا. «كنت جنرالاً بنجمة واحدة وبنجمتين في الحلف». يشارك حلف النيتو في الحرب في أفغانستان، ولذلك يستطيع أن يسهم فيها. «تتحدث زوجتي الفرنسية والألمانية والإيطالية». ووالدها، الجنرال وليام نولتون، اختتم حياته المهنية ممثلاً للولايات المتحدة في الحلف.

قال بوش: «حسناً، لك ذلك».

في الخامس عشر من كانون الثاني 2008، ذهبت رايس إلى بغداد مرة أخرى والتقت بالزعماء الذين عدّهم المالكي أعداءه –الطالباني، والبرزاني، والهاشمي، وعبد المهدي. قدمت المشكلات بمصطلحات قانونية، مركزة على الجانب السياسي لا الطائفي، ودافعت عن المالكي أمامهم. قالت: «لا تقولوا لي إنه يعرقل سير الأمور. لديكم أصوات أكثر عدداً».

بالغ المالكي في تقدير ما أبداه أعداؤه –مؤقتاً– من ضبط للنفس. وأعلن في خطبة عامة في شباط 2008 أن «المصالحة الوطنية قد نجحت في العراق، وأصبح العراقيون مرة أخرى إخوة يتبادلون المحبة» [1].

في آذار، كثف بترايوس والمالكي خطط شن عمليات حربية مشتركة في البصرة، المدينة الجنوبية التي تبعد خمسة عشر ميلاً عن الحدود الإيرانية. كانت العمليات اختباراً لجدية المالكي في فرض سلطة الحكومة المركزية في معقل النفوذ الإيراني والتطرف الشيعي. وفي نهاية الشهر، أظهرت المعلومات الاستخبارية أن المالكي يريد أداء المهمة وحده، بل أشرف بنفسه ميدانياً على هجوم الجيش العراقي.

قال السفير كروكر: «اللعنة!». ولم يصدق بترايوس ما حدث. لم يكن المالكي على استعداد كاف، وكانت قواته سيئة الإعداد والتجهيز. ويمكن خسارة كل شيء بمقامرة متهورة واحدة. فكيف يمكنهما إيقافه وإصلاح ما أفسده؟ سرعان ما أرسل المالكي مذكرة رسمية يبلغهما أنه سيسير قدماً في العملية، فأصيب كثير من المسؤولين في الحكومة الأمريكية بالذعر.

ما عدا الرئيس. فقد كان المالكي، برأيه، يتخذ خطوة جسورة على الرغم من الأحكام العقلانية كلها. اعتقد بوش أنها قضية عادلة. «هذه لحظة حاسمة في تاريخ العراق الحر»، كما قال الرئيس في مؤتمر صحفي. وأرسل إلى المالكي يقول: أحسنت، تابع، وإلى الأمام حتى النصر [2].

* * *

بدأت قوات مقتدى الصدر في مدينة الصدر بقصف المنطقة الخضراء في آذار 2008. أغلق المسؤولون الأمريكيون المنطقة، واختبأ ألف منهم في أحد مباني صدام القوية، وناموا على أسرة قابلة للطي. أصاب أحد الصواريخ مدخل بيت السفير كروكر، وانفجرت قذيفة ثقيلة من عيار 240 مم –قطرها يزيد على تسع بوصات– على بعد مئة متر فحطمت النوافذ.

سرعان ما أرسل المالكي القوات العراقية إلى مدينة الصدر. وكان ينقض مزاعم العرب السنة أنه دمية إيرانية أو أداة بأيدي المليشيات الشيعية، ويتصدى لأقوى مليشيا شيعية، جيش المهدي، أهم مصدر قوة ونفع للإيرانيين على الأرض في العراق.

لم يكن ساترفيلد قادراً على تحمل خطابية بوش المتورمة إلا بشق الأنفس. كان مغالياً في خطابه، ومبالغاً في نبرته الانتصارية. شعر بوش بتجدد الثقة بسبب انخفاض مستوى العنف، بفضل عمل بترايوس وكروكر.

ومن مراقبة ساترفيلد للرئيس ومشاهدته عن قرب طوال عدة سنين، توصل إلى بعض النتائج. إذا اعتقد بوش بصحة شيء، آمن بأنه سينجح. فصوابيته تضمن نجاحه في نهاية المطاف. الديمقراطية والحرية فكرتان صائبتان، ولذلك يجب أن تفوزا وتسودا.

لاحظ ساترفيلد أن بوش لا يتحمل الشك ولا يتساهل مع الارتياب. وأقواله وأفعاله تذكر من حوله على الدوام بأنه المسؤول. المقرر الأوحد. ونتيجة لذلك، كثيراً ما كان يلقي دعابات لاذعة أو يهمس تعليقات هازلة إلى الزملاء وجدها ساترفيلد جارحة ومؤذية للمشاعر. في أحد الاجتماعات، أثارت رايس قضية الميزانية.

قال بوش: «ليس الآن الزمن المناسب ولا المكان المناسب للدفاع عن مصلحة وزارتك. قلت لك لا أريد سماع شيء عن هذا الموضوع».

وجد ساترفيلد كلامه مهيناً، لكن لم تنزعج رايس على ما يبدو.

لا يصبر الرئيس على الإيجازات. اعتاد القول لمن يقدمها: «أسرع. ليست هذه أول مرة أركب حصاناً جامحاً». كان من الصعب تقديم إيجاز لآخر المعلومات أمامه، لأنه يقاطع المتكلم، ويطرح الأسئلة، أو يلقي بالدعابات الهازلة. ونادراً ما كانت العروض والمناقشات تجري بأسلوب منطقي شامل. واعتقد ساترفيلد أن ذلك يعبر عن حالة من عدم الأمان داخل بوش. كان الرئيس عدوانياً متنمراً.

ظل ساترفيلد يقوم برحلات منتظمة إلى العراق للمساعدة في المفاوضات الحساسة حول اتفاق وضع القوات الذي يسمح لقوات الولايات المتحدة بالبقاء. ولأنه تعامل مع مختلف المسؤولين العراقيين، عرف المدى الذي وصلت إليه الولايات المتحدة في تنصيب نوع من الحكومة الدمية المرتهنة بأوامرها ومساعدتها. فبوجود 157 ألف جندي، وأكثر من 180 ألفاً من المقاولين، وألف من مسؤولي وزارة الخارجية في العراق، كانت الولايات المتحدة هي حكومة الظل. لم يعرف في التاريخ حالة موازية. فإذا انسحبت الولايات المتحدة، فسوف يتداعى بيت الورق برمته.

بحلول ربيع عام 2008، وجد ساترفيلد بغداد أكثر أمناً مقارنة بالزيارات السابقة. فالأسواق مفتوحة، والجنود العراقيون والأمريكيون يسيرون في الشوارع دون ستر واقية. لكن المناطق مغلقة ومطوقة بالحواجز. ولا شيء في الوضع في بغداد يشبه حياة المدينة العادية. واستنتج أن انسحاباً أمريكاً متعجلاً سوف يفجر صراعاً جديداً على السلطة، والموارد، والمناطق، وسيكون المستفيد القاعدة وإيران.

حين فكر ساترفيلد في مستقبل العراق، امتلكه الذهول والحيرة. ثمة خلطة من الأخبار الجيدة والسيئة، فأيها سيسود؟ أيها سيبقى؟

قال: «يتعذر عليك الحديث عن وضع نهائي. أين تنتهي اللعبة؟ ما نهاية اللعبة؟».

في أوائل آذار 2008، نشرت مجلة إسكواير Esquire مقالة مطولة كتبها توماس بارنيت، الذي عمل سابقاً أستاذاً في الكلية البحرية وسافر مع الأدميرال فالون إلى الشرق الأوسط. حملت المقالة المستفزة المؤلفة من 7500 كلمة عنوان: «الرجل الواقف بين الحرب والسلام». وامتدحت في معظمها فالون لكنها صورته بوصفه الرجل «الذي تحدى بوش وتشيني بعناد» حول سياسة العراق [3].

كان فالون في بغداد حين نشرت المقالة في الحادي عشر من آذار. فأدرك على الفور ما ستسببه من ضجة. وعرف أنه يقف أصلاً على أرض غير مستقرة. قبل أيام، حذر غيتس من أن المقالة ستنشر. والآن اتصل به ثانية.

قال فالون: «أعتقد أن علي الرحيل».

قال غيتس: «حسناً».

كان بمقدور وزير الدفاع تحمل تصويت بالثقة والدفاع عن القائد الذي يعمل تحت إمرته. ولو حدث ذلك لبقي فالون. لكنه شعر بأن غيتس يريده أن يخرج، ولديه الآن سبب ليخرجه.

اتصل أحد مساعدي فالون ببترايوس وقال إن فالون يريد لقاءه.

«حسناً، سآتي حالاً».

قال المساعد إن اللقاء شخصي ويريد فالون أن يلقاه إما في مكتب بترايوس أو في مقره.

وصل فالون إلى مقر بترايوس في الوقت الذي ظهر فيه غيتس على شاشة شبكة فوكس نيوز في مقابلة على الهواء مباشرة.

قال فالون: «لقد استقلت». لم يشغل المنصب سوى سنة واحدة.

قال بترايوس: «حقاً؟». دهش قبل أن يلتفت الاثنان لمشاهدة غيتس على التلفاز.

قال وزير الدفاع: «وافقت متردداً وآسفاً على طلب الأدميرال فالون بالتقاعد. لقد توصل الأدميرال فالون وحده إلى هذا القرار الصعب. وأعتقد أن القرار صائب مع أنني لا أرى في الحقيقة اختلافات مهمة بين آرائه وسياسة الإدارة» [4].

رأي كين فيما حدث فرصة سانحة. بعث برسالة بالبريد الإلكتروني إلى تشياريللي، مساعد غيتس العسكري، في الساعة 3:27 من عصر الثاني عشر من آذار –اليوم الذي وصل فيه إلى بغداد في زيارة جديدة.

«الموضوع: اقتراحات للتفكير الجدي

بيت [تشياريللي]، بعد مرحلة فالون: أعلنْ بترايوس بديلاً، لكن لا تعينه قبل الخريف أو أوائل الشتاء... عين أوديرنو، الذي سيمضي ستة أشهر في الولايات المتحدة، بديلاً لبترايوس... صدقني، سيكون هذا أقوى فريق لدينا لاحتلال المناصب الشاغرة. هذه مجرد اقتراحات. تحية. ج ك».

رد تشياريللي برسالة بعد عشرين دقيقة.

«سيدي –هل تريدني أن أنقل الرسالة إلى وزير الدفاع؟».

قال كين: بكل تأكيد.

* * *

في أثناء تلك الزيارة إلى العراق، تحدث كين إلى بترايوس عن المستقبل. وبدا أن تعيين بترايوس قائداً لحلف النيتو قد حسم.

النيتو مهم، كما قال كين، لكن زمنه ولى وانقضى. وانتقل مركز الجاذبية العالمية إلى الشرق الأوسط. «سوف نبقى هناك خمسين سنة على أقل تقدير، آملين منع الحروب في معظم الأحيان، أو خوضها أحياناً، والتصدي للإسلام المتطرف، وحماية مصالحنا الاقتصادية في المنطقة ومحاولة تحقيق الاستقرار فيها». علينا التفكير بطريقة إستراتيجية من المنظور العسكري فيما يتعلق بكيفية دعم إستراتيجية وطنية للمنطقة. «أين نقيم قواعد؟ أين نخزن المعدات والتجهيزات؟ أين نبني قواعد صناعية متقدمة؟ لأن من غير المنطقي مواصلة إرسالها إلى الوطن».

سيكون لهذا التغيير مضامين ومقتضيات ضخمة على كيفية تثقيف المؤسسة العسكرية وتدريبها، فضلاً على طريقة تعامل الجيش مع المؤسسات الأخرى. قال كين: «سوف نقوم بذلك كله على أي حال لعدم وجود بديل آخر. لذلك فإن القضية هي: يجب التصدي للصعوبات. يجب مواجهتها». لكن الجيش لا يريد ذلك. «يريد إنهاء الحرب والعودة إلى الوطن. لكن هذا لن يحدث».

بدا بترايوس موافقاً لكنه تحدث بحنين عن حلف النيتو.

يجب أن يذهب إلى القيادة المركزية كما قال كين. «ديف، أنت الشخص الوحيد».

«أليس من الأفضل قضاء بعض الوقت مع هولي؟».

«اجعل المنطقة تعتاد على ذهابك إليها بصحبة زوجتك. ابدأ بكسر النموذج السائد. هيا، لدينا وزيرة خارجية تجول المنطقة، مع أنها امرأة».

هز بترايوس كتفيه في إشارة إلى عدم معرفته مثل هذه الأمور.

تشبث كين بإلحاحه: «لا يوجد أحد يبزك في السلطة المرجعية والمصداقية والقوة والنفوذ. الوظيفة لك. ولو أجري تحليل فمن يحتل هذا المنصب سواك؟».

رن الهاتف.

قال بترايوس: «مرحباً بيت. ماذا لديك؟». كان المتحدث تشياريللي.

«حسناً، الساعة الثالثة».

قال لكين: «يريد وزير الدفاع التحدث معي في الساعة الثالثة».

«أنت تعرف الموضوع، أليس كذلك؟».

«أظن أنني أعرفه».

«آمل أن تعطيه الإجابة الصحيحة».

حين كان كين في العراق التقى أيضاً بالسيناتور مكين، الذي يقوم بجولة أخرى في البلد. قال: «ليس لدي أدنى شك أن على بترايوس الذهاب إلى القيادة المركزية». فالمكانة التي حققها داخل الولايات المتحدة وخارجها تجاوزت الحدود كلها، ولم تشهد أمريكا جنرالاً مثله منذ سنين عديدة، والمنطقة تحترم القوة. فإذا عين بترايوس قائداً للقيادة المركزية فسوف يتمتع بقدر أعظم من السلطة والمكانة والهيبة مقارنة بأسلافه. والأهم، حين يتسلم القيادة، سوف تبقى إستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط على حالها، بغض النظر عن الفائز بسباق الرئاسة عام 2008.

فيما يتعلق ببديل بترايوس، لم يجد كين سوى خيار واحد: راي أوديرنو. فهو يتقدم الجميع؛ صلب، ويعرف اللاعبين كلهم. وقد عاد لتوه من العراق ليرشح لمنصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش، لذلك عليهم الانتظار ستة أشهر أو نحوها لمنحه وقتاً يقضيه في الوطن. ولن يكون في ذلك مشكلة.

بدا مكين موافقاً وقال إنه سيتصل بالرئيس بوش.

بعد وقت قصير من استقالة فالون، اتصل الأدميرال مولين ببترايوس: «أعرف أنك ستذهب إلى أوروبا. لكن هل ترغب بالقيادة المركزية؟».

أجاب بترايوس: «دعني أتحدث مع زوجتي».

أثار المسألة مع هولي. كانت تتطلع إلى الوظيفة في النيتو. لكنها أذعنت لما دعته لاحقاً «خيبة أمل تحت السيطرة». وعرفت استحالة توقع ما سيحدث في الحياة العسكرية، وكثيراً ما قالت لصديقاتها إنها لم تأخذ قط قياس الستائر الجديدة قبل أن ترى الأمر العسكري بأم عينها.

هوامش:

أتت المعلومات الوارد في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثمانية من المصادر المطلعة

1- انظر:

John Affleck, «Al-Maliki Calls on Iraqis to Boost Political Process in Speech Marking Religious Holiday,» associated Press, February 28, 2008.

2- Presidential Documents, March 28, 2007, pp. 437-443 (Vol. 44, No. 12), www.gpoaccess.gov/wcomp/v44no12.html

3- Thomas P. M. Barnett, «The Man Between War and Peace,» Esquire, March 2008.

4- Defense Department new briefing, March 11, 2008, DOD transcripts, www.defenselink.mil.

-41-

في يوم الثلاثاء الثالث من نيسان، قدم كين إيجازاً لرحلته إلى العراق إلى نائب الرئيس تشيني.

قال كين: «أعتقد أن التحسن الأمني إنجاز مدهش في مثل هذه المدة القصيرة. وهذا غير مسبوق في حوليات ممارسة مكافحة التمرد».

أما الخبر السيئ فهو البطء الشديد في وصول المال إلى المحافظات بسبب عجز حكومة المالكي وانعدام فاعليتها. ومن وجهة نظر إستراتيجية كما قال: «لا يمكن أن نخسر عسكرياً. فهذا مستحيل في هذه المرحلة؛ لأن القاعدة، على الرغم من النيات والمرامي كلها، قد هزمت عملياتياً». ما زال من الضروري هزيمتها في الشمال، لكن الأغلبية الساحقة من المتمردين السنة يعملون مع الولايات المتحدة.

وأضاف: «ما يزال من الممكن أن نخسر سياسياً. فقد نخسر إذا لم يرغب قادتنا في واشنطن بالاستمرار في الحفاظ على المكاسب التي تحققت، والانسحاب باستعجال قبل الأوان. وإن حدث ذلك، يمكن أن يفرز عواقب وخيمة، ويمكن أن نخسر».

بحلول تموز، سيخرج ثلث القوات الأمريكية العاملة في بغداد، و60% من القوات المنتشرة في الأنبار. وهذا تخفيض حاد يمكن تحقيقه بفضل «أبناء العراق»، الذين يبلغ عددهم الآن تسعين ألفاً. فضلاً على أن عدد القوات العراقية الأمنية ازداد مئة ألف —وهذه إضافة غير كافية لكنها مهمة.

تتمثل المشكلة الكبرى بوادي نهر ديالى في الشمال، إضافة إلى الموصل وصحراء الجزيرة إلى الغرب. لكن «قواتنا غير كافية»، كما قال كين. ولم يرغب بترايوس باستخدام «أبناء

العراق» السنة المتحالفين مع الولايات المتحدة في تلك المنطقة، بسبب التوترات بين العرب السنة والكرد. «لو كنت محله لتجاهلتها وقمت بالمهمة؛ لأن البرنامج إيجابي، وأعتقد أنه يستحق المحاولة». ثمة عديد من الألوية العراقيين المتقاعدين هناك، وكلهم من السنّة، ورأى كين أن على وكالة المخابرات المركزية دفع المال إليهم لتقليص مستوى العنف.

سأل تشيني: «ألا يحصلون على جزء من المعاشات التقاعدية؟».

أجاب كين: «لم يبدأ العمل بالقانون التقاعدي بعد». صدر قانون للمتقاعدين، ودفعت بعض الرواتب، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لإحداث فارق مهم.

تحول كين إلى جنوب العراق وقال إن منطقة البصرة تعد الآن أهم منطقة إستراتيجياً، لكن القيادة كانت بطيئة في التدخل والعمل. لا يمكن ترك الأمور إلى العراقيين، مثلما كانت الخطة، بسبب النفوذ الإيراني هناك وانحسار الاهتمام الأمريكي. أما البريطانيون، الذين احتفظوا بقواتهم في الجنوب مدة طويلة، فقالوا إن المشكلة سياسية لا أمنية. «هذه خرافة»، كما قال كين. فالبصرة الآن تشبه «الغرب الأمريكي الضاري»، وقائد شرطة البصرة أبلغ كين أن 80% من قوات الشرطة متحالفة مع الميليشيات. المنطقة تمثل تهديداً أمنياً داهماً.

ظل الجنرال قاسم سليماني، قائد قوة القدس، التي تعد من نخبة قوات الحرس الثوري، يعمل في المنطقة منذ عشر سنين. وقال كين إنه «ذكي، وداهية، وقاس لا يرحم». ولدى الإيرانيين «كتيبتان في البصرة تتبعان نموذج حزب الله». والإدارة الأمريكية بحاجة إلى إستراتيجية شاملة لصد النفوذ الإيراني وهزيمته داخل العراق. وتحتاج أيضاً إلى المشاركة مع البلدان الأخرى في المنطقة التي لديها مصالح في العراق. يمكن أن تترك هذه المسألة لبترايوس. فاللواء العراقي في البصرة يفتقد القدرة والكفاءة، كما ذكر كين. فقد قال له مباشرة إن خطته لنزع سلاح الميليشيات سخيفة. فالسلاح متوافر في العراق إلى حد أن كل من ينزع سلاحه يستطيع استبداله في ساعات معدودات. وقال كين إن من الضروري إشراك قيادة العمليات الخاصة المشتركة، أو ما دعاها بالقوات السرية، في قتل قادة العدو أو اعتقالهم.

وأضاف إن تخفيض القوات إلى خمسة عشر لواء بحلول تموز أمر محفوف بالخطر. فسوف نظل بحاجة إلى ثمانية عشر على أقل تقدير، لكن من المتعذر تخفيض العدد إلى أقل من خمسة عشر في أي وقت من عام 2008. ثم كرر اقتراحه بترقية بترايوس إلى منصب قائد القيادة المركزية، وأوديرنو إلى قيادة القوات في العراق.

سأل تشيني: «هل يرغب راي بالذهاب [إلى العراق]؟».

أجاب كين بأنه يعمل على هذه المسألة.

بعد أربعة أيام، في السابع من نيسان، دعا غيتس كين إلى البنتاغون ليقدم له إيجازاً لآخر ما لديه من معلومات. لخّص كين ما قاله لتشيني من قبل: التحسن الأمني مدهش، ويثبت صحة ممارسات بترايوس في مجال مكافحة التمرد. وأضاف إنهم بحاجة الآن إلى ثمانية عشر لواء، ويتعذر تخفيض العدد إلى أقل من خمسة عشر في أثناء عام 2008. «يمكن للواء أو اثنين أن يمارسا تأثيراً حاسماً في العراق». ولحسن الحظ، كما قال، هناك سبل للتغلب على مشكلة الافتقار إلى ثمانية عشر لواء عبر استخدام «أبناء العراق».

قال كين: «من الممكن إقامة عراق آمن ومستقر. وحكومة متحالفة مع الولايات المتحدة –أصبح ذلك كله غاية ممكنة التحقق لنا. ما كنا لنتصور ذلك عام 2006، ولا في عام 2007. ويقول المعارضون الذين اختلفوا معنا إن تكاليف الحرب باهظة». ثم تلا إحصائيات تتعلق بالنسب الأعلى التي أنفقتها الولايات المتحدة من ناتجها المحلي الإجمالي على الحروب السابقة مقارنة بما أنفقته في العراق وأفغانستان. وقال إنهم بحاجة إلى حملة فاعلة ونشطة لدحض حجج منتقدي الحرب.

والأهم: «يجب أن تعين بترايوس في القيادة المركزية». اعمل على تأخير التعيين إلى الخريف، واجعلْ أوديرنو القائد الجديد للقوات في العراق. فحين خدم أوديرنو قائداً للوحدات في العراق، كما قال كين، كان البطل غير المتوج لإستراتيجية العراق. «عندما وصل وبدأ تسلم مسؤولياته في تشرين الثاني [2006]، شرع في تغيير الإستراتيجية وجمع الخطط معاً فاصطدم بعقبة اسمها الجنرال كيسي».

قال كين إن أوديرنو يتمتع بالذكاء والشجاعة الأخلاقية. فبعد تسلم بترايوس القيادة في شباط عام 2007، ذهب (كين) إلى العراق ونظر إلى الوضع عن كثب، فأدرك أن أوديرنو بحاجة إلى زيادة في عدد القوات تراوح بين 8-10 ألوية، بدلاً من الأولوية الخمسة التي سترسل إليه. وبالطبع، لم يكن هناك مزيد من الألوية، ولذلك اضطر إلى الارتجال والتكيف مع ما هو متوافر.

لكن الأهم أن أوديرنو أدرك الفرصة السانحة لعكس مجرى الأمور في محافظة الأنبار. ووفقاً لكين، فإن أوديرنو أبلغ مساعديه وموظفيه: «ما يحدث في الأنبار يمكن أن يحدث في أرجاء العراق كافة. يجب أن نفهم مدى قوة ما يجري وتأثيره». وأصدر تعليماته إلى قسم منهم بعدم القيام بأي شيء سوى العثور على السنة أو المتمردين السابقين الراغبين في مساعدة الولايات المتحدة. «يستطيع رؤية الأشياء التي لا يراها الآخرون بكل بوضوح. فهو فريد لا يضاهى»، كما قال كين.

«لنكن صريحين حول ما يحدث هنا. سوف يكون لدينا إدارة جديدة. فهل نريد استمرار هذه السياسات أم لا؟ هل نريد أن يشغل المناصب المهمة أفضل الرجال الذي شاركوا في رسم هذه السياسات، والذين طالبوا بها ودافعوا عنها؟ لنفترض أن الإدارة القادمة ستكون ديمقراطية وتريد التراجع بسرعة عنها، عندئذ عليها التعامل مع الجنرال بترايوس والجنرال أوديرنو. وستدفع ثمناً إن أرادت تجاهلهما أو تجاوزهما».

في الثامن من نيسان، عاد بترايوس وكروكر إلى الكونغرس لعرض آخر المستجدات. قال بترايوس: «لم نتجاوز المرحلة الحرجة. لم نر أي أضواء في نهاية النفق». ثمة تقدم تحقق لكنه «هش ويمكن عكسه».

لكن في منتصف أيار، بعث بترايوس برسالة إلى صديق في الولايات المتحدة عبر البريد الإلكتروني لاحت فيها بارقة أمل، حيث قال إنه يقترب من إجابة السؤال الذي طرحه قبل خمس سنين في الصحراء التي تعصف بها الريح في أثناء الأسبوع الأول من الغزو: «قل لي كيف سينتهي هذا كله؟».

كتب يقول: «شهدنا في الأسبوع الماضي أدنى مستوى من العنف منذ أن تفجر العراق في نيسان من عام 2004. لا شيء سهل، لكنني أستطيع في بعض الأيام أن أرى بطريقة مبهمة كيف سينتهي هذا كله».

عرف غيتس أن بترايوس هو الخيار الطبيعي لاستبدال فالون. إذ لا يوجد قائد آخر أكثر معرفة بالعراق واطلاعاً على شؤونه، وعمل بنحو وثيق وفاعل مع أوديرنو. بعد أسبوعين، في الثالث والعشرين من نيسان، دعا غيتس إلى مؤتمر صحفي.

«بالاتفاق مع رئيس هيئة الأركان المشتركة، أوصيت بتعيين الجنرال ديفيد بترايوس قائداً جديداً للقيادة المركزية، ووافق الرئيس وسوف يرشحه. سنسحب ترشيح الجنرال راي أوديرنو لمنصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش، ونرشحه لمنصب القائد الجديد للقوة المتعددة الجنسية في العراق، ليحل محل الجنرال بترايوس».

قال غيتس إن بترايوس سيبقى على الأرجح في العراق حتى أواخر الصيف أو الخريف. إذ لم يمض على عودة أوديرنو إلى الوطن سوى شهرين تقريباً وهو بحاجة إلى استراحة بين المناوبتين.

«من المرجح أن يحافظ هذا الترتيب على استمرار الزخم والتقدم»، كما قال غيتس. وحين سأل أحد المراسلين الوزير هل تؤشر الخطوة على «مقاربة التشبث بالمسار» من قبل الإدارة، أجاب: «أعتقد أن المسار الذي وضعه الجنرال بترايوس كان مساراً ناجحاً بالتأكيد. وبصراحة، أحسب أن التشبث بذلك المسار ليس فكرة سيئة».

بحلول أوائل أيار 2008، تحسن تقويم وكالات الاستخبارات الأمريكية للمالكي قليلاً مقارنة بالماضي، لكن بقيت مشكلات عديدة دون حل. قال واحد من أكثر مسؤولي الاستخبارات خبرة وأعلاهم رتبة في الحكومة الأمريكية: «لم يعد راغباً في الانحياز إلى طرف دون آخر؛ فهو مستقل وواثق». لكن مهارات حكومته بقيت ضعيفة. «ما يزال طائفياً ولم يغير

مواقعه. ففي صميمه يكره السنة. ولم يستفد من الكرد». ما زال التقدم السياسي يعتمد على المصالحة. «ولا ينال المالكي سوى درجة الرسوب فيما يتعلق بهذا الموضوع». وبعد شهر، قال المسؤول ذاته بعد أن راقب المالكي وهو يتولى عمليات الهجوم على المليشيات الشيعية، إنه سيرفع درجة المالكي إلى «فوق الوسط».

بحلول صيف عام 2008، استعد تشيني لترك معترك السياسة. فبعد أربعة عقود من العمل في الحكومة، اعتقد أن الوقت قد أزف. شعر أن قرار غزو العراق كان صائباً. فقد غرست الولايات المتحدة حكومة منتخبة ديمقراطياً في قلب الشرق الوسط، وأنزلت هزيمة كبرى بالقاعدة، كما أكد. وبرأيه، كانت سياسات بوش المتعلقة بالإرهاب سليمة وصحيحة. أما برنامج رصد الإرهاب، الذي يفوض وكالة الأمن الوطني بالتنصت على المشتبه في ضلوعهم بالإرهاب في الولايات المتحدة دون أوامر من المحكمة، فكان ضرورة ملحة. وبعد الجدل كله، وافق الكونغرس أخيراً على الفقرات الأساسية فيه. وعلى الرغم من الجدل الخلافي ومزاعم التعذيب، رسخت الإدارة، كما اعتقد، برنامجاً فاعلاً وضرورياً لاستجواب المعتقلين المهمين، حتى مع استعمال الأساليب القاسية ضدهم مثل الحرمان من النوم، أو التعذيب بالماء، أو الإحساس بالغرق.

كان تشيني مقتنعاً أن قلب الحملة الرئاسية لعام 2008 وروحها سوف يدوران حول الأمن القومي –حرب العراق وبرامج مكافحة الإرهاب الهجومية الجريئة. واعتقد أن مكين، خلافاً لأوباما، سوف يتابع المسيرة.

في أثناء سنوات تشيني في إدارة بوش، تحول المقر الرسمي لإقامة نائب الرئيس في نيفال أوبزفاتوري (في شمال غرب واشنطن) إلى قلعة تضم ملجأ حصيناً تحسباً لوقوع هجوم إرهابي آخر. ووفر حراس أمن مسلحون، وحواجز متعددة، وكلاب مدربة على اكتشاف المتفجرات، وسياجان أمنيان الحماية للمنزل، وهو دارة فخمة لكن عتيقة بنيت على تل في القرن التاسع عشر وفق الأسلوب المعماري الشائع في أوائل القرن الثامن عشر.

في صيف عام 2008، احتاج المنزل وأثاثه إلى تجديد. فقد بلي السجاد والأثاث ونضا لونهما الفاتح. وبدت غرف الطابق الأول مهجورة، كأنما انتقل ساكنوها. كان تشيني فخوراً برف طوله متر اصطفت عليه كتب جلدية الأغلفة عن صيد السمك بطعوم من الذباب، غالبيتها كلاسيكية. أغرم بصيد الطيور والسمك، وبعد ثمانية أعوام في منصب نائب الرئيس، أغراه وزوجته لين بيتُهما الصيفي قرب نهر سنيك الذي يتلوى مجراه الأفعواني في ولاية ويومنغ. لكن قبل عقد من السنين، ابتاع الزوجان أرضاً في مكلين، أرقى ضواحي فيرجينيا، وأشرفا على بناء منزل جديد عليها، وقررا الانتقال إليه بحلول عام 2009. ربما فضل هو التوجه إلى نهر سنيك، لكن لين أرادت البقاء قرب واشنطن. فقد أمضى الزوجان عقوداً في العاصمة، فضلاً على أن ابنتيهما وأحفادهما الستة يعيشون في المنطقة.

عرف تشيني أنه أصبح في نظر معظم الأمريكيين دارث فادر جيله، شخصاً شريراً غامضاً يقبع متخفياً في الظلال. وزعم أن ذلك لا يقلقه؛ لأنه طور جلداً سميكاً تلقى عليه ما يكفي من اللكمات. كان بمقدوره الاكتفاء بدور أكثر تقليدية: نائب رئيس تنحصر واجباته في حضور الجنازات الرسمية وجمع التبرعات. لكنه حضر أكثر من حصته من مناسبات جمع التبرعات، حيث تفوق دوماً في جمعها لمصلحة الجمهوريين. لكن قبل ذلك، قرر جعل منصبه مهماً وضرورياً. وهكذا، ظل في قلب الحدث، يرسم السياسة، ويعمل على تقوية السلطات الرئاسية.

لكل شيء ثمن. فإذا كان سبيله المختار يعني مغادرة المنصب وهو رمز للولع بشن الحروب والتطرف والغلو، فهو على استعداد لدفع الثمن.

عبرت مقاربة تشيني الواقعية والبعيدة عن العواطف لمنصب نائب الرئيس عن رأيه بمنصب الرئيس نفسه. في عام 2005، قابلت تشيني في مكتبه في الجناح الغربي وسألته عن الرئيس السابق جيرالد فورد. وكان قد عمل كبيراً لموظفي فورد وظل واحداً من كبار المعجبين به. في نهاية المقابلة، طرحت سؤالاً أكثر عمومية، حاولت فيه معرفة رأيه بالرئاسة بعد اقترابه منها طوال ثلاثة عقود.

سألته: «ما تعريف وظيفة الرئيس؟ تعريفي لها هو: تقرير الخطوة اللاحقة التي تتخذ لمصلحة غالبية الشعب في البلد... ثم وضع خطة لتنفيذها، ثم تنفيذها».

أجاب تشيني: «ليست هذه طريقة تفكيري فيها. فأنا أميل إلى التفكير فيها من منظور وجود مهمات معينة يجب على الأمة القيام بها، مهمات يجب إنجازها. في بعض الأحيان تكون هذه المهمات مقيتة جداً، مثل إرسال القوات إلى قتال، أو خوض حرب. ورئيس الولايات المتحدة هو الذي يُحمَّل هذه المسؤولية...».

«المهمات التي يحتاج الرئيس إلى إنجازها مهمات صعبة. لكن ليست كلها كذلك. فهناك كثير من المهمات الرمزية، والجوانب الرمزية من الرئاسة مهمة. يمكن أن يمثل الرئيس مصدر إلهام، ويضع الأهداف والغايات -'لنذهب إلى القمر' مثلاً- لكنه يستحق راتبه حين يجلس ويتخذ فعلاً تلك القرارات الصعبة التي هي في الواقع قرارات حياة أو موت تؤثر في أمن الأمة وأمانها وبقائها، وخصوصاً أولئك الذين نرسلهم لمواجهة الخطر لضمان هزيمة أعدائنا، ودعم أصدقائنا، وحماية أمتنا».

«بهذه الطريقة أفكر في الرئاسة».

بحلول تموز 2008، شعر غيتس أن العراق أفضل حالاً حتى من أحلامه حين تسلم منصب وزير الدفاع قبل ثمانية عشر شهراً. أما المشكلة الرئيسة الآن فهي المبالغة العراقية في الثقة بالنفس. فقد اعتقد رئيس الوزراء المالكي أنه يمر بحقبة من النجاح والحظ السعيد في أعقاب انحسار موجة العنف على مدى عدة شهور.

لكن غيتس أدرك أن المسعى برمته يبقى هشاً. ومع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية (بعد أربعة أشهر)، شعر أن الانتخابات إذا أصبحت نوعاً من الاستفتاء على العراق، فإن الشعب الأمريكي ما يزال يريد إنهاء الحرب، وفي وقت أسرع مما تتطلبه الحكمة ووضع الولايات المتحدة على المدى البعيد بحسب اعتقاده. والآن، بدا له أن القضية الحقيقية في الحملة الحربية ليست متمثلة بتخفيض عدد القوات، بل بمدى السرعة في تخفيضها. وأمل أن يتمكن بترايوس وأوديرنو، كل في منصبه

الجديد، من تقرير وتيرة الانسحاب المناسبة. ومن الأفضل أن يترك لهما تحديد الشروط والظروف، بدلاً من أن تحددها السياسة في هذا الوقت. وبمعنى من المعاني، يمكن للجنرالين كبح جماح الرأي العام وتأثيره.

حين تحدث غيتس في السر عن الحرب مع الأعضاء الجمهوريين والديمقراطيين في الكونغرس، حذر قائلاً: «هل خطر في بالكم أنكم لا تريدون من أولئك الذين انتقدوا منكم عدم تركيز انتباه كاف على الجنرالات في بداية الحرب، أن يكرروا الخطأ ذاته عند نهايتها؟».

بحلول تموز 2008، كان هادلي يأمل أن يتخذ التقدم السياسي الحقيقي في العراق شكلاً واقعياً. فالمرة الأولى، بدا أن السنة والشيعة يعملون على حل المشكلات دون عنف، مع أن الخطوات بطيئة إلى حد مؤلم. إذ إن حجم العنف الطائفي الذي اكتسح البلد قبل سنتين، وأردى في ذروته ألفين من «قتلى العنف الإثني-الطائفي» في الشهر، تراجع إلى الصفر تقريباً، وفقاً للجنرال بترايوس. وعلى وجه الإجمال، انخفض عدد الهجمات من الذروة التي بلغ عندها 1550 إلى مئتين أسبوعياً، أي قرابة ثلاثين في اليوم —صحيح أن العدد مرتفع، لكن هادلي وجد في الانخفاض مقياساً حقيقياً للنجاح.

وبلغ حد القول إن للقاعدة فضلاً كبيراً على الولايات المتحدة والعراق. إذ منحت أساليبها الوحشية والعنفية، وتحكمها القمعي بكثير من المجتمعات المحلية، السكان العراقيين سبباً للتوحد ضدها. واعتقد أن غزو الولايات المتحدة عام 2003 حرر العراق، لكنه مثل إذلالاً مهيناً لمواطنيه أيضاً. واقتنع بأن على الشعب أن ينتصر بمعركته في نهاية المطاف: هذا هو «التحرر الذاتي» بحسب تعبيره. لقد منحت القاعدة العراقيين فرصة الحصول على حريتهم وبناء روايتهم السردية الخاصة عن الانتصار.

بل وزع نسخاً من مقالة توماس فريدمان التي نشرت في صحيفة نيويورك تايمز في الثامن والعشرين من حزيران 2008، وناقشت الأهمية السيكولوجية لـ«التحرر الذاتي» في الشرق الأوسط. لكن فريدمان، الذي أيد الحرب في البداية ثم انتقدها انتقاداً قوياً فيما بعد، اختتم مقالته بتحذير:

«العراق على مسافة بعيدة من الوضع الصحي السليم. والآن، بعدما بدأ أتباع الطائفتين الشيعية والسنية تولّي مزيد من مسؤولية بلدهم، سوف نشهد صراعاً شديداً على السلطة وعلى من يهيمن داخل كل طائفة. ومع تراكم البترودولارات، سيتعاظم الصراع عليها. لكن إن أسعفنا الحظ، فسينحصر هذا الصراع في الساحة السياسية. أما إن عاندنا؟؟ حسناً، دعونا نأمل أن يسعفنا».

قالت رايس في أثناء اجتماع عقد في وزارة الخارجية في أيار 2008: «اعتقدت منذ اليوم الأول أن العراق سوف يغير وجه الشرق الأوسط. ولم أتوقف قط عن الاعتقاد بذلك». لكنها اعترفت بأنها «تساءلت في بعض الأوقات في عام 2006 هل سيغير وجه الشرق الأوسط إلى الأحسن أم الأسوأ؟».

في تلك الأيام الصعبة، حين ظل مستوى العنف يتصاعد ويتمزق نسيج المجتمع العراقي ذاته، كثيراً ما فكرت في الأيام المبكرة من الحرب الباردة في أواخر الأربعينيات، وعقدت مقارنات بين ذاك الصراع والصراع الحالي. في ذلك الحين، بقي مستقبل أوروبا غامضاً ومغلفاً بعدم اليقين. وتولت الولايات المتحدة تنفيذ خطة مارشال للمساعدة على إعادة بناء البلدان التي دمرتها الحرب العالمية الثانية، وأعلن الرئيس هاري ترومان بكل وضوح مبدأ وقف انتشار الشيوعية لحماية اليونان وتركيا. فجر الاتحاد السوفييتي قنبلته الذرية قبل سنين من الموعد المتوقع، واستولت الشيوعية على الصين. واندلعت الحرب الكورية، التي فقدت شعبيتها باطراد.

وعلى الرغم من ذلك كله، انهار الاتحاد السوفييتي عام 1991، وانتهت الحرب الباردة دون إطلاق رصاصة واحدة.

قالت رايس: «النظرة البعيدة المدى تفيد. كنت ألجأ إلى هناك طالباً السكينة وراحة البال. وأعتقد أن الرئيس فعل ذلك أيضاً».

رفضت رايس فكرة أن الشرق الأوسط كان مستقراً إلى أن أتت إدارة بوش وزعزعت استقراره بغزو العراق. فكل من يفكر بتلك الطريقة لا يعرف الوضع الحقيقي. «أي

استقرار هذا وصدام حسين يطلق النار على طائراتنا، ويهاجم جيرانه، ويسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، ويشن حرباً كل بضع سنين؟ أي استقرار والقوات السورية في لبنان منذ ثلاثين سنة؟ وياسر عرفات يخدع الشعب الفلسطيني ويرفض السلام؟». لا، لم يكن هناك أي استقرار، كما قالت، وسياسة الحقد السائدة في المساجد المتطرفة ساعدت في إنتاج القاعدة. صحيح أن القاعدة تهدد الآن باقتناص موطئ قدم لها في جنوب شرق آسيا والقرن الإفريقي، لكن ميدان المعركة الحقيقي يقع في الشرق الأوسط، كما أكدت. «إذا هُزمت في الشرق الأوسط، فلن تتمكن من الفوز».

قالت دون أي تردد: «لا شيء أعظم من فخري واعتزازي بتحرير العراق. هل ارتكبنا بعض الأخطاء؟ بالتأكيد. كان حدثاً تاريخياً ضخماً، ولم نتعامل مع فصوله كلها بطريقة جيدة. أنا أول من يقول ذلك».

لكن رايس تعفي نفسها غالباً من مسؤولية المشكلات التي ظهرت في الشهور العشرين الأولى من الحرب، حين كانت تحتل منصب مستشار بوش لشؤون الأمن القومي. «لم تكن إدارة العراق من مسؤوليتي. وحقيقة الأمر أن مستشار الأمن القومي يحمل كثيراً من المسؤولية لكن دون أي سلطة تذكر».

أكدت رايس أن إحدى نتائج الحرب تحسن مكانة الولايات المتحدة ووضعها في الشرق الأوسط. صحيح أن إيران ضاعفت صيدها فيما دعته بـ«المياه العربية العكرة»، ودعمت حزب الله اللبناني، وزادت نفوذها في الأراضي الفلسطينية، لكن «في أعقاب ما حدث في العراق أصبح بالإمكان تشييد شرق أوسط يُكبَح فيه نفوذ إيران وتأثيرها»، كما أصرت.

عدّت رايس الحرب «إعادة ترتيب للشرق الأوسط. فمن جهة، هناك السعودية، ومصر، والأردن، ودول الخليج» تدعم الاعتدال. «ومن جهة أخرى، هناك إيران، وحزب الله، وحماس»، مع سوريا المتقلبة التي تبدل تحالفاتها، كما قالت. وشعرت بأن التلاحم بين حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لم يكن أشد تماسكاً من وضعه الحالي، على الرغم من أن هذه البلدان لم ترغب في الوقوف في الخطوط الأمامية لدعم الولايات المتحدة وتأييدها.

فيما يتعلق بإيران، قالت رايس: «لن ندع الإيرانيين يستخدمون المفاوضات غطاء يستر استمرارهم في تحسين قدراتهم النووية... إذ تعد إيران تحدياً لمصالحنا؛ لأنها تريد في الجوهر أن تصبح اللاعب الإقليمي المهيمن. ولن نجلس ونتحدث معها حول كيفية تحولها إلى قوة عظمى ثانية في الشرق الأوسط، وهذا ما تريده».

«لا يمكن أن نسمح لها باكتساب قدرة نووية؛ لأن ذلك يعزز مطلبها ويقويه بالحصول على مكانة القوة العظمى في المنطقة». وقالت إن تاريخ الاتحاد السوفييتي مفيد ويجب أن نتعلم منه. «فقد أصبح الاتحاد السوفييتي نووياً قبل أن يصبح قوياً». وأجرى أول تجربة للسلاح الذري في التاسع والعشرين من نيسان 1949. «وحقيقة أنه أصبح دولة نووية جعلته قوياً. ولا أريد ذلك أن يحدث مع إيران، ولهذا السبب لو استطعت وقف نشاطهم في هذا المجال فسيكون لدي وقت كاف».

«هناك فكرة عن الدبلوماسية تشير إلى أنها تعقد الصفقات لتحقيق استقرار الوضع. ولقد انهارت الآن هذه المجموعة من الصفقات التي تحقق الاستقرار في الشرق الأوسط، ونحن سعداء بالتحرر من قيودها. الآن، قبل إعادة الاستقرار إلى الشرق الأوسط، لنحرص على عدم التقيد بإسار صفقات سيئة. قبل شهر، كان جيش المهدي يحكم البصرة، والآن لم يعد يحكمها. تكتيكياً، أفضل الحديث مع الإيرانيين حول العراق الآن على محادثتهم حوله قبل شهر».

قالت رايس إن قيام دولة فلسطينية سيحرم الإيرانيين من فرص التدخل في المنطقة. وأضافت: «أعتقد أن وجود عراق قوي يجسد أسوأ كوابيسهم كما سيتبين لاحقاً».

«لا أريد أن أعقد صفقة كبرى مع آية الله خامنئي و[الرئيس] أحمدي نجاد؛ لأن تلك الصفقة الكبرى ستكون نوعاً من القاسم المشترك الأصغر ولن تناسب الصورة التي يجب أن يبدو عليها الشرق الأوسط». ثم بدأت تتحول إلى النموذج السوفييتي. ربما تبدأ «الحماسة الثورية» في إيران في حرق ما دعته بالأهداف «التوسعية» الإيرانية وتقليصها.

«دعنا نقول إن علينا التعايش مع الدولة الإيرانية الثورية بعض الوقت. فهل أفضل العيش مع دولة إيرانية ثورية والقوات الأمريكية منتشرة في العراق وأفغانستان والخليج

وآسيا الوسطى؟ بالتأكيد. حين أسمع أن الإيرانيين يستفيدون من الوضع، أفكر: كيف ينظر جيرانهم إليهم؟ ما حدث فعلاً أن مركز القوة الأمريكية تغير بدءاً من حرب الخليج الأولى [1991]، وبعد الحادي عشر من أيلول خاصة». ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، نقلت الولايات المتحدة بؤرة تركيز قوتها العسكرية ونشاطها الحربي إلى أوروبا، لكن تطلب انهيار الاتحاد السوفييتي أربعة عقود. والآن، انتقلت القوة العسكرية الأمريكية إلى الشرق الأوسط.

في يوم التنصيب عام 2009، لن يقول أي رئيس أمريكي، ديمقراطياً كان أم جمهورياً، إن إدارة بوش قد نجحت في إصلاح الوضع في الشرق الأوسط، كما أقرت رايس. لكنها اعتقدت أن عراقاً ديمقراطياً سيبزغ بمرور الزمن، وسوف تتغير إيران أو تهزم، وسيتحرر لبنان من القوات السورية، وتقوم دولة فلسطينية. ولن يكون أي من هذه الأهداف ممكناً دون تحقيق نوع من النصر المستقبلي في العراق. «لم يكتف هذا الرئيس بتحريك عجلة الأمور، بل وضع الأساس الضروري لتوجيه دفتها لمصلحتنا».

«لم نأت إلى هنا للحفاظ على الوضع القائم. فالوضع القائم ينهار في الشرق الأوسط. ستكون الحالة بشعة بطريقة أو بأخرى؛ وهذا ما يحدث في سبيل القضايا العادلة. ومع ظهور العراق كما هو الآن، سوف تحدث نكسات ومشكلات وصعوبات. هكذا يحدث التغيير التاريخي دوماً. هناك أشياء كثيرة فعلتها لو منحت الفرصة لقمت بها بطريقة مختلفة. لكن الشيء الوحيد الذي لن أفعله بطريقة مختلفة هو تحرير العراق. لو منحت الفرصة لكررت ما فعلته في العراق ألف مرة، ألف مرة».

فيما بعد، سألت الرئيس في المكتب البيضاوي هل سيكرر ما فعله هو أيضاً «ألف مرة».

قال: «كان قرار إطاحة صدام قراراً صائباً. وأقول هذا للجميع وللشعب الأمريكي».

ما الذي يثير قلق الرئيس أكثر من غيره فيما يتعلق بمجال الأمن القومي؟ إيران؟ العراق؟ أفغانستان؟

قال بوش: «مد الأصولية المتطرفة التي تؤجج لهيبها الدول وتحمل أفكارها تلك الجماعات الكامنة في المناطق اللينة في شتى أرجاء العالم، وقدرة هؤلاء الذين يستهدفون إيذاء أمريكا وحلفائنا على امتلاك سلاح خطر واستخدامه. لقد استخدموا الطائرات آخر مرة على ترابنا الوطني. وفكرة امتلاكهم قدرات بيولوجية أو كيميائية مرعبة جداً».

قلت له إن رايس عبرت عن ذلك بالقول: «كل يوم هو الثاني عشر من أيلول».

قال بوش: «هذا أسلوب شعري في التعبير، لكن أكثر ما يجب أن يخشاه أي رئيس – ومواطن- أن تصبح بلادنا انعزالية، ولا تهتم بما يحدث في العالم. أنا أفكر في أمن البلد على الدوام».

«في كل يوم تجلس فيه على هذا الكرسي تدرك أن أكبر مسؤولياتك هي منع تعرض أمريكا للهجوم مرة أخرى؛ توفير الأمن والسلامة للناس. لكن أدرك أيضاً أن الأمن على المدى البعيد يتحسن عبر مساعدة الناس على إدراك نعم الحرية وآلائها. بالنسبة إلى بعض الأمريكيين، يبدو ذلك نوعاً من المبالغة في التفاؤل الخيالي. لكن إذا نظرت إلى التاريخ، تجد أن الحرية نجحت. لقد نجحت. إنها قوة فاعلة. الحرية عامل تغيير تحويلي. والجدل الواسع الآن يدور حول قدرة المسلمين على حكم أنفسهم، وهل مساعدتهم على التحول إلى مجتمعات حرة تستحق العناء. أؤمن بقوة أن المجتمعات الحرة، أو التي يحدوها الأمل، قادرة على تهميش هؤلاء المتطرفين، وأن تأثيرهم سيضمحل ويختفي بمرور الزمن. هذا لا يعني القول إن القتلة سيختفون عن وجه الأرض، لكن عددهم سينقص، وسينقلب عامة الناس ضدهم، وسيظهر نوع من الجماعات المهتمة والمعنية من المواطنين».

دخل جوش بولتون إلى المكتب البيضاوي وقال إن لدى الرئيس موعداً على الغداء وانه تأخر.

قال لي بوش: «أجل. هيا تحرك. كم لديك من أسئلة إضافية؟».

قلت: «بضعة أسئلة»، ولدي بالطبع المئات.

«من الأفضل أن تسرع. أشعر بأنني أصبحت أقل تساهلاً ورغبة في الحديث، مثلما قد تحزر. أولاً أنا جائع. وثانياً، عندي اجتماع».

«هل هناك نوع من إعادة مركزة للقوة الأمريكية في الشرق الأوسط؟».

«أجل بالتأكيد. وهي ضرورية. أما السبب وراءها فهو أنه المكان الذي انطلق منه هجوم فتاك. وهو المكان الذي قد تنطلق منه هجمات فتاكة أخرى. وفكرة امتلاك إيران سلاحاً نووياً فكرة بالغة الخطورة. وفكرة امتلاك بعض البلدان للقدرة، القدرة النووية، ثم إعطائها إلى الجماعات الإرهابية التي تستطيع استخدامها فكرة مميتة أيضاً».

«ومن ثم لدينا هيمنة عسكرية على المنطقة، لأسباب عملية؟».

أجاب الرئيس: «نحن نشجع هيمنة الحرية. ونحاول دفع الحرية قدماً».

تدخل هادلي، منبهاً الرئيس لمضامين كلمة «هيمنة»، التي تعني السيطرة أو الزعامة وتحمل مداليل إضافية تشير إلى الإمبراطورية.

قال الرئيس: «إنها كلمة مشحونة بالمعاني، مثلما تعرف جيداً».

وافقته الرأي: «إنها كلمة مشحونة».

قال بوش: «إنها كلمة ماكرة جداً ومتداولة في واشنطن. ماكرة جداً يا ودوارد. ماكرة جداً».

اعترضت قائلاً: «لا، لا».

قال بوش: «أجل، إنها كذلك، من أساليب ودوارد التكتيكية».

قلت: «إذا استمعت إلى الوزيرة رايس عن هذا الموضوع لعرفت أنها مبتهجة جداً لوجود هذه القوات كلها هناك».

قال الرئيس: «هل نشر الجنود في كوريا يعد هيمنة؟ لا أظن ذلك. هل نشر الجنود في اليابان يعد هيمنة؟ هل نشر الجنود في ألمانيا يعد هيمنة؟ لا. لدى الولايات المتحدة جنود موجودون بدعوة من الحكومات للمساعدة على توفير الأمن. وهذا بالمناسبة يساعد على توفير الشروط اللازمة لتقدم قضية الحرية».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع سبعة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Lolita C. Balder, «Petraeus Charts Violence in Iraq,» Associated Press, April 8, 2008.

2- Defense Department new briefing, April 23, 2008, DOD transcripts, www.defenselink.mil.

3- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

خاتمة

تبقى نتيجة حرب العراق، التي دخلت الآن عامها السادس، مغلفة بالغموض وعدم اليقين. وأصاب الجنرال بترايوس حين قال إن أي مكسب يظل «هشاً ويمكن عكسه».

أما ديريك هاريف، خبير استخبارات الدفاع المتمرس وأحد المتشائمين الأوائل من احتمالات الحرب وفرص نجاحها، فقد تحول إلى التفاؤل الحذر بحلول أيار 2008. وبوصفه مستشاراً إستراتيجياً يقدم تقاريره مباشرة إلى بترايوس، وجد كثيراً من الأدلة التي تثبت أن الأسوأ قد انتهى وانقضى.

طرد رئيس الوزراء المالكي 1400 شيعياً من وزارة الداخلية؛ بسبب تورطهم في أعمال طائفية. وصحيح أن لدى المالكي نفسه ميولاً طائفية، لكن أفعاله تشير إلى التزامه مزيداً من العدالة والنزاهة. في حين انخفض عدد السيارات المفخخة من مئة وثلاثين شهرياً في آذار من عام 2007، إلى ثلاثين في أيار من عام 2008 –وهو رقم مرتفع دون شك. لكن غالبية السيارات المفخخة تنفجر عند نقاط التفتيش، ولذلك فهي توقع عدداً أقل من الضحايا. ولم تعد تنجح في التسلل إلى الأسواق المكتظة لإيقاع عدد كبير من الضحايا، مثلما كان يحدث في عامي 2006-2007، إلا في حالات نادرة.

انخفض مستوى العنف في بعض الأماكن القليلة إلى درجة أن بعض الجنود الأمريكيين لا يتلقون شارات الأعمال الحربية؛ لعدم وجود أي قتال في منطقتهم. أما جيش المهدي المسؤول عن معظم أعمال العنف الشيعية، فقد تشظى وتفكك وانقسم برأي هاريف. في حين يبدو أن إيران، التي تحاول الولايات المتحدة كبح نفوذها وصد تأثيرها، تفقد شعبيتها في العراق باطراد. إذ أظهر عدد من استطلاعات الرأي أن نسبة تراوح بين 65-70% من العراقيين ينظرون إلى إيران نظرة سلبية.

اعتقد هاري أن التعب اكتسح العراقيين وأرهقهم، وهناك عدد متزايد من المواطنين سئموا من الحرب المستمرة منذ خمس سنين. ومع أن المشاعر المعادية لأمريكا والشكوك المتعلقة بدورها تبقى قوية وحادة، إلا أن تأييد القاعدة شهد تراجعاً مهماً. وصحيح أن الولايات المتحدة تأذت في المنطقة، إلا أن الأذى الذي لحق بالقاعدة كان أكبر، كما اعتقد. ومن الممكن تحول التمرد العراقي إلى ما يشبه الجيش الجمهوري الأيرلندي، بحيث يقدر على شن حرب عصابات في المدن، لكنه ليس قوياً بما يكفي لعرقلة سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ومثلما هي الحال دائماً، يبقى هناك كثير من المخاوف والهموم والمحاذير. فالانتخابات العراقية المقرر إجراؤها في نهاية عام 2008، يمكن أن تحدث تغييراً كاسحاً في المحافظات وفي بغداد، كما يعتقد هاري. على سبيل المثال، لا يوجد في مجلس مدينة بغداد المؤلف من واحد وأربعين مقعداً سوى عضو سني واحد. ويمكن أن يرتفع العدد إلى ثمانية عشر مقعداً سنياً بعد الانتخابات. ومع أن ذلك قد يشير إلى المصالحة، إلا أنه يخاطر بإطلاق ردة فعل شيعية عنيفة.

هناك دوماً احتمال حدوث ما دعاه هاري «ضربات مفاجئة»، أي أحداث مأساوية غير متوقعة مثل اغتيال المالكي أو هجوم ساحق على الأمريكان، في قواعدهم أو في المنطقة الخضراء. وما يزال دعم التمرد يتدفق إلى العراق عبر سوريا والأردن، والتحالف السوري-الإيراني أقوى من أي وقت مضى برأيه. وما تزال إيران تواصل جهودها المهلكة والمدروسة بدقة وعناية لدعم الميليشيات وتدريبها وتزويدها بالعبوات الناسفة المتقدمة، والقذائف الخارقة الدروعَ، التي يمكنها اختراق أي عربة مصفحة تقريباً.

اعتقد هاري أن المهمة الحاسمة المتمثلة بقهر إرادة العدو وإعادة بناء المجتمعات المحلية والطوائف، بحيث لا تعاود العناصر التي تمارس العنف التسلل مرة أخرى، تعد مهمة هائلة وصعبة ولم تستكمل بعد في العراق. أما الأحداث التي تذكّر أن الحياة العادية لا تزال بعيدة عن العراق، فتقع بانتظام، مثل التفجير الذي حدث في السابع عشر من حزيران 2008 وأودى بحياة خمسة وستين شخصاً، وهو أعلى رقم من الخسائر البشرية التي تقع نتيجة تفجير في بغداد منذ ثلاثة أشهر. ولا ريب في أن الغموض وعدم اليقين أكثر ثباتاً واستمراراً في العراق من الكهرباء.

يعمل في وزارتي الداخلية والدفاع –أفضل وزارتين من حيث الإدارة في الحكومة العراقية– قرابة 2500 من المستشارين الأمريكيين الذي يمسكون بزمام الأمور. ومن دونهم، سوف تعود كل منهما إلى أساليبها الطائفية المعهودة، كما يقول هاري ونبرة القلق بادية في صوته.

في هذه الأثناء، سال لعاب الصين وروسيا والهند وشركاء أمريكا في أوروبا نتيجة ما بدا أنها حالة من الإنهاك الذي أصاب الولايات المتحدة ومبالغتها في التزامها واشتغالها بالعراق. فهذه البلدان متشوقة على ما يبدو إلى اقتناص الفرص السانحة واستغلالها في منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط، مما فاقم ضعف موقف أمريكا في العالم.

احتل الخبر صدر الصفحة الأولى من صحيفة واشنطن بوست في الرابع عشر من حزيران 2008: «كبار الزعماء العراقيين يصيبون جهود الولايات المتحدة بالنكسات» [1]، مما فاقم حالة الغموض وعدم اليقين المستمرة حول الحرب. فقد أعلن المالكي أن المفاوضات على وضع القوات الأمريكية في العراق «وصلت إلى طريق مسدود». ومع أن المحادثات ستتواصل، إلا أنه قال: «لا يمكن أن نمنح عفواً للجنود الأمريكيين الذين يحملون السلاح على أراضينا. لن نمنحهم العفو أبداً». وفي الوقت ذاته، أعلن مقتدى الصدر أنه يؤلّف وحدة جديدة شبه عسكرية لمهاجمة القوات الأمريكية، منهياً بذلك عملياً تعليق العمليات منذ السنة السابقة. وبدا وكأن المالكي والصدر يتنافسان على من يكون أكثر جرأة وجسارة في إبعاد اليد الأمريكية عن مقعد الدراجة العراقية.

حتى لو تحسن وضع العراق في نهاية المطاف، فإنه لن ينقذ تركة بوش وميراثه، كما يظن هاري. فقد ظل الرئيس سنوات –من عام 2003 إلى نهاية عام 2006– لا يلتزم جانب الصدق والصراحة فيما يتعلق بالتكاليف، والمدة، والتحديات التي تواجه أمريكا في حرب العراق. وبعد أن تنقل هاري بين واشنطن وبغداد مرات عديدة، تساءل متعجباً من الرئيس: «ما الذي كان يراه فعلاً؟ ولماذا احتاج إلى هذا الوقت الطويل لكي يفهم؟».

مع استكمال كتابي الرابع عن الرئيس بوش وحربيه، أعود باستمرار إلى بعض الأسئلة المفتاحية، وأهمها: كيف كان أداء بوش بوصفه القائد العام؟ هل وضع الرئيس، وطبق، نظاماً لصنع القرار يستحق التضحية التي طالب بها الآخرين، خصوصاً رجال المؤسسة العسكرية الأمريكية ونساءها وأسرهم؟ هل كان على استعداد للتحاور والتفكير في مسارات عمل بديلة؟ هل تباطأ في التحرك حين فشلت الإستراتيجيات التي اتبعها؟ هل أجرى التغييرات الصائبة؟ وهل أجراها في الوقت المناسب؟ هل تعد إدارة بوش مكاناً يحاسب فيه المسؤولون على قراراتهم وأفعالهم؟

يمكن العثور على جذور بعض من هذه الإجابات في كتابي «بوش محارباً» الذي صدر عام 2002، وقدم رواية مفصلة عن الشهور التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول الإرهابية عام 2001.

في اليوم الذي وقعت فيه الهجمات، ألقى الرئيس خطابين بدا فيهما ضعيفاً يفتقد الثقة والثبات، لكن في الأيام التسعة اللاحقة حشد وراءه أعضاء حكومة الحرب المصغرة، وعبأ الأمة. وفي العشرين من أيلول، ألقى واحدة من أفضل خطبه وأكثرها تعبيراً عن الثقة بصفته رئيساً. فقد خاطب الكونغرس وثمانين مليوناً من الأمريكيين الذين كانوا يشاهدونه على شاشة التلفاز، وتعهد بالرد.

قال: «سوف نوجه الموارد كلها ونضعها تحت تصرفنا. لن أرضخ، ولن أرتاح، ولن أتوانى عن خوض هذا الصراع في سبيل حرية الشعب الأمريكي وأمنه» [(2)]. في تلك الليلة، ارتج مبنى الكابيتول بعاصفة مدوية من التصفيق، وتلقى الخطاب مديحاً شاملاً تقريباً.

بعد أسبوعين اثنين من وقوع الهجمات الإرهابية، كانت رايس، مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي آنذاك، تتلقى إيجازاً في وكالة المخابرات المركزية عن العمليات السرية داخل أفغانستان، حين اتصل بها الرئيس. أراد معرفة هل ستكون المؤسسة العسكرية جاهزة للبدء بقصف أفغانستان على الفور. قالت له مفسرة إن العملية قد تتأخر قليلاً.

قال الرئيس مزمجراً: «لماذا؟ هذا غير مقبول».

انقطع الحديث بينهما بسبب رداءة الخط الهاتفي. وحين وصلت إلى البيت الأبيض، اندفعت بسرعة إلى مكتبها، حيث كان بوش يتصل من مقر إقامته. كررت القول إن العسكر ليسوا مستعدين تماماً.

قال بوش مرة أخرى: «هذا غير مقبول! لماذا؟».

شرحت قائلة إن الولايات المتحدة لا تملك قواعد عسكرية قريبة من أفغانستان، والمعلومات الاستخبارية ضعيفة، والأهداف قليلة، والحالة الجوية تتدهور.

قال لي فيما بعد: «كنت مستعداً للانطلاق بالحملة. هكذا أنا في بعض الأحيان –ناري المزاج... يمكن أن أفقد صبري» [3]. لقد عيل صبره في عشية الحرب الأولى تلك.

ثمة مثال آخر. في الخامس والعشرين من تشرين الأول، بعد بدء حملة القصف الجوي في أفغانستان، ذهبت رايس لمقابلة الرئيس. وذكرت أن عدداً من أعضاء الفريق الحكومي المكلف بإدارة الحرب قد شعروا بالقلق من بطء التقدم في الأسابيع الأولى. واقترحت استنصاحهم في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي يعقد في صبيحة اليوم اللاحق. قال لها بوش: «سوف أهتم بالمسألة».

قال بوش في الاجتماع: «أريد تيقن أننا جميعاً متفقون على هذه الخطة». دار حول الطاولة وطلب من كل واحد من الحاضرين توكيد ولائه للخطة. وسأل عن أي أفكار لديهم، لكنني كتبت بعد مقابلة كل من كان حاضراً في الغرفة ما يأتي: «في الحقيقة، لم يفتح الرئيس الباب قيد أنملة لأي شخص يثير أي مخاوف، أو يعرض أفكاراً بديلة. لم يكن يصغي إلى أحد».

قابلت الرئيس أول مرة في المكتب البيضاوي في العشرين من كانون الأول 2001، بعد ثلاثة أشهر من الهجمات الإرهابية. بدا آنذاك أن الحرب في أفغانستان تسير على ما يرام، حيث أطيح بنظام الطالبان، وبذلت جهود واعدة لحرمان القاعدة من ملاذ آمن في البلد. كان بوش سعيداً ومترعاً بالثقة بالنفس، رئيساً شاباً لم يتجاوز الخامسة والخمسين، ومتخماً باليقين. أمر أحد مساعديه بالتوجه إلى مكتبه وسحب ثلاث صفحات تحوي سيراً موجزة لزعماء القاعدة، مرفقة بصور ملونة. أظهر كيف وضع إشارة ضرب (×) كبيرة على صورة كل زعيم إرهابي قتل أو أسر.

«في وقت مبكر، قلت ذات مرة: أنا من مشجعي البيسبول. أريد بطاقة تسجيل عدد الإصابات»[4]. كان يريد حساب أعداد قتلى العدو.

وكانت لديه أهداف رئيسة. «سوف نستأصل جذور الإرهاب أينما وجد»، كما قال. وتطرق إلى إنجاز «سلام في العالم»، وإيجاد وحدة في الوطن. «وظيفة الرئيس هي توحيد الأمة».

قال لي الرئيس بوش ذات مرة عن السبيل الذي اختاره: «أعلم أن من الصعب عليك أن تصدق، لكني لا أشك مطلقاً في ما نفعله. لم أشك قط... لا يوجد أدنى شك في ذهني أننا نفعل الصواب. ولا ذرة شك»[5].

لم يكن من الصعب كثيراً أن أصدق. فقد أبلغني مراراً أن يقينه مصدر قوة ونفع. قال: «يجب أن يكون الرئيس مثل الكالسيوم في العمود الفقري؛ إذا ضعفت يضعف الفريق برمته، إن ملأتني الشكوك، فتوثق أن الشكوك ستنتشر وتعم، إن تراجع مستوى ثقتي بقدرتنا، فسيعم التأثير المؤسسة كلها. أعني أن من الجوهري أن نكون واثقين ومصممين وموحدين».

«لا أحتاج إلى أشخاص حولي يفتقرون إلى الثبات ورباطة الجأش. ولا أحب التردد والحيرة في الأوقات الصعبة».

كرر الحديث عن «غرائزه الفطرية» أو «ردود أفعاله الغريزية» عشر مرات. وقال ذات مرة موجزاً: «لست لاعباً يعتمد على الكتب التعليمية، بل على المواهب الفطرية».

بعد أن عرضت هذه التفاصيل في كتاب «بوش محارباً»، ظن كثير من القراء والنقاد والصحفيين أنني صورت بوش زعيماً قوياً وملهماً. لكن روايتي أظهرت أيضاً أنه لم يكن راغباً بجدل مفتوح وكامل يكشف المخاوف المحتملة ويأخذ بالحسبان البدائل الممكنة. فهو «اللاعب الذي يعتمد على المواهب الفطرية»، و«الكالسيوم في العمود الفقري»، قائد يشتغل وفق مبدأ «عدم الشك».

كتبت أقول: «تعد غرائزه الفطرية طبيعة ثانية له تقريباً» [6]. في حرب أفغانستان، صاغ المؤشر الدال على أن قناعاته سوف تلغي كل شيء آخر وتقهر كل شخص آخر.

في أثناء مقابلة مع بوش في مزرعته في كروفورد (20 آب 2002)، شرح أفكاره عن حرب تشن على العراق، كانت ما تزال على بعد سبعة أشهر.

«فيما يتعلق بالعراق، ربما نهاجمه وربما لا نهاجمه. ليست لدي فكرة بعد. لكن الهدف سيكون جعل العالم أكثر هدوءاً وسلاماً».

«سوف أقتنص الفرصة لتحقيق أهداف كبرى»، كما قال، وتطرق من تلقاء نفسه إلى موضوع كوريا الشمالية. كان قد ربط كوريا الشمالية بالعراق وإيران ضمن «محور الشر» في خطاب حالة الاتحاد في وقت مبكر من السنة. وأوضح دون لبس أن العراق وكوريا الشمالية مرتبطان معاً في ذهنه. مال في كرسيه إلى الأمام وتحدث عن ردة فعله الفطرية إزاء زعيم كوريا الشمالية.

صرخ الرئيس مزمجراً ومهدداً بإصبعه: «أكره كيم جونغ إيل! ثمة رد فعل عميق لدي على هذا الرجل؛ لأنه يجوع شعبه. وشاهدت صوراً من الاستخبارات عن معسكرات الاعتقال –الضخمة- التي يستخدمها لفصم عرى الأسر، وتعذيب الناس. أصبت بالرعب... الشعور عميق. ربما هو ديني الذي أؤمن به، وربما... لكنني أشعر بعواطف حماسية تجاه هذا الأمر». وقال إنهم نصحوه بعدم الاستعجال فيما يتعلق بكوريا الشمالية، لكنه أضاف: «إما أن تؤمن بالحرية و... تقلق على الوضع الإنساني أو لا».

«وبالمناسبة، مشاعري متشابهة تجاه شعب العراق»، كما قال. وأضاف إن صدام حسين يجوع الشيعة في مناطق العراق النائية. «هناك وضع إنساني يجب أن نقلق عليه».

لكن الرئيس أوضح أنه لا يفكر كثيراً في الدبلوماسية. «لا يمكن أن تتبع طريقتك في حل المشكلات». والولايات المتحدة تحمل مسؤولية الزعامة. وهذا ما أطلق «مشاعر الاستياء تجاهنا»، ودفع الناس إلى القول: «بوش يتصرف بطريقة أحادية، وأمريكا تتحرك بطريقة أحادية». وأضاف: «حضرت اجتماعات سمعت فيها عبارات مثل 'يجب علينا عدم التحرك قبل التوصل إلى اتفاق بالإجماع'. حسناً، لن نتوصل أبداً إلى إجماع

شامل على القوة واستخدام القوة». وعلى ما يبدو لا تعد التحالفات الدولية أو الأمم المتحدة من الطرق العملية للتعامل مع الدول المارقة الخطرة، كما قال. «إن العمل الواثق الذي يعطي نتائج إيجابية يوفر نوعاً من التيار الهوائي الخلفي يدفع الدول المترددة والزعماء المحجمين إلى اللحاق بالركب».

مرة أخرى، بدا أن إيمانه الأعمى بغرائزه الفطرية يعني أكثر من مجرد مخاوف حكومة الحرب المصغرة والمجتمع الدولي.

تناول كتابي الثاني عن بوش -«خطة الهجوم»- عملية صنع القرار التي اتبعها الرئيس في أثناء الأشهر الستة عشر الممتدة بين تشرين الثاني 2001 وغزو العراق في آذار 2003. في هذه الحقبة، قدم رمسفيلد وقائد القيادة المركزية آنذاك الجنرال تومي فرانكس قرابة ستة إيجازات عن خطة الغزو. كان كل اجتماع يدور حول كيف نشن الحرب. ولم يعقد اجتماع واحد حول هل نشن الحرب. ولم يضع الرئيس قط صوابيتها موضع المساءلة، وصوابيتها جعلت منها السبيل الوحيد والمسار الأوحد.

اعترف بوش فيما بعد في عدة مقابلات معي بأنه لم يسعَ إلى أي توصيات من أربعة أشخاص مهمين: والده، الرئيس السابق جورج بوش (الأب)، الذي أشرف على حرب الخليج الأولى عام 1991؛ ووزير الخارجية كولن باول؛ ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد؛ ومدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت.

وعندما ألححت عليه في مرات عديدة لمعرفة النصيحة التي قدمها والده حول غزو العراق، تهرب بوش من الأسئلة وأبلغني أنه لا يتذكرها. وأخيراً قال: «يجب عدم اللجوء إليه فيما يتعلق بالقوة، فهو الأب الخطأ. هناك أب أعلى» [(7)].

ثمة زخم متسارع نحو الحرب وافتقار إلى الحذر والروية من جانب الرئيس. فقد كانت قناعاته الراسخة تدفع المسيرة نحو الحرب مثل قاطرة تزداد سرعة واندفاعاً باطراد.

في مقابلة أجريتها معه في كانون الأول من عام 2003، بعد تسعة شهور من غزو العراق، قال لي بوش: «أعتقد أن من واجبنا تحرير الناس» [(8)]. أراد تحرير العراقيين من القمع وقال إنه «متحمس» للقيام بذلك. وفي أيار 2008، سألته هل مازال متمسكاً باعتقاده؟

قال: «أجل. لكن من المهم لك أن تفهم أن لدي جملة من المعتقدات التي لا تنتهك حرمتها: الإيمان بالقدرة التحويلية للحرية، والاعتقاد أن البشر سيختارون، لو منحوا الفرصة، المجتمعات الحرة» [9].

لم أشك قط في صدق معتقدات الرئيس وصفاء نيتها. لكن المعتقدات وحدها لا تكفي. فقرار شن الحرب حاسم الأهمية. وتتضاعف الأهمية فيما يتعلق بقرار شن الحرب الاستباقية؛ لأنه يحمل مسؤولية ضخمة.

في كتابي «القادة» الذي صدر عام 1991، وتناول غزو بنما وحرب الخليج الأولى لطرد صدام حسين من الكويت، كتبت أقول: «قرار شن الحرب قرار يعرّف الأمة، أمام العالم والأهم ربما أمام نفسها أيضاً. إذ لا يوجد نشاط آخر أكثر جدية وخطورة للحكومة الوطنية، ولا مقياس أدق وأصدق للزعامة الوطنية».

يجب على الرئيس أن يكون قادراً على امتلاك نظرة واضحة وتقويم نزيه وموضوعي للحرب. يجب على الرئيس أن يقود. وعلى مدى سنين عديدة، أظهر الرئيس بوش مراراً وتكراراً نفاد صبر، وعنترية، ويقيناً شخصياً مزعزعاً فيما يتعلق بقراراته. وكثيراً ما كانت النتيجة اندفاعاً وتهوراً وإهمالاً، والأشد إثارة للقلق ربما، رد فعل متأخر على الوقائع والحقائق والنصائح التي تناقض غرائزه الفطرية.

تبدى ذلك بأوضح صورة في السنوات الثلاث التي أعقبت الغزو، الحقبة التي تناولها كتابي الثالث عن بوش: ««حالة إنكار»، الذي نشر في أيلول من عام 2006. إذ لم يعترف بوش وإدارته علناً بحدة العنف المتصاعد وتدهور الوضع في العراق. قلت في آخر سطر من الكتاب: «على الرغم من تفاؤل بوش وكلامه المتخم بالبهجة والانشراح، لم يكشف للرأي العام الأمريكي حقيقة ما وصلت إليه حال العراق».

وأظهر عملي على هذا الكتاب في أثناء جمع مادته أن الحالة كانت أسوأ مما تخيلت.

من بعض الجوانب، لم يتغير بوش كثيراً منذ مقابلتي الأولى معه في العشرين من كانون الأول 2001. إذ يبقى رجلاً دون شكوك، ويتبع غرائزه الفطرية، وعلى قناعة بصوابية

السبيل الذي اختاره. لكن من جوانب أخرى، كان الرئيس البالغ من العمر واحداً وستين عاماً الذي قابلته في أيار عام 2008 مختلفاً كلية. ولم يكن الاختلاف ناتجاً عن التقدم في العمر فقط. فمن غير المفاجئ أن الرئاسة قد أنهكته، وسبع سنوات من الحرب أثرت فيه. غزا الشيب رأسه، وزاد عمق التجاعيد في وجهه. ومع أنه يتمتع ببعض اللياقة البدنية في هذه السن، إلا أن من الممكن ملاحظة بطنه البارز، وترهل جسمه حين يجلس.

في أثناء السنوات الأولى من حرب العراق، اعتاد الرئيس دوماً التحدث عن «الفوز» أو «النصر». وبحلول عام 2008، أخذ يخفف من غلواء توقعاته على ما بدا آنذاك. حين نطق مرتين في المقابلة الأخيرة كلمة «فوز» صححها على الفور إلى كلمة «نجاح» في كل مرة. وكان ذلك ذكاء منه، لكنه أيضاً يمثل تحجيماً لخطابه الناري الذي استخدمه ذات يوم.

منذ آذار عام 2003، حين أصدر الرئيس الأمر بغزو العراق، خدم قرابة نصف مليون من الجنود الأمريكيين (رجالاً ونساء) هناك. وقتل أكثر من 4100 منهم، في حين أصيب 30 ألفاً بجراح خطرة. وقتل عشرات الألوف من العراقيين. وعند كتابة هذه الصفحات في بداية صيف عام 2008، بلغ عدد الجنود الأمريكيين العاملين في العراق 140 ألفاً.

في مقابلتنا الأخيرة، تحدث الرئيس بهياج وانفعال عن اعتقاده بوجود طبقة من «النخبة» في أمريكا تحسب أنه لا يستطيع أن يفعل الصواب. أصبح أكثر حذراً من ذي قبل، وكثيراً ما أجاب إنه لا يتذكر التفاصيل، وكرر تأكيد كم مرة حول القرار إلى ستيف هادلي. ثمة شعور بالتسليم والإذعان يتملكه، كأنما أدرك ضآلة التغيير الذي يمكن أن يحدثه في الأشهر الثمانية الباقية من مدة رئاسته.

أو أصر بدلاً من ذلك على أنه «شُغل» بالحرب، و«راجع تطوراتها كل يوم»، قبل أن يضيف: «لكن اعلم أنني لم أكن أجلس خلف مكتب منهمكاً كلية بالعراق؛ لأن على الرئيس أداء عديد من المهمات الأخرى»[10].

قصر بوش عن بلوغ أهدافه الطموحة التي وضعها عام 2001. إذ لم يوحد البلد بل عمق انقساماته، وتحول هو نفسه إلى رمز لانقسام الأمة. حتى الرئيس يعترف بأنه فشل

في «تغيير نبرة الخطاب في واشنطن»[11]. ولم يستأصل الإرهاب من جذوره حيثما وجد. ولم ينجز السلام في العالم. ولم يحقق النصر في حربيه الاثنتين.

* * *

في السابع من آب 2007، ذهبت أنا ومساعدي برادي دينيس لمقابلة وزير الدفاع السابق روبرت مكنمارا، أحد مهندسي حرب فيتنام. أقر مكنمارا في كتابه «بالنظر إلى أحداث الماضي» (1995) بأخطاء الماضي واستنتج أن الولايات المتحدة كان بإمكانها الانسحاب من فيتنام في وقت أبكر دون أن تسبب هذه العاقبة الوخيمة لأمنها القومي.

جلسنا مع مكنمارا في غرفة المعيشة التي غطيت أرضيتها بالسجاد الأبيض في شقته في ووترغيت. ومع أنه بلغ الحادية والتسعين، إلا أن ذهنه احتفظ بحيويته، وظل الحماس يلمع في عينيه الزرقاوين. وعلى مدى الساعات الثلاث التي استغرقتها المقابلة، كرر مكنمارا العودة إلى موضوع واحد: لم توضع الاختلافات الكبرى على حرب فيتنام على الطاولة أمام الرئيس جونسون، خصوصاً في حضور كبار مستشاريه كلهم. ولم يعبر سوى قلة قليلة منهم عن تحفظاتهم، ولم يسع الرئيس إليها أصلاً.

«أنا متيقن تماماً أن معظم الزعماء يرغبون بتجنب المواجهة بين كبار مساعديهم، خصوصاً أمامهم؛ وهذه نقطة ضعف خطرة. أعتقد أن على كل زعيم إجبار كبار معاونيه على مواجهة القضايا الكبرى أمامه»، كما قال مكنمارا. الرؤساء يريدون الانسجام، «ويبتعدون عن النزاع والمواجهة». واعتقد أن ذلك يسبب ضرراً وأذى.

قال مكنمارا إنه كان موالياً لليندون جونسون ومخلصاً له آنذاك عبر اتباع سياسة الرئيس المتعلقة بالحرب، كما يعتقد. «حين أنظر إلى الماضي، أتمنى لو كنت أكثر إلحاحاً وعزماً على إجبار جونسون على التصدي لهذه القضايا». وحين أعلن استقالته عام 1967، قال: «أحجمت في النهاية عن فضح الاختلافات القائمة. فقد أقلقني خروجها عن السيطرة، وأقلقني أنها ستجعل وظيفة الرئيس أكثر صعوبة؛ لأن [المذكرات الداخلية السرية] تشير أساساً إلى أننا نخسر الحرب».

ثمة سؤال واحد أخير: من يدفع ثمن الحرب؟ لا أعني مليارات الدولارات التي أنفقت كل سنة، بل التكلفة البشرية. التكلفة التي تحملها مئة وأربعون ألفاً من الجنود الذين خدموا في العراق وأحباؤهم وأعزاؤهم. فهم الذين خسروا أعضاءهم، وحياتهم، وسنوات عمرهم حين أُرسلوا للقتال في آخر العالم. صنف أحد أصدقائي الحالة في خانة «موجة البؤس البشري»، التي تنتشر ببطء، وبصمت وهدوء عبر كل ركن من أركان أمريكا، دون أن يشعر بها غالبية الأمريكيين في معظم الأحوال.

أولئك الذين شاركوا في الحرب كانوا مع أسرهم وكلاء عن الأمريكيين كلهم. فقد تحملوا المخاطرة والإنهاك والتوتر طوال سنة أو أكثر من الخدمة في أرض أجنبية يجتاحها العنف. وكثير منهم قضوا شبابهم وأراقوا دماءهم في ساحات قتال بعيدة عن أرض الوطن. فبماذا ندين لهم؟ بكل شيء. وماذا قدمنا لهم؟ أقل كثيراً مما يستحقون.

نادراً ما صارح الرئيس بوش عامة الناس وشرح لهم ماذا يفعل وما الذي يجب توقعه. لم يطلب التضحية من غالبية الأمريكيين حين سنحت له الفرصة. ولم يحشد حتى حزبه. وكثيراً ما عبر الجمهوريون عن شكهم وارتيابهم مثلهم مثل الديمقراطيين.

نادراً ما جسد الرئيس صوت الواقع في حرب العراق.

ثمة موسوعة من الدروس والعبر ليتعلمها الرئيس القادم من إدارة بوش للحرب. وربما يكون أولها كشف الحقيقة أمام عامة الناس، مهما كانت جارحة ومؤلمة ومهما لفها الغموض وعدم اليقين. في صيف خريف عام 2006 وأوائله، حين اتضح إخفاق الولايات المتحدة في العراق، كان الشعب الأمريكي سيبتهج على الأرجح لو صارحه الرئيس بالحقيقة، واعترف أمامه معرفته فشلَ الإستراتيجية، وأنه بدأ مراجعة مكثفة لها.

يصيب الرئيس حين يقول إن اتخاذ القرارات يجب ألا يعتمد على استطلاعات الرأي أو الجماعات التمثيلية. لكن في النظام الديمقراطي، يجب عدم الكذب على عامة الناس أو «تلفيق» الحكايات لهم. فقد أقلق الإدارة كثيراً افتضاحُ قصة الجدل والخلاف بين أعضائها في سنة الانتخابات «الحساسة»، ولم تركز اهتماماً كافياً على

الحرب نفسها. وقرار عدم كشف الحقيقة جعل الرئيس يتخلى عن أعظم مصادر قوته: تأييد عامة الأمريكيين.

سألني لاحقاً واحد من المسؤولين المشاركين طوال سنين في عملية اتخاذ القرار المتعلقة بحرب العراق: «متى قرر أن يصبح قائداً عاماً؟ هذا هو السؤال».

الإجابة تشير إلى أن هناك لحظات، لكنها قليلة جداً. فبعد أن أمر الرئيس بالغزو، أمضى ثلاث سنوات في حالة إنكار، ثم وكل إلى مستشاره لشؤون الأمن القومي إجراء مراجعة للإستراتيجية. لم يكن يتحمل المواجهات والمجادلات المتعمقة. إذ لم يتحدد موعد نهائي، فلا داعي للاستعجال. انخرط الرئيس في الحرب خطابياً وبلاغياً، لكن حافظ على انفصال غريب عن إدارتها. لم يتعامل معها مباشرة بنحو كامل، وعلى مدى سنوات الحرب كثيراً ما فشل في القيادة.

بعد أن أصبحت رئاسة بوش من الماضي، ستتحول الحربان اللتان شنهما إلى جزء من قصة رئيس آخر.

سألت بوش في أثناء آخر لقاء معه في الحادي والعشرين من أيار 2008: «السؤال الأهم فعلاً هو: هناك رئيس منتخب سوف يأتي إلى هنا. وبوصفك رئيساً، وليس عضواً ديمقراطياً أو جمهورياً، ما الذي ستقوله للرئيس الجديد حول تركتك في العراق؟».

فكر لحظة: «ما أقوله له هو: لا تدع المسعى يفشل».

لكل شخص نواقص وعيوب. لكن نواقص الرئيس وعيوبه تصيب بأذاها الأمة بأسرها، وعندما يشن حرباً كبرى، يعم ضررها العالم برمته.

سوف يواجه الرئيس القادم مجموعة معقدة من التحديات المؤسسية والعسكرية والسياسية والقيادية بسبب حرب العراق. ولن تحل بالشعارات أو بالعقائد الحزبية أو بالأمنيات والأماني. وحين يدخل الرئيس القادم إلى المكتب البيضاوي في العشرين من كانون الثاني 2009، ويسبر ما ورثه، أظن أنه سيشعر بجدية المشكلات التي تركت دون حل وخطورتها.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثلاثة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Amit R. Paley and Karen DeYoung, «Key Iraqi Leaders Deliver Setbacks to U.S.,» Washington Post, June 14, 2008, P. A1.

2- Presidential Documents, September 20, 2001, pp. 1347-1351 (Vol. 37, No. 38), www.gpoaccess.gov/wcomp/v37no38.html

3- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/8/2002.

5- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/12/2001.

5- المصدر السابق.

6- انظر: Bob Woodward, Bush at War, P. 342.

7- مقابلة مع الرئيس بوش، 11/12/2003.

8- المصدر السابق.

9- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/5/2008.

10- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/5/2008.

11- مقابلة مع الرئيس بوش، 21/5/2008.

مسرد

القاعدة: منظمة عالمية إرهابية يرأسها أسامة بن لادن.

القاعدة في العراق: منظمة إرهابية محلية مرتبطة بالقاعدة برزت بعد الغزو الأمريكي للعراق في آذار 2003.

حزب البعث: الحزب الحاكم في العراق برئاسة صدام حسين: 1968-2003.

كتيبة: وحدة في الجيش الأمريكي أو مشاة البحرية تتألف من عدد يراوح بين 600-800 جندي.

لواء: وحدة في الجيش الأمريكي أو مشاة البحرية تتألف عادة من 3000 أو أكثر من الجنود.

القيادة المركزية: قيادة عسكرية أمريكية مسؤولة عن الشرق الأوسط وجنوب آسيا، يقع مقرها في تامبا (بولاية فلوريدا).

سلطة التحالف المؤقت: سلطة برئاسة بول بريمر كانت مسؤولة عن العراق المحتل بين أيار 2003 وحزيران 2004.

حزب الدعوة: حزب شيعي صغير في العراق، ينتمي إليه رئيس الوزراء نوري المالكي.

وكالة استخبارات الدفاع: وكالة استخبارات تنسيقية في وزارة الدفاع تقدم التقارير لوزير الدفاع، لكنها خاضعة لسلطة مدير الاستخبارات الوطنية.

اجتثاث البعث: سياسة طرد أعضاء حزب البعث من مواقع المسؤولية في الحكومة والجيش والمدارس.

مجلس سياسة الدفاع: مجموعة من المسؤولين السابقين، والضباط المتقاعدين، وغيرهم من الخبراء الذين يقدمون المشورة المتعلقة بالسياسة لوزير الدفاع.

مدير الأمن الوطني: منصب أنشئ عام 2005 مهمته الإشراف على/وتوجيه أنشطة مختلف وكالات الاستخبارات.

القذائف الصاروخية المتفجرة: قذائف قادرة على اختراق الدروع تعد أشد فتكاً من العبوات الناسفة المحلية الصنع (التقليدية).

مجلس التعاون الخليجي: مجموعة إقليمية تتألف من الإمارات العربية المتحدة، والسعودية، وعمان، وقطر، والكويت.

المنطقة الخضراء: معروفة أيضاً باسم المنطقة الدولية. منطقة محصنة في وسط بغداد حيث تقع مقرات الحكومة العراقية والسفارة الأمريكية.

العبوات الناسفة المحلية الصنع: متفجرات محلية مصنوعة من الذخائر وغيرها من المتفجرات القديمة، استخدمتها القاعدة والجماعات المتمردة على الطرقات أو جوانبها.

مجموعة دراسة الوضع في العراق (لجنة بيكر-هاملتون): مجموعة تضم أعضاء من الحزبين تأسست في آذار 2006، ووُكلت إليها مهمة إجراء تقويم مستقل للوضع في العراق.

جيش المهدي: مليشيا يرأسها رجل الدين الشيعي المتطرف والمعادي للأمريكيين مقتدى الصدر.

فريق التقويم الإستراتيجي المشترك: مجموعة قدمت المشورة للجنرال بترايوس في العراق في أوائل عام 2007.

اللجنة الوزارية المعنية بالأمن القومي: مجلس رفيع المستوى معني بالسياسة في العراق.

القيادة الأمنية المؤقتة المتعددة الجنسية — العراق: الفرع التدريبي التابع للجيش الأمريكي المسؤول عن تأسيس جيش عراقي جديد وقوة شرطة جديدة.

وكالة الأمن الوطني: وكالة مسؤولة عن التنصت على الاتصالات الأجنبية وحماية الاتصالات وأنظمة الشِّفرة السرية للولايات المتحدة.

مجلس الأمن القومي: يضم الرئيس وكبار صناع السياسة الخارجية، ومنهم نائب الرئيس، ووزيرا الخارجية والدفاع، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، ومدير الاستخبارات الوطنية. يرأس المجلس مستشار شؤون الأمن القومي.

عملية حرية العراق: الاسم الذي أطلق على الغزو الأمريكي عام 2003 والعمليات العسكرية الأمريكية اللاحقة في العراق.

عملية معاً إلى الأمام: خطة أمنية من مرحلتين لم تحقق نجاحاً يذكر في تقليص حدة العنف في بغداد (حزيران 2006 – تشرين الأول 2006).

فرق إعادة الإعمار في المحافظات: فرق مدنية تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية كلفت بمهمة تنسيق عمليات إعادة الإعمار ومعالجة المسائل الحكومية على مستوى المحافظات العراقية.

المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق: أبرز الأحزاب الشيعية في العراق وأكبرها. أعيدت تسميته بالمجلس الأعلى الإسلامي العراقي.

نظام الفيديو الآمن: نظام سمعي بصري آمن للاتصال بين واشنطن وبغداد.

الدبابة: غرفة اجتماعات في البنتاغون يستخدمها رؤساء الأركان.

ملحوظات

ملحوظة على المصادر

عُدّت المداولات الداخلية التي أجرتها إدارة بوش حول حرب العراق سرية كلها تقريباً. وفي وقت مبكر من عملية جمع مواد هذا الكتاب، تمكنت من الحصول على وثائق وفرت لمحات خاطفة عن كيفية ارتقاء عملية صنع القرار في عامي 2006 و2007. وافق البيت الأبيض على نزع الصفة السرية عن عشر من الوثائق بعد استقصاءاتي الأولية، واستطعت الحصول على عشر أخرى بطريقة مستقلة.

حصلت على معظم المعلومات الواردة في الكتاب من مقابلات شخصية أجريتها مع أكثر من مئة وخمسين شخصاً، منهم أعضاء فريق الأمن القومي، وكبار المساعدين وغيرهم من اللاعبين الأساسيين المسؤولين عن الاستخبارات، والدبلوماسية، والعمليات العسكرية في حرب العراق. وكوّن المسؤولون المطلعون اطلاعاً مباشراً على اللقاءات، والاجتماعات، والوثائق، والأحداث على مختلف مستويات موظفي البيت الأبيض، ووزارتي الدفاع والخارجية، والوكالات الاستخبارية، مصادر رئيسة أيضاً.

أجريت معظم المقابلات على أساس إمكانية استخدام المعلومات بشرط عدم ذكر أسماء المصادر في الكتاب. وقابلنا، أنا أو مساعدي في البحث برادي دينيس، كثيراً من المصادر مرات عدة، وصلت أحياناً إلى ست مرات أو أكثر. وسمح لنا الجميع تقريباً بتسجيل المقابلات بحيث يمكن رواية القصة بطريقة كاملة ودقيقة، بالألفاظ المستخدمة ذاتها.

قابلت الرئيس بوش رسمياً في المكتب البيضاوي طوال ثلاث ساعات يومي 20-21 أيار 2008. وعلى وجه الإجمال، التقيت به ست مرات لسؤاله عن حربي أفغانستان والعراق،

بلغت مدتها إحدى عشرة ساعة. وأشرت في الهوامش إلى المقابلات الماضية التي أخذت منها المادة الضرورية لهذا الكتاب.

فضلاً على ذلك كله، أتت معلومات حاسمة الأهمية من مصفوفة متنوعة من الوثائق – مذكرات، رسائل، ملحوظات شخصية، ملخصات، شرائح (سلايدات) بوربوينت، رسائل بالبريد الإلكتروني، مجلات، لوائح بالأحداث مرتبة بحسب تاريخ وقوعها، أجندات. وحين أردنا الاستشهاد بالوثائق، حصلنا على الوثائق الأصلية أو نسخ منها.

أتى الحوار المستخدم في الاجتماعات أو المحادثات من واحد على الأقل (أو أكثر عادة) من المشاركين، إضافة إلى مذكرات مكتوبة أو ملحوظات متزامنة. وحين تنسب الأفكار أو الاستنتاجات أو المشاعر إلى أحد المشاركين، فهذا يعني الحصول على وجهة النظر من الشخص المعني مباشرة، أو من سجل مكتوب، أو من زميل سمع منه ذلك. واستخدمت علامات الاقتباس حين ارتأيت أن السجل المكتوب أو الذكريات كانت دقيقة إلى حد مبرر لاستخدامها. ولم تستخدم هذه العلامات حين كان المصدر غير متوثق من الكلمات الصحيحة أو حين يكون التوثيق غير واضح.

حاولت الحفاظ على لغة الشخصيات الرئيسة والمصادر المهمة كما هي بقدر الإمكان، واستخدمت كلماتهم حتى حين لا يستشهدون بها مباشرة؛ لكي تعبر عن سمة كلامهم ونكهته المميزة إلى أقصى حد ممكن.

لا يمكن لأي مراسل أن يعيد رواية الأحداث التي مرت عليها شهور أو حتى سنوات بنسبة 100% من الدقة. فالذاكرة البشرية غير معصومة عن الزلل والخطأ، وكثيراً ما يبدو الماضي مختلفاً حين نراه من منظور الحاضر. وعبر التوثق من عديد من المصادر ومقارنة رواياتهم بالسجلات المكتوبة، حاولت تقديم رواية وصفية دقيقة وصحيحة بقدر الإمكان.

أدرك أن هذا الكتاب أكثر دقة من سابقه في رواية التاريخ؛ لأنه يقدم استقصاء متعمقاً للمداولات التي أدت إلى زيادة عدد القوات في العراق. لقد حاولت، كما فعلت دوماً، الحصول على أفضل نسخة متاحة عن الحقيقة.

كلمة شكر

مع أن هذا الكتاب اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً على ما قمت به من دراسة وبحث واستقصاء للوثائق، إلا أني أعبر عن شكري العميق لهؤلاء الصحفيين الذين تابعوا حرب العراق ونقلوا أخبارها. فما قدموه من معارف ومعلومات كوّن ركيزة لا غنى عنها للكتاب.

في عام 2007، توصل «مشروع الامتياز في الصحافة» إلى نتيجة مفادها أن حرب العراق أصبحت واحدة من أخطر الحروب في التاريخي الأمريكي على المراسلين، ووثقت «لجنة حماية الصحفيين» مقتل أكثر من مئة وخمسة وعشرين مراسلاً يؤدون واجبهم في العراق. ندين لهؤلاء بالفضل ولن نستطيع رد جميلهم.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى «المصادر» كلهم، الذين تحلوا بالصبر وتحملوا عناء المقابلات الطويلة والجلسات العديدة لتزويدي بالوثائق الرسمية والشخصية. وبغض النظر هل ذكرت أسماءهم أم لا، فإني أقدر استعدادهم لركوب المخاطرة الكامنة في المشاركة في مشروع كهذا، خصوصاً حين يتعلق بحرب خلافية في سنة الانتخابات. فمن الشجاعة بمكان السماح لمراقب «خارجي» بالدخول، وآمل أن يشعر المؤرخون الذين سيدرسون حرب العراق في المستقبل والأحداث العاصفة المحيطة بها، بالشكر والتقدير لإسهام هؤلاء.

عملت مع أليس مايهيو المحررة في دار سايمون أند شوستر طوال ست وثلاثين سنة نشرت في أثنائها أربعة عشر كتاباً. وانهمكتْ في هذا المشروع بالقدر ذاته من الحماس والتركيز والانتباه للتفاصيل، كحالها عام 1972، حين بدأت أنا وكارل بيرنستاين العمل معها على كتاب «رجال الرئيس كلهم». ظلت أليس على الدوام معيناً لا ينضب للطاقة

والأفكار، ورمزاً للنزاهة التي لا تتزعزع، والبحث الدؤوب عن أوضح منظور ممكن للأحداث كما وقعت. أدركت بسرعة أن روح هذا الكتاب تكمن في طبيعته الحرفية، حيث استمدت مادته كلها من الوثائق والأشخاص المعنيين بطريقة مباشرة. وهي تعي مثلي حجم عملية صنع القرار الموثقة في هذه الصفحات، إضافة إلى الاعتقاد المشترك بضرورة النزاهة والموضوعية في رواية الأحداث وضمان إتاحة الفرصة للمعنيين كلهم بالتعبير عن رأيهم.

يدير ديفيد روزنتال وكارولين ريدي أفضل دار نشر في أمريكا: سايمون أند شوستر. فهما من المديرين الذين يهتمون بعملهم وكتبهم اهتماماً شخصياً، ويظهرون التزاماً عنيداً بالتعديل الأول من الدستور إلى حد كان سيجعل توماس جيفرسون يشعر بالارتياح والثقة. أما روجر لاربي فيتميز بالجد والدأب والانتباه لأدق التفاصيل، وتلك سمات جعلته معلماً لا يجارى في مجال التحرير والتدقيق والتصحيح القائم على التفكير الحصيف. أدين بالشكر الجزيل إلى المديرين والمسؤولين والعاملين في دار سايمون أند شوستر كلهم، وأخص بالذكر: إليسا ريفلين، وفيكتوريا ماير، وتريسي غيست، وجاكي شو، وإيرين كيرادي، ومايكل زيربان، وكارين تومبسون، وبول ديبوليتو، وليزا هيلي، ونانسي إنغليس، ولين أندرسون، وجون واهلر.

نقدر، أنا وبرادي دينيس وإيفلين دوفي، تقديراً عميقاً جهد مصحح التجارب الطباعية فريد تشيس، الذي ترك أسرته ومنزله في تكساس ليسافر إلى واشنطن ويعمل على كتابه الخامس معي. أمتعنا وجوده بيننا، وكان جزءاً لا يتجزأ من هذا الكتاب. تميز كعهده دوماً بحرفيته ومهارته، وأثبتت ملحوظاته ورُؤاه وأحكامه السديدة أن التحرير يتجاوز بمراحل العلامات التي توضع على الصفحات.

قبل ثماني سنين، ذكرت في كتابي «مايسترو»، الذي تحدثت فيه عن ألان غريسبان والاحتياطي الفيدرالي، أن صحيفة واشنطن بوست قد أتاحت لي أكبر قدر من الحرية في تاريخ الصحافة الأمريكية. توسعت تلك الحرية بمرور الوقت، وأعبر عن الفضل والشكر الجزيل للصحيفة. وما تزال واشنطن بوست مستمرة في لعب دور محوري ولا غنى عنه في السياسة والحياة في واشنطن. دون غراهام، المدير التنفيذي في الصحيفة، إنسان

طيب النفس رقيق الطبع ورجل أعمال أريب، وفي بحث دائم عن المهمشين والمستضعفين والمغلوبين على أمرهم، وهو صوت من لا صوت لهم. مدير فريد لا يضاهيه أحد في سخائه وكرمه وتعاطفه. أما ليونارد داوني، مدير التحرير التنفيذي في الصحيفة، وأفضل رجل صحافة في أمريكا، فهو على وشك التقاعد بعد حياة مهنية مشهودة واستثنائية. فجوائز بوليتزر الخمس والعشرون التي حصلت عليها الصحيفة في أثناء عمله فيها تعد شهادة دامغة على عزمه وتصميمه ومهارته. في حين تظهر ناشرة الصحيفة، كاثرين ويموث، جميع دلائل الالتزام بالاستقلالية والصحافة الجريئة التي تقاسمتها مع خالها دون غراهام، وجدّتها كاثرين غراهام.

أعبر عن شكر خاص لستيف لوكسنبيرغ على تكريس وقته، وتركيز جهده، وذكائه اللماح حين ساعدني على إرسال مقتطفات من هذا الكتاب إلى صحيفة واشنطن بوست.

لقد زودني عمل عدد من مراسلي واشنطن بوست، الذين تابعوا أخبار الحرب من العراق وواشنطن، بكثير من الرؤى الثاقبة. يشمل العدد (لكن لا يقتصر على): راجيف تشاندراسيكاران، وجون وارد أندرسون، وآن سكون تايسون، وكارين دي يونغ، وجوش وايت، وجوشوا بارتلو، وناصر نوري، وتوماس كيكس، وآن هول، وآميت بالي، وسودارسان راغافان، ومايكل أبراموفيتز، وبيتر بيكر، وإلين نيكماير، وجوناثان وايزمان. وقدم لي كثير من الزملاء المساعدة والتشجيع، عبر تغطية يومية وعبر تقاسم المشورة والأفكار. ومن هؤلاء: آل كامين، وسوزان غلاسر، وديفيد إغناتيوس، ودانا بريست، وغلين كيسلر، وديفيد هوفمان، وجوبي واريك، وريك أتكينسون.

الشكر كل الشكر أيضاً لميشيل دو سيلي ووندي غاليتا في صحيفة واشنطن بوست على المساعدة الحرفية الماهرة فيما يتعلق بالصور التي يضمها الكتاب، وإلى لاريس كاركليس على الخريطة.

أتوجه بالشكر إلى كارل بيرنستاين، الذي جمعتني به صداقة امتدت ستة وثلاثين عاماً. فقد كان مطلعاً على كل ما يحدث في السياسة الأمريكية، وقدم لي كثيراً من

الأفكار والتحليلات الثاقبة عن بوش والحرب. وما زالت رابطة الصداقة والزمالة تجمعنا على مدى العمر.

أشكر من الأعماق بن برادلي، الذي رفع معيار الأداء لنا جميعاً، ويبقى واحداً من الآباء المؤسسين لصحيفة واشنطن بوست.

لا يمكن لعمل بهذا الحجم والمدى أن تجمع مادته من فراغ. وأدين بالفضل لكثير من الكتب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات التي أضافت خلفية أو تفاصيل مهمة لعملي. لقد اعتمدت على التقارير الممتازة والتحليلات المتعمقة لعشرات المؤسسات الصحفية، ومنها نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، لوس أنجلوس تايمز، نيوزويك، أسوشييتدبرس. وتعد الكتب الآتية مراجع مفيدة:

The Iraq Study Group Report by James Baker, Lee Hamilton, et al.; In the Company of Soldiers by Rick Atkinson; The U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual; Fiasco by Thomas Ricks; Dead Certain: The Presidency of George W. Bush by Robert Draper; Cheney: The Untold Story s Most Powerful and Controversial Vice President by Stephen F.طof America Hayes; Condoleezza Rice: An American Life by Elisabeth Bumiller; and From the Shadows by Robert Gates.

وجدت أيضاً موقع معهد دراسات الحرب على الويب (www.understandingwar.org) وموقع (www.smallwarsjournal.com) مفيدين كثيراً.

يعد روبرت بارنيت، وكيلي ومحاميّ وصديقي، مؤسسة في واشنطن. إذا لا يضاهيه أحد في صلاته ومعارفه وحكمته. ولأنه يمثل سياسيين بارزين من الحزبين كليهما، منهم السناتور هيلاري كلينتون، والسيناتور باراك أوباما، لم أستشره حول محتوى هذا الكتاب ولم يشاهد الكتاب حتى طبع. الشكر كل الشكر لبراندان سوليفان، صخرة مهنة المحاماة، على تقديم نصيحته المهمة.

نشعر، أنا وبرادي وإيفلين، بالشكر والفضل لوجود روزا كريولو وجاكي كراون بيننا. فقد قدمت كل منهما المشورة والنصح، وساعدت على لحمة العمل وتماسكه عبر ألف طريقة وطريقة.

أمضت ابنتي الكبرى، تالي، أسبوعين اثنين في قراءة المخطوط، وقدمت كثيراً من الرؤى المهمة. تالي شابة بارعة وذكية، وكشف ما أجرته من تصحيحات وما قدمته من اقتراحات عن قدرة وتصميم على جعل تعقيدات الأمن القومي التي ناقشها الكتاب سهلة وميسرة ومتاحة لأكبر عدد ممكن من القراء. أما ابنتي الصغرى، ديانا، فقد نجحت في الصف الخامس وأمتعتنا بدعاباتها على مدى ساعات لا تعد ولا تحصى.

تميزت زوجتي، إلسا والش، بقدرة لا تصدق على تحمل ساعات العمل على جمع مادة كتاب بهذا الحجم. فهي مرساة الهدوء والسكينة في حياتي، ولم تكل من الإجابة عن الأسئلة، وحل المجادلات. وهي رمز الشراكة في الحب والحياة والعمل.

أخيراً، حين كنت أعمل أنا وبرادي وإيفلين على هذا الكتاب في مكتبي في الطابق الثالث من بيتي في واشنطن، كثيراً ما عادت أفكارنا إلى الآلاف المؤلفة من إخواننا المواطنين الذين تطوعوا لخدمة وطنهم. وألّف كل منا رابطة دائمة مع كل واحد من هؤلاء الرجال والنساء. وتبين لنا أن النموذج الذي جسدوه يدعونا إلى التواضع والرهبة أمامهم وأمام أسرهم.

في شهر تشرين الثاني 2006، أخذني صديقي ريك أتكينسون إلى مقبرة آرلينغتون الوطنية. وزرنا القسم رقم 60، حيث يدفن الجنود الذين يقتلون في أفغانستان والعراق. وجدنا في «الفدان الأشد إثارة للحزن في أمريكا» كما دعاه أتكينسون، صفوفاً جديدة من القبور تضاف واحداً إثر الآخر. في ذلك اليوم، التقينا بتيريزا آركيولا، التي قتل ابنها في العراق ولمّا يبلغ العشرين. أحضرت معها كتابه المفضل في طفولته، وقرأت منه جهراً أمام ضريحه. ثم طلبت مني طلبها البسيط ذاته من كل من تحكي له قصة ابنها: «تذكره... واحترمه... وافتخر به».

مع وصول العنف في العراق إلى مستويات مقلقة عام ٢٠٠٦، اشتعلت جبهة حرب ثانية على أعلى مستويات إدارة بوش. يأخذ بوب ودوارد قراءه، في كتابه الرابع عن الرئيس جورج بوش، إلى عمق التوترات، والمجادلات السرية، والقنوات الخلفية غير الرسمية، ومشاعر الشك والريبة، والمواقف المصممة العنيدة داخل البيت الأبيض، ووزارة الدفاع (البنتاغون)، ووزارة الخارجية، ووكالات الاستخبارات، ومقر القيادة العسكرية الأمريكية في العراق. تصف هذه الرواية المثيرة، الفريدة في حميميتها وتفاصيلها، لرئيس يخوض الحرب، حقبةً من الهم والغم والغموض وعدم اليقين داخل الحكومة الأمريكية امتدت من عام ٢٠٠٦ إلى منتصف عام ٢٠٠٨.

ويقدم الكتاب وصفاً شاملاً للجهود الحثيثة التي بذلها الجنرال ديفيد بترايوس وما واجهه من صعوبات وصراعات، وهو الذي تولى القيادة في أثناء أحلك حقبة في الحرب وأشدها عنفاً. ويكشف كيف كانت الاختراقات التي تحققت في العمليات الحربية والرصد والمراقبة السبب وراء معظم التقدم المنجز، وذلك مع انحسار موجة العنف في العراق في منتصف عام ٢٠٠٧. التقى بوب ودوارد باللاعبين المهمين كلهم، وحصل على عشرات من الوثائق التي لم تنشر من قبل، وأمضى مدة ثلاث ساعات تقريباً في مقابلات حصرية مع الرئيس بوش. أما النتيجة فكانت سرداً تاريخياً مدهشاً استُخلص من المصادر الأصلية للحقبة الممتدة بين منتصف عام ٢٠٠٦، حين أدرك البيت الأبيض أن الإستراتيجية لا تعمل بنجاح، مروراً بعام ٢٠٠٧، حين صدر قرار بإرسال ثلاثين ألف جندي إضافي إلى العراق، حتى منتصف عام ٢٠٠٨، حين أصبحت الحرب صدعاً ونقطة ضعف في الانتخابات الرئاسية. يتصدى كتاب (الحرب الداخلية) بطريقة مباشرة للأسئلة المتعلقة بالقيادة، لا في زمن الحرب فقط، بل فيما يتصل بالأسلوب الذي نُحكم عبره والأخطار الكامنة في السرية غير المبررة.

يعمل بوب ودوارد مساعداً لرئيس التحرير في صحيفة واشنطن بوست منذ أكثر من سبعة وثلاثين عاماً. نال (بالمشاركة) اثنتين من جوائز البوليتزر: أولاهما على كشف الصحيفة لفضيحة ووترغيت، والثانية على متابعته لهجمات الحادي عشر من أيلول الإرهابية. ألّف وشارك في تأليف أحد عشر من الكتب التي اعتلت قائمة أفضل الكتب غير الروائية مبيعاً، منها ثلاثة عن إدارة بوش: (بوش محارباً) (٢٠٠٢)، و(خطة الهجوم) (٢٠٠٤)، و(حالة إنكار) (٢٠٠٦). ودوارد متزوج من الكاتبة إلسا والش، وله ابنتان –تالي وديانا– ويقيم في واشنطن.


ISBN: 978-603-503-109-7

موضوع الكتاب: الولايات المتحدة - الأحوال السياسية

موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbookshop.com